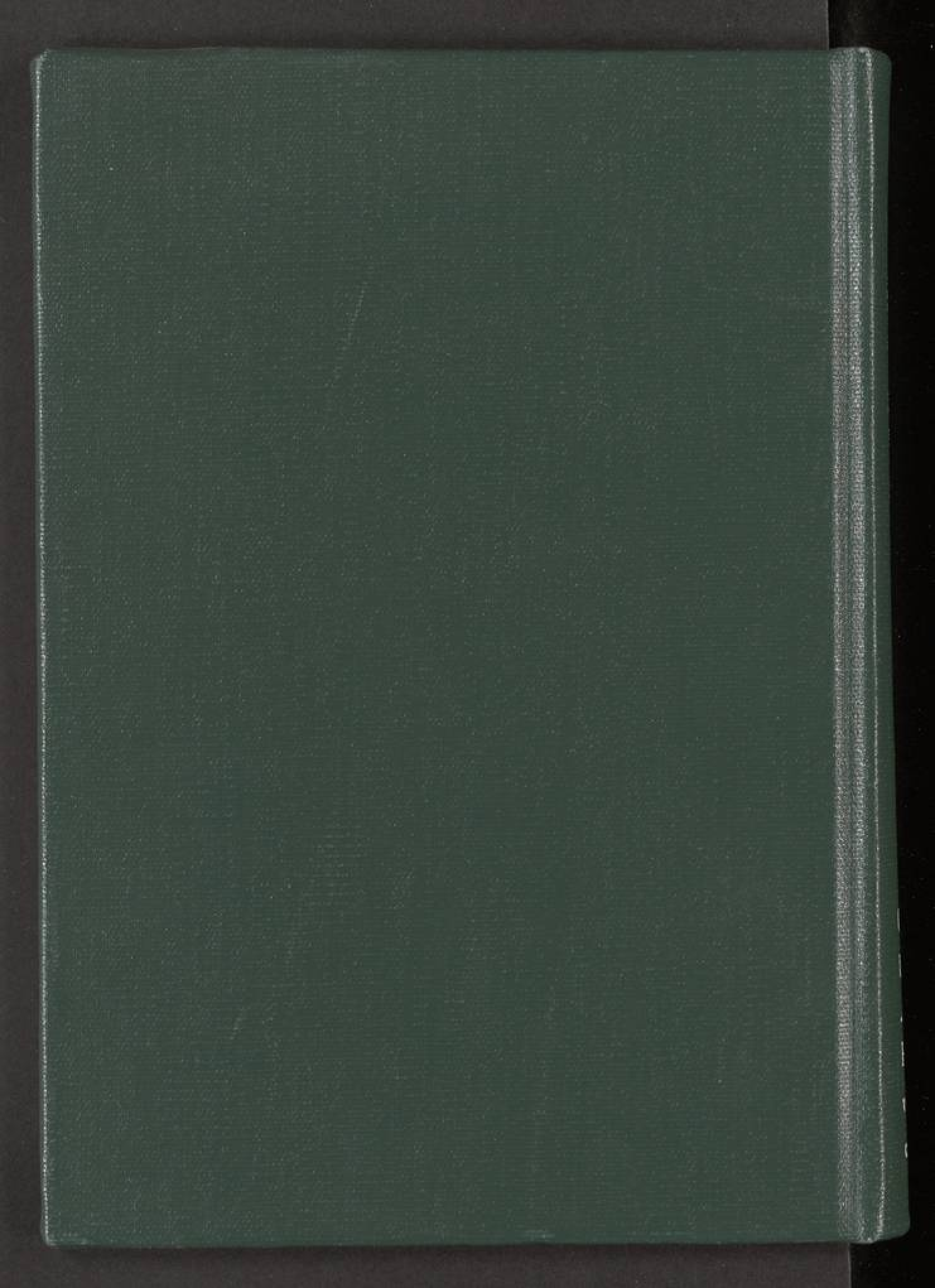
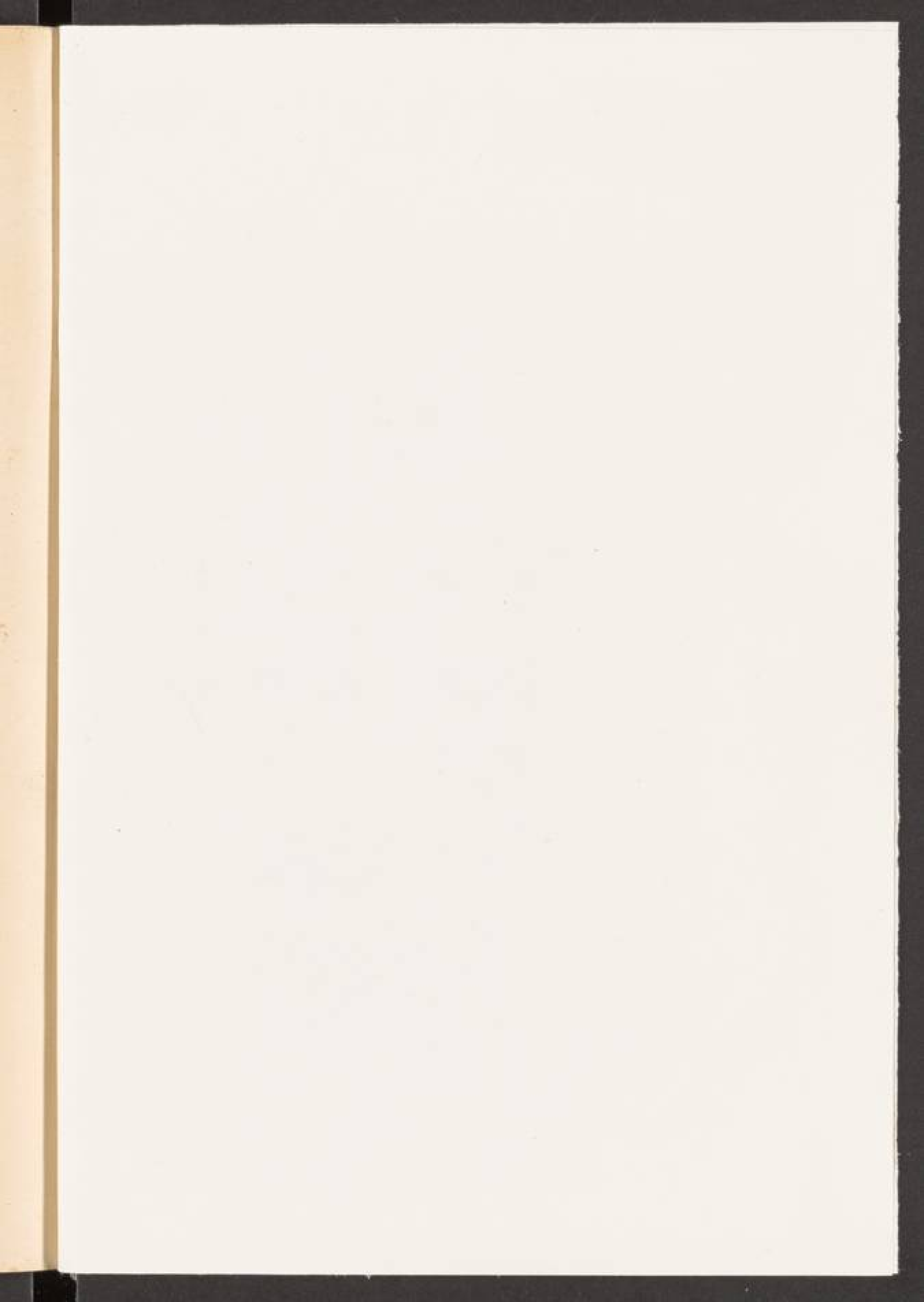










To Mr. Crawford
with best souvenirs of Damascus
30/11/54 Geo. Haddad

المدخل

إلى

تاريخ الحضارة

الدكتور

جورج حداد

استاذ التاريخ في الجامعة السورية

مطبعة الجامعة السورية

١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م

المقدمة

يسر المؤلف أن يتابع في هـذا الكتاب ما بدأ به في الجزء الاول من كتابه « المدخل الى تاريخ الحضارة » حيث أتى على قصة الحضارة وتفاعلاتها ومآثرها في بلاد الشرق القديم وفي العالم اليوناني والروماني . وهو يقدم هذا الجزء الثاني من محاضراته في السنة الاولى من كلية الآداب بالجامعة السورية ويمهد له بحث شروط الحضارة ومظاهرها ومصادرها بوجه الاجمال كما وردت في الجزء الاول من الكتاب مع بعض التنقيحات والاضافات التي وجدها ضرورية. وهو يتبع نفس الاسلوب الذي اتبعـه في الجزء الاول حيث اهتم ليس بتراث الحضارات المختلفة فحسب بل بتأثيراتها المتبادلة ، وبتفاعلاتها وارتباطها زمنياً وجغرافياً أو عامودياً وأفقياً بين عصر وعصر ، وبين شعب وشعب . كذلك يهتم المؤلف بتأثير نواحي الحضارة بعضها على بعض بحيث يتضح التأثير المتبادل بين النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية في حضارات الامم المختلفة والسلام .

دمشق في ٦ كانون الاول ١٩٥٢ — جورج حداد

الباب الأول

الحضارة : شروطها ، مظاهرها ، مصادرها

الفصل الأول

تمهيد

التاريخ : اهدافه ، اساليبه ، قيمته التربوية

الاهداف : تتشابه أهداف التاريخ وأهداف الدراسة الجامعية في أن أهدافها الرئيسية هي البحث عن الحقيقة . فمهمة الجامعة هي انشاء طائفة من العادات الفكرية والاخلاقية التي أحداها هي البحث عن الحقيقة . ومهمة البحث التاريخي هي ايجاد الحقيقة مع الابتعاد عن التحيز او التغرض . والنزعة العلمية التي يجب ان ينزع اليها الطالب الجامعي – وهذا ما يميزه عن سواد الناس وانصاف المتعلمين – من اركانها الاحاطة بمختلف جوانب الموضوع والاطلاع على مختلف وجهات النظر

لتسهيل الوقوف على الحقيقة او على الاقل الابتعاد عن التحيز والتغرض ، وهذه النزعة بعينها يجب ان ينزع اليها المؤرخ والقائم بأبحاث تاريخية .

ومهما اختلفت النظريات في مهمة التاريخ كعلم ، فان النظريات كلها تتفق في نقطة رئيسية وهي أن مهمة المؤرخ هي كشف النقاب عن ماضي البشرية ووصف حقيقة حياة البشر في جميع أنواعها ووجوهها ، وتتبع تطورها من أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر . فالتاريخ هو عبارة عن بعث كما قال ميشليه : Michelet L'histoire est une résurrection . ومصدر الاهتمام بالتاريخ هو تلك الميزة في طبيعة الانسان التي أوجدت سائر العلوم أي رغبة البشر في المعرفة . وهدف هذه المعرفة هو العالم باسره وخاصة الانسان . ورغبتنا الغريزية في معرفة ماضينا وماضي العالم تلعب دوراً هاما في رغبة الانسان في معرفة العالم والعوامل التي تعمل في الطبيعة وفي الحياة البشرية . ومنذ أقدم العصور حاول الانسان ان يسجل الحوادث البارزة في حياته وحياة أسرته وقبيلته وبلاده وفي حياة البشرية بوجه عام .

ولكن هذه الرغبة الطبيعية في التعلم والمعرفة او ما نسميه بلذة المعرفة ترافقها بعض اعتبارات عملية . فالانسان يتعلم بالاختبار ، والاختبار موجود في الماضي . والكثير من حقوقنا ومطاليبنا مبني على حوادث حصلت في الماضي . وبكلام آخر فان التاريخ عبرة . وهو الى ذلك يفيدنا في فهم الحاضر كما يفيد الطبيب سؤاله عن ماضي المريض وسير المرض قبل تشخيص المرض والبدء بالمعالجة . ذلك لان اصول الحاضر بمشكلاته السياسية ونظمه الاقتصادية والاجتماعية وبمختلف مظاهره موجودة في الماضي . ولهذا السبب قال الشاعر :

من لم يعِ التاريخ في صدره | لم يدرِ حلو العيش من مره
ومن وعى أخبار من قد مضى | أضاف أعماراً الى عمره

وكذلك قال ابن خلدون في مقدمته « أما بعد فان فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الامم والاجيال وتشد اليه الركائب والرحال وتسمو الى

معرفته السوقة والاغفال وتتنافس فيه الملوك والاقيال وتتساوى في فهمه العلماء والجهال ، اذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار من الايام والدول والسوابق من القرون الاول ، تنمو فيها الاقوال وتضرب فيها الامثال وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال واتسع للدول فيها النطاق والمجال وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال ، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق وجدير بان يعد في علومها وخليق [١] ... »

والتاريخ يعطينا مفتاح الحاضر ويمكننا أن نتطلع الى المستقبل بشيء من العلم . وهو ضروري لصحة تفكيرنا ، فبدلاً من التأكد المطلق يجعلنا حذرين او كما قال Halphen فهو مدرسة عجيبة للحذر [٢] (L'histoire est une merveilleuse école de prudeuce) اذ هو يضع حاجز الوقائع امام الذين يندفعون باعمالهم وتفكيرهم ، ويذكر الذين يظنون ان عندهم الدواء الشافي لشروط المجتمع بانه قبل أن يصفوا الدواء عليهم أن يفحصوا المريض ويتعرفوا الى سوابقه . وبالاختصار فهو يعلم الحياة في تعقدها واعوجاجاتها طالما أن ميدانه هو دراسة الماضي البشري في كل تنوعه . ومن فوائد التاريخ أنه يعودنا على تنوع النماذج البشرية بدلاً من أن نقيس كل شيء بمقياسنا ونقتنع بان اسلوب حياتنا وتفكيرنا هو الاحسن. والتاريخ يعلمنا التمشي الى الامام بصورة دائمة. هذا هو التاريخ الحقيقي غير أن هنالك كتباً كثيرة اعتبرها مؤلفوها كتب تاريخ وليست بكتب تاريخ حقيقية . وهذا ما أوجد تشويشاً ليس التاريخ بمسؤول عنه ، انما لا شك انه يؤثر تأثيراً سيئاً على التاريخ .

---

(١) مقدمة ابن خلدون . طبعة ثانية — بيروت ، ١٩٠٠ ص ٣ .

(٢) L. Halphen, Introduction à l'histoire (Paris, 1948) p.3

الاساليب : وبالنظر لهذه الفوائد فقد بدأت الرغبة في تسجيل حوادث الماضي وحفظها خوفاً من احتمال نسيانها. فذاكرة الانسان ضعيفة وخياله خصب، والحوادث قد تنسى ويطغي عليها الخيال ، ولذلك فانه كثيراً ما تخذ حوادث التاريخ شكل قصص خرافية وأساطير وتمتزج باعتقاد الانسان بسلطات عليا تدير شؤون حياته. وحالما تمكن الانسان من اختراع طريقة لحفظ حوادث حياته بصورة كتابية اصبح بالامكان للمرة الاولى تدوين جميع ماحصل من أحداث وهكذا بدأت المرويات التاريخية المكتوبة . وعندما تقدمت الحضارة وتطورت ازدادت عناية الانسان بماضيه وتجمعت لديه حقائق معروفة عن هذا الماضي واخترعت الوسائل والاساليب لوضع هذه المعلومات بعضها بجانب بعض وجمعها في رواية متسلسلة تتعلق بجماعات معينة من البشر ، او بالبشر بوجه الاجمال . وكما حصل في سائر العلوم والمعارف فان المعلومات والملاحظات المتفرقة المجتمعة بصورة مشوشة قد رتبت ونظمت وذلك على أثر سلسلة من العمليات التي كان هدفها الاجابة على السؤالين التاليين : ماهي القوانين التي تؤثر في حياة الانسان وتسيطر عليه ؟ وهل يمكن ان تعرف هذه القوانين من حقائق التاريخ ، واذا عرفناها فهل يمكن فهم الماضي بواسطتها والتنبؤ عن المستقبل ؟

اخترع الانسان أساليب كثيرة ليعلم شيئاً عن ماضيه ، فواجب التاريخ الاول هو جمع الحقائق عن ذلك الماضي . والحوادث التي اهتم بها الانسان كان يسجلها فوراً وقت حدوثها ، او أحياناً كان يسجلها بصورة أقل ضبطاً فيما بعد مستعيناً بذاكرته ، ولكن الشيء الكثير لم يسجل انما كان يظهر باشكال مختلفة في مظاهر حياة الانسان الداخلية والخارجية ولذلك فان مهمة المؤرخ أصبحت ان يجمع ليس فقط الآثار المكتوبة لماضي الانسان وانما الآثار المادية لحياته في أدوار تطوره المختلفة. فلأجل الغرض الاول جمعت وثائق الماضي المكتوبة كلها او ما توفر منها في دور المحفوظات والمكاتب والمتاحف . وقد قرأت هذه والمهم منها نشر وأصبحت مادة

التاريخ وهيكله العظمي بمعنى أنه وجدت سلسلة حقائق سجلها الانسان كتابة .
ولكن لكي يتم المؤرخ عمله في الانتفاع من هذه الوثائق المكتوبة عليه ان يستعين بعلوم أخرى . فمن جهة عليه ان يكون عالماً في اللغة وفقهها (في العلم الذي يسميه الافرنج فيلولوجيا Philology) لضرورة اطلاعه على اللغات التي كتبت بها الوثائق وتطور هذه اللغات التدريجي اي الشكل الذي اتخذته في عصور مختلفة من حياة مختلف الامم . ثم بما ان الرموز التي استعملت للدلالة على الاصوات والمقاطع والكلمات في اللغة ليست متشابهة في جميع اللغات مما اوجد اساليب مختلفة للكتابة ، فقد وجب على المؤرخ ان يكون عالماً بالخطوط (وهذا العلم الذي عرفه الافرنج باسم باليوغرافي Paleography) أي انه يجب ان يعرف تطور هذه الكتابات وصفاتها في ازمنة مختلفة .

ثم هنالك بقايا تاريخ الانسان غير المكتوبة وتدل على تدرجه وتقدمه في الحضارة. فهذه يدرسها جماعة مختصون يسمون بالاثريين او علماء الآثار (والكلمة الافرنجية « اركيولوجي Archaeology » تعني حسب اصلها اليوناني علم الاشياء القديمة) ونتائج هذه الدراسة الاثرية واساليبها يجب ان يطلع عليها المؤرخ لان كثيراً من ادوار حياة الانسان لم تترك لنا بقايا مكتوبة . فاقدم الرموز الكتابية اخترعت بعد ٤٠٠٠ ق.م بينما حياة الانسان على الارض تعود الى عشرات آلاف السنين وكذلك فقد تأخرت شعوب اوربا عن شعوب الشرق في استعمال الكتابة واقدم بقايا مكتوبة تركها اليونان ــ وهم اصحاب اقدم حضارة في أوربا ــ تعود الى نحو القرن الثامن ق.م. ولذلك فانه في الحقبة التي سبقت اختراع الكتابة يجب الاطلاع على حياة الانسان المادية والروحية بطريقة واحدة وهي جمع البقايا التي تركها في خرائب مساكنه وقبوره ودرسها . وهذه الحقبة في حياة البشر تسمى عصر ما قبل التاريخ .

عندما يجمع المؤرخ الحقائق المتعلقة بحياة هذه الأمة او تلك ويريد ان يستعملها لكتابته عن الماضي فانه يجب عليه قبل كل شيء ان يقرر تتابع الحوادث ويبين ايها كانت قبل الاخرى ، أي انه يجب ان يقرر تاريخها النسبي Relative)

chronology) ، ثم بعد ذلك يقرر بدقة اكثر الوقت الذي حصلت فيه الحوادث والمدة التي تفصلها عن عصره وهذا ما يسمى بتقرير التاريخ المطلق Absolute) chronology) . ولاجل ذلك عليه ان يدرس ويتقن اساليب حساب الوقت التي استعملها الانسان في اماكن وعصور مختلفة ، اذ هذه الاساليب متنوعة ومعقدة ، وكلها حتى التي نستعملها الآن ليست كاملة . ولذلك فان من مشاكل المؤرخ الاساسية ان يتمكن من ان يحسب بالضبط او بوجـه التقريب بسلسلة ملاحظات ومقارنات تاريخ حادث او عصر معين في حياة الشعوب .

ولاجل فهم حوادث التاريخ وتقدير أهميتها فانه لا يكفي ان نعلم ماحدث ومتى حدث ، وانما يجب ان نعلم اين حدث ، اي انه يجب ربط الحادث بمكان معين ومعرفة الصفات الخاصة لذلك المـكان . فلا يكفي ان نعلم عن الانسان واسلوب حياته فقط ، وانما يجب ايضاً ان نعلم مجال نشاطه وحيويته وذلك يتضمن معرفة شروط حياته في اماكن مختلفة وفي أدوار مختلفة من وجوده . ودراسة الارض باجزائها المختلفة واختلافاتها الطبيعية والاقليمية والحيوانية النباتية هي مهمة العالم الجغرافي ، انما على المؤرخ ان يحيط علماً ليس بحالة الارض الحـاضرة فحسب ، وانما بتغيراتها وتاريخها ، والتغيرات في توزع البشر على الارض وموطن هـذا الشعب او ذاك ، والمراكز الرئيسية لحياة مختلف الامم والممالك . فتاريخ الارض تنبئنا عنه الجغرافية الطبيعية وعلم الطبقات (الجيولوجيا) ، بينما الجغرافية التاريخية تدرس تطور علاقة الانسان بالارض التي يسكنها ، واما آثار الـكائنات الحية فان علم المستحاثات يدرسه (ويسميه الافرنج علم الباليونتولوجيا Paleontology وبمعناه الاغريقي الحرفي هو علم الـكائنات القديمة) . وانتساب الانسان الى هذه القبيلة او تلك ، او الى هذا العرق او ذاك له أهميته في التاريخ البشري . فالقبائل والعروق تختلف بعضها عن بعض بمزايا طبيعية وبالعادات واللغات . ووصف هذه الاختلافات وشرحها من عمل علم الانسان (المسمى عند الافرنج الانثروبولوجيا Anthropology) الذي يدرس الانسان كقسم من العالم الحيواني في تطوره التاريخي ، ولهـذا العلم اتصال

بعاملين آخرين هما اولاً علم الاجناس (Ethnology) وعلم اللغات المقارن (Com-parative philology) . وعلى المؤرخ ان يحيط علماً باساليب هذه العلوم وباستنتاجاتها .

والحقائق التي يجمعها المؤرخ ويرتبها حسب الزمان والمكان والشعوب المتعلقة بها تكون فقط الهيكل العظمي للتاريخ لان هذه الحقائق وخاصة ما ينتقل منها عن طريق الكتابة او الرواية الشفهية تحتاج الى تحقيق . ولولا هذا التحقيق لكان يصدق قول فنيلون الافرنسي وقول الشاعر العربي حين قال :

فما كتب التاريخ في كل ماروت لقرائها إلا حديث ملفق

نظرنا لامر الحاضرين فرابنا فكيف بامر الغابرين نصدق

وفي البيت الثاني اشارة الى القاعدة التي يرتكز عليها علم التاريخ وهي الشك اذ ان علماء التاريخ قالوا « شك المؤرخ رائد حكمته » ، وقالوا أيضاً « الاصل في التاريخ الاتهام لا براءة الذمة » .وقد ذكرنا ان الانسان يميل من جهة الى تعلم الحقيقة ولكنه كذلك يميل الى تشويه هذه الحقيقة عن قصد او غير قصد . فميل الانسان الى الابداع الشعري وخصب خياله يحمله على رواية الحقائق احياناً بحيث لايعود يمكن معرفتها ، وهو يملأ الفراغات عندما يكون جاهلاً ببعض الحوادث او بغير ما يعرفه . وهو يمزج التعاليم الدينية والخرافية بالحوادث الواقعية . فالخرافة والاسطورة لا تنفصل عن التاريخ وحتى في زمننا فانها تنمو حول الحوادث التاريخية الكبرى او حول شخصيات التاريخ العظمى . وبقطع النظر عن ذلك فان الحقائق احياناً تشوه عن عمد ولاسباب مختلفة — فاما لفائدة مادية ، او محاولة الدفاع عن سمعة الراوي أو اصدقائه ، او الميل لدعم وجهة نظر خاصة او نظرية سياسية معينة . واثر الوطنية كبير في هذه الناحية اذ يرغب الكاتب أن يبرهن بان امته هي أعظم الامم وأنها دائماً على صواب واعداؤها على خطأ . ويجب دائماً أن نفكر بان حوادث التاريخ لم تسجلها الآلات وانما سجلها البشر وهم أشخاص لهم صفاتهم الخاصة ، وقليلون منهم خلوا من التغرض اثناء تسجيل الحوادث التي كانت تمسهم

بشكل من الاشكال . وقد فطن ابن خلدون فقال في مقدمته « وان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا أخبار الايام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر واودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها ، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الاثار الكثير من بعدهم واتبعوها وادوها الينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها ، فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل ، والتقليد عريق في الآدميين وسليل ، والتطفل على الفنون عريض طويل ، ومرعى الجهل بين الانام وخيم وبيل ، والحق لا يقاوم سلطانه ، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه ، والناقل انما هو يملي وينقل ، والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل . . »[١] .

وعلى هذا فان على المؤرخ وهو يجمع الحقائق ان يحقق فيها ويقتنع بانها صحيحة . وهذه العملية معقدة وصعبة تحتاج الى حذر شديد ومعرفة بأساليب التحقيق المختلفة ، وهذا القسم من عمل المؤرخ نسميه بالنقد التاريخي .

بعد ان يجمع المؤرخ الحقائق ويحقق فيها يبدأ بعرضها . ولكن بينما ترقت وتكاملت أساليب معالجة الحقائق بجمعها وفهمها وتأريخها وتحقيقها فقد نشأت نظرية مختلفة عن واجب المؤرخ وغرضه من اتعابه هـذه كلها . فالحقائق التاريخية كثيرة لا يحصى عددها وهي تتعلق بمختلف نواحي الحياة البشرية وفروعها فأي هذه الحقائق اكثر قيمة وأهمية ؟ وأي النواحي من الحياة تستحق الدرس اكثر من غيرها ؟ لقد كان التاريخ لمدة طويلة تاريخاً سياسياً بالدرجة الاولى ، وكانت المرويات التاريخية تقتصر على وصف اهم الازمات في الحوادث السياسية أو على وصف الحروب وكبار القواد . على انه منذ العصر اليوناني اتضح انه اذا كانت هذه الحقائق — اي حوادث التاريخ السياسي والحربي — مهمة فان معرفة أسباب هذه الحوادث وعلاقتها بعضها ببعض

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤ .

وبسائر الاحداث في حياة الجماعات هو اكثر اهمية . وقد اتضح ان الحروب بالرغم من الاثر البعيد الذي تتركه ليست سوى ناحية واحدة في حياة الانسان وانها ليست أهمها ، وان اصل الحروب وما جرياتها متصلة اتصالاً وثيقـاً بتطور الحياة والحضارة الاقتصادية والاجتماعية والدينية . ومن هذه الناحية لم تصبح السياسة والحروب أقل لذة وأهمية في تاريخ الجماعات البشرية ، ولكن عيون البشر تفتحت الى الاهمية القصوى لدراسة أحوال التطور البشري في الفترات التي لم تحصل فيها حروب ، ومن جهة أخرى فان التفكير الوافي في الاحداث التاريخية أظهر أهمية الشخصية في تاريخ التطور البشري ولذلك فالمؤرخ يحاول أن يفسر نفسية الشخصيات البارزة في التاريخ ويلقي ضوءاً على اخلاقهم والظروف التي اوجدتهم . ثم بدت حقيقة أخرى وهي انه إذا كانت نفسية الافراد لها تأثير هام على مجرى تطور التاريخ ، فالتاريخ تؤثر عليه بنفس الدرجة ، وربما لدرجـة أبعد ، نفسية جماعات من الناس أو ما يسمى بنفسية المجموع التي تظهر في تنظيم جماعات صغيرة من الناس كالعـائلة مثلاً ، وفي تنظيم وحدات اكبر كالقبيلة والامة وأخيراً فقد أصبح واضحاً كيف ان هذه النفسية -- نفسية المجموع -- قد أثرت على أزمات عنيفة في حياة المجموع كما يظهر في الحروب والثورات .

والتاريخ في محاولته فهم النظام المعقد لحياة الانسان الاجتماعية يعمل بالتعاون مع فروع التحقيق العلمي التي أصبحت بالتدريج منفصلة عن التاريخ وعن الفلسفة وهي العلوم الاقتصادية ، وعلم الاجتماع ، وعلوم السياسة والفقه ، وعلم النفس ، وفروع أخرى كالآداب والفنون التي تتعلق بحياة الانسان الروحية وبنتاج حضارته.

وباتصال التاريخ الوثيق بالفروع العلمية الاخرى فانه يصبح علماً اكثر فاكثر وغايته تحديد القوانين التي بموجبها تتطور حياة الانسان ويحل بها نوع من الحياة الاجتماعية محل نوع آخر . ومع ذلك فان التاريخ يبقى فرعاً من الادب لان رواية الحوادث ونقلها بصورة حيوية جذابة ووصف الشخصيات التاريخية الفني الصحيح يبقى دائماً قسماً من اعمال المؤرخ ، وهذا العمل طبيعته ادبية فنية . وبينما التاريخ

يصبح باستمرار فرعا من العلوم الصحيحة فانه لا يمكنه — بل لا يجب — ان يفقد صفته الادبية وبالتالي صفته الفردية .

التاريخ والتربية وتطور الحضارة : لم يأت عصر كالعصر الحاضر من حيث الاهتمام بالتاريخ والتفكير في مكانته في التربية والتعليم وشؤون الحضارة ، وفي اساليب تدريسه . ودراسة التاريخ كمادة مستقلة بصورة جدية لم تحصل قبل منتصف القرن التاسع عشر في جامعتي اكسفورد وكمبردج مثلاً . ويظهر ان المؤرخ المشهور جيبن Gibbon في القرن الثامن عشر انهى دروسه الجامعية بدون ان يكون هنالك درس في التاريخ . ولم يصبح التاريخ مادة منفصلة للحصول على رتبة علمية الا في ١٨٧٢ في جامعة اكسفورد ، ثم ان الاعتراف بالتاريخ كموضوع حيوي في المدارس قد اتى بعد ان وضعت هذه المادة في مكانتها الحقة المستقلة في الجامعات بجانب المواضيع الاخرى المهمة . ومنذ ذلك الحين حصلت المناقشات حول الامرين التاليين: اي تاريخ يجب تدريسه ، وكيف يجب ان يدرس .

فقد تساءلوا في السؤال الاول عن أية نسبة من التاريخ الموضعي او الوطني او العالمي يجب تدريسها وهل يجب تخصيص كل هذه الاهمية للتاريخ السياسي او انه يجب الالتفات الى التاريخ الاقتصادي او الفكري . اما في السؤال الثاني فقد يظن ان دراسة التاريخ يجب ان تجعله مادة مسلية ، وفي بعض الاحيان يغالون في ذلك حتى انه لايبقى ما اسمه تاريخ وانما مزيج من الخيال والصور الملونة والاساطير والنكات . وبدلاً من ان تعطي دراسة التاريخ نظاما فكريا معيناً فان تلك الفائدة تذهب تحت تأثير امور سطحية . وقيمة التاريخ في التربية ليست في المعلومات التي تعطى الا بصورة جزئية ، وقيمته الاساسية في تدريب الطالب ان يتبين في التفاصيل الخطوط الاساسية للتطور التاريخي وان يعلم شيئاً عن الاحوال الاجتماعية والسياسية والاخلاقية والفكرية والاقتصادية التي كونت الحاضر . كذلك يجب ان يكون تدريباً على المحاكمة الصحيحة وعلى تكوين احكام ناتجة عن تفكير . وتدريس

التاريخ يصبح اذاً وسيلة من وسائل تثقيف العقل وتكوينه فيعتاد على النظام بسبب اساليب البحث عن الحقيقة والتحقيق وتمحيص الحقائق وبسبب محاولة ربط الاسباب بنتائجها ، وادراك العلاقات بين الشعوب وحضاراتها ، وبسبب التهذيب الذهني والتمرين الفكري الناتج عن كتابة المواضيع الانشائية التاريخية وعن انتقاء الحقائق بعضها من بعض ، وانتقاء المفيد والمناسب من المصادر التي بين يديه لاجل موضوع معين . وهنالك دراسة الشخصيات التاريخية واخلاقها وسلوكها وما في ذلك من دراسة الظروف التي رافقتها لفهم تصرفاتها وادراك تعقد الشخصية البشرية والعوامل التي جعلتها تفعل ما فعلت ولماذا حادت عن جادة نياتها الحسنة ، وما هي الروابط بين التاريخ والشخصية بحيث يدرك الانسان ان اللوم او المديح امران سهلان ولا يجب اتباعهما بدون تفكير . فغرض التاريخ في التربية هو غرس فضائل وعادات فكرية تهم جميع المثقفين ، وهو يقصد منه النظام كما يقصد منه التعليم، مع العلم ان المعرفة التاريخية صالحة ومفيدة . ثم يجب ان تثير التربية التاريخية حب الاستطلاع عن منشأ الاوضاع والحضارة المعاصرة مثلاً ، وهذه الرغبة في الاستطلاع يجب ان تنقلب الى رغبة في المطالعة والقراءة والرجوع الى كتب اساسية كلاسيكية .

والتاريخ اكثر مواضيع الدراسة صلة بالانسانية لانه متصل بالبشرية في جميع العصور . ويصف المؤرخ تريفليان Trevelyan قوة التاريخ الانسانية فيقول : « ان التاريخ يعمل اكثر من أي شي آخر على شفاء الانسان من التغرض السياسي وذلك لانه يعرفه بوجهات نظر في التاريخ لم يرها من قبل ». وهذه الناحية الانسانية تتصل بالقوة الاخلاقية الروحية التي يجب ان تصدر عن دراسة التاريخ . وقيمة التاريخ الاخلاقية تأتي بصورة غير مباشرة . والتاريخ الاخلاقي الحق هو التاريخ الصحيح ، والسعي وراء الحقيقة هو عمل اخلاقي . وقد عملت بعض المؤتمرات الدولية على اظهار قيمة التاريخ ووجوب الاهتمام بالناحية الانسانية فيه ، فقرر مؤتمر التربية الاخلاقية في جنيف في عام ١٩٢٢ مثلاً انه « يجب ان يعالج التاريخ بنظرة انسانية واسعة بحيث تتصور العقول الناشئة نصيب كل امة وعنصر في تطور الحضارة

روح ملؤها الانصاف والعطف » . وتطور الحضارة يجب ان يظهره التاريخ عن طريق دراسة اجمالية لمختلف الحضارات العالمية حسب الترتيب الزمني والجغرافي بحيث يتضح ان نمو الحضارة ساهمت فيه بلاد كثيرة في عصور مختلفة ، وبحيث يساعد فهم هذا التطور على فهم الاحوال الحاضرة . على انه لا يجب ان توسع دائرة المعلومات التاريخية على أساس اضعاف تعليم التاريخ الوطني ، واذا سلمنا انه من مصلحة البشرية غرس روح دولية فان كلمة «دولي» لا تعني « لاوطني » كما يظن بعض اصحاب النزعة العالمية ، اذ تطور الامم ونشوءها هو الحلقة القوية للتاريخ ، وفكرة التطور هي الاساس الذي بدونه يصبح التاريخ فوضى . وهذا التطور اثرت عليه قوى خارجية ولكن بصورة خاصة قوى من داخل الامة . ويقول هربرت سبنسر Spencer انه عندما ندرس الحقائق التاريخية يجب ان نمتحن قيمتها فنسأل : ما هي قيمتها ولاي غرض يمكن استخدامها ، وعلى ذلك فقد بدأ المؤرخون يهتمون ليس فقط بالتاريخ السياسي وانما بعوامل التقدم الاجتماعي وبتاريخ الحضارة بوجه الاجمال .

* * *

الفصل الثاني

الحضارة وشروطها

<u>الحضارة والمدنية والثقافة</u>: ان كلمة « حضارة » او «مدنية» مشتقة بالاساس من الحضر ومن حياة المدينة كما ان الكلمة الافرنجية التي تقابلها civilization مشتقة بالاساس من المدينة civitas او قد تكون مشتقة بصورة مباشرة من ساكن المدينة civis ، او من civilis وهو ما يتعلق بساكن المدينة . وقد استعملت كلمة civility بدلا من civilization للدلالة على المدنية في قاموس اللغة الانكليزية في اواخر القرن الثامن عشر . ذلك لان الحضارة او المدنية هي الحياة الراقية التي ظن سكان المدن انها ممكنة فقط في المدينة وهم الذين وضعوا هذه الكلمة . ففي المدينة تجتمع الثروات والكفاءات التي تنتجها مناطق الريف ، وفيها توجد الصناعات وتظهر الاختراعات ومايتبعها من ترف ورخاء ، وفي المدينة يحصل التبادل في المنتوجات والافكار وتظهر القوى المولدة بنتيجة احتكاك الافكار ، وفيها يترك البعض الانتاج المادي ويهتمون بالانتاج الروحي او العقلي من علم وفلسفة وادب وفن ، فالحضارة مع انها تبدأ في القرى وبعض شروطها متوفرة فيها الا انها تزدهر في المدن . وهناك كلمة باللغات الاجنبية لها مفهوم يقرب من مفهوم الحضارة وهي Culture (Kultur بالالمانية) وترجمتها في العربية هي الثقافة ومعناها اوسع ويفهم منها الطريقة التي بموجبها يعيش الشعب ويفكر اي مجموع عاداته وفنونه

ومؤسساته والمقاييس والمفاهيم والقواعد التي يعيش بموجبها . وقد ذكر الاستاذ روبرت ردفيلد Redfield ان الثقافة بمعنى Culture هي مجموعة منظمة للمفاهيم المصطلح عليها . وأصل الكلمة له علاقة بالزراعة وحتى في المفهوم الثقافي نجد أن للكلمة انواعاً منوعة من المعاني منها ان يكون الانسان مثقفاً بمعنى التهذيب او اتباع النظم المعروفة في آداب السلوك ، او قد لايكون مثقفاً أو متمدناً اذا أكل بشكل معين او لبس لباساً معيناً في ظروف معينة . وكثيراً ماتستعمل كلمة Culture للدلالة على الحضارة والمدنية في اللغات الأجنبية ولذلك قلنا ان كلمة «ثقافة» لاتكفي لترجمة معناها. والحضارة مع ذلك لها مفهوم اوسع اذ تضم النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحياة الفكرية والفنية بينما الثقافة او Culture تعني مجموعة العادات والمعلومات واساليب المعيشة . والحضارة تضم النظام الاجتماعي الذي يشجع الانتاج الثقافي .

وعلماء درس الانسان (الانثروبولوجيا) يستعملون كلمة ثقافة (Culture) ويتناقشون في دقائق معانيها ولكنهم يتفقون بان كل انسان هو جزء من ثقافة (بمعنى حضارة) معينة او له ثقافة او حضارة معينة . وتتغير الثقافة والحضارة بتغير المفاهيم والامور المصطلح عليها . والناس لاتولد ثقافتهم معهم وانما يتعلمونها ولذلك فان الذي يولد ويترعرع في بلاد غير بلاد آبائه ينشأ وثقافته غريبة عن ثقافة بلاده الاصلية الا اذا تعلم ثقافة بلاده الاصلية تعلماً . والحضارة تبدأ حيث تنتهي الفوضى وينتهي الخوف لانه لايمكن الانتاج العقلي والتطلع الى المعرفة وتذوق الحياة قبل التحرر من عامل الخوف .

شروط الحضارة : تؤثر على الحضارة شروط مختلفة قد تساعد على نموها وازدهارها او قد تعيقها وتؤدي الى انحطاطها . منها الشروط الطبقية والجغرافية . فحضارة البشر الحالية بدأت بعد انتهاء الدور الجليدي الرابع ونحن الآن في الدور الذي مابعد الجليدي Post glacial . فاذا أتانا عصر جليدي آخر وكسى الارض

بالجليد فان الحياة قد تقتصر على قسم صغير على الارض . كذلك تفعل الزلازل فعلها في التأثير على الحضارات .

والاحوال الاقليمية من برد قارس وحر شديد تؤثر على الحضارة فتبعث النشاط الفكري والفني والعملي او تسبب الخمول وتضعف الانتاج والمطر والجفاف يسببان انتعاش منطقة ونمو الحضارة فيها من جهة او موتها وموت الحضارة فيها من جهة اخرى ، وخصب التربة وغناها بالمعادن قد يبعثان النشاط الاقتصادي الذي هو أحد دعائم الحضارة ، كما ان الموقع الجغرافي على طرق برية او بحرية كثيراً ما يشيد حضارة او يبيدها كما حصل للبتراء وتدمر ، وللدويلات ايطاليا وسائر مدن البحر المتوسط قبل اكتشاف طريق العالم الجديد وبعده .

والشروط الاقتصادية ذات أهمية كبرى في تكوين الحضارة . فبالرغم من وجود مؤسسات منظمة وبعض مظاهر الفن وبعض العادات الخلقية الرفيعة فان الامة لا يمكن ان تنتقل من البربرية الى المدنية اذا بقيت في دور التنقل واعتمدت على الصيد لاجل غذائها ومعيشتها . والبدو الرحل بالرغم من صفاتهم المشهورة في النبل والكرم والشجاعة والمروءة فانهم ينفقون جهودهم في مغامرات الصيد والغزو ، واذا لم يوجد ذلك الشرط الاساسي وهو تأمين الغذاء المنتظم فانه لا يمكن الحصول على تلك الكماليات التي تتضمنها الحضارة من علم وأدب وفن وترف ورخاء . واول مظاهر الحضارة الزراعة حيث يبدأ الانسان بحرث الارض وزرعها ليؤمن مستقبله فيجد بعد ذلك الوقت الكافي لكي يتمدن ، فيبني بيته ومعبده ومدرسته ويخترع الادوات اللازمة لانتاجه ، ويدجن الحيوانات ويثقف نفسه وينقل التراث الفكري والاخلاقي الذي لجماعته الى احفاده . ثم بعد الزراعة تأتي الصناعة والتجارة وتنشآن خاصة في المدن التي كما ذكرنا اشتقت منها كلمة المدنية او الحضارة .

هذه الشروط الجغرافية والاقتصادية هي مقدمات ضرورية للحضارة ولكنها لا تكونها ولا تولدها . فهناك عناصر نفسية وسياسية هامة تعمل عملها . فيجب ان يوجد نظام سياسي يحمي الجماعة ، ويجب ان توجد لغة كوسيلة للتبادل الفكري ،

ويجب ان تكون هنالك مجموعة نظم أخلاقية عن طريق الدين او المدرسة او العائلة توحد الناس باعطائهم قواعد النظام والتوجيه في السلوك . وربما يجب ان يوجد اعتقاد او ايمان اساسي يرفع الخلق ويعطي الحياة نبلاً وأهمية بالرغم من قصر حياة الانسان ، ويجب ان توجد التربية أو وسيلة اخرى لنقل الحضارة . فتراث الجماعة من لغة ومعارف وآداب وعادات وفنون يجب ان ينتقل الى صغارها لانه بهذه الوسيلة ينقلبون الى بشر . وهذا الانتقال يكون عن طريق التقليد او التعليم على ان هذا التقليد (الذي استعار له الكاتب توينبي Toynbee كلمة Mimesis اليونانية) (١) لايجب ان يكون تقليداً الى الوراء بسبب جمود المجتمع وانما تقليد الشخصيات المولدة المنتجة .

ولاتوجد شروط عرقية للحضارة اذ يمكن ان تظهر في اية قارة وفي اي عرق وقد ظهرت في عصور مختلفة في مصر وسورية ومابين النهرين والصين والمكسيك والمدن الايطالية وغيرها . فالعرق لايكون الحضارة وانما الحضارة تكون الشعب والشروط الجغرافية والاقتصادية تساعد في تكوين الحضارة وهذه توجد نموذجاً من البشر . فالبريطاني لايكون الحضارة الانكليزية وانما هي التي تكونه فتسيطر عليه حتى عندما يخرج خارج بلاده ، وعندما تجلى مظاهرها فيه في بلاد اخرى ، فمعنى ذلك انه لايوجدها هناك وانما يعترف بسيطرتها عليه . واذا وجدت نفس الشروط فان عرقاً آخر يمكن ان يأتي بنفس الحضارة (٢) .

هذه الشروط التي ذكرناها اذا فقدت كلها او بعضها فان الحضارة تنهار . فانقلاب طبقي او اقليمي او انحطاط الزراعة وزوال المواد الطبيعية ، وتغير طرق التجارة ، والانحطاط الفكري او الخلقي بسبب انهيار المصادر التقليدية للنظام

---

(١) Arnold Toynbee : A Study of History (Oxford, 1948) , p . 49 .

(٢) Will Durant : The Story of Civilization. vol . 1 (New York , 1942) p.3.

الاجتماعي والعجز عن احلال شيء محلها ، واضعاف العرق بحياة جامحة طائشة ، أو فقدان الزعامة لنقص في التربية وفي المجتمع ، او قلة الانتاج ، او تمركز الثروات بشكل يؤدي الى حرب بين الطبقات وثورات وانهيار مالي — جميع هذه أو بعضها قد تؤدي الى موت الحضارات احياناً . فالحضارة ليست شيئاً طبيعياً دائماً وانما يجب ان يحصل عليها ويغذيها كل جيل فاذا انقطع موردها او توقف انتقالها بصورة جدية تنتهي . والانسان يختلف عن الحيوان بالتربية والتعليم اي بعملية نقل الحضارة .

ثم يجب الحذر في استعمال كلمة متوحشة او « همجية » لبعض جماعات من الناس لان هذه الكلمات قد لا تدل على حقائق مطلقة ، وانما على تحيزنا لانفسنا وقياسنا الامور بمقياسنا . فبعض هذه الجماعات البسيطة قد يمكن اعتبارها « متمدنة » بمعنى انها تنقل مجموعة العادات والمؤسسات السياسية والاقتصادية والخلقية الى صغارها كما أنها قد تكون على كثير من السمو في أخلاقها . فيجب اذن استعمال كلمة « ابتدائية » لهذه الجماعات التي لا تحسب حساباً للايام غير المنتجة فتعيش على التنقل ولا تعرف الكتابة ولا تتوفر فيها سائر شروط الحضارة . وقد اقترح دورانت تسمية الجماعات المتمدنة بجماعات « منتجة متعلمة » (Literate Providers) على اساس انها تؤمن غذاءها بصورة منتظمة وتعرف الكتابة .

وفيما سوى هذه الشروط التي ذكرناها لنشوء الحضارة فان هنالك تعبيراً آخر عن شروط نشوء الحضارات الاولى اورده آرنولد توينبي Toynbee في المجلد الاول من كتابه «دراسة في التاريخ»[١] فقد بحث عن الاسباب التي جعلت الانسان الابتدائي ينهض ويتدرج في الحضارة وتساءل اذا كانت عبارة عن صفات خاصة في

---

(١) او في الفصل الخامس من مختصر المجلدات الست الذي وضعه سومرفيل Somervell في مجلد واحد .

الذين نهضوا، او بعض خصائص في بيئتهم او تفاعل الطرفين. وقرر أنه لا يوجد عرق متفوق بدأت الحضارة عن يده ، كما أنه قرر بطلان الاعتقاد الذي بموجبه نفسر اصل الحضارات بوجود بيئات تحوي شروطاً تسهل المعيشة . ولذلك بدلا من الاعتماد على العرق أو البيئة فقد قال أن قضية ظهور الحضارات هي قضية نفسية ، وانه بعد دراسة بعض الاساطير التي تتجلى فيها حكمة الجنس البشري يتضح بأن الانسان يأتي بالمدنية ليس بنتيجة مواهب بيولوجية متفوقة أو بسبب بيئة جغرافية ممتازة وانما بنتيجة رد فعل للتحدي في بعض الاحوال الصعبة التي تدفعه الى بذل جهوداً كثر . ويشير توينبي الى أنه قبل فجر المدنيـة كانت البوادي الافريقية الاسيوية — الصحراء الكبرى وبلاد العرب — ملأى بالاعشاب والمياه ثم أن جفاف هذه السهول الخصبة كان عبارة عن تحدي (والتعبير الانكليزي هـو Challenge) للسكان فقابلوه بطرق مختلفة . فالبعض ظلوا مقيمين فيها انما بدلوا عاداتهم وأصبحوا بدواً رحلاً ، والآخرون انتقلوا الى المناطق المدارية في الجنوب حيث الغابات وحافظوا على حياتهم الابتدائية ، وأما الآخرون فقد دخلوا مستنقعات وغابات وادي النيل والدلتا وقبلوا التحدي وعملوا على تجفيفها واعدادها للزراعـة واتوا بالحضارة المصرية . وكذلك الحضارة السومرية فقد ظهرت بنفس الاسلوب في دلتا الدجلة والفرات، وكذلك حضارة الصين في وادي النهر الاصفر ، ولا ندري من أي نوع كان التحدي ولكن الاحوال كانت صعبة . والحضارة الايجية المينوسية كان أصلها تحدي البحر للسكان ، والذين أسسوها اتوا من المناطق الجافة في شمالي افريقيا . هذا فيما يتعلق ببعض الحضارات التي تطورت من الحياة الابتدائية مباشرة . اما الحضارات التي نشأت بتأثير حضارات اخرى اي المنسوبة الى غيرها (وهي ما يسميها Affiliated) فقد نشأت بسبب عوامـل بشرية وليست جغرافية اي بسبب « الاقليات السائدة » في المجتمعات التي انتسبت اليهـا . وهذه الاقليات السائدة ، هي طبقة حاكمة فقدت زعامتها واصبحت متعسفة ولذلك فان عامـة

الشعب في هذه المدنية تقبل التحدي وتنشق عن هذه الحضارة وتضع اسس حضارة جديدة ·

فالنظرية اذن هي ان الاحوال الصعبة المعاكسة وليس الاحوال المؤاتية هي التي تنتج الحضارات وهذه النظرية يثبتها توينبي بامثلة يذكر فيها اماكن ازدهرت فيها الحضارة ثم اندثرت وعادت الارض الى حالتها الاصلية . ويسمي هذا الوضع « حسنات الاحوال المعاكسة » (Virtues of adversity) · ومن الامثلة التي يعطيها البتراء وتدمر التي عادت كل منها الى وضعها الاصلي كواحات في البادية ، وسهل رومة (الكامبانيا) الذي ساعد في نهوض رومة كان سهلاً موبوءاً بالملاريا حتى عصر قريب . ثم يعطي أمثلة عن اماكن يبرهن في كل مركزين منها ان المركز او المكان الذي كانت أحواله أصعب او اكثر معاكسة كانت حضارته اكثر ازدهاراً وهذا ما يسميه بحافز الصعوبات او بدافع البلاد ذات الأحوال المعاكسة (Stimulus of hard countries) كما في براندبورغ ذات الاحوال المعاكسة في المانيا ووادي الرين الذي أحواله مؤاتية، وآتيكا التي أحوالها معاكسة وبيوتية التي عواملها مؤاتية في اليونان . ثم يقول ان الارض الجديدة تثير الهمم، والارض البكر تولد رد فعل اقوى من ذاك الذي تولده ارض ذات حضارة سابقة. فاذا اعتبرنا الحضارات المنسوبة اي التي أتت بتأثير ماسبقها نرى أن مظاهرها القوية كانت في مناطق خارجة عن نطاق الحضارة الاصلية التي سبقتها. ثم ان تفوق التأثير الناشيء عن الارض الجديدة يكون اعظم عندما يتعذر الوصول الى الارض الجديدة الا عن طريق ممر بحري . وقد يسبب الانكسار الساحق جهداً من الامة المغلوبة لتنظيم شؤونها وتأتي برد فعل يمكنها من الانتصار وهذا ما يسميه بحافز الصدمات أو الكوارث (Stimulus of blows) كذلك يوجد ما يسميه بحافز الضغط (Stimulus of pressures) وهو ان الشعوب التي تكون على الحدود بحيث تتعرض للهجمات عادة تترقى وتتطور اكثر من تلك التي تكون في اماكن

محمية ويعطي مثلاً على ذلك العثمانيين الذين تاخموا الدولة البيزنطية ، وكذلك النمسا التي تاخمت العثمانيين وكانت في تطورها ألمع من بفاريا مثلاً. ثم هنالك حافز الاضطهاد او الحرمان وهو ان بعض الطبقات او العروق تحملت العذاب من قبل طبقات سيطرت عليها فقابلت هذا التحدي الذي حرمها من الامتيازات ببذل نشاط اعظم وباظهار مقدرة خارقة في الامور التي تركت لها ويعطي مثالا على ذلك اليهود ويوضح بهذه المناسبة ان الصفات العرقية المزعومة في اليهود ليست عرقية وانما ولدتها الاختبارات والتجارب التاريخية لهذه الجماعة .

ولكن توينبي يستدرك في نظرية التحديات هذه ويتساءل : هل يجب ان يكون رد الفعل اعظم كلما كان التحدي اشد ام ان هنالك تحديات شديدة جداً لا تأتي بأي مفعول معاكس. ويجيب بأن بعض التحديات قضت على المجتمعات التي لاقتها ولكنها أخيراً ادت الى رد فعل مناسب من مجتمع آخر او من جهة اخرى . فالاعتداء الهليني على العالم السرياني كما سماه (Hellenic intrusion) ادى الى ردود فعل فاشلة ضد الحضارة الهلينية منها الحركة الزردشتية، والمكابية اليهودية، والنسطورية واليعقوبية. ولكن هنالك ردفعل خامس اتى من جهة اخرى وهو الاسلام و كان ناجحاً . ثم ان هنالك حضارات عقيمة لم يكن لها ما بعدها (Abortive) وقد حاولت ان تأتي بحضارة من عندها كمنافسة لحضارة اعظم فنجحت موقتاً ولكنها انحطت وزالت من الوجود مثل الحضارة الكلتية التي دامت حتى عام ٣٧٥ م ثم قضت عليها سلطة رومة الدينية ثم سلطة انكلترا السياسية. ومثلها الحضارة المسيحية في الشرق الاقصى ونواتها النسطورية في مناطق آسيا الوسطى ثم تلاشت بعد انضمام هذه المنطقة الى الامبراطورية العربية في القرن الثامن بعد ان كانت منفصلة عن سائر العالم السرياني .

اتصال الحضارات وانتقالها : وهنالك شروط خارجية تؤثر على الحضارة وتؤدي الى ازدهارها من جهة أو الى انحطاطها من جهة أخرى ، أو على الأقل

الى تغير مظاهرها وظهور حضارة جديدة ومن هذه الشروط الخارجية الاتصالات التي تنتج عن الغزو والفتح والحكم الاجنبي . فعندما تجتاح البلاد غزوات اجنبية فقد تكون هذه الغزوات قوية وساحقة حتى انها تدك معالم حضارتها بما تجريه من تخريب وفساد خاصة اذا كان الشعب المهاجم في حالة ابتدائية . ومن امثلة ذلك هجوم برابرة الجرمان على الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس، وهجوم التتر على بغداد في القرن الثالث عشر . وقد تكون حضارة الشعب المهاجم الذي ساد البلاد وحكمها دون حضارة الشعب المغلوب على أمره فتحصل فترة توقف في سير الحضارة الاصلية ثم لا يلبث الشعب الغالب ان يقتبس من مختلف مظاهر الحضارة السابقة — بعد ان يكون عصر الفتح قد مضى واتى عهد الاستقرار — ويطبعها بطابعه الخاص وتقوم حضارة جديدة . وهذا ما حصل للحضارة الايجية في كريت وبلاد ايجة حيث زالت بقدوم اليونان ودخلت بعض عناصرها في حضارة هؤلاء ولم تلبث أن ظهرت تلك الحضارة اليونانية الرائعة التي كانت في أول امرها دون الحضارة السابقة ثم تجاوزتها بمراحل . وهذا ما حصل ايضاً للحضارة الهلنستية وللحضارة الساسانية في بلاد الشرق الادنى حين خرج العرب من جزيرتهم فاتحين ففرضوا لغتهم ودينهم وطبعوا مظاهر الحضارة التي اقتبسوها بطابعهم الخاص ونشأت تلك الحضارة العربية الاسلامية بثروتها الجامعة لمختلف نواحي العلوم والفنون والنظم الادارية والاجتماعية .

والذي يحصل في الحضارات عندما تتصل انها تأخذ بعضها من بعض مظاهر ونواح مختلفة . وبوجه الاجمال نشاهد ان حضارة الفاتح تسود في البلاد المفتتحة خاصة اذا كانت هذه البلاد ابتدائية في حضارتها أو اذا اتاها الفاتح ليس بجيوشه فحسب وانما بجالياته أيضاً بقصد السكنى . ذلك أن هذه الجاليات اذا نزحت باعداد كبيرة وجاورت السكان الأصليين في البلاد الجديدة وتزاوجت معهم تتمكن من فرض حضارتها عليهم وهذا ما فعله الاسبان في بلاد اميركا اللاتينية ، وكذلك الانكليز في قسم كبير من اميركا الشمالية . على أن ذلك لم يمنع السكان الذين اقتبسوا

جانباً كبيراً من حضارة الفاتح وكانوا مزيجاً منه ومن العنصر الأصلي أن يثوروا على الدولة التي أتت منها حضارتهم الجديدة ، فسكان الولايات المتحدة ثاروا على الانكليز واستقلوا وكذلك فعل سكان اميركا اللاتينية . وقد تكون البلاد المحكومة عريقة في حضارتها فلا تسودها حضارة الفاتح وانما يحصل تبادل حضاري بين الطرفين وقد يعطي الشعب المحكوم الى الحاكم أكثر مما يأخذ منه وهذا ما حصل للعرب عندما كان الصليبيون في ارضهم ، ولليونان عندما حكمهم الرومان ، وللسوريين عندما حكمهم اليونان والرومان مدة الف سنة بين فتح الاسكندر وزوال الحكم البيزنطي . فقد انتشرت اللغة اليونانية كلغة الثقافة في بلاد الشرق الادنى باسره ولكن لغة السكان بقيت كما كانت في حياتهم الخاصة ودياناتهم لم تتغير وانما اتخذت بعض آلهتهم أسماء جديدة . وأدخلت بعض عادات جديدة ولكن كثيراً من مظاهر الحياة الروحية أثرت على اليونان والرومان .

وكثيراً ما يحصل الاتصال بين حضارة الحاكم والمحكوم عن طرق اعطاء حقوق المواطن أو عن طرق الخدمة في الجيش . فالذين أعطوا حقوق المواطن من سكان بلاد الشرق الادنى في عهد الدول الهلنستية أو الدولة الرومانية تقربوا الى الدولة الحاكمة وشاركوا في مؤسساتها الاجتماعية واقتبسوا من حضارتها اكثر من سائر السكان . كذلك الذين دخلوا جيش الامبراطورية الرومانية من سورية مثلا فقد تعلموا اللغة اللاتينية بدرجات متفاوتة واقتبسوا بعض العادات الرومانية ولكنهم ايضاً حملوا بعض عاداتهم الى المناطق التي خدموا فيها .

وفيما سوى الاتصال الذي يحصل عن طريق الحكم والفتح فان هنالك اتصالات بين الحضارات تجري عن طرق الهجرة والتجارة والجوار ، وتنقل الحضارة أو بعض مظاهرها من بلد الى آخر بسبب هذا الاتصال . وقد تكون الهجرة مصحوبة بالفتح أو تابعة له كما حصل في الفتوحات الاسلامية وفي فتوحات الاسكندر من قبلها وفي فتوحات الانكليز في العصور الحديثة أو قد تكون الهجرة بسبب اعمال تجارية وتتجه الى مناطق غير مأهولة أو ذات اقوام ابتدائية فيقيم المهاجرون التجار

فيها حكماً وينشئون فيها دولاً كما فعل الفينيقيون . أو قد تكون الهجرة لاسباب اقتصادية أو اجتماعية بدون أن يتبعها حكم سياسي كهجرة السوريين واليونان وغيرهم في العصور الحديثة . وفي جميع هذه الحالات يأخذ المهاجر عناصر من حضارته معه كما انه يتأثر بحضارة البلاد التي يسكنها ولكن تأثيره يكون أوسع مدى اذا كانت حضارته أرفع شأناً وأقوى من حضارة البلاد التي يسكنها . وقد نقل الفينيقيون في العصور القديمة والانكليز في العصور الحديثة حضارتهم معهم الى حيث استوطنوا وطغت هذه الحضارة على البلاد التي دخلوها . وادخل السوريون المهاجرون الى رومة صنوفاً من حضارتهم حتى عندما كانت هي الدولة الحاكمة . ولا بد انه يجب أن نحسب حساباً لعبقرية الشعب المهاجر في تأثيره على البلاد التي يستوطنها .

وبدلاً من ان تنتقل الحضارة مباشرة من بلد الى آخر ومن شعب الى شعب فانها تنتقل احياناً عن طريق بلد ثالث . فحضارة العرب انتقلت الى اوربا عن طريق اسبانيا وكذلك عن طريق المدن الايطالية التي احتكت ببلاد العرب اثناء الحروب الصليبية . وبعض نواحي حضارة الصين والهند انتقلت الى العرب عن طريق الفرس ، كما انها انتقلت الى اوربا عن طريق العرب . وحضارة ما بين النهرين في العصور القديمة انتقلت الى مصر والى بلاد بحر ايجة عن طريق سورية وكذلك عن طريق سواحل آسية الصغرى. وقد تحتفظ بعض الشعوب بحضارات شعوب اخرى مدة من الزمن ثم تنقلها بعد قرون طويلة الى بلاد اخرى . فالعرب احتفظوا بتراث اليونان وانتقل بواسطتهم الى بلاد الغرب ، كما احتفظت الدولة البيزنطية بمزيج من حضارات الشرق واليونان ونقلها علماؤها الى بلاد اوربا الغربية خاصة بعد فتح القسطنطينية من قبل الاتراك .

الفصل الثالث

المظاهر السياسية الاقتصادية الاجتماعية للحضارة

المظهر السياسي : للحضارة عناصر تتألف منها ومظاهر متعددة تظهر بها. وعندما تدرس الحضارات لا بد من البدء بدراسة مظهرها السياسي ويتضمن ذلك البحث عن هيكل الحكم ونوع الحكومة من ملكية او جمهورية ، ودستورية أم مطلقة ، وديموقراطية ام ارستوقراطية ام دكتاتورية ، وبرلمانية ام غير برلمانية ؛ ثم يتناول ذلك دراسة نوع الادارة من مركزية او لا مركزية ، ومؤسسات الادارة المركزية والمحلية والاحكام الاساسية التي تسيطر عليها .

ومنذ بدء التاريخ نرى ان الانسان حيوان اجتماعي يخشى العزلة ، او كما قال ارسطو حيوان سياسي . على ان دورانت يعتقد ان الانسان ليس حيواناً سياسياً عن رغبة منه وانما عن اضطرار ، لان العزلة تعرضه للخطر ، ولانه يمكن ان يقوم بأمور كثيرة خير قيام اذا شارك فيها غيره . وقد يتمرد الانسان حتى اليوم على قيود الدولة ويود لو انها ضيقت نطاق عملها . وكانت الفوضى عامة في المجتمعات الابتدائيه بمعنى عدم وجود حكومة ، ولكن عندما اراد الناس ان يشتركوا بعمل فانهم قبلوا القيود .

والنظريات كثيرة عن اصل الدولة وعلماء السياسة يبسطون بعضها في كتبهم، ومنها نظرية الاصل العسكري وقوامها ان الحرب يولد الدولة وينشئ الزعيم والملك.

وفي بعض المجتمعات الابتدائية كانت السلطة للزعيم في زمن الحرب فقط بينما النفوذ والسلطة في زمن السلم للكاهن او الساحر . والحرب يوجد النظام ويوجبه ويقضي على الفوضى ويساعد على نمو الحكومة . ويستشهد « دورانت » بطائفة من الكتاب والمفكرين بأن « العنف هو الذي ولد الدولة ، وان الدولة هي نتيجة الغلبة والفتح وتوطد نفوذ الغالبين كطبقة حاكمة على المغلوبين . »[1] ويضيف الى ذلك انه حتى عندما تؤدي السيادة الى اتحاد مفيد بين الجماعات بصورة ينتج عنها النظام فان على الغالب ان يويد سلطته باختراعات تعطيه أسلحة جديدة للقضاء على الثورة . ثم هنالك النظرية الاقتصادية النفعية في اصل الدولة وهي انها ضرورة لان العمل في بعض الاماكن كوديان الانهار لا يمكن ان يكون فردياً طالما يتطلب اقامة السدود وحفر الترع واشتغال جماعات ولذلك يستوجب وضع الانظمة والتسلط على الناس . وهذا العمل المشترك للصالح العام هو نواة الحضارة في بلاد ما بين النهرين ومصر كما يقول الاستاذ بريدوود (Braidwood). [2] وعوامل وجود الحضارة هنا ليس الانتاج وانما وجود هيئة حاكمة وقوانين لتأمين انجاز العمل . وهذ ما أدى الى نشوء الحضارة في جنوبي بلاد ما بين النهرين وليس في شمالها لان الاحوال في الجنوب تتطلب اشتراك الجماعة بالاشغال العامة . والدولة تنشأ بسبب ضرورة النظام ولا يعود بالامكان الاستغناء عنها . وتصبح الدولة وسيلة للتوفيق بين المصالح المتباينة التي تكون مجتمعاً مركباً . ومع ان الدولة توسع احياناً وتقوم بحروب خارجية الا انها توطد السلم والأمن الداخلي ويقرر الناس انه خير لهم ان يدفعوا الضرائب ويتنازلوا عن شيء من حقوقهم من ان يظلوا في حالة نزاع فيما بينهم او كما عبر دورانت عن ذلك بانه من الافضل ان يدفعوا الجزية لناهب واحد عظيم (الدولة) من ان يضطروا لرشوة عدد من الناهبين . وقد قال البعض بنظرية العقد الاجتماعي

---

(١) W. Durant. op. cit.pp. 23-24.

(٢) R. Braidwood: Prehistoric Men (Chicago,1948) pp. 103-105.

في أصل الدولة وشرح جان جاك روسو هذه النظرية بالتفصيل في كتابه « العقد الاجتماعي »[١] فقال ان الافراد تنازلوا عن حقوقهم الطبيعية المجتمع بوجه الاجمال وانه بهذا التنازل تشكلت سلطة سياسية في الدول، على ان الافراد بقوا مشاركين في السيادة واستردوا تحت حماية الدولة تلك الحقوق التي تنازلوا عنها . فالعقد هو اتفاق متبادل بين الفرد والدولة يربط الفرد من جهة بسائر الافراد ومن جهة اخرى بالدولة ولذلك فان رغبة الاكثرية او رغبة المجموع هي مظهر السيادة . وقد تكلم البعض عن الاصل التاريخي او التطوري للدولة اي انها تدرجت من جماعات متفرقة وقرى يحكمها رؤساؤها الى دولة بصورة تدريجية وباتحاد هذه الجماعات والقرى . وقال آخرون بالاصل الديني للدولة بمعنى ان الدولة نشأت بعمل سلطة دينية نظمتها واوجدت القوانين وقالت انها سماوية ثم وطدت حكمها .

على ان الدولة اذا ظلت تعتمد على القوة فانها لا تلبث ان تسقط ولذلك وجب ان تستعمل طرقاً اخرى لتتمتع بالسلطة فاوجدت اساليب روحية نفسية ونظماً بحيث ادخلت في نفوس المواطنين شيئاً نسميه الطاعة والولاء والوطنية والفخر ، واستعانت بمؤسسات ومنظمات منها العائلة والمدرسة والديانة والقانون . فالقانون بالاضافة الى انه يؤيد السلطة ويعضد الفئة الحاكمة فانه يوجد الطمأنينة والنظام ويعترف بحقوق المواطن لكي يعترف بالقانون ويظل موالياً للدولة . والقانون ملازم للملكية والعائلة والحكومة . والمجتمعات الابتدائية تستغني عنه وتحل محله الرأي العام او العرف والعادة الذي قد يكون اقوى من القانون . وعندما نضيف الى قوة العادة قوة الديانة فان العادة تصبح اقوى من القانون . اذ تظهر طرائق الاجداد بمظهر ارادة الهية ؛ ذلك لان العادة مصدرها الشعب بينما القانون يفرض عليهم فرضاً . والكتابة تساعد على نمو القانون بمعنى ان الانظمة التي توضع وتتناقل عن طريق الشيوخ والكهان تصبح نظاماً تشريعياً يكتب على الواح خاصة .

---

(١) J.J. Rousseau: Contrat social (1762).

المظهر الاقتصادي: تشمل الناحية الاقتصادية في الحضارة دراسة موارد الثروة ووسائل الانتاج الزراعي والصناعي وتبادل المنتوجات غير أن دراسة هذه الناحية في تاريخ الحضارة تختلف عن دراستها في علم الجغرافية . فالذي يهمنا من الناحية الاقتصادية في دراسة الحضارة هو علاقتها بالانسان واساليب معيشته وسائر نواحي حياته وتأثيرها على النواحي الاخرى في حضارته. فالثروة وطراز المعيشة ونوع الاقتصاد الذي يعيش فيه السكان كثيراً ما تؤثر على الحياة الاجتماعية والفكرية والفنية وتلقي ضوءاً عليها وتفسرها . وقصة تدرج الانسان من العصر الحجري القديم الى العصر الحجري الحديث ثم الى عصور التاريخ هي قصة التطور والتغير في أسس معيشته وفي اساليب حصوله على غذائه . فقد كان الانسان في الدور الاول من حياته جامعاً للمآكل (Food Collector) وقد استعمل اساليب مختلفة ، نرى آثارها حتى اليوم ، لجمع المآكل من البر والبحر . وكان من جهة يبحث عن جذور النبات ومن جهة أخرى يصنع ادوات من الحجارة والعاج والعظم لاجل الحفر وللصيد البري والبحري . والصيد كان حرباً للبقاء والسيادة زيادة على كونه بحثاً عن الطعام . والمتاحف ترينا كثيراً من الادوات التي اخترعها الانسان للصيد. وبعد أن كان الصيد البري والبحري عماد الحياة فانه لم يذهب تماماً ؛ ولا يزال من أسس المعيشة انما بصورة مختلفة اذ ان المدنية لا تزال تتوقف على الطعام. وقد اصبح الانسان اقرب الى الانسانية عندما تطور الصيد عنده الى تربية مواشي حيث الطمأنينة ودوام الانتاج ولا نعلم اذا كان التدجين قد حصل قبل الزراعة او بعدها .

وقد اكتشف الانسان اهمية التربة وصار يجمع بذورها وثمارها وسائر خيراتها ولا يزال الانسان حتى اليوم يجمع بعض الحبوب والمحاصيل التي تنمو بصورة طبيعية من الارض في بعض الاماكن . ولا نعلم بالضبط متى اكتشف الانسان اهمية البذور وانقلب من الجمع الى الزرع وانما يظهر ان هذا الحادث كان بين ٨٠٠٠ و٦٠٠٠ ق.م. في بلاد الشرق الادنى ، وربما حصل ذلك بالصدفة حين سقطت بعض البذور

على التربة وشاهد الانسان نموها . وربما كان يحفر الارض بالعصا وهو يمشي ويلقي البذار كما كان يفعل سكان مدغسكر وبورنيو؛ ثم باستعمال المعدن وتدجين الحيوانات صار بامكانه ان يستعمل المحراث . وهكذا حصل الانقلاب الهام في حياة الانسان وهو الانقلاب الزراعي أو الانتاجي للطعام ، وقد عبر عنه العالم الانكليزي غوردن تشايلد Childe بكلمة انقلاب فسماه The Food producing revolution (١)
وقد تم ذلك في العصر الحجري الحديث وتعلم الانسان فضيلة التموين وصار يفكر بالغد، ووجد الطرق لحفظ اللحوم والحبوب وغيرها وهكذا اتجه نحو المدنية ، لان المدنية اساسها الانتاج ولا توجد مدنية بدون انتاج . على انه تلزمه السلطة الحاكمة المنظمة التي بدونها لا يكفي الانتاج وحده للوصول الى ما نسميه مدنية . والناس كلهم لم ينتقلوا من مرحلة الصيد الى مرحلة الزراعة ، وقد بقيت مجتمعات وشعوب كثيرة في مرحلة انتقالية حيث النساء يحرثن ويزرعن والرجال يصطادون، فالانقلاب لم يكن تاماً . ومن جهة اخرى فقد جرب الانسان مئات من الاصناف حتى اهتدى الى الانواع الصالحة من الطعام وبقيت قبائل كثيرة في حالة ابتدائية تأكل اللحوم بدون طبخ . ثم ادى اكتشاف النار الى انقلاب الانسان من اكل اللحوم فقط الى اكل الخضار والفواكه اذ اصبح يمكنه طبخها وكانت عسيرة الهضم قبلا .

وكان لاكتشاف النار اهمية اخرى وهي انها اوجدت النور وبددت الخوف ، واستعملت للتدفئة فصار يمكن ان يتنقل الانسان في مختلف الاقاليم ، واستخدمت النار في تذويب المعادن وتكييفها . وهكذا فقد اهتم الانسان بالنار وفوائدها حتى عبدها . ثم اخذ يصنع الادوات واستخدم المواد التي وجدها لصنع أدواته ومنها الخيزران والقصب وخاصة الحجارة . وحسب اتقانه وطريقة صنعه للادوات الحجرية

---

(١) Gordon Childe : what Happened in History (New York, 1946) pp. 41 ff. Braid Wood, op . cit.pp. 86 ff.

قسمت العصور الحجرية الى قديمة ومتوسطة وحديثة ، وتنوعت الادوات وصنع بعضها من العظم والعاج وجملت لها قبضات خشبية احياناً . وكان الانسان القديم يساوي انسان اليوم بمهارته وقوة اختراعه انما الانسان الحديث يتفوق عليه بتراكم المعلومات وكثرة الادوات التي يمكنه الاعتماد عليها . وقد ظهرت المهارة في الحياكة من القشور والاوراق في البدء وصنعت السلال والملابس وبعضها من الجلود . ثم صنع الخزف وربما اتت فكرة صنعه من وجود الطين قرب نار فشوي واتضحت فائدته، او من آثار الاقدام على الرمل ملأتها المياه واتضح انها تحتفظ بالماء . وظهرت الزخارف والرسوم على الخزف . وصنع الآجر واستعمل المساكن . وبدأت صناعة البناء انما بصورة ابتدائية .

وقد تم للانسان ايجاد الامور الضرورية في المدنية الاقتصادية او في المظاهر الاقتصادية للحضارة عندما اوجد وسائل النقل واساليب التبادل . وكان في البدء ينقل ويحمل الاشياء بنفسه ، وبقايا ذلك تشاهد حتى اليوم . ثم اخترع الحبال والبكرات والآلات الرافعة ثم الاختراع الهام وهو الدولاب . وعمل الانسان الزوارق وخطط الطرق بعد ان كان يسير على آثار خطوات غيره . ثم استعمل السفن الشراعية واخذ يتنقل من قارة الى اخرى ويجتاز المحيطات لينشر حضارته. ثم ان استعداد المناطق لانتاج مواد مختلفة وتخصص الناس في الصناعات جعلهم ينتجون بعض الحاجيات بكثرة ، وصاروا يصنعون اكثر من حاجتهم ولذلك نشأ التبادل. وقد تبادلوا الهدايا في اول الامر ثم السلع ، ونشأت المراكز التجارية والاسواق الخاصة ومنها موسمية ومنها دائمة . واستعملت المواد المختلفة كوحدة اساسية للتبادل ومنها الماشية حتى ان الرومان استعملوا كلمة بيكونيا Pecunia للدراهم وهي مشتقة من Pecus التي تفيد الماشية ؛ وكلمة Capital (رأس المال) و ChattelوCattle (الماشية) اصلها اللاتيني Capitale اي ما يملكه الانسان وهذه اصلها Caput (رأس) اي تعني رأس الماشية . ثم استعمل المعدن كوحدة للتبادل فكانت الاوزان الدالة على القيم من البرونز والحديد ثم من الفضة والذهب .

وقد كانت الاشياء الممتلكة تحصر في المواد المستعملة بصورة فردية في مراحل التطور الاقتصادي الاولى حتى ان هـذه الاشياء كانت تدفن مع صاحبها . وأما الامور الاخرى كالارض مثلاً فان ملكيتها كانت مشاعاً للجميع ولم تكن فردية حتى ان بعض القبائل اعتقدت بان الارض هي كالماء والريح لايمكن بيعها . والاشتراك في الطعام كان معروفاً لدرجـة أقل ، ولكن عند القبائل الابتدائية كانت العادة ان يشترك الذي عنده طعام مع غيره ممن ليس عندهم . وقد لاحظ بعض الرحالة في افريقيا ان الهدايا التي يعطونها لرجل معين توزع حالا على أفراد مختلفين. واما في زوال هـذه الاشتراكية الابتدائية بانتقال الانسان الى مانسميه «حضارة» فقد قال البعض ان هذه الاشتراكية كانت عائقاً في طريق تنازع البقاء وانها لم تمط الحافز الكافي للاختراع والصناعة والتوفير ، وانه عندما لايكافأ المقتدر على مقدرته ولا يعاقب الخامل على خموله فان الكفاءات تتساوى وهذا مايعيق النمو والتنافس مع جماعات أخرى . ففي الزراعة يعتمد الانسان الذي لايزرع على زراعة غـيره وهكذا تقل المساحات المزروعة كل سنة بحيث لاتساعد الاشتراكية على انقاذ المجتمع من الفقر . والفردية أتت بالثروة ولكنها جلبت معها قلة الطمأنينة والاستعباد بمعنى انها حفزت قوى الرجال المتفوقين ولكنها جعلت الآخرين يشعرون بالفقر بمرارة اكثر لانهم لما كانوا كلهم فقراء كانوا يشعرون بانه لايوجد من يفوقهم أو يسودهم . ففي حالة الفقر والمجاعة يزداد تماسك الناس ، وعنـدما تحصل الكثرة والخيرات والترف يصبحون فرديين . والحضارة تجلى فيهـا عدم التساوي لان فيها يحصل الاختصاص ويكثر النشاط فالذين يشعرون بقوة ومقدرة للقيام باعمـال حيوية يأخذون اكثر من حصتهم في ثروة المجموع . والاختلافات الطبيعية في كفاءات النـاس تتحد مع اختلافات في الفرص فيحصل ذلك التباين والتفاوت في الثروة والسلطة ، وعندما لاتضع القوانين حداً لهذا التفاوت فانه يبلغ درجة يحصل معها الانفجار ، وتعيد الثورات الى المجتمع مساواته ويعود الناس الى حالة أبسط . على ان الارض بطبيعة الحال تعود فتوزع من وقت لآخر وتتوزع الثروات من

جديد اما بالقوة او بالضرائب الثقيلة على الدخل والارث . ثم يعود التسابق الى الثروة والسلطة ، ويسود بعض الناس الى ان يبلغ عدم التساوي ذروته فتحصل الثورة من جديد .

وهذه الاشتراكية الابتدائية تكون في مجتمع متنقل يشعر الناس فيه بالحاجة والخطر بصورة دائمة . فالذين يعيشون على الصيد والرعي ليس لهم حاجة الملكية الخاصة للارض . ولكن في المجتمع الزراعي يتضح ان الارض تفلح وتستثمر لاقصى حد اذا ذهبت خيراتها للعائلة التي تعمل فيها وهكذا ينتقل الناس الى الملكية الخاصة وتزداد مساحة الاراضي المتملكة بصورة فردية عندما يستولي البعض على الارض التي ليس لها مالك فيجعلونها صالحة للزراعة . والزراعة بينما هي تولد الحضارة فانها تؤدي الى الملكية الخاصة والى العبودية لان التنظيم والعمل المنتظم يصبحان ضرورة. وهذا التنظيم كان مرتجلاً وضعيفاً عندما كان يعمل الناس لحسابهم ولكن عندما يعملون لغيرهم فان تنظيم العمل يعتمد على القوة ، ولذا فان ظهور الزراعة وعدم المساواة بين الناس أدى الى استخدام الضعفاء من قبل الاقوياء وصار الاسرى مثلاً يستعبدون للعمل واصبح المنتصر لا يبيد العدو بل يستعبده ، وهكذا فقد زادت الحروب في الاستعباد كما ان الاستعباد نفسه ولد الحرب . على ان الناس اعتادوا على العمل أثناء تتابع عصور الاستعباد واصبح الاستعباد قسماً من النظام الذي اعد الناس للصناعة ، وذلك ادى الى الحضارة بصورة غير مباشرة لانه زاد الثروة واوجد اوقات الفراغ لاقلية من الناس لكي يفكروا او ينتجوا حتى ان ارسطو قال بضرورية العبودية كشيء طبيعي لابد منه .

وهكذا فقد انقلبت مساواة المجتمع بالتدريج الى انقسام في الطبقات وعدم المساواة عن طريق الاسترقاق وتقسيم العمل وتباين مقدرة الناس . ثم أدت كثرة الآلات وتنوعها الى خضوع الضعفاء وغير القادرين للاقوياء والماهرين ، وادى كل اختراع جديد الى تسلط القوي على الضعيف حتى ان الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر زادت التباين بين الناس ، وأضاف الارث فرصاً اكبر لاصحاب الثروات

وأصبح الفقير يشعر بفقره والغني يشعر بثروته وهكذا بدأت حرب الطبقات كمحور علم في التطور التاريخي ، وقامت الدولة تحمي الملكية وتنظم شؤون الطبقات وتدير الحروب وتنظم احوال السلم .

المظهر الاجتماعي : يتناول درس الناحية الاجتماعية في تاريخ الحضارة تكوين المجتمع ونظمه وحياته فيدرس نظام العائلة ومقام المرأة وطبقات المجتمع والآداب والاخلاق الاجتماعية وحياة المجتمع ومختلف العوامل التي تؤثر على هذه الامور والتي تنتج عنها . وقد قيل ان عاملين هامين يسيران سلوك الانسان وهما الحاجة المادية والحاجة الروحية والجنسية . فالتنظيم الاقتصادي يهتم بالحاجة المادية بينما التنظيم الاجتماعي يهتم بالحاجة الروحية والجنسية . وقد ظهرت المؤسسات التي تؤمن الاحوال المادية والنظام السياسي . وكانت القبيلة تنظم العلاقات بين الجنسين قبل ظهور الدولة ثم أصبحت العائلة تهتم بهذه الناحية ومن ورائها المجتمع الذي تسيطر عليه الدولة . ويميل البعض الى الاعتقاد بانه في المجتمع الابتدائي كان يعيش الانسان بشكل جماعات وليس بشكل عائلة في مرحلة الصيد ، ثم لما ظهرت الدولة زالت القبيلة كاساس المجتمع وحلت العائلة محلها . وبينما اهتمت الدولة بالامن والنظام فقد اهتمت العائلة بالمحافظة على دوام العرق . ويغلب على الظن ، كما يقول دورانت ، ان العائلة كانت مبنية في الادوار الابتدائية على أساس أن مركز الرجل في العائله اتفاقي وسطحي بينما المرأة هي محورها الأساسي طالما ان الام تقوم بواجب رعاية الطفل . وأبسط انواع العائلة كان عبارة عن امرأة تعيش وأولادها مع والديها أو أخيها طالما ان العلاقات الجنسية كانت مضطربة ؛ وقد يترك الرجل قبيلته وينتسب الى قبيلة زوجته ويعمل عندها فيكون النسب بواسطة الام وكذلك الميراث . على ان ذلك لا يعني حكم الام او المرأة (الذي يسمونه Matriarchate) اذ الواقع ان منزلة المرأة في المجتمعات الاولى كانت ضعيفة بسبب جهلها بالسلاح واهتمامها بالاولاد . وكانت في مرحلة حياة الصيد تقوم بعمل أشياء مختلفة من جمع طعام وشؤون منزلية ماعدا عملية الصيد نفسها ، وكان الرجل يرتاح معظم السنة . ومعظم نواحي التقدم في المجتمع الاول قامت بها

المرأة من زراعة وصناعة وفن كالخزف والنسيج وتدجين الحيوانات .

وقد ظهر الرجل كعامل رئيسي بدل المرأة عندما انتظمت الزراعة وتعقدت واستخدمت الحيوانات . فاستعمال المحراث يحتاج الى قوة الرجل . وظهور الملكية والارث ادى الى الحاق المرأة بالرجل حيث طلب منها الوفاء والامانة لانه رغب ان تكون أملاكه لاولاده . وهكذا ظهرت الابوة وانتقلت الاموال عن طريق الاب حتى ان الآلهة التي كانت مؤنثة أصبحت معظمها مذكرة ولها زوجات وأولاد . وصارت المرأة سلعة تشرى وفي بعض الاحيان كانت تدفن مع زوجها . والزواج بدأ كشكل من اشكال الملكية او كجزء من الاسترقاق حتى ان في بعض المجتمعات الابتدائية كان الرجل يكثر من الزوجات لكي يضمن من يقوم بالعمل عندما يتقدم في السن .

اما من جهة النظم والقوانين الاجتماعية فان هنالك التقاليد والعادات وهي تقاليد تقبلها الاجيال بعد التجربة . وهنالك المبادىء الاخلاقية التي هي عبارة عن تعاون بين الفرد والمجتمع بحيث يشعر بشيء من الخوف والخجل اذا خالفها ولا يمكن وجود المدنية بدونها . ومن اهم واجبات الآداب — بمعنى العادات التي تشكل المجموعة الاخلاقية للمجتمع — تنظيم علاقات الجنسين لانها قد تصبح سبباً للخلاف والنزاع والانحطاط . والشكل الاساسي للتنظيم الجنسي هو الزواج وهو اجتماع او اشتراك الطرفين للاهتمام بالنسل . وتقدم الزواج بجميع الاطوار من الاهتمام بالنسل بدون تعاون او اجتماع الفريقين الى تعاون واجتماع الفريقين بدون الاهتمام بالنسل . والمجتمعات التي لا زواج فيها قليلة مثل بعض قبائل جزيرة بورنيو وجزر هوائي .

وقد أصبح الزواج اضطرارياً عند جميع الشعوب الابتدائية تقريباً لان العازب ليس له وضع اجتماعي . وكان يمكن الحصول على الزوجة عن طريق الخدمة عند ابيها مدة من الزمن ، وعندما زادت الثروة أصبح من المعتاد ان يعطي الرجل الى والد الزوجة مبلغاً من المال وفي بعض الاحيان كان الوالد يقدم هدية ثمينة لزوج ابنته او لابنته وقد تكون مساوية لهدية الزوج كما في قانون حمورابي . وأصبح الآباء الاغنياء يجزلون العطاء حتى نشأت عادة المهر « الدوطة » . على ان الحب كان مفقوداً

في هذا التزاوج ولا يصحبه مودة وعشق . فالحب من نتاج الحضارة التي أقامت السدود بوجه الرغبات ، وزيادة الثروة مكنت الناس ان يلتهوا بالحب لانه ترف ، والشعوب الابتدائية أفقر من ان تكون خيالية وعاشقة فالزواج كان ينظر اليه كعملية تعاون اقتصادي او كشراكة مفيدة بحيث يكون الطرفان احسن حالا مما لو عاش كل بمفرده . والعلاقات الجنسية قبل الزواج هي قسم من التنظيم الجنسي فالحرية الجنسية وجدت في المجتمعات الابتدائية في مدة معينة والعادات تختلف في هذه الناحية من مجتمع الى آخر ولكن النظام الاجتماعي ضروري والناس يجب ان يعلموا ماذا ينتظرون بعضهم من بعض ولذلك يتقيدون بقواعد للسلوك . ومع ان هذه القواعد او الآداب نسبية الا انها ضرورية .

واما من حيث القوانين الاخلاقية والآداب فان من واجب الاهل ان ينقلوها الى أولادهم ، والاولاد يتلقون في كل يوم التراث الاخلاقي والفكري في بيئتهم ، لانهم اذا تركوا لغرائزهم فانها لاتوافق احوال الحضارة اذ توافق حياة الفوضى والغابة اكثر من حياة المدنية . والذي نسميه اليوم رذيلة اصله فضيلة في عنصر تنازع البقاء ، ولكنه أصبح رذيلة لانه دام الى مابعد ذهاب الاحوال التي جعلت وجوده ضرورياً في البدء . فالقوانين الاخلاقية مهمتها تكييف اندفاعات الطبيعة البشرية لظروف واحتياجات جديدة في الحياة وهكذا نشأت آداب ضد القسوة والطمع وقلة الامانة لانه لم يعد مبرر لوجودها او ان الاسباب التي أوجبت وجودها قد زالت . وهكذا فان كل مجتمع ينشر مجموعة من القوانين الاخلاقية وينشيء في قلب الفرد ميولا اجتماعية تخفف الحرب الطبيعية في الحياة ، والمجتمع يشجع تلك الصفات او العادات في الفرد بتسميتها فضائل اذا كانت تؤدي الى فائدة المجموع ، ويقاوم الصفات المعاكسة فيسميها رذائل ، وهكذا يصبح الانسان اجتماعياً ومواطناً صالحاً . وربما كان أسهل ان تولد العواطف الاجتماعية في الانسان الابتدائي من تولدها في الانسان الحديث ، اذ ان تنازع البقاء ادى الى الاشتراك بينما النزاع لاجل الملكية ادى الى تقوية الفردية فالانسان الابتدائي كان معرضاً للخطر وهناك مصالح مشتركة

تربطه بالمجتمع ولم تكن له ممتلكات تفصله عن غيره . وقد كان عنيفاً وطاعاً ولكنه بنفس الوقت كان لطيفاً وكريماً يشارك فيما يملكه حتى الغريب ، وكان مضيافاً وله آداب في معاملة الناس واستقبالهم ووداعهم . والتقدم الاخلاقي في التاريخ لم يكن في تحسين الآداب الاخلاقية فقط وانما في نشرها وتوسيع دائرتها حتى تشمل ليس القبيله نفسها وانما الدولة والبشرية .

والمجتمعات لم تؤسس قوانينها الاخلاقية دائماً على المنفعة او المصلحة الاقتصادية أو السياسية . فقد استخدمت المجتمعات الديانة لتكون رقيباً في تقوية الدوافع الاجتماعية ضد الدوافع الفردية عن طريق الامل والخوف ، لان الفرد ليس مستعداً بطبيعته ان يخضع مصالحه الشخصية لمصلحة المجموع . فالآداب اذاً تصبح لها قوة دينية تستند عليها اذ ان الاشياء الغامضة والخارقة لها وزن وقوة ليست للاشياء التي نعرفها ونفهمها ، والناس يحكمهم الخيال اكثر من العلم .

❀❀❀

الفصل الرابع

المظاهر الفكرية والفنية للحضارة

المظاهر الفكرية : الديانة : تشمل دراسة النواحي الفكرية في الحضارة جميع مايتعلق بالتفكير والانتاج الفكري والمعتقدات من دين وفلسفة وعلم وادب . واذا بدأنا بالناحية الدينية فانه يمكن القول ان في بعض القبائل النادرة الوجود كان البشر يعيشون بدون ديانة بمعنى انه لم يكن هنالك قوى خارقة يعبدونها ولا طقوس ولا خرافات . انما هذه الحالات كانت شاذة والمعتقد العام هو ان وجود الديانة امر عام وان المعتقدات قديمة ودائمة . اما مصادر تدين الناس فهي الخوف وخاصة الخوف من الموت من جهة ، والحيرة في أسباب الحوادث التي لايمكن تعليلها ، والامل بالمساعدة الالهية والشكر على الخيرات . وقد اعتقد الانسان الاول ان هنالك روحا أو حياة سرية في كل شيء حي ويمكن أن تنفصل عن الجسد في احوال المرض والنوم والموت ؛ وكذلك الاشياء لها ارواح والا فما هو سر حركة الشمس وبعض الحوادث الطبيعية . والعقل الابتدائي وكذلك الشعراء في جميع العصور ينظرون الى الجبال والاشجار والشمس والقمر والجو كاشياء لها رهبتها وقدسيتها لانها علامات خارجية لارواح غير منظورة . والامم القديمة جعلت من الارض والبحر والجو آلهة وسمتها باسماء مختلفة . والجرمان القدماء رأوا الغابات مأهولة بالجن والجبابرة وغيرها ونشاهدها في موسيقى واغنر الالماني وفي روايات ايبسن

Ibsen السكنديناڤي ، وهذا ما نسميه بالانيميزم Animism او الاعتقاد بالارواح .

والأشياء التي تعبد كثيرة لاحد لها طالما ان كل الاشياء لها ارواح أو تحوي آلهة مخبأة . وهذه الاشياء المعبودة هي سماوية وارضية وبشرية وحيوانية وآلهية، ولا ندري ماذا عبد الناس في البدء . وربما عبدوا القمر في أول الامر كمنظم للطقس وكمقياس للزمن . وربما حلت الشمس محل القمر عندما حلت الزراعة محل الصيد وصار للشمس علاقة بفصول الزرع والحصاد ، وكذلك اصبحت الارض آلهة . وربما كانت الهالة التي وضعها الرسامون حول رأس الانبياء والقديسين في العصور الوسطى من بقايا عبادة الشمس . كذلك كانت النجوم آلهة تسيرها الروح الكائنة فيها ثم انقلبت هذه الارواح الى ملائكة محسنة في بعض الديانات . والجو كان آلها يعطي المطر أو يحبسه وفي كثير من الديانات عبدوا الجو باسماء مختلفة مثل «حدد» عند الشعوب السامية ، وزفس عند اليونان . والناس لا يزالون يطلبون المساعدة من السماء . وهنالك مظاهر مختلفة على الارض هي بمثابة آلهة وبينها الاشجار التي عبدها كثير من الشعوب . وعبادة الاشجار والانهار والينابيع والجبال هي في اقدم ديانات آسيا، وكثير من الجبال اعتبرت موطنا للآلهة . والارض كانت تسمى الام العظمى ولها اسماء في العصور المتأخرة منها عشتار وديميتر وأفروديت وفينوس وسيريس Ceres وسيبيل Cybele . وولادتها وزواجها وموتها وبعثها كانت تعتبر رموزاً أو أسبابا لنمو النبات وموته وبعثه . وهذه الآلة المؤنثة كانت تدل على اتصال الزراعة بالمرأة في القديم . ومعظم الآلهة كانت مؤنثة ثم بانتصار الاسرة المبنية على سلطة الرجل اصبح النفوذ للآلهة الذكور . والانسان الابتدائي كان يرى حادثاً خارقاً في الحبل والولادة ويمجد الاعضاء الجنسية ، وكثير من الشعوب القديمة عبدت هذه الاعضاء بشكل من الاشكال . والوظائف الجنسية لبعض الآلهة الاولية كانت لها اعتبار خاص بسبب الاهتمام بالخصب في المرأة وفي الارض .

وهنالك حيوانات كثيرة عبدت ، وبعض القبائل الهندية سمت حيوانها المقدس « التوتم Totem » ولذلك ظهرت كلمة التوتمية Totemism التي تدل على عبادة أي

شيء مقدس وخاصة الحيوان أو النبات . وهذا التوتم كان يوحد القبيلة التي تعتقد انها متسلسلة منه ، وأصبح علامة مفيدة لملاقة افراد القبيلة بعضهم ببعض ثم تطور عند الامم الحديثة الى رمز مثل الاسد والنسر والعقاب . وفي بدء النصرانية كانت الحمامة والسمكة والحمل رموزاً ولا ندري اذا كانت من بقايا التوتمية . وفي معظم الاحيان كان هذا التوتم محرماً (Tabu) لا يمكن مسه أو اكله الا في حفلة دينية لتسري روحه في الجماعة . وقد يكون الخوف اصل عبادة التوتم اذ وجب على الانسان ان يعبد الحيوان لقوته حتى يرضى . ثم ضعفت عبادة الحيوان بعد الاستقرار الزراعي وظهرت عبادة الآلهة البشرية التي كانت قسوتها في البدء من آثار الآلهة الحيوانية التي اخذت مكانها . وهذا التحول نراه في حكايات التغير (Metamorphoses) التي تخبرنا كيف كانت الآلهة حيوانات او انقلبت الى حيوانات . والآلهة البابلية والمصرية والجنيون بوجه بشر وجسم حيوان ترينا نفس التحول . اما معظم الآلهة البشرية كانت على مايظهر عبارة عن موتى اعتبروا مثاليين . والرجال الذين كانوا عظماء واقوياء يخشى بأسهم في الحياة كانوا يعبدون امواتاً . وكان الاعتقاد بدوام حياة الموتى قوياً حتى ان الاحياء كانوا يوجهون لهم الرسائل . وتطورت عبادة هذه الروح الى عبادة الاسلاف اذ كان يخشى بأس الموتى ولذلك كان يجب ارضاؤهم حتى لا يتعرضوا بالشر لحياة الاحياء . وهذه العبادة كان من شأنها توطيد السلطة الاجتماعية وروح المحافظة والنظام حتى امتدت الى كثير من بلاد العالم فكانت في مصر واليونان وروما وبقيت في الصين واليابان وانقلب الخوف الى تقوى وولاء ومحبة . وهكذا فان الآلهة بدأت كأسياد مخيفة وانتهت بشكل آباء محبين وأصبح الصنم مثـــلا اعلى بتطور المدنية . وهكذا كانت فكرة الآله البشري خطوة اخيرة بعد تطور طويل ، وخرجت بنتيجة التطور من وجود عدد كبير من الارواح الكائنة في كل مكان . فمن الخوف من ارواح غامضة انتقل الانسان الى عبادة القوى الطبيعية والنباتية والحيوانية ثم الى عبادة الاجداد . وفكرة الآله كأب ربما اتت من عبادة الاجداد . وظهور بعض الاسلاف بصورة

خاصة والهواء فالملوك الافوياء أصبحوا آلهة وفي هذه المرحلة بدأت العصور التاريخية.

وأساليب الديانة مبنية على أن الانسان يريد ارضاء الآلهة ويحملها على مساعدته ومن ذلك نشأ السحر وهو أقدم الطقوس الدينية . ومن طرق استرضاء الآلهة ما يسمى بالسحر الايحائي Sympathetic magic وهو القيام بعمل يوحي فيه الى الآلهة بان تعطيه بعض الامور ، فاذا اراد المطر قام بصب الماء من شجرة مرتفعة او يحمل المظلات ، أو إذا ارادت المرأة أن تحمل فانها تعمل لعبة وتدعي انها ترضعها ، او اذا ارادوا ان يضعفوا العدو يحرقون صورته . والناس اليوم يلجأون الى ذلك في مظاهراتهم . وجميع هذه عبارة عن طرق في الايحاء ، ومنها الايحاء الى التربة أن تكون خصبة حيث بعض الشعوب تتخذ ملكاً وملكة في شهر ايار وتزوجهما علناً حتى تقلد الارض عملها وتزدهر . ذلك ان الشعوب القديمة نظرت الى خصب الارض كما تنظر الى خصب المرأة . والاعياد الصاخبة التي فيها مظاهر الحرية كانت تحصل في موسم الزرع ومن جملة وظائفها الايحاء الى الارض بان تقبل البذار وتعطي الاطعمة المرغوبة . ثم هنالك اعياد الحصاد التي ترافقها مظاهر الخلاعة المتناهية ، وقد احتفل بحفلات تشبهها في اعياد باخوص في اليونان، واعياد «ساتورن» (Saturnalia) في رومة ، وفي بعض اعياد العصور الوسطى والحديثة في اوربا التي من بقاياها الكرنفال (المسمى عند الافرنسيين Mardi gras) . وفي بعض الاحيان كانوا يقدمون رجلاً ، وفيما بعد حيواناً كذبيحة لكي ينتشر دمه ويخصب الارض . وفي زمن الحصاد كانوا يعتقدون ان الرجل الذي مات قد بعث ولذلك كانوا يقومون بطقوس الهية لهذا الرجل قبل موته وبعده ، ومن ذلك اتت باشكال مختلفة الفكرة التي انتشرت كثيراً عن موت الاله من اجل شعبه وعودته الى الحياة . ثم ان هذه الاعمال السحرية تطورت واصبحت لاهوتا . ولم تقتصر فكرة الاله المولود والمبعوث على موت الارض في الشتاء وبعثها في الربيع فقط وانما شملت الاحوال الجوية من اعتدال خريفي وربيعي ، وشروق الشمس وغروبها . اذ ان الاله الشمس يموت يومياً ثم يبعث ، فكل غروب عبارة عن موت او صلب كما يقول دورانت ، وكل شروق هو عبارة عن بعث .

والضحية البشرية كان لها شأن كبير عند معظم الشعوب في بعض عصور تاريخهم على ما يظهر ، فقد كان الفينيقيون والقرطاجيون يضحون لالههم «ملك» (Moloch). وربما عند بعض قبائل افريقيا كان منشأ هذه العادة اكلهم للحوم البشر فظنوا ان الاله له نفس الميول التي لهم. ثم اصبحت الآلهة تكتفي بذبائح حيوانية فبدلا من ان يضحي ابراهيم ابنه مثـــلا استعيض عنه بالكبش. ثم صار الاله يكتفي بعظام الذبيحة واحشائها وصار الكهنة يأكلون لحمهـا. واخيراً صار البشر يأكلون لحم ذلك الاله البشري طالما انهم يحصلون على قوة الشيء الذي يأكلونه. فاحياناً يأكلون لحم الاله ويشربون دمه وهم يذكرون اسمه ،واحياناً يأكلون صورته التي يصنعونها من مواد غذائية في حفلة دينية ويصومون استعداداً لذلك الحادث.

وكانت للانسان تعاليم سحرية مختلفة منها الاعتقاد بقوة الامنات وبالامين الشريرة. والاعتقاد بالاصنام التي لها سلطة سحرية اعتقاد قديم ويعرف بالفتشية Fetishism وبما ان التعاويذ والتمائم لها قوة خاصة فان البشر لبسوها لتحرسهم. والاشياء المقدسة والتذكارات هي مثال حديث لهذه التعاويذ. فالمدنية الحديثة تحوي اشياء كثيرة مرتكزة على بعض الامور السطحية في العصور القديمة والوسطى والرجل الحكيم ينظر الى هذه الامور بعطف ويرى كيف ان الانسان يحتاج الى مساعدة خارقة ولا ينقدها احياناً بل يتعزى عندما يرى ان كثيراً من الادب والعلم قد صدر عن هذا السحر والاعتقادات القديمة. وقد ذكر فريزر Frazer ان عظمة العلم لها اصول في سخافات السحر لانه عنـدما فشل الساحر صار يسعى وراء طرق طبيعية يساعد فيها القوى الخارقة على عمل ما يريد ، ثم سادت الوسائل الطبيعية ولكن الساحر اخفـاها ونسبها الى قوى سحرية خارقة وهكذا بدلا من السحر ظهر الطبيب والكيميائي والفلكي. كذلك السحر ولد الكهانة والكهان لان الطقوس الدينية اصبحت كثيرة ومعقدة تحتاج الى طبقة خاصة تتفرغ لها ، فالكاهن كساحر كان يتصل بارادة الآله عن طريق الصلاة والوحي ويستخدمهـا لمصلحة البشر.

ونظراً لحاجة البشر لها فان قوة الكهنة ازدادت ، ولعب الكهان دوراً منذ اول المجتمعات حتى الوقت الحاضر في السيادة على البشر وتنظيمهم . فكانوا احياناً يتبادلون هذه السلطة مع المحاربين والكاهن لم يوجد الديانة وانما استعملها ، اذ ان الديانة صدرت عن تساؤل الانسان وخوفه وآماله ووحدته . وقد اساء الكاهن بانه قبل الخرافات واحتكر المعرفة ، ولكنه من جهة اخرى ضيق نطاق الخرافات واعطى الناس اصول التربية والتعليم وكان مستودعا للتراث الثقافي ، كما انه كان يعزي الضعيف اذا ما استغله القوي . والبنيان الاخلاقي توطد بمساعدته فلو لم يوجد فان الشعب كان اوجده .

والديانة توطد الاخلاق بطريقتين وهما القصة من جهة والتحريم من جهة اخرى . فالقصة او الاسطورة تولد العقيدة التي بواسطتها يصبح لبعض اشكال السلوك المرغوب فيها قوى سماوية تسندها وتؤيدها . والآمال والمخاوف السماوية تجعل الفرد يقبل بعض التحريمات التي يفرضها عليه المجتمع او الحاكم . وهذا التحريم والامتناع الذي يولد الضمير يؤدي الى الفضيلة . ومؤسسات الملكية الفردية والزواج ترتكز على قوى دينية نوعا وتضعف في عصور الالحاد او عدم الايمان . والحكومات نفسها قد احتاجت الى ان تسندها التقوى والكهنة وهذا ما اختبره بعض قليلي الايمان انفسهم من الملوك والحاكمين بامرهم ، ودساتير الحكومات اليوم لا تخلو من فكرة دينية او نزعة حكم ديني . وكلمة تابو Tabu كان يطلقها سكان بولينيزيا على الاشياء المحرمة في الديانة . وهذه المحرمات في المجتمعات الابتدائية تأخذ مكان القانون في عصور التمدن ، انما شكلها سلبي فتعتبر بعض الاشياء مفسدة واخرى غير طاهرة فتنهى عنها . فهنالك بعض اسماء وكلمات لا يجوز التلفظ بها ، والعمل كان محظوراً في بعض الاوقات ، والاصول الصحية والمتعلقة بالمآكل كانت تلقن للناس عن طريق الديانة وليس عن طريق العلم . والمحرمات كثيرة فيما يتعلق بالمرأة ويظهر كما ذكر دورانت ان الذين وضعوا اساطير العالم كانوا ازواجاً غير موفقين فاتفقوا على ان المرأة هي اساس كل شر . وعلى كل فان مختلف المحرمات المتعلقة بالمرأة نشأت عنها فكرة الحشمة والخطيئة وعدم طهارة العلاقات الجنسية ثم اتت فكرة

الرهبنة والتنسك ، كما ان الامر ادى من جهة اخرى الى الوضع الخاص الذي وضعت فيه النساء .

والديانة ليست أساس الاخلاق وانما هي مساعدلها . وقد ظهرت الآداب والاخلاق في بعض المجتمعات والازمنة التاريخية مستقلة عن الديانة ، اذ كانت الديانة تهتم بالطقوس والذبائح ، والرجل الصالح كان يعتبر ذاك الذي يقوم بالطقوس بصورة مناسبة والديانة لاتؤيد شكلاً مطلقاً من الاعمال الصالحة اذ انه لايوجد شكل مطلق ، وانما تؤيد اصول السلوك التي تأسست بحكم الظروف الاقتصادية والاجتماعية . ووظيفتها الاخلاقية هي المحافظة على القيم الموجودة وليس توليد قيم جديدة . وقد تتغير الاحوال ويحصل تغير في الآداب ولذلك فان الديانة تتكيف . ويحصل في الحضارات المتطورة احياناً توتر بين الدين والمجتمع لان الديانة تبدأ باعطاء المساعدة للانسان وتعطي الشعب وحدة في العقيدة والاخلاق وتكون هذه الوحدة احياناً ضرورية للسياسة والفن ، ولكنها في النهاية تضطر الى النزاع في سبيل الماضي لان المعرفة تتقدم وتتغير باستمرار فتصطدم بالاساطير وباللاهوت ويشعر الناس بان سلطة الكهنة على الفن والادب حاجز ولذلك يتخذ تاريخ الفكر شكل صراع بين الدين والعلم . وتلك المصالح او المؤسسات التي كانت بيد الكهنة مثل قانون العقوبات والتربية والزواج والطلاق تصبح مدنية وتخرج عن سلطتهم ، ويصبح الادب والفلسفة معاكسين للكهنوت وتتطور حركة التحرر الى عبادة العقل . على ان السلوك يصبح محروماً من دعائمه الدينية فينحط الى درجة الفوضى الابيقورية وتصبح الحياة عبثاً للفقير والغني على السواء بعد ان يفصل عنها ذلك الامل ولكن لاتلبث ان تظهر معتقدات وتعاليم جديدة وتبعث الامل من جديد .

الناحية الادبية في المظاهر الفكرية : الادب هو التعبير الفني عن فكر الانسان وعواطفه ووصف نواحي حياته . وفي معناه العام تشمله كلمة Lettres الفرنسية و Arts الانكليزية وعندئذ تكون تقاسيمه كثيرة وأهمها أدب اللغة ويشمل الشعر

والنثر بما في هذا الاخير من تنوع (الرسائل والنقد الادبي والقصة والرواية التمثيلية وغيرها) . ومن جملة تقاسيم الادب بشكله العام علوم اللغة ، والتاريخ بما فيه من حوليات وتراجم ومرويات وقصة تاريخية ، والجغرافية بما فيها من كتابة الرحلات ووصف الاقاليم والبلدان ، ثم الفلسفة بما فيها من مذاهب ومدارس وعلم نفس واجتماع واخلاق ومنطق . وتطلق كلمة « أدب » احياناً على المادة العلمية عندما يعبر عنها بشكل فني ، وقد تطلق بشكل تهكمي على كل تمنيق للعبارات بدون معنى مفيد ، او انها تطلق بشكل واسع على كل ما كتب في موضوع معين ان كان علمياً او أدبياً . وبينما كلمة « أدب » في العربية تتضمن مايفيد الذوق والتهذيب فانها في اللغات الافرنجية مشتقة من الحروف التي تكتب بها مادة الادب .

يعتقد دورانت ان الادب نشأ بشكل اغاني دينية او تعاويذ سحرية يتلوها الكهان او تنتقل بصورة شفهية ويستشهد بكلمة Carmina اللاتينية التي كانت تعني « الشعر » عند الرومان كما تعني التعاويذ ؛ كما ان كلمة Ode اليونانية كما لها نفس المدلول اذ تعني السحر وكذلك الشعر ، ومثلها كلمة Lied الالمانية و Lay الانكليزية . والقافية والاوزان قد انشأها السحرة لكي يعطوا قوة للترانيم الشعرية السحرية . واليونان نسبوا اول الاوزان لكهنة دلفي واعتقدوا انهم اخترعوها لتستعمل في الاعمال السحرية . ثم تميز الشاعر والخطيب والمؤرخ عن هذه الاصول الكهنوتية . فالخطيب برز كنائب او كمدافع عن الآلهة او كمادح للملك ، والمؤرخ ظهر كمسجل لاعمال الملك ، والشاعر كمحافظ على الملاحم التاريخية وقصص البطولة بعد ان كان مغنياً دينياً ، وكان كموسيقي يضع الملاحم بشكل موسيقي لفائدة الناس وحكامهم . وبعض المدن القديمة كان لها خطباؤها ومادحوها مثل ليبانيوس في انطاكية في القرن الرابع الميلادي . وبعض القبائل لها خطباء رسميون وقصاصون لاذكاء نار الحماس في الناس وكثير من الادباء والمؤرخين اليوم لا يتعدى عملهم هذه الامور .

والادب متصل باللغة التي بدونها لا يوجد شيء يسمى ادب او تعبير عن حالات النفس وعن نواحي التفكير . واللغة — وهي الاتصال بواسطة العلامات — تتصل

بالنطق والكلام الذي تميز به الانسان حتى سمي الحيوان الناطق . وقد تميز الانسان بدماغه واستعمال ابهامه حيث تمكن من صنع الاشياء ، وبانتصابه التام ، على انه امتاز خاصة بالنطق . ولا نعرف كيف بدأ الكلام . انما بالكلام يصبح البشر بشراً ويبدأ تطورهم الذهني لان الكلمات بالنسبة للفكر كالادوات بالنسبة للعمل . وقد بدأ الكلام باصوات واصبحت لها معان معينة ، كما ان الاصوات نفسها تحولت الى كلام مترابط. ويظهر ان الاشارات والحركات كانت أساسية في نقل الافكار والكلام كان امراً ثانوياً . وذكر ان الاشارات كانت كثيرة في بعض اللغات الهندية حتى ان البعض كانوا لايتمكنون من المحادثة في الظلام ! وربما كانت اولى الكلمات عبارة عن علامات تعجب ثم اشارات الى أشياء ثم أصواتاً تقلد بعض الافعال ، واصبحت فيما بعد كلمات تدل على أعمال او اشياء معينة . واليوم بعد آلاف السنين لانزال نجد هذه الكلمات الدالة في أصواتها على معناها في مختلف اللغات ان كان في أسماء بعض الحيوانات او في بعض الافعال وغيرها (وتسمى Onomatopaea) ومنها قاق وصرصور ودحرج وقهقه وقرقع في العربية ، و giggle و roar و hum و hiss في الانكليزية و murmurer ، و coucou ، و siffler الخ في الفرنسية وربما من هذه العناصر الابتدائية اتت جذور كل لغة .

واللغات الابتدائية قد تكون بسيطة في عدد مفرداتها وتركيبها ولكن معقدة في معانيها . انما تقتصر هذه اللغات على الاشياء المحسوسة او الخاصة وتكون فقيرة في الاشياء المبهمة او العامة . فبعض الشعوب مثلاً لها اسماء خاصة لكل نوع من انواع الشجر ولكن لاتوجد كلمة عامة لتؤدي معنى «شجرة» ومن جهة اخرى فان بعض القبائل ليس لها كلمات تعطي معنى الخوف والامل والجنس والروح والغريزة والعقل الخ . والكلمات تنمو بنمو التفكير وتصبح أدوات التفكير ورموز المدنية ، والمهم ان الكلام واللغة جعلت التفكير اوضح واوجدت صلة بين الاجيال اذ اوجدت وسيلة لانتقال المعلومات والافكار وهكذا زادت في آفاق الانسانية وآفاق المعيشة . كذلك كان من أهم فوائد الكلام امكان وجود التربية . اذ ان المدنية هي مجموعة ماتراكم

من آداب وفنون ومعلومات يغترف منها الانسان لحياته الفكرية . والمدنية تموت اذا لم يأخذ كل جيل من تراث الجنس او العرق ويكتسب منه . والتربية كانت بين الشعوب الابتدائية عبارة عن انتقال المعرفة المسلكية وهي عبارة عن علاقة صانع بعمل والرجل الابتدائي لم تكن له حاجات الرجل الحديث ولا امكانياته وبيئة الانسان الابتدائي جامدة نسبياً لاتتطلب النشاط الفكري وانما الشجاعة والخلق . فالاب يعتمد في ابنه على الخلق كما نعتمد نحن على العقل ، ويريد ان يجعل منه رجلا ولذلك كانت الاحتفالات بادخال الشاب كعضو في القبيلة تهدف الى التأكد من شجاعته وليس معرفته ، والغرض منها اعداد الشاب لصعوبات الحرب ومسؤوليات الزواج . وبعض هذه العادات في مثل هذه الاحتفالات قاسية جداً .

والحياة الادبية تؤثر عليها مؤثرات عديدة منها الاوضاع السياسية كشكل الحكم وتشجيع الحكام للانتاج الادبي ، ومنها الحياة السياسية والاجتماعية التي قد تكون المصادر التي يستقي منها رجال الادب كتاباتهم . فالادباء يستقون كثيراً من مواضيعهم من حياة المجتمع . والفرق كبير بالنسبة لانتاج الادباء بين مجتمع غني بالوان الجد واللهو وبين مجتمع فقير جامد . كذلك يستفيد الانتاج الادبي والملهي بعضه من بعض فضلاً عن انه يترجم كثيراً من الاحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وهنالك الوضع الاقتصادي وما يحدثه من تأثير على حياة المجتمع بوجه الاجمال وعلى الفرص والامكانيات التي يتيحها للمشتغلين بالادب ، وكذلك الاتصالات بين الامم والتفاعل في الافكار والاساليب . وجميع هذه العوامل والمؤثرات تظهر في درس الحضارات وفي ملاحظة نواحيها الادبية .

الناحية العلمية في المظاهر الفكرية : تقسم العلوم الى فئات وانواع أهمها العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية ، والعلوم الفيزيائية . وقد أصبحت كلمة فيزيائية تستعمل بدلا عن «الحكمة الطبيعية» وصارت تضم الكيمياء وعلوما اخرى ، بينما يقصد بالعلوم الطبيعية ما كان يسمى بالتاريخ الطبيعي من حيوان ونبات ومن علوم اخرى تتعلق

بالجراثيم وغيرها حتى ان بعض الجامعات اصبحت لاتفرد كلية خاصة للطب وانما تضع دراسة الطب ضمن الشعبة المعروفة بشعبة العلوم الطبيعية . ومن جهة اخرى فان العلوم تقسم الى نظرية من جهة ، وعملية او تطبيقية من جهة اخرى .

ويظهر كما قال هربرت سبنسر ان العلوم بدأت كما بدأ الادب ، عند الكهان ، وان من اصولها تلك الملاحظات الفلكية المتعلقة بالاعياد الدينية ، وانها كانت تحفظ اولاً في المعابد ثم انتقلت الى الاجيال . ولا يمكن الجزم في كيفية بدء العلم ، على انه كان بالغالب نتيجة الحاجة والبيئة ونوع المعيشة . فالعرب القدماء اقتضت طبيعة حياتهم نشوء علوم الانواء والقيافة والانساب والنجوم وغيرها . وقد يكون من اسباب نشأة العلوم ماتتطلبه الزراعة . اذ ان الهندسة كما يدل عليها اسمها الافرنجي (Geometry) معناها قياس الأرض (حسب اشتقاقها من اليونانية) ثم ان حساب المحاصيل والفصول يتطلب ملاحظة النجوم والاهتمام بالتقويم مما يساعد على نشوء علم الفلك . كذلك أدت الملاحة الى تطور الفلك كما أدت التجارة الى تقدم الرياضيات ، وكذلك تقدم الصناعات ادى الى وضع اساس الفيزياء والكيمياء. ولا ندري فربما كان التعداد من اول اشكال الكلام .والتعداد كان غالباً على الاصابع ومن ذلك ربما اتى النظام العشري . ولما وصلوا الى العدد ١٢ اصبح عدداً مفضلا لانه يمكن قسمته على معظم الاعداد حتى الستة ، وهكذا تأسس النظام الاثنا عشرى الذي بقي عند الانكليز ، والعدد ١٣ لم يمكن قسمته على أي عدد آخر ولذلك ساءت سمعته واصبح يعتبر برهانا لسوء الطالع . واصبحت أعضاء الجسم وحدات للقياس فاستعمل الاصبع ، والشبر والقدم ، والذراع. ولجميع هذه الوحدات مقابل في اللغات الافرنجية ، ثم استعملت الحصى لاجل التعداد ومن ذلك اتت كلمة الاحصاء في العربية ، كما ان فعل يحصي باللغات الافرنجية (calculate , calculer) اتت من كلمة Calculus التي معناها حصى صغيرة .

وبدء الفلك ربما كان قياس الزمن بواسطة حركة الاجرام السماوية . وكلمة « قياس » في بعض اللغات الافرنجية (measure) وكلمة « شهر » (month) ربما

أصلها الكلمة التي تعني القمر (وفي اليونانية معنى القمر mène ، والشهر mên ، والشهر في اللاتينية mensis) . وكان الناس يقيسون الزمن بالاقمار قبل ان يعدوا السنين . وعيد الفصح يحسب اليوم حسب اوجه القمر . على ان استعمال الجو لهذه الامور كان أمراً شاذاً . وعلم التنجيم كان قبل الفلك ، والناس اهتموا بمعرفة المستقبل ربما اكثر من اهتمامهم بمعرفة الوقت ، والخرافات كثيرة على تأثير النجوم على اخلاق الانسان ومصيره ، وفي أعظم مدن العالم اليوم وفي ارقى البلاد ينفق الناس على معرفة مصيرهم بهذه الاساليب .

والانسان الابتدائي يمارس بعض العلوم بدلا من ان يعرفها . فهو يعرف اموراً عملية تتعلق بالنبات والكيمياء والطب ، ويعرف فائدة بعض الاعشاب في شفاء الامراض . على انه من جهة اخرى كان يعتقد ان المرض هو استيلاء روح خبيثة على الانسان تشبه استيلاء الجراثيم اليوم . والشفاء كان يتم بتلاوة عبارات سحرية لطرد الروح الخبيثة او استرضائها . واليوم لاتزال تستعمل الصلوات بجانب الادوية ، وقوة الايحاء في الشفاء لاتزال يحسب لها حساب . هذا فضلا عن ان الانسان الابتدائي كانت له بعض اساليب عملية في معالجة الامراض مثل الفصد والكي وغير ذلك .

المظهر الفني : تقسم الفنون الى فن معماري ونحت ورسم وموسيقى . ولكل من هذه الفنون مدارسه ومذاهبه الفنية . كذلك توجد فنون فرعية او صناعية (Arts mineurs , Minor arts) كالخزف والقاشاني ، والفنون المعدنية ، والمنسوجات والمطرزات ، والزجاج والمشكاوات ، وصناعة الحفر والزخارف الخطية . ويطلق اسم الفنون الجميلة (Beaux arts ، Fine Arts) على بعض نواحي الفن الهامة مثل الرسم والنحت والموسيقى والتمثيل ، وقد تطلق كلمة فنون الافرنجية (Arts) على نواحي الادب المختلفة كما ذكرنا حتى ان التعبير الاميركي لكلية الآداب في كثير من الجامعات معناه الحرفي كلية الفنون .

اما اصل الفن فان المناقشة لاتزال قائمة في شأنه . وقد قال البعض انه نشأ عن رغبة في المحافظة على مايراه الانسان او كمساعد للذاكرة وكرغبة في دوام الاشياء. وقال آخرون ان الرسوم الاولى كانت لغاية سحرية حتى يسيطر الانسان على الحيوان الذي يرسمه او لكي يتقي شره . وقال آخرون ان للانسان غريزة تذوق مشاهدة الاشياء الجميلة ولذلك وجد الفن . والجمال هو الصفة التي تجعل الشيء مرضياً لمن يراه وقد يجوز ، كما قال دورانت ، ان الشيء لايرضي الانسان او يسره لانه جميل بل ان الانسان يسميه جميلا لانه يسر ويعجب به . وكل شيء يرضي رغبة الانسان يظهر جميلا . وقد يعجب الانسان بنفسه ويبدأ الفن بزخرفة الانسان نفسه ، او قد يعجب برفيقته وبنتيجة الدافع المادي والروحي يصبح كل ما يتعلق بها جميلا . او قد ينتج الاعجاب بالقوة من ذلك التجاذب بين الضعيف والقوي ومن الاعجاب بالقوة قد يخرج الفن الرفيع . وتصبح الطبيعة او المدن التي يزورها الانسان او يعيش فيها كذلك جميلة اذا اردنا ان نراها كذلك اذ نطلق عليها شعورنا ونقترن فيها ذكرياتنا .

فالفن اذاً هو خلق الجمال والتعبير عن الشعور والفكر بشكل يظهر جميلا أو رفيعا ، وهذا الشكل الجميل يمكن ان يسرنا بانطباقه على مانشعر به في انفسنا او في ماحولنا من تغير ، وقد يسرنا هذا الشكل لما فيه من تناظر ، او بلونه ، او بواقعيته وتقليده للاشياء بصورة صادقة . ومن هذه المصادر تأتي مظاهر الفن المختلفة من رسم وبناء ، وغناء ، وموسيقى ، ورقص وتمثيل وغير ذلك . ويعتبر دورانت الفلسفة كفن لانها تحاول ان تعطي شكلا هاماً لفوضى الاختبار البشري . والحس بالجمال في المجتمع الابتدائي ضعيف لانه لاتوجد فترة طويلة بين الرغبة الجنسية وبين قضائها وهذه الرغبة هي التي تجعل الخيال يتصور جمال الفريق المرغوب فيه . والرجال عند الشعوب الابتدائية يفكرون في الجمال بالنسبة لانفسهم وليس بالنسبة للمرأة ، والرجل بين هذه الشعوب — كما في عالم الحيوان — هو الذي يضع الزخارف ويكاد يحتكرها وابس المرأة ، وقد يقضي قسماً كبيراً من يومه في التزين.

ومن اول مظاهر الزينة ان يلون نفسه ، وقد يحمل المساحيق بالوان مختلفة . على ان المرأة حصلت بسرعة على فن التزين والتجمل وهو من اقدم الفنون، ثم لم يكتف الناس بالزينة الموقته فارادوا الزينة الدائمة ولجأوا الى الوشم وكأنهم شعروا بانه ليس لهم ثياب يطرزونها فطرزوا جلودهم !

فالرغبة في زخرفة الجسم وتجميله كانت من اول مصادر الفن ، واللباس نفسه ربما كان في اصله زخرفا اكثر منه حاميا ضد البرد او ناتجا عن الحياء . وربما كان القصد منه اظهار محاسن الجسم اكثر من ستر عرائه . كما ان الحلي والمجوهرات كانت من اقدم عناصر المدنية . والرغبة في التجميل صدرت من الشخص نفسه ثم امتدت الى العالم الخارجي . والفن يبدأ عندما يحاول الانسان ان يجمل الاشياء وقد يكون الخزف اول موضوع خارجي ظهر فيه الفن ، وصنع الخزف يصبح فنا حتى قبل اختراع دولاب الخزاف . وعندما كان الخزاف يصنع الاشكال الملونة على سطح الآنية فانه كان يوجد فن الرسم والتصوير . والرسم عند الاقوام الابتدائية ليس فنا مستقلا وانما متصل بالخزف والنحت . والانسان القديم كان يرسم على جدران الكهوف او الصخور المجاورة صور الحيونات التي يسعى وراءها. والنحت متصل ايضاً بالخزف اذ ان الانسان صنع الاشكال والتعاويذ والمواضيع الجميلة من تلك المادة الطرية واراد ان يضع في كوخه صورة المعبود او التوتم الذي يعبده او الرجل الميت .

اما فن البناء فانه ليس مجرد البناء وانما البناء الجميل ، ويبدأ هذا الفن عندما فكر الناس ليس فقط بفائدته وانما بمظهره . وربما وجهت محاولة اعطاء البناء جمالا وسمواً الى القبور اولاً ، وبينما تطور العامود التذكاري الى تمثال فان القبر تطور الى معبد لان الاموات في الفكر الابتدائي كانوا اهم واقوى من الاحياء فضلا عن ان الاموات يرقدون في مكان معين بينما الاحياء يتنقلون دائماً .

وقد يكون ان الانسان قبل ان يهتم بالبناء والحفر اهتم بالايقاع وسر به وبدأ يرقي اصوات الحيوانات والطيور الى غناء ورقص . وقد يجوز ان الانسان بدأ يغني

قبل ان يتعلم الكلام ورقص منذ أن بدأ يغني اذ لا يوجد فن يعبر عن الانسان الاولي ويميزه كالرقص . وقد ترقى الرقص عنده من بساطة ابتدائية الى تعقد تعجز عنه المدنية واصبح اشكالاً كثيرة . والاعياد يحتفل بها برقص اجماعي وافرادي . والحروب تفتتح بخطوات واغاني معينة ، والاحتفالات الدينية كانت مزيجاً من الغناء والتمثيل والرقص . وقد رقص الاقدمون ليعطوا ايحاء او اشارات للآلهة . وسحر الرقص كان يشجع التوالد مثلا . وقد رأى سبنسر ان الرقص نتج عن طقوس استقبال رئيس قبيلة عائد من الحرب بينما قال العالم النفسي فرويد Freud ان مصدره التعبير عن الرغبة الجنسية ، وقد يكون أصله بعض الطقوس الدينية أو مزيجاً من جميع هـذه العوامل . ومن الرقص اتت الموسيقى الآلية والتمثيل اذ ربما ظهرت ضرورة مرافقة الصوت لايقاع الرقص بأصوات مرتفعة والحان . وكانت الآلات كثيرة لاحد لتنوعها وظهر المغنون المحترفون والراقصون وعندما اجتمعت الموسيقى والغنـاء والرقص ظهر التمثيل لان الرقص الاولي كان عبارة عن تقليد حركات الحيوانات والناس ثم صار يقوم بادوار تمثل الاعمال والحوادث . وبعض القبائل تمثل الموت والبعث كما كانت تمثل في العصور الوسطى والحديثة تقريباً بحيث يسقط الراقصون الى الارض تحت عبء الأغصان التي يحملونها ثم باشارة من زعيمهم ينهضون ويغنون ويرقصون لبعث الروح .

إذاً نلاحظ في شروط الحضارة ومظاهرها التي درسناها انه يوجد الشيء الكثير منها عند الانسان الابتدائي فيما سوى الكتابة والدولة . فاساليب الحياة الاقتصادية موجودة من صيد وتربية مواشي وزراعة وصناعة وتجارة ونقل . وبعض تنظيمات الحياة الاجتماعية متوفرة كالعائلة والقبيلة وجماعة القرية ، والحرية والنظام وهما المحوران المتناقضان اللذان تدور حولهما المدنية . والقانون والعدل . وتظهر أسس الاخلاق من تربية وتنظيم العلاقات الجنسية وتعليم صفات الاخلاص والادب

والحشمة والكرامة والشرف . وتوضع أسس الديانة وتستعمل آمالها ومخاوفها لتشجيع الاخلاق ولتقوية المجموع . ويتنوع النطق والكلام الى لغات مختلفة . وتظهر العلوم والآداب والفنون بشكل ابتدائي بسيط . وهكذا تصبح مراحل التطور كثيرة بين الانسان الاول والانسان المتمدن . ولولا الانسان الحجري الاول واختباراته عشرات الآف السنين لما ظهرت حضارة نحن مدينون له بها وورثنا بعض مظاهرها .

❀❀❀

الفصل الخامس

الكتابة ومصادر تاريخ الحضارة

الكتابة ومظاهرها الاولية : بدأت عصور التاريخ باختراع الكتابة وسنورد مجملا عن اهم مراحلها واساليبها . واذا صح ان الحضارة هي الثقافة والمعلومات التي يمكن نقلها ، واذا كانت الكتابة من اهم وسائل النقل والوحيدة التي تحدى المكان والزمان فلا نبالغ بالقول ان الكتابة هي اهم وسيله لحضارة الانسان ، وحيثما وجدت الحضارة وجدت القراءة والكتابة واصبحت اللغة المكتوبة وسيلة للحضارة والعلم والتربية . فالكتابة تعطي المعرفة البشرية صفة الدوام . والبراهين عن حضارة الانسان القديم قليلة حتى نصل إلى عصر الكتابة ووضع الوثائق المكتوبة . ولهذا السبب احترم القدماء الكتابة ونسبها المصريون الى الاله توت Thoth وهو مخترع جميع وسائل الثقافة . وفي بابل كان الاله نبو Nebo ابن مردوخ اله الكتابة ، والصينيون القدماء والهنود وغيرهم اعتقدوا باصل الهي للكتابة،والاساطيراليونانية نسبتها الى هرمس وبوجه الاجمال كان للكتابة مفعول سحري على الناس .

والغريب ان تاريخ الكتابة لايدرس في الجامعات ولا توضع له المعروضات الخاصة في المتاحف . ومعالجة تاريخ الكتابة امر صعب يحتاج من يشتغل فيه الى ان يكون مؤرخاً ولغويا وعالماً بالخطوط وبعلم الانسان والعروق البشرية . وتاريخ الكتابة يدخل في اسس فرعين من العلوم وهما علم الكتابة الاثرية (Epigraphy)

التي توضع لها المجموعات الكثيرة وتترجم الى مختلف اللغات لتسهيل الاطلاع ،وعلم الخطوط (Paleography) . وهذا العلم مهم للنقد والتحقيق في المصادر وبفضله وفضل النقوش الاثرية امكن معرفة حضارات كثيرة . ثم ان هنالك فروعا علمية مختلفة لها علاقة بتاريخ الكتابة منها الفيلولوجيا او علم اللغة ، والغرافولوجيا (Graphology) او علم الكتابة ويتصل خاصة بالاحوال النفسية او البيولوجية المتعلقة بالكتابة ؛ وهنالك فرع يتعلق بمشاكل اصل الابجدية (Alphabetology).

كان تقدم الناس بطيئاً في الناحية الفكرية ويظهر ان مختلف الشعوب قد تطورت حضارتها في مختلف القارات وكانت الكتابة من نواحي تطور تلك الحضارة بصورة مستقلة الى حد معين . والكتابة هي فن خاص بالانسان ـ اكثر من الكلام ـ وتفترض وجود لغة . ومن جهة الاختراع فان الكتابة اهم من اللغة لان هذه ليست اختراعاً بشرياً كالكتابة وانما هي ميزة بشرية . وقد اندثرت عدة لغات ولم يبق لها اثر لانها لم تكتب . والكتابة هي اهم وسائل لنقل الكلام والافكار بين جماعات تفصلها المسافة ويحول بينها الزمن . وهناك وسيلة اخرى وهي الاشارات المستعملة للصم والبكم والمستعملة في التجارة . اذاً الكتابة تسجل اصواتاً آتية من الفم أو أو افكاراً آتية من الدماغ برموز منظورة على الورق أو الحجر أو الخشب اوغيرها. ومن الصعب تحديد وقت معين لبدء الكتابة ولكن لايوجد برهان عن وجود كتابة منظمة قبل منتصف الالف الرابع ق.م .

لاشك أن الابجدية هي أساس كتابة عصور التمدن الحديث ولكنها لم تكن دائماً كذلك . ويلاحظ ان بين أنواع الكتابة تنازعا على البقاء والكتابات التي هي انسب تبقى ، وقد تؤثر الظروف على مصير الكتابة اكثر من مزاياها . وهنالك انواع منوعة من الكتابة وبعضها ليس متسلسلا حسب الزمن وكثير من انواع الكتابة القديمة حتى والحديثة ليست ابجدية وهي ليست دائماً أقدم من الكتابة الابجدية . وقد استعمل الانسان اساليب كثيرة لنقل الافكار كالصور والرموز والاشارات واحيانا مجموعة من اشياء مادية ورموز متفق عليها . والرموز تحفر او

ترسم او تدهن وكذلك صور الاشياء . وقد بدأ الانسان الكتابة برسم الصور ولكن هذه المحاولات للتعبير عن الافكار بصورة تصويرية يمكن ان تكون تابعة لتاريخ الفن او السحر او الكتابة . والاغلب أن رسوم العصر الحجري القديم لم تكن لتدوين الافكار او الحوادث وانما لاجل السحر او الطقوس الدينية ، ونفس الشيء يقال عن الحصى المدهونة بنقط وخطوط في الدور الآزيلي Azilian في العصر الحجري المتوسط ، وكذلك الاشارات الهندسية وصور الناس المدهونة على الصخور والمسماة Petroglyphs اي الرسوم الصخرية من العصر الحجري الحديث والموجودة في بلاد البحر المتوسط . وكل يوم يأتينا باكتشاف جديد من هذا النوع في احدى المناطق . ومن أقدم الرموز التصويرية ما اكتشفه العالم بيتري Petrie على قطع خزف وحجارة في بلاد البحر المتوسط . وتحتوي المجموعة (المعروفة باسم Mediterranean Signary) على ٣٠٠ علامة وكانت متشابهة في كل مكان وتريننا الاتصالات التجارية نحو عام ٥٠٠٠ ق.م . وهي رموز تجارية وليست بحروف . ويلاحظ ان فكرة الكتابة والرسم متشابهة في الكلمة اليونانية Graphein التي تعني الرسم وكذلك الكتابة ، ومنها نشأت الكلمات المختلفة التي تدل على علوم تدخل فيها الكتابة من جهة والرسم من جهة أخرى مثل Calligraphy اي علم الخط و Stenography اي الاختزال ، و Iconography وهو علم رسم الايقونات او الصور وهو من أقدم المراحل في التعبير عن الفكر .

وهنالك أساليب مادية لمساعدة الذاكرة (والتعبير الافرنجي Mnemonic اي مايتعلق بالذاكرة) منها ربط عقدة في محرمة ، او المحافظة على التعداد بواسطة مسبحة ، او استعمال خيط معقد لحساب الوقت والحوادث بحيث تمثل كل عقدة حادثا . وهنالك وسائل لتسجيل القصص أو الرسائل تعتمد على النسيج فيصنع بشكل خاص لرواية حادث أو ابلاغ رسالة . ومن الرموز للتسجيل او تمييز الامور في عصرنا الماركات المسجلة والرموز والشعارات ، ومنها التمغة والاختام ومنها الوشم . وهنالك وسائل رمزية لنقل الافكار منها الشيفرة او مجموعة الاشارات

لارسال الرسائل ، ومنها اساليب في التبادل واشارات في الحفلات الدينية .

انواع الكتابة ومراحلها : كانت الكتابة التصويرية (Pictography) اول انواع الكتابة بحيث أن الصورة تمثل الشيء الذي يراد ذكره ، فالدائرة احياناً تمثل الشمس ، وصورة الحيوان تدل عليه ، وكذلك صورة الانسان . وفي هذا الاسلوب لا توجد كتابة صوتية اي ان الرموز او الصور لا تمثل اصواتاً معينة . فالتصوير هو تمثيل صوري او اشاري (والتعبير الافرنجي هو Semantic المشتق من الكلمة اليونانية Sêma اي اشارة) وليس صوتيا ، والاعلانات الحديثة تحوي هذه المرحلة التصويرية للكتابة . انما الكتابة التصويرية هي غير الرسم او فن التصوير لانها تهدف الى غاية مفيدة عملية وهي رواية حادث وليس فقط تمثيل الشيء المصور وكل اشارة او جزء مما يراد قوله تمثله علامة تصويرية Pictograph . والكتابة التصويرية وجدت في اماكن كثيرة عند الانسان القديم وقد نشأت في الشرق القديم وكريت واسبانيا وفي المجتمعات المتأخرة بين قبائل اميركا الشمالية وافريقيا واستراليا واستعملت قشور الشجر والصخور وصفائح الخشب وجلود الحيوانات لهذه الغاية . ثم تأتي الكتابة الفكرية (Ideographic) وهي ارقى من التصويرية لانها تصور الافكار التي يراد نقلها من شخص الى آخر ، والمراد بالصور هنا ليس الاشياء التي تظهرها وانما الفكرة المتصلة بهذه الاشياء . فالدائرة مثلا لا تمثل الشمس فقط وانما تمثل النهار او النور او الاله المتصل بالشمس. والحيوان لا يمثل بصورة الحيوان وانما برأسه فقط ، وفكرة الذهاب تمثل بقدمين او بخطين يمثلان قدمين والرموز المستعملة هنا تسمى صور فكرية Ideographs . وهنالك اشارات فكرية شائعة في كتابات كثيرة كالعين التي تذرف الدمع بمعنى الحزن ، والرموز التي توضع في بعض الرسائل ومن امثلتها ذلك الطلب الذي رفعته سبع قبائل هندية في أميركا الى حكومة الولايات المتحدة تطلب فيه حق الصيد في بعض البحيرات فصورت سبعة حيوانات مختلفة هي رموز القبائل ويخرج خط من عين كل حيوان

ومن قلبه ويتصل بعين الحيوان الامامي وقلبه الذي يمثل القبيلة التي لها الزعامة بمعنى ان القبائل كلها متفقة على مايقوله الزعيم ، ويخرج خط من رأس الحيوان الامامي اي القبيلة المتزعمة ويتصل بعلامات ترمز الى البحيرات بمعنى انهم يريدون حق الصيد في هذه البحيرات .

هذه الاساليب لا تشكل نظاما كتابياً تاما وفي هذه المرحلة التصورية او الفكرية يمكن قراءة الرموز في اية لغة اذ لاتوجد علاقة بين الرمز وبين اسم الشيء الذي يمثله . على ان هنالك كتابات تصورية او فكرية من نوع آخر مثل المصرية القديمة والاكادية (البابلية الاشورية) والحثية وغيرها وهي ليست فقط تصورية او فكرية وانما صوتية بمعنى ان كل رمز او صورة لها صوت في اللغة الخاصة التي تكتب بها ، والرموز التي لها اصوات معينة يمكن جمعها باشكال مختلفة لاخراج كلمات وافكار مختلفة، وهي لاتمثل الاشياء والافكار فقط وانما الاصوات . وتصبح الكتابة صوتية تماما عندما تصبح الاشكال المكتوبة ثانوية بالنسبة للكلمات التي تلفظ وتفقد تلك الاشكال مدلولها الاصلي حينما تجتمع لتشكيل كلمة او فكرة جديدة ، بمعنى انها تصبح قسما او مقطعا من كلمة . فكلمة détourner الفرنسية مثلا تتكون من ثلاثة مقاطع لكل واحد منها (dé و tour و nez) رمز ولكن عندما تجتمع لتكون كلمة واحدة يفقد كل رمز مدلوله الاصلي ويصبح صوتاً اومقطعا في كلمة جديدة لا علاقة لها بالمعاني الاصلية للرموز التي تتألف منها . وكذلك كلمة Belief الانكليزية التي تتكون من مقطعين لكل منها رمز خاص به ، الواحد رمز النحلة bee والآخر رمز الورقة leaf ولكن عندما يجتمع الرمزان لتشكيل كلمة جديدة معناها « اعتقاد » فان الرموز واصواتها تفقد مدلولها الاصلي وتؤخذ قيمتها الصوتية فقط . وهكذا في كلمة « درفيل » العربية المكونة من مقطعين « در » و « فيل » ولكل منها معناه ورمزه فاذا اجتمعا لتكوين كلمة واحدة يفقد عند ذلك المقطعان مدلولها الاصلي ويصبح كل منها صوتاً او مقطعاً في كلمة جديدة .

وهكذا ننتقل الى مرحلة اخرى في الكتابة وهي مرحلة الكتابة ذات المقاطع.

والكتابات القديمة كانت تتألف معظمها من مقاطع عدة ، وهنالك مجموعة مقاطع بابلية آشورية وحثية وصينية وايجية وغيرها. وتصبح الكتابة معقدة خاصة في بعض اللغات كالآشورية البابلية حيث لا يمكن ان ينتهي المقطع الا بحرف صوتي فلا يمكن ان تكتب اسم «مَرْيَم» مثلاً بمقطعين وانما يجب ان تكتب بشكل مَ-رَ-يَ-مُ هكذا تكثر المقاطع وتكثر معها الرموز التي تمثلها في الكلمة الواحدة. وقد يكون هنالك رمز واحد لمقاطع مختلفة اي ان الرمز له قيم صوتية متعددة ؛ وقد تقرأ الكلمة الواحـدة قراءات متعـددة وذلك بسبب التشابه في اللفظ (او مايسـمى بالافرنجية Homophonie) ، وهذا ما يزيد في التعقيد.

والكتابة الابجدية هي ارقى أنواع الكتابة وانسبها واسهلها وهي آخر المراحل في تطور الكتابة. وفيها توجد حروف تمثل أصواتاً مفردة وليس مقاطع وأفكاراً. والمهم فيها ان نفس الحروف قد تستعمل لعدد من اللغات وبفضل سهولة الابجدية بالنسبة للعدد الضخم من المقاطع في الكتابات الاخرى (حيث اللغة الصينية كانت تحوي ٨٠،٠٠٠ مقطعاً واليوم تحوي تسعة آلاف) فقد شاعت الكتابة ولم تعد مقتصرة على طبقة معينة. واصبحت التربية والتعليم اموراً سهلة. ومما يشهد بأن الكتابة الابجدية مناسبة لحاجات العـالم الحديث انها لاتزال تستعمل منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة بالرغم من اختراع الطباعة والآلة الكاتبة والاختزال.

<u>مصادر تاريخ الحضارة</u> : تأتينا المعلومات عن الحضارات في مظاهرها وعناصرها المختلفة من مصادر كثيرة التنوع منها الوثائق المكتوبة ومنها الآثار المادية. والآثار المادية نفسها من ابنية وتماثيل وبقايا فنية واواني وادوات واسلحة وغيرها قد تكون عليها كتابة وقد تكون خالية منها. وفي عصور ماقبل التاريخ نأخذ معلوماتنا عن الحضارة من الادوات والبقايا المادية وحدها ونستخلص اموراً تتعلق بالاوضاع الاجتماعية وغيرها من هذه البقايا. وهنالك اسلوب متبع لمعرفة حياة شعوب ما قبل التاريخ يسمى باسلوب او نظرية البقايا (Theory of survivals) وهو ان نستنتج من حياة الشعوب غير

المتمدنة اليوم أشياء عن حياة العصر الحجري وذلك بان نعتبر القبائل الابتدائية في العصر الحاضر كانها تمثل الانسان الابتدائي القديم، وان نعتبر كثيراً من عاداتها وأفكارها وخرافاتها كبقايا من عصر ماقبل التاريخ . فاذا وجدناها تستعمل بعض الادوات الحجرية حتى الآن او تتبع اسلوبا معيناً في نظامها الاجتماعي او في تفكيرها قلنا ان تلك بقايا من العصر الحجري . والاعتراض على هذه النظرية هو أنه يكاد يستبعد ان هـذه الشعوب في أمريكا وأوقيانوسيا وأفريقيا قد بقيت آلاف السنين في نفس الحالة الابتدائية التي كانت فيها، أوأن تكون قد بقيت في أوطانها الحالية كل تلك المدة الطويلة ، اذ ان الارض صغيرة ولابد أن الانسان في جميع العصور قـد انتقل من منطقة الى اخرى ،ولا بد ان تكون هذه الآراء والاختراعات كذلك قد انتشرت بسرعة . ولذا فقد نتساءل اذا كان الانسان المتأخر اليوم قد أتته عاداته وخرافاته ونظمه من النظم الابتدائية القديمة أو ان نظمه اليوم هي أشكال مشوهة لحضارات راقية اتته فيما بعد ، او انه بدلاً من أن تكون حياته نتيجة جمود دام آلاف السنين بدون تقدم فانها قد تكون عبارة عن تراجع وانحطاط من حالة أرقى من التي هو فيها اليوم . ومهما يكن فان دراسة حياة هذه الشعوب الابتدائية تلقي ضوءاً على ماكان عليه الانسان في عصور ماقبل التاريخ وهي مفيدة للمقارنة مع حياة الانسان في الماضي .

الآثار والحفريات الأثرية وأهميتها : وعلم الآثار المتعلق بما قبل التاريخ (Prehistoric archaeology) علم قائم بذاته . والعالم الاثري قد يجد عدداً من الاشياء ـ من خزفية وحجرية وحلي وبقايا بيوت وقبور وغيرها ـ ويرى انها كلها تتفق مع بعضها وتشترك في تكوين صورة عن حياة المجتمع حيث وجدت . وتسمى هذه الاشياء أوالآثار التي تكون تلك الصورة الموحدة «مجموعة» (Assemblage) . وعلى الاثري بعد ان يجد هذه البقايا الحضارية ان يتنبه الى انها ليست كل ما يمثل تلك الحضارة وانما قد يكون تلف كثير مثلها بل أحسن منها . ثم عليه ان يكون

قصة من هذه البقايا أو يجري مايسمى بالتفسير الاثري ، والمؤرخ يساعده في ذلك.

والمجموعات التي يجدها العالم الاثري تختلف من مكان الى آخر ، ولكن يتفق ان قسما منها قد يدخل في مجموعات أخرى في بلاد مختلفة كالسيارة والراديو وغيرها اليوم اذ تدخل في المجموعة الحضارية في بلاد مثل سورية او الصين او غربي افريقيا بينما هي المجموعة الاصلية للبلاد التي انتجتها وعرفتها قبل هذه البلاد . ثم ان الاشياء الآتية من طبقات مختلفة قد تتشابه مع انها توجد في مواطن مختلفة للحضارة . وبكلام آخر اذا حفرنا في التلال التي تحوي بقايا المدن القديمة فاننا نجد مثلاً ان الطبقة الخامسة في احد الاماكن تحوي نفس الادوات والنماذج التي في الطبقة الثانية في مكان آخر بمعنى ان هاتين الطبقتين ، الخامسة في المكان الواحد والثانية في الآخر كانتا متعاصرتين. على ان ذلك لايعني دائماً ان الناس في الموقعين قد تاجروا بعضهم مع بعض او نقلوا بعضهم عن بعض بل ربما تاجر الفريقان مع جماعة ثالثة في مكان آخر ونقلوا عنها فالمواد الموجودة في طبقات المدن ترينا الحضارة المحلية والعلاقات بالبلاد الاخرى والتأثيرات المتبادلة فيما بينها، وحيثما تكتشف فان تاريخها تعينة الطبقة التي وجدت فيها والاشياء التي تحيط بها . ثم ان المقارنات بين أشياء من اماكن مختلفة ترينا اتساع توزع بعض الاساليب والفنون في الزمان والمكان وترجع بنا أحياناً الى فجر المدنية في كل منطقة .

والحفريات الاثرية أصبحت اليوم تستهدف الفوائد العلمية والاستنتاجات التاريخية وليس مجرد البحث عن العاديات ، اذ العاديات لم تعد غاية في ذاتها وانما وسيلة لمعرفة الحضارات وتطورها . وعلم الآثار يصبح عبارة عن دراسة الحضارات ، اذان مجموعة الانواع والنماذج الموجودة في وقت واحد او في مكان او في اماكن معينة تمثل حضارة معينة . وقد تحصل الاكتشافات الاثرية بطريق الصدفة مثل اكتشاف حياة انسان الكهوف في الكرمل اثناء تفجير الصخور لبناء ميناء حيفا في عام ١٩٢٨ ، او اكتشاف فسيفساء دفنة قرب انطاكية من قبل فلاح ، وكذلك اكتشاف حضارة رأس الشمرة في عام ١٩٢٩ ، والعثور على مخطوطات قديمة للتوراة في كهف قرب البحر الميت في عام ١٩٤٧

وغير ذلك كثير . ومن صعوبات التنقيب والاهتداء الى حضارات الماضي ان تكون هذه الحضارات مخبأة تحت مدن حديثة آهلة بالسكان. والاثريون يستعينون اليوم ليس فقط باحدث الوسائل للحفر واكتشاف ترتيب طبقات المدن بعضها فوق بعض وجمع المواد الموجودة في كل طبقة ودرسها وتصنيفها ووصفها ونشرها ، وانما يستعينون احياناً بالطائرات لاستكشاف اماكن غير معلومة او لاخذ صور اجمالية عن المواقع ولمراقبة سير الحفريات ، وقد يستعينون بالمجهر (الميكرسكوب) لاجل قراءة الكتابات والاطلاع على دقائق الزخارف ، كما انهم يستعينون احياناً بالاشعة للتطلع الى المومياء ومعرفة بعض التفاصيل عن الاشخاص الذين وجدت مومياؤهم وبوسائل علمية اخرى لمعرفة زمن بعض الاشياء المكتشفة .

ومن الآفات التي تتعرض لها الآثار الناهبون والمستهترون بالآثار . ومنذ عصور قديمة جداً قامت جماعات بنهب الآثار وخاصة المدافن الغنية . وفي عهد رعمسيس التاسع تشكلت لجنة للتحقيق عن نهب القبور الملكية وغيرها فافادت في تقريرها « ان اللصوص قد هاجموا القبور وانتزعوا الموتى من توابيتهم ورموهم فوق التراب وسرقوا جميع الاشياء الجنائزية التي وضعت بجانبهم والذهب والفضة والزخارف التي في التوابيت » . وكذلك نهب العمال الذين دفنوا الملكة شوب عاد Shub-Ad في مدافن اور الملكية قبر زوجها الكائن تحت قبرها وهم يقومون بعملية الدفن وذلك نحو عام ٢٥٠٠ ق.م. في عهد سلالة اور الاولى . ومن حوادث الاستهتار ماحصل للملف البردي المعروف ببابيروس تورينو الملكي الذي كتب في عهد المملكة الحديثة في مصر ويعطي لائحة جميع ملوك مصر وعدد سني حكم كل ملك وعدد سني كل سلالة فيحوي تاريخ نحو الفي سنة. هذا الملف كان بحالة حسنة عندما اكتشف ولكن يقال ان جامع العاديات واسمه دروفيتي Drovetti عندما عثر عليه في قبور طيبة ولم يدر قيمته وضعه في زجاجة فانفرط البابيروس الى قطع صغيرة وكبيرة . ثم انتقل من مجموعة دروفيتي الى متحف تورينو ، وجمعت القطع بعد ذلك ولكن بقيت نواقص كثيرة هيهات ان تعوض . وقد تهمل الآثار الباقية فتتهدم وينقل الانسان الحديث

حجارتها ويستعملها في مبانيه او انه احياناً يبني منزله فوق انقاض المباني القديمة واذا كانت واسعة ضمنها. ولذلك عمدت الحكومات الى العناية بتراث البلاد وقامت مديريات الآثار باعمال الترميم والمحافظة على مابقي ، كما انها اجلت السكان عن المعابد او التلاع التي كانوا يعيشون ضمنها كما حصل في تدمر وفي قلعة الحصن في سورية .

وقد اتسعت كثيراً معلوماتنا عن حضارات الماضي بفضل اعمال الحفر في القرن التاسع عشر وخاصة في القرن العشرين وبنوع اخص بعد عام ١٩٢٠ . ومع ذلك فان هنالك نواقص كثيرة في معلوماتنا ولاتزال بعض الامور لاتجاوز الفرضيات وتختلف في نظريات كثيرة . واخبار هذه الحفريات ونتائجها والمقالات والكتب التي وضعت عنها كثيرة وغزيرة واسماؤها وعناوينها تملأ عشرات الصفحات في بعض الكتب العلمية المتعلقة بحضارات المناطق المختلفة (١) .

ولا يجب ان يظن بان الآثار والحفريات الاثرية تدخل في دراسة حضارات العصور القديمة وحدها . فهنالك آثار من العصور الوسطى كالجوامع والكنائس والقصور والاثاث وبقايا الفنون المختلفة تدخل في مصادر حضارة العصور الوسطى كما ان هنالك آثاراً من العصور الحديثة لابد من الرجوع اليها لدراسة نواحي الحضارة. انما الفرق هو ان بقايا العصور الحديثة لاتزال قائمة او موجودة وكذلك معظم بقايا العصور الوسطى . على ان اعمال الحفر قد تتناول كثيراً من المواقع الاثرية للعصور الوسطى لان بعضها قد زال او تهدم .

<u>الكتابات الاثرية والوثائق ومجموعاتها</u> : وقد وجدت على كثير من الآثار المادية كتابات ونقوش منها على الصخور والجدران وابواب القصور والمعابد وسائر

---

(١) انظر على سبيل المثال لوائح المصادر في مجموعة كليو Clio التاريخية الصادرة في باريس حيث اخبار الحفريات والمؤلفات المتعلقة بالتنقيب في غربي آسية في كتاب ديلابورت Delaporte (وهو الجزء الاول من المجموعة) تملأ صفحات ١٢ ـ ٢٨ ، وكذلك في الجزء الثاني عن تاريخ مصر للعالم دريوتون Drioton ص ٦ — ٢٨ مع مصادر في نهاية كل فصل .

المباني ، ومنها على التماثيل والانصاب والمسلات والاعمدة وشواهد القبور وصفائح المعدن ، وعلى الاواني والاسلحة والاختام وغيرها . وبعض هذه الكتابات تروي لنا اخبار التاريخ السياسي والعسكري من لوائح ملكية في بلاد ما بين النهرين ومصر ، ولوائح اراخنة وقناصل في اليونان وروما ، واخبار الحروب في جدران هيكل الكرنك ومدينة حبو في طيبة ، والعلاقات السياسية في نصب السفيرة اوفي مراسلات ماري مثلا ؛ غير ان بعضها الآخر يفيدنا عن الحياة الاجتماعية والفكرية واسس الديانة مثل تلك النقوش التي وجدت على جدران المدافن في مصر وعلى التوابيت الفينيقية والانصاب الجنائزية الآرامية في مدن سورية ، ومنها ما يفيدنا عن التشريع والاوضاع الاقتصادية مثل النصب الذي يحوي قوانين حمورابي .

انما بقطع النظر عن هذه البقايا المعمارية والادوات الفنية المكتوبة فان هنالك وثائق ونصوص كتبت اما على لوحات الآجر في بلاد مابين النهرين وسورية ، اوعلى البابيروس في مصر ، او في الكتب والمؤلفات المخطوطة ثم المطبوعة في الحضارات التالية كاليونانية والرومانية والبيزنطية والعربية والافرنجية الحديثة . فهنالك الاساطير الكنعانية التي اكتشفت على لوحات الآجر في اوغاريت (رأس الشمرة) وتفيدنا عن الديانة والحياة الفكرية بوجه عام ، وهنالك مرويات ادبية وحكم وقصص ومغامرات وجدت على لوحات الآجر في بلادما بين النهرين وعلى البابيروس في مصر ، وهنالك نصوص تتعلق بالحياة الاجتماعية والاقتصادية كتلك التي وجدت على مجموعات البابيروس الضخمة في مصر من العهد الفارسي واليوناني والروماني والعربي . وهنالك المخطوطات من العصور الوسطى حتى بدء عصر الطباعة وهي سجل للحضارات في مختلف نواحيها . غير ان مشكلة حضارات الشرق القديم هي ان نصوصها كتبت بلغات اصبحت ميتة ولذلك لم تفسر الا في القرن الماضي وبعضها لا يزال قيد التفسير الآن . ولذلك تأخرت دراسة هذه الحضارات بسبب تأخر اكتشاف النصوص وتفسيرها . وهذا ما جعل درس الحضارات الاخرى القديمة

كاليونانية مثلا وما تبعها اسهل واتم بسبب كثرة نصوصها ووثائقها ومعرفة لغتها . وقد اكتشفت النصوص على الآجر في بعض مدن غربي آسية بالآلاف وبعضها لا يزال متراكما في المتاحف ومستودعاتها ينتظر النشر والتفسير والدراسة والتوصل الى النتائج العلمية . وقد يذهب العلماء احياناً لاكتشاف الحضارات ليس في مراكزها الاصلية وانما في هذه المتاحف ومستودعاتها .

ويجب الانتباه الى ان كثيراً من هذه الوثائق لا تزال غامضة لم يدرك كنهها حتى الآن ولذلك تفسر محتوياتها تفاسير مختلفة ، وان كثيراً منها لا يروي الحقيقة كلها او يمزج فيها الخيال بالواقع ، وان بعض المباني قد ازيلت عنها اسماء الذين بنوها ووضعت عليها اسماء اخرى ، او ان المؤرخين حين ذكروا بناءها في عصر احد الملوك لم يذكروا اذا كان ذلك الملك قد بناها او رممها او اعاد بناءها كما يفعل مؤرخ انطاكية واسمه ملالاس في القرن السادس . وفي النصوص الادبية والدينية قد يكون ما وصلنا منها قد جمع في عصر متأخر وادخل فيه النساخ زيادات من عندهم عن قصد او غير قصد . فاقدم مخطوط للتوراة التي كتبت اسفارها وجمعت بين القرن الثامن ق.م. وعصر الميلاد يرجع الى القرن السابع الميلادي ، ولذلك فقد احدث اكتشاف بعض المخطوطات القديمة المتعلقة بالتوراة قرب البحر الميت تلك الضجة لانها ترجع الى القرن الثاني او الثالث ق.م.

وقد وضع العلماء في العصور الحديثة مجموعات لهذه النصوص المأخوذة من مختلف الحضارات ولا يزال بعضهم ينسخون الكتابات الموجودة على الابنية وجدران المعابد بقصد نشرها ودراستها والتعليق عليها . فهنالك مثلا مجموعة الوثائق المصرية القديمة نشرها العالم برستد Breasted في خمس مجلدات، واخرى للوثائق الاشورية البابلية نشرها لوكنبل Luckenbill ، ومجموعة بل مجموعات للكتابات الاثرية باللغات السامية أهمها الـ Corpus Inscriptionum Semiticarum و Répertoire d'épigraphie sémitique ، ومجموعة للكتابات الاثرية العربية Corpus Inscriptionum Arabicarum اشتغل فيها العالمان Van Berchem

و Wiet ، ومجموعات مختلفة للكتابات الاثرية اليونانية واللاتينية .

النشر والترجمة والبحث العلمي : يتعرف العالم الباحث على حضارات الماضي حين يطلع على الوثائق المكتوبة والآثار المادية لتلك الحضارات . ويهيء له علماء الآثار وسائر المشتغلين بالعلوم المساعدة للتاريخ اسباب ذلك الاطلاع عن طريق النشر . والشرط الاساسي في الحفريات الاثرية المتعلقة بمختلف العصور ان ينشر العلماء نتائج اعمالهم فيضعون التقارير الاولية عنها ثم يتبعونها بدراسات ينشرونها بعد ان تجمع لديهم موادها . فاذا وجدوا الآثار المادية فانهم يصورونها ويصفونها ويأتون على ذكر الطبقة التي وجدت فيها والاشياء التي وجدت بجانبها ومخطط المكان الذي اكتشفت فيه ثم ينشرون كل ذلك . واذا اكتشفوا وثائق مكتوبة على ورق البردي او على لوحات الآجر او غيرها فانهم ينشرون الكتابات بحرفها الاصلي ثم ينقلونها الى الحروف اللاتينية على الغالب ثم يترجمونها الى لغات حديثة . وقد تنشر في اول الامر في المجلات المختصة لكي يطلع العلماء عليها ثم تنشر مجموعاتها في كتب مستقلة . ويساعد علماء الآثار في مهمتهم هذه علماء الخطوط واللغات والمصورون والمهندسون . ومن ثم يتناول علماء التاريخ والاديان وغيرهم ممن يهتم بدراسة مختلف نواحي الحضارة ـ يتناولون هذه الوثائق فيجعلونها مصادر دراساتهم ويستنتجون منها المعلومات الهامة ويجرون المقارنات بين محتوياتها وبين محتويات غيرها من الوثائق فيشكلون صورة عن حضارة الماضي ، وهذا ما حصل للوحات ماري التي نشر منها حتى الآن خمس مجلدات ، ولوحات رأس الشمرة التي نشرت في كتب مختلفة وترجمت الى لغات حديثة ترجمات متعددة وصدرت دراسات كثيرة بشأنها . وهذا ما حصل للوثائق الكثيرة التي كتبت على اوراق البردي وخاصة في مختلف عصور التاريخ المصري حيث نشرت وترجمت وظهر علم جديد في بعض الجامعات يقوم على دراسة هذه الاوراق (ويعرف باسم Papyrology) وما كتب عليها من لغات مصرية وآرامية ويونانية وعربية .

اما المخطوطات في العصور الوسطى فقد كتبت بشتى اللغات على انواع مختلفة من المواد وخاصة الورق . وكما حصل في مؤلفات العصر اليوناني والروماني التي عملت منها نسخ متعددة من نفس المؤلف او الاثر الادبي او العلمي فان الآثار الادبية للعصور الوسطى من عربية ولاتينية وغيرها قبل اختراع الطباعة قد نسخت منها نسخ كثيرة اقتنتها المكاتب ودور العلم والافراد. وقد اتفق ان المخطوط الاصلي الذي وضعه المؤلف او الكاتب كان يفقد احياناً وتبقى منه نسخ كتبت في عصور مختلفة وربما كان يتطرأ اليها الخطأ اثناء النقل عن قصد او غير قصد . وعندما اخترعت الطباعة وشرعت دور العلم والافراد في طبع هذه المخطوطات فانه كان لا بد من دراستها وتحقيقها ومقارنة مختلف نسخها الباقية بعضها ببعض قبل نشرها . واهتمت بعض الهيئات العلمية بجمع المخطوطات وانقاذها من التلف والضياع واخذت تنشر المهم منها . وقد انصرف اهتمام الاوربيين في مطلع العصور الحديثة الى نشر مخلفات التراث اليوناني واللاتيني فطبعوا كل ما وصل اليهم من الآثار الادبية وكانوا في اول الأمر يطبعون المخطوط بلغته الاصلية وخاصة اذا كان باللاتينية نظراً لمعرفة العلماء لهذه اللغة حتى انهم كانوا ينشرون بعض المخطوطات اليونانية ويترجمونها الى اللاتينية باعتبار ان جميع العلماء يلمون بها . وكذلك فعلوا ببعض المخطوطات السريانية والعبرانية والعربية في اول الأمر ،غير انهم في القرن الماضي بدأوا يترجمون هذه الآثار الادبية من مختلف اللغات وحتى من اللاتينية نفسها الى اللغات الحديثة . وظهرت ترجمات كثيرة خاصة للآثار الادبية اليونانية واللاتينية ومن اهمها مجموعة صدرت في لندن ونيويورك باسم Loeb Classical Library جعلت الصفحة الواحدة للأصل اليوناني او اللاتيني والصفحة التي تقابلها للترجمة الانكليزية . وهنالك مجموعة مترجمة الى الافرنسية تسمى Les belles lettres. ومن اهم دور النشر لطبع المخطوطات اليونانية واللاتينية في المانيا كانت مؤسسة توبنر Teubner في ليبزك .

وشرع العلماء الاوربيون بنشر المخطوطات العربية في القرن التاسع عشر خاصة

وكان وصل منها جانب كبير الى مكاتبهم واخذ علماء اميركا في القرن الحالي ينشرون بعضها بعد ان انتقل كثير منها الى ايديهم .

وكذلك اهتم العلماء ودور العلم والمجامع العلمية في البلاد العربية بنشر تراث حضارتهم بعد وصول الطباعة الى بلادهم . وهنالك طبعات لبعض المخطوطات تفضل على غيرها وتسمى طبعات علمية لان نصها ضبط بعناية اكثر واشير الى اختلاف القراءات في الهوامش ، ووضعت مقدمات تشرح ما يجب شرحه بشأنها كما وضعت الفهارس في نهايتها لتسهيل مراجعة بعض المواضيع فيها . وطبعت بعض الكتب المتشابهة في مواضيعها في مجموعات منها المجموعة الجغرافية العربية التي طبعت في لندن . ولم يكتف العلماء بطبع هذه الكتب العربية وانما ترجموها الى لغاتهم فمنها ماترجم الى الالمانية والافرنسية والانكليزية والروسية والايطالية والاسبانية ومنها ماطبع بنصه العربي فقط . ومنها مادخل في مجموعات تتعلق بتاريخ عصر معين كتلك المجموعة التي نشرها ميشو Michaud في عام ١٨٢٩ باسم Bibliothèque des croisades وهي اربعة مجلدات تحوي ما كتبه المؤرخون عن الحروب الصليبية وفي الجزء الرابع كتابات المؤرخين العرب ترجمها الى الافرنسية رينو Reinaud.

وقد اهتم العلماء ايضاً بجمع ونشر وثائق تتعلق بحضارة العصور الوسطى والحديثة في الغرب ، وهذه الوثائق هي عدا عن الآثار المادية التي جمعت في المتاحف آثار أدبية من مذكرات ومراسلات رسمية او خاصة وخطب ومحاضر جلسات وغيرها. ودور المحفوظات والمكاتب تحوي معظم هذه الوثائق المتعلقة بالعصور الحديثة ويمكن الرجوع اليها بسهولة نظراً لكونها مكتوبة في اللغات الحديثة ولحسن تبويبها . اما وثائق العصور الوسطى فكثير منها مكتوب باللاتينية وبعضها باللغات الحديثة ، وقد نشر اكثرها في مجموعات حسب مواضيعها او في مؤلفات منفردة . ودخلت بعض الوثائق في مجموعات تتعلق بنواح خاصة من تاريخ الحضارة او بتاريخ بلاد او مقاطعة او رجل معين اوفئة من الرجال. واهتمت بعض الوثائق المجموعة

في العصور الحديثة بنواح لم توجد من قبل وذلك تبعاً لتطورات الحياة الاجتماعية والاقتصادية وللعلاقات الدولية .

واصبح يترتب على الباحث ان يحصر ابحاثه في دائرة ضيقة معينة في الزمان والمكان لكي يحيط بموضوعه كل الاحاطة وذلك بسبب كثرة الوثائق التي بين يديه . كذلك اصبح البحث العلمي يتطلب الرجوع الى المصادر الاولية التي هي الوثائق الاصلية ومختلف مجموعاتها بين مادية وكتابية لكي يتعرف على الوجه الحقيقي للحضارة . والوصول الى الحقيقة يتطلب هذا الرجوع الى المصادر بحيث يتمكن الباحث ان يناقش ويقترح وجهات نظر جديدة بناء على ما يراه في تلك المصادر . اما اذا اكتفى بمراجعة ما يسمى بالمصادر الثانوية — اي التي اخذت عن المراجع الاولية — فان بحثه يكون ناقصاً ولا يمكنه ان يرى الاما رآه غيره فلا يأتي بشيء جديد ولا يفهم روح العصر الذي يكتب عنه . واذا رغب في اعطاء صورة حقيقية لنواحي حضارة عصر او بلد، وفي فهم تلك الحضارة فانه يشترط ان يحيط علماً بلغة ذلك العصر او ذلك البلد حتى يقرأ النصوص المتعلقة بها بلغتها الاصلية وذلك افضل واسلم من وجهة علمية من ان يقرأها مترجمة .

مراجع الباب الاول

١) التاريخ : اهدافه ، اساليبه ، قيمته التربوية :

مقدمة ابن خلدون ، بيروت ١٩٠٠.

اسدرستم : مصطلح التاريخ . بيروت ، ١٩٣٩ .

Ch. V. Langlois et Ch. Seignobos. Introduction to the Study of History (Translation from French by G. G. Berry). New York, 1926.

Halphen, Louis : Introduction à l'histoire. Paris, 1948.

Scott, Ernest. History and Historical Problems.

Shotwell, T. T . The History of History. Rev. Ed. New York, 1929.

٢) مجموعات التاريخ العام :

Evolution de l'humanité. (Sous la direction de Henri Berr) Paris.

تحوي هذه المجموعة من الكتب معلومات عن حضارة مختلف العصور وقسم منها مترجم الى الانكليزية تحت عنوان :

History of Civilization. New York.

مجموعات أخرى في التاريخ العام :

Peuples et civilisations (Sous la direction de Halphen et Sagnac). Paris, 1926.

Histoire génèrale (sous la direction de G. Glot z). Paris 1929.

Cambridge Ancient History.

Cambridge Medieval History.

Cambridge Modern History.

٣) كتب عامة في تاريخ الحضارة وفي دراسة شروطها ومظاهرها :

Duranf, Will : The Story of Civilisation. New York, 1942.

مترجم الى الافرنسية ، والعربية بعنوان قصة الحضارة .

Swain : History of World Civilisation. New York, 1946.

Toynbee, Arnold J. A Study of History. Abridgment by D. C. Somervell. Oxford, 1949.

مترجم الى الافرنسية .

Toynbee, Arnold J. Civilization on Trial. New York, 1948.

Thorndike, Lynn : A Short History of Civilization. New York, 1932.

Turner, Ralph : The Great Cultural Traditions. 2 vols. New York, 1941.

Wells, H. G. Outline of History. New York, 1931.

Febvre, Lucien : La terre et l'évolution humaine (Introduction géographique à l'histoire). Paris.

مترجم الى الانكليزية في سلسلة تاريخ الحضارة .

Semple, E. C. The Influence of Geographic Environment. 1911

Huntington, E. Civilization and Climate. 1905.

Vendreys, J. Le langage (Introduction linguistique à l'histoire). Paris.

مترجم الى الانكليزية .

Pittard, E. Les races et l'histoire. (Introduction ethnologique à l'histoire). Paris.

مترجم الى الانكليزية .

Childe, G. What Happened in History. Pelican Books. 1948.

Braidwood, R. Prehistoric Men. Chicago, 1948.

De Morgan, J. l'Humanité préhistorique. Paris.

Gettell, Raymond G. History of Political Thought. New York. 1925.

Frankfort, H, and others. The Intellectual Adventure of Ancient Man. Chicago, 1946.

Frankfort, H. Kingship and the Gods, Chicago, 1948.

مترجم الى الافرنسية .

Moore, G. F. History of Religion. 2vols. New York 1937.

Potter, Charles F. The Story of Religion, New York, 1929.

Frazer, Sir J. G. The Golden Bough. One Vol. Edition. New York, 1930.

Freud, Sigmund : Totem and Taboo. Leipzig. 1913.

Krappe, Alex. Mythologie Universelle. Paris.

Sarton, George. Introduction to the History of Science. Baltimore, 1930.

Westermarck E. Origin and Development of the Moral Ideas. London 1917.

Westermarck, E. A Short History of Marriage. New York, 1926.

Gardner, Helen. Art Through the Ages.

Lavedan, Pierre. Histoire de l'art. 2 vols. Coll. Clio. Paris.

Faure, Elie. History of Arts. 4 vols. New York, 1921.

٤) الكتابة ومصادر الحضارة :

Diringer, D. The Alphabet. London, 1949.

Février. Histoire de l'écriture.

Driver, G. R. Semitic Writing. 1944.

Gelb, I. J. A Study of Writing. Chicago, 1952.

Brion, Marcel. Résurrection des villes mortes. 2 vols. Paris, 1937.

Gardner, E.A. Archaeology.

مترجم الى العربية بعنوان « علم الآثار » ترجمة محمود حمزة وزكي محمد حسن القاهرة ، ١٩٣٦ .

Kenyon, Kathleen. Beginning in Archeology.

الباب الثاني

حضارة الهند والشرق الاقصى

الفصل السادس

حضارة الهند قبل الحكم الاسلامي

الهند واقدم سكانها : قامت اقدم حضارات الهند على ضفاف انهارها . وتقسم هذه البلاد الواسعة من حيث مراكز حضارتها الى اربعة اقسام وهي : أولاً : القسم الشمالي الغربي في وادي السند وروافده حيث مقاطعة البنجاب او مقاطعة الانهار الخمسة . وكانت محطة أنظار الغزاة والفاتحين من اواسط آسيا ومن الغرب نظراً لخصبها وفيها دارت معارك كثيرة . ثانياً : هندستان الواقعة بين الهمالايا وبين جبال فنديا في شمالي الدكن . وقد قامت الدول الآرية هنا على ضفاف انهار الغانج وروافده . ثالثاً : منطقة الدكن حتى نهر كرشنا ، وقد سكنتها قبائل المهراتا

المشهورة بمقاومتها . رابعاً : الهند الجنوبية حيث سكن الدراويديون Dravidians المختلفون عن الآريين .

سكنت الهند بعض الشعوب منذ العصر الحجري ولا تزال بقاياها موجودة في بعض الغابات وعلى حدود الدكن وفي الهند الوسطى وتعيش على الصيد وبعض الزراعة وتعبد الارواح . واقدم حضارة رأتها الهند قبل قدوم الآريين كانت في وادي نهر السند في الشمال الغربي وترجع الى نحو ٢٥٠٠ ق . م . وقد اكتشفت حديثاً في مركزي هرابا Harappa في البنجاب وموهنجودارو Mohenjodaro في السند . وقد وصف السيرجون مارشال Marshall هذه المدينة الاخيرة فقال انها كانت مبنية بالآجر المخبوز ولها شوارع عريضة وأقنية لتصريف المياه وكان سكانها يصنعون الخزف المدهون والادوات من البرونز والتماثيل الصغيرة من الحجر، وقلائد من الذهب والفضة والاصنام المزدانة بصور الحيوانات . وقد وجدت على الاختام كتابة لم تفسر حتى الآن . وربما كان لهؤلاء السكان علاقة بالسومريين في بلاد الرافدين . على انه لا يعلم بالضبط من اين اتوا وربما اخضعتهم قبائل هبطت من المناطق الجبلية .

كذلك قبل ان يدخل الآريون الى الهند سكنها شعب يعرف بالدراويديين في قسمها الجنوبي وقد يكون دخلها قبل فجر التاريخ ولا يعرف اصله غير ان بشرة هذا الشعب مائلة الى السواد وانفه عريض وشعره كثيف .

الآريون والنظريات عن اصلهم : ثم يأتي الآريون في النصف الاول من الألف الثاني (بين ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ ق . م .) وقد دخلوا من الشمال والشمال الغربي واحتلوا سهل الغانج . وبعد ان قاوموا السكان الاصليين تغلبوا عليهم . وكان دخولهم بموجات اتت لتسكن البلاد ومعها قطعانها ولم يعمد الآريون الى قرض الدراويديين الذين سبقوهم بل احتقروهم وسموهم بالعبيد Dasas .

وهنالك نظريات كثيرة عن أصل الآريين أو الهنود الاوربيين . ومن نظريات

القرن الماضي أنهم أتوا من البامير أو من باكتريا فذهبت فرقة منهم الى ايران والهند وأخرى اتجهت الى اوربا ، وكانوا يرون في اللغة السنسكريتية اللغة الأم للهجات الهندية الاوربية ، على انه وجد فيما بعد ان اللهجات الاوربية القديمة هي بنفس مستوى السنسكريتية . وهناك نظرية بان غربي سيبريا التي كانت منعزلة عن سائر المناطق بالجموديات والبحيرات كانت موطن الجماعة الهندية الاوربية . وترى نظريات اخرى موطنهم الاصلي في تركستان الصينية والروسية ، أو سواحل البلطيك . وتعتقد مدرسة المانية ان اصلهم في سهول شمالي المانيا بين البلطيك وجبال الكربات بينما تقول جماعة اخرى بان اصلهم في جنوبي روسيا بين الدانوب و وادي الفولغا الجنوبي أو في وادي الفولغا الاوسط .

وهنالك ميل شديد الى اعتبار منطقة اوراسيا الواقعة بين بحيرة بالكاش والدانوب كموطن أصلي للهنود الاوربيين ، ففي هذه المنطقة حصلت اختلافات في اللهجات وصار يمكن ادراك وجود مجموعات لغوية . ومن أهم هذه المجموعات تلك التي بنيت على اساس لفظ حرف C في كلمة Cent حيث لفظها البعض مثل حرف ك ولذلك عرفت بلغات الـ Kentum (كنتم) وهي اللغات الجرمانية والكلتية واللاتينية . اما في المناطق الشرقية فقد لفظت مثل حرف س وعرفت بلغات الـ Satem (ساتم) مثل لغات البلطيك والسلافية والارمنية والايرانية والسنسكريتية . على ان هنالك خطوطاً لغوية متشابهة (Isoglosses) بمعنى خطوط تحوي عناصر لغوية مشتركة تجعل تقسيم اللغات مختلفاً وعلى اسس اخرى .

والمقارنة اللغوية تسمح باستنتاج امور تتعلق بهذه الشعوب الهندية الاوربية ولها صلة ببعض مظاهر حضارتها . فجميع اللهجات تتشابه مثلا في الكلمة الدالة على رئيس العائلة او الرجل المسيطر : وهي كلمة despotès في اليونانية ، وdampsati في السنسكريتية و dominus في اللاتينية ، ولذلك فان العائلة كانت كما يظهر مبنية على السلطة الابوية . وكذلك يوجد تشابه في اللفظة الدالة على الجنس او القبيلة وهي كلمة genos اليونانية و janas السنسكريتية و gens اللاتينية . كما ان لفظة

« ملك » أيضاً تتشابه في rig الكلتية و rex او regis اللاتينية و raj السنسكريتية. والتشابه موجود في الكلمات التي تدل على افراد العائلة مثل الاب والام ، وكذلك في الارقام مثل رقم سبعة وهو في اليونانية hepta و saptem في اللاتينية ، و sapta في السنسكريتية و hapta في الايرانية .

والكلمات الاصلية المشتركة الدالة على الماشية تدل على حياة الرعي عند جميع هذه الشعوب ، فالماشية التي تقابلها pacu في السنسكريتية و pecu في اللاتينية و fihu في الجرمانية (ومنها كلمة vieh حيث الحرف ف هو تخفيف ب p) تعني الثروة أي Pecunia . وتوجد كلمات مشتركة لتأدية معنى ثور وغنم وخيل ونير ، وعربة ودولاب . وكذلك اهتم الهنود الاوربيون بالزراعة وكلمة « فلح » لها كلمات متشابهة في اليونانية aroô ، وفي اللاتينية aro ، والايرلندية airim ، والليتوانية ariu ، والمحراث في الارمنية معناه arawr .

وفي مسائل الدين ظنوا ان هنالك تشابها بين الآلهة عند الشعوب الهندية الاوربية . وقد اتضح ان الكلمة التي معناها « الآلهة » هي كلمة مشتركة بين هذه الشعوب . فهي في السنسكريتية deva ، وفي الليتوانية dëvas ، وفي الغالية dèvo وفي اللاتينية divi و deus ؛ وفي اليونانية dios هي نعت اي « الهي » . وهذه الكلمة أيضاً تعني السماء المضيئة أو الاهة النور . والسماء تعبد واحياناً تسمى « السماء الآب » عند هذه الشعوب كما في Zeus Pater اي زفس الآب او السماء الآب عند الاغريق ؛ و Jupiter عند اللاتين ، و Dyauspita في السنسكريتية . والانسان يظهر في هذه اللغات بمعنى « الارضي » واسمه في اللاتينية homo ؛ وهذه الكلمة تتصل بكلمة humus أي الارض والتراب ، ولها علاقة بكلمة mortel اي « فاني » وفي السنسكريتية martya . ويقابل « السماء الأب » من جهة اخرى « الارض الأم » وهي في السنسكريتية Mata frithivi وفي اليونانية Ge Mâter .

فالهنود الاوربيون اذاً كانوا في اواخر حياتهم المشتركة قبل ان يتفرقوا رعاة متنقلين ولكنهم عرفوا الزراعة او انهم جمعوا هذين الاسلوبين في حياتهم فالاسلوب

الواحد يوافق الجبل والآخر يوافق السهل وهذا مادعا بعض العلماء ان يقولوا ان سهول المجر ومرتفعات النمسا وبوهيميا كانت مهداً لهذه الشعوب . وقد خرجت هذه الشعوب الهندية الاوربية من العصر الحجري واستخدمت النحاس ودجنت الحصان واستخدمته في المركبات واعطاها ذلك تفوقاً على الشعوب الاخرى المجاورة التي كانت اكثر حضارة منها لان حضارات الشرق القديم كانت تجهل الحصان . وسمح استعمال المركبات لهذه الشعوب ان تنتشر بسرعة في مختلف أطراف آسيا واوربا . ويعتبر توزع الهنود الاوربيين في نهاية عصر النحاس الاوربي اي نحو عام ٢٠٠٠ ق م . وربما في منتصف الالف الثالث . وعندما يدخلون في التاريخ يكونون قد توزعوا ، ويظهر ان رابطتهم كانت واهية وطرق هجرتهم غير معروفة. وظهرت المجموعة الهندية الايرانية في الشرق وسمت نفسها آرياس Aryas ومنها اتت كلمة الآرية والآريين ومن فروعها الميديون والفرس والهنود ، والباكتريون والصغد ، والارستوقراطية الميتانية ، والحثيون والسكيثيون والسرماتيون. وزال التشابه العرقي مع الزمن ولكن التشابه اللغوي بقي .

تقسيم العصور التاريخية : يقسم بعض المؤرخين تاريخ الهند الى اقسام لاتتفق مع التقسيمات التقليدية لعصور التاريخ . فبدلاً من أن يعتبروا نهاية الهند القديمة في القرن الخامس (عند سقوط الدولة الرومانية في الغرب) فانهم يعتبرونها في القرن الحادي عشر عندما بدأ حكم المسلمين في الهند . والعصور الوسطى للهند بالنسبة اليهم اذاً هي فترة حكم السلالات الاسلامية حتى بدء الاستعمار الاوربي في القرن الثامن عشر حيث يبدأ تاريخ الهند الحديث . والواقع ان في هذا التقسيم كثيراً من المنطق لان سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية في ٤٧٦ هو نهاية التاريخ القديم بالنسبة الى بلاد اوربا والشرق الادنى . ومع ذلك فان بلاد الشرق الادنى تنتهي فيها العصور القديمة بعد زوال الحكم البيزنطي الذي هو متمم للحكم الروماني ، وتبدأ العصور الوسطى هنا بالفتوحات الاسلامية في القرن السابع .

ومفهوم العصور الوسطى كذلك يختلف بالنسبة لاوربا وبالنسبة لسكان هذه البلاد. ومع ذلك فان بعض المؤرخين يحتفظون بالنسبة الى الهند بالتقسيمات التقليدية ويعتبرون مابعد القرن الخامس العصور الوسطى ويبدأون العصر الحديث بالاكتشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر .

حضارة الهند القديمة في عصر الفيدا : ان اقدم عصور حضارة الآريين في في الهند هو عصر الفيدا Veda الذي يقبع تمركز الآريين في البلاد أي بين عامي ٢٠٠٠ و ١٠٠٠ ق.م . ذلك لان مصدر معلوماتنا عن الهنود الآريين في هذا العصر هو مجموعة اغاني الفيدا . وتعتبر هذه اقدم اثر ادبي في اية لغة هندية اوربية في الشرق والغرب . وهي عبارة عن ترانيم وتضرعات للآلهة الآرية تردد وقت تقديم الاضاحي وقد انتقلت قبل عصر الكتابة عن طريق جماعة عرفوا بالاسياد Rishis. وهنالك ثلاثة انواع من الفيدا (وكلمة فيدا معناها معرفة وهي المعرفة لكسب رضى الخالق) وهي : الريغفيدا او فيدا الاناشيد، والساما فيدا Samaveda وهي فيدا النغمات والتراتيل عند شرب شراب السوما، والياجورفيدا Yajurveda وهي فيدا القرابين . وهاتان الاخيرتان تستعملان للمراسيم الدينية خاصة . وهناك فيدا رابعة للتعاويذ والسحر وهي اثارفافيدا Atharvaveda . وتحتوي الريغفيدا Rigveda على ١٠٢٨ اغنية لآلهة مختلفة وقد وضعت في اوقات مختلفة . والواقع ان هذا الاثر الادبي هو كتاب الهنود الرئيسي وهو مصدر معرفتنا عن دياناتهم الاصلية .

يستنتج من الفيدا ان الهنود كانوا يعيشون في هذه الفترة على الزراعة ورعي المواشي ولهم اله خاص للارض المحروثة، وثروتهم هي المواشي، والكلمة تفيد الدراهم ايضاً. ولم يكن لديهم في اول الامر حنطة ولا ارز فكانوا يزرعون الشعير ويأكلون خبزه وفي الحفلات كانوا يشربون عصير نبات يسمى السوما ويعتبرون ان هذا الشراب المسكر يعطي الخلود ويمتدحونه في كتبهم الدينية . ويتضح من الفيدا

وجود الخيل والمركبات كما ان الفيدا تذكر صنائع الهنود وفنونهم من نسيج وصنع خزف واستعمال الذهب والنحاس. وكانت من وسائل لهوهم المصارعة وسباق المركبات والموسيقي . وظهر المغنون المنشدون لمدح اعمال البطولة وكانت اهم عيوبهم المقامرة واستعمال النرد، وتذكر الاغاني شرور هذه العادة .

ومن اهم اسس الحياة الاجتماعية في الهند نظام الطبقات الذي تذكره الفيدا . والكلمة الهندية لطبقة هي Varna التي تعني اللون ، لان الآريين احتقروا السكان الأصليين السود . واعلى الطبقات الهندية هي الكهنة او البراهمة الذين يحتكرون انشاد الفيدا ويعتقدون انهم اتوا من رأس الاله براهما او من فمه ، ويأتي بعدهم المحاربون Kashatriyas (من كتفي ويدي براهما) ؛ ثم المزارعون والتجار واصحاب الحرف Vaisyas (من فخذي براهما) ، ثم الخدم Sudras (من قدمي براهما) وهم من نسل السكان الاصليين ويعيشون خارج القرى . وهنالك الذين لا ينتسبون الى طبقة معينة (المنبوذون) وهم نحو اربعين درجة لهم نوع خاص من اللباس . ولا يمكن التقدم من طبقة الى اخرى كما انه لا يمكن التزاوج بين طبقتين الا بين الاولى والثانية وذلك في عصور معينـة . وهذا النظام يحافظ على المهن التقليدية ويولد التعاون بين افراد الطبقة الواحدة ولكنه يؤدي الى التحاسد ويؤخر نمو الشعور القومي فضلاً عن انه لا يتفق مع الروح الديمقراطية. والحياة السياسية في عصر الفيدا كانت على اساس الملكية ، وكان ملوك القبائل محاطين بجماعة من المحاربين والكهان كما ان الملك كان يستشير مجلس الكبراء بينما يوافق مجلس الشعب على اعماله . والقانون هو العرف ويستشير فيه الملك احد علماء الدين . وليس من وجود لحكم الاعدام وانما يكتفون بدفع الاموال ، والجريمة نسبية حسب الطبقة التي ينتسب اليها الفريقان . وكان النبلاء يحاربون في مركبات ويلبسون الدروع بينما العوام يحاربون كمشاة .

اما الديانة فانها كسائر ديانات الهنديين الاوربيين قائمة على عبادة قوى الطبيعة، وتذكر الفيدا عدداً كبيراً من الآلهـة منها آلهة الجو (الشمس والقمر والهواء

والعاصفة) وآلهة الارض والانهار المقدسة . وقد تصور الهنود الآلهة بشكل بشري وكان من اهمها اندرا Indra اله العاصفة الذي يأتي بالمطر ومن مظاهر قوته الرياح الموسمية، وربع اناشيد الفيدا موجهة له، وهنالك آغني Agni إله النار الذي يمثل الشمس في السماء والنار المقدسة في الارض وخمس اناشيد الفيـدا مخصصة له وهو يشبه ابولون اليوناني اذ يسوق خيله ومركبته ويزيل المرض . ووظيفة الآلهة هي حماية الناس من الجوع والمرض، والتقدمات التي يقدمها الكهنة فقط هي الرابطة الوحيدة بين الآلهة والناس. وكان الهنود يحرقون الميت ويذرون رماده في النهر اما الروح فتذهب الى حيث يقيم ياما yama إله الاموات فيحاكمها وبحسب سلوك الانسان في الحياة الدنيا فان الاله ياما يكافيء الروح او يعاقبها . ولم يكن الهنديون قد اعتقدوا بالتقمص بعد .

وتحتوي الفيدا على افكار وتعاليم نبيلة تتعلق بالاستقامة والنقاوة . وبعض الاغاني الهامة تتوجه الى الاله فارونا Varouna وقد يكون نفس الاله اليوناني اورانوس وهو اله السماء. وقد علم الزعماء الدينيون سابقاً ان الآلهة هي مظهر الاله الواحد. وهنالك شبه بديانة الايرانيين فالاله اهورمزدا يشبه الاله فارونا. اما ديانة الايرانيين اصلحها زردشت وزالت منها بعض الآلهة القديمة . ومبادىء الديانة الهندية بقيت انما طرأ تغيير على مظاهر الديانة ومن ذلك انه لم تكن توجد صور ولا معابد في اول الامر كما ان آلهة جديدة تأتي فيما بعد وتحل محل الآلهة القديمة .

ويرى البعض انه ربما كان في الديانة الهندية بعض الاقتباس من حضارة الشرق الادنى وافكاره وان الريغفيدا ربما لم تكن نتاج حضارة هندية اوربية تماماً لانه اذا وصل الآريون الى الهند بطريق آسية الصغرى وهضبة ايران فلا بد انهم تأثروا بحضارة البلاد التي مروا فيها ومنها بلاد ما بين النهرين .

حضارة عصر البطولة والديانة البراهمية : تقع حضارة هذا العصر في النصف الاول من الالف الاول (بين ١٠٠٠ و ٥٠٠ ق . م) وكان الآريون يندفعون

بصورة دائمة حتى انتشروا في وادي نهر الغانج وروافده . ومصدر معلوماتنا عن هذه الفترة هو ملحمتان تسميان الماهابهراتا Mahabharata او قصة اسرة بهراتا والرامايانا Ramayana او تاريخ راما . وهذه الملاحم هي اناشيد كتبت لتنشد عندذهاب الملوك الى الحرب اوفي البلاط والحفلات. ولاشك انه اضيف الشيء الكثير الى الملحمتين فالماهابهراتا تعتبر اطول قصيدة في العالم وتحوي مائة الف بيت وهي قصة حرب هائلة تدور رحاها في منطقة دلهي اليوم بين فرعي قبيلة بهراتا واخيراً يتغلب احد الفرعين على الآخر . وفي القصائد تفاصيل عن القبائل التي تحالفت مع كل من الفريقين ، وفيها خطاب يسمى « الاغنية السماوية » يتكلم عن واجب المحارب ، وفيها اقاصيص تشبه ما في الاليـاذة والاوديسي اوفي قصص الرحلات القديمة . ومنها ان امرأة تجد زوجها المفقود بعد ان تجول مدة سنين للبحث عنه، وامرأة اخرى تنقذ زوجها من إله الموت ببطولتها . وتنسب هذه الملحمة الى الحكيم فياسا Vyassa . والرامايانا تروي قصة الملك راما الذي انتزعت العرش منه زوجة ابيه فالتجأ الى الغابات وهناك اختطف ملك الغابة زوجته وهرب الى جزيرة سيلان ولكنه تمكن اخيراً من انقاذها وعاد لحكم في مملكته .

كتبت الفيدا والملاحم باللغة السنسكريتية . وقد اهتم الهنديون بالملاحم واستخدمها كتاب المسرحيات والقصاصون وغيرهم واصبحت النساء المذكورات فيها المثل الأعلى للمرأة الهندية . وبما ان الكثيرين لم يمكنهم قراءتها بالسنسكريتية فقد اصبح بامكانهم قراءتها عندما ترجمها الكاتب الهندي تولسي داس Tulsi Das الى اللغة العامة المعروفة بالهندية في القرن السادس عشر .

يتضح من الملاحم انه كانت توجد في عصر البطولة ممالك صغيرة تحارب بعضها بعضاً وان قوة الملك كانت آخذة بالازدياد ولكن لم تكن هنالك امبراطوريات. كذلك كانت المدن تتطور وتخطط وتبنى حولها الاسوار . وأهم اعمال الملك كانت الحرب وفيما سوى ذلك فانه كان يقضي قسماً من وقته في الصيد وسائر انواع اللهو. والملاحم تظهر لنا عادة الضيافة وروح الفروسية والمروءة وعدم التعرض للنساء والاطفال

والشيوخ في الحرب وعدم قتل المحارب اذا التجأ الى خصمه . ومنزلة المرأة كانت رفيعة وتذكر المهابهراتا ان الزوجة هي « نصف الرجل واصدق اصدقائه وينبوع الفضيلة الدائم والفرح والثروة ، والرفيقة في الوحدة والراحة المرور في برية الحياة» . وكذلك في الرمايانا تقول سيتا زوجة راما عندما يأخذون زوجها وتصر على مرافقته « ان امي علمتني وكذلك قال ابي ان مكان المرأة هو بقرب زوجها والزوجة الامينة لزوجها هي كالظل بالنسبة للمادة فهي لا تفارقه الا اذا فارقتها الحياة» .

يظهر في عصر البطولة عدا عن الاله اندرا المحارب ثالوث الهي مؤلف من براهما الخالق وشيوا Shiva المهلك ، وفشنو Vishnu الحافظ . والهندوسيون اليوم يتبعون اما شيوا او فشنو . وقد تجسد الاله فشنو على الارض لينقذ البشر واهم اشكال تجسده هي في راما وكرشنا Krishna ابطال الملاحم ويعبدهما الهنود ايضاً . وقد وضعت الاساطير والقصص عن خلق العالم وعن الآلهة وجمعت في كتب تسمى البورانا Puranas اي القصص القديمة . وظهرت تفاسير لشرح الفيدا تعرف باسم برهمانا وكذلك ظهرت تعاليم ومناقشات تعرف باسم او بانيشاد Upanishads وهي مناقشات ميتافيزيكية لمعرفة العالم والقوة الالهية التي تسيره . وتقول احدى هذه التعاليم ان المعرفة الحقيقية تؤدي الى عدم الخوف من الموت وان اتحاد الشخص بالروح العالمية يمكن الوصول اليه بتحرير العقل من القيود المادية وبالوصول الى حالة تشبه السهاد بدون احلام .

ومن جهة التعليم فان الذي في طبقة الكهنة او البراهمة يجتاز اربع مراحل : فالاولى هي التلمذة وفيها يتعلم الفيدا وشروحها ، والثانية هي المرحلة التي يصبح فيها رب عائلة . وتتبعها مرحلة التنسك حيث يهيم المتعلم في الغابات ويقتات من فضلات المحسنين ، ثم في المرحلة الرابعة يصبح « فقيراً » او زاهداً متجولاً ويتقرب من الآلهة . والتعليم كان شفهياً حتى لا تصل المعرفة اذا كتبت الى الطبقات الدنيا . اما الابجدية

فيظهر انها وصلت الى الهند عن طريق الجنوب الغربي من تجار قادمين من البحر الأحمر وخليج فارس ومن هناك انتشرت نحو الشمال .

ظهور البوذية والجاينية : ظهرت في هذه الفترة اعتقادات جديدة منها التقمص بمعنى ان الروح تولد مرات متعاقبة فاذا عاش الانسان باستقامة يولد ثانية كعضو في الطبقات العليا ، واذا عاش بغير استقامة فانه يولد ثانية كحيوان . ويمكن ان يتحرر من الولادة ثانية باتباع نظام دبني اسمه اليوغا yoga اي « بوضع نير على العقل » .

وقد حصل رد فعل ضد البراهمية لان الكهنة اصبحوا اقوياء والطقوس تعقدت كثيراً والناس كانوا يجهلون لغة الكتب المقدسة . وقام بالثورة ضد الكهنة البراهميين معلمان من طبقة المحاربين في القرن السادس ق . م . وكان الاثنان من عائلات امراء في شرقي وادي نهر الغانج . فمؤسس الجاينية مهافيرا Mahavira (٥٥٠ — ٤٧٧ ق . م.) كان اميراً ولكنه ترك الامارة وراح يعذب نفسه مدة اثنتي عشرة سنة بشتى الطرق واخيراً اتاه الهدى بدون مساعدة الكهنة وبقي زاهداً ولذلك لقب الجينا Jina اي الغالب . واسس رهبنة كان فيها نحو ١٤٠٠٠ من اتباعه عندما توفي. اما مؤسس البوذية غوتاما سيدهاتا (٥٦٣ — ٤٨٣) فقد دعي «البوذا» اي المستنير او الذي اهتدى وكان ابن امير منطقة على حدود نيبال في شمالي الهند . وقد كره مظاهر المرض والبؤس كما كره الكسل والترف في القصور فترك العالم وراح يطلب الحقيقة والنور . وبعد تجوال دام ست سنوات وحياة تقشف اتاه النور وهو تحت شجرة وقام يبشر بعبادته . وجمعت تعاليمه من قبل خمسمائة راهب من اتباعه . وتقسم الكتب المقدسة التي تشكل تعاليمه الى ثلاثة اقسام : اولاً نظام الرهبنة او الطريقة البوذية Vinaya ، ثانياً اقوال المعلم ونكاته Suttas ، ثالثاً القضايا الفلسفية Abhidhamma .

والشبه بين الجاينية (او الجانتية) والبوذية هو ان الاثنتين تنكران سلطة

الفيدا وادعاء الكهنة البراهمة بانهم وحدهم يقومون بالطقوس الدينية . والمذهبان يعلمان في لغة الشعب (Prakrit) وليس بالسنسكريتية لغة الكهان . ويدخل في المذهبين جماعة من مختلف الطبقات ومن الجنسين . وتدخل « الكارما » كعنصر هام في تعاليم الطرفين وهي قضية الارادة فاذا عاش الانسان وفكر بصورة صحيحة تخلص من الكارما ويصل الى ما يسمونه بالنيرفانا Nirvana بمعنى انه لا يعود يولد . وللوصول الى النيرفانا او انتهاء جميع اشكال الرغبة يجب اتباع خطة النقاوة والصفاء في الفكر والقول والعمل وتجنب القتل والسرقة والزنى والابتعاد عن الكذب والطمع واللذات والرغبات . ووصايا البوذية هي وصايا اخلاقية والمذهبان يهتمان بالسلوك القويم وبالمعرفة الصحيحة وليس بالمراسم والتقدمات كما انهما ينظران الى العالم كشر ويحبذان تشكيل الرهبنات. انما الجاينية تشجع الزهد التام واماتة النفس بينما البوذية تتبع الطريق المعتدل . فهي تعتقد ان الرغبة هي اصل الالم ولاجل استئصال الالم يجب نبذ الرغبة واتباع ما يسمونه بالممر الاوسط . والنيرفانا هي نهاية جميع اشكال الرغبة والوصول الى الكفاية والرضا التام .

وقد بقيت الجاينية في الهند بينما اصبحت البوذية ديانة نحو نصف آسيا وكان لها اثر في نشر المدنية في بلاد الشرق الاقصى فهي من أعظم ما اعطته الهند للعالم. وقد اعتبر مؤسسا هذين المذهبين كائنين الهيين بعد مدة من وفاتهما . ومن اهم تعاليم بوذا الاعتماد على النفس حيث يقول انه لا ينقذنا الا انفسنا ، فلا الصلوات ولا التقدمات تفيد شيئاً وكل انسان مسؤول عن نفسه وصانع نفسه. ويمكن ان يحسن الانسان لنفسه فقط بالافكار الصحيحة والاعمال الصحيحة ، ويمكن ان يسيء الى نفسه فقط بالنيات السيئة والاعمال السيئة. ومن الاقوال الواردة في احد اناجيل البوذية الذي يدعى طريق القانون Dhammapada « البغض لا ينهيه البغض وانما ينتهي البغض بالمحبة » .

حضارة الهند في عهد آزوكا وسلالة الموريا: كانت اهم ممالك الهند في القرن السادس ق . م . اي زمن بوذا في شرقي وادي نهر الغانج واهمها مملكة مغادا Magadha التي ظهرت فيها سلالة Saisunaga في ٦٥٠ ق. م .ودامت حتى ٤٥٩ق.م. وفي زمنها ظهرت البوذية والجاينية . ثم تبعها تسعة من المغتصبين عرفوا باسم ناندا Nanda ودام حكمهم حتى٣٢٥ق.م.حين ظهرت سلالة الموريا Maurya التي اسسها شندرغوبتا Chandragupta . وكان هذا الفاتح الهندي معاصراً للاسكندر الكبير ويمكن اعتباره مؤسس اول امبراطورية هندية وعاصمته باتاليبوترا Pataliputra ودامت سلالته حتى عام ١٨٥ ق.م. وقد تمكن من قهر سلوقس بعد موت الاسكندر وكانت الدولة السلوقية تصل حدود الهند . وتزوج من اميرة يونانية كما انه اهدى الى سلوقس خمسمائة فيلاً للحرب. واوفد سلوقس احد رجاله واسمه ميغاستنيس Megasthenes كسفير الى بلاطه فكتب كتاباً عن الهند يعتبر اهم مرجع عن هذا العصر .

واشهر ملوك سلالة الموريا آزوكا Asoka (٢٧٣ - ٢٣٢ ق . م .) وهو حفيد شندرغوبتا . وقد أصبح بوذياً بعد اثنتي عشرة سنة من بدء حكمه وأظهر أسفه الشديد على ما قام به في حملته على منطقة اوريسا من قتل وتشريد ، وسجل ذلك بعبارات مؤثرة ، ولم يقم بعد ذلك بحرب هجومية وانصرف الى اعمال التقى والخير في مملكته . وفي عام ٢٤٩ ذهب لزيارة الاماكن المقدسة ، واقام عاموداً تذكارياً في مكان مولد بوذا بعد سبع سنوات وعقد مجلساً لمراجعة بعض التعاليم البوذية وكتبها المقدسة . واشتهر بعطفه على رعيته، وشبه الحكام وكبار الموظفين بالممرضات اذ « كما تهتم الممرضة بسعادة الطفل فالحكام يهتمون بسعادة الرعية » . ومن اعماله انه اراد منع قتل الحيوانات، وأسس المستشفيات وحفر الآبار وزرع الاشجار وكان له مراقبون يطلعون على سير الامور في الدولة . كذلك اهتم آزوكا بنشر البوذية ومبادئها فارسل بعثات التبشير الى سيلان وبورما وبفضله

أصبحت هذه البلاد و كذلك سيام بوذية . وكان لعمله هذا فوائد للحضارة لان تلك البلاد كانت ابتدائية وتاريخها انما يبدأ بدخول البوذية اليها بالنظر للنظام الاخلاقي الذي أدخلته و كذلك لما حمله المبشرون البوذيون معهم من مظاهر الحضارة . وبالاجمال فان الهند لم تشاهد حكماً مزدهراً انتشر فيه السلم لمدة ثلاثين سنة مثل حكم هذا الملك . وكانت طرق التجارة البرية والبحرية تصل بين الهند واوربا عن طريق باكتريا وبحر الخزر والبحر الاسود كما أنها تصل الهند بالاسكندرية عن طريق المحيط الهنـدي والبحر الاحمر . والتجارة كانت لها أنظمة وضرائب وفي أسواق العاصمة كانت تشاهد التوابل وأدوات الزينة واللؤلؤ والذهب والفضة من جنوبي الهند ، والجلود والسجاد من آسية الوسطى ، والقطن والحرير من بورما والصين . والرقيق كان معروفاً ولكن معاملته حسنة والنقود كانت خشنة المنظر بينما النقود اليونانية كانت مستعملة بكثرة . وقد اعجب السفير اليوناني ميغاستنيس باخلاق الهنود وصدقهم حتى أنه ذكر أن البيوت لم يكن لها أقفال .

انتشر التعليم في هذه الفترة بفضل الادرة البوذية وقد قيل ان انتشار الامية في الهنـد في زمن حكم الانكليز اكثر منه في عهد الملك آزوكا . ولغة العلم كانت السنسكريتية ولكن اللغة الرسمية للامبراطورية كانت لغة مقاطعة شرقي الغانج التي تكلمها بوذا . وتعتبر كتابات آزوكا الاثرية أقدم وثائق مكتوبة في اية لغة هندية.

كان البوذيون يشيدون مرتفعات بالآجر تعرف باسم ستوبا Stupas لوضع تذكارات وبقايا أدوات البوذا ، وكان يبنى حولها حواجز . وقد بنى آزوكا سلسلة منها ولم يلبثوا ان شادوا لها ابواباً أثرية ونقشت نقوش بديعة تمثل حياة البوذا على هذه الحواجز والابواب . واقام آزوكا عشرة أعمدة تذكارية ارتفاع اعلاها نحو أربعين قدماً من قطعة واحدة .

انتهت دولة الموريا في عام ١٨٥ ق . م . واسس أحد قوادها اسرة سونغـا Sunga التي دامت حتى ٧٣ ق.م. ثم تلت هذه الاسرة سلالة كانفا Kanva التي دامت نحو نصف قرن وانتهت في ٢٨ ق. م.

اليونان في شمال غربي الهند والتفاعلات الحضارية : توصل الفرس الى حكم البنجاب ووادي السند في شمال غربي الهند بعد عمليات استكشاف قام بها سكيلاكس Scylax في عام ٥١٦ ق. م. وبعد أن قضى الاسكندر المكدوني على دولة الفرس وتوغل شرقاً حتى كابل رأى ان يفتح وادي السند في ٣٢٧ ق. م. فتم له ذلك واحتل تاكسيلا Taxila عاصمة البنجاب وكان فيها جامعة تدرس فيها الفيدا والطب والقانون . وكان يصحب الاسكندر جماعة من العلماء والمؤرخين . وحارب الاسكندر في المنطقة المجاورة ملكاً اسمه بورس (Porus او Paurava) وكسره في وادي نهر الجيلوم (المعروف ايضاً باسم Hydaspes) وكان في جيش الهند عدد من الفيلة . ولم يتمكن الاسكندر من السير الى وادي الغانج بسبب ثورة جنوده فعاد الى بابل عن طريق البر بينما عاد قسم من جنوده بطريق البحر. وتمكن الملك الهندي الذي أسس سلالة الموريا (واسمه شندرغوبتا كما رأينا) من اجلاء اليونان عن البنجاب وكذلك تمكن من صد هجوم سلوقس خليفة الاسكندر في آسيا . غير انه قامت دولة يونانية في باكتريا (بلخ) بجوار وادي السند وكان اعظم ملوكها مناندر Menander . واقتبست هذه الدولة اليونانية عادات الهند وحكمت البنجاب حتى عام ١٣٠ ق . م . واصبح ملكها مناندر بوذياً . وتقدم هذا الملك نحو الشرق ففتح مدينة ماثورا Mathura في وادي الغانج ثم عاد الى مملكته عندما أتاه غزاة فاتحون من قبائل الساكا .

دخلت قبائل الساكا (السكيثيون) والقبائل الفرثية الى الهند في عام ١٣٠ ق . م . وحكمت منطقة البنجاب . وكان احد أمراء الفرثيين غوندوفيرنس Gondophernes ويقال ان في بلاطه استشهد المبشر المسيحي توما حسب كتاب وضع في الرها وفي رواية اخرى انه استشهد قرب مدراس نحو عام ٧٢ بعد ان قضى عشرين سنة في جنوبي الهند . وفي منتصف القرن الاول الميلادي دخلت قبائل الكوشان من غربي الصين الى الهند وحكمت البنجاب حتى عام ١٨٢ م

حين بدأ حكمها يحط وكان اعظم ملوكها كانيشكا Kanishka الذي امتد حكمه حتى وادي الغانج وأواسط آسية فاستولى على طريق الحرير كما انه كان صديقاً للرومان . ومع ان الآلهة التي وجدت رسومها على نقود هذا الملك كانت زردشتية ويونانية وهندية الا انه اصبح في النهاية بوذياً . وكانت البوذية بسيطة في اول الامر لعدم وجود طبقات ولقولها ان الانسان اذا عاش حياة صالحة لا يولد ثانية . وكانت البوذية بشكلها البسيط تعرف باسم الاداة الصغيرة (Hinayana). ولكنها تعقدت في المناطق الشمالية في اواسط آسية حيث اصبح البوذا إلهاً واصبح لها صور واصنام ومعابد ذات مذابح وثياب خاصة للكهنة وموسيقى وبخور ومواكب وأصبحت تعرف باسم الاداة الكبرى (Mahayana) . وبهذا الشكل الشمالي وصلت البوذية الى التيبت والصين واليابان بواسطة الطرق التي فتحها الكوشان . واصبح البوذيون يعتقدون ان البوذا تجسد عدة مرات على الارض كما ان سائر الديانات كالبراهمية والجاينية صارت تعتقد بتجسد الهها (١) .

كان كانيشكا ملك الكوشان يشجع الادب والفن كما أنه كان يجمع علماء البوذية في بلاطه . وبتأثيره وتأثير البوذية تهذبت اخلاق الرحل في اواسط آسية . وكان اعظم علماء بلاطه اسفاغوشا Asvaghosha الذي كتب الروايات ووضع تاريخ حياة بوذا بالسنسكريتية وترأس المجلس البوذي الاعلى الذي اجتمع في كشمير لتقرير المسائل المختلف عليها في البوذية . واستخدم هذا الملك بعض رجال الفن من اليونان لزخرفة مبانيه وكان يوجد فنان يوناني في خدمته اسمه اجيسلاوس Ageslaos . ووضع الفنانون اليونان صوراً لبوذا بشكل الاله ابولون وبقي تأثير هذا الشكل اليوناني في الصين والهند. وعرفت مدرسة الفن الهندي اليوناني هذه

---

(١) وتعرف هذه التجسدات عند البوذيين باسم بوذيساتفا Bodhisattvas وعند البراهمة باسم Vaishnavas نسبة الى فشنو. وعند الجانيين باسم Tirthankaras .

باسم مدرسة غندرة (Ghandara) بالنسبة الى المدينة الرئيسية في شمال غربي الهنـد .

وعلى ذلك فقد كانت التأثيرات الخارجية من الغرب تؤثر على الهند منذ القرن السادس ق . م. حتى القرن الثالث م . فالفرس حكموا البنجاب مدة قرنين وقد تكون كتابة المراسيم التي كتبها آزوكا على الصخور مقتبسة من كتابات داريوس وسائر ملوك الفرس على الصخور مثل حجر بهستون ، والاعمدة التي اقامها آزوكا تشبه أعمدة برسبوليس عاصمة الفرس . كذلك تعلم البراهمة والبوذيون عمل الصور لآلهتهم ووضعها في معابد من اليونان في البنجاب ومن الصناع اليونان الآتين من سورية . وبالاجمال فقد أخذ البناؤون والنحاتون الهنود اموراً مختلفة عن اليونان كما ان الهنـد قلدت نقود اليونان والرومان . ويحتمل ان تكون الهند استعارت اصطلاحات رياضية وفلكية من الاسكندرية . وربمـا تأثرت المسرحية الهنـدية باليونانية لان روايات اليونان كانت تمثل في بلاط مناندر ملك باكتريا . وباعتبار حسن العلاقات بين الهند وبين اليونان والرومان في القرون الميلادية الاربعة الاولى فقد كان كثيرون من تجار الهند يزورون انطاكية وتدمر والاسكندرية كما ان سفن اليونان كانت تزور موانئ الهند والمسافة بين حدود الامبراطورية الرومانية والهند كانت ٦٠٠ ميلا .

وهنالك مناقشات من جهة اخرى عن مدى تأثير الهند على الفلسفة اليونانية القديمة قبل زمن سقراط[1]. ومن الامور المقررة ان العلاقات كانت موجودة براً وبحراً بين الهند والبلاد اليونانية. فالمدن اليونانية على ساحل آسية الصغرى الغربي كان يحكمها الفرس وفيها نشأ علمـاء يونان مشهورون مثل كزنوفانس Xenophanes

---

(١) انظر رسالة جورج كونجر George P. Conger : Did India Influence Early Greek Philosophy (Philosophy East and West vol . II , July 1952) .

وهرقليتوس Heraclitus . والعلاقات التجارية كانت معروفة بين ليديا في غربي آسية الصغرى وبلاد الشرق . كما ان دولة الفرس كانت لها صلات مع الهند وهنالك تشابه في النظر الى القوى الآلهية في اشعار هوميروس وفي الريغفيدا كقوى مجردة وليست كأشخاص ، كما ان كثيراً من القصائد الفلسفية المتعلقة باللانهاية وبالعناصر وبالتقمص متشابهة عند الهنود واليونان . وكذلك نجد التدرج نحو التوحيد في كتابات كزينوفانس اليوناني وفي الاوبنيشاد . وبعض العلماء يرجعون بهذه التشابهات الى الازمنة البعيدة التي كان فيها اجداد الهنود واليونان شعباً واحداً .

علوم الهند القديمة : لم يكن العلم مهملاً في الكتابات الهندية الدينية مثل الفيدا والبرهمانا والسوترا (القواعد) . وأهم العلوم المعروفة قديماً في الهند الطب والرياضيات . وكان الطب والجراحة يمارسان منذ القرن السادس ق. م ويدرسان. وكانت توجد جامعتان في الهند في عهد بوذا الواحدة جامعة Kâsi او بنارس في وادي الغانج والثانية جامعة تكسيلا في وادي السند. وكان الطبيب آتريا Atreya يدرس في هذه الاخيرة بينما معاصره سوسروتا يدرس في الاولى . وكان سوسروتا طبيباً وعالماً يقرن الملاحظة بالتجربة ويصف عمليات تتعلق بالفتق وامراض العين والجراحة التجميلية ، كما انه كان يصف الآلات الجراحية المستعملة . وكانت بعض مبادىء التشريح والفيزيولوجيا وامراض النساء والاطفال وتشخيص المرض والنباتات الطبية معروفة . اما المعلومات الرياضية فقد وضعت في السولفا سوترا Sulva Sutras اي قواعد الوتر التي كتبت بين ٤٠٠ و ٢٠٠ ق . م . وتتعلق بقواعد بناء المذابح في مراسم الديانة الهندوسية وتحوي مبادىء بناء المربعات والمستطيلات ودساتير لقلب الدائرة الى مربع بنفس المساحة وبالعكس .

حضارة الهند بين القرنين الرابع والسابع : اصبحت منطقة شرقي وادي الغانج مرة اخرى مركز حضارة هامة في الهند في القرن الرابع حين تأسست

سلالة الغوبتا Gupta (دامت ٣٢٠—٤٩٠ م). وكان من اهم ملوكها سمودرغوبتا Samudragupta ابن مؤسس السلالة . وقد لقب حديثاً بسبب حروبه وفتوحاته « نابليون الهند » اذ وسع رقعة مملكته في شمالي الهند وجنوبها وكان زيادة على ذلك شاعراً وموسيقياً . ويرجع الى عصره شعر يدعى بالملحمة الرسمية كتبه شاعر العرش باللغة السنسكريتية ونقش على العامود الذي كان اقامه الامبراطور ازوكا في مدينة سميت فيما بعد الله آباد . ولما وصلت مملكة الغوبتا الى ساحل الهند الغربي احتكت بالافكار الغربية عن طريق التجارة مع الاسكندرية .

وفي منتصف القرن الخامس تأتي قبائل الهونا (الهونيون المغول) الى الهند وكان قسم منهم قد اتجه نحو وادي نهر الفولغا في شرقي اوربا ثم اغار على غربي اوربا بينما قسم آخر احتل الهند الغربية واسس دولة لم تلبث ان زالت في القرن السادس واندمج الهونيون بالشعب الهندي واعتنقوا الديانة الهندوسية .

كان ازدهار الهند عظيماً في فترة حكم سلالة الغوبتا ومصدر معلوماتنا عنها هو كتابة الرحالة الصينيين الذين كانوا يأتون الى الهند لدراسة اللغة السنسكريتية وجمع المخطوطات والآثار البوذية وزيارة الاماكن المقدسة المتعلقة بحياة بوذا . وكان من اهم هؤلاء الرحاله فاهيان Fa Hian الذي اقام في الهند بين ٤٠٥—٤١١ واتى عن طريق الحرير الذي يمر بالتركستان ثم عن طريق كشمير وعاد بطريق جاوة بعد مغامرات كثيرة . وقد تكلم عن المستشفيات المجانية في الهند وعن منع الكحول وانواع الخمور ومنع قتل الحيوانات. وترقى الادب في هذه الفترة وسمي العصر « بعصر النهضة الهندية » نظراً لازدهار العلم والادب والفن . وقد تطورت الروايات المسرحية وبرع فيها الشاعر كاليداسا Kalidasa الذي عرف بشكسبير الهند فيما بعد وكانت له ايضاً اشعار غنائية منها شعر يسمى « رسول الغيوم » حيث يرسل رجل منفي رسالة مع الغيوم الى زوجته في منطقة الهيمالايا . وبعثت الديانة البراهمية الهندوسية في زمن هذه السلالة ووضعت المجموعة القانونية (التي

تسمى Manava Dharma Sastra) وتحدد حقوق وواجبات الطبقات الاربع . كذلك يكتبون في هذا العصر الشعر الفلسفي المشهور « باغنية الحرب » وهو من اشهر المؤلفات الدينية السنسكريتية .

وتتطور العلوم في هذا العصر بين القرنين الثالث والسابع ويساعد في تطورها انتشار الكتب التي تكتب بالحبر على قشور الاشجار او بقلم من حديد على سعف النخل. وازدهر الفلك والرياضيات وتأثرت هذه العلوم بمدرسة الاسكندرية . ووصف العلماء حركات الشمس والقمر والسيارات وتحدث احدهم عن الجاذبية . وفي الطب كانوا يجرون العمليات الجراحية ويشرحون الجثث . اما في الفن فقد صوروا البوذا بشكل آله له هالة حول رأسه واصبحوا يرسمون على جدران المعابد . وتعطينا كتابات الحجاج الصينيين صورة عن المباني وزخارفها . وصنع الهنود التماثيل من النحاس واقاموا عاموداً ضخماً في موقع قرب دلهي . وكانت الاتصالات قائمة بين شمالي الهند وبين اليونان والفرس والصين . والرحلات البعيدة الى الاسكندرية من جهة والى جاوة وساحل الصين من جهة اخرى كانت مألوفة .

وينتقل مركز الحكم بعد زوال سلالة الغوبتا الى وادي الغانج الاوسط وهنا يظهر امير يسمى هارشا Harsha (٦٠٦ — ٦٤٧) ويصبح ملكاً ويحارب حتى تخضع له الهند الشمالية ويملك في مدينة كانوج Kanaug شرقي اغره ونستقي معلوماتنا عن عصره اولاً من ملحمة وضعها احد الشعراء واسمه (بانا Bana) وثانياً من كتابة حاج صيني بوذي اسمه هيون تسانغ Hiuen Tsang قضى ١٥ سنة في الهند منها ثمان سنوات في بلاط هارشا بوظيفة « سيد القانون » وكتب عن مناطق الهند وعاداتها ومشاهداته فيها . وكان الملك هارشا يفتش المقاطعات بنفسه ويقيم في معسكرات من الخيزران انما النظام والامن لم يكونا كما في عهد اسرة الغوبتا. وكان التعذيب مستعملاً في القضاء . غير ان اعمال البر والمستشفيات كانت موجودة كالسابق . ووصف السائح الصيني الشعب فقال انه مستقيم لا يعرف الغش ولا الخيانة

ثم ذكر ان الضرائب كانت قليلة وهيكل الحكم كان بسيطاً . ووصف جامعة نلندا Nalanda في شرقي الغانج بقاعات محاضراتها التي تبلغ المائة وباحاتها وغرف الكهنة فيها . وكان يصل عدد الطلاب احياناً الى العشرة آلاف . والطلاب يقول انهم جديون والنظام كان شديداً وضرورات الحياة من ارز وحليب وزبدة كانت تأتي من القرى المجاورة . والسعي وراء العلم كان من متعلقات الحياة الدينية واقصى العقوبات في جامعة نلندا كانت الطرد. ومن العيوب ان يعود الانسان الى الاعمال الدنيوية بعد ان يدخل في سلك الدين والعلم فاذا طرد فانه يجول على الطرق العامة بلا مأوى وقد يضطر للعودة الى مهنته الاصلية . وفي الجامعة كانوا يدرسون القواعد والطب والمنطق وعلم النفس . وفي الامتحان يجاس الطالب للمناقشة فاذا اجاب بعبارات محكمة ومنطق سليم واظهر تعمقاً وبحثاً فانه يركب فيلاً ويلبس ثياباً ثمينة ويقودونه الى باب الدير واذا فشل فانهم يرمون عليه الطين ويرمونه في حفرة كعلامة احتقار .

ويصف الرحالة الصيني الاجتماع الديني والموكب العظيم الذي كان يحصل كل خمس سنوات وما يرافقه من مناقشات دينية . كذلك كانوا يقيمون ما يشبه الاسواق التي تدوم ٢٥ يوماً ويوزع فيها الملك اشياء كثيرة . وعندما عاد الرحالة البوذي هيون تسانغ الى الصين استقبلته جميع الطبقات وقضى حياته يترجم وينشر المخطوطات التي جلبها معه .

وهكذا فقد كانت الهند مزدهرة و كان حكامها يشجعون الادب والفن. ووضع الملك هارشا نفسه المسرحيات ومنها تلك التي عنوانها « عقد اللؤلؤ »وكان خطاطاً ونجد توقيعه محفوراً على كل نقوشه الاثرية . وعندما توفي تجزأت مملكته وبدأت البوذية تضعف وكانت المنافسة قويه بينها وبين البراهمية في عهد هارشا، وقام احد الامراء في البنغال فاحرق الاديرة البوذية والمكان الذي فيه اثر قدم بوذا في بوذغايا . وكان اثر الكهنة لايزال قوياً ونظام الطبقات بقي قوياً ايضاً . وانتهى الامر بان امتصت البراهمية الديانة البوذية ولم يبق بوذيون في الهند

اليوم ولكن البوذية انتشرت في سائر بلاد الشرق الاقصى . انما تركت البوذية اثراً في البراهمية وبسببها تركت هذه الديانة الاخيرة التضحيات الحيوانية .

حضارة الراجبوت وانتشار البوذية والبراهمية خارج الهند : حصلت الفوضى بعد وفاة هارشا في ٦٤٧ ولكن النظام عاد في اوائل القرن التاسع . وكانت قد دخلت قبائل جديدة الى الهند ادخلت معها عادات جديدة . وكان اصحاب الشأن في هذه الفترة الجديدة الراجبوت (والكلمة تعني حرفياً ابناء الملوك Rajput) الذين سكنوا منطقة شرقي السند ثم انتشروا في هندستان كلها . ولم يكونوا غالباً من اصل واحد فقسم منهم متسلسل من النبلاء الآريين والقسم الآخر من الغزاة . وكان معظم امراء الراجبوت من الهندوسيين البراهمة ماعدا سلالة بالاس Palas البوذية . وكان ابناء الراجبوت ينشأون كما ينشأ الفرسان في اوربا في العصور الوسطى ، ويصبح الشاب فارساً بعملية تقليد السيف او الرباط على السيف (Karg bandai) ومهمته ان يحارب لاجل رئيسه وان يساعد الضعفاء والمساكين ويدافع عن الكهنة وعن البقرة . وفي هذه الفترة ازدادت اهمية المنشد الذي كان يشيد باعمال البطولة . واشتهرت النساء بالشجاعة وكن يحرقن انفسهن بدلاً من الوقوع في الأسر . وكان مصدر ضعف الراجبوت انهم كانوا في حرب متواصلة بعضهم مع بعض وانتهى حكمهم بدخول المسلمين الى الهند .

ومن قبائل الراجبوت الحاكمة في هذه الفترة قبيلة باريهار Parihars التي بدأت في منتصف القرن التاسع وانتهى حكمها في عام ١٠١٩ على اثر غزوات السلطان محمود غزنوي . وكان يحكم ملوكها في وادي الغانج الاوسط . وكان هنالك ملوك آخرون من الراجبوت اشتهر منهم الملك بوجا Bhoja الذي كانت عاصمته دار Dhar شمالي نهر نربدا (١٠١٨ — ١٠٦٠) وكان حاكماً متنوراً ألف الكتب في الفلك والبناء ونظم الشعر وبنى كلية سنسكريتية كرّسها للالاهة العلم الهندية «سرزواتي» .

كذلك قامت سلالة اخرى في منطقة البنغال وبهار وتدعى سلالة « بالاس » وهي السلالة البوذية الوحيدة بين سلالات الراجبوت ودام حكمها اكثر من اربعة قرون (٧٥٠–١١٩٩) . وقد ارسلت بعثات التبشير بالبوذية الى منطقة التبيت واقامت اديرة بوذية بكثرة (واسم الاديرة Viharas) حتى ان شمالي البنغال سمي « بهار » اي الدير . وانتهت هذه السلالة بدخول المسلمين بقيادة محمد بختيار التابع للسلطان محمد الغوري عام ١١٩٩ . وقد كان عدد الرهبان كثيراً في هذه المنطقة كما ان البلاد لم تكن مسلحة فكان فتح منطقة « بهار » سهلاً . وهرب كثيرون من الرهبان الى منطقة التبيت واخذوا معهم المخطوطات. وبزوال سلالة « بالاس » البوذية ضعفت الديانة البوذية في الهند ولم تلبث ان زالت .

وكانت احدى قبائل الراجبوت قد جعلت مدينة دلهي عاصمتها في عام ٩٩٣ وبعد اقل من قرنين يقوم بطل راجبوتي من قبيلة اخرى وينتزع مدينة دلهي من اصحابها واسمه برتيفي راج Prithvi Raj وبينما كانت الحروب قائمة بين القبائل الراجبوتية كان جيش السلطان محمد الغوري الذي ورث الدولة الغزنوية يتقدم في الهند . فاتحد الامراء الهنود تحت قيادة برتيفي راج في عام ١١٩١ وحصلت معركة في تارين Tarain في شمالي الهند انكسر فيها محمد الغوري في اول الامر ثم عاد في السنة التالية ونجح في كسر امراء الراجبوت .

وكان الهنود يعتمدون على الفيلة كما ان مشاتهم كانوا غير مدربين فانكسروا ووقع قائدهم « راج » في الاسر ثم قتل ودخل المسلمون مدن دلهي وبنارس واجتاحوا البنغال وانتهى حكم الهنود في شمالي الهند . واصبح « راج » يعتبر بطلاً قومياً في شمالي الهند وحوادث بطولته هي موضوع قصص عديدة وقصائد يرويها المنشدون ومن اهمها قصيدة تسمى تشاندريسا Chand Raisa يقال انها تحتوي على ١٢٥ الف بيت ولكن اضيفت اليها اقسام في عصور مختلفة .

وبنى امراء الراجبوت المعابد الكثيرة في اواسط الهند وكذلك في منطقة اوريسا جنوبي البنغال . وكان الادب رائجاً والمسرحية راقية شجعها الملوك في

دلهي ودار وكانوج . وظهر عدد من الكتاب والشعراء كتب احدهم تاريخ كشمير نحو عام ١١٥٠ ونظم الآخر قصيدة عن حب الاله كريشنا . وفي هذا العصر بدأت اللهجات الهندية تنفصل عن اللغة العاميـة المعروفة بالبراكريت Prakrit وبدأ المنشدون الراجبوت ينشدون في لغة تعد اصل اللغة المعروفة « بالهندي » .

اما في انتشار البوذية فقد رأينا كيف ذهب المبشرون منذ عهد الامبراطور ازوكا في القرن الثالث ق . م . الى سيلان وبورما . وعرفت البوذية في بلاد الصين منذ عهد بعيد وتروي الاساطير ان احد الاباطرة ارسل الى الهند في عام ٦١م يطلب تماثيل وكتابات بوذية وذلك بنتيجة حلم رآه . ولا بد ان البوذية عرفت قبل ذلك. وطرق الانتقال كانت مختلفة بين الهند والصين فمنها كانت بحرية عن طريق جنوبي الهند وطونكين وجنوبي الصين ومنها كانت برية من بورما الى منطقة يونان والمضائق الجبلية . ومنها أيضاً طرق القوافل الى سن كيانغ (او تركستان الصينيـة) في غربي الصين وهذه اتبعها السائح فاهيان في القرن الرابع وتعتبر من اهم الطرق وتمر بمدينة تون هوانغ Tunhwang التي تمر بها ايضاً طريق من منغوليا الى التيبت . وكانت هذه المدينة تتعرض لهجمات كثيرة ولهذا السبب ربما خبأت فيها كنوز في مكان يعرف بمغائر الالف بوذا. والكنوز تحوي مجموعة رسوم بوذية على الحرير ومعها رسوم على الكتان والورق وصور مزركشة صنعت بين القرنين السابع والعاشر (في عهد اسرة تانغ الصينية) وخبأت غالباً في القرن العاشر . وكان الفن الصيني حينذاك في ذروته . وكان في الرسوم اساليب هندية وتيبتية وصينية .

ووصلت البوذية من الصين الى كوريا ومنها الى اليابان . دخلت البوذية الى كوريا (Koroyo ومعناها البلاد الجميلة) في القرن الرابع م عن يد كاهن قدم من الصين . ثم في عام ٤٢٤ م يروى انه اتى كاهن الى قسم آخر من كوريا ودخل بشكل فلاح وخدم عند رجل مزارع خبأه في مغارة وتمكن ان يشفي ابنة حاكم المقاطعة باقامة الصلاة امام صورة بوذية ثم استأذن باستقدام فنانين من الصين لينحتوا صوراً في الكهف ويجعلوه معبداً . ودام هذا العمل اربعين سنة . واليوم

يوجد معبد عظيم في تلك المقاطعة يعرف بمعبد المغارة الصخرية ولا ندري اذا كان هو المعبد الذي تشير اليه الاسطورة . ثم ان احد ملوك كوريا (وكان فيها ثلاثة ممالك بين القرن الاول والعاشر) الذي حاربه الملكان الآخران استنجد بملك اليابان في القرن السادس . وبعد ان انجده ارسل اليـه هدية في عام ٥٥٢ م وهي صورة البوذا والكتب البوذية . وانتشرت البوذية في القرن السادس بعد منازعات في اليابان واتى رهبان ومعماريون من الصين وبنوا فيها الاديرة والمعابد البوذية وكان ذلك بدء تاريخ العمارة والعمران في اليابان .

كذلك نشر الهندوسيون البراهمة ديانتهم في خارج الهند . فقد ذهبوا بحراً واسسوا المستعمرات في صومطرة وجاوة وكمبودج وقامت ممالك هندوسية هناك تحت حكم سلالة سالييندرة Saliendra وسلالات اخرى وظلت تسود في جاوة وسائر الجزر حتى كسرها المسلمون في ١٢٥٠ . وهنالك آثار هندوسية وبوذية كثيرة في جاوة اهمها معبد بوروبودور Borobudur . اما في كمبودج فقد قامت امبراطورية الخمير Khmer التي ازدهرت في القرن السادس وكانت ديانتها الهندوسية والبوذية وفي عام ٩٠٠ بنى احد الملوك عاصمته في انكورتوم AngkorThom (اي العاصمة الكبرى) وبعد قرنين بني معبد هائل يدعى انكورفات Angkor Vat (اي معبد العاصمة) على بعد ميل من العاصمة . ويروي بعض الرحالة ان كثيراً من موانيء الصين كان يسكنها هنود كما ان بعض المبشرين والتجار البوذيين كانوا يزورون اليابان . وكانت الطبقات العليا الهندوسية تمنعها التقاليد من السفر بحراً ولكن طبقة التجار كانت تسافر وكذلك كان يفعل البوذيون لانـه لم تكن لهم تقاليد طبقية تمنعهم .

حضارة الدكن وجنوبي الهند : تذكر الملحمة المشهورة الرمايانا منطقة الدكن (ومعناها البلاد الجنوبية) بانها مأهولة بالجن وكانت تكثر فيها الغابات التي تفصلها عن الهند الشمالية . واقدم سكان الدكن المعروفين لدينا هم الآندرا

من العنصر الدراويدي الذي سكن الهند قبل قدوم الآريين . وكانت Andhras
لهم دولة دامت من ٢٣٠ ق م . حتى ٢٢٥ م وكان لهم جيش كبير ونحو الف
فيل . وفي عهد الامبراطور آزوكا كانوا خاضعين له . ثم توسعوا وحكموا الهند
الوسطى كلها . وكانوا هندوسيين في دينهم الا ان البوذية انتشرت في عصرهم ولم
يقاوموها . ووجدت في بلادهم مغائر واديرة كثيرة على سفوح جبال الغات لرهبان
البوذية . وكان الدير مؤلفاً من قاعة رئيسية على جانبيها اعمدة وفيها مكان حفظ
الآثار المقدسة وحول القاعة غرف الرهبان والهيكل منحوت في الصخر . ومن
امثال هذه المباني مغارة معبد كارلي Karli شرقي بومباي . وكان الملوك والتجار
والنقابات يساهمون في هذه الابنية. والتجارة كانت مزدهرة في هـــذا العصر ،
والساحل الغربي كان على اتصال مع خليج فارس والجزيرة العربية وبعض نقود
هذه السلالة عليها رسم سفينة.وكان يأتي التجار اليونان الى خليج فارس فيأخذون
البضائع الهندية من اقمشة وعطور وحجارة كريمة ويجلبون الخمر والزجاج.وتذكر
النقوش تجاراً وصناعاً ورؤساء قوافل واطباء . وبعض نقابات الحرف كانت تقرض
الاموال وتنظم ساعات العمل والاجور . وعاصمة هذه الدولة كانت نازك Nasik
قرب منبع نهر غودفاري ويحج اليها الناس لما فيها من معابد وكهنة براهميين .

وبعد سقوط هذه السلالة حصلت فوضى ولم تقم سلالة جديدة حتى القرن السادس
(٥٥٠ — ٦٤٢) . وكان اشهر ملوك السلالة الجديدة [1] معاصراً الملك هارشا
في الشمال وقد صد هجومه حين اراد فتح مناطق الجنوب . وفي عصره زار الرحالة
الصيني هيون تسانغ بلاد الدكن ووصف حكم هـذا الملك الحازم كما وصف اخلاق
السكان الذين يعترفون بالجميل اذا احسن الانسان اليهم وينتقمون اذا اساء اليهم.

---

(١) السلالة الجديدة تدعى شالوكيا Chalukyas واشهر ملوكها بولاكسين الثاني
٦٠١ — ٦٤٢ (Pulakesin) .

وتكلم عن العادة المتبعة في معاملة القائد المنهزم وهي الباسه لباس امرأة . وبلغ من شهرة هـذا الملك ان كسرى ملك الفرس كان يتتبع اخباره وكانت بينهما علاقات تجارية . وقد اقيمت في عهد هذه السلالة تماثيل ضخمة لمؤسس الجاينية ارتفاع بعضها نحو ٢٠ متراً . ونسخ البراهميون والجاينيون عن البوذيين طريقة نحت المعابد في سفوح الجبال والمرتفعات . وبعد موت هـذا الملك تتفكك الدولة وتنحط .

وفي عام ٧٣٥م يصل الى الهند اسلاف البارسيين وهم من اتباع زردشت عبدة النار . وقد اتوا من خراسان بعدان طردهم المسلمون وسكنوا منطقة كوجرات على الساحل الغربي جنوبي مصب السند . وفي نفس الوقت اتى بعض السوريين المسيحيين الى ساحل ملبار في جنوب غربي الهند .

وتوالت سلالات عديدة على الدكن بين القرن الثامن والقرن الرابع عشر عندما قام سلاطين دلهي المسلمون يرسلون جيوشهم الى المنطقة ويقضون على السلالات الاخيرة وهي سلالتا هويسالا Hoysala (١١١١ — ١٣٢٧) ويدافا Yadava (١١٩١ — ١٣١٨) . ومن اهم آثار البناء في القرن الثامن المعبد المعروف بكيلاسا Kailasa والذي بناه الملك كريشنا الاول في عام ٧٦٠ وهو من عجائب البناء في الهند لانه محفور في جانب الجبل ومزدان بمختلف اعمال النقش والحفر . وكان الرحالة والتجار العرب يزورون الهند في عهد السلالة التي من ملوكها كريشنا الاول وتدعى سلالة راشتراكوتا Rashtrakutas . وقد امتدت هذه الدولة من خليج البنغال الى المحيط الهندي في الغرب .

اما منطقة كوجرات الواقعة بين جبال الغات والبحر في الغرب فقد تقلب عليها حكام مختلفون . وأتت تسميتها من شعوب الكوجارا التي اجتاحتها وسكنت فيها . وفي عهد حكم ملوك الدكن لها اغار عليها السلطان محمود الغزنوي في عام ١٠٢٤ ونهب معبد سومنات Somnath المشهور وحمل معه من الذهب والجواهر الشيء الكثير . و كان بعض ملوك هذه المنطقة يتبعون الديانة الجاينية وقام الملوك

والتجار الجاينيون يبنون معابد غنية من اشهرها معابد جبل آبو . وفي ١١٩٧ اصبحت كوجرات من مقاطعات امبراطورية دلهي الاسلامية .

اما في جنوبي الهند فقد قامت ممالك دراويدية تختلف في لغتها عن سائر الهند وتقع جنوبي نهر كريشنا . والمنطقة غنية في مواردها . وظهرت فيها مدارس ادبية وخاصة في مادورا . وأهم مؤلف ديني ظهر في لغة التاميل Tamil في الجنوب يسمى «الكورال» وهو منسوب الى حائك يدعى تيروفلوفار Tiruvolluvar من نحو عام ٢٠٠م ويحوي هذا الكتاب نحو ١٣٠٠ شعراً عن مواضيع دينية اخلاقية . والتعاليم التي يتضمنها ترتفع فوق اعتبارات الدين والطبقة والجنس . وظهر شعراء في القرون التالية منهم من نظم الشعر والاغاني للاله شيوا ومن جملتها تراتيل تسمى تيروفاشكام Tiruvachakam وقد قيل عنها « ان الذي لاتذيب هذه الاشعار قلبه ذوبانآفان قلبه من الصخر» . والبوذية لم تزدهر قط في هذه المنطقة وبالاجمال لم تنتشر في المناطق الجنوبية ما عدا سيلان .

ازدهرت منطقة التاميل في جنوبي الهند بسبب تجارتها وكانت تأتي السفن في عهد الامبراطورية الرومانية الى عدن وساحل ملبار وسيلان . ووجدت نقود رومانية في مادورا وغيرها من المدن . وكانت للملوك التاميل اساطيل تتاجر حتى الشرق الاقصى . وزار السائح هيون تسانغ الصيني عاصمة احدى دول الجنوب في عام ٦٤٠ م وذكر خصب التربة في ساحل كروماندل الشرقي . ومن السلالات المهمة في هذه المنطقة سلالة بلافا Pallava (٦٠٠—٧٥٠) وكانت عاصمتها من أهم مراكز العلم غير ان اهم الآثار الفنية لهذه السلالة تقع قرب مدينة مدراس . ثم تظهر سلالة تشولا Chola (٩٠٧ — ١٠٥٢) ومن ملوكها المشهورين راجندرا Rajendra الذي وصل بفتوحاته حتى البنغال والغانج . وكان الملوك مشهورين بالبناء ومن خصائص ابنيتهم البرج الذي يعلو مدخل المعبد . وقمة برج معبد تانجور Tanjore عبارة عن صخرة وزنها ٨٠ طناً وعرضها ٢٥ قدماً . وفي القرن الثالث عشر تأتي سلالة باندیا Pandya (١٢٥١—١٣١٠) وتسود شبه الجزيرة بكاملها . وقد زار السائح البندقي

ماركوبولو احدى موانىء هذه السلالة مرتين في ١٢٨٨ و ١٢٩٣ وتكلم عن ملوك هذه الاسرة في جنوبي الهند .

فضل الهند في الفلك والرياضيات : تحوي كتب السدهانتا الهندية اهم عناصر الفلك الهندي . والمعنى الحرفي لكلمة سدهانتا Siddhanta هو « النتيجة الثابتة» وقد عرف العرب هذه الكتب فسموها «السندهند» . وفي القرن السادس الميلادي اختصر احد العلماء الهنود هذه الكتب وكان عددها خمسة ولكل منها اسم خاص . فهنالك السدهانتا بيتماها Paitmaha أي التي تنسب الى الأب الاول وهو براهما ، والسدهانتا فازيشتا Vasishta التي سميت باسم احدى نجوم الدب الاكبر ، ثم الانواع الثلاثة التي ترينا تأثيراً يونانياً ومنها البوليسا Pulisa والروماكا Romaka التي اصلها من الروم ، والسوريا Suriya اي سدهانتا الشمس . ويقول العالم البيروني ان جميع هذه الانواع اصلها من السدهانتا الاولى اي بيتماها التي ترجع الى عام ٨٠ م . ويقول البعض أن الهنود كانوا حينذاك يعيدون تنظيم فلكهم حسب الافكار اليونانية ويظهر ذلك في السدهانتا الثالثة وما يليها . وتحوي السوريا سدهانتا مواضيع مختلفة منها حركات السيارات ومواضعها والخسوف وحساب الوقت وشروق القمر والشمس ومقاييس الارض ومسافات النجوم وغير ذلك وفيها جانب كبير من علم النجوم . وذكروا أن موادها ترجع الى عام ٤٠٠ م وكان الفلك البابلي واليوناني ينتقل الى الهند فدخل في هذه السدهانتا .

ويختلف العلماء في تعيين مصدر الفلك الهندي . فبعضهم يجعلونه مأخوذاً عن اليونان وآخرون يعترفون بفضل الهند . فقد ذكر هويتني Whitney ان العلم الهندي هو فرع من اليوناني ويصل غاية تطوره في القرنين الخامس والسادس م ، وقال ان عدم وجود التحسينات التي ادخلها بطليموس في الفلك الهندي معناه ان الهنود اخذوا عن اليونان قبل عصر بطليموس (اي قبل القرن الثاني م) . ثم يذكر ان العلوم أتت مع التجارة الناشطة بين الاسكندرية وساحل الهند الغربي

بطريق البحر في العصر الميلادي الاول . ويذكر عالم آخر اسمه كاي G.R.Kaye اهمية التأثير اليوناني كما يذكر الطرق الاخرى الممكنة بين الهنود واليونان وهي بلاد فارس والصين ، فقد كانت الاتصالات كثيرة بين غربي آسية والصين بواسطة طريق الحرير كما كانت الاتصالات كثيرة بين الصين والهند . ثم انه كان يوجد عدد من الرياضيين اليونان في بلاط كسرى الاول . والعصر الساساني في فارس (٢٢٩ — ٦٤٠) يقابل عصر النهضة في الهند في عهد اسرة الغوبتا Gupta . وكان السوريون رسل الثقافة والحضارة في الامبراطورية الفارسية في هذا العصر وقد اتصلوا ببلاد الغرب بديانتهم ونشروا الادب والمؤلفات اليونانية في الشرق بترجمتهم . واثر اليونان على الهند ظاهر ليس في الرياضيات فحسب وانما في النحت والعمارة والنقود والفلك والتنجيم . ويقول عالم آخر ان البراهين تشير الى ان النتاج الفكري والفني المعظم في عهد سلالة الغوبتا كان لدرجة كبيرة نتيجة الاحتكاك بين حضارة الهند وبين الامبراطورية الرومانية .

وهنالك رأي آخر مختلف في قضية الفلك الهندي قدمه بيرجس E. Burgess الذي كان مبشراً في الهند وترجم السوريا سدهانتا . فقد رأى ان الهنود بالرغم من انهم لم يضعوا مايشبه كتاب « المجسطي » الذي وضعه بطليموس فانهم كانوا مبتكرين في معظم الحقائق الاولية وفي مبادىء الفلك وان اليونان استعاروا منهم هذه المبادىء والحقائق . وربما يمكن القول ان الهنود واليونان اخذوا عن مصدر مشترك . ويقول كلارك W.E Clark في كتاب « تراث الهند » انه وان كان الحافز لعلم فلك جديد اتى من اليونان فان الافكار الجديدة تبناها الهنود ووفقوا بينها وبين معلوماتهم وطرق حسابهم .

وكان من اهم الفلكيين الهنود آريابهاتا Aryabhata (نهاية القرن الخامس) الذي كان له فضل أيضاً على الرياضيات . فقد كتب في الجبر والفائدة والكسور والجذر المربع والمكعب والمساحات والجيب والتصاعد الحسابي . ومن الفلكيين فراهاميهرا Varahamihira (قرن سادس) الذي اختصر كتب السدهانتا

الخمسة ، وبسكرا Bhaskara (حوالي ١١٥٠) صاحب الكتابات الحسابية والجبرية . والمهم في كتاباته التحليل وحل المسائل الحسابية بوضعها في شكل معادلات وهذا لم يصله اليونان ماعدا ديوفانتس في القرن الرابع . غير أن الهنود تجاوزوا ديوفانتس . وكتابات بسكرا تحوي فقرات عن الصفر واستعماله وعن الكميات المجهولة والمعادلات البسيطة والمربعة وحلول المعادلات غير المعينة من الدرجة الثانية وحلول معادلات من الدرجة الثالثة والرابعة .

وقد يجوز ان اهتمام الهنود بالمعادلات غير المعينة اوحاه عمل الصينيين في هذا الموضوع نظراً للاتصالات واسفار الصينيين الى الهند للحصول على الكتب البوذية . وقد وجدت امثلة عن معادلات مجهولة من الدرجة الاولى في كتاب صيني من القرن الثاني ، ثم تبعها معادلات من نفس النوع في الهند في القرن السابع ثم التاسع . وفي القرن السادس نشاهد مسألة المائة طائر في مؤلف رياضي صيني حيث يقول : ديك يكلف خمس قطع نقود ، ودجاجة تكلف ثلاث قطع ، وثلاثة افراخ تكلف سوية قطعة نقود واحدة فاذا اشترينا مائة طائر بمائة قطعة من النقود فكم طائر من كل نوع نشتري ؟ وقد وجدت مسائل من هذا النوع في كتابات رياضي هندي في القرن التاسع (واسمه مهافيري Mohaviri) كما وجدت في كتابات بسكرا في القرن الثاني عشر . والمؤلف اليوناني الوحيد الذي قد يكون اثر على نشوء هذه المعادلات المجهولة (حيث توجد كميات مجهولة اكثر من المعادلات التي يجب ايجادها بها) هو ديوفانتس (قرن رابع) وكذلك هياتيا Hypatia (نحو ٤٠٠ م) وقد تكون كتاباتها وصلت بطريق جند يسابور في بلاد فارس . غير ان بعض نتف من كتابات ديوفانتس قد بقيت والتحليل الهندي يتجاوزها . ويقول عالم اسمه كولبروك Colebrooke ان ديوفانتس كان وراء الكتاب الهنود بكثير وان الجبر الهندي كان ارقى من اليوناني اولا بمعالجة معادلات فيها اكثر من عدد مجهول ثانياً بتطبيق الجبر على البحث الفلكي والبراهين الهندسية . ثالثاً بحل معادلات من نوع أعلى . وهنالك معلومات هامة تعطيها الرياضيات الهندية بشأن الرموز والاصطلاحات

الرياضية منها الصفر المدلول عليه بنقطة وغير ذلك مما نجده في مخطوط مكتوب على سبعين ورقة من قشر الشجر واكتشف في شمال غربي الهند في ايار ١٨٨١ .

كذلك نجد في اصل الارقام المعروفة بالعربية آراء متضاربة . فالعالم كلارك يؤيد اختراع الهنود للارقام أو معرفتهم لها على الاقل منذ عهد بعيد . فقد اكتشفت نقوش بين عام ٥٩٥ والقرن التاسع احتوت على أرقام . كما انه يشير الى الأعداد الهندية التي عرفها كاتب في دير سرياني على الفرات الأعلى في عام ٦٦٢ وأتى بها من الهند . بينما من جهة اخرى نرى « كاي » (مؤلف كتاب الرياضيات الهندية) يقول ان الارقام المعروفة بالعربية المستعملة اليوم في بلاد الغرب ، والارقام التسعة والصفر ومكانة الفاصلة في العدد العشري جميع هذه لم توجد في الهند حتى القرن التاسع . ويوافقه كارادي‌فو Carra de Vaux على القول بان اصل هذه كلها يوناني افلاطوني انتقل الى الهند عن طريق العرب. هذا بينما المعروف هو ان الارقام انتقلت من الهند الى الغرب عن طريق العرب .

ولذا فان تاريخ الترقيم والتعداد معقد ولم يوجد حل نهائي حتى الآن عن قضية الاصل الهندي للارقام أو عدمه غير ان مؤرخ العلوم صارتون Sarton يقول انه بينما تقدم الفلك الهندي بتأثير الاغريق فان الرياضيات الهندية لم تنتظر الهلينية ولذلك فالهنود غالباً ابتكروا الارقام التسعة والنظام العشري .

كذلك للهنود فضل على المثلثات . فقد اشتغل اليونان على أساس الاوتار ، ولكن الهنود استعملوا نصف الوتر وحصلوا على جدول من الجيوب فالكلمة السنسكريتية « جيا » jya أو jiva (الآتية من ardhajya ومعناها نصف وتر او خيط القوس) أصبحت في العربية « جيب » ثم انتقلت الى اللاتينية باسم « سينوس sinus » .

الفصل السابع

حضارة الهند الاسلامية

الدولة الغزنوية وكتاب البيروني : كان بعض سكان الهند على صلة مع الخلافة العباسية في بغداد وكانت بينهم وبين مقاطعة السند الاسلامية علاقات تجارية. وعندما ظهرت دولة اسلامية في غزنة (جنوبي كابل) في شمالي افغانستان قام اميرها سبكتكين (٩٧٦ — ٩٩٧) بغزو سهول البنجاب ويقهر أميراً من الراجبوت اسمه جايبال Jaipal في عام ٩٨٦ . وعندما شكل هذا الامير تحالفا من امراء الهند وحارب الامير الغزنوي بعد خمس سنوات كسر ايضاً وفتح الغزنويون مدينة بشاور المهمة على الحدود . وخلف محمود الغزنوي في ٩٩٧ والده على عرش الدولة الغزنوية واتخذ لقب سلطان وحكم حتى ١٠٣٠ . وكان يغير على الهند ويعود منها بالغنائم والصناع . وكان كثير من الاسرى الذين يعود بهم يموتون في الممرات الجبلية بكثرة حتى سميت الجبال « هندو كوش » أي « قتل الهنود » . وعندما أسر الامير الراجبوتي جايبال في ١٠٠١ احرق نفسه لكي لا يفقد شرفه كراجبوت . وشكل ابنه تحالفاً وحارب السلطان محمود ولكنه كسر وحلفاؤه بعد ان كاد ينجح (في بشاور عام ١٠٠٨) وهكذا انتهت مقاومة الراجبوت موقتاً . وتابع محمود غزواته فأخذ ماتورا في وادي الغانج وهي مدينة مقدسة للاله كرشنا وكان فيها معبد ضخم يحوي خمسة أصنام من الذهب طول كل منها خمسة أمتار ، فهدم محمود المعبد وتقدم

نحو كانوج احدى عواصم الراجبوت فخضع ملكها في عام ١٠١٩ . وقام السلطان الغزنوي بآخر غارة في عام ١٠٢٤ على معبد فخم في سومنات Somnath على الساحل الغربي في كوجرات . وكان المعبد حصيناً ومكرساً للاله شيوه وبعد محاولات ومعارك تمكن من فتحه وكسر الاصنام التي ضمنه وحمل معه من الجواهر والذهب شيئاً كثيراً . وكان الهنود قد حاولوا اغراءه بالمال كي لايهدم الاصنام فاجابهم : « انما انا مكسر ولست بتاجر اصنام » وقد اكتفى بضم البنجاب الى مملكته ولم يحاول ضم مناطق اخرى .

كان السلطان محمود شديداً قاسياً ويتكلم عنه البيروني بحرية فيقول انه هدم ازدهار الهند بغاراته ولكنه قام باعمال فائقة في الشجاعة « حتى اصبح الهنود كالغبار موزعين في جهات مختلفة » . وقد اشتهر الغزنوي بميله الى الادب والفن وازدانت عاصمته غزنة بالمباني الجميلة التي بنى بعضها الفنانون الهنود . وكان اشهر من عاش في بلاطه الشاعر الفردوسي (٩٤٠—١٠٢٠) صاحب الشاهنامة (كتاب الملوك) ، والعالم ابو الريحان البيروني (٩٧٣— ١٠٤٨). كان البيروني يعرف عدا عن العربية التي كتب فيها اللغات التركية والفارسية والسنكريتية والعبرية والسريانية . وكان عالماً في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية ومن كتبه فيها : « التفهيم لاوائل صناعة التنجيم » و « الآثار الباقية عن القرون الخالية » وقد كتب كتاباً عن الهند واعجب بالفلسفة الهندية [١] . ومما ذكره عن الحياة الاجتماعية في الهند ان النساء مهذبات يشتركن في الحياة العامة ، وان البنات يتعلمن القراءة والكتابة والرسم والموسيقى . انما سن الزواج كان مبكراً وعادة حرق الارملة (Sati) كانت منتشرة بين طبقة المحاربين . ثم يذكر سلطة الكهنة والحج الى اماكن مختلفة مقدسة عند الهندوسيين وارتياد الانهار المقدسة . ثم يقول « ان

---

(١) نشر كتابه عن الهند المستشرق الالماني ادورد سخاو ، وترجمه في مجلدين (لندن ١٨٨٨) .

عيب الهنود الاكبر هو انعزالهم وتكبرهم عن التعلم من الآخرين وتجنب اعطاء المعلومات الى غيرهم وخاصة اذا كانوا من الطبقات الدنيا ومن الاجانب ويعتقدون ان لا بلاد الا بلادهم ولا علم الا علمهم غير انهم عندما يسافرون الى بلاد اخرى تتبدل افكارهم».

نجح المسلمون في الاستيلاء على قسم من الهند وفي كسر جيوش امراء الهنود بفضل شجاعتهم في الحروب ولانهم كانوا يحاربون بعيدين عن بلادهم فلم يكن لهم مجال للانسحاب فكان امامهم الفوز او الموت . بينما الهنود اضعفهم الترف وزاد في ضعفهم ان البوذية والجاينية كانت ديانات تميل الى السلم بسبب عقيدة الاهيمسا Ahimsa او عدم قتل النفس البشرية فكانوا يتركون الدفاع عن البلاد لجنود مخصصين للحرب . وكان المسلمون متحدين ويعتقدون ان الجميع اخوة فلا فرق بين الاجناس والطبقات بحيث يمكن ان يرتفع المسلم الى اعلى الرتب مهما كان اصله . اما الهنود فكانوا منقسمين الى مذاهب وكانوا في حروب بعضهم مع بعض فضلاً عن ان تنظيم جيوش الراجبوت كان ناقصاً والفوضى كانت تحل بهم بسهولة .

سلاطين دلهي المسلمون وحضارتهم : قامت مملكة غور التركية في منطقة جبلية بين غزنة وهرات وعندما انحطت الدولة الغزنوية استولت على غزنة في ١١٥٠ . ثم قام محمد الغوري (١١٧٥—١٢٠٦) ومملوكه قطب الدين ايبك فاجتاح شمالي الهند من بشاور حتى البنغال . وكان قطب الدين مملوكاً عند تاجر في نيسابور فأخذه محمد الغوري وجعله فيما بعد قائده ومستشاره المفضل . وكان احد القواد التابعين له محمود بختيار فاتح البنغال وبهار . وبعد اغتيال محمد الغوري اصبح قطب الدين اول سلطان في دلهي في ١٢٠٦ وهكذا تأسست سلالة مماليك دلهي (١٢٠٦ – ١٢٩٠) . وحكم بعد قطب الدين السلطان شمس الدين الطمش (١٢١١ - ١٢٣٦) وكان بالاصل مملوكاً ثم اصبح قائداً . وهو الذي بنى جامع قطب في دلهي من بقايا المعابد الهندية وشاد البرج المعروف « بقطب منار » وارتفاعه

٢٣٨ قدما وهو مضلع ويضيق في اعلاه . وقـد اعترف به الخليفة العباسي في عام ١٢٣٦ كسلطان الهند . وفي عصـره حصلت فتوحات جنكيز خان غير انه لم ينزل الى الهند .

عين السلطان شمس الدين ابنته رضية الدين (١٢٣٦—١٢٤٠) لتملك من بعده وكانت ملكة قديرة وعادلة ، تحب العلم والخير وتتصف بجميع الصفات اللازمة للملوك . وكانت تقود الجيوش بنفسها وتركب فيلاً بسلاحها التام . غير انها لم تتغلب على القواد الاتراك الاربعين الذين كرهوا ان تحكمهم امرأة واضطرت الى الهرب واخيراً قتلت مع زوجها . وسـادت الفوضى مدة من الزمن وقام الملوك وقمعوا بنفوذ الاربعين قائداً الى ان ظهر غياث الدين بلبان (١٢٦٦—١٢٨٧) ونجح في اخماد الفتن وازالة الفساد وكان شديداً وعادلاً ومات في سن الثمانين .

ظهرت سلالة جديدة في دلهي وهي سلالة الخلجي (١٢٩٠—١٣٢٠) اسسها جلال الدين من قبيلة خلجي . وكان متقدماً في السن فقاد جيوشه ابن اخيه علاء الدين وغزا منطقة الدكن واجبر الملك رامشندرا من اسرة « يدافا » كما رأينا على الاستسلام وعاد محملاً بالغنائم . وقد اصبح علاء الدين سلطاناً بعد مقتل عمه . وفي اثناء حكمه (١٢٩٦ – ١٣١٥) قاد حملة ضد حصن شيتور الراجبوتي المشهور وقامت النساء فاهلكن انفسهن في النار (في عملية تدعى جوهار Jauhar) بدلاً من الاستسلام والوقوع في الأسر . وقام احد قواد علاء الدين واسمه ملك كافور بحملة الى جنوبي الهند ونهب معبد مادورا وعاد ومعه على مايقال ٣٠٠ فيل و ٢٠٠٠٠ حصان و ٢٧٥٠ اقة من الذهب .

وانتهت سـلالة الخلجي بمقتل علاء الدين وابنه وحلت محلهـا سلالة تغلق (١٣٢١ —١٣٨٨) التي اسسها غياث الدين وكان قائداً ممتازاً ويقال ان اباه كان تركياً وامه هندية . وورثه ابنه محمد تغلق (١٣٢٥—١٣٥١) ووصف حكمه ابن بطوطة الرحالة الذي اقام في بلاطه خمس سنوات بعد عام ١٣٤٢ . فقد عرف هذا الملك « برجل المتناقضات » وقال عنه ابن بطوطة انه يحب عمل الخير من جهة واهراق

الدماء من جهة اخرى، وان على بابه كان يشاهد اما بعض المساكين الذين يستفيدون من احسانه او بعض الذين اعدمهم . ومن اعماله انه امر باخلاء مدينة دلهي من السكان نظراً للمجاعة التي حصلت فيها من جهة ونظراً لسلوك الناس وعصيانهم اوامره. وقد اعاد السكان بعد مدة طويلة ثم اعاد العملية ذاتها. وانفق كثيراً على غاراته على بلاد الصين والهند. واصدر نقوداً نحاسية فقلدها الناس وثار الشعب فاخمد ثورتهم بقسوة . ومع ذلك كان رجلاً متواضعاً كريماً وصلت اخباره الى البلاد البعيدة كاليمن . قيل ان احد نبلاء الهند شكاه مرة الى القاضي لانه اعدم اخاه بدون سبب كاف . فدعاه القاضي الى المحكمة فذهب اليها ماشياً وعندما دخل المحكمة امر القاضي بان لاينهض له ، ولما صدر الحكم بالتعويض عن الاعدام امتثل ودفع التعويض . وكان يمتحن افراد رعيته في قواعد الاسلام واصوله كما انه كان يجلس للظالم .

حكم بعد هذا السلطان ابن عمه فيروز شاه تغلق (١٣٥١—٨٨) وبعد ان قاد الحملات الى السند والبنغال عاد فاعترف باستقلال هذه المناطق وكذلك باستقلال الدكن . وانصرف الى مشاريع الري والعمران وبنى عاصمة جديدة سماها فيروزاباد وهدم بعض المعابد الهندية وبنى المساجد . وفي عهده تطورت الادارة الاسلامية في الهند ، وكان يجبي الجزية من غير المسلمين ويأخذ ضريبة على الاراضي . وقد ساعده وزير في الحكم كما انه كان يترك حكم المقاطعات لجماعة من القواد العسكريين. وفي زمنه اعتنق الاسلام عدد كبير من الهنود . وبعد وفاته حلت غزوات تيمورلنك فقد غزا الهند في ١٣٩٨ وقهر اعداءه في موقعة بانيبات Panipat (شمالي وادي الغانج) وعندما وصل دلهي نهبها خمسة ايام واستعبد قسماً كبيراً من اهلها وقتل قسماً آخر وعاد الى سمرقند ، وبقيت دلهي خالية من السكان مدة من الزمن .

بعد مغادرة تيمور لنك وذهاب الموظف الذي تركه واسمه خضر خان ورثه ثلاثة ملوك عرفوا بسلالة الاسياد (١٤١٤—١٤٥٠) وقد اضطر آخرهم ان يتنازل لنبيل افغاني اسمه بهلول لودي .

وحكمت اسرة لودي (١٤٥٠-١٥٢٦) وكان مقرها في عهد ثاني ملوكها مدينة اغرة . وفي عهد آخر ملوكها ابراهيم اتى « بابر » ملك كابل وحاربه وانتصر عليه في موقعة بانيبات Panipat وانتهت سلطنة دلهي .

كانت الدولة التي حكمها سلاطين دلهي المسلمون واسعة والمواصلات صعبة ، ولذلك كان الحكام في المقاطعات يستقلون . وقد دامت هذه الدولة ثلاثة قرون كان المسلمون فيها الطبقة الحاكمة . وبينما اندمج بعض حكام الهند السابقين من يونان وساكا وهونيين بالهندوسيين واعتنقوا دياناتهم فان المسلمين بدياناتهم وحضاراتهم الخاصة ظلوا محتفظين بشخصيتهم كطبقة حاكمة . وقام بعض حكام المسلمين بهدم معابد الهنود وأصنامهم . ولكن الاجيال التالية كانت اكثر تسامحاً خصوصاً بعد أن حصل بعض الاختلاط بالهنود وحصل بعض التمازج في العادات فاقتبس الهنود عادات اسلامية في اللباس والمراسم بينما احتفظ بعض الهنود الذين دخلوا في الاسلام ببعض عاداتهم الهندية . اما سكان الريف فلم يتأثروا بتغير الحكام كما تأثرت الطبقات العليا . وتعلم الفارسية عدد من الهنود لكي يصبحوا موظفين وظهرت لغة مزيجة من « الهندي » والفارسي وعرفت « بالاوردو » Urdu (اي لغة المعسكر) . واستخدم الحكام المسلمون فنانين وصناعاً من الهنود لبناء الجوامع والقصور وزخرفتها .

حصلت تطورات دينية اثناء حكم سلاطين دلهي وظهر مبدأ يعرف باسم باكتي Bhakti اي التعلق الفردي بالله . ورأى اتباع هذه المدرسة ان الخلاص يتناول كل انسان بقطع النظر عن المراسم والطبقات . وتأثر الهندوسيون بتعاليم وحدانية الله عند المسلمين . وكان قد ظهر بعض الصوفيين في فارس ولهم بعض اعتقادات مشتركة مع الهنود . وظهر معلم في القرن الرابع عشر اسمه رامانند Ramanand اراد انقاذ الطبقات الفقيرة ولم يفرق بين الهندوسي والمسلم وبين الكبير والوضيع . وكان بين تلاميذه اشخاص مختلفون بينهم رجل اسمه « كبير » فهاجم الديانات

القائمة وآلهة الهنود واصنامهم ونظم اشعاراً باللغة الهندية الغربية. وخلاصة تعاليمه ان الله روح ويجب ان يعبد بالروح والحق. وقد رويت قصة عن وفاته في عام ١٥١٨ خلاصتها انه بينما كان يحث اتباعه وهو على آخر رمق في كيفية دفنه واذا كان سيحرق كالهنود او يدفن كالمسلمين اشار اليهم بان ينتظروا حتى يموت وان يرفعوا النقاب عن وجهه حينذاك، فاذا كان متجهاً نحو مكة دفنوه واذا كان متجهاً نحو بنارس أحرقوه. ورفعوا النقاب بعد ان مات فما وجدوا الا كومة من الورود ولم يجدوا جسمه فدفن المسلمون نصفها وأخذ الهنود النصف الآخر واحرقوه وطرحوه في نهر الغانج.

وكان من نتائج تعاليم رامانند ظهور جماعة السيخ Sikh على يد مؤسس طريقتهم او اول نبي (او Guru) لهم وهو نانك Nanak الذي توفي في ١٥٣٨. وقد اراد نانك ما اراده « كبير » وهو ازالة الفوارق الطبقية وعبادة الاصنام والتقريب بين المسلمين والهنود. وفي عام ١٦٠١ وضع الغورو ارجون Guru Arjun وهو زعيمهم الخامس الكتاب المقدس للسيخ المعروف باسم Adi Granth وفي هذا الكتاب اناشيد دينية بالهندي الغربي والبنجابي. وقد اضطهد السيخيون في عهد سلاطين المغول فقتل السلطان جاهنجير الغورو الخامس، كما قتل اورنجزيب الغورو التاسع عندما رفض الاسلام. فقام الغورو العاشر واسمه جوفند سنغ Govind Singh (١٦٧٥ — ١٧٠٨) فحول السيخ الى جماعة محاربة وقام بحروب ضد السلطان اورنجزيب. وقد عرفت الجماعة المحاربة « بالخالصة » وتعهد افرادها بان لا يشربوا الخمر وان لا يدخنوا وكان الذي يدخل هذه الجماعة يسمى « سنغ » singh اي اسد. وعندما قتل الغورو العاشر في ١٧٠٨ وجد السيخ زعيماً جديداً في شخص رجل يدعى بنده Bandah فقام بثورة اتعبت سلاطين المغول. وكان السلطان « اكبر » المغولي المتسامح قد سمح للسيخ ببناء المعبد الذهبي في امريتسار Amritsar في البنجاب. ويشاهد ان معظم تاريخ السيخ كان في عصر سلاطين المغول المسلمين الذين سنتكلم عنهم عما قليل.

الممالك الاسلامية في البنغال والدكن : كان الحكام في المناطق البعيدة يعلنون استقلالهم أثناء حكم سلاطين دلهي . وقد قامت دولتان في شرقي الهند تسمى احداهما دولة البنغال وعاصمتها « جور « Gaur (١٣٤٠ - ١٥٧٦) والثانية دولة جانبور Jaunpur . وقد أصبحت مملكة البنغال مستقلة عن سلاطين دلهي في عام ١٣٤٠ عندما ثار الحاكم فخر الدين ضد السلطان محمد تغلق . وكان اشهر حكام البنغال حسين شاه (١٤٩٣ - ١٥١٩) . ثم حكم المنطقة حاكم من اصل أفغاني اسمه شير شاه وفي اواخر القرن السادس عشر انتهت سلالة الحكام الافغانيين وخضعت البنغال للسلطان اكبر واصبحت قسماً من امبراطورية المغول الاسلامية . واشتهر حكام دولة البنغال ببناء الجوامع التي منها جامع « جور » كما انهم شجعوا اللغة البنغالية وترجمت في عهدهم ملاحم الرمايانا والمهابهراتا الى البنغالية .

اما مملكة جانبور (١٣٩٨ - ١٤٧٦) فانها كانت تقع شمالي بنارس في حوض الغانج وكان يحكمها خواجة جهان الذي سمى نفسه « سلطان الشرق » . وكان حكام جانبور يحبون الادب والفن والموسيقى . وقد بنوا الجوامع واصبحت مدينتهم جميلة حتى سميت « شيراز الهند » ولم تدم هذه الدولة اكثر من ثمانين سنة .

كذلك اعلن حاكم منطقة كوجرات استقلاله في عام ١٤٠١ عن سلاطين دلهي وتأسست سلالة مستقلة هناك (١٤٠١ - ١٥٧٣) وكان حفيد مؤسس السلالة المستقلة يسمى احمد شاه (١٤١١ - ١٤٥٣) وهو الذي اسس مدينة احمد اباد . وكان اشهر حكام هذه السلالة في احمد اباد محمود بيقره (١٤٥٩ - ١٥١١) وقد روى عنه الرحالة الاوربيون اشياء كثيرة منها ضخامة جسمه وكثرة ما يأكله وحروبه المتواصلة مع امراء الراجبوت . وقد فتح حصنين مهمين لاعدائه فسمي « بيقره » Bigarha اي « الحصنان » . وفي نهاية محاصرته لاحد الحصنين قام المدافعون الهنود بمراسم « الجوهار » فاحرقوا نساءهم واولادهم قبل القيام بآخر هجوم مستميت وسقط الحصن بعد ان دام الحصار ٢١ شهراً .

اتى البرتغاليون الى الهند في عام ١٤٩٨ واستولوا على غوا Goa على الساحل الغربي وانتزعوها من سلاطين الدكن . وقد كره سلاطين المسلمين وجودهم خاصة وقد نافسوهم في تجارتهم مع بلاد البحر الاحمر والخليج الفارسي وتدخلوا في حركة ذهاب الحجاج الى الحجاز . وساعد سلاطين المماليك في مصر السلطان محمود بيقرة ضدهم وارسلوا اسطولاً من عدن ولكن البرتغاليين انتصروا في معركة ديو Diu في كوجرات .

وكان من اهم حكام كوجرات بها دور شاه (١٥٢٦-١٥٣٧) الذي حاصر حصن شيتور وعندما اشرف على اخذه قامت ١٣٠٠٠ امرأة من نساء الراجبوت باحراق انفسهن بحسب مراسم « الجوهار » . ومات هذا الحاكم غرقاً اذ اغرقه البرتغاليون غدراً وهو في احدى سفنهم وانضمت مملكة كوجرات اخيراً الى امبراطورية المغول الاسلامية . وفي عهد ملوك كوجرات كانت احمد اباد من اجمل مدن الهند وبلغ عدد سكانها مايقارب المليون وبنى فيها المثريون الكثيرون القصور والجوامع وفيها الزخارف والمشبكات في النوافذ .

اما في الدكن فقد قامت مملكة البهاني (١٣٤٧ - ١٥٢٦) التي اسسها ضابط افغاني لقب « بهان » لانه اتصل بملك فارسي يحمل هـذا الاسم . ووصلت الدولة اوجها في عهد محمود جوان وزير الملك محمد شاه الثالث (١٤٦٣ - ١٤٨٢) . وكان هذا الوزير من اعظم رجال المسلمين في الهند وقام بالاصلاحات وبنى كلية في العاصمة « بيدار » . ويروى عنه انه كان ينام على حصير ويستعمل الاواني الفخارية لطعامه وقد اهدى للكلية التي اسسها مكتبته المؤلفة من ٣٠٠٠ مجلد . ومات هذا الوزير قتلاً لان مؤامرة دبرت ضده واتهمته بالخيانة فنفذ محمد شاه حكم الاعدام فيه ثم ندم وشرب حتى مات . وكانت حالة الشعب سيئة في عهد سلالة البهاني كما يشهد بذلك رحالة روسي اسمه اثناسيوس نيتكين Nitikin . اما الاشراف فكانوا يعيشون عيشة الترف ويتنقلون في محفات من الفضة . وكان التعليم منتشراً بين المسلمين حتى انه كان في كل جامع معلم « ملا » يدرس القراءة والكتابة والقرآن .

وقد انفصلت مناطق مختلفة عن دولة البهاني بنتيجة الثورة وظهرت خمس امارات في الدكن تعرف بالاسماء التالية : سلالة عادل شاه في بجابور ، وسلالة نظام شاه في احمد نجار Ahmadnagar وسلالة عماد شاه في بيرار ، وسلالة بريد شاه في بيدار ، وسلالة قطب شاه في جولكوندا Golkonda . جميع هذه السلالات بدأت في اواخر القرن الخامس عشر وانتهت بين اوائل القرن السابع عشر واواخره وانضمت اخيراً الى سلاطين المغول المسلمين . وقد قيل ان مؤسس سلاله عادل شاه في بجابور كان ابن السلطان مراد الثاني العثماني وكان يميل الى الادب والفن ويأتي بالادباء والفنانين من القسطنطينية وفارس . وقد تزوج من امرأة هندية واصبحت اللغة الرسمية في دولته المهراتي بدلاً من الفارسي . وفي عام ١٥٦٤ تحالف ملوك هذه الدولة مع سائر ملوك الدكن وقهروا دولة هندية في منطقة مدراس تدعى فيجايانغار Vijayanagar . وكانت مدينة بيجابور يحيط بها سور عليه مدافع ، وسمي احد المدافع « ملك ميدان » ويعتبر من اهم ما أخرجته مصانع المدافع . وكان الملوك بسبب اصلهم التركي يستخدمون صناعاً من الاتراك كما انهم كانوا يستخدمون الهنود والمسيحيين ، وعدد القصور والمساجد والاضرحة التذكارية كان كبيراً في هذه المدينة . ومن اهم المباني جامع علي عادل شاه والموصوليوم المعروف باسم جول جومباز Gol Gumbaz وهو الضريح التذكاري لمحمد عادل شاه (١٦٢٦ – ١٦٥٦) وله قبة تعتبر من اعظم قباب العالم . كذلك كانت بيجابور تنتج سجاداً ومخطوطات مزخرفة ، وكان المؤرخ « فرشتا Firishta » كاتب تاريخ الدكن يعيش في بلاط احد ملوك بيجابور .

اما في سلالة نظام شاه فقد كانت اعظم شخصية الاميرة شاند بيبي Chand Bibi التي قاومت جيوش سلاطين المغول وقادت جيوشها بكامل سلاحها ولكن قوادها قتلوها في عام ١٦٠٠ ثم بعد ثلاثين سنة خضعت الدولة لسلاطين المغول .

جميع هذه الممالك الاسلامية في البنغال وكوجرات والدكن خضعت في النهاية وفي اوقات مختلفة لامبراطورية المغول الاسلامية التي ظهرت في القرن السادس عشر

كما سنرى وبدأ انحطاطها في اوائل القرن الثامن عشر . وقد كان حكام هذه الممالك الاسلامية اما من اصل مغولي او افغاني او تركي وكانت عواصمهم مراكز فنية تلتقي فيها فنون الهند والفرس وتصطبغ بالفن الاسلامي .

حضارة الهند في عهد سلاطين المغول المسلمين : اسست امبراطورية المغول المسلمين في ١٥٢٦ وبدأ انحطاطها في ١٧٠٧ . وسنتكلم عن هذه الفترة لان تاريخ الهند بعد عام ١٧٠٧ هو تاريخ الاستعمار الاوربي وزوال الامبراطورية المغولية.

اسس امبراطورية المغول الاسلامية ظهير الدين محمد المعروف بلقب « بابر » اي الاسد وأصله من آسية الوسطى ويرجع بنسبه الى تيمورلنك وجنكيز خان . وقد استولى على مدينة كابل ثم غزا البنجاب وفي عام ١٥٢٦ انتصر على سلاطين دلهي من اسرة لودي في معركة « بانيبات » التي تقرر فيها مصير الهند عـــدة مرات . وكانت من غنائمه في تلك الموقعة الماسة المعروفة باسم كوهينور Kohinur التي دخلت فيما بعد في حوزة التاج البريطاني . واستولى بعد ذلك على دلهي حيث تليت الخطبة باسمه فأسست « امبراطورية المغول العظام » . وقد اطلقت كلمة مغول على جميع الغزاة الذين اتوا من اواسط آسية ، على انه « بابر » بالحقيقة كان تركياً . وقد استولى على مدينة اغرة Agra ثم حارب الراجبوت قرب اغرة في عام ١٥٢٧ وكسرهم واعتبر الحرب جهاداً ضد عبدة الاصنام من الهنود . وكان بابر يكره الاقامـة في الهند وكذلك كان سلاطين المغول عموماً يكرهون اقليم الهند ويفضلون الاقامة في كشمير . وقد ذكر بابر ان الاقليم في الهند ليس باحسن من السكان وانه ليس فيها خيول جيدة ، ولحوم مناسبة للأكل وثمار وماء بارد وخبز طيب كما انه ليس فيها حمامات . ولذلك كان يفضل مدينة سمرقند . وعندما توفي في ١٥٣٠ دفن في مدينة كابل . وكان « بابر » شاعراً وموسيقياً وكتب مذكرات باللغة التركية ترجمت الى الفارسية وذكر أنه بدأ يحارب في سن الثامنة عشرة .

وأتى بعده ابنه همايون (١٥٣٠ — ١٥٥٦) ولكن حاكم البنغال شيرشاه

قهره واجبره على الهرب الى فارس وافغانستان . وحكم شيرشاه الافغاني الاصل مدينة دلهي خمس سنوات بعد ١٥٤٠ واشتهر باصلاحاته الادارية اذ وضع أصولاً لجباية الضرائب ومسح الاراضي ووطد النظام وسك نقوداً فضية ، واستفاد همايون من الفوضى في عهد وريث شيرشاه فعاد الى مملكته .

السلطان اكبر وحضارة عصره : كان السلطان جلال الدين اكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) ابن همايون من أعظم سلاطين المغول وكان مستشاره عندما كان لا يزال في الثالثة عشرة من عمره « بيرم خان » وحارب أميراً هنديا اراد الحكم في دلهي فتغلب عليه وعلى سائر الأعداء من امراء الراجبوت ونبلاء الافغان وحتى افراد حاشيته . وتزوج من اميرة هندية راجبوتية وتوسع في الهند حتى حكم معظمها . وقد اقام في مدينة اغرة ثم في مدينة « فتح بور سكري » التي بنى فيها الشيء الكثير واخيراً هجرها وسكن لاهور في البنجاب . وفي ١٥٧٢ فتح كوجرات والبنغال واخذ ينظم الامبراطورية فقسمها الى ١٢ مقاطعة (Subas) يحكم كلاً منها سوبدار وكان يتبع هؤلاء عدد من الموظفين باسم « منصب دار » مصنفين حسب عدد الفرسان الذين يقدمونهم الى الجيش الامبراطوري . فكانت هنالك نحو ثلاثين درجة من هؤلاء الموظفين ، من قواد العشرة آلاف حتى قواد العشرة جنود . فالمنصب دار كان موظفاً مدنياً وعسكرياً . والقانون كان صارماً ولم تكن هنالك مجموعة قوانين . والقضايا المدنية بين المسلمين كان يحكم فيها قاض بموجب الشريعة الاسلامية .

كان حكم سلاطين المغول مطلقاً وكان الوزراء في عهد السلطان اكبر اربعة يعرفون بالاسماء التالية : وكيل الملك ويشبه رئيس الوزراء ، والوزير وهو وزير المالية ، والبقشي اي وزير الحربية ، والصدر للشؤون الدينية . وكانت أهم قوة في الجيش الفرسان .

اما في قضية اصلاح السلطان اكبر الديني فانه يلاحظ ان القرن السادس عشر كان عصر اصلاح ديني في اوربا كما كان في الهند . وقد اهتم « اكبر » بالمسائل

الدينية وكان مطلعاً على الديانة الهندوسية بواسطة اصدقائه ونسائه ، ثم اثر عليه مفكر يدعى الشيخ مبارك وابناه ابو الفضل والشيخ فيظي . وقد وضع ابوالفضل كتاب « عيني اكبري » (اي نظم اكبر) وهو قسم من الاكبر نامة او تاريخ حكم اكبر . كان السلطان اكبر متصوفاً يريد الوصول الى الحقيقة ثم قرر وضع ديانة تجمع كل الديانات في مملكته . وكانت في نفس الوقت معاصرته الملكة اليزابت في انكلترا تريد وضع ديانة رسمية للدولة يرضى بها الجميع . وقد اصبح السلطان اكبر يدعى « امام عادل » او الرئيس الديني في البلاد في عام ١٥٧٩ والقى الخطبة في مسجد فتح بورسكري . ثم بنى « العبادة خانة » ودعا الهنود والجاينيين والزردشتيين والمسلمين والمسيحيين ليقوموا بمناقشات دينية فيها وكان يرأس الجلسات بنفسه أحياناً . وكان جماعة من اليسوعيين يأتون الى العاصمة من غوا على الساحل ويحملون معهم الرسوم الدينية الايطالية .

وفي عام ١٥٨٢ نشر السلطان اكبر دينه الجديد المسمى «دين الهي» واعتبره اتباعه رئيسهم الروحي . وكانت بعض نظم الديانة الجديدة مأخوذة من الهندوسية والزردشتية كعبادة الشمس وعدم اكل اللحوم . غير ان هذه الديانة ماتت بموت صاحبها . كان « اكبر » يعامل جميع الرعايا بالتساوي وقد اجتهد بان يلغي بعض العادات مثل زواج الاولاد وقتل الارملة . وكان يحب العلم ويشجع ترجمة الكتب من العربية والسنسكريتية والبرتغالية وقراءتها بحضوره . كذلك كان السلطان اكبر منظماً وبناءً وميالاً الى الرسم والموسيقى . ولم يمانع في رسم الاشكال البشرية واتى ببعض الرسامين في ايامه من بلاد فارس . وتأثر بعض الرسامين بالنماذج الايطالية التي أتى بها الآباء اليسوعيون . وعمل رجال الفن مخطوطات مصورة كما انهم رسموا بعض الشخصيات المشهورة . وكان شاعر البلاط الشيخ فيظي شقيق ابي الفضل .

توسعت امبراطورية المغول في عهد « اكبر » في الدكن وكشمير والسند وبلوجستان وقندهار . وفي عام ١٥٨٥ اتى تاجران انكليزيان الى فتح بورسكري

عاصمة اكبر يحملان رسالة من اليزابت ملكة انكلترا . غير ان هذه البعثة لم تستلفت النظر حينذاك .

كان السلطان اكبر يهتم باحوال الشعب وقد رغب في ازالة الفوارق بين الطبقات والاديان . ووضع حداً لسوء استعمال وظيفة الجباة . وكان الفلاحون فقراء والمجاعات كانت تحصل ومنها مجاعة دامت ثلاث سنوات بعد ١٥٩٥ . ومكانة اكبر في التاريخ هي انه حاول ربط الهند كلها وجعلها امة واحدة بعد ان اسس امبراطورية عظيمة . ومن الجدير بالاعتبار هو انه بينما كانت وسائل التعذيب تستعمل في اوربا في القرن السادس عشر بسبب اختلاف الدين كان السلطان اكبر يؤسس مذهباً يمارس فيه جميع الناس عقائدهم . وقد عاصره ملوك كبار في الشرق والغرب بينهم الشاه عباس في فارس واليزابت في انكلترا وهنري الرابع في فرنسا وفيليب الثاني في اسبانيا ولكنه فاقهم كلهم .

ورث العرش بعد اكبر ابنه الامير سليم الذي اتخذ لقب جاهنجير (اى ملك العالم) وحكم ١٦٠٥—١٦٢٧ . وقد ثار عليه ابنه خسرو وحصلت بينهما معركة تغلب فيها واصبح ابنه سجيناً على اثرها بعد أن قتل زعماء الفتنة . وعاد جاهنجير فرضي عن ابنه خسرو ولكن ابنه الآخر خرّم سمم أخاه في عام ١٦١١ . وتزوج جاهنجير من سيدة فارسية كانت ارملة نبيل فارسي واسمها نورجهان . وكانت طموحة متسلطة على زوجها تشترك معه في اصدار الفرمانات وفي وضع اسمها على النقود . وكانت علاقات جاهنجير جيدة مع البرتغاليين واليسوعيين . وفي عام ١٦٠٨ ارسلت شركة الهند الشرقية اسطولاً تجارياً بقيادة القبطان هوكنز Hawkins وذهب الى البلاط في اغرة وطلب تأسيس معمل في سورات Surat لحساب شركة الهند . فقام اليسوعيون يعاكسون ذلك . وساءت العلاقات مع البرتغاليين وفي ١٦١٣ اخطأ هؤلاء بالقبض على اربع سفن تابعة لسلطان المغول فانتقم السلطان جاهنجير وسجن البرتغاليين الذين في اغرة . وفي عام ١٦١٥ يأتي السير توماس رو Roe سفيراً من قبل جيمز الاول ملك انكلترا الى اغرة .

وبعد بضع سنوات يهاجم المغول المسلمون مستعمرة برتغالية على الفانج ويفتحونها ويبدأ نفوذ البرتغاليين بالاضمحلال.

وحصلت حرب أهلية لاجل وراثة عرش جاهنجير قبل وفاته . وأخيراً اصبح ابنه خرّم سلطاناً باسم شاهجهان الذي حكم في اغرة بينما دفن والده جاهنجير وزوجته نورجهان في مدينة لاهور .

حضارة الهند في عهد شاه جهان واورنجزيب : اعترفت دول الدكن بسلطة شاه جهان (١٦٢٨—١٦٦٦) وبعضها زالت تماماً من الوجود . وكانت كابل تنتقل بين المغول المسلمين في الهند وبين الفرس . وقام السلطان شاه جهان بعين ابناءه حكاماً في مناطق مختلفة لكي يتجنب منافستهم على العرش ولكن الحرب لم تلبث أن حصلت بين ابنائه وقتل أحدهم واسمه اورنجزيب أخاه « شيكوه » .

كان عصر شاه جهان العصر الذهبي لامبراطورية المغول الاسلامية في الهند . فقد كانت ثروة الدولة ضخمة والواردات كثيرة وكان البلاط مزدهراً وعدد الرسامين والشعراء كان كبيراً وكذلك كانت المباني فخمة لم يعرف لها مثيل . وقد بنى هذا السلطان مسجداً في دلهي وحصناً وقصراً . واحتوى القصر قاعة هامة للاستقبال فيها عرش الطاووس الذي كانت ارجله واعمدته من ذهب . وقد نُقل هذا العرش الى بلادفارس بعد مائة سنة من قبل الملك نادرشاه . وبنى شاه جهان مسجداللؤلؤ في اغره ولكن اهم مابناه هناك كان «تاج محل» الذي شاده لزوجته ممتاز محل ابنة وزيره عساف خان التي ولدت له ١٤ ولداً وتوفيت في ١٦٣١ . ودام بناء تاج محل عشرين سنة وكان يستخدم في بنائه عشرين الف عامل كل سنة .

كان يرافق هذا الترف احوال سيئة وخاصة بين طبقة الفلاحين. فالسخرة كانت معروفة والاجور كانت قليلة والضرائب مرتفعه والمواصلات سيئة والامن كان مضطرباً . ويقول الرحالة الافرنسي برنييه Bernier ان بعض الفلاحين

تركوا حقولهم ودخلوا في خدمة بعض النبلاء وبقيت حقول كثيرة بلا زرع . وخربت البلاد لضرورة دفع النفقات اللازمة للبلاط ونفقات الجيش الضروري لبقاء الناس في حالة خضوع ، وكانت معاملة الفلاح قاسية يستعمل فيها السوط كما انه كان يكاد لا يبقى له حتى الخبز اليابس بعد كل ما يؤخذ منه على حد قول أحد الكتاب .

وقد حصلت مجاعة في عام ١٦٣٠ فكان الفقراء يبيعون أنفسهم برغيف خبز ولكن ليس من يشتري ، والرتبة كانت تباع بكعكة ولكن ليس من يهتم بها . وقد قيل أن لحم الكلاب بيع على اساس انه لحم ماعز وان عظام الموتى كانت تطحن وتمزج مع الدقيق . وبلغ الجوع بالناس حتى صاروا يأكلون بعضهم بعضاً . تلك كانت صورة لاحدى المجاعات الكبرى التي كانت تحصل في الهند كما أنها صورة للشقاء الذي كان يرافق حياة الترف في البلاط .

وبدأ حكم اورنجزيب (١٦٩٥ — ١٧٠٧) قبل وفاة والده شاه جهان . وتوج في دلهي وسكن القسم الشمالي من الدولة حتى عام ١٦٨١ ولكنه بعد هذا العام وحتى وفاته كان يحارب المهراتا في الدكن . وقد كان اورنجزيب اول سلطان منذ تأسيس الامبراطورية يتمتع بآراء دينية مستقيمة . فقد اغضبه الانحلال الاخلاقي في عصره ، ورغب في ازالة عبادة الاصنام من الهند كلها وجعل البلاد مسلمة . فالسلطان اورنجزيب اذاً كان على عكس السلطان اكبر لانه أراد التخلص من كل ديانة عدا الاسلام . وفي عام ١٦٦٩ اصدر قراراً للحكام بان يقضوا على تعاليم وممارسة عبادة الاصنام ؛ كذلك جبى الجزية من جديد وهدم المعابد حتى في بنارس ومانورا . وكانت نتيجة هذه السياسة قيام ثورات هائلة هددت بعض الحكام بالقتل . واضطهد السيخ في هذا العهد ومات « الغورو » التاسع معذباً وقام الغورو العاشر كما رأينا فحول السيخ الى جماعة محاربة .

وتوفي اورنجزيب وهو يحارب المهراتا في الدكن . وفي رسائله الاخيرة يظهر حزناً عميقاً فيقول : « لست اعلم من أنا ولا أين سأذهب ولا ماذا سيحصل لهذا

المذنب المملوء بالذنوب... ان اولادي المشاهير لايجب أن يتحاربوا فيما بينهم ويجعلوا المذابح تقوم بين الشعب الذين هم عبيد الله . لقد ذهبت سنوات حياتي سدى وكان الله في قلبي ولكن عيني المظلمتين لم تشاهدا نوره » . هكذا انتهت حياة اورنجزيب آخر سلاطين المغول المشهورين . ودفن في مدفن بسيط في دولة اباد .

كان اورنجزيب اعظم سلاطين المغـول المسلمين بعد اكبر . وكان متقشفاً متعبداً في حياته الخاصة . وفي سياسته كان فاشلاً فلم ينجح في استئصال الهرتقة والاصنام . وقد وسع حدود مملكته ولكن اعراض انحطاطها ظهرت في هـذا التوسع . وكان بسبب آرائه الخاصة يمنع الموسيقى والرسم وسائر الفنون حتى انه منع كتابة التاريخ . وقد بنى جامعاً في بنارس مركز الهندوسية بينما كان يهدم معابد تلك الديانة .

لماذا انحطت امبراطورية المغول: تتضح مما سبق اسباب انحطاط امبراطورية المغول الاسلامية في الهند. وقد اعطانا الرحالة الاوربيون ايضاً صورة عن اسباب هذا الانحطاط . فالضرائب كانت ثقيلة والواردات تنفق على ترف الحكام والبلاط. والسلاطين بعد « بابر » كانوا يعيشون في ابهة وبذخ بينما كانت الحكومـة فاسدة قاسية والحكام في المقاطعات لا يخضعون للحكومة المركزية . واصبح الجيش مجموعة مضطربة من الجنود حتى قال سائح افرنسي ان جيشاً منظماً مؤلفاً من ثلاثين الف جندي مدرب يمكنه فتح هذه الامبراطورية . وقد تحقق هذا القول بعد خمسين سنة حـين أتى كلايف Clive الانكليزي واستعمر الهند . وكانت الحروب الاهلية بين الامراء لوراثة العرش بعد موت كل سلطان من اسبـاب الانحلال والانحطاط . وعندما حاول اورنجزيب القيام بالاصلاح كان الوقت قد فات ومن جهة اخرى فان سياسته كانت خاطئة . فقد جبى الجزية بشدة وحارب الاصنام فافسد سياسة سلفه اكبر الذي كان بعيد النظر ، واغضب امراء الراجبوت وهم « سيف الامبراطورية وترسها » كما يقول الهنود . ثم ان سلاطين المغول كانوا

اجانب عن البلادفلم يستميلوا الشعور الوطني والشعبي. وحملة اورنجزيب الى الدكن كانت خطيئة كبرى لانها انهكت الخزينة من جهة وجعلت السلطان غائباً عن مركز الحكم مدة طويلة .

الفن الاسلامي في الهند: شمل الفن الاسلامي في الهند دورين : فالدور الاول سبق حكم سلاطين المغول وكان الفن لايزال فيه هندي الطابع . والدور الثاني بعد حكم المغول في ١٥٢٦ تزدهر فيه الفنون الاسلامية . وكانت المدرسة الهندية الاسلامية في البناء احدى المدارس الخمس في فن البناء الاسلامي [١] . واخذت هذه المدرسة عن المدرسة العراقية الفارسية القوس القليل الانحناء والقبة البصلية الشكل ولكنها زيادة على ذلك استخدمت صفاً من القباب الصغيرة فوق الابواب الكبرى كما في جامع فتح بور . واستعملت صفائح الرخام المخرم بدلاً من الجص المحفور الذي شاع في سائر المدارس وخاصة في المغرب . وبنت الدعائم الغليظة المخرمة التي لم تستعملها مدرسة فنية اخرى . والمآذن كانت غالباً اسطوانية من النوع العراقي الفارسي .

ومن اشهر مراكز الفن الاسلامي في الهند كانت مدينة دلهي وفيها قصر اباطرة المغول والجامع الكبير ، ومدينة فتح بور وفيها الجامع الكبير وقصر السلطان والسلطانة . ولكن أهم مراكز الفن كانت مدينة أغرة على الضفة اليمنى لنهر « جمنة » وفيها توفي السلطان اكبر بعد ان سكنها حتى عرفت مدة من الزمن باسم « اكبر اباد » .وفي بناء تاج محل الذي يحتوي ضريحي شاه جهان وزوجته ممتاز محل توجد مأذنة اسطوانية في كل زاوية ارتفاعها ١٣٣ قدماً . وفي الوسط قبة

---

(١) والمدارس الاخرى هي : المدرسة السورية المصرية ، والمدرسة العراقية الفارسية، ومدرسة المغرب ، والمدرسة العثمانية ولكل من هذه خصائصها في اسلوب البناء والمآذن والزخارف والاقواس والقباب.

البناء الرئيسية وقطرها ٥٨ قدماً . وحول الابواب كتابات زخرفية بالعربية . وجميع تفاصيل البناء وزواياه وزخارفه مرصعة بالحجارة الكريمة بحيث تشكل تيجاناً ورسوماً هندسية . ووراء الضريح جناحان كبيران احدهما جامع . وقد ذكر احد مؤرخي الفن المعجبين بتاج محل « ان اجتماع اشكال جميلة لهذه الدرجة وارتباط عناصر الجمال بعضها ببعض على هذا الوجه الأتم تشكل مجموعة لا يمكن ان يأتي العالم بمثلها » .

اما في فن التصوير فان بابر واسرته المغولية وجدوا تقاليد فنية وطنية في الهند ولكن هذه التقاليد تأثرت بأساليب الايرانيين الذين ساهموا في قيام مدرسة جديدة هي المدرسة الهندية المغولية . واقدم آثار هذه المدرسة ترجع الى عهد مؤسس السلالة « بابر » ويظهر فيها اسلوب بهزاد . وقد كان بهزاد من اهم شخصيات المدرسة التيمورية في هرات ثم انتقل مع تلاميذه الى تبريز عاصمة الدولة الصفوية الجديدة التي أسسها الشاه اسماعيل الصفوي بعد سقوطه هرات في ١٥١٠ . واصبح بهزاد رئيس الخطاطين والمذهبين ومدير مكتبة الشاه . واشتهر بهزاد بانتصاره على الخطاطين الذين كانوا يتحكمون بحجم الصور والفراغ المتروك للمصورين . واشتهر بمزج الالوان والتعبير عن الحالات النفسية ودقة الزخرفة .

وتأثر السلطان اكبر بالفن الايراني وكان مشجعاً للفنون . وكانت قصوره محلاة بالصور والنقوش واستخدم المصورين الهنود في مجمع الفنون الذي اسسه لتوضيح المخطوطات الفارسية باشراف مصورين ايرانيين . ويلاحظ الطابع الايراني في الصور ولكن المميزات الهندية تظهر في اتقان رسم مناظر الطبيعة ومزج الالوان والدقة في رسم الاشخاص وفي شكل الاشخاص وملابسهم وفي الابنية والمناظر . وفي القرن السابع عشر يتأثر الهنود بالصور الاوربية التي تعرفوا عليها بواسطة البرتغاليين في مدينة غوا . ثم يصبح تصوير المخطوطات قليلاً ويشتد اقبال الناس على الصور الشخصية . وفي اواخر القرن السابع عشر في عهد اورنجزيب تزول رعاية الاباطرة للفن ويبدأ اضمحلال المدرسة الهندية المغولية .

الفصل الثامن

حضارة الصين

تضم وديان الانهار الثلاثة الرئيسية في الصين خمسي مساحة البلاد واربعة اخماس سكانها . وهذه الانهار الثلاثة هي النهر الاصفر (هوانغ هو) والنهر الازرق (يانغ تسي كيانغ) والنهر الجنوبي (سي كيانغ) . وفي وديان هذه الانهار وخاصة وادي النهر الاصفر وجدت اهم مراكز الحضارة الصينية .

حضارة العصر الحجري وعصر سلالة شانغ : بدأت الحياة في الصين في اقدم العصور الحجرية ووجدت فيها بقايا انسان قديم يرجع الى نحو اربعمائة الف سنة . وهذه البقايا اكتشفت على اربعين ميلاً من بكين في عام ١٩٢٧ ويعرف هذا الانسان باسم انسان بكين Sinanthropus pekinensis . وكانت بقايا انسان العصر الحجري الحديث كثيرة ووجدت خاصة في وادي النهر الاصفر وكان الانسان يعيش كما في سائر البلاد على الصيد ثم الزراعة والصيد ويستعمل الحجر المصقول والخزف . وفي ١٩٢١ اكتشف العالم اندرسون T. G. Andersson مواقع في غربي هونان في وادي النهر الاصفر منها موقع يانغ شاه yang shao حيث وجد اواني الفخار الرمادي اللون ولها ثلاثه ارجل او قواعد ولا يزال الصينيون حتى اليوم يصنعون مثل هذا الخزف . وتقع حضارة هذا العصر ربما بين

الالفين الثالث والثاني ق . م . كذلك ظهر الخزف المدهون وثم الخزف المختلف الالوان بين أسود وابيض واحمر وخاصة في موقع لونغ شان Lung Shan . وكان يعيش الناس في هذه الفترة في مدن مربعة حولها اسوار عرض قاعدتها نحو عشرة امتار .

وقد ذكرت سلالة تدعى هسيا Hsia في هذه الفترة الاولى ولكن لاتؤيد وجودها الاكتشافات الاثرية . والتاريخ المعطى عادة لهذه السلالة هو ٢٢٠٥ — ١٧٦٥ والاغلب ان الحكم في زمنها كان لرؤساء المدن والقرى في هذا العصر الحجري الحديث . وكما اخترعت معظم الامم رجلاً ترجع اليه اصل نظمها وحضارتها فان التقاليد الصينية ذكرت وجود حاكم اسمه فوهسي Fuhsi من نحو ٢٨٥٢ق.م وقالت انه اول حاكم متمدن وانه علم الناس الكتابة والصيد والموسيقى وتربية دودة الحرير كما ان حكاماً آخرين ادخلوا الزراعة والطب والبوصلة والتقويم .

وتواريخ الصين مبنية على جدول وجد في تاريخ سلالة هان كتبه رجل اسمه بان كو Pan Ku (توفي ٩٢ م) ، وكذلك على تاريخ آخر موجود في حوليات كتب الخيزران (١) وجد في قبر في ٢٨٠ م وقيل انه وضع في القرن الثالث ق.م . ثم هنالك مجموعة اخرى للتأريخ مبنية على كتب الخيزران المصححة والمنقحة . وتتفق المراجع عموماً على التواريخ بعد عام ٨٤١ ق.م . ولكن قبل ذلك نجد اختلافات كثيرة .

بعد العصر الحجري يأتي عصر الانتقال الى البرونز والى عصر الكتابة وتحكم في هذا الدور سلالة شانغ Shang (١٧٦٥ — ١١٢٢ ق.م) التي يقال ان بطلاً اسسها وكان تابعاً للسلالة السابقة ثم ثار عليها لشرورها . ومركز حكم السلالة كان في مقاطعة هونان في وادي النهر الاصفر وفي مدينة اسمها شانغ . وكانت

---

(١) Annals of the Bamboo Books.

اسس منازل هذه المدينة من التراب المرصوص اما البيوت فكانت من الخشب وسقوفها كانت مروسة وترتكز على ثلاثة صفوف من الاعمدة . ومبادىء البناء كانت كما في العصور الحديثة. واستعمل الخزف المزخرف بتموجات هندسية واواني البرونز التي ترجع الى هذا العصر مشهورة باتقانها . وأهم ماوجد منها الاواني البرونزية للطقوس الدينية وكذلك الاسلحة والادوات المختلفة ومنها اشكال مختلفة كالآنية التي لها ثلاثة ارجل . كذلك وجدت انواع منوعة من الخزف لها اسماؤها الخاصة وقد زخرفت بالحفر واحياناً بالزخارف النباتية والحيوانية والجني الذي له رأس وجسمان .

عبد الصينيون في هذا الدور الارواح المتعلقة بقوى الطبيعة وعناصرها كما عبدوا الاسلاف . وكانوا يستعملون الاواني في المراسم الدينية منها الابريق للخمر والآنية الاخرى لاراقة السوائل . وتظهر النقوش المكتوبة عليها غايتها الدينية . ولم يمثلوا الآلهة في هذا العصر بشكل بشري او حيواني انما الجني كان يقصد به ابعاد الشر . وبوجه الاجمال فان العالم غروسيه Grousset يقول « ان في الزخارف اشارة الى ذلك السر الغامض الموجود في كل مكان والذي قد يتحول احياناً الى شيء رهيب » . وعلى ذلك فان الشعب الصيني كان عملياً منذ هذا العصر ولكنه كان مطبوعاً بالغموض وبشعور الغموض .

وفترة حكم سلالة شانغ كانت اذاً مرحلة انتقال من عصر الحجر الى البرونز والى استعمال الكتابة . ومعلوماتنا عن هذا العصر مصدرها عظام كتبت عليها بعض التنبؤات ووجدت في جوار موقع انيانغ Anyang في شمالي هونان. وقد نقب هناك معهد الابحاث الوطني للتاريخ والفيلولوجيا في الولايات المتحدة. وهذه العظام هي عظام حيوانات لاجل معرفة الغيب ووجدت عليها كتابة . ويرجع بعضها الى القرن الرابع عشر ق.م . وبعضها الى قبل ذلك . ومنذ ذلك العصر نرى استعمال المبادىء الهامة لتكوين الكتابة الصينية ، وقد استعملوا الفي علامة على الاقل على هذه العظام . وكانوا يستشيرون الآلهة

وأرواح الاسلاف فيعرضون العظام للحرارة حتى يتشكل فيها شق بشكل حرف T وعلى اساس شكل هذا الشق يكون الجواب بالنفي او الايجاب ، والجواب كان احياناً يكتب على قطعة العظم . فقد كتبوا على العظام السؤال ببساطة ومن هذه الاسئلة مثلاً : « هل تمطر الليلة ؟ » ثم يكتبون الجواب بعد ان تحققوا ماذا حصل بالفعل فيقولون « الحقيقة لم تمطر » . وهنالك سؤالات اخرى واجوبتها تتعلق بالحرب والمرض والسفر وغير ذلك . ثم ان هذه العظام مفيدة لانها تعرفنا بالآلهة واهمها ارواح الاسلاف ، وارواح الارض والنهر والريح والشرق والجنوب والاسفل والاعلى (ربما يعنون بها الارض والسماء) والجنية او الأم الشرقية وتي Ti التي قد تمنع الحرب والمطر والخطر . وربما وجدت تضحيات بشرية لانه وجدت جماعات مدفونة بدون رأس كما وجدت علامات تصويرية ترمز الى رجل يضع الخنجر او الفأس على عنق رجل آخر مع صورة سفينة تعني التضحية . وهذه العلامات نراها على فأس برونزية للمراسم الدينية . كذلك قد يجوز افتراض وجود الكتب لانه توجد علامة ترمز الى « كتاب » وفيها خطوط عامودية يربطها خيط . والخطوط العامودية تمثل قطعاً من الخيزران او الخشب مشدودة بعضها الى بعض ووجدت كتب من هذا النوع . وقطعة الخشب تحوي عاموداً من العلامات من الاعلى الى الاسفل .

<u>سلالة تشو والادب الصيني الكلاسيكي</u> : كان آخر ملوك سلالة شانغ ملك اسمه هسين Ti Hsin يقال انه ادخل استعمال مسكات العاج لاجل الطعام وقد شكا وزيره من هذا الترف . ثم اتى برابرة من الغرب تحت زعامة قبيلة تشو Chou واصبحت العاصمة في هاو Hao في وادي النهر الاصفر واقتبس القادمون حضارة الدور السابق بسرعة فاخذوا الكتابة والبناء والتنبؤ . وحكمت اسرة تشو مدة طويلة (١١٢٢ - ٢٥٦ ق.م) وكانت فتوحاتها واسعة . الا انها اعطت الحكم لرؤساء في المقاطعات وتأسس نوع من الحكم الاقطاعي . واظهرت الحفريات في مدن هذه السلالة اماكن دفن تحت الارض وفيها قطع البرونز للطقوس الدينية ومركبات وسلاح وكان يعلو قبور الملوك مرتفع اصطناعي .

كانت العاصمة في القسم الاول من حكم هذه السلالة في المنطقة الغربية ودامت هذه الفترة حتى عام ٧٧١ ق.م ثم أصبحت العاصمة في القسم الثاني في المنطقة الشرقية. وفي عهد تشو الشرقية أي في القسم الثاني أصبحت السلطة لممالك كثيرة أهمها خمس ممالك في القرن السابع ثم تصبح السلطة بيد سبع ممالك في القرن الخامس أي في عصر كونفوشيوس. وكان العصر عصر حروب ومؤامرات. وأخيراً بعد موت آخر ملك في سلالة تشو في عام ٢٥٦ ق.م تحصل حروب كثيرة لأجل السيطرة وتنجح احدى المقاطعات واسمها تشين Chin (التي أعطت اسمها لبلاد الصين كلها) في توحيد البلاد تحت سيطرة واحدة.

وقد استمر صنع الادوات البرونزية في هذا العصر ولكن انواع الاواني كانت أقل كما ان انواع الحيوانات المرسومة على تلك الاواني لم تكن بنفس الكثرة التي كانت سابقاً. وظهرت في هذا الدور قنينة برونزية مسطحة سميت «قنينة الحجاج» واستعملت خاصة في عصر كونفوشيوس. كذلك ظهرت أشكال بشرية منحوتة. ومن اواخر عصر تشو يأتي الدراجون أو الجني البرونزي المجنح. واستخدمت الحجارة الكريمة الخضراء لصنع الحلقات والخناجر والفؤوس وصنعت أشكال بشرية وحيوانية من هذه الحجارة. وقد عثر العلماء على شكل بشري مصنوع من الحجارة الكريمة وملتف بلباس طويل وربما يمثل حكيماً. وصفة الفن الصيني العامة انه يفضل الاشياء الجميلة على الاشياء الضخمة ويفضل المراسم والتقاليد على الاشياء المادية فالصين ليست بمقبرة كمصر وانما موطن عبادة الاسلاف.

أما الكتابة فقد اعتقد الصينيون كما اعتقدت شعوب اخرى قديمة انها من أصل الهي. والكتابة الصينية ليس فيها ابجدية ولا اعراب ولا تهجئة وتحوي نحو اربعين الف اشارة بينها نحو ٦٠٠ اشارة اساسية تدخل بعضها في معظم الاشارات. وهذه الاشارات او العلامات يعبر عنها في لغة الكلام بنحو ٧٠٠ صوت من مقطع واحد وكل صوت فيه الحان مختلفة تقرر معناها. وفي الكتابة نجد ان لكل كلمة او فكرة اشارة خاصة. ويمكن للصيني ان يتدبر أمره بثلاثة او اربعة آلاف اشارة.

والكتابة كانت للاشراف والمتعلمين فقط . والموظفون كانوا يختارونهم على أساس امتحانات دقيقة في الكتابة وكذلك في رمي السهام وشؤون اخرى .

كان الادب معروفاً في هذا الدور بالرغم من كثرة الحروب حتى ان العصر يسمى بالعصر الكلاسيكي في الادب الصيني . والمؤلفات الادبية قبل عصر كونفوشيوس كانت كثيرة حتى انه خصص وقتاً كثيراً هو واتباعه لجمع الكتب ونشرها وشرحها . ومع الزمن كثرت عمليات الجمع والتفسير حتى أصبح من الصعب معرفة ما يتعلق منها بفترة معينة . على انه يمكن التأكد بواسطة المقارنة مع ما كتب على قطع البرونز والعظام من وجود البقايا الادبية من عصر سلالة تشو . وقد جمعت المؤلفات الهامة لهذا العصر في مجموعة تسمى « كتب كونفوشيوس » وهي أولاً « الكتب الكلاسيكية الخمسة » التي جمعت غالباً فيما بعد في عصر سلالة هان ، وثانياً « الكتب الاربعة » التي سميت كذلك في القرن العاشر في عهد اسرة سونغ . ويقال ان كونفوشيوس نفسه جمع اول اربعة كتب من « الكتب الخمسة » والف الكتاب الخامس بينما « الكتب الاربعة » تنسب الى اتباعه وتلاميذه .

وتحتوي الكتب الخمسة الكلاسيكية ما يلي : اولاً « كتاب التغيرات » وهو كتاب تنبؤات وتنجيم يرجع غالباً الى اوائل اسرة تشو وفيه أشكال تمثل ستة خطوط في أوضاع مختلفة ربما كانت بالاصل ستة قضبان كان يحركها صاحب النبوءة ثم يراجع النص المتعلق بوضعها الخاص . ثانياً « كتاب التاريخ » أو الكتب المحفوظة وهو مجموعة وثائق من عصور مختلفة ربما حتى القرن الثالث م . ثالثاً « كتاب الشعر » وهو منتخبات يحوي نحو ٣١١ شعراً قيل ان كونفوشيوس انتقاها من ٣٠٠٠ شعر ولكنها ترجع الى عهود مختلفة وتتعلق بمواضيع متنوعة . رابعاً « كتاب المراسم او القواعد المتعلقة بالسلوك » والصفة الاساسية لهذه القواعد موجودة في أولها حيث تقول « دائماً وفي كل شيء ليكن هنالك احترام » . خامساً « حوليات الربيع والخريف » ويقال ان كونفوشيوس وضع هذا الكتاب وهو سجل حوادث

بين ٧٢١ و ٤٧٨ ق.م . وهنالك كتب اخرى كثيرة في التاريخ منها حوليات كتب الخيزران وغيرها .

أما « الكتب الاربعة » فاولها كتاب التعاليم ويحوي اقوال كونفوشيوس ومحادثاته وأهم مواضيع المحادثة : الاخلاق والحكومة. وقد صقل تعاليمه وجمعها تلاميذه وربما نحو ٤٠٠ ق م . وثانياً كتاب التعليم الاعظم الذي كتبه احد اتباع كونفوشيوس ويدعو الى ثقافة الفرد بطريق المعرفة ثم تنظيم الدولة والعائلة والمجتمع. ثالثاً كتاب السلوك المناسب أو الطريق السوي . رابعاً كتاب منسيوس Mencius وفيه تعاليم هذا الفيلسوف (٣٧٢ - ٢٨٩) الذي وضع تعاليم كونفوشيوس بشكل شعبي خاص .

وفي الديانة كان الاعتقاد لا يزال في أرواح الطبيعة والاسلاف واهم الارواح كانت تي (Ti) التي تعادل السماء . وقد سمي ملوك تشو انفسهم ابناء السماء. وكانت تقدم التضحيات للموتى أيضاً . وكل اسرة كانت تحد حول معبد اسلافها واللوحات الخشبية التي عليها اسماء الاسلاف كانت توضع في المعبد . والسحره كانوا يساعدون على الاتصال بالارواح ، والتنبؤات كانت مستعملة والصلوات كانت تكتب وتتلى ثم تحرق لتجلب نظر الالة .

الديانة الكونفوشية : يقدر اتباع الديانة الكونفوشية اليوم بنحو ٢٥٠ مليون نفس ، وأقدم الاخبار عن حياة كونفوشيوس وجدت في الفصل السابع والاربعين من كتاب السجلات التاريخية الذي وضعه موظف في البلاط الصيني في القرن الثاني ق . م واسمه سوماتشين Ssuma chien (١٤٠ — ٨٠ ق . م) . عاش كونفوشيوس بين القرنين السادس والخامس (٥٥١ — ٤٧٨ ق . م) واسمه هذا هو بشكله اللاتيني اما بشكله الصيني فهو كونغ فوتزو Kung FuTzu اي كونغ الفيلسوف او المعلم . ولد في بلدة تسو Tsou في دولة لو Lu الواقعة شمالي النهر الاصفر قرب شبه جزيرة شانتونغ . وقيل ان شكله كان خارقاً فطوله بلغ الثلاث

ردات أو تسعة اقدام وجمجمته كانت بارزة بروزاً ظاهراً وقد اهتم بمسائل الديانة منذ حداثته . وأظهر دقة فائقة في عمله حين كان موظفاً. وتزوج في التاسعة عشرة من عمره واشتهر كعالم في سن الثلاثين حتى ان الوزير في المنطقة جعله معلماً لابنه في مسائل السلوك. ثم سافر مع اميرين من تلك المنطقة الى بلاط الامبراطور فكسب شهرة ولما عاد كثر عدد تلاميذه . وبعد مدة عين حاكماً على احدى المقاطعات ثم أصبح وزيراً فكان مثال العدل والنظام . وفي عهده استتب الأمن حتى انه «لم يفكر احد بان يلتقط شيئاً لا يخصه من الارض مهما كان ثميناً وأصبح الرجال يمشون على جانب من الطريق والنساء يمشين على الجانب الآخر» . وبعد ان خدم دولة لو Lu ست سنوات اعتزل الخدمة لان ملك المقاطعة اهمل شؤون الحكم . ولذلك فقد اصبح كونفوشيوس معلماً متجولاً وذاق الصعوبات في هذه المدة الطويلة من حياته التي دامت اربع عشرة سنة . وقد اصبح متفرغاً للتعليم واجتمع حوله نحو ٣٠٠٠ تلميذ فعلمهم الكتب التي جمعها او ألفها . وكان شديداً في تعليمه فلا يساعد الذي يرى فيه عدم الاكتراث «واذا اعطى زاوية من الموضوع كمثل ولم ينقل التلميذ ما تعلمه الى الزوايا الثلاث الأخرى فان كونفوشيوس لا يهتم باعادة الكلام» .

كان كونفوشيوس متواضعاً في معيشته ، حذراً وفصيحاً في كلامه، جدياً في سلوكه . توفي في الثالثة والسبعين من عمره ودفن شمالي مدينة كوفو واقام تلاميذه ثلاث سنوات قرب قبره ثم تفرقوا ولكن أحدهم بنى كوخاً قرب القبر واقام ست سنوات . وأتى آخرون فبنوا بيوتاً حول ضريحه وظهرت قرية عرفت باسم «قرية كونفوشيوس» . وصار الناس يقدمون التضحيات عند قبره كما ان القاعة التي سكنها تلاميذه قرب قبره تحولت الى معبد حفظت فيه ادواته .

لم يكن كونفوشيوس مؤسس ديانة كما انه لم يكن زعيماً دينياً واعتبر الأفكار الموجودة في عصره مسلماً بها غير انه كان فيلسوفاً اخلاقياً ومعلماً عظيماً . وقد علم التاريخ والشعر والاخلاق وشجع روح الاطلاع وكره السياسة . ولم يذكر

في تعاليمه طقوساً او عقائد جديدة . إنما المبادىء الاخلاقية التي علمها تنطبق على ديانات كثيرة واعتبر « الحكيم الكامل » . وأسست المدارس لدرس تعاليمه ولمدة الفي سنة كونت فلسفته العقل الصيني وحولت الهمجية الى مثالية . غير ان القواعد الشديدة للسلوك واللياقة اوجدت الجمود واخرت أعمال الناس . وأهم ما اهتم به كونفوشيوس هو واجبات الانسان الاساسية في مجتمع انساني وتنظيم المجتمع حسب المبادىء الاخلاقية التي وضعت منذ أجيال ولم يخترعها . وكان من جملة اقواله «المعاملة التي لا تريدونها لانفسكم لا تعاملوا بها الآخرين » . واعتقد ان الحاكم المثالي يجب ان يعرف المنطق والتاريخ والسياسة والاخلاق والطبيعة .

ظهر فلاسفة في القرن الذي تبع موت كونفوشيوس منهم موتزو MoTzu اي « المعلم مو » وقد اهتم بسعادة الانسان وقال انها تأتي عن طريق البساطة والمحبة وتجنب الحرب . ومن أقواله ان المحبة تنفع الناس وخاصة الذين يمارسونها وان « من يحب الآخرين يحبه الآخرون » . ومن الفلاسفة الذين بفضلهم انتشرت الكونفوشية في الصين انتشاراً عظيماً منسيوس Mencius او باسمه الصيني منغ تسو (٣٧٢ —٢٨٩ ق. م) وقد اعتقد ان الطبيعة البشرية صالحة وحبذ عمل الصالحات بقطع النظر عن الفائدة التي يجنيها الانسان من عمله. وقام فيلسوف آخر بعده بنصف قرن يدعى « هسون تسو » Hsun Tsu فقال ان الطبيعة البشرية سيئة وان صلاح الانسان هو نتيجة التعلم المكتسب والتمرن على الصلاح .

الديانة الطاوية : تعتبر الطاوية ومعها الكونفوشية والبوذية اهم ديانات الصين . ويقدر اتباع الطاوية نحو اربعين مليون نفس . ويقول البعض انه من الصعب معرفة من هو طاوي ومن ليس بطاوي . وقد طغت على هذه الديانة بشكل خاص واثرت عليها البوذية في القرن الاول م .

تتصل هذه الديانة برجل عرف باسم لاوتزو Lao Tzu اي المعلم او الفيلسوف الكبير . وقد عاصر كونفوشيوس واصله من مقاطعة كو Ku في شرقي هونان .

ثم ذهب الى عاصمة اسرة تشو واصبح موظفاً في المكتبة الامبراطورية ، ويذكره سوماتشين صاحب كتاب السجلات التاريخية كموظف في دار المحفوظات لملوك اسرة تشو ويذكر مقابلة جرت بينه وبين كونفوشيوس . ويقول انه مارس الطريقة (اوالسلوك المعروف باسم طاو Tao) والسلطة (اي الفضيلة المعروفة باسم تي Te). ومبدأه يقوم على العزلة وعدم الاعتداد بالنفس . وقيل أنه عاش حتى بلغ المائة والستين من عمره لانه مارس الطريقة . ولايعلم احد اين توفي. غير انه وضع كتاباً شرح فيه مبادئه وهذا الكتاب هو اهم مصادرنا عن الطاوية وعنوانه Tao Te Ching اي كتاب الطريقة والسلطة وهو مكتوب بخمسة آلاف علامة صينية ومنه نسخة متأخرة من القرن السابع الميلادي محفوظة في المتحف البريطاني . وقد استعمل لاوتزو مؤسس الطاوية مصطلحاً هو wu wei اي الامتناع عن العمل وهو السلوك الذي لايقوم بجهد ايجابي. ويعتقد صاحب المذهب ان هذا السلوك يأتي بنتائج اكثر من الجهد الايجابي .

كان لاوتزو متصوفاً روحانياً اكثر من كونفوشيوس وكان اثره كبيراً في الحياة الصينية فقد اعتقد ان عدم النشاط هو اهم جوهرة في الاخلاق ومن أقواله « اهجر الحكمة وأهمل المعرفة ترى الناس يستفيدون أضعافاً مضاعفة » . كذلك قال انه بقدر مايعطي الانسان للآخرين يصبح غنياً . وقد الهه الصينيون كما ألهوا كونفوشيوس فيما بعد واعتبروا انه ولد حكيماً .ومن اقوال لاوتزو في البساطة والتواضع والاصلاح ان الصلاح الاعظم كصلاح الماء التي تفيد الناس ولكنها ترضى بادنى الاماكن ، وهي ناعمة جداً وليس ماهو أنعم منها ولكنها عندما تهاجم الاشياء القاسية لايقاومها شيء » . فالناعم يغلب القاسي والرضي النفس يقهر قاسي النفس .ويقول لاوتزو ان البحار والانهار العظمى تفوقت على الجداول لانها ادنى منها والحكيم لكي يسود الناس عليه ان يتكلم كما لو كان دونهم. وبرأيه ان الكنوز الثلاثة هي الرحمة والبساطة مع الاقتصاد والتواضع « لان الذي يرحم هو الذي يمكنه ان يكون

شجاعاً . والذى يقتصد يمكنه ان يكون كريماً والذي يرفض ان يكون قبل كل الناس هو الذي يمكنه ان يصبح سيد الناس » .

ويقترح لاوتزو بان تكون خطة الاعتزال كمثل اعلى للدولة كلها لانه يتصور انه كلما زادت مهارة الصناع واجتهادهم اخترعوا اشياء ضارة ، وكلما اصدرت القوانين زاد عدد اللصوص وقطاع الطرق ولذلك يقول الحكيم « طالما انني لا أعمل شيئاً فان الناس بطبيعتهم يتبدلون وطالما انني احب الهدوء فالناس من انفسهم يستقيمون ». هذه التعاليم كما قال عنها واضعها « سهلة الفهم وسهلة التطبيق ولكن لا يفهمها احد ولا يطبقها احد واذا كان الذين يفهمون تعاليمي قلائل فذلك هو اساس قيمتي » .

كان من اهم زعماء الطاوية رجل يدعى يانغ تشو Yang Chu (٤٤٠ – ٣٦٦ ق.م) . وقد ذكره الفيلسوف الكونفوشي منسيوس وهاجمه وقال ان مبدأه هو « ان يعمل كل انسان لنفسه ». وقيل ان تعاليمه تختصر بهذه العبارة « انه لا يقتلع ولو شعرة من رأسه اذا كان في ذلك فائدة لغيره ». والزعيم الطاوي الآخر الذي يعتبر المفكر الثالث في مذهب الطاوية تشوانغ تزو Chuang Tzu (٣٦٩ – ٢٨٦ ق.م) الذي انتقد الكونفوشية وكتب الشيء الكثير وكان بارعاً في المناقشة. وارسل احد ملوك اسرة تشو يدعوه ليكون رئيس وزرائه فخاطب رسل الملك قائلا « اذهبو عني ولا تفسدوني انني افضل ان امتع نفسي بالحرية على ان اصبح عبداً لحاكم دولة » . وعلى ذلك فان هذا المفكر كره ان يشتبك في أمور خارجية كالزعيمين الآخرين للطاوية . وكانت فلسفته صوفية مركزة في الطبيعة والتأمل فيها . وكان يقول : « ان الحكيم يتأمل في جمال العالم ويدرك بثاقب نظره مبادىء الاشياء المخلوقة » ثم يقول ان الموت في شؤون هذا العالم الواسع ليس الا الانتقال من شكل وجودي الى آخر فاذا وجدنا ان هذه الحياة صالحة فالحياة الثانية تكون كذلك ايضاً وقد تكون احسن من الاولى . وأخيراً يقول « ان الذين يحلمون لا يعرفون انهم يحلمون الا عندما يستيقظون . وبالتدريج نصل الى اليقظة العظمى وعندئذ نجد ان الحياة نفسها

هي حلم عظيم ». هنا ندرك الفرق بين الطاوية التي تمجد العالم والطبيعة وبين الكونفوشية المتركزة في الانسان .

فترة تشن وبناء السور العظيم : تتألف السلالة المعروفة باسم تشين Chin من حكم ملك واحد كان اميراً على مقاطعة « تشين » (٢٤٦ – ٢٢١ ق.م ثم وحد البلاد كلها واصبحت تعرف باسم مقاطعته. ودام حكمه على الصين الموحدة ٢٢١–٢١٠ ق.م وكانت عاصمة امبراطوريته مدينة سيانفو الحالية في غربي حوض النهر الاصفر. اما هذا الامير الذي اصبح امبراطوراً فهو « شيه هوانغ تي » Shih Huang Ti ومعنى اسمه « الامبراطور الاول » ويعتبر حكمه نهاية الصين القديمة وبدء عصر جديد. وقد دامت الامبراطورية التي أسسها حتى ١٩١١ مع تغير أسماء السلالات . وقد قاوم هذا الامبراطور الفلسفة والعلماء وامر بجمع الادب القديم وحرقه لانه اعتبره مخلاً بقوة الدولة . واشتهر ببناء سور الصين العظيم في الشمال الغربي ضد الاعداء الخارجيين وانتهى من بنائه في عام ٢١٤ ق.م وقد وسع هذا السور ورمم في اوقات مختلفة ويبلغ ارتفاعه بين ستة وعشرة امتار وله ابراج مربعة في مواقع مختلفة ويمتد على مسافة ١٤٠٠ ميل .

توفي هذا الامبراطور الصيني في عام ٢١٠ ق.م ودفن في شرقي سيان فو ووصف سوماتشين صاحب كتاب السجلات التاريخية موته ودفنه في قصة غريبة ملخصها انه قبل موته حفر خندقاً عميقاً في الجبل وجعل له اساساً من البرونز وحمل اليه مجوهرات ثمينة وزخرف القبر وجعل قربه مايشبه انهار الصين العظيمة . وعندما توفي امر ابنه نساء ابيه بمرافقة المتوفى الى العالم الثاني ولما خشي ان يتذكر العمال الذين دفنوا والده وحفروا القبر وزخرفوه موضع الجواهر وكيفية الوصول الى المكان فانه لم يسمح لهم بالخروج من ذلك الخندق وهناك ماتوا .

سلالة هان والحضارة في عهدها: حكمت سلالة هان Han من ٢٠٢ ق.م حتى ٢٢٠ م وكانت الفترة الاولى من حكمها معاصرة لفترة امتداد سيطرة روما على حوض البحر المتوسط . وقام وزير الامبراطور ووتي Wu ti (١٤٠– ٨٧ ق.م)

يستكشف المناطق الغربية واصبحت حرائر الصين تنتقل بطريق سن كيانغ الى رومة ، وامتد سور الصين باتجاه الشمال الغربي والصحراء . وقد استكشف هذه الاسوار حديثاً اورل شتاين Aurel Stein فوجدها مصنوعةمن حزم من العصي وطبقات من الطين المرصوص والرمل. واصبحت الكونفوشية الديانةالرسمية منذ عهد الامبراطور « ووتي » وبقيت كذلك حتىزوال الامبرطورية الصينية في عام ١٩١٢.وقديكون سبب ذلك ان سياسةالسلالةالسابقة واحراق كتب كونفوشيوس لم تعط نتائج مرضية واتت بعكس النتائج التي رمت اليها فازداد الاقبال على الكونفوشية . كذلك كان « ووتي » امبراطور اسرة هان يميل الى المراسم ولذلك تطلع الى كتب كونفوشيوس . وازداد الميل الى احياء آثار الماضي وجمعها و كثرت كتب التاريخ وكان سونتشين الذي ذكرنا كتابه « السجلات التاريخية» من انشط كتاب هذا العصر حتى انه دعي « ابو التاريخ الصيني » .

وقد وجد المكتشف اورل شتاين مئات الوثائق المكتوبة من القرن الاول ق.م حتى منتصف القرن الثاني م في خرائب السور الكبير في جهات تون هوانغ في جنوبي منغوليا . وهذه الوثائق هي قطع من الخشب طولها نحو قدم وعليها كتابة عامودية و كانت القطع غالباً تربط بخيطان وتطوى ثم تفتح لاجل القراءة بحيث وجدت « كتب خشبية » في هذا العهد . ومن قطع الخشب التي وجدت تقويم لعام ٦٣ ق.م ووثائق ادارية وهنالك قطعة خشب عليها قسم من نص لغوي يتعلق بقاموس وتاريخها نحو ٤٨ ق.م .

وفي هذه الفترة نجد نماذج من ذلك الاختراع العظيم الذي اعطته الصين للعالم وهو الورق . ونجد في كتاب حوليات اسرة هان ان مخترع الورق هو تساي لون Tsai Lun في حوالي ١٠٥ م . وقد ذكر هذا الكتاب انهم كانوا يكتبون سابقاً على الخيزران والحرير ولكن الحرير غالي الثمن والخيزران ثقيل ولذلك فكر تساي لون باستعمال قشر الشجر والقنب وشباك السمك والخرق لصنع الورق وقدم تقريراً للامبراطور عن ذلك ونال الثناء والتقدير . واكتشف شتاين وثائق على الورق

ايضاً في خرائب السور العظيم وهي ثمانية تحارير ، وبعدفحصها بالمجهر وجد ان الورق مصنوع من الخرق وان الكتابة التي عليه هي بالصغدية الشرقية (والصغد شعب ايراني شرقي) . وكان الورق ضمن غلاف عليه كتابة ايضا .

صنعت في عهد اسرة هان أشياء من الطين والبرونز والحجارة الكريمة . ونجد في الزخارف بساطة وحركة كما يتبين من اناء خزف مدهون عليه جنيون مجنحون . وفي بناء القبور نرى مرتفعاً فوق القبر وأمامه معبد صغير لعمل التقدمات كما نرى ممراً مخططاً بالاعمدة او تماثيل الحيوانات . ومن أمثلة ذلك ضريح قائد توفي في ١١٧ ق.م قرب مدينة سيان فو ووجد أمامه تمثال جواد من المرمر وتحته شكل انسان ملقى على الارض ويمثل غالباً الهونيين الذين حارب ضدهم . وهنالك عامود منحوت بزخارف بارزة قرب قبر آخر وفيه نحت طائر احمر وسباق جنائزي ونمر ابيض ورماح بربري . كذلك وجدت نقوش منحوتة بارزة في داخل معابد الضريح وكتابات اثرية وربما كانت النقوش البارزة تمثل رسوماً معاصرة في المنازل وهذه النقوش وجدت في معبد وليانغ Wu liang في مقاطعة شانتونغ وضمنها مشاهد من التاريخ والاساطير وحيوانات غريبة خيالية . وبعضها تمثل مؤسس المدنية فوسي Fu hsi واخته واجسامها تنتهي بأذناب افعى متشابكة . ثم هنالك نقوش بارزة تمثل مملكة المياه الخرافية حيث الآلهة في مركبة تجرها الاسماك وحولها سلاحفاة واسماك مسلحة ورجال يركبون الاسماك . كذلك وجدت نقوش تمثل مملكة الهواء وفيها الغيوم تبدو كمخلوقات حية .

كانت الطاوية رائجة في عصر امبراطور اسرة تشين (٢٢١ — ٢١٠ ق . م) لانه اعتقد ان مبدأ الجمود او عدم النشاط الذي تعلمه يحمل الناس على الخضوع لحكمه . وكذلك اتبع اول ملوك اسرة هان الطاوية التي أصبحت مجموعة خرافات . ويصف احد مؤلفي القرن الرابع عشر م الطاوية كوسيلة للحكم وانها أصبحت عبارة عن اساليب سحرية منها ما يتعلق بتحضير شراب الخلود ومنها ما يستعمل لاجل الطعام . فقد اعتقدت هذه الطاوية المنحطة او الطاوية الشعبية ان الخلود

يمكن الحصول عليه باستعمال أطعمة وادوية تحوي قوى العالم الحيوية ولذلك اهتم الناس بمزج المواد التي تطيل الحياة وتمنح الخلود. وفي هذه الفترة ينتشر الاعتقاد بوجود « جزر الخالدين » التي يمكن الحصول فيها على طعام الخلود. وقد وصف هذه الجزر سوماتشين صاحب السجلات التاريخية وقال انها في وسط البحر الشرقي وعددها ثلاثة وانه عندما يقترب منها الانسان يقذفه الريح عنها ، وان الناس وصلوها قديما وان الخالدين يعيشون فيها لان فيها دواء يمنع الموت ، والقصور هناك من الذهب والفضة . وامبراطور سلالة تشين وهو « شيه هوانغ تي » اهتم بهذه الجزر وارسل حملة بحرية على رأسها الساحر « هسوشي » Hsu she ومعه ثلاثة آلاف رجل وامرأة وعدد من العمال . ويقول المؤرخ ان الساحر اكتشف موقعاً فيه خصب وسلام فبقي هناك وأصبح ملكاً عليه ولم يعد . وكان الملك ينتقل على الساحل لعله يجد اثراً لهذا الدواء العجيب وكان يسأل السحرة الذين جابوا البحار ولكنه لم يجد ضالته المنشودة . وفي رواية اخرى ان السحرة عادوا من رحلتهم بماء الخلود وشرب منه الملك ولكنه اكثر منه حتى مات !

ومن كتب الطاوية كتاب نسب الى رجل يدعى « ليه تزو » عاش في القرن الرابع ق.م ولكن كتابه وضع في عهد اسرة هان . ويعتبر هذا الرجل من قبل احد زعماء الطاوية نموذجاً للانسان الذي وصل الى الحرية التامة بخبرته في « السلوك » (الطاو) لانه كان قادراً على ركوب الريح وان داخله وخارجه امتزجا حتى اصبح لا يمكن التمييز بين اذنه وعينه وانفه وذاب عظمه ولحمه وامتزجا سوية فكان محمولاً على الريح كاوراق تسقط من شجرة . الى هذا النوع من القصص والروايات الخيالية انحدرت الطاوية في هذا العصر .

وكان يوجد زعيم طاوي من أواخر اسرة هان اسمه تشانغ طاوانغ Chang Tao Ling عرف بخبرته في الاساليب السحرية وتوفي في ١٨٤ م وقيل انه تزعم « ثورة العمامة الصفراء » المعروفة باسم العمامة التي لبسها الثوار . وقد اتعبت هذه الثورة اسرة هان الحاكمة . وكان هذا الزعيم الطاوي ماهراً في الكيمياء

والسحر وقيل انه اكتشف مادة مركبة من التنين الازرق والنمر الابيض وانه استعاد شبابه في سن الستين وكان يمارس الطب ، وقد اعطى اسراره الى ابنه . وتناقل احفاده الزعامة في الطاوية واعترف به احد اباطرة اسرة تانغ في عام ٧٤٨م واعطاه واحفاده لقب « سيد السماء » او المعلم السماوي . وهنالك جمعية طاوية اليوم في مقاطعة كيانغسي في جبل « التنين والنمر » تنتسب الى هذا الزعيم القديم .

عصر السلالات الست والتطور الديني : عادت الصين فانقسمت الى عدة ممالك واغار عليها برابرة الشمال ودامت هذه الفترة من ٢٢٠ الى ٥٨١ . واهم مظاهر الفن في هذه الفترة الاسود والجنيون الذين يحرسون القبور واشكالهم منحوتة في الصخر وفي مظاهرهم هول وشراسة يعبران عن « فن الرهبة » وهو قديم كقدم الصين . ومن هذه الاشكال راس اسد مجنح وجدقرب نانكين . ووضعوا في القبور تماثيل جنائزية ربما لضمان صحبة الاشخاص الذين يريدهم الميت . ومن هذا العصر مجموعة اشخاص صغار نحتت على القبور وتمثل ثلاث بنات يلعبن على آلات موسيقية وثلاث بنات آخرين يحملن ادوات الحصاد .

في هذا العصر المضطرب الذي كانت الاديرة فيه عبارة عن ملاجىء للناس اصبحت الديانة البوذية جذابة واضحت ذات مكانـة في حياة الصين . وكذلك تنتشر في هذا العصر خرافات الطاويـة بسبب انتشار الجهل وقلة العلم . وكانت الكونفوشية في شبه انحطاط بعد اسرة هان السابقة غير ان احترام كونفوشيوس ظهر في بنـــاء معبد عند قبره في عام ٤٤٢ م وفي بناء معبد آخر له في العاصمة في عام ٥٠٥ .

وظهر زعماء طاويون في هذا العصر لهم آراء غريبة في السحر والتنجيم واصبحت الطاوية ديانةشعبية بدلاً من ان تكون فلسفة . ومن زعمائها كوهونغ Ko Hung الذي اشتغل في تحويل المعادن وصنع اشربة للخلود وتطويل العمر . وله وصفات لاعادة الشعر الاسود ولاعادة الاسنان الى حالتها الطبيعيـة ولتجديد الشباب وله كتاب عنوانه« تراجم الآلهة ». وكثر عددالآلهة واصبح « لاوتزو »مؤسس الطاوية

إلهاً في عام ٦٦٦ م وجعلوا للآلهة درجات في السماء وتحت الارض كما اصبح هنالك آلهة للمرض والطب والسعادة والعمر والوظيفة . وأصبحوا يعتقدون بوجود مخلوقات خارقة خالدة منها بشرية ومنها سماوية ، والى هذا العصر ترجع مرآة نحاسية عليها رسوم بارزة تمثل آلهة طاوية .

الحضارة في عصر سلالة سوي وسلالة تانغ : عادت الوحدة بعد فوضى الممالك الكثيرة وذلك تحت ادارة امير منطقة سوي Sui واسست سلالة بهذا الاسم دامت ٥٨١ – ٦١٨ ثم تأتي سلالة تانغ Tang المشهورة التي يدوم حكمها نحو ثلاثة قرون ٦١٨ - ٩٠٦ وأهم أباطرة هذه الاسرة تاي تسونغ Tai Tsung (٦٢٧ - ٦٤٩) الذي وسع حدود الامبراطورية واجرى فيها التقسيمات الادارية وكان يدعي التسلسل من « لاوتزو » ولذلك كان يميل الى الطاوية غير انه بنفس الوقت قوى الكونفوشية واسس معبداً لكونفوشيوس في كل وحدة ادارية في الدولة واصبح علماء الكونفوشية محترمين حتى اقيمت لهم التماثيل على طريقة البوذية وكانت هذه التماثيل خشبية ثم أصبحت من الطين .

كانت سياسة ملوك اسرة تانغ سياسة تسامح ليس بالنسبة للديانات الثلاث الرئيسية في الصين فحسب بل بالنسبة للديانات الاخرى التي دخلت البلاد ومنها اليهودية والاسلام والزردشتية والمانوية والمسيحية على المذهب النسطوري . وقد دخلت هذه الاخيرة الى الصين في عهد الامبراطور تاي تسونغ كما تشهد الكتابة النسطورية الاثرية التي وجدت على لوحة حجرية تحت التراب في عام ١٦٢٥ قرب مدينة سيان فو ثم أقيمت في سيان فو نفسها . والقسم الاعلى المثلث الشكل من اللوحة عليه صليب والقسم الادنى ارتفاعه ستة اقدام وعرضه ثلاثة وعليه النقش بالكتابة السريانية النسطورية مع لائحة باسماء الاعلام . وقد ورد في عنوان الكتابة مايلي : « اثر لانتشار التعليم الزاهر الآتي من تاتشين Ta Chin ». وهذا الاسم (تاتشين) هو الشرق الادنى الذي اتت منه الديانة المسيحية . ويستمر

النقش ونصه طويل فيذكر المسيح بشكل مقاطع صينية Mi shih he وان بتولاً ولدته في تاتشين . ثم يذكر كيف ان الامبراطور فحص هذه التعـاليم ووافق على التبشير بهـا .

وفي عصر اسرة تانغ كان الفن يظهر قوة الديانة البوذية . كذلك يتصف الفن بالواقعية وباظهار الناحية الحربية . وفي هذه الناحية نرى النقوش البارزة في قبر تاي تسونغ وتمثل خيول الحرب وبينها جواد مجروح يخرج القائد منه السهم الذي اخترق صدره . كذلك نجد تماثيل صغيرة من الطين ومنها تمثال امرأة تحمل طبلا واخرى تحمل كرة . كذلك يظهر الرسامون وبينهم رسام وضع رسومه على وثيقة موجودة في المتحف البريطاني الآن وموضوعهـا « نصائح لمعلمة سيدات البلاط » وتوضح الرسوم التعاليم المتعلقة بحسن السلوك في مجتمع راقي . كذلك من الآثار الفنية في هذا العصر اقداح من البلور ومرايا نحاسية وخزف براق اللون وآنية صينية . وقبل انتهاء هذا العصر اخترع نوع من الطباعة بواسطة الحفر البارز على الواح من الخشب .

كان أحد الاباطرة من اسرة تانغ واسمه هسون تسونغ Hsuan Tsung (٧١٢ — ٧٥٦) يميل جداً الى الطاوية حتى انه رأى في الحلم تمثـال « لاوتزو » وكانت النتيجة انهم وجدوا تمثاله وأقاموه للعبادة . وكان هذا الامبراطور يشجع الشعراء ورجال الفن الذين كان أهمهم ووتاوتزو Wu Tao Tzu وقد أصبح رئيس الفنانين ورسم اشكالاً بشرية وحيوانية ومباني واشكالاً للآلهة والأبطال مأخوذة من الطاوية . وهنالك نسخ كثيرة من رسومه اما بشكل حفر على الحجر او رسم على الورق وتوجد مجموعة مؤلفة من خمسين رسماً تعتبر نسخاً عن رسومه منهـا ما يمثل « الجنيين في الجبال الخمسة المقدسة » وبينها رسم لمحكمة العالم الأسفل .

ومن مظاهر تأثير البوذية على الطاوية كتاب يدعى « سر الزهرة الذهبيـة » وفيه مقتطفات من كتابات بوذية ومن الفكر البوذي عموماً . وقـد اثرت هذه الكتابات على حركة اصلاحية قامت في الطاوية تدعو الى التأمل الذي يجعل النور

الصوفي للعالم يدخل شخص المؤمن بحيث يصل الخلود عندموته . والزهرة الذهبية التي يعنونها هي النور وهي شراب الحياة .

وبالرغم من هذه المكانة التي تمتعت بها الطاوية فانالكونفوشية كانت تحاول ان تظهرها وتظهر البوذية معها كهرتقات خارجة عن تقاليد الصين . وقد دعا احد المعلمين الكونفوشيين الى احراق كتب البوذية والطاوية والى تحويل معابدهما الى منازل . ومع ذلك فقد ظهرت قوة الطاوية في القرن التاسع وكان احد الاباطرة طاوياً متحمساً فاضطهد البوذية خاصة والمسيحية والزردشتية واصدر قراراً بذلك في ٨٥٤ م وعنوانه « قرار بهدم الاديرة البوذية » . ويقول القرار ان البوذية لم توجد في الصين القديمة وان عبادة الصور بدأت تزدهر في عهد اسرة هان حتى اصبح الناس متمسكين بها . ويقول القرار انه ليس من تعليم مضر كالبوذية لانها تضيع جهود الناس في البناء وتنهب الناس وتجاهل الاهل والدولة بعدم اعطائهم المال .

وكانت النتيجة انهم اعلنوا انتزاع ملكية ٤٦٠٠ دير بوذي و ٤٠٠٠٠٠ هيكل ومؤسسات اخرى وامروا ٢٦٠،٥٠٠ راهب وراهبةمن البوذيين انيعودوا الى الحياة المدنية لكي يدفعوا الضرائب . كذلك امر القرار ٣٠٠٠ راهب من من تاتشين (اي من النصارى) ومن الموهوفو Muhufu (غالباً الزردشتيين) ان يعودوا الى الحياة المدنية .

الحضارة في عهد سلالتي سونغ ٩٦٠ ـ ١٢٧٩ و يوان ١٢٧٩ ـ ١٣٦٨ :

كان المجتمع الراقي في عهد اسرة تانغ مرتكزاً على اساس مجتمع ريفي فقير فسقط واتى عصر انحلال وفتوح . وتتابعت خمس سلالات في اقل من ستين سنة (بين ٩٠٧ و ٩٦٠) وقامت حكومات مختلفة في مناطق بعيدة . ثم اتت سلالة وطنية هي سلالة سونغ Sung ودامت نحو ثلاثة قرون واخيراً قضى عليها فاتحون من الشمال . فقد اتاها الغزاة اولاً واستولوا على القسم الشمالي وهم من التتر في عام ١١٢٥

وبقي الاباطرة في عاصمة الجنوب (جنوبي شنغهاي) . وكان حكم التتر مركزه بكين في الشمال . وأخيراً اتى المغول في عهد جنكيز خان (توفي ١٢٢٧) واحتلوا المملكة الشمالية التترية ثم قضوا على اسرة سونغ في الجنوب في عهد قبلاي خان (توفي ١٢٩٤) حفيد جنكيز خان واسسوا سلالة يوان Yuan التي حكمت الصين حتى عام ١٣٦٨ .

هذه العصور كانت بالرغم من اضطرابها السياسي والديني ذات حضارة لامعة الى حد ما . وعندما اتى المغول اقتبسوا حضارة الشعب المغلوب واعتبروا انفسهم حماتها . وقد استمرت عبادة الاسلاف والاهتمام بالاضرحة . وفي عام ١٩٤١ اكتشفوا في حوض النهر الاصفر قبرين من عهد اسرة سونغ وامام كل منها لوحات حجرية من خزف وفيها حبات من الارز وورق ونقود . وعدد النقود يعطينا عمر كل منها وهو ٥٨ سنة للرجل و٦٢ للمرأة. اما القبر نفسه فكان غرفة تحت الارض وسقفه من الحجر. ووجدت بقايا التابوت الخشبي. وفن الرسم في عهد اسرة سونغ كان ممتازاً ويتضمن عمل صور بشرية ومناظر ومن اجمل الرسوم رسم علماء يدققون في نصوص كلاسيكية والرسم من القرن الحادي عشر .

وفي عهد اسرة سونغ حصل بعث كونفوشي بعد نفوذ البوذية في عهد اسرة تانغ . وبدأ هذا البعث بطبع تسعة كتب كلاسيكية مع شروحها تحت ادارة عالم ووزير يدعى فنغ تاو Feng Tao في القرن العاشر . وقد بدأ العمل في عام ٩٣٢ في بيان يقول : « رأينا جماعات تبيع كتباً مطبوعة على قطع من الخشب ونصوصاً مختلفة فاذا نقحت هذه الكتب الكلاسيكية وحفرت في الخشب وطبعت فان في ذلك فائدة لدراسة الادب ولذلك سنقيم ذكرى للعرش بهذه الحادثة » . وقد دام عمل التنقيح والطبع ٢١ سنة وانتهى في ٩٥٣ وقدموا للامبراطور ١٣٠ مجلداً من المؤلفات الكلاسيكية وشروحها وهكذا بدأ البعث في عهد السلالات الخمس ثم استمر في اسرة سونغ حيث ظهرت مدرسة كونفوشية جديدة وقالت ان حل المشاكل الاجتماعية والسياسية هو في الرجوع الى تعاليم العصور القديمة . ومن اهم افراد

هذه المدرسة الكونفوشية الجديدة تشوهسي Chu hsi (١١٣٠ — ١٢٠٠) الذي نقح تاريخ معلم آخر سبقه وهو تاريخ الصين منذ القرن الخامس ق . م حتى القرن العاشر م وكتب تعليقات على كتب كونفوشيوس . ومن أقوال تشوهسي « ان السماء والارض غرضها خلق المادة ، والمادة كلها بما فيها البشر لها نفس الغرض الذي للسماء والارض وهذا الغرض هو المحبة . فالمحبة هي اساس الخليقة » .

وعهد سلالة سونغ هو العهد الذي شهد تأسيس مبادئ الفن بصورة نهائية وظهور المدرسة الكونفوشية الجديدة التي ظلت حتى العصور الحديثة . ثم تأتي سلالة يوان وتتلوها سلالتان في العصور الحديثة وهما: سلالة منغ Ming ١٣٦٨ — ١٦٤٤ حين تصبح بكين العاصمة ، ثم الاسرة المنشورية ١٦٤٤ — ١٩١٢ وقد انتهت باعلان الجمهورية .

اما الديانة الطاوية فيظهر ان البوذية التي كان لها شأن في عهد اسرة تانغ أثرت عليها من الناحية الاخلاقية . فهنالك فكرة الحساب او جزاء الانسان في الحاضر والمستقبل وهذا ما يجعل للانسان معرفة محسوسة بمبدأ « الكارما » . وكذلك يظهر الاهتمام بمحبة البشر كلهم . وهذه الامور يمكن متابعتها في كتاب عنوانه « كتاب الثواب والعقاب » وهذا الكتاب مختصر يقع في نحو ١٢٠٠ علامة صينية وقد نال انتشاراً عظيماً ككتاب عام في الاخلاق الطاوية . ويقول الكتاب ان المصائب والخيرات لا تأتي من الابواب وانما يسعى الانسان الى قدومها . وان مكافأة الخير ومعاقبة الشر مثل الظل الذي يرافق الجسم . وحياة الانسان تقصر بقدر قلة ذنوبه او كثرتها . وكذلك يأتيه الفقر والبؤس والكوارث بحسب ما يرتكبه . والذنوب الكبرى تفقد الانسان ١٢ سنة من حياته بينما الذنوب الصغرى تفقده مائة يوم . ثم تأتي نصائح اخلاقية مختلفة في الكتاب نفسه ومنها : « لا ترتكب الذنوب سراً ، التفت الى سائر الناس بقلب مملوء العطف ، اصلح نفسك اولاً ثم اصلح الآخرين ، احزن لمصائب غيرك وافرح لمسراتهم ، لاتلفت النظر الى اخطاء الآخرين ولا تفاخر بتفوقك ، اترك الكثير واقبل القليل » .

بعد ان يذكر الكتاب هذه الوصايا المختلفة يذكر البركات التي ينالها من يتمشى بموجبها ومنها احترام الناس وكثرة الخيرات ، وحماية الارواح والتوفيق ثم يقول : « والذين يريدون بلوغ القدسية السماوية عليهم ان يعملوا ١٣٠٠ عملاً صالحاً ، والقدسية الارضية ينالها من يعمل ٣٠٠ عملاً صالحاً » . ثم يصف الكتاب الاشرار واعمالهم فيقول : « يعرفون اخطاءهم ولا يقومونها ، يعرفون ما هو الخير ولا يعملونه ، يسحقون الصلاح في غيرهم ويتجاهلونه ، يصبحون اغنياء بطرق ملتوية ويبقون عاديين ، يتلاعبون بالمقاييس والموازين ... » ثم يذكر الكتاب جزاء هؤلاء الاشرار ويقول انه اذا بقيت خطيئات لم يعاقبوا عليها عند موتهم فان العقوبة تنال اولادهم واحفادهم . وينتهي الكتاب بقوله : « طوبى للرجل الذي يتكلم خيراً ويفكر خيراً ويعمل خيراً فاذا ثابر على عمل الخير في هذه النواحي الثلاث كل يوم فان السماء بعد ثلاث سنوات تمطر خيراتها عليه . »

لاقت الطاوية نجاحاً في عهد ثالث الملوك من اسرة سونغ واسمه تشن تسونغ (٩٦٨ — ١٠٢٢) وكان يميل الى الخرافات وسيطر عليه الدجالون والمشعوذون . وزار معبداً بناه لمؤسس الطاوية فاعطى هذا المؤسس (لاوتزو) لقب «امبراطور» . وكانت نتيجة خضوع الملك للخرافات والسحرة ان قامت حركة ضد الطاوية وادت الى انتعاش الكونفوشية كما رأينا عن يد تشوهسي في القرن الثاني عشر . وقد هاجم هذا المعلم الديانة البوذية بصورة شديدة وكذلك الطاوية وميولها البوذية وقال ان تعاليم لاوتزو تغيرت وحاولت تقليد البوذية ولذلك طلب الغاء المزارات المتعلقة بمؤسس الطاوية ومعلميها وسحرتها مع ابقاء تعاليم لاوتزو . وعلى ذلك فقد تراجعت الطاوية وبقيت الكونفوشية الديانة الرسمية الوحيدة في عهد اسرة يوان . غير ان الطاوية بقيت بين عامة الشعب كنظام سحري وعبادة اصنام . ومع ذلك فان الاشكال النبيلة للطاوية لم تمح تماماً وكان لها تأثير دائم لقولها بقيمة الحياة ولمبادئها الاخلاقية المتعلقة بالبساطة وحب الطبيعة والتغلب بالخير على الشر .

كان لاهتمام الطاوية بتقدير قيمة الطبيعة أثر على الرسم والشعر . وكان اهم الشعراء

والرسامين من الطاويين . وقد قيل ان الفنان الصيني هو « عالم كونفوشي بتدريبه ومنعزل طاوي في رغباته » . وكان من اهم شعراء اسرة تانغ شاعران طاويان من القرن الثامن احدهما طاوهان Tao Han . وفي عهد اسرة سونغ نرى الرسامين يهتمون بمشاهد الطبيعة ومن اللوحات المشهورة « معبد بين التلال المغطاة بالثلج » ، ولوحة موضوعها « الصيف » منسوبة الى هوي تسونغ Hui Tsung وهو غالباً الامبراطور الثامن من اسرة سونغ في مطلع القرن الثاني عشر وكان يميل الى الطاوية . وتمثل اللوحة رجلاً يتكيء على شجرة على حافة واد . وهنالك لوحة « العالم يتطلع الى القمر » للرسام ما يوان Ma Yuan (١١٩٠ — ١٢٢٤) الذي يعد من اعظم رسامي الصين والعالم كله . وله ايضاً لوحة « عالمان وخادمهما تحت شجرة خوخ » . وهنالك لوحات تظهر انما السحرة الطاويين يعدون مشروب الحياة ، واخرى تظهر شخصية طاوية تطرد الشياطين . من عهد اسرة يوان ، ولوحة اخرى ترينا احد الخالدين الطاويين يصعد الى السماء وترافقه ثلاث نساء ورجلان وينتظره بين الغيوم خالدون آخرون وهي من عهد اسرة يوان .

فضل الصين في العلوم : تنسب التقاليد الصينية الى سلالة هسيا Hsia (٢٢٠٥ — ١٧٦٥) اموراً كثيرة في الحضارة بينها ادخال الري والزراعة والكتابة والتقويم وبعض الفنون . وهنالك قانون فلكي ربما من القرن الرابع ق م . يؤكد ان اربعة نجوم تدل على الاوقات الاربعة في السنة وان هذه تتألف من ٣٦٦ يوماً . انما الاوقات الاربعة لا تبدأ كما تبدأ فصولنا وانما في منتصفها . وورد ذكر الخسوف ومجموعات من النجوم في عهد اسرة تشو ١١٢٢ — ٢٥٦ ق . م كذلك في نحو عام ٦٠٠ ق . م كانوا يحسبون الايام بمجموعات من عشرة ويقسمون السنة الى ٢٤ قسماً . وهنالك قوانين موتشنغ Mo Ching من القرن الرابع ق . م وفيها ملاحظات عن الضوء والمرايا المقعرة والمحدبة والمستوية . وقد لاحظوا انقلاب الرسم بواسطة التطلع من ثقب في غرفة مظلمة وكذلك لاحظوا الاشكال التي

تظهر على مرآة مقعرة عندما يبتعد الشيء عنها . ويقول كتاب القوانين هذا « انه عندما تقابل المرآة المقعرة الشمس فان الضوء يتجمع عند نقطة صغيرة وحين تلمس الاشياء هذه النقطة فانها تحترق» . فقد فهموا اذاً طبيعة البؤرة الرئيسية . والملاحظات التي عملها الصينيون عن الصور هي عموماً ارقى من ملاحظات الفكر اليوناني المعاصر .

وكان الصينيون القدماء عارفين بمسائل البرونز وادركوا النسبة اللازمة في النحاس والقصدير لصنع خواص معينة من البرونز . وهنالك معدن من ايام اسرة هان يحوي اقل من ٣٢ بالمائة من القصدير وقد استعمل في صنع مرايا ممتازة وبقي تحت الارض الف سنة بدون ان يصيبه الصدأ . كذلك معرفة الصين بالمسائل العملية يوضحها استعمال الحزام الذي يمر بصدر الدابة منذ ٢٠٠ ق.م . ووصل هذا الاستعمال الى اوربا بين ٦٠٠ و ١٠٠٠ م وسمح للخيل ان تجر اثقالاً اكثر بكل راحة بينما كانت اوربا تستعمل الحزام الذي يمر برقبة الدابة وهو من استعمال الرومان لاجل المركبات ويدل على معرفة قليلة في الآليات وفي الخيل .

ولبعض كتاب الطاوية وخاصة تشوانغ تسو (حوالي ٣٠٠ ق.م) شأن في فلسفة العلوم وفي قانون السبب والنتيجة (Law of causation) كما ان هذا الحكيم يتكلم عن وحدة النظام في الطبيعة . والطاويون ارادوا فهم الطبيعة وكانوا على عتبة الدين والعلم . وكتاب لاوتزو مؤسس الطاوية يذكر نظرية العناصر الخمسة بالنسبة لتأثر الحواس اي بالنسبة للألوان (وهي الازرق والأصفر والأحمر والابيض والأسود) والالحان الموسيقية الخمسة والأذواق الخمسة . والطاويون كانوا اول الكيماويين كما انهم وضعوا العناصر الاولى لنظرية التطور غير انهم لم يبرهنوا هذه الامور عن طريق التجربة . واول ذكر معروف للكيمياء Alchemy في اية لغة جاء في عام ١٣٣ ق.م عندما استشار احد الاباطرة الصينيين كيماوياً في كيفية تحويل بعض العقاقير الى ذهب اصفر . وقد وردت هذه الاشارة في تاريخ اسرة هان الاولى الذي كتب في القرن الاول م . واقدم كتاب في

الكيمياء كتبه Wei Po-Yang نحو عام ١٤٠م وعنوانه «توحيد المبادىء الثلاثة».[١]

وفي العصور الوسطى لم يتأخر التقدم العلمي بسبب الكونفوشية بل كانت الديانة احياناً مشجعة للتقدم العلمي كالطاوية مثلاً ولذلك ادى الامر الى اختراعات فنية كالورق والبارود والطباعة والبوصلة (وسنفرد لهذه الاختراعات فقرات خاصة). والصينيون عرفوا الفوائد الاقتصادية لعالم النبات والحيوان. واول وصف للموز كتبه رجل اسمه يانغ فو Yang Fu في نهاية القرن الثاني م في كتاب موضوعه « كتابات عن الاشياء الغريبة ». وكانت القوافل تحمل الحرير الصيني الى بلاد الغرب في زمن الرومان. ودخلت دودة الحرير في عام ٥٢٥ من خوتان في عهد يوستنيان الامبراطور البيزنطي. وكان المؤلف الصيني لويو Lu Yu (القرن الثامن م) اول من كتب كتاباً عن الشاي (Cha Ching بالصينية)، وفي القرن الثاني عشر كتب رجل آخر اول كتاب عن الاثمار الحمضية وزراعتها.

واستمر تقدم الكيمياء وكتب احدهم في اوائل القرن الرابع مؤلفاً عن الكيمياء نظرياً وعملياً. ومع ان النظريات الكيماوية لم تؤد الى شيء من جهة تحويل المواد الى ذهب فان الاشتغال بالمواد ادى الى اكتشافات مفيدة كالحبر الاسود من سواد القنديل في القرن الرابع او الخامس، والحبر الاحمر قبل ذلك بكثير. واستعمل المصريون هذين النوعين من الحبر قبل الصينيين بزمن طويل ويبدو ان هذه الاختراعات جرت بصورة مستقلة.

وكانت زيارة الحجاج الصينيين للهند ذات تأثير على المدنية وكما قال سارتون « فان الشيء الذي يجب الاصرار عليه هو ان اثر انتشار البوذية في آسية الوسطى والشرقية كان مثل اثر انتشار المسيحية في اوربا. ففي الحالتين كانت الديانة واسطة المدنية ومهما اعاقت هذه الديانات تقدم العلم فيما بعد فانها جعلت ولادتها ممكنة وساعدت جهودها الاولى في مناطق كثيرة ».

---

(١) H.J.J.Winter : Eastern Science (London,1952) 24 .

امتاز الصينيون في الرياضيات وحصل تبادل في المعلومات بين الهند والصين اثناء رحلات الحجاج الصينيين البوذيين وربما كان الصينيون السباقين في بعض الامور ومنها حل المعادلات المجهولة . وهنالك معلومات رياضية كثيرة في كتب من القرن الثاني ق.م (ومنها كتاب القواعد الحسابية في تسعة اقسام) ومن القرن السادس م (كتاب الحساب) . وفي القرن الثاني م يظهر في كتاب سون تزو Sun Tzu حل المعادلات المجهولة من الدرجة الاولى والنظام العشري . وهنالك ابحاث عن الكسور في مؤلف من القرن السادس وابحاث اخرى عن المعادلات المجهولة . ومنذ القرن السابع وجدت لجنة صينية فلكية فيها بعض الاعضاء الهنود . ولا ندري مقدار تأثير الصين والهند احداهما على الاخرى في القرن الثامن والقضية لاتزال موضع جدال .

اما في الطب فقد اشتهر تشانغ تشونغ تشين Chang chung ching في القرن الثاني م وسمي جالينوس الصين وكتب كتابين عن الاطعمة وعن الحمى وكان لهما تأثير كبير في اليابان . وهنالك طبيب جراح اسمه هواتو HuaTo في القرن الثالث وانتج نوعاً من المخدر (البنج) باستعمال نوع من الخمر يدعى Ma Yao ولا ندري تركيبه . وكتب احد اطباء القرن السابع كتاباً عن عدة امراض منها امراض العين ومسالك البول . وفي اواخر القرن السابع يقوم ملك اسمه كاوتسونغ Kao Tsung من اسرة تانغ ويأمر بتنقيح كتاب الادوية في ٥٢ جزءاً . وظهر اطباء في القرن الثامن والحادي عشر والثالث عشر كتبوا في الطب البيطري والحمى والامراض النسائية والعقلية . وفي القرن الرابع عشر يكتب هواشو Hua Shu عن الاوعية الدموية ويجد طبيب آخر علاجاً للبرص . وكان لاحد الامراء من اسرة منغ في ١٤٠٦ حديقة للتجارب النباتية ووضع كتاباً عن مجموعة النبات . ويظهر انهم كانوا يلقحون ضد الجدري في القرن الحادي عشر في الصين .

وفي عهد اسرة تانغ انتشرت حضارة الصين شرقاً وغرباً وقام الجغرافي المختص بعمل الخرائط تشياتان Chia Tan في ٨٠١ فعمل « خريطة الصين والبلاد داخل البحر » . واستعملت الوثائق المطبوعة في الصين واليابان واسست اليابان جامعتها في نارا Nara في القرن الثامن .

وظهرت بوادر معرفة طبيعة المتحجرات في القرن الثاني عشر في مؤلفات تشوهسي وهو من كبار افراد المدرسة الكونفوشية الجديدة كما ان هذه المدرسة كان لها فلسفة كونية خاصة . وكان العصر الذهبي للرياضيات بعد القرن الثاني عشر ومن اهم الرياضيين كان عيسى المنغولي الذي كتب اسمه بشكل مقاطع صينية Ai-hsieh اي عيسى، وهو نسطوري اصبح مدير المكتب الفلكي لقبلاي خان في ١٢٦٣ . وهنالك فلكي فارسي اسمه جمال الدين الذي كتب اسمه بمقاطع صينية Cha Ma Lu Ting وادخل آلات فارسية الى الصين وعمل تقويماً جديداً لقبلاي خان . وهنالك عالم آخر في القرن الثالث عشر اسمه كوشو تشنغ بنى آلات فلكية وغالباً ادخل المثلثات الدائرية الى الصين ، وعالم اسمه يانغ هوي ظهر في مؤلفاته التصاعد الحسابي والكسور العشرية . وقد كانت الآلات الفلكية التي وضعها كوشوتشنغ لقبلاي خان في ١٢٧٩ اتم الوسائل الفنية المرصد واتت قبل تيخو براهي الدنمركي بنحو مائتي سنة . ويقول العالم نيدهام Needham اننا لانزال نحتفظ ببعض هذه الآلات الفلكية التي استعملت في مرصد لايزال موجوداً في زاوية من سور مدينة بكين . وقد زار هذا المرصد فوجد فيه ادوات وضعها اليسوعيون في القرن السابع عشر بينما الادوات المغولية في القرن الثالث عشر نقلت الى الجبل الارجواني في نانكين .

واهتم المهندسون الصينيون منذ القديم بالانهار والترع وانشأوا الكتب عنها . وكانت توجد ترعة عظيمة تربط عاصمة اسرة سونغ وهي هانكشاو بالنهر الاصفر وقد وصلها قبلاي خان بعاصمته في موقع بكين فكان طولها ١٢٠٠ ميل .

وعلى ذلك فالغرب مدين للصين بكثير من الاختراعات الفنية ومنذ القرن

السابع مثلاً وجدت زوارق تتحرك بنوع من المحركات . والعلوم التطبيقية في الصين تقدمت ببطء ولكن بصورة دائمة ويقول نيدهام ان آسية كانت متقدمة جداً على اوربا في التكنولوجيا منذ اقدم العصور حتى القرن السادس عشر حين بدأ تقدم الغرب .

البوصلة والبارود والورق والطباعة وعلاقة الصين والعرب بها :

انتقلت من الصين اختراعات كثيرة في اواخر العصور الوسطى الى اوربا كان للعرب شأن كبير في انتقالها واحياناً في اتقانها . واثرت هذه الاختراعات على بدء عصر النهضة الاوربية في مطلع العصور الحديثة . وكانت البوصلة من جملة هذه الاختراعات . وكان ينسب الغربيون اختراعها الى ايطالي من مدينة امالفي Amalfi اسمه فلافيو جويا Gioia وهو بحار لم يؤكد وجوده ويظن انه من القرن الرابع عشر . على ان الواقع هو ان أوربا عرفت البوصلة منذ القرن الثاني عشر بينما استخدمتها الصين في القرن العاشر وربما قبل ذلك . ويقال ان بحارة الشرق كانوا يستخدمون سمكاً مجوفاً من الحديد الممغنط يضعونه في طبق من الماء فيعوم على وجهه ويتجه اتجاهاً شمالياً جنوبياً ويقول ابن العذاري المؤرخ الذي كتب في القرن الرابع عشر ان البوصلة استعملت في القرن التاسع . واذا كان الصينيون قد اخترعوا البوصلة فان المعروف هو ان البحارة المسلمين جعلوها صالحة للاستعمال في الملاحة بصورة عملية .

اما البارود فقد عرف واستعمل في الاسلحة الصينية منذ نهاية القرن العاشر . واول اشارة الى استعماله في الحرب وردت في كتاب « مجموعة الفنون الحربية » من القرن الحادي عشر وفي كتاب تاريخ اسرة سونغ في القرن الثاني عشر . وهنالك دستور لعمل البارود يرجع الى عام ١٠٤٠ وقد وصل الينا . واول آلة تستعمل القنابل ترجع الى ١٢٥٩ على ان البارود استعمل منذ القرن السابع في الصين للاعمال النارية . وغزوات المغول لاوربا في القرن الثالث عشر حملت البارود الى عالم الغرب وقد مزج بعض العلماء بين هذا الاختراع وبين المواد الملتهبة التي منها النار اليونانية

وكان هذا الاضطراب بسبب وثيقة يقال ان صاحبها مرقوس جريكوس الذي عاش في القرن التاسع (وثبت انه عاش في القرن الثالث عشر) اهتدى الى صنع مركب من البارود والكبريت والفحم تحت تأثير العرب .

ورأى العلماء أخيراً ان اختراع البارود صيني وان نترات البوتاسيوم او ملح البارود اول ماعرف في الصين . وقد استعمل الصينيون هذه المادة في الدفاع عن مدينة بيان لنج عاصمة هونان ضد المغول في ١٢٣٢ . وفي القرن الثالث عشر نقرأ ان العرب عرفو نترات البوتاسيوم عن الصين وأطلقوا عليها اسم « ثلج الصين » وفي كتاب حسن الرماح المؤلف بين ١٢٧٥ و ١٢٩٥ عن النار والمحفوظ في المكتبة الاهلية بباريس نقرأ ان ثلج الصين هو عنصر اساسي في صناعة الاسلحة النارية . ويصف حسن الرماح الآلة المعروفة باسم طوربيد فيقول انها « بيضة تخرج وتحرق » ووضع لها صورة نشرها مؤلف الماني اسمه روموكي Romocki في كتابه عن تاريخ المفرقعات في ١٨٩٥ (١) .

وقد صنع الورق في عهد اسرة هان في الصين من قبل تساي لون Tsai Lun في عام ١٠٥ كما يروي فان يه Fan Yeh في كتاب تاريخ اسرة هان الثانية . ويذكر هذا المؤرخ ان مجلس الوزراء الصيني اصدر مرسوماً يشكر المخترع ويثني عليه ثم تقرر ان يجعل بيت المخترع متحفاً عاماً وان يوضع فيه الحجر الذي استخدمه لدق الورق وطرقه . ويعتقد البعض ان اختراع الصيني مونج تين (المتوفى عام ٢٠٩ ق . م .) لفرشاة من شعر الفيران يستخدمها الصيني للكتابة بدلاً من القلم يتصل بالاهتداء الى مادة للكتابة ارق واطوع من المواد الاخرى المستعملة . كذلك رأى البعض ان صناعة الورق تأثرت بصناعة اللباد التي تشبه تحضيرها ودقها صنع الورق وان موطن صناعة اللباد الاصلي في آسية الوسطى . ويذهب عالم اسمه رتشارد

---

(١) راجع بشأن هذه المعلومات كتاب « أثر الشرق في الغرب » للمستشرق الالماني جورج يعقوب ترجمة فؤاد حسنين علي (القاهرة ١٩٤٦) ص ٢٩ ـ ٣٣ .

اندريه Andrae الى ان الورق اخترع في اميركا كما يتضح من مخطوطات مكسيكية مصورة .

اما في انتقال صناعة الورق فيذكر الثعالبي في « لطائف المعارف » وكذلك يذكر القزويني في « آثار البلاد واخبار العباد » كيف انتقلت صناعة الورق من الصين الى سمرقند « حيث الكواغيد التي عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الاوائل يكتبون فيها لانها احسن وانعم وارفق واوفق ولا تكون الا بها وبالصين » (الثعالبي) . واصبحت تجارة الورق رائجة عند اهالي سمرقند . ويذكر الثعالبي نقلاً عن كتاب المسالك والممالك وصول الكواغيد بكثرة من الصين الى سمرقند حتى ان الصنعة كثرت وصارت متجراً لاهل تلك المدينة . ويقول ان ذلك كان على اثر انتصار زياد بن صالح في عام ٧٥١ على امراء الاتراك وعلى جنود صينيين ارسلوا لمساعدتهم وقد اخذوا اسرى الى سمرقند . واقدم قطعة ورق يعرفها العالم محفوظة بمتحف التقاليد الشعبية ببرلين وترجع الى عام ٣٩٩ م وقد فحصت فوجد انها تحوي عشباً صينياً واوراق شجر التوت . ويذكر ابن خلدون ان البرمكي الفضل بن يحيى تعرف الى ورق سمرقند لما كان حاكماً في خراسان وادخل صناعته الى بغداد في زمن الرشيد عام ٧٩٥. ومن بغداد انتشرت الصناعة في العالم الاسلامي حتى اسبانيا . وفي القرن الرابع عشر وصلت الصناعة الى المانيا . وهنالك تحريران عربيان على ورق من الخرق البالية يرجع تاريخها الى عام ٨٠٠ من صنع بغداد . وفي الفيوم بمصر نرى كيف ان الورق حل محل البردي الذي اصبح في طريق الزوال في القرن العاشر . وذكر ابن النديم مادة الورق في القرن العاشر فقال انها من الكتان وليس من القطن .

وقد دخلت لغات اوربا بعض المفردات المتصلة بالورق واصلها من العربية ومنها كلمة « ريز » Ries الالمانية واصلها « رزمة » وهذه اللفظة موجودة في الايطالية والاسبانية ، وفي الفرنسية « رام » وفي « الانكليزية « ريم » ream . وتبعت صناعة الورق اشياء كثيرة منها تغطية الجدران بالورق في عصر النهضة في اوروبا

وصناعة المصابيح وعمل اللعب الطائرة والنقود الورقية . كما ان الورق سهل عملية الطباعة ومهد لها .

وهنالك اشارة لاستعمال الطباعة في الصين بواسطة الواح الخشب في كتب من القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر . واول كتاب مطبوع وصلنا هو ترجمة صينية لاحد المؤلفات الهندية ويرجع الى عام ٨٦٨ والآن في المتحف البريطاني . وهو من الكتب التي عددها ١٥٠٠٠ كتاباً اكتشفها اورل ستاين Stein في مغارة الالف بوذا في تون هوانغ بمقاطعة كان سو . والكتاب نتيجة خبرة طويلة في الطبع على الخشب ولذلك فان هذا الفن ظهر قبل طبع الكتاب بكثير . وفي القرن الحادي عشر استعملت الحروف المتحركة للطبع كما نعلم من كتاب يذكر رجلاً من عامة الشعب اسمه بي شنغ Pi Sheng اخذ قطعاً من الطين ونحت فيها اشكال حروف وخبزها لتصبح قاسية ثم استعمل قوالب من حديد وضع فيها الحروف وضغط عليها بقطعة ملساء من الخشب. وفي القرن الرابع عشر استعملوا حروفاً من القصدير ثم صنعت الحروف من البرونز في مطلع القرن الخامس عشر وذلك بامر من ملك كوريا لطبع الآثار الادبية حتى تبقى .(١)

وفكرة الطباعة قديمة ترجع الى عصور قديمة جداً . فقد حفر البابليون على اختام من الطين وطبعوها لتترك رسمها على الواح الآجر . وفي جزيرة بورنيو كانوا يحفرون نماذج براد وشمها على الخشب ويصبون عليها مادة ملونة ثم يطبعونها على الجسم وبعد ذلك تبدأ عملية الوشم . انما لا يمكن تأريخ هذا النوع من الطباعة . وهنالك الاقمشة المطبوعة بعضها من مصر من القرن السادس وكتب عنها العالم فورر Forrer كتاباً في عام ١٨٩٨ وانتشرت عادة الطباعة على الاقمشة في اوربا . وبعض سكان بولينزيا يجمعون قشر التوت ويطرقونه حتى يصبح شبيهاً بالورق ويطبعونه ويتخذونه لباساً . غير ان الطباعة المستعملة في الكتب ظهرت في القرن

---

(١) Winter. Eastern Science p.33

السادس في الصين بواسطة الالواح الخشبية . وذلك ان مؤسس اسرة سوي Sui امر بحفر بقايا مؤلفات كبار علماء الصين على الخشب . وطبعت بواسطة الالواح الخشبية اشياء كثيرة وضعت في المعابد البوذية في اليابان في القرن الثامن . وفي اديرة اللاما في التيبت طبعوا الكتب على الالواح الخشبية واقدم كتاب طبع في التيبت يرجع الى ١٠٦٩ ووجد قرب بكين في معبد بوذي . وفي التركستان وجدت لوحات خشبية للطباعة ترجع غالباً الى القرن العاشر . وفي الفيوم بمصر وجدوا ثلاثين لوح طباعة عربي يرجع بعضها الى القرن العاشر. ويظهر ان نور الدين الشهيد اضطر في عام ١١٤٧ ان يصدر نقوداً من الورق من فئة الدينار وامكنه عمل ذلك بواسطة الواح الطباعة . وفي عام ١٢٩٣ اسست في تبريز مطابع نقود من الورق على نمط المطابع الصينية .

والمعروف ان غوتنبرغ الالماني اخترع الحروف المتحركة من الرصاص ولكن رجلاً آخر اسمه كوستر عمل حروفاً متحركة قبله ولكن لا تصلح الا لطبعة واحدة . والصينيون عملوا حروفاً متحركة كما رأينا وضعها بي شنغ بين ١٠٤١ و١٠٤٩ . وعثروا على كتب صينية طبعت بحروف متحركة من مطلع القرن الرابع عشر . ومع ان ملك كوريا صنع حروفاً متحركة من البرونز في القرن الخامس عشر فان الطباعة الصينية لم تتقدم كثيراً لان الكلمات الصينية تحتاج الى عدد كبير من الاشكال ومن المعدن ولذلك بقيت الطباعة محدودة الى ان استعملت الابجدية .

الفصل التاسع

حضارة اليابان

تتألف اليابان من اربع جزر رئيسية ومن مجموعتين من الجزر الصغيرة الواحدة في الشمال والاخرى في الجنوب . وجزيرة كيوشيو الجنوبية تشكل حلقة الاتصال بين اليابان والصين . واهم مراكز الحضارة كانت في جنوب غربي الجزيرة الكبرى وهي جزيرة هونشو Honshu . وتشكل الجبال نحو ٧٥ بالمائة من ارض اليابان بينما يقع اخصب سهل قرب مدينة طوكيو الحديثة .

اليابان قبل التاريخ : لم تعرف اليابان العصر الحجري القديم واقدم السكان عاشوا في العصر الحجري الحديث الذي بدأ غالباً في الالف الثالث ق . م . ودام حتى بدء العصر الميلادي . ولذا فان حضارتها وتاريخها تأخرا نحو ثلاثة آلاف سنة عن بلاد الشرق الادنى . وعاشت اقدم شعوبها على الصيد البري والبحري ونعلم ذلك من كوم الاصداف وبقايا الاطعمة حول سواحل الجزر . وتختلط بهذه الاصداف عظام الحيوانات وقطع الخزف والادوات الحجرية . والخزف متنوع ومصنوع باليد وخشن وهو مزخرف ومصنوع على نماذج حبال يعلو بعضها بعضاً . والادوات الحجرية متنوعة ايضاً . ويظن ان اصحاب هذه الحضارة اتوا من اماكن اخرى ولا يعلم اصلهم ولكنهم من عنصر شبيه بالعنصر القفقاسي الابيض . والشعب المعروف اليوم بالاينوس Ainus وهو الشعب الاصلي في جزيرة هوكايدو الشمالية

متسلسل من الشعب القديم الذي يمكن ان نسميه « الاينوس القديم » . وديانة الاينوس الحاليين ترينا معتقدات السكان الاصليين اسلافهم . فهم يعبدون الارواح والطبيعة وكل شيء في العالم حي او جامد هو مركز حياة واعية بالنسبة لهم . واسمى الآلهة في الجو هي الشمس كما ان النار هي أسمى آلهة الارض . وروح النار تعبد حول كل موقد وتسمى فوجي Fuji اي الجدة او السلف وبما ان هذه الكلمة هي اسم اهم بركان في اليابان فانه يظن ان هذا البركان — فوجي ياما — كان يعبد . ثم هنالك أرواح النجوم والغيوم والبحار والنبات ، وهنالك شياطين الجو والارض التي يطردونها بطرق خاصة .

أخبار تأسيس الحكومة في اليابان : دخلت اليابان حول العصور الميلادية شعوب اخرى تسمى ياماتو Yamato ودفعت الاينوس القدماء امامها . وأتت الشعوب الجديدة غالباً من بر آسيه بطريق كوريا وهي من عنصر منغولي مع بعض الاختلاط بعناصر جنوبية من الملايو القدماء . وفي هذا العصر نرى اشارات الى اليابان في الكتابات الصينية وذلك في كتاب قديم في الجغرافيا يذكر ملكاً حكم منطقة ياماتو وهي غالباً جزيرة كيوشيو الجنوبية . ومن هنا انتقل الياماتو الى الجزيرة الرئيسية هونشو حيث يوجد ذكر لمملكة باسمهم قرب موقع اوزاكا وبحيرة بيوا Biwa كما انه ظهرت مملكة اخرى في غربي هونشو .

كان الياماتو يستعملون الحديد فهم ارقى من الاينوس . ولم يوجد البرونز الا نادراً ولذلك يظن ان اليابان انتقلت رأساً من العصر الحجري الى عصر الحديد . وبين الادوات الحديدية وجدت الفؤوس والخناجر والسيوف وركابات الخيل مما يشهد بادخال الخيل وركوبها . وقد نجح الفاتحون بفضل محاربتهم على ظهور الخيل وبسلاح من حديد . واستخدموا الحيوانات الداجنة لاجل الزراعة . وكذلك في هذا العصر اخذوا يدفنون الاشخاص المهمين في قبور مصنوعة من قطع حجرية ضخمة من نوع الدولمن Dolmens فوقها مرتفع من التراب وحولها خندق . ووجدت أشياء

حديدية في هذه القبور وخزف مصنوع بالدولاب واشكال من الخزف تدعى هانيوا Haniwa وهي اسطوانية يعلوها تمثال نصفي لرجل او امرأة او جندي او حصان وغير ذلك. وكانت هذه الاشكال الخزفية توضع على اطراف سطح القبر وتحل محل الاحياء الذين كانوا قبلاً يدفنون مع الميت . كانت هذه الحضارة غالباً مزدهرة في القرن الثاني م وبقي نوع الدفن في الدولمن حتى القرن الثامن وكان الدم حينذاك قد اختلط . وفي هذه الاثناء كانت الكتابة قد دخلت اليابان في القرن الخامس والديانة البوذية قد دخلتها في القرن السادس من كوريا والصين .

هذه المعلومات تعتمد على الآثار. وهنالك اساطير يابانية وبعض معلومات مدونة تتعلق بهذه العصور وتعطينا تفاصيل اخرى احياناً لا يعتمد عليها . واقدم المصادر المكتوبة هي الكوجيكي Kojiki او « سجل الاشياء القديمة » والنهونجي Nihongi او « اخبار اليابان المدونة » التي جمعت بين ٧١٢ و ٧٢٠ م .

نرى في مقدمة الكوجيكي ان الامبراطور الياباني تمو Temmu الذي حكم في القرن السابع (٦٧٣ – ٦٨٦) يهتم بالاخطاء الموجودة في السجلات الرسمية وفي اخبار الاباطرة ولذلك يأمر بتنقيحها وتسجيلها من جديد بعد التأكد من صحة الاخبار والكلمات. وتكمل عمله امبراطورة اسمها جيميو Gemmyo (٧٠٨ – ٧٢١) ويتم تدوين هذا السجل عن يد موظف اسمه ياسومارو Yasumaro . وقد ظهر هذا الكتاب في ثلاث مجلدات ويحوي حوادث تبدأ بالاساطير عن انفصال الارض والسماء وتنتهي في عام ٦٢٨ . ويقول مدون الكتاب في نهاية مقدمته: «قدمه باحترام نبيل البلاط ياسومارو وهو ضابط وسام الاستحقاق من الفئة العليا من النوع الاول من المرتبة الخامسة والدرجة الخامسة في اليوم الثامن والعشرين من القمر الاول من السنة الخامسة من وادو wado ». وهذا الاسم الاخير هو دورة زمنية ويقابل التاريخ ٣ تشرين الثاني عام ٧١١ .

ويبدو في مطلع الكتاب انه في هذا العصر ظهرت آلهة كثيرة منها ثلاثة ظهرت عند تشكل الارض والسماء وكما يبدو من اسمائها كانت آلهة جوية لانها ظهرت في

« سهل السماء العالي » . ثم ظهرت آلهتان وتلاها اثنتا عشرة آلهة منها اثنتان وهما ذكر وانثى يشكلان جزر اليابان حيث اعطتهما سائر الآلهة رمحاً فنزلا على « جسر السماء العائم » وحركا الماء المالح بالرمح حتى صار الماء يدور وسحبا الرمح فكان يقطر من طرفه واخذت القطرات تتجمع حتى تشكلت جزيرة . ونزل الالهان على الجزيرة واوجدا سائر الجزر كما أوجدا آلهة اخرى لان كل عمل كان يقوم به الالهان كان يرافقه خلق اله جـديد . فعندما غسل الاله عينه اليسرى ولدت امتراسو Amaterasu « الاهة السماء اللامعة العظيمة الجليلة » وهي التي كلفها الاله بحكم « سهل السماء العالي » واصبحت الاهة الشمس التي لها مكانتها الرئيسية في ديانة اليابان . ومرة غضبت الاهة الشمس من اخيها لانه سبب اضراراً لحقول الارز فانسحبت الى « مغارة الصخر السماوية » وعم الظـلام السماء والارض فاجتمع « الثمانية ملايين اله » عنـد « نهر السماء الهادىء » لدرس الموقف وعملوا حيلة لاخراجها فعاد النور .

وحسب هـذه السجلات القديمة (الكوجيكي) كانت على الارض في جزر اليابان آلهة كثيرة وكان الاضطراب قائماً في الارض فارسلت الاهة الشمس ابنها ليحكم ولكنه تطلع من « جسر السماء العائم » فرأى الاضطراب والعنف فرجع . غير ان السلم عاد الى البلاد وكان ابن الاهة الشمس قد اتاه مولود فارسله بمهمة حـكم البلاد حسب الامر التالي : « سيكون سهل القصب الزاهر وارض سنابل الارز تحت حكمك » . ونزل الاله ومعه بعض آلهة السماء الى جزيرة كيوشو وتزوج واتاه ثلاثة اولاد . وتزوج هؤلاء فكانت اسماؤهم واسماء اولادهم في هذه الرواية تدل على اعمال مختلفة وعلى بعض ضرورات الحياة ومنها « جلالة الارز المملي » و « جلالة سيد الطمام » . وقرر الجميع ان يتجهوا شرقاً فيصلون الى جزيرة هونشو بعد حروب واخيراً تقول الرواية « ان الاله بعـد ان اخضع الآلهة المتوحشة وقضى على الشعب الذي رفض الطاعة اخذ يحكم الامبراطورية » . وهذه الدولة كانت غالباً في ياماتو في وسط جزيرة هونشو . وتركنا القصة عند هذا الحد بما فيها من امور خرافية توسع الحـكم وتأسيس الدولة في اواسط جزيرة هونشو وتذكر شخصية كامو ياماتو

كاول امبراطور في اليابان وهو متسلسل من الاهة الشمس وقد عرف هذا الامبراطور بعد موته باسم جيمو Jimmu واعتبر بدء حكمه في عام ٦٦٠ ق م.

اما الكتاب الآخر وهو النهو نجي او « او الاخبار المدونة » فانه لم يحتو مقدمة تذكر اسم المؤلف وهو اضخم من الكتاب الاول ويقع في ثلاثين جزءاً وتصل حوادثه الى عام ٦٩٧ م وكتبت عليه تعليقات وتفاسير تعرف باسم shihi اي « ملاحظات خاصة » وفي اواخره نجد تفاصيل كثيرة كما انه يحوي تواريخ الملوك من عهد جيمو اي منذ عام ٦٦٠ ق . م . على ان هذه التواريخ لا يمكن الاعتماد عليها وتظل موضعاً للشك حتى القرن السادس الميلادي . ويظن ان حكم جيمو اول امبراطور في اليابان يبدأ في عام ٤٠ ق . م . وهكذا فاننا نجد اليوم بجانب اللائحة التقليدية لاباطرة اليابان وتواريخها لائحة اخرى منقحة لتلك التواريخ . وتذكر اللائحة التقليدية ١٢٣ امبراطوراً بين جيمو والامبراطور الحالي هيروهيتو .

الديانة الشنتوية وعصر آسوكا ٥٥٢ — ٦٤٥ : اذاً يبدأ التاريخ الحقيقي لليابان بخلاف التاريخ الاسطوري الخرافي في القرن السادس م وفي هذا العصر دخلت الديانة البوذية الى اليابان في عام ٥٥٢ في عهد الامبراطور كيمي Kimmei وهكذا تبدأ اول فترة في تاريخ البلاد . وهذه الفترات نسميها ليس باسماء السلالات لانه لم يكن في تاريخ اليابان سوى سلالة واحدة ، بل تسمى باسماء المراكز التي حكم فيها الاباطرة . وفي هذه الفترة كانت العاصمة في آسوكا Asuka قرب كيوتو في جنوب غربي هونشو . وفي هذه المنطقة (منطقة ياماتو) نشأت معظم العواصم فيما بعد . ونجد اول ذكر للديانة الشنتوية Shinto في عام ٥٨٦ م في عهد الامبراطور الثاني بعد « كيمي » اذ تقول اخبار اليابان « لقد اعتقد هذا الامبراطور بقانون بوذا واحترم طريق الآلهة » . وعبارة « طريق الآلهة » هي الترجمة الحرفية لكلمة « شنتو » التي تتألف من شن Shin ومعناها آلهة وتو To او Tao في الصينية اي طريق ومبدأ . على ان ظهور هذا الاسم لا يعني ان ديانة شنتو ظهرت في هذا العصر

فهي ديانة اليابان القديمة وبعض عناصرها المتعلقة بعبادة الطبيعة كانت بين الآنوس او السكان القدماء . انما عندما دخلت البوذية الى البلاد اصبح من الضروري التفريق بين الديانة القديمة اي شنتو او طريق الآلهة وبين الديانة الجديدة اي طريق بوذا (Butsudo) .

وكان مركز العبادة الشنتوية في المزار (jinja) . وفي اول الأمر كانوا يعبدون الأشياء كالشجر والصخور مباشرة ثم جعلوا للعبادة اماكن خاصة حولها اغصان خضراء . وأصبحت المرآة والجواهر والسيف رموزاً الهية بسبب ورودها في الاساطير وعلاقتها بالاهة الشمس وصار من الضروري اقامة بيت خاص لحفظها . وكان هذا البيت بسيطاً لأن الزائر كان يقف خارجه بخشوع ولم يكن يصلي ضمنه . ثم عندما اتت البوذية تأثرت العمارة الشنتوية باساليب المعابد البوذية وما فيها من جدران واروقة وابواب ورسوم ونحت . ومع ذلك فقد بقي البناء الشنتوي بسيطاً .

ويذكر كتاب الاخبار المدونة قصة عن المعابد الشنتوية فيقول انهم قبلاً كانوا يعبدون الاهة الشمس والهاً آخر في قصر الامبراطور . ثم حصل طاعون فخاف الملك في القرن الاول ق . م . من وجود هذين الالهين بقربه فجعل عبادة الاهة الشمس في قرية كزانوهي Kasanuhi شمال شرقي آسوكا وجعل ابنته كاهنة عظمى ووضعت المرآة وعقد الجواهر (رموز الاهة الشمس) والسيف الاسطوري في هذا المزار الجديد . وفي عهد الملك التالي جعلوا مزار الاهة الشمس في ايسي Ise على الساحل الجنوبي الشرقي وبقي هناك . وكانت ابنة الملك الكاهنة العظمى لان الالاهة امرتها ان تنقل المزار الى هذا المكان . وتذكر الاخبار المدونة كيف كان الامراء الذاهبون الى الحرب يقصدون هذا المزار وكيف ان الكاهنة اعطت السيف الاسطوري الى احد الامراء في احدى هذه الزيارات . وهنالك مزارات أخرى كثيرة فيما عدا مزار الاهة الشمس . ويدل الاحصاء في القرن الثامن انه وجد ٣٠٠٠ مزار معترف به وان ربع المزارات كانت على نفقة الدولة .

وهذه الابنية كلها كانت من الخشب ووجب تجديد بنائها إنما كانت تجدد بحيث يحفظ شكلها الاصلي .

واقدم نموذج للمزارات الشنتوية مزار ازومو Izumo (على الساحل الجنوبي الغربي) ويأتي بعد مزار ايسي في شهرته وله اتصال بالاساطير القديمة ايضاً ولا ندري متى اسس هذا المزار ولكنه غالباً وجد في القرن الثالث . وهو عبارة عن كوخ حوله شرفة ويقترب اليه بدرج وفيه عامود في الوسط وحاجز يفصل مؤخر الغرفة عن قسمها الامامي. وعلى سطح البناء قرب نهاية السقف المنحدر خشبتان متشابكتان لهما معنى رمزي مقدس . وكذلك نجد قطعاً قصيرة مستديرة من الخشب بصورة افقية على السطح وهي ايضاً جزء هام من المزار الشنتوي .

اما في مزار ايسي فهنالك منطقتان مقدستان تبعد الواحدة عن الأخرى ثلاثة اميال ونصف وتسمى الواحدة المزار الداخلي والأخرى المزار الخارجي . والابنية اكثر تعقيداً في هذه المزارات . وفي البناء الرئيسي نرى الباب في وسط الجانب الاطول وهذا الاسلوب من تأثيرات الصين . وعلى ذلك فان فترة آسوكا ترينا من جهة ، الابنية الاثرية للبوذية وما فيها من نحت وزخارف ، ومن جهة اخرى الابنية الشنتوية الخشبية ببساطتها وخشونتها ولا تحوي من التحف والكنوز سوى المرآة والجواهر والسيف .

عصر نارا وحضارته ٦٤٥ — ٧٩٤ : تقع نارا Nara شمالي آسوكا وجنوبي كيوتو ولم تصبح عاصمة البلاد تماماً الا في عام ٧١٠ . غير ان السنوات السابقة كانت تمهيدية وعرفت باسم نارا الاولى . واهم حادث سياسي في بدء هذه الفترة هو الاصلاح العظيم في عام ٦٤٥ . فقد كان يوجد في السنوات السابقة امير وصي شجع البوذية وزادت في عهده قوة احدى الاسر وهي اسرة سوغا Soga التي رحبت بالبوذية عند دخولها واصبح خطر سلطتها عظيماً بعد وفاة الامير الوصي . وكانت تقاوم هذه الاسرة اسرة نكاتومي Nakatomi التي اتى منها زعيم الاصلاح

كاماري Kamatari . كانت اسرة هذا الزعيم شنتوية المذهب غيرانه درس الكتب الصينية واستخرج منها مثلاً اعلى في الحكم . والشيء المهم هو انه حول اليابان من اتحاد قبلي الى بيروقراطية مركزية تبعاً لنظام الادارة في الصين . وهدم اسرة سوغا المنافسة واصبحت اسرته فيما بعد تعرف باسم فوجيوارا Fujiwara وتمتعت بسلطة عظيمة لمدة اربعة قرون .

وكان من مواد مرسوم اصلاح ٦٤٥ مادة لتنظيم العاصمة .وكان العاصمة حتى ذلك الوقت تتغير بتغير الحكام .والقصور الملكية والدوائر الرسمية كانت كالمزارات الشنتوية بسيطة مصنوعة من القش والقصب . ولكن مع تعدد الدوائر وتعقدها وجب بناء ابنية اكبر وامتن وابقى . وتعرفت اليابان على عاصمة اسرة تانغ في الصين واتضح وجوب ايجاد عاصمة ثابتة وعلى ذلك فقد بنيت نارا في عام ٧١٠ وكانت على شكل مستطيل في سهل محاط بالجبال وتشبه عاصمة اسرة تانغ الصينية (واسمها تشانغان) . وكانت « نارا » مدينة كبيرة متقنة واجمل مبانيها المعابد والمزارات واهمها المعابد البوذية . وعلى الجبل المجاور كان مزار كاسوجا Kasuga الشنتوي وقد بني لاربعة من الآلهة ادعت اسرة فوجيوارا انها متسلسلة من احدها (واسمه جلالة السلف السائد المشير الى السماء) وهو الذي لعب دوراً في اخراج الاهة الشمس من كهفها الصخري . وهنالك ملف مصور من القرن الرابع عشر يحوي مشاهد عبادة في هذا المزار . وفي القرن السادس عشر زار المبشر اليسوعي لويس الاميدا Alameida مدينة نارا وكتب وصفاً مفصلاً لهذا المزار ، ويقول انه كان في غابة كثيفة يؤدي اليه طريق حوله اشجار الارز والصنوبر وانه لم يشاهد قط اشجاراً بمثل هذا الجمال . وعلى الطريق ايضاً صف مزدوج من الاعمدة الحجرية وفيها فوانيس من الخشب الاسود كانت تشعل كل ليلة .وكان على واهب كل مصباح ان يؤمن له وارداً سنوياً لبقائه .وفي آخر الطريق كان يوجد بيت تسكنه السيدات المكلفات باعطاء الشاي لزائري المكان . ومن هذا البيت كان تجه طريق آخر الى المزار ولا يمكن للزائر ان يتعدى هذا الطريق . ويقول الاميدا انه رأى كهنة

يلبسون الحرير والقلانس الطويلة يجمعون الصدقات التي يقذفها الناس الى شرفة المعبد. واليوم توجد أربعة مبان للآلهة الاربعة ومبان اخرى اضيفت فيما بعد . واسلوب البناء يشبه سائر المباني الشنتوية غير ان الابنية مدهونة باللون الاحمر وتشبه في ذلك المعابد البوذية والابنية الصينية .

وقد ادى تاثير البوذية العظيم في هذا العصر الى دمج مباشر احياناً بين البوذية والشنتوية ومن البراهين على ذلك بناء ملحق بوذي في عام ٧١٥ في مزار شنتوي. وفي عام ٧٥٠ اتوا باله الحرب الشنتوي واسمه هاشيمان Hachiman من مزاره في جزيرة كيوشو الى معبد في مدينة نارا « ليقدم احترامه للتمثال العظيم لبوذا » وهناك بقي في مزار خاص لحماية المعبد . كذلك شجع عملية الاندماج حادث حصل في عام ٧٣٥ وهو وبأ الجدري الذي انتشر من جزيرة كيوشو ووصل العاصمة . واخذ الناس يطلبون مساعدة جميع الآلهة واستنجدت عامة الشعب بالآلهة القديمة بينما بنى الامبراطور تمثالا عظيما لبوذا واوفد رئيس الديانة البوذية الى مزار «ايسي» الشنتوي للحصول على موافقة الاهة الشمس على هذا المشروع ، فوافقت . وحلم الامبراطور في الليلة التالية ان الاهة الشمس اعلنت نفسها مقابلة لاحدى المعبودات البوذية . ومنذ ذلك الوقت صار من السهل ايجاد تقابل بين الآلهة اليابانية وبين احدى تجسدات البوذا . وعلى هذا فقد وجد اساس لاهوتي لعملية الجمع بين الديانتين ويدعى هذا الامتزاج بين الشنتوية والبوذية الذي ظهر في القرنين الثامن والتاسع واستمر نحو الف سنة « بالطريق المزدوج للآلهة » او Ryobu Shinto .

ومع ذلك فقد بقيت الشنتوية الصرفة ويمكن الاطلاع على صورة من صفاتها القديمة فيما يسمى بالنوريتو norito او طقوس الشنتوية القديمة . وكان من المعتاد عند اعطاء تقدمة الى آله او عند اجراء الطقوس الدينية ان يقرأوا عبارات يذكرون فيها سبب التقدمة او العبادة الخاصة ويعددون التقدمات وهذه الطقوس تسمى « النوريتو ». وقد يجوز استعمال نفس العبارة لمناسبات مختلفة من نفس النوع ومنها « صلاة الحصاد » من زمن احد اباطرة القرن الثامن . وقارئ العبارة يتكلم

كما لو كانت الكلمات صادرة عن الامبراطور ثم يحيي الكهنة والآلهة ويذكر ما بريده وما يعطيه للآلهة .

عصر هيان او كيوتو ٧٩٤ — ١١٨٥ : اصبحت العاصمة في هيان كيو Heian kyo (اي عاصمة السلام والهدوء) في عام ٧٩٤ ودعيت فيما بعد كيوتو اي « العاصمة » ، ودامت هذه العاصمة مدة طويلة حتى اصلاح ١٨٦٨ حيث بدأ عصر جديد في تاريخ اليابان ونهضتها . والقرون الاربعة الاولى تشكل عصر هيان . وقد بنيت العاصمة بشكل مستطيل طوله ثلاثة اميال ونصف من الشمال الى الجنوب وعرضه ثلاثة اميال من الشرق الى الغرب . وفي القسم الشمالي الاوسط كان يقوم القصر الامبراطوري العظيم واهم ابنية الدولة . وبجانب الباب الجنوبي قامت الجامعة وجميع الابنية كانت من الخشب . وقبل بناء هذه العاصمة كانت توجد عدة مزارات في نفس الموقع . واهم مزارات كيوتو مزاران يدعيان كامونو Kamono واسلوب البناء من النوع الذي عرف « بالساقية » وفي ذلك اشارة الى خطوط السقف الناعمة السائلة . وتمتد مقدمة السقف خارجاً حتى الشرفة الامامية ، كذلك كان يوجد مزار قبل بناء العاصمة له سقوف مائلة وكان مركزاً لاحتفال شنتوي عظيم .

بنيت معابد بوذية وشنتوية كثيرة بعد بناء العاصمة في كيوتو . وكثرت المزارات والاراضي الواسعة حولها وكلها ملك المعابد لاتدفع عنها ضرائب . حتى ان الامبراطور كامو Kammu اصدر بلاغاً في نهاية القرن الثامن يقول فيه « انه اذا استمرت هذه الحال فبعد بضع سنوات لاتبقى ارض غير تابعة للمعابد . » ولذلك منع بيع الاراضي او هبتها للمؤسسات الدينية ووضع حدوداً لبناء المعابد ولدخول الناس في سلك الكهنوت .

وكان من مزارات العاصمة كيوتو مزار عبد فيه الهيدعي ميشيزان Michiz ane وكان هذا عالماً وسياسياً درس في الجامعة ووصل اعلى الرتب في نهاية القرن التاسع واخيراً تغلبت عليه اسرة فوجيوارا ونفي الى جزيرة كيوشو حيث توفي عام

٩٠٣ . وقبل مغادرته العاصمة كتب شعراً لشجرة الخوخ التي في حديقته . وتقول الاسطورة ان غصناً من هذه الشجرة لحق به الى المنفى وظهرت عجائب اخرى قبل موته . ثم بدأت روحه بعد وفاته تنتقم من اعدائه وتزعج البلاد . واخيراً نقل ولد عمره ست سنوات النبوءة التالية عن ميشيزان قال « لقد اصبح جميع الآلهة والابالسة وعددهم ١٦٨٠٠٠ خدامي واذا فعل احد شراً فسوف ادوسه برجلي ... ولكنني سأساعد الذين يظهرون اسفهم وندمهم .» ولذلك بنوا له مزاراً وزعموا ان روحه تسيطر على مسائل التعليم والآداب . ويجمع هذا المزار التأثيرات الشنتوية والبوذية وهو نموذج لاسلوب السقوف الثمانية حيث يوجد عدد كبير معقد من السقوف .

وكان بين كهنة البوذيين كاهن اسمه كوبودايشي Kobo Daishi يعمل كثيراً في تشجيع عملية الاندماج بين البوذية والشنتوية . وفي عام ٨٠٦ عاد من الصين واسس مذهباً في البوذية يدعى شنغون Shingon . وقد علم ان الآلهة الاصلية في اليابان هي بالحقيقة اشخاص البوذا او تقمصاته وقد زارت البلاد قديماً لتجلب الخيرات للشعب الياباني . وفي البوذية نفسها اعلنوا وجود هذه الكائنات وطبيعتها حتى اصبح المذهب البوذي كشفاً لمعنى الشنتوية المستتر . واصبح بامكان الرجل العادي ان يكون بوذياً وشنتوياً بدون تناقض . وتحت تأثير البوذية اصبحت الشنتوية التي رموزها المرآة والجواهر والسيف تستعمل صوراً للالهة التي كانت تستعمل في البوذية . ففي مزار ماتسونو Matsuno الوثني غربي كيوتو تماثيل خشبية لاله ولالاهة شنتوية وقد نحتت غالباً في القرن التاسع . ويميزها الثوب فقط عن التماثيل البوذية . وكذلك في معبد ياكوشي yakushi في « نارا » تمثالان خشبيان لاله الحرب « هاشيمان » وزوجته بشكل بوذي وقد صنعهما كاهن بوذي في نهاية القرن التاسع ويدعى ايشو Eisho . وهكذا يتضح دور البوذية في تكوين هذه التماثيل والصور للآلهة الشنتوية .

عصر كماكورا وحضارته ١١٨٥ — ١٣٩٢ : في اواخر عصر هيان ساد الترف والبذخ وضعفت سلطة اسرة فوجيوارا وحصلت الاضطرابات وتنازعت على السلطة اسرتان الى ان سادت احداهما وتدعى ميناموتو Minamoto . واصبحت السلطة الحقيقية بيد الامراء الاقطاعيين بينما اصبح حكم الامبراطور اسمياً فقط . وكان زعيم الاسرة السائدة يدعى يوريتومو Yoritomo فاراد اقامة مجتمع عسكري يصبح فيه الحاكم العسكري او الشوغون Shogun . وهذا ماحصل وكان يتبعه جماعة من الاسياد وكل من هؤلاء له تابعوه الذين يدعون بالسموراي Samuraï واضحى مركز الحاكم العسكري في كماكورا Kamakura على بعد ٢٥٠ ميلاً شرقي كيوتو ولذلك عرفت الفترة بهذا الاسم .

وتسمى مجموعة المبادىء الاخلاقية في هذا العصر العسكري « بوشيدو Bushido » اي « طريق المحارب » وتكونت عناصرها من المذاهب الثلاثة المعروفة في اليابان : فالمبادىء السياسية والاخلاقية للكونفوشية التي تدعو الى تنظيم جميع علاقات المجتمع وتميل الى الارستقراطية المحافظة كانت الاساس الرئيسي لهذه المبادىء ، ثم هنالك البوذية التي تعطي روح الخضوع الهادىء للامور التي لابد منها ، والشنتوية التي اصرت على مبادىء الوطنية والاخلاص . وهنالك آلهتان كان لهما اهمية خاصة في هذه الفترة هما متشيزان اله الادب والشؤون المدنية ، وهاشيمان اله الحرب ، ولهذا الاله الاخير شأن خاص في هذا المجتمع العسكري . وقد بنى زعيم هذه الفترة « يوريتومو » مزاراً عظيماً في كماكورا يؤدي اليه طريق على جانبيه اشجار الصنوبر . واهم مافيه مزار اله الحرب الذي يصعد اليه بدرج وحوله باحة معمدة وفي بنائه نشاهد امتزاج التأثيرات البوذية والشنتوية . وتوطد اعتقاد اليابانيين باله الحرب في عامي ١٢٤٧ و١٢٨١ حين حاول قبلاي خان غزو اليابان فحصلت عواصف ارجعت سفنه وانزلت فيها خسائر جسيمة . وكان السكان قد احتشدوا في مزار اله الحرب هاشيمان خاصة وفي مزارات سائر الآلهة فاعتقدوا عندما فشل الغزو ان

صلواتهم استجيبت وتوطد اعتقاد اليابانيين بانهم امة يحرسها الاله ولا يمكن ان تقهر.

وتقدمت الفنون واظهرت حيوية جديدة في هذه الفترة ، وازدهر الرسم والنحت . ومن آثار الفن المشهورة تمثال لالاهة تظهر في لباس سيدة من سيدات البلاط والتمثال من الخشب المدهون ويرجع الى عام ١٢٥١ وهو في مزار قرب نارا . وهنالك رسم ميتشزان من ريشة رسام اسمه تسو نتكا Tsunetaka من حوالي عام ١٢٤٠ .

عصر موروماتشي ١٣٩٢ — ١٥٦٧ : هدمت النيران مدينة كاكورا في عام ١٣٣٣ على اثر منازعات واضطرابات اقتصادية وعادت العاصمة الى كيوتو واصبحت اسرة آشيكوجا Ashikoga صاحبة الشأن . وفي عام ١٣٩٢ توطدت سلطة هذه الاسرة بعد ان حصلت على السلطة العسكرية (وظيفة الشوغون) وتعرف الفترة باسم موروماتشي Muromachi وهو اسم مسكن الاسرة السائدة في العاصمة كيوتو . غير ان النزاع الاهلي كان دائماً في هـذه الفترة . واحرقت كيوتو في عام ١٤٦٧ ثم بنيت من جديد من قبل الحكام العسكريين بكثير من الترف . ومع ان البوذية كان لها شأن كبير الا ان اليابانيين لم يهملوا آلهة البلاد وكثرت الزيارات الى معبد الاهة الشمس في ايسي Ise . وتطورت الرقصات الدينية التي كانت تقام امام مزارات الشنتوية الى نوع من المسرحية الغنائية التي تسمى « نو No » . واتقن كاهن شنتوي اسمه كونامي Kawanami (١٣٣٣ — ١٣٨٤) هذه المسرحية وكذلك فعل ابنه وكان يشجعهما حاكم عسكري اسمه « يوشيمتسو » .

واهم ناحية في الفن كانت في الرسم والمواضيع اخذت من الطبيعة ، وكبار الرسامين تأثروا بنوع من البوذية اختلط بالطاوية واتفق معها في حب الطبيعة ورغبة الوصول الى اتحاد مع العالم عن طريق التأمل . ولذلك تذكرنا رسوم هذا العصر برسوم عصر سونغ في الصين . وتقدير جمال الطبيعة كان اصيلاً في اليابانيين وقد

نمى مع الشنتوية منذ أقدم العصور . وكان اهم رسامي العصر « سيشو » Sesshu وهو كاهن بوذي قضى سنتين في الصين ورسم بالحبر وانتج مناظر قلما فاقها شيء في شرقي آسية (توفي ١٥٠٦) ومن لوحاته « منظر من الشتاء » في احد معابد العاصمة كيوتو .

الحروب الاهلية وفترة ييدو وحضارتها : حصلت حروب اهلية كثيرة وقام على اثرها ثلاثة من الحكام الدكتاتوريين فاسسوا وحدة اليابان الحديثة . فقد أخضع الاول (واسمه نوبوناغا Nobunaga) نصف اليابان (توفي ١٥٨٢) . وكانت الاديرة والمعابد البوذية تعترض سبيل الوحدة فاخضعها . وفي ايامه اتى مبشر سيوعي يدعى فرنسيس كزافييه Xavier في ١٥٤٩ فتساهل الدكتاتور معه وبدأت المسيحية تنتشر . واتى الدكتاتور الثاني هيديوشي Hideyoshi فحكم بعد مقتل سلفه ووحد اليابان كلها في ١٥٩٠ ورغب في التوسع في آسية وبدأ بكوريا ولكن الحرب انتهت بالفشل . وفي ١٥٩٧ اضطهد المسيحية لانه كان يشك في نوايا الاسبان الذين كان منهم بعض المبشرين . وبنى قصراً في مونوياما بضاحية كيوتو (Monoyama) فسميت هذه الفترة القصيرة بهذا الاسم(١٥٦٨-١٦١٥).

عند وفاة الدكتاتور الثاني قام دكتاتور ثالث اسمه يياسو Ieyasu فحارب منافسيه حتى اصبح سيد اليابان في عام ١٦١٥ واصبحت اسرته (اسرة توكوجاوا Tokugawa) حاكمة البلاد لمدة قرنين. وبينما بقي الاباطرة منعزلين في كيوتو يقومون ببعض المراسم البسيطة فان الحاكم العسكري كان قابضاً على السلطة الفعلية ومركزه في ييدو (طوكيو اليوم) التي اصبحت العاصمة الحقيقية . ولذلك سمي العصر باسم ييدو (١٦١٥-١٨٦٧) ودام حتى الانقلاب الدستوري في ١٨٦٨ الذي جعل من اليابان دولة حديثة . ودفن الدكتاتور يياسو في بلدة في التلال على بعد ٩٠ ميلا شمالي طوكيو . ويحوي مدفنه التذكاري عدداً كبيراً من الابنية والمعابد والمزارات. وفيه ابواب تحوي نحتاً دقيقاً وزخارف بالوان مختلفة ورسوما اشترك فيها كبار النحاتين والرسامين .

ومن أهم الآثار الادبية للشنتوية الممزوجة بالبوذية في هذا العصر « المنتخبات اليابانية » (او الوارنغو Warongo)التي نشرت في عشر مجلدات في ١٦٦٩ وهي مجموعة تنبؤات للآلهة الشنتوية واقوال بعض الامراء والكهان وغيرهم . ومع ان هذا الأثر الادبي هو شنتوي إلا أن هذه الشنتوية تحوي مزيجاً من عناصر بوذية وكونفوشية بارزة .

وكان من اهم رسامي هذا العصر كانو تانيو Kano Tanyu (١٦٠٢-١٦٧٤) كما ان اسرة « كانو » التي انتسب اليها كانت مشهورة في الرسم منذ منتصف القرن الخامس عشر . ومن لوحاته الشهيرة « القمر على الثلج » .وهنالك لوحة موضوعها « جبل فوجياما بين الغيوم » للرسام او كيو Okyo (توفي ١٧٩٥) . وقام أحد رسامي القرن التاسع عشر فوضع سلسلة من ٣٦ لوحة لجبل فوجياما ورسم حول قمة الجبل جميع مظاهر الحياة في اليابان . وفي هذه الرسوم قوة غامضة وكثير من الخيال . وترينا هذه الرسوم عودة الاهتمام بهذا الجبل المقدس الذي عبده سكان اليابان القدماء . كذلك نشاهد في هذا العصر احياء للمعتقدات والديانة والفلسفة القديمة ، وظهرت حركة لرفض التعاليم الصينية والعودة الى وحي الادب الياباني القديم وتأسيس ديانة شنتوية نقية . وكان زعيم هذه الحركة موتوري Motoori (م ١٨٠١) الذي اختص بالكتابات القديمة وأهم مؤلفاته هي تفسير وتعليق على « الكوجيكي » وهي احدى تلك الكتابات .

كذلك نرى في هذا العصر تجدد فكرة الجلال الآلهي للاسرة الحاكمة في اليابان ونمو الشعور ضد الحكم العسكري (وظيفة الشوغون) الذي جعل الاباطرة صورة فقط . وكانت خاتمة هذا الاتجاه ثورة ١٨٦٨ التي الغت وظيفة الشوغون واعادت الى الامبراطور سلطته الفعلية . واستخدمت الشنتوية كأساس ديني لهذه الوطنية المتطرفة . وبنتيجة الحرب العالمية الثانية الغيت الشنتوية الرسمية كديانة دولة واصدر الامبراطور هيروهيتو انكاراً رسمياً لالوهيته كملك . غير ان الشنتوية بقيت كمذهب خاص وكان عدد اتباعها في السنوات الاخيرة ٢٠ مليون نفس .

مراجع الباب الثاني

١) حضارة الهند :

المهابهراتا : ترجمة وديع البستاني . بيروت ١٩٥٣ .

Archer. The Sikhs in Relation to Hindus, Moslems, Christians and Ahmadiyyas. 1946.

Coomaraswany, Ananda K. The Arts and Crafts of India and Ceylon. 1913.

Dutt, R. C. The Ramayana and Mahbharata condensed into English Verse. 1929.

Eliot, Charles. Hinduism and Buddhism. 3 vols. 1921.

Fergusson. History of Indian and Eastern Architecture.

Finegan, Jack. The Archeology of World Religions. Princeton, 1952.

Foucher, A. L'art gréco bouddhique du Gandhara. 3 vols. 1905-1923.

Garatt, G. T. (editor). The Legacy of India. 1937.

Gowen, H. H. A History of Indian Literature. 1931.

Griffith, Ralph T. The Hymns of the Rigveda translated with a popular commentary. 3rd. ed. 2 vols. 1920-26.

Hackin, T. Asiatic Mythology. 1932.

Keith, A. B. The Religion and Philosophy of the Veda and Upanishads. 2 Vols. 1925.

Lajwanti Rama Krishna. Les Sikhs. 1933.

Mackay, E. Early Indus Civilization. 2nd. ed. 1948.

Macauliffe, Max. The Sikh Religion. 1909.

Memoirs of Zahir ed-Din Muhammad Babur. Tr. J. Leyden and W. Erskine. 1921.

Macdonell, A. A. India's Past : A Survey of her literatures, religions, languages and antiquities. 1927.

Marshall, John. Mohenjodaro and the Indus Civilization. 3 vols. 1931.

Masson-Oursel, P. L'Inde antique et la civilisation indienne. 1933.

Macnicol, Nicol. ed. Hindu Scriptures. 1938.

Radhakrishnan, S. Indian Philosophy. 2 vols. 1927.

Ramakrishna Centenary Committee. The Cultural Heritage of India. 3 vols. 1936.

Rawlinson, H. G. A Concise History of the Indian People. Oxford. 1950.

Rawlinson. India, A Short Cultural History. 1937.

Rey, Abel. La science orientale avant les Grecs. 1930.

Sankalia, H.D. The University of Nalanda. 1934.

Sarton, George. Introduction to the History of Science vol. I. from Homer to Omar Khayyam. 1927.

Sachau, Ed. Al-Beruni's India. 2 vols. 1888.

Smith, Vincent A.Asoka, the Buddhist Emperor of India.1920.

Smith, V. A·Akbar, the Great Mogul. 2nd ed. 1919.

Thomas. Edward J. A History of Buddhist Thought. 1933.

Tarn, W.W. The Greeks in Bactria and India. 1938.

Le Temple d'Angkor Vat (Mémoires archéologiques publiés par l'Ecole Française d'Extrême Orient) 7 vols. 1929-32.

Titus, Murray T. Indian Islam. 1930.

Trump. The Adi Granth or Holy Scriptures of the Sikhs.1877.

Vogel. J. Ph. Buddhist Art. 1936.

Vogel, J. Ph. The Relation between the Art of India and Java. 1925.

Warmington, E. H. Commerce between the Roman Empire and India.

Winier, H. J, J. Eastern Science. London, 1952.

٢) حضارة الصين :

Andersson, J. Gunnar. Children of the Yellow Earth, Studies in Prehistoric China. 1934.

Bachhofer, Ludwig. A Short History of Chinese Art. 1946.

Carter, T. F. The Invention of Printing in China and its Spread Westward. 1931.

Chavannes, Edouard. Les documents chinois découverts par Aurel Stein dans les sables du Turkestan Oriental. 1913.

Creel, H. G. Confucius, the man and the myth. 1949.

Dubs, H. H. The History of the Former Han Dynasty by Pan Ku. 1938.

Escarra, Jean. Le droit chinois. 1936.

Ferguson, John C. Chinese Painting. 1927.

Giles, Herbert A. A History of Chinese Literature. 1921.

Granet, Marcel. La civilisation chinoise. 1930.

Granet, M. La pensée chinoise.

Hentze, Carl. Objets rituels, croyances et dieux de la Chine antique et de l'Amérique. 1936.

Hirth, Friedrich. The Ancient History of China to the End of the Chou Dynasty. 1908.

Hudson, G. E. Europe and China, A Survey of their Relations from the Earliest Times to 1800. (1930).

Johnson, Obed S. A Study of Chinese Alchemy. 1928.

Julien, Stanislas. Le livre de la Voie et de la Vertu. 1842.
Legge, James. The Chinese Classics. 1865.
Latourette. K.S. The Chinese, their History and Culture. 2 vols. 1934.
Laufer, Berthold. The Beginnings of Porcelain in China. 1917.
Laufer. B. Paper and Printing in Ancient China. 1931.
Maspero, Henri. La Chine antique. 1927.
Mikami. Yoshio. Development of Mathematics in China and Japan. 1912.
Moule, A. C. Christians in China before 1550. (1930)
Ping Hua, Mabel. Economic History of China. 1921.
Rowley, George. Principles of Chinese Painting. 1947.
Silcock. Arnold. Introduction to Chinese Art and History.1935.
Stein, Aurel. The Thousand Buddhas, Ancient Buddhist Paintings from the Cave Temples of Tunhuang. 1921.
Stein, A. Ancient Khotan. 3 vols. 1907.
Tchang. Mathias. Synchronismes chinois de 2357 Av. J. — 1904 Apr. J.
Tsui chi. A short History of Chinese Civilization. 1943.
Wilhelm, Richard. Confucius and Confucianism. 1931.
Waley, Arthur. The Way and its Power, A Study of the Tao Te ching and its Place in Chinese Thought. 1934.
Werner, E. A Dictionary of Chinese Mythology. 1932.
Williams. E.T. A Short History of China. 1929.
Wong and Wu Lien teh. History of Chinese Medicine. 1932.

٣) حضارة اليابان :

Akiyama. Shinto and its Architecture. 1936.
Annales du musée Guimet. Paris.

Batchelor, J. Ainu Folklore, Traditions and Culture. 1949.
Hara Katsuro. An Introduction to the History of Japan. 1920.
Kojiki or «Records of Ancient Matters» Transl. by B. H. Chamberlain in «Transactions of the Asiatic Society of Japan» Suppl. to vol. X. 1882.
Munro, Neil G. Prehistoric Japan. 1908.
Nihongi or «Chronicles of Japan». Transl. by W. G. Aston in «Transactions and Proceedings of the Japan Society, London». Suppl. I. 2 vols. 1896.
Odin, Ulrich. Peintures chinoises et japonaises de la collection Ulrich Odin. (Ars Asiatica XIV. 1929).
Pier Garrett. Temple Treasures of Japan. 1914,
Sansom, G.B. Le Japon. Paris, 1938.
Seichi Taki. Japanese Fine Art. 1931.
Soper. The Evolution of Buddhist Architecture in Japan.

الباب الثالث

الحضارتان الايرانية والبيزنطية

الفصل العاشر

حضارة ايران الساسانية

مقدمة عن حضارة الفرس الاخمينيين ٥٥٩ — ٣٣٠ ق - م :

اقامت دولة الفرس الاخمينيين التي اسسها كورش اول امبراطورية فارسية دامت حتى فتوحات الاسكندر في عام ٣٣٠ ق. م . وقد امتدت هذه الامبراطورية من الدانوب الى السند ومن النيل الى نهر سيحون في الشمال واعطت البلاد التابعة لها حكومة موحدة . وقامت حضارة هذه الامبراطورية على انقاض حضارة شرقية قديمة . ودخلت عناصر الملكية الشرقية القديمة الى الحضارات التقليدية في آسية واوربا عن طريق هذه الامبراطورية . على ان النظام في هذه الادارة الواسعة ضعف بعد محاولات فتح اليونان في القرن الخامس ق.م كما ان الاشراف الذين كانوا عماد

الدولة فقدوا صفاتهم الحربية وزاد تأثير الكهنة الايرانيين وكثرت مكائد البلاط . وكان من العوامل الاساسية للانحلال انه لم يحصل تقدم في الصناعة والتجارة والعلوم لاعطاء الدولة دعامة اقتصادية واجتماعية . وكان الفرس يشكلون الطبقة الحاكمة بين الشعوب المغلوبة فورثوا مكانة الطبقات العسكرية والكهنة في الدول التي سبقت حكمهم . وكانوا يشكلون نواة الجيش ولا يدفعون الضرائب وانما يقدمون الهدايا للملك كما ان الملك كان يكافئهم على خدماتهم باعطائهم قسماً من الجزية التي يدفعها المغلوبون .

ولم يتبع الفرس طريقة الآشوريين البابليين من قبلهم في نقل الشعوب من من اوطانهم اذا ثاروا . وكانوا يسمحون للمغلوبين بالاحتفاظ بدياناتهم وعاداتهم وقوانينهم وحكوماتهم المحلية . والمدن المفتتحة لم تخرب والسكان لم يهلكوا . وكان على المغلوبين ان يدفعوا الجزية وان يبعثوا بعض القوات المحاربة. وامتازت دولة الفرس بتلك الادارة التي اسسها داريوس واصبح «ملك الفرس يدعى «ملك الملوك» ويستمدسلطته من الاله اهورمزدا . وكان على رأس الادارة قائد الحرس الملكي اي قائد العشرة آلاف الخالدين . وكان شبه وزير كما ان رؤساء الاسر النبيلة كانوا يشكلون مجلساً ملكياً . «وعين الملك» كان رأس شبكة المراقبة في الدولة . اما الولاية فكان عليها حاكم او مرزبان وبجانبه قائد عسكري وكاتب يعطي الاخبار للملك . وتقسيم السلطة على هذا الشكل في الولاية غرضه منع التمرد بين الحكام وضمان حسن الادارة . وامتازت الدولة بمواصلاتها وبالمحطات لتسهيل نقل الاخبار والاوامر والجيوش . وكان الطريق الملكي يمتد من سارديس في غربي الاناضول الى سوزا على مسافة ١٥٠٠ ميل ويجتازه البريد باسبوعين فقط . وموارد الدولة كانت الاموال التي تدفعها الولايات والضريبة على الفلاح وتتراوح بين عشر المحصول ونصفه تبعاً لخصب الارض ولجودة الموسم وبعض المناطق كانت تدفع ضرائبها عيناً من القمح او من الذهب والفضة . وللملك وحده ان يسك النقود الذهبية بينما كان للولاة الحق في سك نقود الفضة.

ومن مواطن الضعف في دولة الفرس جيشها الذي كانت الشعوب المغلوبة تشكل معظمه وهو من المشاة بينما كان الفرس والميديون في فرق الفرسان. وكان المشاة يساقون احياناً الى المعارك بالسياط. واصبح الفرس يحاربون بدون نظام بالرغم من تدريب النبلاء الضباط. والمراسم المتعلقة بعظمة الملوك في بلاد الغرب اتت من البلاط الفارسي ومصدرها الاصلي من الآشوريين. وكان ملك الفرس يلبس ثوباً ارجوانياً وقلنسوة ذهبية وحجارة كريمة وازاراً مذهباً وكان يمسح نفسه بالزيت والعطور وشعره كان مجعداً. ويجلس على عرش مصنوع اجمل صنع وتسليته الرئيسية هي الصيد. ووراثة العرش لم تكن للابن الاكبر ضرورة وانما للشخص الذي يريده الملك. ومؤامرات النساء في البلاط كانت من الامور المعتادة.

حكم الاخمينيون حسب مبدأ العدل وافتخر داريوس (في العبارة التي نقشت على قبره) بانه «احب الحق ولم يحب الخطأ وكانت ارادته ان لا يتعرضوا لحقوق ارملة او يتيم وانه عاقب الكاذب وكافأ الصادق المجتهد». وكان القضاء بيد جماعة من القضاة المعينين. والقضاة المرتشون كانوا يقتلون وتوضع جلودهم المدبوغة على مقعد الذين يخلفونهم. وسلطة الملك كانت كبيرة جداً. والعقوبات كانت قاسية منها عدا عن الضرب الدفن والصلب وسلخ الجلد وكانت تنزل خاصة بالمتمردين. فقوانين مادي وفارس كانت قاسية ولكنها لم تكن اقسى من قوانين كثير من الشعوب القديمة.

فترة الحكم المكدوني واثرها: للفتح والاستعمار نتائج حضارية هامة للفاتح والمغلوب. واذا دام الاستعمار مدة طويلة فقد يؤدي الى زوال التقاليد الحضارية في البلاد المحكومة. على ان هذه النتيجة المتطرفة قلما تقع. وبوجه الاجمال فان النتائج تتشابه من الوجهة الحضارية بالنسبة للغالب والمغلوب. في الحالتين تتأثر التقاليد بعناصر جديدة وباحوال اجتماعية جديدة قد تؤدي الى توجيه جديد. وكثيراً ما تندمج العناصر الجديدة في التقاليد الاساسية للبلاد المحكومة. على ان

التغير الذي يطرأ على التقاليد الاساسية يقوي الارتباط الباطن بها ولذلك فان الشكل الجديد لهذه التقاليد يقاوم مواصلة التغير ويجعل دوام التقاليد الاساسية اكيداً . والتقاليد الحضارية المؤسسة على هذا الشكل والمترابطة بشكل لا يتزحزح معه امام قوة الظروف الاجتماعية الجديدة وامام تأثير الاتصالات الخارجية هي تقاليد وطيدة. وكثيراً ما تكون النتيجة الحضارية القصوى للعمل الاستعماري توطيد التقاليد الحضارية التي تحتك بالمستعمر . هذه الامور سنراها بوضوح عند درس الحضارة الايرانية في عصورها المختلفة .

سقطت دولة الفرس الاخمينيين بنتيجة فتوحات الاسكندر الذي بعد موقعة اربيل احتل بابل وسوزا وبرسبوليس . وهذه المدينة الاخيرة احرقها بعد ان استولى على اموال الدولة الفارسية . وتابع الملك داريوس الثالث حتى سفوح جبال الالبورز حيث وجده مقتولاً من قبل احد اتباعه . ومع ان الاسكندر قضى على دولة الفرس واحرق قصورها واستولى على جواهرها الا انه اتخذ مراسم بلاط الفرس وملابسه وعمل على دمج الجماعات الحاكمة من المكدونيين والايرانيين وشجع التزاوج بين العنصرين الحاكمين . وبعد ان توفي الاسكندر توقفت عملية الدمج هذه اثناء الحروب بين قواده . على ان تفاعل الحضارتين اليونانية والايرانية استمر ودخلت كلاً من الحضارتين تقاليد جديدة .

بقيت ايران تحت حكم السلوقيين خلفاء الاسكندر حتى منتصف القرن الثالث ق.م. وكانت قوة السلوقيين تعتمد على الولايات الشرقية وهي بابل وسوزا وفارس وميديا . وقاعدتهم الاولى كانت مدينة « سلوقية على الدجلة» ثم انتقلت الى انطاكية . ومعظم حروبهم كانت لاجل سورية التي أصبحت مركز حكمهم الرئيسي . وشجع السلوقيون نشر الحضارة الهلينية في ايران بتأسيس المدن على ان حكمهم في هذه المنطقة كان اسمياً . فقد أهملوا ايران وافلتت باكتريا (منطقة بلخ) من قبضتهم قبل منتصف القرن الثالث ق.م. وكانت حضارة باكتريا وملوكها وقسم من سكانها من اليونان وعرفت فيها الاساليب المعمارية والزخارف اليونانية . وكانت طرق التجارة تصل الى الهند

والصين في القرنين الثاني والاول ق.م. وملوك باكتريا كانوا يحاربون في شمال غربي الهند وفي تركستان الصينية غالباً لتوسيع مراقبتهم على هذه الطرق. وقد وصلت تأثيرات الشرق الاقصى والهند الى هذه المنطقة كما وصلتها تأثيرات ايران وبلاد البحر المتوسط. اما في ايران فقد زال الحكم السلوقي منذ منتصف القرن الثالث ق.م بالرغم من النجاح العسكري الذي اصابه الملك انطيوخس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧ ق.م.) فيما بعد والذي لم يدم سوى فترة قصيرة. ومع ذلك فان الحكم السلوقي المكدوني ترك بعض الاثر في ثقافة الايرانيين وظهر هذا الاثر في الفترة التالية وهي فترة الحكم الفرثي.

فترة حكم الفرثيين وحضارتهم ٢٥٠ ق.م - ٢٢٤ م : في الوقت الذي استقلت فيه منطقة باكتريا عن الدولة السلوقية اتى شعب من آسية الوسطى وأسس مملكة في شمالي ايران وعرف بالفرثيين باسم المنطقة الرئيسية التي احتلها وهي برثاوا Parthava. ويعتبر هذا الشعب ايرانياً بالرغم من امتزاجه بالسكيثيين كما ان البعض اعتبروه من قبائل الساكا التي نزلت الى شرقي بحر الخزر ثم الى المنطقة التي اعطتهم اسمهم. وكانت لغتهم لهجة ايرانية تطورت من الفارسي القديم، وكتابتهم كانت نوعاً من الآرامية وعرفت بالبهلوية. اما السلالة التي اسسها الفرثيون فقد عرفت بالاشكانية او الارشاقية Arsacids نسبة لمؤسسها ارشاق (Arsaces بالشكل اليوناني). وقد قامت هذه الدولة بحروب متواصلة ضد السلوقيين فاخذت منهم ايران الغربية وما بين النهرين، وحاربت الرومان لانهم ارادوا انتزاع مابين النهرين وأرمينية منها.

نجح أرشاق الاول (٢٤٨ - ٢٤٦ ق.م) بثورته ضد الحاكم السلوقي واسس الدولة الفرثية واتى بعده ارشاق الثاني (حكم حتى ٢١١) فوطد استقلال الدولة وتبعه ارشاق الثالث (٢٢١ - ١٩٠ ق.م) فقاوم محاولات السلوقيين في استرجاع هذه المنطقة في عهد انطيوخس الثالث. وكان من أعظم ملوكهم مهرداد (ميترداتس Mithridates) الاول المعروف بالكبير (١٧١ - ١٣٨ ق.م) الذي وسع الحكم

الفرثي حتى شمل باكتريا وفارس ومادي وبابل فامتدت دولته من مرو الى بابل ، غير انه سمح للملوك بالاحتفاظ بعروشهم . وكانت السلطة السلوقية سائرة الى الاضمحلال في هذا العهد بين ضغط رومة من جهة والفرثيين من جهة أخرى. واضطر الفرثيون لمحاربة السكيثيين والساكا على الحدود الشرقية وتمكن متراداتس الثاني (١٢٣ - ٨٧ ق م) من وضع حد لهجماتهم ووطد حكم الدولة حتى امتدت من الهند الى ارمينية .

وتبدأ حروب الفرثيين مع الدولة الرومانية في عهد فرهاد(فراتس Phraates الثالث (٧٠ - ٥٧ ق.م)وتدوم نحو ثلاثمائة سنة . وكانت ترغب رومة في التوسع شرقاً وتهتم بتجارة طريق الحرير الذي كان قسمه الغربي بايدي الفرثيين . وكانت حوادث الحرب سجالاً بين الفريقين . فقد أوقف الملك أرد (اورودس Orodes) غزوة الحاكم الروماني كراسوس في حران في عام ٥٣ ق.م كما ان الفرثيين كسروا انطونيو جنوبي بحيرة اورميا في عام ٣٦ ق.م ولكن حملة تراجان الامبراطور الروماني كانت ناجحة بعد ان ساد السلم بين الدولتين نحو نصف قرن ونجح في الاستيلاء على المدائن موقتاً وكان سبب نجاح الفرثيين ان فرسانهم سريعو الحركة ولا يقفون في معركة بوجه الرومان كما ان تموين الرومان كان صعباً في أراضي مابين النهرين .

لم تكن دولة الفرثيين مركزية ولم يحكم ملوكها كل ايران غير ان الملوك والامراء الايرانيين كانوا يعترفون بسيادتهم . وشجعت هــذه السياسة تقوية العنصر الاقطاعي في البــلاد . وأدت الحروب الى اضعاف الانتاج الزراعي في بعض منــاطق ايران ومابين النهرين والى نقص في السكان . والجيش الدائم كان الحرس الملكي فقط وفيما سواه فان الفرثيين اعتمدوا على قوات الاقطاعيين والفرسان وعلى المرتزقة . والمهم هو ان الفرثيين اعادوا الى ايران استقلالها ودافعوا عنهـا مـدة اربعة قرون . وبانتصار متراداتس الثاني في نهاية القرن الثاني ق.م اعتبروا انفسهم خلفاء الفرس الاخمينيين واتخذوا لقب « ملك الملوك » .

كان تراث الفرثيين ضعيفاً ولذلك استعاروا حضارتهم من الفرس واليونان فكانت حضارة مزيجة بمظاهر ايرانية وهلنستية. ولم تكن الحضارة الايرانية ناشطة حينذاك بينما كان تأثير الحضارة الهلينية لا يزال قوياً حتى ان احد الملوك اتخذ لقب «محب الهلينية» وظهر هذا اللقب على نقود كثير من الملوك . والنقود الفرثية كانت بزخارفها ونماذجها هلينية كما ان الثقافة اليونانية كانت معروفة لدى الملوك . واللغة اليونانية استعملت في اول الامر كلغة رسمية هذا بينما كانت الدولة الفرثية في حالة حرب دائمة ضد السلوقيين ثم ضد الرومان . وقد قيل انهم لما أتوا الى اورودس ملك الفرثيين برأس القائد الروماني كراسوس كان يشاهد قطعة مسرحية للشاعر اليوناني اوريبدس .

ثم في القرن الاول م ابتعد الفرثيون عن اساليب الفكر الهلنستي واتخذوا المجوسية الزردشتية ديانة رسمية ولذلك اصبح الكاهن المجوسي صاحب سلطة ونفوذ. وحصلت بعد منتصف هذا القرن اول محاولة لجمع التقاليد المجوسية وامر ملوك الفرثيين بوضع اول نص للآفستا Avesta (كتاب المجوسية الديني) واستمر العمل في عهد الساسانيين. وسمح تساهل الفرثيين الديني للمسيحية بالانتشار في غربي دولتهم . وعموماً يمكن القول ان زعماء الفرثيين اخذوا عناصر حضارتهم الهلنستية من طبقة النبلاء الايرانيين كما اخذوا الاساليب السياسية الفارسية التي ورثوها . والحقيقة ان بلاد ايران نفسها كانت بعيدة عن مركز الحضارة الفرثية التي كان مركزها في مابين النهرين .

وفن العمارة الفرثية لم يكن ذا شأن . ومعظم البقايا الفرثية تقع غربي فارس وتظهر لنا تأثيرات هلنستية وبابلية مع تقاليد محلية في الفنون والصنائع . وتشاهد بعض الآثار الفرثية في دورا اوربوس (الصالحية) على الفرات وفي سلوقية على الدجلة وفي مدن اخرى فيما بين النهرين وفي فرهادة (فراتا Phraata) في ايران قرب بحيرة اورميا . وهذه الآثار ترينا القصور والمنازل والمدافن . والعنصر الوحيد الذي يستحق الذكر في هذه المباني هو الايوان الذي يصبح له شأن في ابنية ايران المتأخرة.

والنواحي الاخرى في الفن الفرتي فيها انتقاء وجمع ، والواقع ان الفن الفرتي ليس له معنى واضح . والبقايا التي وجدت في اماكن مختلفة ليس لها صفات كثيرة مشتركة . ففي متحف طهران بعض رؤوس منحوتة من الحجر احدها هلنستي باسلوبه ، والآخر بودي والآخر يوناني باكتري . والغالب ان الفرتيين اتوا برجال الفن من جميع جهات الامبراطورية . وبوجه الاجمال كان الفن يستعمل اشكالا هلنستية مهما كانت المادة المستعملة . ولم يحاول الفرتيون دمج التأثيرات الغربية وتمثيلها في اسلوب جديد . وقد استعملوا النحت في الابنية والافاريز مع مشاهد ونماذج هندسية ونباتية . واستخدموا الخزف للتوابيت والاشكال الدينية كما استعملوا آنية الخزف بيريق اخضر . وقد بقيت لوحات جدارية من دورا اوربوس التي كانت بالاصل مستعمرة مكدونية اسسها أحد قواد سلوقس في ٣١٢ ق. م. ثم خضعت لنفوذ الفرتيين واستولى عليها الفرس الساسانيون في عام ٢٥٦ م. ومن آثارها المعروفة الكنيس اليهودي بلوحاته الجدارية الملونة التي تمثل مشاهد من التوراة وقد بني في عام ١٦٥ م وجدد في ٢٤٤ ثم تهدم في ٢٥٦ . وقد اكتشفت بقاياه في عام ١٩٣٠ ونقل الى متحف دمشق حيث اعيد بناؤه . وترينا اللوحات ازياء مختلفة في اللباس في مدينة دورا كما ترينا المعابد ديانات متعددة .

الدولة الساسانية وعصرها ٢٢٤ ــ ٦٥٢ : بقيت التقاليد الامبراطورية الفارسية في مقاطعة شرقي بحيرة اورميا وفي فارس التي كانت مركز الاخمينيين القدماء . وكان حكام هذه المنطقة الاخيرة (فارس الواقعة شرقي الخليج الفارسي) تابعين للسلوقيين ثم للفرتيين . وتركوا نقوداً تشهد بحماسهم للدين المجوسي . ذلك لان التقاليد الوطنية حتى في العصر الهلنستي بقيت بشكل المجوسية الزردشتية . وفي اوائل القرن الثالث م ، اصبحت فارس تحت حكم اسرة من اصل كهنوتي مجوسي وهي الاسرة الساسانية . وقد ثار اول ملوكها اردشير الاول ضد الفرتيين حين شعر بضعفهم وقتل آخر حاكم فرتي في سوزا ثم اعترف به كملك الملوك من قبل

ايران كلها وساعده الكهنة المجوس . ولم تشمل سلطته باكتريا حيث حكمت سلالة الكوشان الهندية - السكيتية ، ولا ارمينية . وكانت عواصم الساسانيين اصطخر قرب برسبوليس القديمة ، والمدائن (سلوقية على الدجلة) التي عرفت ايضا باسم « بيت اردشير » وكانت عاصمة الفرتيين . وكان اسم « ساسان » في الفارسية القديمة يعني « قائد » ولكنه اصبح فيما بعد اسم اسرة . وانتسب الساسانيون الى الاسرة الاخمينية القديمة . وكان اردشير حفيد ساسان وهو كاهن اعلى في معبد الالاهة اناهيتا في اصطخر . وجعل اردشير المجوسية ديانة الدولة .

حكمت السلالة الساسانية مدة اربعة قرون ونيف وكان منها نحو اربعين ملكا . وكان هدفها دوما الدفاع عن استقلال ايران والحضارة الايرانية ضد الرومان والبيزنطيين غربا والقبائل التركية المغولية شرقا . ونجح الملك الساساني الثاني شابور الاول (٢٤١ - ٢٧٢) ابن اردشير في أسر الامبراطور الروماني فاليريان في عام ٢٥٩ م وكان الانتصار الساساني عظيما خلدوه في اعمال الحفر والنحت . وكان النزاع مع رومة كثيرا مايدور حول ارمينية . ولم ينجح الملك نرسيس (٢٩٣ - ٣٠٢) في حربه ضد رومة وفي عهده اصبح الدجلة حدا بين الشرق والغرب . اما شابور الثاني الذي حكم في عام ٣١٠ ودام حكمه ٦٩ سنة فقد حارب رومة مدة طويلة . وبعد وفاته حصلت منازعات بين الحكام وبين النبلاء والكهنة على السلطة وقتل ثلاثة من الملوك حتى ان النبلاء الاقطاعيين والكهنة اصبحوا يعينون الملوك لمدة مائة سنة .

وتمكن الملك كسرى (خسرو) انو شروان (اي ذو النفس الخالدة) ٥٣١ - ٥٧٩ من اعادة قوة الدولة . وكان من اعظم ملوك السلالة ولقب « بالعادل » . وقد قسم الامبراطورية الى اربعة اقسام ادارية ومسح اراضي الدولة وفرض عليها الضرائب وقام بمشاريع الري وشجع العلم وكان يقرأ اليونانية ، وامر بترجمة الكتب من اليونانية والسنسكريتية الى البهلوية كما جمعت كثير من القصص الخرافية في ايامه . ومن اعماله الحربية غارته على سورية ومفاجأته لمدينة انطاكية في عام ٥٤٠ .

وكان آخر ملوك الساسانيين الاقوياء كسرى الثاني برويز (٥٩٠ - ٦٢٨) الذي فتح سورية ومصر والاناضول وكاد ان يأخذ القسطنطينية . غير ان الامبراطور البيزنطي هرقل حاربه وكسره في معركة نينوى في عام ٦٢٨ . ومنذ ذلك الحين ضعفت الدولة . وكان آخر ملك ساساني يزدجرد الثالث الذي قاوم العرب المسلمين وفشل .

كان ملوك الساسانيين يحاربون في الشرق كما حاربوا في الغرب ضد الرومان. فالملك بهرام الثاني (٢٧٦ - ٢٩٣) انتزع منطقة سجستان من قبائل الساكا. وهرمز الثاني (٣٠٣ - ٣١٠) كانت له سيادة على ملك الكوشان في كابل . ويأتي الهون المغول في نهاية القرن الرابع ويأخذون من الكوشان باكتريا وكابل وما وراء النهر ويهاجمون الساسانيين فيطردهم بهرام الخامس (بهرام جور) ٤٢٠-٤٣٨ ولكن فيروز احد خلفائه (٤٥٩ - ٤٨٤) يقتل قرب بلخ . ويتحد كسرى انو شروان في عام ٥٦٥ مع الاتراك ضد الهونيين ويكسرهم ويأخذ باكتريا بينما يحصل الاتراك على ماوراء النهر وبلاد الصغد . ومن بقايا حكم الساسانيين في باكتريا تلك اللوحات الجدارية الساسانية البوذية التي درسها مؤخراً اندره غودار Godard وزوجته.(١)

نشأت الدولة الساسانية بنتيجة بعث وطني ديني ملكي ولذلك بقيت دولة قومية متعلقة بالدين الوطني . والصفة الايرانية العنصرية لهذه الدولة تظهر في النقوش والنقود التي تركتها . وتبتعد ايران بالتدريج عن التأثيرات الخارجية . وفي المراسم نشاهد بدلا من الالقاب اليونانية التي استعملها الفرتيون ويينها « الملك المحب لليونان » — نرى الالقاب البهلوية « خادم اهورمزدا وملك الآريا » اي الآريين . وسلطة السلالة كانت مؤسسة على الصفات التقليدية في الحضارة الايرانية وعلى القوى الحضرية الجديدة التي ظهرت باتساع التجارة . والادارة كانت مركزية

(١) انظر : R. Grousset : Les Civilisations de l' Orient (Paris, 1929) , I p. 118 .

ولذلك كانت الدولة ثابتة مستقرة . وقد كان الحكم الفرثي السابق اقطاعيا ويعمل على اضعافه الحكام الوراثيون في المقاطعات . اما الساسانيون فمع انهم لم يزالوا الاقطاعية فانهم ادخلوا الطاعة حتى ان جميع النبلاء من المرازبة حكام الولايات الى حكام المناطق الصغيرة الى الشهركان والدهقان اصحاب الاراضي — كلهم كانوا يخدمون السلطة المركزية . وهذه الادارة المركزية كانت منظمة حسب الاصول الاخمينية ورأسها وزير وتتبعه بيروقراطية من الوظائف المتسلسلة لافراد العائلات الكبرى . وقد اعيد تنظيم البريد . اما الجيش فكانت نواته الرئيسية من الفرسان المسلحين سلاحا ثقيلا وهم من صغار الاشراف، وكان في الجيش ايضا المشاة والفيلة، وادوات الحصار كانت مستعملة . والبلاط كان معروفا بترفه وبكثرة ما فيه من مؤامرات وتطاحن على النفوذ . ولم يسمح لغير كبار الاشراف وندماء البلاط رؤية الملك بينما كان الاجانب يقدمون احترامهم لصورته الذهبية .

المظاهر الاقتصادية والاجتماعية للحضارة الساسانية : كانت اهم مناطق الزراعة في الدولة الساسانية في وادي الرافدين . وانتشرت صناعات المعادن والمنسوجات في المدن . وسيطرت الدولة على طريق التجارة مع الصين. ومن اعمال هذه الدولة انها اعادت بناء القرى وحفرت الاقنية والترع واعطت الفقراء ارضا وبذارا ومواش . ووزعت اسرى الحرب على اماكن مختلفة ليأتوا بمحاولات جديدة . واتبع الملك اردشير المبدأ التالي « لا يمكن وجود القوة بدون جيش ولا جيش بدون مال ، ولا مال بدون زراعة ولا زراعة بدون عدل » . وشجع اتساع الصناعة اتصال ايران بالهند وخاصة بسورية التي كانت كما قال تيرنر « اكثر المناطق تقدما في الصناعة في العالم كله » [1]. وكانت ايران تتصل ببلاد آسية الغربية

---

(١) Ralph Turner : The Great Cultural Traditions. Vol. II. P. 673.

وفيها مدينة نصيبين مركز العلاقات بالغرب . كما ان الطرق كانت تؤدي من المدائن الى خليج فارس وسوزا وآسية الوسطى والصين . وفي النصف الثاني من القرن الخامس مرت عشرة وفود على الاقل من شمالي الصين الى فارس . والبضائع التي ترد من الشرق الاقصى الى ايران كانت الحرير والحديد والحجارة الكريمة والخيزران. وكان تجار تلك المناطق يبتاعون في مدن ايران انواع السجاد والاقمشة المنسوجة من صنع سورية واللؤلؤ والمرجان والمخدرات . وكثيرا ما كان يفد تجار الصين والهند الى اسواق مابين النهرين في القرن الخامس . وتذكر المصادر الصينية زيارة هذه الوفود المدائن كما تصف فخامتها وخصب الاراضي الكائنة حولها .

كان التطور الاجتماعي للفرتيين والساسانيين يتجه نحو نظام طبقي . وقد بقي النبلاء الاقطاعيون عماد الدولة وكانت تذكر اسماؤهم في السجلات كما ان هنالك تعليمات تتعلق بلباسهم وسكناهم وركوبهم الخيل وغير ذلك . واصبح كهنة زردشت في مكانة ممتازة . والملك كان يدخل احياناً بعض الاشخاص ممن حصلوا على ثروات كبرى او اظهروا شجاعة في الحرب او نبوغاً في العلم والفن في الطبقات الممتازة . وكان التجار واصحاب الحرف والفلاحون والعبيد في الطبقة الثالثة . وكان الفلاحون ايرانيين عموماً بينما البقية من الاجانب . ومعاملة الفلاحين كانت قاسية فهم مرتبطون بالارض ومرهقون بمختلف الواجبات . وقد ادت حالتهم السيئة الى حركة ثورية مرتبطة ببدعة دينية تسمى المزدكية وغايتها شيوعية الارض والمواشي والنساء .

بدأت حركة اصلاح اجتماعي في عهد قباد الاول (٤٨٥ — ٥٣١) لاستئصال الشرور التي سببت المزدكية . ويقال انه كان يعطف على الثورة في اول الامر . ومن اصلاحاته انه مسح الاراضي وحدد كمية الضرائب وسمح للفلاح بتعيين نوع المحصول . وكانت بعض المزروعات معفية من الضرائب . وكان يمكن الاستئناف من احكام جباة الضرائب الى القضاة . ووضعت ضريبة شخصية على جميع الذكور بين سن العشرين والخمسين ولكن الاعفاء تناول الجنود والنبلاء والكهنة والموظفين

والمصابين بعاهات وسمح بدفع الضرائب على ثلاث دفعات في السنة . وقرر كسرى انوشروان بان لا تتغير هذه الانظمة وعلى ذلك هدأت ثورة الفلاحين بعد ان قتل عدد كبير من النبلاء اثناءها . وعاد نظام الطبقات فتوطد وبقيت للنبلاء والكهنة درجات وظلوا عماد الاسرة الحاكمة .

الادب والعلم في الدولة الساسانية : خمدت الحركة الفكرية الايرانية بعد زوال الدولة الاخمينية وزال الادب الزردشتي في اول العصر الهلنستي . وعاد الفكر الايراني فانتعش في العصر الفرثي واصبح عاملاً هاماً في تطور الحضارة في العصر الساساني . فالفرثيون مع ميلهم الى الهيلينية كانوا يتجهون نحو اعتقادات وطنية وبدأوا ببعث الادب المجوسي القديم في القرن الاول م . وتم هذا البعث في عهد شابور الثاني الساساني حين تم جمع الزند افستا (او مجموعة المعرفة) وهي كتابات المذهب الزردشتي المنبعث في المجوسية Mazdaism . والافستا تعالج بعض القضايا القانونية والفلسفية والعلمية عدا عن معالجة المسائل اللاهوتية والعبادة . وتطور هذا الادب المجوسي بتعليقات على التعاليم الاصلية . وبقي من الافستا ربعها فقط وكانت تعتبر مصدر التعاليم الصحيحة في العصر الساساني . والكتابة المستعملة في هذا البعث الفكري الادبي هي البهلوية وهي اقتباس رموز آرامية وملاءمتها للغة الفارسية . وكان الفرثيون يستعملون الكتابة اليونانية مع البهلوية ولكن اليونانية تزول تماماً في زمن الحكم الساساني . واللغة كانت من النوع المعروف بالفارسية المتوسطة انما فقدت تعقيدها واصبحت ابسط واقرب الى الفارسي الحديث .

وعدا عن الادب الديني في الزند أفستا وسائر المؤلفات الدينية فان الادب البهلوي كان يحوي مؤلفات اخرى . ولم يبق سوى احد عشر مؤلفاً لادينياً من عصر الساسانيين ومن اهمها كتاب « اعمال اردشير » وهو يروي وقائع حياة اول ملك ساساني . « وقصة انوشروان وخادمه » وتظهر انسانية هذا الملك العظيم . وفي عهد انوشروان بدأوا بتسجيل اخبار ملوك الفرس واصبح ذلك اساساً

للشاهنامة فيما بعد . وكتبت مؤلفات اخرى عن مدن الفرس وعن لعبة الشطرنج . ولا بد ان الادب البهلوي كان اكثر غزارة وأوسع من هذه المؤلفات .

واتت بعض عناصر العلم الايراني من مصادر أجنبية . ودرس كهان زردشت الطب ورأوا ان الاله اوجد لكل مرض دواء ليشفيه . وعدا عن العقاقير فقد عرفوا العلاجات المتعلقة بالجراحة واقامة المراسم الدينية واستعمال الاطعمة الخاصة . ورأوا أن المرض والخطيئة يتعلق واحدهما بالآخر ولذلك رأوا ان يعطوا الصحة للروح وللجسد . واهتموا باساليب تشخيص المرض ويقال انهم استخدموا المجرمين لاجراء بعض الملاحظات الطبية . واهتم الكهنة الزردشتيون بالفلك او التنجيم والجغرافية. وكان اوج الحركة العلمية في عصر انوشروان عندما ازدهرت مدرسة جنديسابور الطبية . وتاريخ هذه المدرسة وموقعها بالضبط مجهولان غير انها بدأت تشتهر في في نهاية القرن الخامس عندما طرد النساطرة من الدولة الرومانية الشرقية فحملوا معهم الترجمات السريانية للكتب الفلسفية والعلمية اليونانية والرومانية الى هذه المدرسة . ومن اهم هذه الترجمات كتب طبية يونانية بينها كتب جالينوس (من القرن الثاني م) . ووضع في المدرسة مختصر لمنطق ارسطو وقسم من كتابات افلاطون ودخلت فارس في عصر انوشروان مواد فكرية يهودية وهندية وبوذية . فقد ترجمت المزامير العبرانية الى البهلوية . وفي شرقي ايران ترجموا احدى القصص البوذية الخيالية ومجموعة هندية مشهورة من القصص (تعرف باسم Panchatantra) وهي أوسع مجموعة من قصص الحيوانات في العالم . وقد تم وضعها في عصر سلالة الغوبتا الهندية (في القرن الرابع والخامس م) ثم ظهرت في الهند في مجموعات مختلفة وانتشرت بعد ذلك في فارس والصين والبلاد العربية باسم كليلة ودمنة كما وصلت اوربا . وهي مهمة لعلاقتها بالملوك والتربية الخلقية وفي هذه الفترة انتشر الطب الهندي ايضاً في الغرب وكانت ايران في العصر الساساني مهمة في نقل العلوم الاجنبية واقتباسها، وشهرتها في ذلك اكبر من شهرتها في الاعمال المبتكرة .

والعلوم الايرانية كانت مختصة بالطبقات الممتازة تقريباً . فالفلاحون اميون

والتجار عرفوا القراءة والكتابة والحساب لاجل اعمالهم . بينما كبار الاشراف كانوا يتبعون نظاماً شديداً في تعليمهم . وكان مما يجب ان يتعلموه عدا عن القراءة والكتابة استعمال السلاح وعقائد الديانة الوطنية . وفي سن العشرين بعدان يتعلموا الادب والتاريخ والخطابة والموسيقى والاطعمة كانوا يدخلون طبقة الفرسان . اما صغار الاشراف فكانت تربيتهم واعباؤهم عسكرية . واما الكهنة فكانوا يسيطرون على جميع انواع التعلم فيما سوى الامور الخاصة بالفرسان . وكان يوجد « معلم للشؤون الكهنوتية » في البلاط .

تطور الديانة الايرانية : المجوسية ديانة الدولة الساسانية : بدأت فتوحات الاسكندر حركة اشعاع وتمثيل ثقافي اثرت على آسية حتى الهند . واصبحت المعتقدات الهندية معروفة في باكتريا وشرقي ايران كما ان الافكار الايرانية وصلت شمال غربي الهند واثرت على البوذية . وفي بلاد ما بين النهرين حصل تفاعل ثقافي لايقل عن ذاك الذي حصل في سورية ومصر . والتقت كذلك الآراء الايرانية والاغريقية في ارمينية والبونت وكبادوكية . وحصل تفاعل ثقافي في العقائد ورأى الفرس كشعب استعماري آلهتهم في مجموعات آلهة الامم الأخرى وبذلك اختلفوا عن العبرانيين الذين كانت ديانتهم وسيلة لحفظ كيانهم القومي . وهكذا اعتبر الفرس اهورمزدا الايراني وزفس اليوناني وبعل السامي كائنات عليا متشابهة وهذا ما سهل امتزاج آلهة ايران بالآلهة الاجنبية وبدخول هذه الاخيرة الى ايران .

كان بين الآلهة الايرانية التي اشتهرت آناهيتا وميترا . وكانت آناهيتا بالاصل الاهة الينابيع في وادي نهر جيحون ثم تصبح الاهة خصب تشبه الاهة الساميين عشتار . واما ميترا فهو إله آري قديم للنورانما جعله زردشت في مكانة ثانوية والآن يصبح كوسيط بين الناس والكائن الأعظم وحامي البشر في الارض التي خلقها اهورمزدا وفي بابل صار يعادل الاله شمش اما في العالم المتأثر بالثقافة الهلينية فقد اصبح اله انقاذ يشبه الآلهة في ديانات الاسرار . وعملت التأثيرات البابلية واليونانية

على تشجيع التفكير اللاهوتي بين الايرانيين الكهنة ونتج عن ذلك اعتقاد في الزروانية Zervanism وهي شكل توحيدي لديانة زردشت وتقوم على الاعتقاد بان زروان او الزمن الغير محدود الذي نظم العالم وسائر الناس لهولدان : اهورمزدا المولود من الايمان ، واهريمان المولود من الشك وهما يتنازعان السيادة دوما . وانتشرت الزروانية هذه في أواخر عهد الفرتيين وأوائل العهد الساساني .

والساسانيون هم الذين اعادوا الديانة الزردشتية ويقال ان اول ملوكهم اردشير دعا رئيسا دينياً اعلى « الموبذ ان موبذ » لتدوين عقائد اهورمزدا . والحقيقة هي ان هذه الديانة سادت فيما بعد كرد فعل ديني ضد العبادات الاجنبية . واردشير الاول نفسه اضطهد اليهود ؛ ثم يضطهد النصارى فيما بعد عندما يميلون الى الرومان الذين كانوا في حرب ضد الساسانيين . والاضطهاد مظهر سياسي اكثر منه ديني . والزردشتية تغلبت نهائياً على خصومها في عهد كسرى انوشروان . وسيادتها هي سيادة طبقة الكهنة اكثر منها سيادة ديانة . وفي عهد الفرتيين لم تكن طبقة الكهنة موحدة ولكنها نظمت في العهد الساساني في درجات وكان على رأسها الموبذان موبذ يدير الشؤون الدينية وينظم اضطهاد الهراتقة والتعاليم الاخلاقي . ثم هناك الموبذ في كل مقاطعة وعلماء مرتبطون بالرئيس الاعلى . وكانت الهيئات الدينية تساهم في القضاء وتنصح الملك في شؤونه ، وتقوم بالطقوس والخدمات الدينية وسائر الخدمات المتعلقة بالاعياد وبالامور المدنية . ولم يساهم الكهنة في انتخاب الملك ولكن كان لهم الحق برفض المرشح للعرش . والرئيس الديني الاعلى يتوج الملك وله المقام الاول في البلاط . والكهنة يعطون النصائح بنتيجة التنجيم ويقدمون المساعدة الالهية في اخطر الاحوال فاساس قوة الكهنة اذاً هو معرفتهم للعالم العلوي . كذلك كانت لهم سلطة فكرية عليا تدعمها الزندافستا والسيطرة على التعاليم الاخلاقي وادارة التفتيش التي تحارب الهراتقة . وفي الزندافستا قسم محفوظ يسمى Vendidad اي القانون ضد الابالسة ويصف جميع الواجبات الدينية التي يفرضها الكهنة وهو قانون مدني وجزائي وديني للدولة . وتربية الاولاد تتناول التربية البدنية وهنالك

كتاب خورده آفستا Khorda Avesta كدليل للعبادة . وكان الهراتقة يقتلون اذا لم يندموا بعد سنة والقانون لاينفذ بدون موافقة الرئيس الديني الاعلى . فالمجوسية هي دولة ضمن الدولة .

وفي لاهوت المجوسية كان اهورمزدا أو اورمزدا الهاً قوياً بعيداً ويمثل النور والحكمة . اما سيد الناس هو مترا الوسيط بينهم وبين اورمزدا ويمثل الشمس التي تنير وتغذي بينما اناهيتا تسيطر على التوالد . وهنالك ملائكة تسيطر على مظاهر الطبيعة الاخرى والنار تعبد باشكال مختلفة واهم الاعياد عيد رأس السنة ويدوم خمسة ايام تضاف الى الاشهر الاثني عشر المؤلفة من ٣٠ يوماً . وحسب العقائد المجوسية فان النزاع يدوم ١٢٠٠٠ سنة بين اورمزدا واهرعان وهي مقسمة الى أربع فترات : في الفترة الاولى لايمتزج الظلام والنور . وفي آخرها يريد اهريمان انهاء عصر النور . وفي الفترة الثانية اورمزدا يخلق العالم والانسان على الارض بينما اهريمان يحاول منعه من ذلك . وفي الفترة الثالثة يحصل نزاع بين النور والظلام والخير والشر والناس يشاركون في هذا النزاع . فالذين اتبعوا الخير يعبرون بعد الموت جسر الدينونة (Tchimvat) الى الجنة . والذين اتبعوا الشر يسقطون من الجسر الى جهنم . وفي بدء الفترة الرابعة يظهر زردشت ليعلم الناس وفي نهاية كل الف سنة يظهر مخلص جديد . وآخر نزاع يحصل في آخر الف سنة ويزول الشر وينتهي النزاع في تجدد الحياة ودخول الناس الى الجنة . والزردشتية تمدح العمل ، والمرض هو مظهر اهريمان . وتعذيب النفس خطيئة وكذلك البتولة . والديانة تحض على الخير والشرف والقوة والشجاعة . وجزاء الذي ينقض وعداً شفهياً ٣٠٠ جلدة اما العقاب بتشويه الجسم فهو ممنوع لان الذي ينال العقاب يجب ان يظل قادراً على العمل . والسلم وازدهار الاحوال نتيجة ارادة الهية فاذا ساءت احوال الدولة ولم يقو الملك على معالجتها فالكهنة ان يخلعوه او يقتلوه ليقيموا غيره مكانه . وقد اصبح الكهنة المعتمدون على الاشراف اقوياء حتى ان بعض الملوك حاولوا القيام ضدهم ومنهم اردشير الثاني (م ٣٨٣) وشابور الثالث (م ٣٨٨) ويزدجرد الاول (م ٤٢٠) ولكن الاول عزل واما الملكان الآخران

فقد قتلا ، وهنالك ملك رابع افقدوه بصره وذلك بعمل الكهنة والاشراف .

المانوية : اثرت على ماني (حوالي ٢١٦ - ٢٧٤) الافكار الهندية وخاصة الغنوسطية (gnosticism) او فلسفة المعرفة واستخرج من الزردشتية مذهباً للخلاص . وتعتقد الغنوسطية ان الخلاص ممكن بمعرفة خاصة تقرب الانسان من الحقيقة الروحية العظمى وان المادة شر من اساسها ، وان هرب الروح من الاشتباك في العالم المادي هو هدف الوجود .

كان ماني من اسرة عريقة ، وقد تعرف على العقائد البابلية وسافر الى الهند . واخذ ينشر تعاليمه ويظهر الحقيقة الموجودة في كل معتقد وقال ان لكل بلد نبيه وانه نبي بلاد بابل.ولم يعترف بنبوة موسى. والثنائية الزردشتية (اي النور والظلام) هي أساس ديانته . فقد اعتقد ان زروان (فردوس النور)خلق كائنين هما ام الحياة والانسان الاول او اورمزدا وشكل معهما الثالوث ليدافع معهما ضد ملك الظلام . ولكن ملك الظلام انتصر واختلطت عناصر النور بالظلام . ولذلك خلق زروان روح النور وهذا اوجد البناء الاعظم الذي خلق الروح الحية ولذلك تشكل ثالوث آخر،وكسر اخيراً ملك الظلام في المعركة. ثم اوجد زروان العالم بمساعدة الارواح . وشكلت ام النور الجو من جلود اعوان ملك الظلام ، ومن لحمهم شكلت الارض ومن عظمهم اوجدت الجبال . وتكونت الشمس والقمر من النور الصرف الذي استرجع من ملك الظلام . وهكذا تستمر سلسلة المخلوقات الى ان يظهر مثرا الذي اوجد ليحمي العالم ومسكنه الشمس . ثم ارسل يسوع الذي اشترك في خلقه مثرا وام الحياة والانسان الاول والروح الحية ليعلن للناس حالهم ، ويرمز الى تألم النور المكبل في الظلام ويصبح دليل الناس الى الجنة .

والعالم في اللاهوت المانوي هو الوسيلة لتحرير النور الالهي من سجن الظلام . وفي هذا المذهب طبقتان من الاعضاء ١) المختارون الذين يطمحون للحياة النقية ٢) السامعون او المحاربون. فالمختارون يمارسون حياة اخلاقية شديدة مبنية على عادات واعتقادات

هندية ومسيحية . فليس لهم حياة جنسية ولا ينزعون الحياة حتى انهم لايقطفون زهرة اوعرنوس ذرة ولذلك عندما يأكلون يذكرون انهم لم يذنبوا فيقولون : «انني لم احصد ولم أطحن ولم اعصر ولم اقذف بشيء الى الفرن. جميع هذه الامور صنعها غيري واتى بها الي فانا لست بمذنب » . ولم يأكلوا اللحم ولاشربوا الخمر. والماء مقدس بنظرهم لذلك يستعملونه للشرب فقط . ولم يحصلوا على ممتلكات او لباس لاكثر من سنة ولاطعام لاكثر من يوم. اما «السامعون» فيقومون بالاعمال ويتزوجون ويأكلون اللحم ويقدمون عشر مدخولهم الى « المختارين » الذين بصلواتهم يغفرون خطيئاتهم . والسامعون يصومون سبعة ايام في الشهر ويصلون ٤ مرات كل ٢٤ ساعة وبعد الموت يبقى المستمعون مدة طويلة ليتطهروا قبل الدخول الى الجنة .

والمانوية منظمة على درجات فهنالك رئيس اعلى واثنا عشر رسولاً يرأسون ٧٢ أسقفاً وهؤلاء يرأسون الكهان المحليين . والرئيس مسكنه في بابل والمذهب مبشرون. والمانوية لاتريد سلطة زمنية وانما تعلم الناس الكمال الاخلاقي وكانت تضطهدها المجوسية وقد قتل ماني وسلخ جلده وحشي بالقش وطرد اتباعه من الدولة الساسانية ولكن المانوية انتشرت من فارس الى آسية الوسطى وبلاد البحر المتوسط . وفي آسية الوسطى وضعت كتاباتها بالسريانية بلغة الصغد ونتجت عنها كتابة شعوب آسية الوسطى . وفي القرن الرابع صار لها اتباع في بلاد البحر المتوسط واثرت على عناصر الزهد في المسيحية . وقد زالت المانوية ولكنها لالف سنة بقيت ذات اثر على حياة تابعيها .

المزدكية : كانت المزدكية مظهراً دينياً للنزاع بين طبقات المجتمع الايراني . فهي

بدعة ابدت الحركة الثورية في نهاية القرن الخامس واول السادس . ويبدو ان مزدك (حوالي ٤٨٠ — ٥٢٨) لم يكن مؤسس البدعة الاصلي ولكنه أعطاها مفعولها الاجتماعي . وقد قدم المذهب المزدكي كتجديد او بعث للمجوسية ولكنه بالواقع وليد افكار هلنستية . ومن الفلاسفة الهلنستيين الاخلاقيين اتت فكرة المساواة الاصلية بين الناس . واعتقد المزدكيون ان تطهير العالم الذي سببه

اليه المانويون لم يكن كاملاً . فبالاضافة الى تطهير الفرد يجب تطهير النظام الاجتماعي .
وقالوا ان الشر حصل ليس بسبب اهريمان وانما بسبب الصدف ويجب ازالة سببه
المباشر وهو عدم التساوي في الثروة الذي هو نتيجة الصدفة . ومن عدم المساواة
اتت خمسة امور هي الحسد والحقد والانتقام والحاجة والطمع . وحجتهم في المساواة
ان الله وضع وسائل المعيشة كلها لجميع الناس ولذلك يجب ان تكون هذه الوسائل
من ارض وماء ونار ومراع وغيرهـا مشتركة .

وكان السبب الاساسي لهـذه التعاليم حالة الفلاح والمجاعة . وأراد قباذ
الاول تخفيف الضرائب والقيام بالاصلاح ففقد عرشه في ٤٩٨ بتآمر المجوس
والنبلاء ويقول البعض انه ساعد مزدك في اول الامر . وقام الفلاحون واستولوا
على المواشي والاراضي والنساء وجعلوا القرى مشتركة . وقال مزدك ان النزاع
هو نزاع بين الظلمة والنور . وبينما كان قباذ هارباً تنازع المجوسيون والمزدكيون
لوضع مرشحين على العرش . وعاد قباذ في عام ٥٠١ وقضى على الثورة وقتـل
زعماءها ومنهم مزدك . ولما اعتلى العرش كسرى انوشروان كانت المجوسية قد
سيطرت من جديد .

الفن الساساني : لم يترك الفن الاخميني القديم آثاراً كثيرة ، فهنالك قصور
فسرجادي وبرسبوليس . والفن الاخميني فن ملكي يمجد الملك ومؤسس على اشكال
آشورية وجدران القصور من الآجر ، والحجر يستعمل لاجل الاسس والابواب
والزوايا والاعمدة . والعامود الفارسي نحيف ومضلع ، وتاج العامود مستطيل وفيه
عناصر زخرفية واشكال أزهار وثيران راكعة . وفي قصر داريوس الاول في
برسبوليس قاعة عظيمة سقفها الخشبي يستند على أعمدة كثيرة وفيه درج اثري
مزدوج ونحت بارز بمهارة فائقة يمثل الحرس الملكي وغيره . فالعناصر الزخرفية هي
شخصيات ملكية واسود وثيران وجنيون . وفي عصر زركسيس (احشويرش)
يظهر الاثر اليوناني في دقة استعمال الزخارف واستعمال الالوان بخفة وحرية . وهذه

النزعة تستمر في الفترة الهلنستية والفرتية . ويصف بعض الفنانين الفن الاخميني كفن آشوري هادىء ليس فيه حركة وتنوع كفن الآشوريين في عهد اسرة سرجون .

والفن الساساني له اهمية تاريخية لانه يشكل الاتصال بين الفن الآشوري الاخميني والفن الاسلامي . وقد جمعت في الفن الساساني احسن عناصر التقاليد الفنية من بلاد البحر المتوسط ومن الهند سوية . والعمارة الساسانية تبرز بعنصر جديد وهو القنطرة التي ظهرت في العهد الفرتي ومنذ ذاك الوقت يشيع استعمالها . ونجد في أول قصر ساساني وهو قصر اردشير الاول في فيروزاباد ايواناً في وسط الواجهة بينما تغطي الغرف سقوف محدبة . ومن أهم البقايا الساسانية طاق كسرى في المدائن التي تعرف ايضاً باسم طسيفون Ctesiphon وقد بنى الطاق او الايوان الذي هو اهم مايميزه شابور الاول . ويبلغ ارتفاع الايوان ٣٠ متراً وعرضه ٢٥ متراً وعلى واجهة القصر في الجدران المحيطة بالايوان اقواس تعلو بعضها بعضاً ومحاريب واعمدة صغيرة حسب الاسلوب السوري المجاور . وقصر شيرين على الحدود الحالية بين العراق وايران في الكردستان بناء كبير طوله ربع ميل من ايام كسرى الثاني (٥٩٠ — ٦٢٨) وقد سمي باسم خليلة الملك . وهو مؤلف من قسمين يحوي الواحد قاعة استقبال عظيمة وأما الآخر فهو مبني على سطح يستند على قناطر ويصعد اليه بدرج ويحوي قاعة العرش ويشبه برسبوليس . وحوله حديقة كبيرة تشبه بترتيبها حدائق القصور الصفوية فيما بعد . ومواد البناء ليست قوية مؤلفة من قطع حجار وآجر مكسوة بالجص . وكان الملوك يبنون قصوراً كثيرة ولا يقيمون في قصور اسلافهم . والعناصر المهمة هي الزخارف الملونة والآجر المحلى بالمينا . وقسم كبير من الرسوم الملونة وزخارف النحت قد زال .

ونجد في نقش رستم قرب برسبوليس في فارس اعمال الحفر في الصخر من ايام شابور الاول . ومن المواضيع المهمة فيها الاله اورمزدا يمنح السلطة الملك . فهناك الملك اردشير الاول يركب فرساً وامامه الآله ايضاً على فرس يعطيه التاج وتظهر

الملكية من اصل آلهي . وهنا نرى عنصراً من الفن الآشوري الاخميني في شكل الملك ولحيته وشعره المرتب بطبقات ولكن مظهر التثاقل في شكل الخيل يرينا انحطاطاً عن الفن الفارسي في عصر داريوس. ومما نشاهده ايضاً منظراً الامبراطور الروماني فاليريان يخضع راكعاً لملك الفرس شابور الاول ، ويرجع الحادث الى وقوع فاليريان في الاسر عام ٢٥٩ بيد الساسانيين . وفي موقع يسمى شابور نرى انتصار بهرام الثاني على قبيلة غالباً عربية حيث نرى الابل والاشخاص مرسومين بشكل متقن . وفي نقش رستم مناظر قتال الفرسان حيث الملك يقتل فارساً رومانياً برمحه . وفي طاق بستان شمال شرقي كرمنشاه نرى الحركة في النقوش ونشاهد مناظر الصيد التي نقشها كسرى الثاني . وبجانب الصيد نرى مشاهد موسيقية بين والملك يطلق السهام ويقتل الخنازير البرية او يصيد الغزلان وقد اكتشفت حديثاً معابد النار وهي عبارة عن غرفة مربعة ذات قبة واربعة ابواب واحد في كل جانب وينتقل هذا الاسلوب الى العصر الاسلامي باسم شهرطاق اي القناطر الاربعة .

ونرى مظاهر الفن التي تحوي صور الحيوانات ومشاهد الحرب في القطع المعدنية وأهمها الصحون . وفي احدها مناظر صيد الاسد في عهد بهرام جور (٤٢٠-٤٣٨) وهو في المتحف البريطاني . وفي صحن آخر موجود في المكتبة الاهلية بباريس مشهد صيد يظهر فيه كسرى الثاني . وفي هذه القطع المعدنية مشاهد مؤثرة كما في مشاهد الصيد في عهد الامبراطورية الآشورية حيث نرى الاسود تهاجم او الملك يرمي الحيوانات بسهامه وهو يسرع ممتطياً جواده. وهنالك خزف ساساني يرينا أشخاصاً يعبدون النار كما ان الالواح الجدارية المدهونة ترينا تطور الرسم . ومنها نماذج في « باميان » في بلاد الافغان تختلط فيها العناصر الساسانية مع البوذية والهلنستية . وفي « باميان » نجد نماذج في الرسم تشبه نماذج « قيزل » في تركستان الصينية مما يدل ان الرسم في آسية الوسطى بين القرن السابع والتاسع من وحي ساساني او انه مدرسة اجنبية للفن الساساني . وقد وجد اورل شتاين في منطقة كاشغار لوحة من القرن الثامن تمثل آلهة بوذية بملامح ملك ساساني على شكل بهرام او كسرى .

وهكذا فقد استمر اثر الفن الساساني خارج ايران بعد ان اصبحت هذه تحت حكم المسلمين .

ومع ذلك فالفن الساساني محاط بتأثيرات كلاسيكية منها الاثر الروماني في نقش رستم وفي النقود الاولى ، واثر يوناني بوذي في منطقة باميان . وهنالك احتكاك بين الفن الساساني والفن الهندي الوطني من عصر الغوبتا يتضح في لوحات « دوختار انو شروان » في افغانستان وكذلك في رسم الحيوانات . ومن العصر الساساني أتت رسوم على الاقمشة موجودة في متاحف اوربا وعليها مناظر حيوانات وطيور وجنيين وقد اثرت على فن آسية الوسطى . وهنالك فنون النسيج وخاصة السجاد الذي ربما بدأت صناعته في آسية الوسطى . وعناصر الزخرف مأخوذة من عالم الحيوان والنبات ومن الهندسة . والساسانيون اخذوا فن رسم الحيوان عن الآشوريين وغيرهم وجعلوه ارقى بتأثيرات يونانية . واصبح الحيوان في حالة الحركة نموذجا في كل آسية ماعدا الهند. وقددخلت المواضيع الحيوانية في الاقمشة والادوات البرونزية الاسلامية في مصر وفارس . والفن الاسلامي يمكن فهمه اكثر اذا لاحظنا دور الفن الساساني في آسية من حيث تمثيل الحيوانات والزخارف الهندسية.

والايرانيون لم يصوروا حياة زردشت في الفن كما فعل البوذيون والمسيحيون بتصوير حياة بوذا والمسيح ولم يظهر عندهم فن تحت ديني . والعناصر الوحيدة في الفن الايراني الديني ترمز الى السماء . والمانويون وضعوا صوراً صغيرة وزخرفوا المخطوطات .

اهمية الحضارة الايرانية القديمة : كانت الامبراطورية الايرانية تشكل ارتباطا بين عالم الشرق والغرب . في العصر الاخميني كانت العلاقات قائمة بين الهند والبحر المتوسط وبلاد العالم القديم عموماً عن طريق الامبراطورية الفارسية الواسعة واستمرت هذه الصلة في زمن المكدونيين والفرتيين كما ان ايران اتصلت ايضاً بالصين . وتوطدت الصلات هذه في عهد الساسانيين . ومع ان ايران كانت وسيطة

بين الشرق والغرب الا انها حافظت على استقلالها الثقافي . فالايرانيون لم يصبحوا يونانيين ولا هنوداً . وكان في الافكار الزردشتية حيوية كما ان الفن الايراني أظهر ميزات الطبيعة الايرانية واحتفظ بشخصيته ولكن الاساليب الاخرى زادت في ثروته . ولما وقعت ايران تحت حكم العرب تهدمت ديانة زردشت ولكن بعض عناصرها دخلت الديانات التوحيدية ومن هذه العناصر النزاع الاخلاقي في الحياة البشرية . والفرس لم يفقدوا حضارتهم بل اصبحوا معلمي الشعوب التي حكمتهم في نواحي الادب والفن والفلسفة . وانتشرت حضارتهم في الصين واواسط آسية ووصلت اوربا من جهة اخرى . وكان يتكلم الفارسية في غربي آسية واواسطها التجار والحجاج والمسافرون . واقتبس الصينيون بعض عناصر المشاهد الفارسية لفنونهم كما ان الفرسان الصينيين وفرسان التيوتون اتخذوا اشعرة نبلاء الفرس .

❀❀❀

الفصل الحادي عشر

حضارة ايران الاسلامية

السلالات الايرانية الاسلامية وحضارتها : استولى العرب المسلمون على ايران بعد ان قضوا على الدولة الساسانية وانتصروا في معركة القادسية قرب الحيرة عام ٦٣٧ ثم احتلوا المدائن وانتصروا ثانية في جلولاء على حدود فارس . وتوجوا انتصارهم في معركة نهاوند (في موقع اقبتانا او همذان) عام ٦٤١ . وقاوم الفرس في بعض المناطق مدة طويلة حتى ان برسبوليس (موقع اصطخر) لم تسقط حتى عام ٦٤٩ واخيراً قتل يزدجرد الثالث من قبل احد اتباعه في ٦٥١ وانتهت الدولة الساسانية . وانضوت العناصر السامية والعربية في ما بين النهرين بسهولة تحت حكم العرب وكانت تكره الفرس المجوسيين . غير ان قلب ايران لم يخضع بصورة دائمة ولم يفقد كيانه . واللغة الفارسية لم تمت بالرغم من ان اللغة العربية كانت اللغة الرسمية لمدة ثلاثة قرون ، وكان لايران ما ضيها الثقافي والسياسي والعسكري فضلاً عن اختلاف عنصرها ولغتها بالنسبة للعرب .

واتسعت فتوح المسلمين حتى خراسان وفي عام ٦٥٢ وصل المسلمون خوارزم. وفي خلافة الوليد بن عبد الملك في مطلع القرن الثامن فتح قتيبة بن مسلم بلخ (باكترا) وبخارى وسمرقند في بلاد الصغد ثم فرغانة على حدود المناطق المغولية . وبنى في بخارى مسجداً على انقاض معبد للنار . وبقيت هذه المناطق خاضعة لحكم

العرب المسلمين اكثر من قرن ولكن صعوبة المواصلات جعلت الرقابة ضعيفة على المناطق البعيـدة . ومع ذلك فقد احدث الاسلام تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية في هذه المناطق . ووجدت الافكار القديمة المتعلقة بالسلطة الالهية والحكم المطلق امامها الروح الديمقراطية والدولية للديانة الجديدة. على ان حضارة الايرانيين العريقة وتعلق سكان ايران بمؤسساتهم يطبعان ايران الاسلامية بطابع ثقافي وفني خاص .

ومنذ القرن التاسع والعاشر تصبح ايران مستقلة سياسياً مع بقائها تابعـة للخلافة العباسية في بغداد من وجهة دينية . وتتوالى السلالات المستقلة في ايران بعضها من اصل ايراني وبعضها من اصل تركي ولكن جميـع هذه السلالات تتبع التقاليد الايرانية الوطنية حتى عندما تصبح السيادة للاتراك في القرن الحادي عشر.
في عام ٨٢٠ يصبح حاكم خراسان الفارسي طاهر بن الحسين مستقلاً ويؤسس الدولة الطاهرية التي تدوم حتى ٨٧٢ وعاصمتها مرو ثم نيسابور . وتحل محل هذه الاسرة الطاهرية اسرة فارسية اخرى من اصل عامي من منطقـة سجستان وهي الصفارية وتدوم من ٨٦٧ حتى ٩٠٨ . ويمتد حكم مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار من خراسان الى كرمان وفارس . ولكن الصفاريين لا ينجحون في احتلال بلاد ما وراء النهر حيث يقوم السامانيون .

ومؤسس الدولة السامانية (٨٧٤ - ٩٩٩) نصر بن احمد ولكن اخاه اسماعيل هو المؤسس الحقيقي وعاصمته بخارى في ما وراء النهر . وقد انتسب السامانيون الى الاسرة الساسانية . وفي عهد نصر الثاني (٩١٣ — ٩٤٣) شمل حكمهم خراسان وسجستان وما وراء النهر و كرمان وطبرستان . وارادت هذه الاسرة ان توجد صلة تاريخية بينها و بين ماضي البلاد . وفي عهدها يبدأ تاريخ الثقافـة الفارسية . وفي بلاطها في بخارى كما في بعض المدن الاخرى مثل سمرقند وبلخ ومرو ونيسابور بدأت تلك الحركة التي منها يأتي الادب الفارسي الكلاسيكي . ففي بلاط نصر الثاني عاش اول شاعر فارسي عظيم واسمه الرداقي (م ٩٥٤).وقام شاعر فارسي آخر من

طوس اسمه الدقيقي (م ٩٥٢) فوضع ملحمة لنوح الاول الساماني عن ماضي ايران وعن زردشت ودخلت عناصرها فيما بعد في شاهنامة الفردوسي . وبدأ الفردوسي (٩٣٢ — ١٠٢١) حياته في عهد السامانيين واصله من طوس مثل الدقيقي . وكانت منطقة ما وراء النهر السامانية مركز دراسات فلسفية واتى اليها جماعة من اشهر فلاسفة الاسلام . وابن سينا الذي ولد قرب بخارى في ٩٨٠ عطف عليه نوح الثاني الساماني واتم دراساته في مكتبة هذا الملك قبل ان يذهب الى بلاط البويهيين .

ويظهر في القرن العاشر حكام يسيطرون على ساحل الخزر في منطقه الديلم او طبرستان . ومؤسس الاسرة الحاكمة مردويج ابن زيار . ومن افراد هذه الاسرة قابوس الذي كان شاعراً ومؤلفاً ويقع قبره في جنوب شرقي الخزر وهو بشكل اسطواني عليه سطح مخروطي وله جدران سمكها نحو خمسة امتار .

ومنطقة الديلم هي موطن الاسرة البويهية . ومؤسس الاسرة الزيارية هو الذي جعل علي بن بويه حاكماً ولكن علياً واخوته حسن واحمد توسعوا في ايران الوسطى والغربية بينما كانت الاسرة السامانيـة تحكم في شرق ايران . وانتسب البويهيون الى الاسرة الساسانية . وفي عام ٩٤٥ دخل احمد المعروف بلقب معز الدولة بغداد وحصل على لقب امير الامراء واصبح البويهيون اصحاب السلطـة الفعلية في عاصمة الخلافة . واشهر افراد هذه الاسرة عضد الدولة (٩٤٩-٩٨٣) الذي وحد ممتلكات آل بويه . وكان يشجع الادب والفن كالسامانيين معاصريه وشاد مبان كثيرة في بغداد وقام في فارس باشغال عامة منها بندامير او سد كور قرب شيراز . ثم حصل على لقب ملك الملوك (شاهنشاه) وهكذا بعث مظاهر الملكية الساسانية .

السلالات التركية في ايران واقتباس الحضارة الفارسية : في القرن الحادي عشر يحل الاتراك محل السلالات الايرانية في ايران . وقد اتى الاتراك من

آسية الوسطى واتجهوا نحو هضبة ايران بعد ان عبروا نهر سيحون . ودخلوا العالم الاسلامي منذ القرن التاسع بجنود مرتزقة كما دخل الجرمان الى الدولة الرومانية. وكانت السلالة الغزنوية (٩٦٢—١١٨٦) اول سلالة تركية وقد دخل افرادها بالاصل كمرتزقة في خدمة السامانيين . ثم اختلفوا مع اسيادهم ووطدوا حكمهم في غزنة (في افغانستان) . وكان اول حكامهم البتكين الذي كان عبداً عند اسماعيل الساماني ثم اصبح حاكم خراسان واخيراً صـــار ملك غزنة . ومن ملوك غزنة سبكتكين (٩٧٦ — ٩٩٧) والد محمود الغزنوي . وقد قضى محمود غزنوي (٩٩٩ — ١٠٣٠) على الدولتين السامانية والزيارية وطرد البويهيين من غربي ايران وامتد حكمه شرقاً الى البنجاب التي انتزعها من امراء الهند . وهو اول امير تركي اتخذ لقب سلطان . ومع تخريبه للمدن وشدته في الحكم كان يحمي الشعراء والعلماء حباً في الشهرة . ومن مشاهير عصره الشاعر «المنصري» والعـالم المؤرخ البيروني . وكان يهتم بالثقافة الفارسية وفي بلاطه عاش اشهر شعراء العصر وهو الفردوسي الذي اهداه ملحمة الشاهنامة في ٦٠٠٠٠ بيت من الشعر ثم تركه غاضباً . ومما يجدر ملاحظته ان هذه الملحمة الفارسية الوطنية وضعت في عهد سلالة تركية وهذا يشهد بدوام الحضارة الفارسية بالرغم من التقلبات السياسية . واتى السلطان محمود بثروة ضخمة من حروبه في الهند وبنى جامعاً في غزنة من المرمر والرخام في عام ١٠١٨ وبجانبه جامعة ومكتبة . وبنى له ابنه مسعود ضريحاً وبقي اسمه مهاباً ، وتشاهد في شمال غزنة مأذنتان بشكل ابراج نصر فيها قرميد مزخرف وارتفاع كل منها نحو خمسين متراً نقش على الواحدة اسم السلطان محمود وعلى الاخرى اسم مسعود .

وفي عام ١٠٤٠ تأتي اسرة تركية اخرى وهي الاسرة السلجوقية (١٠٤٠-١١٩٤) وتطرد الغزنويين من شرقي ايران . وكان محمود غزنوي قد اعطى السلاجقة ارضاً قرب بخارى ثم في خراسان . وقام طغرل بك يقود السلاجقة ليسحق الغزنويين كما انه قضى على حكم البويهيين في بغداد وغربي ايران عام ١٠٥٥ . واعطاه الخليفـة

لقب سلطان ، وتسمى كذلك ملك الملوك وجعل عاصمته الري (موقع طهران).
ونجح السلاجقة في توحيد الممالك الصغيرة في ايران . وفي عهد السلطان الثاني الب ارسلان (١٠٦٣ – ١٠٧٢) سحق السلاجقة الجيش البيزنطي في ملاز كرد عام ١٠٧١ في الاناضول . ووصلت الدولة السلجوقية اوجها في عهد جلال الدين ملكشاه واصبحت تضم ايران كلها وبلاد الرافدين وسورية والاناضول . على ان الثقافة الفارسية لم تتراجع بفوز السلاجقة بل اصبح السلاجقة يدافعون عن الحضارة العربية الفارسية بعد ان اقتبسوها . واصبح اولئك الاتراك الخشنون الاميون يشجعون الثقافة والفن ويضعون الفرس في اعلى مناصب الدولة .

وكانت حكومة ملكشاه المستنيرة يديرها رجل ايراني يدعى نظام الملك . وكان نظام الملك يلقب ايضاً قوام لدين . وقد حافظ على المؤسسات الايرانية وفرض حضارة الايرانيين على السلاجقة ووضع كتاب السياسة نامة وحمى الكتاب والشعراء مثل الغزالي الفيلسوف وعمر الخيام الرياضي الشاعر . وهو الذي اوجد المدرسة النظامية في بغداد ومدارس اخرى بنفس الاسم وكان لهذه المدارس اثر كبير في الادب . وكذلك اوجد المرصد الفلكي الذي قام فيه عمر الخيام بعمل حسابات فلكية لاجل تقويم جديد ، كما انه زخرف العاصمة اصفهان . وقاومه جماعة الاسماعيلية وعلى رأسهم عمر الصباح واثاروا الاضطرابات من حصونهم في ايران وغيرها وفي النهاية قتلوه .

انقسمت دولة السلاجقة بعد وفاة ملكشاه في ١٠٩٢ الى اقسام اهمها سلاجقة فارس وسلاجقة آسية الصغرى . وكانت سلطنة فارس في يد ابناء ملكشاه ومن اشهرهم سنقر (١١١٧ – ١١٥٧) الذي قضى حياته يحارب في ماوراء النهر ضد غزوات تركية مغولية جديدة منها غزوات القره خيطاي الذين اتوا من الصين واحتلوا ماوراء النهر ، وغزوات قبائل الغوز الذين اسروه مدة سنتين .

وانتهت سلالة سلاجقة ايران في عام ١١٩٤ بعد ان كسرتهم سلالة تركية

اسلامية اخرى هي سلالة شاه خوارزم وحضارتها ايضاً مقتبسة من الفارسية. ومؤسسها اطسيز كان يحكم خوارزم في العهد السلجوقي، وحفيده السلطان علاء الدين محمد حكم حتى مجيء المغول. فالسلالة الخوارزمية (١١٩٤ — ١٢٢٠) سادت ايران وتابعت عمل السلاجقة في تبني الحضارة الفارسية. اما سلالة سلاجقة آسية الصغرى فقد دامت من ١٠٧٧ حتى ١٣٠٢ ومركزها قونية. وقد ازالت هذه السلالة الصبغة الهلينية عن الاناضول وجعلت من هذه البلاد البيزنطية بلاداً تركية. ومن جهة فنية ادبية خضعت تركيا الجديدة هذه (اي الاناضول) للتأثيرات الايرانية. فالحضارة الايرانية كانت سائدة في بلاط قونية وتشهد بذلك اسماء السلاطين نفسها مثل كيخسرو وكيقباد، كما تشهد ايضاً قصة الشاعر الفارسي الصوفي جلال الدين الرومي (١٢٠٧ — ١٢٧٣) الذي اتت عائلته من ايران الى قونية تحت رعاية السلاجقة واسس الطريقة المولوية.

الادب الفارسي بين القرن العاشر والثالث عشر : كان عصر السلالات التركية في ايران من اعظم عصور الادب والفن الايرانيين بالرغم من الاصل التركي للحكام الغزنويين والسلجوقيين والخوارزميين. وذكرى السلالة الغزنوية متصلة بالشاعر الفردوسي (٩٣٢ — ١٠٢١) الذي ولد في ضاحية طوس بخراسان ومات فيها. وبعدان قدم الشاهنامة لمحمود الغزنوي تركه وذهب الى بلاد البويهيين. والملحمة التي اعطاها الفردوسي شكلها النهائي كان قد جمعها عالم فارسي في آخر الحكم الساساني في مؤلف بهلوي مفقود يسمى الخداي نامة وهي المادة التي نقحها الفردوسي في الفارسية الحديثة. والشاهنامة تحوي حكايات خيالية وتاريخية وكانت مصدر وحي اشعراء الفرس ولمؤلفين غربيين منهم ماثيو آرنولد الذي روى احدى احدى قصصها في « زهراب ورستم ». وقد اخرجت نسخ كثيرة من الشاهنامة وزخرفت بعض هذه النسخ بالرسوم. واللغة التي كتبت بها يمكن فهمها اليوم بسهولة لانها لم تتغير. وقد تليت هذه الاشعار حتى ان الوفاً من غير المتعلمين يروون مقاطع منها.

تذكر الشاهنامة سلالتين خرافيتين وسلالتين تاريخيتين (الفرتية والساسانية) في ايران . وتبدأ الملحمة بقصة « جايومارت » اول رجل في الكون ومؤسس الاسرة البشدادية التي من ملوكها جمشيد واسلافه مخترعو الفنون ومؤسسو المدنية . ثم تأتي قصة ايراج وطور ابناء جمشيد ونزاعهما يمثل نزاع الفرس والطورانيين . وتذكر الملحمة البطل رستم وهو هركول ايران الذي يجلس على العرش السلالة الثانية القيانية وتقابل سلالة الاخميذيين التاريخية ولكن شخصياتها خرافية (مثل قيقباد واسفنديار) . ويحارب رستم الطورانيين كما يحارب ابنه زهراب المولود من امرأة طورانية ، وله مغامرات كثيرة وسجل في حوادث البطولة ثم تتكلم الملحمة عن الاسكندر وتجعله اميراً اخمينياً وامه مكدونية . واهم ماتتناوله الملحمة ملوك الساسانيين .

وقد كتب كثيرون من ادباء هذا العصر باللغة العربية التي استهوت مفكري الفرس وكانت الابجدية العربية انسب من البهلوية . ورجال العلم من الفرس عرفوا العربية والفارسية ودخلت كلمات عربية كثيرة الى لغتهم كما ان الحروف العربية استعملت لكتابتها . ومن جهة اخرى فان الثقافة الفارسية اثرت على الذين تكلموا العربية . ويمتاز العصر السلجوقي بعدد كبير من الشعراء والفلاسفة والعلماء منهم الفيلسوف الغزالي حجة الاسلام (١٠٥٨ — ١١١٢) الذي كتب بالعربية واصله من طوس ودرس في نيسابور وعلم في المدرسة النظامية في بغداد ثم انقطع للتعليم والدراسة ومات في طوس . وكان في اول الامر يدرس مؤلفات الفلاسفة من تلاميذ ابن سينا الذين ورثوا مذهب ارسطو . ثم رأى عبث الانظمة الفكرية لان دراسة الفلاسفة اليونان اظهرت له ان الانظمة تهدم بعضها بعضاً وعاد الى الاختبار الديني والى الصوفية الاسلامية واثر على الفكر الفارسي وعلى الصوفية ، ومكانته في تاريخ الفكر العربي تحتاج الى بحث خاص .

وكان يعاصر الغزالي عمر الخيام (١٠٤٠ ؟ — ١١٢٣) المولود في نيسابور . وكان شاعراً وفيلسوفاً وفلكياً ، وفكره التصوفي كان مصطبغاً بالشك . وقداهتم

بادارة مرصد مرو وكان يعطف عليه نظام الملك ولما توفي عاد الى نيسابور حيث توفي . وكان معتزلاً عن حلقة المفكرين وادى به الامر الى الشك الديني والشك الفلسفي . وشعره كما يبدو في الرباعيات قوي وحساس وابياته الحرية تخفي ألماً وشعوراً انسانياً عميقاً . وقد أدت أبحاثه الفلكية الى وضع تقويم يسمى « التأريخ الجلالي » نسبة الى جلال الدين ملكشاه السلجوقي .

ثم هنالك الشعراء الاربعة نظامي والعطار وسعدي وجلال الدين الرومي . والشاعر نظامي (م ١٢٠١) اصله من منطقة قوم ومؤلفاته تعرف « بالخمسة » وكان يطرق المواضيع الابداعية الخيالية في الشعر العربي والفارسي . ومن قصائده المشهورة « ليلى ومجنون » وخسرو وشيرين وفي هذه يذكر شيرين الجميلة التي احبها كسرى برويز وبنفس الوقت احبها البناء فرهاد الذي انتحر عندما ظن انها ماتت . واما الشاعر الصوفي فريد الدين العطار الذي ولد في نيسابور وتوفي في ١٢٣٠ فان شعره الصوفي يحوي صوراً بديعة في « لغة الطيور » التي تمثل الارواح تبحث عن الله وحيث النتيجة هي الفناء الصوفي في الله .

وفي هذه الفترة عاش سعدي أعظم شعراء الفرس . وقد ولد في شيراز نحو عام ١١٨٤ وتوفي فيها نحو ١٢٨٢ في العصر المغولي . وقد بدأ دراسته في المدرسة النظامية في بغداد وتجول كثيراً في غربي آسية وأهم مؤلفاته البستان والجولستان (حديقة الورود) . والجولستان يحوي نوادر كتبت نثراً مع بعض الاشعار واما البستان فكله شعر ويدور حول مواضيع العدل والمساواة والتواضع والتربية والعبادة . والصوفية تعطيه مواضيع هامة وهو يبشر بالاعتدال كفضيلة انسانية فهو شاعر اخلاقي انساني فيه حيوية واخلاص وهو من انبل شخصيات الهومانزم (الانسانية) الفارسي وشعره ونثره مملوءان بالصور والحكم والعاطفة حيث يقول مثلا « لاتعذب النملة التي تحمل حبة قمحها لانها تعيش والحياة هي شيء حلو » .

وجلال الدين الرومي (١٢٠٧ — ١٢٧٣) هو اعظم الشعراء الصوفيين وقد توفي أيضاً في العصر المغولي واصله من بلخ . وفي ١٢٢٦ سكنت اسرته قونية

عاصمة سلاجقة الاناضول فعطفوا عليه وهناك اسس الطريقة المولوية . وقبره في قونية . ومؤلفه المشهور « المثنوي » وهو كتاب اساسي في الصوفية وفيه اصرار على الحقائق الاخلاقية والصوفية ويذكر فيه ان الشخص البشري يختفي في فكرة الحب الشديد لله فيندمج في ذات الله وهذا بشكل اشتراكاً مع الطبيعة على الطريقة الهندية .

وفي هذا العصر عاش الرحالة الفارسي ناصري خسرو (م ١٠٧٤) وكان شاعراً ومن دعاة الاسماعيلية وقد ترك كتاباً عن اسفاره يسمى «السفر نامة» وزار مصر الفاطمية عام ١٠٤٦ وترك وصفاً مفصلاً لها .

الفن الايراني بين القرن العاشر والثالث عشر : بدأت ايران بوضع اسلوبها الخاص في الفن الاسلامي بعد القرن السابع . وبنيت آلاف المباني في اول العصر الاسلامي وكانت المباني الساسانية القديمة تعطي نماذج واشكالاً للابنية الجديدة . ومن الابنية التي بقيت مسجد طريق خانة في دمغان من القرن التاسع ومسجدي جامع في تبريز من القرن العاشر . وهنالك قبر سنقر السلجوقي في مرو وهو مربع طول ضلعه ٢٥ متراً وسمك جدرانه ستة امتار وفوقه قبة . وجوامع هذا العصر عبارة عن صحن حوله اروقة معمدة وايوان على كل جانب من الصحن وقاعات على جانبي الايوان . كذلك استعملوا القاعات المربعة ذات القبة لاجل القبور والمزارات كما في جامع الحيدرية في قزوين . واكبر جوامع هذا العصر مسجد اصفهان وضمنه قاعتان لها قباب بناهما نظام الملك ومنافسه تاج الدين في ١٠٨٨ . ومن اهم القبور ذات القباب قبر طغرل بك في الري . ومن عناصر الزخرف قطع من القاشاني المتشابك باشكال هندسية ومحاريب محفورة في الجص وافاريز عليها كتابة . وانتجت مصانع الري وقاشان خزفاً له بريق وآجراً للبناء وخزفاً ملوناً . وهنالك آجر عليه حفر برسوم حيوانية وكذلك قطع عليها مشاهد من الشاهنامة وجماعات في حدائق ومشاهد صيد . كذلك صنعوا نسيج القطن والحرير والصوف وعايه

احياناً كتابات ورسوم كما صنعوا الادوات المعدنية ومنها المباخر واباريق النحاس والشمعدانات والصواني والاواني الفضية التي نراها في المتاحف وفي المجموعات الخاصة.

في القرنين الثاني عشر والثالث عشر يصل فن الزخرفة على الخزف البراق بالرسم او الحفر ذروته . والاشكال المرسومة تشكل مشاهد هامة منها ما يتعلق بالملوك من مقابلات وحفلات صيد ومآدب ومعظمها من الري ، وهنالك مشاهد حيوانات كالاسود والخيل والغزلان على الاقداح والاواني والمخطوطات . وكثير من هذه الرسوم ترجع الى تقاليد ايرانية وجد بعضها على المخطوطات المانوية لاجل تفسيرها وكوسيلة للدعاية ومنها ما وجد في امبراطورية الاويغور التركية في طرفان التي كانت ديانتها مانوية (في التركستان الصينية) . وفي الزخارف عناصر نباتية واشكال بشرية . ويوجد شبه بين هذه النماذج وبين اللوحات المزخرفة في سامراء وفي بعض الزخارف البوذية قرب خوتان . ومن اهم رسامي هذا العصر عبد الله بن فضل في نحو عام ١٢٢٢ الذي زخرف كتاب الصيدلة لديسقوريدس ، وذلك الرسام المجهول الذي زخرف مقامات الحريري ، ويحيى بن محمود الواسطي الذي زخرف مخطوطاً آخر للمقامات . وتشاهد في زخارف المقامات جماعات فيها تعبير قوي وبحث عن الشخصية . وهنالك واقعية في مواكب الأعراس او القوافل أو حملة الاعلام. على ان الرسم الاسلامي يصل اوجه في العصر المغولي والتيموري .

العصر المغولي الايلخاني في ايران وحضارته : يرجع تأسيس الدولة المغولية في آسية الى جنكيز خان (١١٥٥—١٢٢٧) واسمه المغولي تيموتشين واصله غامض. والمعروف عنه انه جمع القبائل المغولية الرحل وهاجم الصين ثم ارتد غرباً في عام ١٢١٩ على رأس ٧٠٠٠٠٠ رجل كما يقال واوفد الرسل الى السلطان محمد الخوارزمي الذي لم يهتم بهم واحتقرهم فكانت النتيجة زوال مملكته . ثم تناولت قوات جنكيز خان سائر المدن مثل بخارى ونيسابور وذبحت عدداً لا يحصى من الناس واجتاحت ايران وهناك توفي جنكيز في ١٢٢٧ . وحاول جلال الدين

منقبرتي اعادة مملكة الخوارزمية التي كانت تحكم ايران ونجح لمدة وجيزة ولكن غزوة مغولية اخرى في عام ١٢٣١ قضت على محاولته .

وغزا المغول بعد وفاة جنكيز شمال غربي ايران والعراق وفي عام ١٢٥٦ قام هولاكو بتهديم سلطة الحشاشين ، وفي ١٢٥٨ دخل بغداد بعد حصار شهر فذبح الناس واحرق القصور والمساجد وقتل آخر خليفة عباسي . غير ان المماليك كسروه في عين جالوت في فلسطين فكانت هذه الموقعة اول توقف لزحف المغول. وانسحب هولاكو بعد ذلك الى مراغة في شمال غربي ايران حيث استقر المغول. ومنذ عام ١٢٢٧ (اي وفاة جنكيز) كان احد ابناء جنكيز واسمه شغتاي قد اسس مملكة في تركستان الشرقية وماوراء النهر ، بينما اتخذ هولاكو لقب ايلخان وعرفت سلالته ودولته بالايلخانية (١٢٥٦—١٣٣٥) ومركزها ايران . ومعنى ايلخان « سيد القبيلة » بمعنى انه كان اميراً تابعاً للخاقان اي خان المغول الاكبر الذي كان في منغوليا ثم في بكين .

عندما استقر المغول في ايران تعرضوا لعادات وعقائد دينية وملابس غير مألوفة . وعملت قوة التقاليد في الحضارة الايرانية على تغيير اخلاق المغول . وبقي الحكم اقطاعياً وعُين الفرس في اعلى المناصب الادارية واصبح الحكام الايلخانيون مشجعي الادب والفن .

توفي هولاكو في ١٢٦٥ وورثه ابنه اباقة ودام حكمه حتى ١٢٨٢ . وارسل بعثات الى ملوك اوربا والى البابا يقترح تحالفاً للشرق مع الغرب ضد المماليك . غير ان اوربا لم تظهر اهتماماً . وبعد فترة سنتين من وفاة اباقة اتى ابنه ارغون (١٢٨٤— ١٢٩٢) وفي عهده عومل النساطرة معاملة جيدة في شمال غربي ايران والعراق وبنى اسقفهم كنيسة مراغة . فالحكام الايلخانيون الثلاثة هولاكو واباقة وارغون كانوا بوذيين مع بعض الميل الى النسطورية . وبعد فترة وجيزة يبدأ حكم غازان (١٢٩٥—١٣٠٤) من احفاد هولاكو ويرافقه عهد ذهبي يدوم في عهد خليفته اولجايتو Oljaitu (١٣٠٤—١٣١٦) . واعتنق غازان الاسلام واصبح البلاط

في تبريز ايرانياً في حضارته مسلماً في دينه . واتصف حكم غازان بالتسامح الديني وباستقرار الامن والعدل وجمع القوانين . وكان الفرع المغولي الاكبر لايزال على الديانة البوذية في الصين وله علاقات مع ملوك ايران . وقد شجعت حكومة غازان العلاقات التجارية فكان للبندقية وجنوة مرسلون تجاريون ومستعمرات من التجار في مدينة تبريز . وحاول غازان فتح سورية ومصر ولكنه لم ينجح الا في فتح حلب وكسره المماليك قرب دمشق . وقبره بني في ضاحية تبريز وله اثنا عشر جانباً وتعلوه قبة وحوله حدائق ومبان كثيرة من مكتبة ومرصد وقصر ومستشفى . وآثار قبره باقية حتى اليوم .

كان لغازان وزير مشهور اسمه رشيد الدين (توفي ١٣١٨) . وكان طبيباً فارسياً ثم اصبح مؤرخ البلاط ورئيس ادارته . وكتب تاريخاً عاماً اعطى فيه اهمية للمغول وممالكهم . وقد استخدم التواريخ المغولية فيما يخص المغول كما ساعده احد الهنود لاجل تاريخ الهند ، وبعض الصينيين لاجل المواد عن الصين . وكتب الاخبار عن اوربا فكانت معرفته عنها اكثر بكثير من معرفة اوربا عن آسية . وفي عام ١٣١٠ انتهى تاريخه فارسلت منه نسخ الى المكاتب وكانت توضع منه نسخ في كل سنة وبلغات مختلفة . واوجد الوزير رشيد الدين حياً باسمه خارج تبريز لتشجيع العلوم والفنون وتقاطر اليه طلاب العلم وعلماء الدين والقانون ورجال الفن والحرف . واشتغل رساموا المخطوطات في تجميل مخطوط تاريخ رشيد الدين . وكثير من الرسوم اتبعت اسلوب مدرسة بغداد في القرن الثالث عشر ولكن روح البلاط كان لها اثرها في صور الحكام ونسائهم حيث نرى البسة الرأس صينية وكذلك نشاهد أثر الصين في الاشجار والازهار .

حكم اولجايتو بعد وفاة اخيه غازان واعتنق الاسلام واصبح اسمه محمد خدابنده وكان له ولع خاص بدراسة الفرق الاسلامية . وفي عام ١٣٠٦ امر ببناء السلطانية قرب قزوين فاصبحت العاصمة الايلخانية في ايران مكان تبريز . وأصبح الحاكم الايلخاني ووزيره رشيد الدين والوزير الآخر تاج الدين علي شاه يتنافسون في

البنـاء والعمران وكذلك رجال البلاط . وبنيت الاسوار لمدينة السلطانية كما بني ضريح للحاكم (او لجايتو) يعتبر من أجمل مباني ايران وهو مثمن الاضلاع وفوق جدرانه ثمان مآذن حول القبة التي يكسوها الآجر الازرق البراق ، وارتفاع هذه القبة ١٧٠ قدماً . وقد تم بنـاء المدينة في عام ١٣١٣ . واشتهرت اسواق المدينة ببضائعها المستوردة من مختلف البلاد ومن جملتها فيروز خراسان وتوابل الهنـد ولؤلؤ الخليج الفارسي ونسيج يزد وحرير سواحل الخزر وخيل بلاد العرب وأقمشة لمبارديا وألمانيا وفلندرة .

بعد وفاة اولجايتو (خدابنده) حكم ابنه ابو سعيد وكان في سن الثانية عشرة . وقد فقد الوزير رشيد الدين مكانته في عام ١٣١٨ بعد ان تآمر عليه منافسه الوزير تاج الدين وبدأت السلالة الايلخانية بالانحطاط لضعف الحاكم الصغير وأخذ النبلاء يستقلون تدريجياً وعندما توفي ابو سعيد في عام ١٣٣٥ انتهت الاسرة الايلخانية . وطمع كثيرون في العرش وتنازعوا بدون نتيجة وانقضى القرن الرابع عشر تحت حكم سلالات موقتة . وكانت قد قامت السلالة المظفرية في جنوبي ايران (١٣١٣ - ١٣٩٣) فانتشرت من كرمان الى اصفهان وفارس وغربي ايران . وكان اثنان من افرادها (احدهما الشاه منصور) اصدقاء الشاعر الايراني حافظ (١٣٢٠ - ١٣٨٩) . ومن سلالات هذه الفترة ايضاً السلالة الجلائرية التي حكمت بغداد (١٣٣٦ - ١٤١١) . وقد قضى تيمورلنك في نهاية القرن الرابع عشر على هـذه الممالك الواحدة بعد الاخرى وبدأ العصر التيموري .

كانت الفترة الممتدة من وفاة هولاكو حتى نهاية السلالة الايلخانية غنية بالانتاج الادبي وخاصة في كتابة المؤلفات التاريخية باللغة الفارسية . وكذلك كتب الايرانيون في الطب والفلك والعلوم الطبيعية . وظهر الجويني ووضع كتاب التاريخ وعنوانه « تاريخي جهان » في عام ١٢٦٠ ويحوي تاريخ جنكيز خان والخوارزمية والحشاشين وهو من اسرة موظفين ايرانيين وحكم بغداد وتوفي عام ١٢٨٣ . كذلك قام عبدالله بن فضل الله المعروف باسم واصف فتابع تاريخ الجويني حتى عصره وسمى كتابه

« تاريخي واصف » . ووضع رشيد الدين كتباً مختلفة عدا عن كتابه التاريخي .
وكتب عبد الله مستوفي القزويني (توفي ١٢٨٣) وأصله من الفرس بعض المؤلفات باللغة العربية منها « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » كما كتب شعراً تاريخياً بالفارسية سماه « الظفر نامة » او كتاب النصر .

وأهم شعراء هذا العصر جلال الدين الرومي (توفي ١٢٧٣) وسعدي (توفي نحو ١٢٩١) وقد جاء ذكرهما في العصر الماضي غير انهما عاشا حتى القسم الاول من عهد السلالة الايلخانية . وكان من كبار رجال العلم نصير الدين الطوسي (توفي ١٢٧٤) وكان في خدمة الحشاشين ثم أعجب به هولاكو وكلفه بادارة مرصد مراغة . وبجانب هذا المرصد كانت توجد مكتبة قيل ان عدد مجلداتها بلغ الاربعمائة الف مجلد . ووضعوا في المرصد ادوات مختلفة من اسطرلابات واشكال الكرة الارضية وغيرها . وكتب الطوسي شروحاً وتعليقات على كتب اقليدس وأفلاطون وأرسطو ، ووضع جداول فلكية سماها « الزيج الايلخاني » وأصبحت مشهورة حتى في الصين .

اما في نواحي الفن وخاصة البناء فقد هدم المغول الشيء الكثير في اول الامر ولم تبدأ حركة العمران الا بعد ظهور المغول في ايران بنحو ثلاثين سنة . وقد بنى هولاكو مرصد مراغة كما بنى ضريحه وابنية اخرى لم تبق منها سوى اسسها . وهنالك مبان كثيرة باقية من العصر المغولي الايلخاني واكثرها جوامع ومزارات وقبور وخانات . واسلوب البناء يتبع اسلوب العصر السلجوقي انما يكاد يزول استعمال الآجر كعنصر زخرفي بينما يزداد استعمال الجص والكلس وتوضع نماذج زخرفية كثيرة بهذه المادة ويعطونها الواناً كثيرة . وفي هذا العصر يبدأون باستعمال الفسيفساء من القاشاني التي تميز العصور التالية . ومن أعظم مباني الايلخانيين أضرحة غازان واولجايتو وجامع تبريز الذي بناه الوزير تاج الدين في اوائل القرن الرابع عشر وفيه صحن وبركة ومدرسة دينية ، وعرض قبلية الجامع مائة قدم .

وهنالك ضريح ابنة هولاكو في مراغة من عام ١٢٦٠ وهو برج مزدان بالآجر المنزل بالمينا .

ومن هذا العصر نشاهد قطعاً قاشانية خاصة بعد عام ١٢٤٢ وهذا يشهد باحياء صنع القاشاني في قاشان والري وغيرهما . وبعض القطع تزخرف داخل المباني وجدرانها . كذلك صنعوا الصحون الملونة البراقة والاباريق من القاشاني . والبريق يحصلون عليه باستعمال املاح معدنية وبوضع الاواني في النار ثانية . وفي الخزف تنوع اكثر في هذا العصر ويشتهر بتنزيله بالمينا وبوجود العناصر المدهونة على الخزف البراق .

اما الرسم فقد ترك آثاراً كثيرة خاصة في المخطوطات المصورة . فهنالك صفحات من كتب البيروني المزخرفة من هذا العصر وكذلك نسخ مصورة من شاهنامة الفردوسي مصنوعة في تبريز وبعض الرسوم من صنع شيراز وهراة . وهنالك صفحات من القرآن مزخرفة بمواضيع هندسية ونباتية صنعوها في همدان في عام ١٣١٣ بناء على طلب الحاكم اولجايتو . ونشاهد في الرسم تأثيراً صينياً ولكن هذا التأثير لا يسيطر على التقاليد الفارسية الوطنية . ومدرسة بغداد المعروفة في القرن الثالث عشر تتابع أثرها حتى في ماوراء النهر ونشاهد نموذجاً منها في مخطوط تاريخ رشيد الدين من عام ١٣١٠ زخرفة محمد بن محمود البغدادي . ومن زخارف هذه المدرسة مشهد يمثل حمزة والامام علي على الخيل ومشهد يمثل النبي يحاصر مدينة ونرى الاشخاص بملامح عربية . غير اننا نجد في مخطوط آخر مشاهد حسب الشكل الصيني ومعركة من المهابهراتا الهندية بشكل صيني مغولي . ونرى اندماج هذه التأثيرات كلها في مخطوط مصور للشاهنامة من ماوراء النهر وفي احدى صفحاته فارس في منطقة جبلية ، فالفرس من النوع الصغدي والفارس بملامح عربية فارسية . والى يمين هذا المشهد جماعة يظهرون بملامح صينية . وفي مخطوط رشيد الدين الموجود في المكتبة الاهلية بباريس تأثير صيني مغولي وهو من صنع تبريز . وفي احدى صفحات تاريخ

رشيد الدين نرى مشهد حصار هولاكو لبغداد وفيه اندماج العناصر الصينية بالعناصر الفارسية .

وقد صنع النسيج في هذا العصر الايلخاني في تبريز ونيسابور وهراة وقوم ويزد . وهنالك نحو ثلاثين قطعة من الحرير يظهر فيها التأثير الصيني وهي مبعثرة في مختلف المتاحف . وتستعمل بعضها الخيوط الذهبية والفضية وعلى بعضها نماذج زخرفية نباتية . ونجد اسم ابي سعيد على هذه القطع و كذلك على حوض نحاسي منزل بالفضة والذهب . وكان الحفر في الخشب معروفاً كما يتضح في بعض المنابر وابواب المساجد الباقية وفيها اما نماذج هندسية او أشكال نباتية .

العصر التيموري في ايران وحضارته : كانت الامور مضطربة في شرقي ايران ، وبعد ان اعطيت اراضي ماوراء النهر لشغتاي ابن جنكيز خان عادت المنطقة فانقسمت وحصلت حروب بين حكام القسمين الى ان ظهر تيمورلنك في عام ١٣٧٠ وكان في خدمة حاكم تركستان فساعده في قهر الدولة المنافسة . ولد تيمورلنك قرب سمرقند في ١٣٣٣ وهو من احفاد احد رؤساء القبائل التركية . وبعد ان استولى على ماوراء النهر اتجه غرباً وفتح خراسان وسجستان في ١٣٨٠ ثم فتح أزربجان وبلاد الكرج وغربي ايران وفارس . واخيراً اتجه نحو بغداد وانتزعها من الدولة الجلائرية في ١٣٩٣ وفتح سورية فسقطت في يده حلب ودمشق . وقد فتح قسماً من تركستان الروسية والهند ووصل مرسكو في ١٣٩٦ واحتل دلهي بعد سنتين ثم حارب الاتراك العثمانيين وقهر سلطانهم بيازيد في موقعة انقرة عام ١٤٠٢ . والدولة التي أسسها تيمور كانت تركية مغولية غير ان الحضارة الفارسية كان لها الدور الرئيسي فيها .

كان تيمور حسب قول مؤرخ معاصر طويل القامة كبير الرأس ابيض الشعر (ويقال ان شعره كان أبيض منذ ولادته) لايحب الهزل ويكره الكذب وكان يميل الى كتب التاريخ والحروب ويحب الاطباء والفلكيين .

وكان يتنقل في جنائنه حول سمرقند ويعيش في سرادقات وخيمات من الحرير.
كذلك كان يميل الى البناء والفنون ، واستخدم رجال الفن والحرف في سمرقند
وحمل معه منهم كثيرين من دمشق وبغداد وشيراز ودلهي لبزخرف عاصمته . وفي
سمرقند بنى لزوجته الاميرة الصينية « بيبي خانم » مدرسة دينية لها اربعة مآذن
وقبة وبنى ضريحه الذي لا يزال موجوداً . والضريح مثمن الاضلاع من الخارج
وفي داخله غرفة مربعة فيها محاريب وابواب ومزدانة بزخرف كثير. والجدران السفلى
من الرخام الالباستر وفوقها حاشية عليها نقش يروي اعماله وكذلك زخارف في
داخل القبة .

حصلت حروب بين افراد اسرة تيمورلنك بعد وفاته في ١٤٠٤ وحكم ابنه
شاهرخ هراة وخراسان وما وراء النهر بينما ابنه الثالث ميرانشاه حكم غربي ايران
وبغداد . وفي عام ١٤٠٨ تظهر قبيلة الحمل الاسود (قره‌قيونلو) وتستفيد من
الاضطراب فتستولي على اذربيجان ثم على بغداد بزعامة رئيسها قره يوسف وتحكم
ايضاً اصفهان . وفي عام ١٤٦٩ تحل محلها قبيلة الحمل الابيض (آق قيونلو) . اما
في الشرق فقد حكم شاهرخ بن تيمور في هراة حتى ١٤٤٧ وجعل هذه المدينة
المركز الفكري لجميع آسية الوسطى . وكان مثقفاً واسس مكتبة في هراة وكان
يحترم المعماريين والرسامين والشعراء والعلماء والموسيقيين وازدهرت البلاد
في عهده . وانتشرت الحركات الادبية والفنية غرباً بعد عصره وظهرت في اصفهان
في عهد الشاه عباس الصفوي .

كانت احدى زوجات شاهرخ واسمها « جوهرشاد » والدة ابنه اولوغ بك وقد
كانت على وفاق مع البناء قوام الدين الشيرازي فشادت عدة أبنية منها جامع جوهر
شاد في مدينة مشهد الذي انتهى في عام ١٤١٧ . واهم ما في زخارفه فسيفساء القاشاني
على الجدران بالوان مختلفة وبراقة . ثم بنت الملكة في هراة مبان كثيرة منها ضريحها
وكذلك مدرسة وجامعاً وجعلت مآذن على زوايا هذه الابنية .

حكم اولوغ بك بعد ابيه شاهرخ ولكن حكمه دام سنتين فقط وكان يشجع

الادب والفن ويهتم خاصة بالفلك وبنى مرصداً لا يزال في سمرقند. فسمرقند وهراة كانتا اذاً مركزي النهضة التيمورية كما تدعى الحركة الفنية والادبية في القرن الخامس عشر. واشتهر بايسنقور شقيق اولوغ بك بالموسيقى والرسم والخط. وكان جماعة من مصوري الكتب والنساخ والمجلدين يعملون تحت ادارته في هراة ولكنه توفي قبل اخيه. وحصلت اضطرابات في الدولة التيمورية بعد ان قتل اولوغ بك من قبل ابنه. وتمضي سنوات يحكم اثناءها رجل يدعى ابوسعيد واخيراً يتولى الحكم حسين بيقره (١٤٦٩–١٥٠٦) وتستمر حركة البعث الفني والثقافي حتى قال أحد المؤرخين المعاصرين « ان العالم كله لم يكن فيه مدينة مثل هراة في عهد السلطان حسين ». وكان وزيره المؤرخ الشاعر مير علي شير (١٤٤٠–١٥٠١). وبين المصورين في البلاط كان جماعة من أصل فارسي وتركي. واهم الشعراء في في هذا العصر جامع ومير علي شير، وأهم الرسامين بهزاد وشاه مظفر، والخطاط المعروف هو سلطان علي، وأما المؤرخون فهم ميرخوند وخوندمير.

سقطت الدولة التيمورية الشرقية بعد وفاة حسين بيقره في عام ١٥٠٦ بسبب هجوم قبيلة من اصل مغولي شكلت سلالة تدعى الشيبانية. وقد حمت هذه السلالة الفنون في بخارى وسمرقند ودامت حتى ١٥٩٩ حين قضى عليها الصفويون. وكان آخر التيموريين الامير بابر الذي ذهب الى الهند واسس السلالة المغولية الاسلامية فيها. وكانت ثقافة الدولة الشيبانية التي ورثت التيمورية تركية وبدأت حركة ادبية تركية في عهدها مستوحاة من النماذج الفارسية ومكتوبة بلغة الشغتاي وهي لهجة تركية فيما وراء النهر. اما في الرسم فقد حافظت السلالة الجديدة على التقاليد التيمورية.

وكان اهم الشعراء في صدر العصر التيموري شمس الدين حافظ الشيرازي (١٣٢٠ ؟ — ١٣٨٩) وقد عاصر الدولة المظفرية في جنوبي ايران التي ازدهرت بين نهاية الدولة الايلخانية وبدء الدولة التيمورية. وكان فقيراً في صغره وبعد ان ذهب الى المدرسة وحفظ القرآن (ومن ذلك اتى لقبه الادبي « حافظ ») عطف عليه امراء الدولة المظفرية حتى وفاته. وقيل انه التقى بتيمورلنك في

شيراز . وفي ديوانه ٦٩٣ قصيدة منها ٥٧٣ اغنية للربيع والطيور والخمر والجمال . وفي شعره صور جميلة وفيه بعض الشك واللامبالاة .

ولد الشاعر « جامع » في خراسان بعد حافظ بعدة طويلة وتوفي في هراة عام ١٤٩٢ . وقد كتب في مواضيع مختلفة عدا عن الشعر ، وقيل انه وضع ٤٦ مؤلفاً في الشعر والنحو العربي والموسيقى وحياة المتصوفين وتفسير القرآن . وقد عبر عن الفكر الصوفي في ايران . واهم شخصية في النهضة التيمورية وفي لغة الشغتاي الوزير مير علي شير الذي حمى الشاعر « جامع » والرسام بهزاد ؛ وكان هو نفسه موسيقياً ورساماً وشاعراً . ومن ادباء العصر التيموري نظام الدين الشامي الذي كتب الظفر نامة عن حروب تيمورلنك وكان مطلعاً على وثائق هامـة . وهنالك كتاب آخر يدعى الظفر نامة لشرف الدين علي اليزدي وفيه مدح كثير لتيمور . وقد كتب المؤرخ ميرخوند (م ١٤٩٨) تاريخاً عنوانه « روضة الصفا » بناء على طلب الوزير ميرعلي شير ويصف تاريخ ايران من قبل الاسلام حتى عصر المؤلف الذي كان اسمه مستعاراً . واما المؤرخ خوندمير (١٤٧٥ — ١٥٣٥) فقد نزح الى الهند بعد سقوط الدولة التيمورية وهناك دخل في خدمة اول سلاطين المغول.

كان العصر التيموري والشيباني (القرن الرابع عشر حتى نهاية السادس عشر) من أعظم عصور الرسم في ايران وما وراء النهر غير انه حصلت نهضة ايضاً في البناء. وكانوا يهتمون خاصة بالابنية الضخمة التي تلاحظ في ارتفاع الايوان في معظم الابنية . ومن اهم مباني هذا العصر ضريح تيمورلنك في سمرقند وقصر تيمورلنك في كيش Kesh وجامع بنته اخت تيمور . وأهم ما بقي من ابنية القرن الخامس عشر مزارات وأضرحة منها مزار عبد الله الانصاري خارج هراة. والابنية كانت مكسوة بالآجر والقاشاني الملون وقد تكون المواد البراقة في داخل البناء وخارجه. وسبب هذا التلوين البراق في الآجر عدم وجود المقالع فيما وراء النهر وميل القبائل الى الالوان الزاهية في السجاد . وضريح تيمورلنك تعلوه قبة بصلية الشكل مزدانة بالقرميد المطلي بالمينا . ومن نماذج الابنية الجميلة الجامع الازرق في تبريز وهو يصل

اسلوب البناء التيموري بالاسلوب الصفوي وفيه دفن جهان شاه اقوى حكام اسرة الحمل الاسود في عام ١٤٦٧ وهو الذي بناه ويحوي ايضاً فسيفساء القاشاني .

اما في الرسم فان مدرستي سمرقند وهراة تريناندماج التأثيرات الصينية والعباسية والفارسية . والاسلوب الفارسي يتمثل التأثيرين الآخرين ونجد احياناً الاتجاهين الايراني والصيني جنباً الى جنب في النصف الثاني للقرن الخامس عشر . ففي قطعة من الحرير نجد رسم غصن شجرة وعصفور باسلوب صيني كما نجد رسم خسرو وشيرين بلباس فارسي ووجه صيني فلا ندري اذا كان الرسام فارسياً يعمل حسب اسلوب صيني او اذا كان صينياً يرسم باسلوب فارسي . ويشبهه رسم آخر على قطعة حرير من نحو عام ١٤٣٠ يمثل وصول هوماي امير ايران الى بلاط الصين . ويرى في حديقة مع الاميرة الصينية هومايون . وقد يكون الرسام هو غياث الدين خليل الذي ذهب بمهمات رسمية الى الصين مرات متعددة . ولم تنس ايران تقاليد مدرسة بغداد فنرى رسماً بهذا الاسلوب لامرأة نائمة تحت شجرة وحولها خادماتها في حديقة زهور . وكمال الدين بهزاد هو اعظم رسامي ايران وقد ولد نحو عام ١٤٤٠ في هراة واشتغل فيها تحت رعاية الوزير ميرعلي شير . ثم بعد ان سقط التيموريون عاش في بلاط الاسرة الصفوية في تبريز وهو حلقة ارتباط بين مدرسة هراة التي رفعها الى الذروة وبين مدارس غربي ايران في العصر الصفوي . وقد رسم صورة السلطان حسين بيقره ولاول مرة نرى في الفن الفارسي رسماً مدروساً لاحد الاشخاص . كذلك رسم ست صور في مخطوط الظفر نامة من عام ١٤٦٧ (وهو الآن في متحف بوسطن) والمخطوط هو تاريخ تيمور لشرف الدين علي اليزدي . وقد صور فيه تيمورلنك على عرشه كما صوره يهاجم احد الحصون . والرسوم تشتهر بحيويتها وواقعيتها . ورسم بهزاد رسوماً عديدة في مخطوط « البستان » لشاعر سعدي (وهو في المكتبة الملكية بالقاهرة) . كذلك نشاهد مخطوطات مصورة عديدة وضعت لبعض الامراء من السلالة الشيبانية .

وأهم آثار الرسم اذاً نشاهدها في الكتب المخطوطة حيث تصل الرسوم الفارسية

الصغيرة (النمنمات) ذروتها . ونجد في مدرسة هراة ان النزعة الطبيعية تحل محل التقيد والجمود في العصور السابقة . ونرى تفاصيل الالبسة والاشكال والابنية كما نرى الاهتمام برسم مناظر الطبيعة بالرغم انها الاساس فقط لمادة الرسم الرئيسية . وكان لبهزاد تأثير على الرسامين المعاصرين والتابعين . وقد نسبوا اليه الشيء الكثير ولكن الاتجاه الحديث ان لا ينسبوا اليه جميع الرسوم التي نسبت اليه. ومن تلاميذه قاسم علي وقد بقيت بعض رسومه في احدى مخطوطات الشاعر نظامي . وبعض تلاميذ بهزاد ذهبوا الى بخارى وعملوا فيها ومنهم محمود مذهب . ومن الرسامين الذين سبقوا بهزاد في مدرسة هراة نصر الله ابو المعالي الذي صور مخطوطة الكليلة ودمنة موجودة في قصر جولستان بطهران .

❀❀❀

الفصل الثاني عشر

الحضارة البيزنطية : ادوارها ومظاهرها

صفات الحضارة البيزنطية وأهميتها : حكمت الامبراطورية البيزنطية جميع البلاد التي كانت تحكمها الامبراطورية الرومانية في الشرق وعرفت ايضاً باسم الامبراطورية الرومانية الشرقية . الا انها دامت نحو الف سنة بعد سقوط الدولة الرومانية في الغرب وبقيت حتى عام ١٤٥٣ حين فتح الاتراك العثمانيون عاصمتها القسطنطينية . ويختلف المؤرخون في تحديد العصر الذي وجدت فيه امبراطورية رومانية شرقية او بيزنطية واضحة . فالبعض يعتبر بدء قيامها منذ ان اوجد الامبراطور قسطنطين عاصمة ثانية للدولة الرومانية في بيزنطة وسماها القسطنطينية في عام ٣٣٠ . ويرى البعض الآخر انها بدأت حين قسمت الامبراطورية رسمياً الى قسمين في عام ٣٩٥ من قبل الامبراطور تيودوسيوس . ورأى آخرون ان الامبراطورية الشرقية بدأت بصورة واضحة حين سقطت الامبراطورية الرومانية في الغرب عام ٤٧٦ . ويرد على أصحاب هذا الرأي جماعة يرون ان نظرية الدولة الرومانية المتحدة بقيت حتى بعد سقوط الدولة في الغرب وانه حتى في عصر يوستنيان في القرن السادس كانت ظاهرة الوحدة موجودة لانه اراد استعادة الاراضي التي فقدتها الامبراطورية في الغرب . وقال آخرون انه صارت توجد امبراطوريتان فقط عندما توج شرلمان امبراطوراً رومانيا في الغرب في عام ٨٠٠ . ولكن معظم المؤرخين يرون ان هذه الامبراطورية البيزنطية بدأت في القرن السابع حين تحولت

الى امبراطورية يونانيـة شرقية بعد ان كانت في بادىء الامر رومانية في لغتها وادارتها وتقاليدها .

وقد شهدت العصور الوسطى حضارتين مهمتين في شرقي اوربا وبلاد الشرق وهما الحضارة البيزنطية والحضارة الاسلامية . والتاريخ البيزنطي كان مرآة الحياة المتحضرة في شرقي اوربا وغربي آسية في العصور الوسطى فشملت هذه الحضارة بلاد البلقان وسورية وبلاد الرافدين الشمالية وآسية الصغرى ومصر وشمالي افريقيا حتى الفتح الاسلامي . واثرت الحضارة البيزنطية في العالم الاسلامي ولذلك كان للتاريخ البيزنطي اهمية في تاريخ الدولة الاسلامية وكذلك في تاريخ الدولة العثمانية فيا بعد لان هذه الدولة تمثلت ما أمكنها هضمه من اساليب الادارة البيزنطية وثقافتها.

واختلف المؤرخون في تقدير الطابع الاساسي للحضارة البيزنطية فرأى البعض ان الدولة البيزنطية كانت دولة شرقية . والواقع انها اخذت عناصر شرقية متعددة في الفن وبعض نواحي القانون والحكم . ويعتقد الآخرون ان طابعها الاساسي نتج عن امتزاج عنصرين مهمين هما العنصر الهلنستي والعنصر الروماني . وبيزنطة كانت يونانية في اللغة والادب واللاهوت، وكانت رومانية فيما يتصل بقانونها وتقاليدها العسكرية وسياستها المالية وتمسكها الدائم بسيادة الدولة . وهنالك عناصر شرقية ورثتها من العنصر الهلنستي في حضـارتها الذي انما كان مزيجاً من الحضارة اليونانية والشرقية .

التطور السياسي للدولة البيزنطية : يصور بعض المؤرخين الدولة البيزنطية انها كانت في سكرات الموت دائماً بالرغم مما ابدته من صنوف المقاومـة للهجمات المختلفة . والواقع ان السلالات التي تعاقبت على الامبراطورية البيزنطية كان يقوم فيها اباطرة اقوياء من وقت الى آخر فينتشلونها من الفوضى التي كانت تقع فيهـا ولذلك كان تاريخها عبارة عن سلسلة ادوار من القوة والزهو تتبع ادوار الضعف والانحطاط .

رأى الامبراطور الروماني قسطنطين ان القسم الشرقي من امبراطوريته يحتاج الى عناية خاصة نظراً لاتساع الامبراطورية واكثرة مايحيط بالقسم الشرقي من اعداء فأسس مدينة القسطنطينية في ١١ ايار ٣٣٠ وجعلها العاصمة الثانية للدولة وكانت قبلا مدينة صغيرة تدعى بيزنطة . وبدأ العالم الشرقي يتجمع حول العصمة الجديدة التي يلتقي عندها العالم الاوربي والاسيوي وبدأت وحدة الامبراطورية تضعف . وقسم الامبراطور تيودوسيوس امبراطوريته بين ولديه في عام ٣٩٥ وبدأ سيل البرابرة القوط والفندال والهون يجتاح الامبراطورية حتى قضوا على سلطة آخر امبراطور روماني في الغرب في عام ٤٧٦ . ويعتبر انتهاء الامبراطورية الرومانية في الغرب نهاية العصور القديمة . وبقيت الدولة الرومانية الشرقية قائمة طيلة العصور الوسطى ولكنها كانت تتطور وتتحول وتعترضها أحياناً ازمات تكاد تقضي عليها . ومن أهم الازمات والمشاكل الداخلية في الدولة الشرقيـــة الازمات الدينية والثورات السياسية . فمن الوجهة الدينية كان الشرق مبعث كثير من الهرتقات أو البدع التي لم تشأ الدولة ان تعترف بها ومنها الآريوسية والنسطورية واليعقوبية . ولذلك كانت تحصل المنازعات بين الامبراطور ورعاياه وبين رجال الدين انفسهم . هذا فضلاً عن ان سلطة البطاركة في القسطنطينية كانت قوية وكثيراً ما كانت تهدد كيان الامبراطور نفسه فيحصل النزاع بينهما . وزيادة على ذلك كان البطاركة أنفسهم لا يعترفون بسلطة البابوات في روما ولذلك بدأ النزاع بين الكنيستين الشرقيـة والغربية الذي ادى أخيراً الى الانفصال وكانت له عواقب سياسية سيئة جداً .

وأما الثورات السياسية فكان لها اشكال وبواعث مختلفة ، فقد تتخـذ شكل ثورة في القصر يضرم نارها احد الطامعين في العرش فيستخدم رجال القصر ويدبر الدسائس الى ان يخلع الامبراطور ويحتل مكانه . وقد تتخذ شكل ثورة عسكرية يقوم بها احد القواد لنفس الغرض وهو ارتقاء العرش الذي يشغله ملك ضعيف . وقـد تكون الثورة شعبية مبعثها اما ظلم اجتماعي او حماس ديني او عاطفة حزبية

وتسفر عن اضعاف السلطة الحاكمة . واما الأزمات الخارجية فكان مبعثها الشعوب القوية التي تحيط بالامبراطورية وتريد اقتحامها . وقد نجح بعضها في اقتطاع اجزاء مختلفة من جسم الامبراطورية في عصور مختلفة كالعرب والاتراك في آسية والشعوب السلافية والبلغارية في اوربا . واخذت تنكمش الدولة على توالي العصور حتى ضعفت مواردها الحربية والاقتصادية وادى ذلك الى انحطاطها وسقوطها .

انتهى حكم اول سلالة في القسطنطينية ـ وهي السلالة التي اسسها ثيودوسيوس ـ في عام ٥١٨ بعد ان شهدت ازمة هجوم البرابرة من جهة والمنازعات الدينيـة من جهة أخرى . وبدأت سلالة جديدة حين اصبح يوستينوس قائد جيوش الحرس امبراطوراً على الدولة الرومانية الشرقية . وورثه ابن أخيه يوستنيان (٥٢٧–٥٦٥) الذي يعد من اعظم اباطرة القسطنطينية . وقد بذل جهداً كبيراً في استرجاع مافقدته الامبراطورية في الغرب بعد سقوط رومة فاستعاد بفضل قواده ـ ومنهم بليساريوس ـ مناطق شمالي افريقيا وايطاليا وقسم من اسبانيا . ولم يكن موفقاً دوماً في حروبه ضد الفرس الذين كانوا يغيرون على سورية . واشتهر يوستنيان باعماله الداخليـة التي اهمها جمع القوانين الرومانية وتبويبها من جهة والاعمال العمرانية من جهة اخرى . فقد وضع مجموعة لقرارات الاباطرة ومجموعة اخرى لكتابات الفقهاء و كتاباً خاصاً لدرس الحقوق الرومانية وبذلك حال دون ضياع القانون الروماني . واراد ان يحيط نفسه بابهة الملك فبنى كنيسة آياصوفيا التي خلدت ذكره كما بنى كنيسة في مدينة رافينا في شمالي ايطاليا وزخرفها بمجموعات الفسيفساء الجميلة . واضرت مشاريعه العسكرية بالامبراطورية اكثر مما نفعتها لانها كلفت الخزينة اموالاً طائلة وجعلت تحت حكم اباطرة الدولة الشرقية بلاداً في الغرب لم تلبث ان انفصلت عنها بعد ان اهمل بسببها القسم الاساسي في الامبراطورية وهو القسم الشرقي . وكان يوستنيان آخر امبراطور اتبع التقاليد والافكار الرومانية . وساءت الحالة الخارجية بعد وفاته وازدادت الثورات في الداخل واخيراً يقوم هرقل ابن حاكم ولاية افريقيا ويقلب الحـكم ويؤسس سلالة جديدة .

كان حكم سلالة هرقل (٦١٠ — ٧١٧) عصر إضطراب داخلي بسبب المشاكل الدينية والمالية ، وهجمات خارجية قام بها الفرس الساسانيون ثم العرب . ونجح هرقل (٦١٠ — ٦٤١) في صد الفرس بعد ان احتلوا بعض مدن سورية وفي التغلب عليهم وملاحقتهم حتى ابواب المدائن في ٦٢٩ ولكنه عجز عن صد العرب الذين نجحوا في الاستيلاء على سورية ومصر وبعض شمالي افريقيا حتى ان الامبراطورية البيزنطية اصبحت تقتصر على الاناضول والبلقان لان اللومبارديين من جهة اخرى استولوا على نصف ايطاليا .

وحصل تطور عظيم في هذا القرن السابع حيث اصبحت الامبراطورية الرومانية الشرقية ذات صبغة يونانية شرقية وصارت تدعى بالامبراطورية البيزنطية . وسيطر عليها العنصر الهيليني كما ان اللغة اليونانية احتلت مكان اللغة اللاتينية . ومن الوجهة السياسية والادارية اصبحت السلطات في المقاطعات بيد الرؤساء العسكريين واصبحت تقاليد الحكم والقابه يونانية فاستبدل لقب قيصر مثلاً بلقب باسليوس (أي ملك في اليونانية) وازدادت المنافسات والمنازعات معروفة حدة وشدة ، وسكنت عناصر الصرب والبلغار في شبه جزيرة البلقان واستوطنتها . وفي نهاية القرن بدأت الانقلابات السياسية وسادت الفوضى عشرين عاماً الى ان قام احد الولاة الآسيويين واسمه ليون الايسوري وقلب الحكم وحاول احياء الدولة وتقويتها .

كان اباطرة هذه السلالة الايسورية الجديدة (٧١٧ — ٨٦٧) مشهورين من الوجهة الداخلية باعادة تنظيم شؤون الامبراطورية ونزاعهم ضد رجال الدين . فقد قام في عهدهم النزاع المشهور حول الايقونات والصور الدينية واضطربت لأجله شؤون الدولة مدة مئة وعشرين عاماً (٧٢٦ — ٨٤٢) . وليون الثالث مؤسس السلالة هو الذي بدأ النزاع . والحقيقة انه لم يقصد من ذلك القضاء على الايقونات وتطرف الناس في عبادتها فحسب (ولذلك عرف مع بعض تابعيه بمحطمي الصور Iconoclasts) وانما اراد ان يضعف شوكة رجال الدين من رهبان وكهنة وعلى

رأسهم بطريرك القسطنطينية لانهم بالغوا في سيطرتهم ونفوذهم . ومع ان الايقونات بقيت الا ان الدولة خرجت فائزة على الكنيسة في هذا النزاع .

اما في الشؤون الخارجية والحربية فقد نجح اباطرة هذا البيت في صد هجمات العرب خصوصاً في حصارهم القسطنطينية في عهد سليمان بن عبد الملك عام ٧١٧م كما صدوا هجمات البلغار ولكنهم لم يتمكنوا من منع العرب من احتلال جزيرة كريت عام ٨٢٦ . وكان من اقوى ملوك هذا العصر ليون الثالث (ويكتب مؤرخو العرب هذا الاسم « لاون ») وقسطنطين الخامس اللذان اشتهرا كرجال سياسة وتنظيم كما اشتهرا كقواد ماهرين . وازداد النزاع مع البابوية في عهد هذه السلالة وظهر شعور قومي بيزنطي زاده النزاع مع الغرب شدة . غير ان الفوضى والضعف يعودان في اواخر عهد السلالة الايسورية هذه ويقوم القائد باسيل المكدوني ويقتل آخر امبراطور ويحتل مكانه ويبدأ السلالة المعروفة بالمكدونية .

كانت الاسرة المكدونية (٨٦٧ — ١٠٨١) من اصل ارمني انما سكنت مكدونيا وكان عصرها عصر قوة وازدهار بلغت فيه الدولة اوجها . فكان من اعظم ملوكها باسيل الاول مؤسس السلالة ونقفور فقاس ، وجان تزمسكيس (المعروف عند العرب بالشمشقيق) والاخيران قائدان اغتصبا الحكم ، وخاصة باسيل الثاني الذي حكم نحو نصف قرن . كان هؤلاء الملوك مشهورين كرجال سياسة وحرب غرضهم اعلاء شأن الدولة فلم يتراجعوا عن خوض المعارك والاقامة في الثكنات ولم يدخروا وسيلة لانماء ثروة البلاد وتخفيض نفقات الحكم والبلاط .

حارب ملوك هذه السلالة العرب وخاصة في عهد الدولة الحمدانية في القرن العاشر فكان الحرب سجالاً على حدود سورية . واشهر اعمالهم الحربية قضاؤهم على قوة الدولة البلغارية التي بلغ من اهميتها انها نافست الدولة البيزنطية واضحت خطراً عليها في عهد قياصرتها سيمون وصموئيل . وقد عرف باسيل الثاني الذي كسر شوكة هذه الدولة بعد ان نازلها سنين طويلة بقاتل البلغار Bulgaroctone وقد استردت الدولة البيزنطية جنوبي ايطاليا ايضاً في هذا العهد ونجحت بنشر

حضارتها في بلاد الروسيا والصرب والبلغار وكذلك بنشر النصرانية في هذه البلاد . كذلك اهتم ملوك هذه السلالة بالتنظيم والاصلاح فوضعوا الانظمة المتعلقة بالاراضي لحماية صغار الملاكين فقاومهم الامراء الاقطاعيون اشد مقاومة . وعند وفاة باسيل الثاني في عام ١٠٢٥ كانت الدولة مزدهرة جداً . غير ان الملوك الذين خلفوه كانوا عاجزين ومهملين فرفعت الارستوقراطية الاقطاعية رأسها وزادت الفوضى خصوصاً بظهور خطرين الواحد من الغرب وهو النورمان والآخر من الشرق وهو الاتراك السلاجقة الذين كسروا قوات البيزنطيين في معركة منزكرت (او ملازكرد) عام ١٠٧١ فاصبحت الاناضول تقريباً منفصلة عن جسم الامبراطورية. زد على ذلك ان النفور بين الكنيستين الشرقية والغربية اوبين بطاركة القسطنطينية والبابوية قد وصل اشده وادى الى الانفصال التام في عام ١٠٥٤ واصبح العالم الغربي غير مكترث لما يحصل في العالم الشرقي .

اتت بعد السلالة المكدونية سلالة كومنين Comnène (١٠٨١ – ١١٨٥) ودام حكمها قرناً ثم تبعتها سلالة ضعيفة تعرف باسرة انجلوس حكمت حتى عام ١٢٠٤. وكان آل كومنين من الاسياد الاقطاعيين المحاربين وكان منهم اربعة ملوك عرفوا كيف يعيدوا الى الملكية المضعضعة قوتها وهم الكسيس وجان ومانويل واندرونيكس. ومع انهم لم يتمكنوا من استرجاع ما فقد في اواخر عهد السلالة المكدونية الا انهم اوقفوا الاتراك عند حدودهم في الاناضول وصدوا هجمات النورمان الذين طمحوا الى التوسع نحو الشرق وكذلك وقفوا في وجه الهنغاريين والصرب الذين كانت لهم دول مستقلة قوية . اما مدينة القسطنطينية فقد زادت ثروة وابهة واوصاف المسافرين والرحالين تشهد بذلك .

ومن اهم الحوادث التي حصلت في عهد آل كومنين الحملات الصليبية التي قام بها امراء الغرب لاسباب عديدة سياسية واقتصادية ودينية انما سببها الظاهر كان انتزاع الاماكن المقدسة في فلسطين من ايدي المسلمين . هذه الحملات التي بدأت في عهد الكسيس كومنين ونجحت في احتلال القدس وتأسيس ممالك لاتينية في

عام ١٠٩٩ قد اضرت بالامبراطورية البيزنطية اكثر مما افادتها . فقد اظهرت للغربيين وخاصة البنادقة ثروة القسطنطينية فزادت رغبتهم في انتزاعها والاستفادة منها .
وعدا ان بعض الحملات كانت تمر باراضي الدولة البيزنطية فان الاباطرة كانوا يضطرون لاتخاذ الاحتياطات ضد طمع امرائها ولذلك لم تتمكن الدولة من تحويل جميع قواها ناحية الاتراك . زد على ذلك ان هذه الاحتياطات التي اتخذها الاباطرة ضد الضيوف الغربيين مع محاولة الكسيس كومنين التدخل في شؤون الدول اللاتينية المؤسسة في سورية لكي يجعلها تحت حمايته قد ادت الى نفور اللاتين والى اضعاف البيزنطيين .

وقد شعرت الشعوب الغربية اللاتينية بضعف الدولة خاصة في عهد اسرة انجلوس وكانت مطلعة على مقدار ثروة القسطنطينية ولذلك وجهت الحملة الصليبية الرابعة الى عاصمة الدولة البيزنطية بدلاً من البلاد المقدسة . ونجحت بمساعدة البنادقة وبرضى البابوية بقلب الامبراطورية البيزنطية وتأسيس دولة لاتينية في القسطنطينية في ١٢٠٤ تحت حكم بلدوين كونت فلندرة . وقد دام حكم هذه الدولة حتى عام ١٢٦١ . وكان بعض الامراء البيزنطيين في هذه المدة قد اسسوا امارات ودولاً في طرابزون وفي نيقية في الاناضول . فقام احد حكام نيقية واسمه ميشيل الثامن باليولوغ بعد ان شعر بضعف الدولة اللاتينية وانتزع السلطة منها واعاد الحكم البيزنطي الى القسطنطينية .

كان احتلال اللاتين للقسطنطينية مدة اكثر من نصف قرن واستنفاذهم قواها وثروتها ضربة قاسية تعد من الاسباب المهمة لسقوط الدولة البيزنطية . وقد حكم آل باليولوغ مدة قرنين تقريباً (١٢٦١ — ١٤٥٣) ولكن دولتهم لم تكن لتزداد الا ضعفاً وانحطاطاً . فالمنازعات الاجتماعية بين الطبقات والمنازعات المدنية التي لم يتورع فيها بعض زعماء الاحزاب من طلب المساعدة من الاجانب قد اضعفت الدولة كثيراً . وقد انحط الشعور الوطني وفرغت الخزينة واصبح الجيش قليل العدد ضعيف الاستعداد . وكان الشعب بعناده وتعصبهم يمنعون اباطرتهم من التفاهم مع

البابوية للحصول على مساعدة الدول الغربية ضد الاتراك . وعندما اتفقق حنا الثامن وقسطنطين الحادي عشر آخر امبراطور بيزنطي مع البابوية لنسيان الاحقاد كاد سكان القسطنطينية ان يقوموا بثورة لاهبة وقالو انهم يفضلون ان تسود مدينتهم عمامة الاتراك على ان تسود قبعة اللاتين .

وقد قويت الدول المسيحية في البلقان واتسعت سلطتها فقامت الدولة البلغارية الثانية في القرن الثالث عشر ودولة اسطفان دوشان الصربية في القرن الرابع عشر وكانت مستعدة لمهاجمة الدولة البيزنطية . ولكن الخطر الشديد اتى من الاتراك العثمانيين الذين اخذوا ما بقي من اراضي الدولة في الاناضول واصبحوا على ابواب القسطنطينية . ثم نزلوا في البر الاوربي في القرن الرابع عشر في عهد اورخان وذلك بدعوة من احد زعماء البيزنطيين الطامعين بالعرش وجعلوا عاصمتهم ادرنة . وقد ضاقت رقعة الدولة البيزنطية وقام العثمانيون ينتقلون من نصر الى نصر في شبه جزيرة البلقان الى ان حاصروا القسطنطينية اخيراً في عهد محمد الثاني المعروف بالفاتح وتمكنوا من فتحها في ٢٩ آيار ١٤٥٣ . وقتل آخر اباطرتها قسطنطين الحادي عشر وهو يدافع عنها قرب الاسوار واصبحت عاصمة الدولة العثمانية . وقد تظاهر العالم الغربي بمساعدة الدولة البيزنطية فارسل جيوشه التي حاربت في نيقوبولس ١٣٩٦ وفارنا ١٤٤٤ امام الاتراك . والحقيقـة ان العالم الغربي كان يريد تلاشي الدولة البيزنطية .

اسباب القوة والانحطاط في الدولة البيزنطية : انتهت تلك الامبراطورية البيزنطية التي دامت بحوالى الف سنة ويعتبر سقوطها نهاية العصور الوسطى وبدء العصور الحديثة . وانك لترى انها شاهدت ادوار عز وقوة كما انه مر عليها ادوار ضعف وانحطاط . واما اسباب قوتها فانها كانت حكومة الامبراطورية القوية التي تعضدها ادارة حازمة في المقاطعات وجيش قوي وسياسة خارجية ناجحة نحو الدول المتمدنة والبربرية . وكانت ثروة الدولة ضخمة وكذلك ثروة الرعايا نظراً لازدهار التجارة

والزراعة . وكانت مظاهر هذا العز وتلك القوة في مدينة القسطنطينية الغنية بمبانيها وبحياتها العقلية والاجتماعية الراقية .

ولكن اعراض الانحطاط كثيراً ما كانت تظهر في ابان تلك القوة . فالنظام السياسي مع قوته لم يكن فيه قانون واضح للوراثة حتى ان الانقلابات العسكرية واعمال الاغتصاب كانت من الحوادث العادية تقريباً . وكانت هنالك عوامل كثيرة للانحلال والضعف في المجتمع نفسه. فهنالك اولاً عقليته وميله الشديد الى المنازعات الحزبية والدينية التي كانت تتخذ شكلاً عنيفاً وتحل الفوضى محل النظام . وهنالك ثانياً النزاع بين الطبقات الفقيرة والغنية، وخاصة النظام الاقطاعي الذي حاول بعض الاباطرة تخفيف وطأته فلم ينجحوا . وهنالك ثالثاً المشاكل الدينية ان كان من جهة العقائد بين السلطة الحاكمة والشعب ، او من جهة النفوذ بين البطاركة والاباطرة اومن جهة الصلات مع البابوية التي قطعت اخيراً علاقاتها مع الدولة واصبحت ترغب في زوالها . وقد ضعف الجيش وقل عدده بانكماش رقعة الدولة وخاصة بفقدها الاناضول . وقلت موارد الخزينة بانتشار الملكية الواسعة وبانحطاط التجارة والزراعة. وقد صحب هذه الاحوال الداخلية قيام الدول المختلفة على حدود الامبراطورية فكانت تغير عليها كلما سنحت الفرص الى ان قصت جناحيها واخيراً قضت عليها .

والتاريخ البيزنطي كما ترى ليس قصة فساد وانحطاط مستمرين وانما كثيراً ما كانت تمر عليه ادوار عز وابهة وتوسع. ومن اهم ما اشتهرت به الدولة البيزنطية حضارتها الراقية التي سندرس مظاهرها الرئيسية وتأثيراتها على حضارة سائر الشعوب .

المظاهر الادارية والعسكرية في الحضارة البيزنطية : كانت الامبراطورية البيزنطية ملكية مطلقة على رأسها امبراطور يعرف منذ القرن السابع بلقب « باسيليوس » اي ملك . وكانت صلاحياته واسعة ويمكن ان نقول جامعة حتى انه عرف بلقب اوتوكراتور اي « الحاكم بامره » . فهو الحاكم الذي يعين الوزراء

وكبار الموظفين ويعزلهم . وهو القائد الاعلى للجيش وبيده السلطة العسكرية ، وهو الذي يسيطر على الادارة وراسل حكام المقاطعات . والامبراطور هو صاحب السلطة التشريعية وعنه تصدر القوانين . وهو القاضي الاعلى ومحكمته الامبراطورية كانت تفصل في جميع القضايا . زد على ذلك سلطته الدينية التي اعطته حق حكم الكنيسة برجالها وعقائدها . ومصدر جميع هذه السلطات من الله بموجب نظارية الحق الآلهي في الحكم . وحياة الامبراطور كانت حياة ابهة وبذخ تسيطر على تفاصيلها احكام وطقوس معروفة . وقد كتب الامبراطور المؤرخ قسطنطين السابع « كتاب المراسم » وصف فيه بصورة مفصلة دور كل هيئة حاكمة في الاحتفالات وغيرها . وكان يتوج الامبراطور في كنيسة اياصوفيا في حفلة دينية يترأسها بطريرك القسطنطينية . وكان يعتبر البلاط مقدساً وكذلك كان يعتبر الامبراطور . غير ان حياة البلاط كانت ملأى بالمكائد والشرور ، والاموال الكثيرة كانت تنفق عليه .

ومع ان سلطة الامبراطور كانت مطلقة فان بعض العوامل كانت تحدد سلطاته وأعظم هذه العوامل القوة . فالقوة يمكن ان يستعملها الجيش وتظهر بشكل ثورات ويمكن ان تصدر اعمال القوة عن النبلاء الاقطاعيين الذين كانت تحدثهم نفسهم باغتصاب العرش . ويمكن ان يستعمل الشعب القوة فيثور لاسباب دينية او حزبية او اجتماعية . وكان لرجال الدين ايضاً قوة فعالة يظهرونها بقيادة رؤسائهم حين تدعو الحاجة .

اتخذت الحكومة والادارة شكلاً جديداً في القرن السابع بعد ان فقدت الامبراطورية بعض مقاطعاتها واصطبغت بالصبغة اليونانية الشرقية . ففي الادارة المركزية كان هنالك عدد من كبار الموظفين أصحاب الالقاب الضخمة وكلها القاب يونانية وحاملوها رؤساء المصالح الكبرى يديرون الشؤون الخارجية والداخلية والمالية والعدلية كالوزراء اليوم . وكان بينهم موظف كبير يرد ذكره في تواريخ العرب وهو الدمستق Domesticus ويشرف على شؤون الجيش . ومعظم كبار الموظفين كانوا اعضاء في مجلس الشيوخ الذي كان عبارة عن مجلس استشاري

وأعماله ادارية وليست تشريعية . والادارة كانت مركزية شديدة . وقد أصبحت المقاطعات نظراً لضرورة الدفاع عبارة عن حكومات عسكرية تسمى « تيم » Thèmes وأصل معناها فرقة عسكرية واصبحت تعني المقاطعة التي ترابط فيها تلك الفرقة . وكان يدير شؤونها حاكم يدعى ستراتيج Strategus بيده جميع السلطات من مدنية وعسكرية وبجانبه بعض كبار الموظفين الذين يراسلون الامبراطور .

وفي القضاء كان يمكن الاستئناف الى الامبراطور الذي كان أحياناً يستمع المظالم . والمحاكم الكنسية كانت تفصل في القضايا التي يكون فيها المدعى عليه من رجال الدين وكذلك في قضايا الاحوال المدنية .وقد وضعت مجموعات هامة للقانون في عهد يوستنيان كما رأينا وذلك بين عامي ٥٢٩ و ٥٣٤ منها مجموعة القوانين نفسها ومنها خلاصة كتابات الفقهاء وكذلك القوانين الجديدة . ووضعت مجموعات اخرى في عهد السلالة الايسورية وكذلك في عهد الاسرة المكدونية كالمجموعة المعروفة « بالباسليكا » اي الاوامر الملكية .

ووجه الاباطرة اقصى اهتمامهم الى الادارة المالية نظراً لضرورة المال في جميع مرافق الدولة . وكانت جباية الضرائب ذات شأن كبير ولكنها كثيراً ما كانت تلحق العنف والظلم بالرعايا لان الدولة كانت أحياناً توجد ضرائب جديدة غير مشروعة نظراً لحاجتها الى المال ، وكان الموظفون يستبدون لكي يجمعوا الثروات بسرعة وليعوضوا عما فقدوه عندما دفعوا ثمن وظيفتهم لان نظام بيع الوظائف كان موجوداً .والوظائف بوجه الاجمال كانت بيد الطبقات العليا. وكانت بعض المعاهد تعد الموظفين للقيام باعمالهم . ونفقات الدولة كانت كثيرة منها نفقات البلاط والحفلات والاعياد والهدايا والمنح والمباني وتوزيع الاطعمة على سكان العاصمة عدا عن نفقات الجيش . وموارد الدولة كانت الضرائب المباشرة خاصة على الارض والضرائب غير المباشرة من مختلف الرسوم وريع أملاك الدولة ورسوم بيع الوظائف وعقارات الافراد الذين ماتوا بدون وصية .

أما فيما يتعلق بالجيش فان الخدمة الاجبارية كانت موجودة مبدئياً وكان الجيش

يتألف اذاً من سكان الدولة ومن الجنود المرتزقة الذين كانوا يتقاضون أجوراً ضخمة وينتسبون الى مختلف العناصر في أوربا وغربي آسية. وكانت الجيوش قوية يلعب فيها الفرسان دوراً هاماً وقد أصابت نجاحاً في كثير من الحروب والمعارك. وكان الاباطرة يوجهون عناية خاصة اليها وأحياناً يقطعون ضباطها الاراضي تعويضاً عن خدماتهم. غير ان هذا النظام العسكري كانت له عيوب ادت الى اضعافه وجعله سبباً للانحطاط بدلاً من القوة. فالعيب الاكبر كان قلة النظام والميل الى التمرد خاصة بين الجيوش المرتزقة التي كانت تخالف الاوامر أحياناً في ساحة الحرب وتخون قوادها. والعيب الآخر هو قلة الاخلاص للدولة بحيث كان القائد يستعمل جنوده - وهم أحياناً من مقاطعته ومن اتباعه - لمآربه الخاصة فيستثمر تعلقهم به للقيام ضد الامبراطور واحتلال مكانه. وكثيراً ما كان يتعاطى رجال الجيش أشغالاً مدنية عدا عن أعمالهم العسكرية مما أضعف الاستعداد وأفقد الجيش قيمته الحربية. وكان عدد الجيوش ينقص كلما ضاق حجم الدولة وقلت مواردها حتى أصبحت عاجزة عن صد هجمات الدول الفتية حولها.

وكانت للدولة اسطول ساعدها في صد كثير من الغارات وخصوصاً في حصار القسطنطينية من قبل العرب عام ٧١٧. ويبدو ان هذا الاسطول قد أهمل بضعة قرون الى ان تنبه الاباطرة الى ذلك في القرن العاشر وأصبحت الدولة ذات شأن في البحر المتوسط. ومن أهم وسائل الدفاع التي استخدمها البيزنطيون النار اليونانية التي اخترعها مهندس سوري في القرن السابع.

الناحية الاجتماعية وأهمية القسطنطينية: كان النظام الاقطاعي منتشراً في الدولة البيزنطية وقد نشأ عن زوال الملكية الصغيرة لان صغار الملاكين كانوا يفضلون في ايام النزاع والفوضى ان يدخلوا تحت حماية أحد أصحاب النفوذ من كبار العائلات فيفقدون بذلك حريتهم وأرضهم ويصبحون تابعين لكبار الملاكين حتى اتسعت أملاكهم وتدخلت الدولة للحد من سلطتهم ولكنها لم تتمكن. وظهور اسرة كومنين

في القرن الحادي عشر كان فوزاً للاقطاعية على الدولة . وكانت العائلات الاقطاعية صاحبة السلطة في الادارة والحرب . ويرتبط بهذه الطبقة جماعة الفقراء الذين فقدوا أراضيهم وكانوا يثورون احياناً ضد مستثمريهم . وبين هاتين الطبقتين كان جماعة التجار والصناع وبعضهم من الاجانب وخاصة من المدن الايطالية. وأما الاكليروس فقد كان منهم الرهبان الذين يعيشون في الاديرة والكهنة في المدن وعلى رأسهم الاساقفة وكانت أراضيهم واسعة ومعفية من الضرائب .

أما المجتمع البيزنطي فانه كان يتشابه ببعض ميزات في أخلاقه وميوله التي كان يظهر فيها الاثر الشرقي والهليني معاً . فالبيزنطي كان عموماً عاطفياً سريع الانفعال يحب المسرات والمناظر البهيجة وتعجبه مشاهد القسوة والدم المسفوك ، وحوادث التعذيب تشهد بذلك. ولكنه كان كذلك يحب الاطلاع ويميل الى المجادلات والمناقشات ميلاً عظيماً وخاصة المجادلات الدينية اللاهوتية التي كانت تستهوي الجميع من الامبراطور الى آخر فرد من رعاياه. والبيزنطي كان تقياً متعبداً ويعتقد بتأثير الايقونات ويؤمن بالسحر والعجائب والتنجيم . ومن صفات البيزنطي حبه المال حتى ان الادارة كانت ملأى بالعيوب والمفاسد بسبب ذلك .

كانت ميول المجتمع البيزنطي واخلاق أفراده تتجلى في العاب السيرك التي قيل عنها انها مرآة ذلك المجتمع في العصور الوسطى . فالبيزنطيون كانوا من كبيرهم الى صغيرهم يتهافتون لحضور هذه الالعاب من سباق مركبات ومصارعة والعاب مسلية وغيرها ويظهرون اثناءها حماسهم الشديد للاحزاب التي ينتسبون اليها والتي ينتسب اليها اللاعبون . وكثيراً ما كانت المنافسات في العاب السيرك تتخذ شكل منافسات حزبية بين الحزب الاخضر والازرق وتؤدي الى ثورات هائلة كما حصل في ثورة ٥٣٢ في عهد يوستنيان التي تعرف بحادثة « النيكا » (ومعناها النصر وكان المتسابقون ومناصروهم يهتفون بهذه الكلمة اثناء اللعب) فالعاب السيرك اذا والمجادلات الدينية والمكائد السياسية ودسائس البلاط كانت أشهر ما اتصف به المجتمع البيزنطي . غير

ان هذا المجتمع قد استطاع ان يظهر صفات طيبة كالشجاعة والوطنية في الاوقات الحرجة وكان مولعاً بالامور الروحية والعقلية .

كانت جميع مظاهر الحياة في الدولة تظهر في القسطنطينية التي كانت تدعى أحياناً « رومـة الجديدة » او « المدينة المحروسة من الله » او كما سماهـا البعض « باريس العصور الوسطى » . فقد تجلت فيهـا القوة الحربية وابهة الملك وبذخه وظهرت فيها الثروة وبدائع الحياة الفنية والادبية . ولكن من جهة اخرى كانت تظهر فيها جميع عيوب المجتمع البيزنطي في مكائده ومفـاسده وثوراته . وتقـع القسطنطينية على شكل شبه جزيرة تحيط بها الماء من جهاتها الثلاث . فمن الشرق مضيق البوسفور . ومن الجنوب بحر مرمرة ومن الشمال القرن الذهبي الذي يتفرع عن البوسفور . وتتصل بالبر من الجهة الغربية فقط حيث بنيت الاسوار القوية في عهد تيودوسيوس الثاني في القرن الخامس . وكانت اهم مبانيها تقع في الطرف الشرقي قرب البوسفور وبحر مرمرة وتحيط بساحة تعرف بالأوغسطيون . وهذه المباني هي القصر المقدس وكنيسة آيا صوفيا وقصر مجلس الشيوخ وساحة اللعب (الهيبودروم وهي اليوم ميدان السلطـان احمد) . وتتجه من هذه الساحة العظيمة شارع طويل يسمى الميزي (أي الأوسط) فيخترق المدينة من الشرق الى الغرب ماراً بساحاتٍ ومبانٍ هامة وينتهي مع تفرعاته عنـد الأبواب الغربية . وكان في العاصمة عدد من الساحات الكبرى (الفورم) منها ساحة تيودوسيوس وساحة اركاديوس وعدد كبـير من الكنائس عدا عن آيا صوفيا ومن أشهرها كنيسة الرسل المقدسـة التي كان يدفن فيها الأباطرة . ولكن أفخم مباني العاصمة القصر الامبراطوري الذي اشترك معظم الأباطرة في في زخرفته وتجميله . وكان عبارة عن مدينة ضمن المدينة بدوائره وقاعاته التي تزينها الفسيفساء والذهب ، وبحفلاته ومواكبه التي ترافق جميع اعمـال الامبراطور .

المظاهر الاقتصادية للحضارة البيزنطية : كانت ثروة الدولة في أيام قوتهـا ضخمة جداً بسبب كثرة مواردها ، فالزراعة كانت من مصادر تلك الثروة نظراً لخصب كثير من مقاطعات الدولة واتساعها . ولكن نظام الاراضي الذي ذكرناه واتجاهه نحو الملكية الواسعة وزوال الحرية الشخصية بالرغم من مقاومة الأباطرة قد أضعف الزراعة . وقد أضعفها كذلك سياسة الحكومة المالية و كثرة الضرائب ومضايقة الجباة وعدم استقرار الأمن و كثرة الحروب حتى غادر كثير من الفلاحين قراهم وقل عدد الأيدي العاملة . اما في الصنـاعة فان البيزنطيين مع اشتغالهم بالصناعات العادية الضرورية كانوا يهتمون بنوع خاص بصناعات الترف لكثرة الطلب عليها . فهنالك صناعة المنسوجات الحريرية والكتانيـة الثمينة ، وصناعة الحلي والمجوهرات والعطورات والزخارف المختلفة ، وصناعة المعادن والزجاج والعـاج وجلود الحيوانات الثمينة المزخرفة .

ولكن ثروة الدولة أتت خاصة من تجارتها وقد ساعد في ذلك موقع البلاد عند ملتقى الطرق المهمة . وكانت المواصلات من برية وبحرية سهلة لكثرة المرافىء ولوجود الطرق الكثيرة الـتي تربط جميع اطراف الامبراطورية بأبعد مصـادر البضائع . وهذه البضائع كانت تستورد من جميع جهات العالم الشرقي من الصين والهند والتركستـان والعراق وسورية وكذلك من جهات روسيا والقفقاس والبلقان . وقد سلكت الدولة سياسة غريبة في التجارة وذلك بأنها بدلاً من ان تستورد البضائع شجعت الأجانب على المجيء بهـا وبدلاً من أن تصدر مختلف البضائع فانها شجعت الأجانب ان يأتوا ويأخذوا من الاسواق البيزنطية مايحتاجون اليه . ولكنها كانت تتقاضى الرسوم الباهظة على جميع هذه البضائع عند دخولهـا البلاد وعند خروجها وعند البيع والشراء ، وبدأت اخيراً تشعر بخطر هذه السياسة عند ما أخذ الأجانب يستثمرون اسواق الشرق لحسابهم .

وكانت المراقبة شديدة على شؤون الصناعة والتجارة فكان نظام النقابات كما

في جميع بلاد العصور الوسطى لا يترك مجالاً لحرية العمل وللعمل الشخصي . وكانت الدولة تحدد نوع الصناعة وكميات البيع والشراء والاسعار ، والمراقبة كانت شديدة على التجار الأجانب . على أن الدولة شرعت في أيام ضعفها باعطاء الامتيازات لهؤلاء التجار وخاصةً البنادقة والجنوبين فأعفتهم من دفع الرسوم والضرائب التي كانت تتحملها سائر الطبقات وبذلك بدأت سيطرتهم التي لم تقتصر على الناحية الاقتصادية وإنما بدأت تتجاوزها الى شؤون السياسة .

وقد احتكرت الدولة البيزنطية تجارة الحرير ثم صناعته منذ القرن الخامس ولكنها لم تكن تنتج المادة الأولية الى ان تمكن اثنان من رهبان النساطرة من إدخال شرانق دودة الحرير من الصين في نحو عام ٥٥٢ ، واحتفظت الدولة بسر صناعة الحرير الى أن نقل روجر الثاني النورمندي أدوات صنع الحرير من اليونان الى باليرمو في صقلية . وكانت تجارة بيزنطة مع المناطق الشمالية تجري بواسطة موانىء القرم مع الهونيين والآفار Avars وقبائل القفقاس وجنوبي روسيا . وكان يلتقي عدد من تجار الشرق الأدنى والأقصى في جزيره سيلان حيث يأتي تجار الهند والحبشة مثلاً ويستبدلون بضائع الحرير والمر والصندل الواردة من الصين بالزجاج والاقمشة المطرزة الواردة من سورية . وكان تجار الحبشة يأتون بالبضائع الى عاصمة مملكة اقشوم ومن هذه تبحر السفن الى جوتاب قرب سيناء ومن ثم إلى آيلة أو العقبة أو الى الاسكندرية عن طريق ترعة البحر الأحمر الى النيل حيث توزع منتجات آسية . وأعظم جانب من التجارة مع الغرب كان بيد السوريين[1]. وزاد في سيطرتهم التجارية اضمحلال الحضارة الرومانية بعد غزوات البرابرة ، وكانت لهم جاليات في مدن الغرب بين القرنين الرابع والسادس تحتفظ بلغتها الوطنية في بعض الأحيان ومن مراكزها نابولي وأوستيا ونيس ومرسيليا . وذهب بعض التجار السوريين الى تور وبوردو وليون والى انكلترا وألمانيا .

---

(١) الامبراطورية البيزنطية تأليف نورمان بينز (معرب القاهرة ١٩٥٠) ص ٢٧٧ .

وعندما استعادت الدولة البيزنطية شمالي افريقيا في عهد يوستنيان في القرن السادس ازدادت حركة التجارة بين الموانىء الشرقيـة وبين افريقيا وايطاليا. وكانت سورية في ذلك الحين من اخصب بلاد العالم وارقاها صناعة فكانت تصدر الحرير والخمور من غزة وساربتا وعسقلان ، والزجاج من صيدا ومواد الترف من صور وبيروت . وبعد ان فقدت الدولة بلاد غربي آسية وشمالي افريقيا بسبب الفتوحات الاسلامية كما سنرى فانها ارادت بين القرنين السابع والثامن انمـاء علاقاتها التجارية مع ايطاليا ، على ان حوضي البحر المتوسط - الشرقي والغربي - انفصلا في القرن التاسع . واصبح اهم منفذ للتجارة البيزنطية بعـد القرن التاسع العلاقة مع روسيا . فكانت بعثة امير كييف تأتي الى بيزنطة لتحمل الضريبة العينية الى الدولة ، وينضم الى هذه البعثة تجار الاسواق المجاورة من بلاد جنوبي روسية ويسيرون في نهر الدنيبر نحو البحر الاسود . وعندما يدخلون القسطنطينية كانوا يدخلونها من باب واحد غـير مسلحين ولا يدخل منهم اكثر من خمسين دفعـة واحدة ولا تأخذ الدولة منهم ضرائب جمركية غير انها تجهزهم عند عودتهم بالاشياء والادوات اللازمة .

وهنالك كتاب من القرن العاشر يتعلق بقوانين اصدرتها الدولة للنقابات التجارية في القسطنطينية غايتها حماية المستهلك والمنتج . وقد اضمحلت التجارة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر بسبب امتيازات منحت للبندقية بعدان وعدت بالمساعدة وكان اسطول البندقية اقوى من اسطول بيزنطة ، ودهاء البنادقة هو الذي حمل الصليبيين على مهاجمة القسطنطينية مما ادى الى فقد الامبراطورية مكانتها .

ومن اسباب اضمحلال التجارة البيزنطية ان الاغنياء كانوا لا يجازفون برؤوس اموالهم في تجارة بعيدة ما وراء البحـار ويفضلون استثمار اموالهم في الاراضي الزراعية ، والقانون البيزنطي كان يمنع السفن من الابحار في الشتاء . وهنالك خطر القرصنة وخطر انتقام رعايا البلاد التي اعتدت عليها الدولة البيزنطية . والسفن كانت تسير مجتمعة ومسلحة . اما البندقية فكانت ارستوقراطية تجارية لا تتراجع امام

اخطار الملاحة . ونقود الدولة البيزنطية كانت معروفة ومتداولة في مختلف البلاد وظلت كذلك حتى نهاية العصور الوسطى .

الفتوحات الاسلامية والاقتصاد البيزنطي : فتح العرب المسلمون سورية ومصر وشمالي أفريقيا التابعة للدولة البيزنطية بين نهاية الثلث الاول من القرن السابع ونهاية ذلك القرن . وكان العرب أصحاب السيطرة في العلاقات مع البيزنطيين حتى القرن الحادي عشر حين انتقلت السيادة الى الاتراك السلاجقة والايوبيين والماليك والعثمانيين . ولم يكن للعرب خبرة في شؤون البحر فاستخدموا بحارة من البلاد التي افتتحوها واحتلوا قبرص ووصلوا كريت وفي عام ٦٧٠ ظهروا أمام القسطنطينية ، ولكن حصارهم لم يكن موفقاً وظلوا يترددون على عاصمة البيزنطيين حتى عام ٦٧٧ حين اضطر الخليفة معاوية أن يسترجع جنده . ثم عاد العرب فحاصروا القسطنطينية في عام ٧١٧ ولكن المحاولة فشلت انما فكرة الاستيلاء على هذه العاصمة بقيت . واحتل العرب صقلية في القرن التاسع . وكانت فترات الصداقة والسلم تتخلل فترات الحرب والعداء بين العرب والبيزنطيين وكانت الوفود البيزنطية تأتي الى بغداد كما أن الوفود العربية كانت تقصد القسطنطينية في فترات السلم . ومراسم استقبال هذه الوفود يصفها كتاب الامبراطور قسطنطين السابع في القرن العاشر وعنوانه « كتاب المراسم » .

وقد أثرت فتوحات العرب في التجارة البيزنطية حيث تقوضت دعائم الرخاء الاقتصادي بعد اقتطاع أغنى ولايات الامبراطورية وأكثرها ازدهاراً . على أن بعض العلاقات التجارية قامت بين البيزنطيين والعرب أثناء فترات السلم . وكانت طرابزون في القرن العاشر أهم مركز للاتصالات التجارية بين بيزنطة وتجار المسلمين . وفي عام ٩٦١ استرجعت بيزنطة جزيرة كريت . وأكثر تجارة الشرق الاسلامي قبل الحروب الصليبية كانت تنقل الى الغرب عن طريق بيزنطة ولكن الصليبيين أقاموا علاقات تجارية مباشرة بين اوروبا والشرق وانتقلت السيادة الاقتصادية بذلك الى المدن الايطالية .

الناحية الدينية في الحضارة البيزنطية : سلطة الامبراطور وبطريرك القسطنطينية :

كان الامبراطور البيزنطي صاحب السلطة العليا في الشؤون الدينية غير أن نفوذ البطريرك كان أحياناً يفوق نفوذه خاصة عندما يتبعه الشعب ويؤيده . وقد اهتمت الدولة بثلاث مشاكل دينية عدا عن مشاكلها العادية مع البطاركة وهي اولا مسألة الرهبنة واتساع نفوذها ، ثانياً الهرطقات والبدع ، ثالثاً قضية العلاقات مع البابوية .

كان الامبراطور صاحب الكلمة العليا في شؤون الكنيسة كما في شؤون الدولة . فهو الذي يعين الاساقفة ويعزلهم ويعطيهم سلطتهم الروحية . وهو الذي يضع القوانين الدينية ويدعو المجامع الكنسية للانعقاد ويدير مباحثاتها ويثبت قراراتها وينفذها . وهو الذي يضع الانظمة الكنسية ويثبت العقائد ولذلك قيل ان كل امبراطور بيزنطي كان ايضاً عالماً لاهوتياً يعرف كيف يجادل ويناقش في شؤون الدين . كذلك كان الامبراطور القاضي الأعلى في المسائل الكنسية فيمكنه ان يثبت او ينقض جميع قرارات المحاكم الكنسية . وكان عليه كحامي الكنيسة ان ان يحارب الهرطقة والبدع وينشر المذهب الارثودكسي مذهب الدولة الرسمي .

عندما اتسع نفوذ الكنيسة المسيحية وزاد عدد افرادها بعد أن اعترفت بها الدولة الرومانية أصبح امر ادارتها مهماً فتأسست الاسقفيات وتوزعت على مناطق الدولة الادارية في اول الأمر . وكانت القاب الرؤساء الدينيين في المدن تقتصر في بادىء الامر على اساقفة ورؤساء اساقفة . ولكن في القرن الخامس يظهر لقب بطريرك بمعنى الرئيس الديني الاعلى في منطقة من المناطق ، ويصبح العالم المسيحي الشرقي تحت سيطرة أربعة بطاركة مستقل واحدهم عن الآخر ومراكزهم القسطنطينية وانطاكية والقدس والاسكندرية . غير أن بطريرك القسطنطينية أعطي الأسبقية على سائر البطاركة كما أعطي اسقف رومة (اي البابا) الاسبقية

في الغرب على سائر الاساقفة . واتخذ هـذا البطريرك في القرن السادس لقب البطريرك المسكوني بالرغم من احتجاج البـابوات . وعندما انفصل البطاركة الثلاثة الآخرون عن الامبراطورية في القرن السابع بسبب الفتوحات الاسلاميـة اصبح بطريرك القسطنطينية الرئيس الاعلى للكنيسـة البيزنطية . وكان نفوذه في شؤون الدولة كبيرا أيضاً وذلك أولا لتتويجه الامبراطور وثانيـاً لثروته الطائلة وثالثاً لكثرة رجال الدين اتباعه وأهميتهم في المجتمع، ورابعاً لاهتمام الشعب بالشؤون الدينية وتأييدهم رجال الدين في بعض المواقف . وعدا ذلك فان البطريرك كان بامكانه ان يساعد الامبراطور في سياسته نظراً لهذا النفوذ ومن جهة أخرى كان يمكنه ان يتعبه ويحرج مركزه وسلطته .

فالعلاقات بين الامبراطور والبطريرك كانت تارة حسنة وطوراً سيئة وكان البطريرك احيانا يخضع لسلطة الامبراطور ويسلم بها وطوراً يتمرد عليها ويحطمها وذلك يتوقف على قوة كل من الامبراطور والبطريرك . ففي عهد السلالة الايزورية اثنـاء النزاع على الايقونات كان الاباطرة أقوياء ولكنهم شعروا بسلطة الكنيسة ورجالها فارادوا اضعافها وقد خرجوا من ذلك النزاع منتصرين . وقـد عزل الاباطرة البطاركة ونفوهم وسجنوهم اكثر من مرة لتمردهم على سلطتهم . ولكن البطاركة تمكنوا أيضاً في بعض الاحيان من فرض ارادتهم على الاباطرة كما كان يفعل بعض البابوات مع أباطرة الغرب وكانوا احيانا يفرضون عليهم العقوبات لاسباب دينية . فقد حرم الامبراطور ليون السادس المكدوني مثـلا من دخول كنيسة آياصوفيا من قبل البطريرك نقولا، وكذلك حرم نقفور فقاس المشهور من قبل بطريرك آخر . وأعظم سلطة بلغها بطريرك في القسطنطينية هي سلطة ميشيل كيرولاريوس في القرن الحـادي عشر الذي تم في عهده الانفصال عن البابوية والكنيسة الغربية في عام ١٠٥٤ واجبر الامبراطور ان يقبل هذا الانفصال مهدداً اياه بالثورة . وقد شعر بتعلق الشعب به بعد هذا العمل فبلغ من سلطته انه أجلس على العرش ميشيل السادس في ١٠٥٦ ووطد سلطته وبعد سنة أجبره على التنازل.

وبسعيه نجحت الثورة التي اتت باسحق كومنين . ولما شعر هذا الاخير ان البطريرك ينوي اسقاطه سجنه ونفاه وتوفي البطريرك في المنفى .

الرهبنة والدولة البيزنطية : انتشرت الرهبنة في الدولة البيزنطية وفي الغرب انتشاراً هائلا وقد اتت من الشرق . والواقع أن حياة الزهد والتقشف والانقطاع عن الدنيا قد ظهرت في النصرانية منذ اول عصورها . فقام جماعة من الرجال والنساء واقلعوا عن الزواج وعن أكل اللحم وشرب المسكرات وعاشوا لاجل الصلاة واعمال البر . وجرت العادة في مصر منذ القرن الثالث ان تعيش جماعات الزهاد منعزلة في ضواحي المدن كما فعل القديس انطوان . فقد عاش هذا الزاهد في مكان مهجور قرب الفيوم في مصر والتف حوله الاتباع لكي يرشدهم . ويعتقد البعض انه مؤسس الرهبنة النصرانية . غير ان القديس انطوان لم يؤسس جمعية رهبانية فكانت حياة اتباعه غير منظمة واساسها التنسك . وبقي اسلوبه هذا شائعاً في مصر الوسطى والشمالية حتى القرن الخامس . وكانت مساكن النساك وجماعات الرهبان منتشرة على طول النيل والصحارى المجاورة له بين اسيوط والاسكندرية . ولكن في القرن الرابع قام القديس باكوم في جنوبي مصر واتبع اسلوبا منتظماً للرهبانية فأسس اول دير في دندره وقبل وفاته في عام ٣٤٦ كانت قد تأسست تسعة اديرة للرجال ودير واحد للنساء . واصبح عدد اتباع طريقته في مطلع القرن الخامس نحو سبعة آلاف وحياة الرهبان كانت منظمة في جميع تفاصيلها وتمكن القول اذاً انه اول من أسس جمعية رهبانية . غير أن الرهبنة في مصر اخذت تضعف وتنحل بعد القرن الخامس وخصوصاً بعد الفتح الاسلامي . وانتشرت الرهبنة وأساليبها من مصر الى سائر انحاء الدولة البيزنطية . وقام جماعة آخرون وضعوا اساليب خاصة توافق البلاد المختلفة منهم القديس باسيل الذي انتشرت طريقته في البلاد اليونانية والسلافية ، وخاصة القديس بندكت واضع الطريقة المشهورة في الرهبنة في مطلع القرن السادس التي بموجبها يقل التقشف ويهتم الراهب بالعمل اليدوي والفكري

وبالتبشير . وقد ادخل الرهبان البندكتيون الحضارة والنصرانية بين الشعوب الجرمانية في القرن السابع والثامن .

لعبت الرهبنة في الدولة البيزنطية دوراً لايقل في بعض الاحيان عن الدور الذي لعبته الكنيسة . وكان عدد الاديرة عظيما ومن أهمها أديرة جبل اتوس المشهورة اعتباراً من القرن العاشر . وكان عدد الرهبان كبيراً ويحيطهم السكان باحترام زائد ويدعونهم « رعايا السماء » . وقد ازدادت الاديرة ثروة وازدادت أراضيها اتساعا حتى ان الاباطرة خشوا سوء العاقبة . والحقيقة أن تطور الرهبنة على ذلك الشكل قد اساء الى الدولة اولا من الوجهة الاقتصادية لان الايدي العاملة التي كان بمكنها أن تشتغل في الزراعة قلت بكثرة عدد الرهبان ولان معظم الاراضي التابعة للرهبان لم تدفع الضرائب ، وثانياً من الوجهة الحربية لان الرهبان والسكان الذين يشتغلون في أراضيهم كانوا معفيين من الخدمة العسكرية وثالثاً من الوجهة السياسية لانه كان للرهبان تأثير كبير على الشعب لما كان ينسب اليهم من القوات الخارقة .

وعلى ذلك فان بعض الاباطرة اتخذوا التدابير اللازمة لمنع الرهبنة من التقدم وخاصة لمنع ازدياد أراضيها . وقد اضطهدها الاباطرة الايزوريون في نزاعهم حول الايقونات . والواقع أنهم قصدوا بتحريم الصور والايقونات أضعاف سلطة الرهبان والكنيسة لانها كانت من أهم وسائل نفوذهم . وقد دام هذا النزاع ضد الرهبنة اكثر من قرن فاغلقت الاديرة باسم الاباطرة وتفرق شمل الرهبان فنفوا وسجنوا واخذت أراضيهم . ولكن الرهبان سموا بجميع الوسائل ان يضعفوا سلطة الامبراطور غير مكترثين بالعاطفة الوطنية ، ولم يتمكن الاباطرة في نهاية الامر من القضاء عليهم . كذلك اهتم اباطرة الاسرة المكدونية بامر الرهبنة فوضع نقفور فقاس قانونا يحرم فيه تأسيس اديرة جديدة و منحها اراض جديدة . ولكن البطريرك والرهبان احتجوا واستاءوا وهددوا بالثورة ولذلك الغي القانون

في عهد باسيل الثاني لكي يهتم بشؤون الدولة الهامة وبالخطر الخارجي على حدود الدولة .

الهرتقات او البدع في الدولة البيزنطية : ظهرت في النصرانية في القرن الرابع والخامس آراء مختلفة تتعلق بطبيعة المسيح وأيدها جماعة من كبار رجال الكنيسة وقامت حولها المناقشات حتى انها أصبحت مذاهب قائمة بذاتها . وقد اهتم الاباطرة بها وعقدوا المجامع ووضعوا القرارات بشأنها . هذه المذاهب الجديدة سميت « هرتقات » أي مبادىء محكوم عليها كمخالفة للايمان . وكان الشرق وخاصة سورية مبعث هذه الهرتقات، ولا يجب النظر اليها كمنازعات دينية لاهوتية فحسب وانما اتخذت شكلا سياسياً في بعض الاحيان واثرت على علاقات الكنيسة بالدولة وعلى العلاقات بين الدولة البيزنطية والعالم الغربي .

واشهر هذه الهرتقات او البدع ثلاثة أولها الآريوسية واعتقادها الاساسي ان المسيح لايساوي الله . ومؤسسها كاهن اسمه آريوس درس في انطاكية وأقام في الاسكندرية ونشر تعاليمه في عام ٣١٨ فقال ان المسيح ليس انساناً تاما لان فيه روحاً الهية ولا هو اله كامل لانه مخلوق، وأهم ماجاء في تعاليمه أن المسيح مهما تجاوز باقي البشر فانه مخلوق اعطاه الله كيانا خاصاً . فهو يعطي الاهمية الكبرى للآب اي الله ، غير ان الكنيسة المسيحية تعتقد بان المسيح وهو ابن الله مساوٍ للآب ولذلك حرم آريوس من الكنيسة وحكم على تعاليمه في المجمع الكنسي الذي عقد في نيقية (قرب البوسفور في الاناضول) في عام ٣٢٥ وقرر المجمع أن المسيح اي الابن هو كالاب في جوهره . وحاول الامبراطور قسطنطين انيصالح آريوس واعاده الى الاسكندرية ولكنه توفي فيها . ثم انحطت الحركة الآريوسية في ايام غزوات البرابرة في القرن الخامس .

والهرتقة الثانية وهي من أشهر الهرتقات هي « النسطورية » واعتقادها الاساسي ان المسيح كان بشراً واصبح الهاً . وهذه الحركة الدينية تنتسب الى

مؤسسها نسطوريوس الذي كان بطريرك القسطنطينية (٤٢٨ — ٤٣١) انما ولد في شمال سورية ودرس في انطاكية . ومن أشهر تعاليمه انه يجب التمييز بين الشخص الالهي في المسيح والشخص البشري وانه لا يجب ان تدعى العذراء مريم « والدة الاله » كما يسمها سائر النصارى لانها بشر ولا يمكن ان تلد الها . وقد كثر عدد النساطرة تابعي هذا المذهب خاصة في العراق وكانت احوالهم حسنة في ظل الدولة العربية ومالوا الى التبشير واسسوا الاسقفيات في فارس وافغانستان وتركستان حتى الصين .

والهرتقة الثالثة هي التي تقول بأن المسيح كان إلهاً فقط أي تعتقد بطبيعة واحدة للمسيح وهي الطبيعة الالهية وتعرف عند الأجانب باسم مونوفيزية (من اليونانية أي طبيعة واحدة) . والذي أتى بهذا الرأي هو بطريرك الاسكندرية كيرلس (٤١٢ — ٤٤٤) ليرد به على المذهب الذي قال به نسطوريوس . وقيام كيرلس (او سيريل) ضد تعاليم نسطور لم يكن سببه دينياً بقدر ما كان شخصياً لأنه أراد أن يحط من شأن سلطة بطريرك القسطنطينية الذي أخذ يتفوق على سائر البطاركة . وقد أتى كاهن آخر اسمه افتيخس Eutychius (م ٤٥٤) وكان رئيس دير قرب القسطنطينية وأيد مذهب الطبيعة الواحدة وهاجم النسطورية قائلاً ان الطبيعة الالهية في المسيح قد امتصت الطبيعة البشرية كما يمتص البحر قطرة الماء ولذلك لم تبق فيه إلا الطبيعة الالهية . وساعده في مهاجمة النسطورية بطريرك الاسكندرية ديوسكورس Dioscore خلف كيرلس . وعقدت المجامع لتأييد نظرية هذا المذهب الجديد وكاد يتم الظفر لبطاركة الاسكندرية وكادوا يبسطون نفوذهم على العالم المسيحي في الشرق .

عند ذلك اتحدت الامبراطورية البيزنطية والباوية ضد الهرتقة . وعقد مجمع كنسي في خلقدونيــة (عند مدخل البوسفور وتسمى اليوم قاضي كوي) في ٤٥١ وجاءت قراراته ضد جميع هذه الهرتقات فقضت على احلام بطاركة الاسكندرية وسادت وجهة نظر الكنيسة والدولة . غير أن المونوفيزيين اصحاب الطبيعة الواحدة

قاوموا قرار المجمع وقامت هذه المنازعات تصطبغ ليس فقط بالصبغة الدينية اللاهوتية ولا بصبغة التنافس الشخصي بين البطاركة وإنما بالصبغة السياسية القومية ايضاً. فكان نزاع اصحاب الطبيعة الواحدة ضد الكنيسة الرسمية في مصر وسورية يخفي بين طياته ميولاً قومية انفصاليـة . وقد أحرجت هذه الاضطرابات مركز الدولة خصوصاً عندما كانت تهددها الأخطار الخارجية . وقد أجبر يوستنيان في القرن السادس على أن يتساهل مع اصحاب هذه الهرطقـات خصوصاً وزوجته تيودورا من اصحاب الطبيعة الواحدة . وعلى ذلك فان الأباطرة مع محافظتهم على الوحدة الدينية للبلاد وسعيهم لتقوية الأرثوذكسية (الديانة الرسمية) ومحـاربة الهرتقة كانوا أحياناً يتساهلون إما بسبب ميولهم الخاصة أو بسبب الظروف والأحوال السياسية التي توجب التساهل .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس قام راهب متقشف اصبح فيما بعد أسقفاً لأديسا واسمه يعقوب البردعي وساح في الشرق وتمكن من توحيد الجماعات القائلة بالطبيعة الواحدة وأصبحوا يدعون يعاقبة بالنسبة إليـه . وقد فر بعضهم من الاضطهاد الى فارس وبلاد العرب وشعائرهم تقام باللغة السريانيـة وهي لهجة من الآرامية كان يتكلمها معظم السوريين في ذلك العصر . وأصبح لهم فيهـا أدب مشهور كما كان للنساطرة ايضاً .

النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية وانفصالهما ونتائجه : تأسست في بلاد الغرب أسقفيات كما تأسست في بلاد الشرق ولكن أسقف رومـة بدأ يتخذ سلطة خاصة على سائر الأساقفة الغربيين منذ القرن الثالث وذلك لأنه كان أسقف العاصمة وثانياً لأنه اعتبر انه وريث القديس بطرس تلميـذ المسيح وأول مؤسس لكنيسة رومة وأصبح يعرف بالبابا (أي الأب) . وعند ما سقطت الامبراطورية الرومانيـة في الغرب حافظت البابوية على شيء من تراثها حتى اصبح لهـا فيما بعد سلطة زمنية بجانب سلطتها الروحية . وأرادت منذ القرن الخامس أن تفرض

سلطتها على أساقفة الشرق وبطاركته ولكن هؤلاء رفضوا الطاعة قائلين ان البابا إنما هو أسقف مثلهم. وقد قاومه بطاركة الاسكندرية وخاصة بطاركة القسطنطينية الذين كان يعضدهم الأباطرة احياناً وخصوصاً الشعب في نزاعهم ضد البابوات وصار يطلق على الكنيسة الشرقية الرسمية اسم ارثوذكسية أي صاحبة الرأي المستقيم، وعرفت الكنيسة الغربية بالكاثوليكية أي الكنيسة الجامعة .

ظهرت أول بوادر الانشقاق بين الكنيسة الغربية والشرقية في القرن الخامس وانقطعت العلاقات بينها مدة خمس وثلاثين سنة بسبب المنازعات المتعلقة بالهرتقة ولكن هذه العلاقات عادت اخيراً . إلا أن الفروق والاختلافات بين الكنيستين في طقوس العبادة وفي الرتب والأنظمة الكنسية كانت آخذة بالازدياد وقد ظهرت خاصة في المجمع الكنسي الذي عقد في القسطنطينية في عام ٦٩١ بدون سابق اتفاق مع البابا ووضعت فيه قوانين كنسية كثيرة عرضت على البابا فرفض الموافقة عليها . وهذه القوانين لا أهمية لها في العقائد وإنما في الأنظمة الكنسية . وقد أبقت بعض العادات التي كان يجهلها اتباع البابوية في الغرب مثل زواج فريق من الكهنة . وأصبحت هذه الاختلافات حججاً في مقاومة ادعاء البابوات وكانت اخيراً من اسباب الانفصال النهائي . وفي القرن التاسع يحصل حادث يمكن ان نعتبره بدء الانفصال بين الكنيستين وذلك ان البطريرك فوتيوس العالم الطموح اصبح بطريركاً في عام ٨٥٨ بمساعدة الامبراطور ميشيل الثالث الايزوري ونفى البطريرك الذي كان قبله ، فقام البابا نقولا الاول وأراد استثمار هذا الحادث ليبسط سلطته على الكنيسة الشرقية فأيد البطريرك المعزول وحرم فوتيوس . ولكن هذا الأخير عقد المجامع الدينية في القسطنطينية وحرم البابا وعزله وجعل من قضيته الشخصية قضية عامة تتعلق بالكنيستين الشرقية اليونانية والغربية اللاتينية وأذاع رسالة على أساقفة الشرق يتهم فيها اللاتين الغربيين بالاساءة الى العقائد والى النظام الكنسي بأمور منها تشجيع استبداد البابوات وإجبار الكهنة على عدم الزواج .

تتابعت الحركة التي بدأها فوتيوس بعد وفاته وزاد كره الشرقيين للاتين

بسبب كرههم للعادات والأنظمة الدينية التي اتبعوها وأصبح التشهير بهذه العادات طريقة رائجة عند رجال الدين في الشرق لاكتساب الشهرة . كذلك اتخذ البابوات تدابير شديدة ضد الأنظمة الشرقية منها أن البابا ليون التاسع أعلن ان زواج الكهنة هو من قبيل الزنا وحلل بيع نساء الكهنة كعبيد ولذلك زاد اشمئزاز الكهنة الشرقيين والشعب . وأخيراً حصل الانفصال النهائي في زمن البطريرك النافذ الكلمة ميشيل كيرولاريوس في عام ١٠٥٤ وذلك انه ارسل الى احد أساقفة ايطاليا تحريراً يدعو فيه الأساقفة الغربيين الى ترك كنيستهم وأغلق الكنائس اللاتينية في المناطق التابعة لسلطته . ووصل هذا التحرير الى البابا فأعلن سخطه عليه وأراد الامبراطور قسطنطين التاسع المكدوني ان يهدأ النزاع فطلب من البابا ارسال وفد الى القسطنطينية . وأرسل البابا الوفد المؤلف من ثلاثة مفوضين فأجاب احدهم بصورة مهينة على ادعاء الكنيسة الشرقية ورفض البطريرك استقبال الوفد البابوي وكان يؤيده الشعب والكهنة في ذلك . وكانت النتيجة ان المفاوضين الثلاثة دخلوا كنيسة آياصوفيا ووضعوا صك حرمان على المذبح وغادروا الكنيسة قائلين « ليرى الله ذلك وليحكم » . وكان يحتوي ذلك الصك جميع الهرتقات والبدع التي نسبها اللاتين للكنيسة الشرقية ، فأجاب البطريرك على ذلك بحرمان مثله وانضم اليه جميع بطاركة المشرق . وأراد الامبراطور استئناف المفاوضات ولكن الشعب هاج فأجبر ان يقبل بالأمر الواقع .

على هذا الشكل انتهت العلاقات بين الكنيستين ولم يعد للبابوات تدخل في شؤون الكنيسة الشرقية التي احتفظت بطقوسها وتقاليدها. ولم تكن السلطة فيها مركزية كما في الكنيسة الغربية . وقد حصل هذا الانفصال في عصر كان فيه البابوات في اشد قوتهم ثم تأتي الحروب الصليبية في نهاية ذلك القرن وبدلا من ان تكون وسيلة لتوحيد الجانبين في مساعي المشترك كانت بالعكس واسطة لازدياد الاصطدام والاحقاد والضغائن كما رأينا ، ثم يحتل اللاتين القسطنطينية فيزداد حقد اليونان على اللاتين كغاصبين ظالمين واصبح هذا الحقد والضغينة اقوى من الخوف الذي

كان يبعثه الاتراك وهم يهددون مدينة القسطنطينية . وحصلت المحاولات لاعادة العلاقات بين الكنيستين في أيام آخر اباطرة القسطنطينية لكي يساعدهم الغرب ضد الاتراك ولكن الشعب البيزنطي رفض التعاون . وهذا ما كان احد أسباب سقوط القسطنطينية . غير ان الواقع هو ان تفاهم البيزنطيين واللاتين ما كان انقذ الدولة البيزنطية لانها كانت في أشد حالات الانحطاط . ومهما يكن فان تعلق اليونان بكنيستهم قد انقذ قوميتهم لان الاتراك تركوا للبطريرك سلطته الروحية وبقيت الامم البلقانية المسيحية تحتفظ بقوميتها عن طريق الدين الى ان سنحت لها الفرصة بالاستقلال .

والخلاصة ان المشاكل الدينية قد لعبت دوراً هاماً في حياة الامبراطورية البيزنطية وكانت من الاسباب التي اضعفت الامبراطورية وادت الى انحطاطها .

❀❀❀

الفصل الثالث عشر

الحضارة البيزنطية : مآثرها وانتشارها

المآثر الفكرية ومميزاتها : كان من أهم مميزات الحياة الفكرية في الدولة البيزنطية انها تأثرت بالحضارة الهلينية واهتمت بدرس الثقافة القديمة وخاصة اليونانية وحافظت عليها . وقد حصل هذا الاحياء للآداب اليونانية القديمة خاصة بعد القرن الحادي عشر وظهر المفكر الكبير ميشيل بسيلوس Psellos الذي اهتم بدراسة افلاطون وفلسفته في جامعة القسطنطينية بعد ان كانت العصور الوسطى لاتهتم الا بدراسة ارسطو . ومن المميزات أيضاً ان البيزنطيين كانوا ينشدون الفائدة من آدابهم ويودون الاستفادة في حاضرهم من العلوم والمعارف التي تركها الماضي ولذلك وضعت دوائر المعارف أو الموسوعات لجمع هذه المعلومات . واهتم البيزنطيون بشكل خاص بقراءة التاريخ وكثرت المؤلفات التاريخية . وكان المؤرخون أحياناً من كبار الدولة واعظم موظفيها ولذلك كان اطلاعهم على العصر الذي يكتبون عنه واسعاً ودقيقاً . وقد كتب التاريخ بعض الاباطرة واشهرهم قسطنطين السابع (المولود في الارجوان) في القرن العاشر من الاسرة المكدونية ويشهد « كتاب المراسم » وكتاب « ادارة الامبراطورية » برغبته الزائدة في الاطلاع . واهتم البيزنطيون بجميع النواحي الادبية الاخرى فكتبوا في المسائل الدينية واللاهوتية للدفاع عن عقائدهم وآرائهم . ووضعت الاشعار الشعبية ايضاً وعرفت الدولة البيزنطية جميع انواع الفصاحة والبلاغة من مراث وخطب حماسية

في جميع المناسبات . ومن أشهر العلوم التي أهتم بها البيزنطيون علم الحقوق وكانت جامعة القسطنطينية أهم مراكزه بعد ان اندثر معهد بيروت المشهور ، وكثرت المؤلفات الحقوقية في القرون الاخيرة . وترقت علوم الرياضيات والفلك وكان البيزنطيون يتعرفون أحياناً على آثار علماء اليونان الأقدمين بواسطة التراجم العربية . وترقى علم الطب لشدة الحاجة اليه ولكثرة المؤلفات العربية فيه .

ومن مميزات الحياة الفكرية والحضارة البيزنطية عموماً انها اتخذت صبغة شرقية بالرغم من بقاء الهلينية . فمدن الاسكندرية وانطاكية وافسس كانت مراكز فكرية وفنية عظيمة . والعالم الشرقي اخذ يستيقظ ويشعر بتقاليده القديمة في سورية ومصر وآسية الصغرى وارمينية ، واخذت الروح الشرقية تتحرك ضد اليونانية . وشجعت المسيحية ذلك لكرهها للثقافة اليونانية الوثنية . وعلى ذلك كانت تتمتع سورية ومصر وآسية الصغرى باهمية كبرى بين القرنين الرابع والسادس قبل انفصالها عن الامبراطورية البيزنطية بنتيجة الفتوحات الاسلامية .

وقد ورث البيزنطيون الآثار الادبية اليونانية والهلنستية وصاغوا اساليبهم حسب نماذج اتيكية (بالنسبة لاتيكا حيث تقع اثينا) واستعانوا بالمعاجم وكتب النحو ولذلك تقسم مؤلفاتهم بتقليد الاسلوب الاتيكي الذي أصبح متكلفا . وكانت جامعة اثينا لاتزال مشهورة في القرن الرابع كما وجدت مدارس اخرى في هذا القرن والذي تبعه مثل مدارس انطاكية وغزة وحمص وقيصرية . والتعليم كان باللغة اليونانية بينما اللسان الغربي (أي اللاتينية) كان مهملاً . وتصبح جامعة القسطنطينية مركز الحركة الثقافية بعد القرن التاسع ولا بد أن اهميتها ازدادت بعد ان فقدت الدولة سورية في القرن السابع . وكان البيزنطيون يميلون كثيراً الى قراءة لوكيانوس السوري الاصل (من القرن الثاني م) بسبب أسلوبه البديع وروح النقد في مؤلفاته واحياناً كانوا يدسون قطعاً بيزنطية تقلده في مخطوطات كتبه .

وقد ظهرت اصالة الادب البيزنطي في اللاهوت والشعر الديني والتاريخ الكنسي

وكان المؤلفون المسيحيون يعيشون في مجتمعهم الديني ويكتبون له . فقد نظم غريغوريوس النازيانزي المدائح الدينية، وشهد القرن الرابع مؤلفات اثناسيوس بطل الارثوذكسية، وباسيل مؤسس الرهبنة اليونانية ويوحنا فم الذهب الذي كان كاهناً في انطاكية ثم بطريركاً في القسطنطينية . على أن آباء الكنيسة هؤلاء لم يمكنهم التخلص من التقاليد اليونانية القديمة التي تسلموها من السفسطائيين الوثنيين ولذلك كان لهم رونق لفظي نشروا فيه رسائلهم بين الجماهير . ومن جهة اخرى فان المؤثرات الشرقية تظهر بوضوح في خصب خيالهم وبديعهم . وادبهم يمتاز في انسانيته وفي ذلك التحمس للعدالة الذي اتصفت به كتابات يوحنا فم الذهب . وكتب يوحنا الدمشقي (وهو من اسرة سرجون المشهورة في ادارتها لمالية الدولة في العصر الاموي) دفاعه المشهور عن الصور المقدسة في القرن الثامن في كتابه « الرد على الذين يحطون من شأن الايقونات » . وحاول في كتاب « ينبوع المعرفة » ان ينظم تراث آباء الكنيسة . وفي غربي أوربا اتخذ بطرس اللومباردي فيما بعد كتاب يوحنا الدمشقي نموذجاً له وكذلك استخدمه توما الاكويني فكان « ينبوع المعرفة » اول مجموعة لاهوتية وصلتنا . وترجمت بعض مؤلفات الدمشقي الى اللاتينية واصبح قديساً في الكنيستين الشرقية والغربية . ووضع الاناشيد الدينية التي تظهر ارفع ما وصله الشعر الكنسي من الجمال. وتنسب الى يوحنا الدمشقي قصة برلام ويوصافات وهي قصة متصوف اسمه برلام وامير هندي أسمه يوصافات يعتنق المسيحية بعد أن حاول والده ان يمنعه عن ذلك . واصبحت هذه القصة من أشهر القصص الدينية الخيالية في العصور الوسطى وترجمت الى لغات كثيرة ولا نعلم بالضبط مؤلفها وقد يكون راهباً مجهولا اسمه يوحنا عاش في دير سابا قرب القدس قبل الدمشقي بقرنين أو اقل . والقصة هي شكل مسيحي لحياة بوذا الذي تنبأ أحد البراهمة لابيه أنه سيصبح متصوفاً فوضعه في قصر ولكنه غادر القصر وعاش حياة الزهد . وقد أصبح يوصافات قديساً في الكنيسة الشرقية والغربية .

ونبغ في الشعر الديني شاعر أصيل في القرن السادس وهو رومانس الذي كان شماساً في بيروت ثم ذهب الى القسطنطينية وانشأ المدائح اللاهوتية . وربما وجد نماذجه من حيث الشكل في المدائح السريانية التي وضعها افرام في القرن الرابع وكان قد فر من نصيبين بعد الاحتلال الفارسي الى مدينة الرها . وهذه الاشعار الدينية على شكل حوار يرتلها جماعتان من المرتلين ثم يحل محلها بعدالقرن التاسع ضرب من الاناشيد الموسيقية اكثر منها زخرفاً وتكلفاً . وكان من اشهر الكتاب اللاهوتيين فوتيوس بطريرك القسطنطينية في القرن التاسع ، كما ان من أشهر المؤرخين الدينيين عدا عن يوسيبيوس وسوزومين هنالك يوحنا الافسي وايفاغريوس Evagrius وجميعهم بين القرن الثالث والسادس . ومن كبار مؤرخي الدولة البيزنطية فيما سوى الشؤون الدينية هنالك بروكوبيوس Procopius في القرن السادس وهو مؤرخ عصر يوستنيان ، وبسيلوس الذي ذكرناه وكان من المفكرين اللامعين ، وميشيل دياكر Diacre في القرن الحادي عشر ، وزونارس Zonaras في القرن الذي تلاه .

واما الادب الشعبي فقد تألف من اساطير اغريقية اصابها التحوير كقصة حصار طروادة، وسيرة الاسكندر ، وحكايات شرقية منقولة من مصادر بعيدة تكاد تخفي اصولها بسبب ثوبها المسيحي واشهرها قصة برلام ويوصافات المذكورة آنفاً، وسير القديسين التي كتبها رهبان متواضعون للجمهور . وهنالك ملاحم حماسية تنشد في المعسكرات وقرب الثغور ومنها ملحمة ديوجنيس اكريتاس Akritas .

ويمتاز عصر النهضة الادبية في عهد الاسرة المكدونية في القرنين العاشر والحادي عشر بالموسوعات التاريخية والقانونية والادارية والعلمية والدينية . ثم في عهد الاسرة التالية وهي اسرة كومنين نرى الاباطرة يشجعون الادباء واللاهوتيين وشعراء البلاط وتظهر كاتبة من الاسرة الحاكمة تدعى آن كومنين . ومن مظاهر حيوية الحضارة البيزنطية انه حتى عندما كانت الدولة تحتضر في زمن اسرة باليولوغ

حصل بعث ادبي وفني . وكانت المدارس كثيرة ومزدهرة واساتذتها المشهورون مثل كريزولوراس Chrysoloras كانوا يجددون دراسة الكتاب الكلاسيكيين وقد سبقوا الكتاب الانسانيين في عصر النهضة الاوربية . وكان الفلاسفة مثل بساريون Bessarion يتابعون دراسة نظريات افلاطون وينقلونها الى الغرب كما ان هذا العصر شهد جماعة من المؤرخين والشعراء والخطباء واللاهوتيين وجماعة من العلماء الذين لم تكن خدماتهم باقل من خدمات روجر بيكون Bacon في الغرب وفي ذلك يقول شارل ديل « ان بيزنطة كانها استجمعت جميع قواها الفكرية قبل سقوطها النهائي لكي تسطع بنور أخير . »

الصلات الثقافية بين البيزنطيين والعرب : كانت الحروب تقوم بين البيزنطيين والعرب غير ان فترات السلم كانت تفسح المجال للعلاقات الثقافية بين الطرفين . وكانت المراكز الثقافية الزاهرة التي كانت على اتصال وثيق بالهلنستية مثل انطاكية وقيصرية وغزة والاسكندرية قد دخلت في حوزة العرب ومعها مكاتبها ومدارسها ومتاحفها فاصبحت الثقافة الهلينية التي ورثتها بيزنطة في متناول العرب بعد فتح سورية ومصر . وكان بعض الرحالة العرب يزورون القسطنطينية ويصفونها ومنهم هارون بن يحيى الذي كان اسيرا في القرن التاسع ووضع وصفاً للعاصمة البيزنطية . كذلك زارها المسعودي في القرن العاشر وتكلم عن الحكمة التي احتفظ بها البيزنطيون. وفي اثناء الحروب الصليبية وبعدها زار اربعة من رحالة المسلمين مدينة القسطنطينية . ففي القرن الثاني عشر زارها ابو الحسن علي بن ابي بكر الهروي صاحب كتاب « الاشارات الى معرفة الزيارات » كما زارها الادريسي الجغرافي المشهور . وفي القرن الرابع عشر زارها ابو الفداء وابن بطوطة وقد نزل هذا الاخير ضيفاً على الامبراطور البيزنطي . وفيما سوى هذه الزيارات فانه كان يحصل تعاون في بعض الاحيان في المشاريع العلمية والفنية ومن ذلك ماذكره المؤرخون من ارسال الامبراطور البيزنطي مكعبات الفسيفساء وخبيراً

بزخرفتها لتزيين قرطبة في عهد الحكم في القرن العاشر ، وارسال ١٤٠ عموداً من قبل قسطنطين التاسع الى عبدالرحمن الناصر لاستخدامها في بناء مدينة الزهراء. وهنالك بعض العلماء المعروفين الذين كان يستفيد العرب والبيزنطيون من علمهم كما ان بعض المهمات العلمية كان يقوم بها الطرفان بنتيجة تسهيلات يقدمها كل منهما للاخر . وقد ذكر فازيلييف Vasiliev ان الخليفة الواثق ارسل عالماً في القرن التاسع لزور الكهوف التي حفظت فيها جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا ايام الامبراطور ديوقليسيان ، وقد ساعد الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث العالم الموفد لهذا الغرض وارسل معه دليلاً لتلك الأماكن .

وفيما سوى هذه العلاقات فان الحروب بين المسلمين والبيزنطيين قد أثرت في الأدب وأوجدت نموذجاً للبطل القومي الذي يتصف بالبسالة والاقدام والكرم واصبح هؤلاء الأبطال من شخصيات الأساطير ومنهم عبد الله البطال الذي قتل في آسية الصغرى في حوالي منتصف القرن الثامن (٧٤٠) واصبح النموذج التاريخي للبطل التركي الاسطوري سيد بطال غازي وقبره قرب اسكي شهر حيث شيدت تكية للطريقة البكطاشية . والطريف ان النصارى البيزنطيين في تلك المنطقة قد اعتبروا هذا البطل قديساً وهذه احدى الحالات التي اشترك فيها المسلمون والمسيحيون في تقديس بعض الشخصيات واعطائها اهمية دينية وقد ازدهر الأدب في بلاط الحمدانيين ومن مواضيع الشعر العربي الهامة تمجيد اعمال المسلمين في حروبهم مع بيزنطة . وملحمة البطولة البيزنطية التي نشأت حول شخصية ديوجنيس اكريتاس تدور حول شخص حقيقي كان قد قتل في الحروب ضد العرب في عام ٧٨٨ وقبره قرب سميساط . وهنالك اغان شعبية تدعى اغان اكريتية (نسبت الى اكريتاس) تصور الحروب بدقة ومنها حرب عمورية . وهنالك ارتباط بين بعض القصص العربية وبين القطع الادبية البيزنطية واليونانية كما انه حصل تبادل في المفردات بين العربية واليونانية .

وقد اختلفت الفترة التي بدأتها الحروب الصليبية عما سبقها بالنسبة للعلاقات

بين بيزنطة والاسلام. فقد اتى السلاجقة ثم المغول ثم العثمانيون وكانت المصالح السياسية تفوق الاقتصادية والثقافية في علاقات بيزنطة بالاسلام. ودخل الاسلام الى آسية الصغرى وتغلب عليها بعد موقعة ملاذكرد (مانزيكرت ١٠٧١). وبدأت الحروب الصليبية بعد مدة وجيزة. غير ان الدولة البيزنطية ما كانت تفكر بحرب صليبية ولا بحكم فلسطين ولم يكن بينها وبين الاسلام عداء ديني فاقحمت في الحرب، وكان يهمها بالدرجة الاولى الحصول على مساعدة ضد الاتراك. وكانت النتيجة ان استولى الصليبيون عليها في عام ١٢٠٤ ودفعت ثمناً غالياً لاشتراكها مرغمة في الحملات الصليبية. واصبحت الدولة بعد عام ١٢٦١ في صراع يائس وفي حالة احتضار من الوجهة السياسية الحربية. ولم يحصل تبادل ثقافي بين بيزنطة والاسلام منذ بدء الحروب الصليبية، واضطربت شؤون التجارة. ولم يكن السلاجقة ولا العثمانيون ممن يهمهم متابعة هذه الصلات والشؤون العلمية والادبية كما ان شعور العداء كان يشتد كلما اشتد الخطر العثماني على بيزنطة. ومهما يكن فان الأثر الثقافي لبيزنطة والاسلام ظاهر في اصول النهضة الاوربية في مطلع العصور الحديثة. فالعلوم القديمة والمعارف قد حافظت عليها بيزنطة واعتنى بها العرب واتقنوها فخلقت جواً ثقافياً جديداً في ايطاليا. وهذا مثال للتعاون الثقافي بين هاتين القوتين اللتين كانتا اقوى واخصب ما عرفته العصور الوسطى وهما بيزنطة والاسلام.

مآثر الحضارة البيزنطية في الفن: كان الفن البيزنطي مزيجاً موفقاً من الاساليب الهلينية التي ورثها عن اليونان والرومان، والاساليب الشرقية التي كانت معروفة في سورية والاناضول ومصر. وقد ازدهر هذا الفن منذ القرن السادس في ايام يوستنيان فاتى بآيات لا تزال آثارها ماثلة حتى اليوم. واهتم الاباطرة بفن البناء وما يتبعه من زخرف ونقش فبنوا القصور وشادوا الكنائس. وفي القرن السادس شيدت المباني من جميع الانواع وخاصة الكنائس فمنها الباسليكا كما في كنيسة القديس

ديمتريوس في سالونيكا وفيها فسيفساء جميلة ، ومنها الكنائس المثمنة الاضلاع مثل كنيسة سان فيتال St.Vital في رافينا Ravenna بايطاليا وهذه المدينة كانت مركز ادارة الممالك الايطالية التابعة للدولة ، ومنها كنائس بشكل صليب تعلوهـا خمس قباب مثل كنيسة الرسل المقدسة وخاصة كنيسة اياصوفيا في القسطنطينية وهي اعظم مباني يوستنيان. وقد شادها ايسيدور المليتي وانثميوس الترالي في مدة خمس سنوات (٥٣٢ — ٥٣٧) وقال عنها يوستنيان عند انتهاء بنائها « لقد قهرتك ياسليمان ! » مشيراً بذلك الى تفوقها على هيكل سليمان في اورشليم . وكانت ترافق هذه المباني الفسيفساء الجميلة والزخارف الدقيقة ، وأهم الجهود كانت تخصص لزخرفة القسم الداخلي حيث توضع الايقونات وهذا ما سبب الاهتمام بالرسم . غير ان النزاع المتعلق بالصور الدينية في عهد السلالة الايزورية اوقف تطور هذا الفن في القرن الثامن ثم لم يلبث ان عاد الى اهميته. اما نحت التماثيل فانه كان مكروهاً في الكنيسة الشرقية ولذلك لم يصب نجاحاً .

وفي عهد السلالة المكدونية (قرن عاشر وحادي عشر) عادت بزنطة الى الافكار الهلينية ومالت الى النحت والحفر كما ان اتصالها بالشرق الاسلامي زادها ميلاً الى الزخارف الفخمة الدقيقة والالوان . وكان الترف في الالبسة والحلي والادوات العاجية والتزيل بالمينا والرسوم على المخطوطات من مظاهر الفن البارزة في هذا العصر كما في العصور السابقة ولاشك ان الشرق والتقاليد الشرقية القديمة كان لها اثر في هذه الناحية . وبجانب الفن الديني ظهر فن مستوحى من الميتولوجيا الكلاسيكية ومن صور التاريخ . ومن المباني المشهورة في عهد هذه الاسرة « القصر المقدس » « والهبودروم » او ميدان السباق. وظهرت القسطنطينية كمدينة فريدة في العالم . وفي عهد اسرة كومنين (قرن حادي عشر حتى ثالث عشر) بني دير باتموس Patmos وهو دير نموذجي وشيدت المستشفيات والكنائس والاديرة في القسطنطينية وقصر « بلاشيرن » في اقصى القرن الذهبي . وكان البلاط حافلاً كما

ان فناني بيزنطة كانوا يعملون في الدول اللاتينية في سورية في عهد الصليبيين و كذلك في كنيسة القديس مارقس في البندقية المشهورة بقبابها الخمس ورخامها وصياغتها وفسيفسائها وقطع عاجها . وقد ازداد رونق القسطنطينية حتى ان بنيامين دي تو ديلا قال فيها عندما زارها انه « ليس من مدينة في العالم تماثلها باستثناء بغداد » . وفي الفترة الاخيرة من تاريخ الدولة البيزنطية اي في عصر اسرة باليولوغ كان الاهتمام محصوراً بزخرفة الايقونات حيث الالوان المتتابعة والاسلوب المؤثر . وظهرت مدارس فنية منها مدرسة القسطنطينية والمدرسة المكدونية التي زخرفت كنائس مكدونية ومجموعة اديرة جبل اثوس ، ومدرسة كريت وفيها لوحات كنيسة مسترا واهم نماذج الفن في هذه الفترة في الصرب واليونان .

واذا رجعنا الى نشأة الفن البيزنطي وجدنا انه استقى من مصادر متعددة وقد اقترن بالفن الديني ، وهذا الفن كان رمزياً ونشأ في باطن الارض بالنظر لاضطهاد المسيحية في القرون الاولى . وفي القرن الرابع تنتصر المسيحية وتظهر الكنائس في كل مكان وتبدو الرمزية القديمة سطحية لا تصلح لتجميل هذه الكنائس . وكانت رومة الوثنية اوجدت فناً امبراطورياً يتمثل في المنشآت التذكارية وانتشر هذا الفن في الولايات واكتسب من الشرق مهارة الزخرفة والالوان الزاهية . ومن انواع الزخرفة التي اكتسبها الزخارف الحائطية بالفسيفساء . وكانت القسطنطينية تدعي لنفسها فخامة الماضي الكلاسيكي ولذلك اجتمعت فيها مخلفات المسيحية وروائع العالم الوثني . وارادت الكنيسة ان تسجل بطولة الشهداء والمخلصين بشكل مصور ، ونبذت ضغائنها الاولى ضد الوثنية وساعدت الدولة البيزنطية الناشئة في قبول التراث الهليني . وهكذا فان الفن البيزنطي الجديد كان فيه متسع للعناصر التصويرية لمدرسة الاسكندرية وللطبيعة باشجارها والالعاب ومناظر الريف ، وكذلك لصور الخيال الهلنستية ونماذج الفن اليوناني ولمشاهد الالهة الرومانية للنقش والتلوين . وأخذت الامبراطورية البيزنطية ما استطاع الشرق تقديمه في فن العمارة ورفعته الى طبقة جديدة وبلغ اوجه في كنيسة آيا صوفيا .

وهذا التعقيد في الفن قد سبب مشكلة الفن البيزنطي المستعصية . وقد يتجه الانسان لاعطاء الاهمية لعنصر معين في هذا الفن ، ولكن الواقع هو ان العالم البيزنطي اخذ فنه من مصادر مختلفة ، وقدرته على الاستيعاب كانت عظيمة وبيزنطة استعارت من غير حرج ولكنها كانت تطبع ما تأخذ بطابعها . وكان للقسطنطينية مدن تنافسها في سورية ومصر وآسية الصغرى . فالابنية التي شادها قسطنطين في القدس مشهورة ،وانطاكية كانت تنقل بواسطة تجارها فن الزخرفة السوري الى اقاصي البحر المتوسط ، والمعماريون في آسية الصغرى كانوا ينقلون فن بناء القباب ربما من فارس . وفي القرن الخامس ازداد تأثير القسطنطينية الفني في الوقت الذي تمت فيه المركزية الدينية ، وذلك لأن الدولة كانت تهب الكنائس والابنية المدنية لمختلف اجزاء الامبراطورية وهذه كانت تتبع اسلوب العاصمة. ولذلك انتشرت الاساليب الاسيوية في طول البلاد وعرضها وفي زمن الامبراطور يوستنيان اخذ الغرب يقلد كنائس بيزنطة . وقد اقتبست القبة في كنيسة آيا صوفيا وكذلك اسلوب الزخرفة القائم على الرخام المتنوع الالوان من الشرق ، وظهرت مهارة اليونان في اقامة قبة مستديرة على قاعدة مستطيلة بحيث تبدو كما لو كانت معلقة واكملت الفسيفساء محاسن هذا البناء . واخذ البيزنطيون عن الشرق صناعة التزيين بالمينا المقسمة الى اقسام متحاجزة (Cloisonné enamel). اما التصوير الديني فقد اهتم به الرهبان ، ورسم فنانو النمنمات (Miniatures) مشاهد ورموز الاناجيل. وبعد انتصار الرهبان في معركة الايقونات ادى الامر الى تخليد نوع معين من التصوير .

تأثير الفن البيزنطي والشرقي في الغرب : كان للفن البيزنطي تأثير لا ينكر في بلاد الغرب . وقد لعبت بلاد الحوض الشرقي للبحر المتوسط وخاصة سورية دوراً كبيراً في نقل المؤثرات الشرقية الى الغرب . واحتفظت بلاد غربي اوربا اتصالها بالشرق الاقصى وبالدولة البيزنطية بطرق مختلفة . وكان التجار

والحجاج همزة الوصل بين الطرفين كما ان الصناع ورجال الفن من الدولة البيزنطية كانوا يقومون بمهمات في البلاد المتخلفة حضاريا في الغرب الاوربي . والتجار السوريون الذين ازدهرت مستعمراتهم في بلاد الغال الميروفنجية كانوا يستوردون ادوات فنية مصنوعة في الشرق ومن بينها المنسوجات الحريرية والمصنوعات العاجية واواني انطاكية الفضية . والكنائس في عهد القوط الغربيين (الويزيقوط) ومنها كنيسة في طولوز كانت مزدانة بالفسيفساء على أرضية ذهبية وفضية . وزخارف الكنائس تربنا أصلها الشرقي . فهنالك الحيوانات والنباتات وحتى الكلمات البيزنطية منقولة بحروف لاتينية . واثرت مصر القبطية وايران في زخرفة المخطوطات الايرلندية . وفي ايطاليا بعد تجدد سلطة الدولة البيزنطية في عهد يوستنيان كان يقيم جماعة من اليونان والسوريين في رومة وقد شكلوا مستعمرة وصل بعض افرادها الى البابوية كما كان بعضهم رجال فن ساهموا في بناء وزخرفة كنائس عديدة في القرن السابع . وفي عهد الاضطهاد في أبان الحركة المعاكسة للايقونات التجأ كثير من الفنانين الى ايطاليا في القرن الثامن وبنوا وزخرفوا مبان متعددة حيث نشاهد الكتابات اليونانية في الزخارف المتعلقة بشهداء رومان كما نرى بعض القديسين والآباء الشرقيين واليونان في كنيسة بنيت في عهد البابا يوحنا السابع عام ٧٠٥ . وقد ساهم الرسامون السوريون في رسم هذه المجموعة واصبحت رافينا مدينة بيزنطية في عهد يوستنيان واقتبست رومة ورافينا وحيها الفني من الشرق . وقام رئيس دير مونت كاسينو في القرن الحادي عشر بدعوة جماعة من الفنانين اليونان لزخرفة الكنيسة بالرخام والفسيفساء واستورد من الشرق البرونز والذهب والزخارف المطلية بالميناء وظهرت على اثر ذلك مدرسة من الرهبان البندكتيين استوحت فنها من هؤلاء الصناع الاجانب ثم تحررت منهم . كذلك عمل اليونان في امالفي وجنوبي ايطاليا والبندقية ثم في عصر النورمنديين في صقلية ازدهر الفن البيزنطي والعربي . واستمر الاثر البيزنطي في رومة حتى القرن الرابع عشر .

وقد استفاد الغرب من نواح فنية دينية اتت من الشرق . وقبل ان ينتقل

الفن الى الغرب فان الراهب والرهبنة الشرقية وكذلك الاسقف الشرقي قد غزوا بلاد الغرب . فالقديس ثيودور ذهب من طرسوس في كيليكيا الى كانتربري في انكلترا، والرهبنة الايطالية والغالية كانت نظامامصرياً يتبع قواعد شرقية والقديسون الشرقيون احترموا في الغرب حتى أن تماثيل سمعان العامودي الصغيرة كانت تباع في حوانيت رومة الصغيرة كتمائم . واتت من الشرق مخلفات قيمة مثل الصليب الذي ارسله يوستينوس الثاني الى رومة . واقتبس الغرب اعياداً من الطقوس الشرقية منها وفاة العذراء وتمجيد الصليب بينما اقتبس غريغوار دي تور Grégoire de Tours من التجار السوريين اساطير مثل نوام افيسوس السبعة وحكاية القديس توما وذهابه الى الهند . وكانت الكنيسة الغربية بحاجة الى زخارف واشياء مقدسة لطقوسها وكذلك الى فن تصويري لتمثيل مشاهد الانجيل فأخذت الاقمشة من صور وبيروت والمخطوطات والاشياء العاجية من الاسكندرية وانطاكية ، والموضوعات الجديدة للتصوير المقدس مثل الصلب من سورية عموماً .

وكان في الفن البيزنطي تقاليد هلينية باسلوب رفيع ورقيق ولكن الغرب لم يتمثلها لان استعداده كان ضعيفاً . ولما كان فن المدارس الشرقية ابسط واكثر واقعية فقد وافق الغرب ومع ذلك فان النوعين قد اجتمعا في بعض الاحيان . ونهضة عصر شرلمان الفنية في النمنمات والنسيج قد أخذت من مصادر شرقية . في العهد الكارولنجي حصلت رجعة الى اللغة والادب والفن الكلاسيكي بتأثير الانكليزي الكوين Alcuin الذي جعله شرلمان في مدرسة القصر في عام ٧٨٢ . وقد جعل للفن مكانة هامة وفتح مصانع للرسم وانتقل تأثير بيزنطة الى فرنسا بطريق ايطاليا وخاصة في الايقونات والزخارف ثم في العصور التالية اثر الفن البيزنطي في صنع المينا وفي زخرفة المخطوطات وفي ايجاد فن ديني رفيع . وكانت كاتدرائية ايكس لاشابيل على شكل الكنائس الشرقية كما ان قباب الكنائس في منطقة بريغور Périgord في فرنسا كانت مقتبسة ربما من أصول شرقية ، وتخطيط كنيسة سان فرون في بريغور في هذه المنطقة يشبه كنيسة القديس مارقس

في البندقية . والجدال لايزال قائماً حول مدى تأثير الشرق في الفن المعروف بالرومانسك انما يبدو ان هنالك اثراً بيزنطياً في الرسوم الجدارية الكنائس هذا النوع كما ان اثر بيزنطة في الايقونات والتحف النفيسة يبدو في عصر الاسلوب القوطي وخاصة بعد نهب اللاتين للقسطنطينية في عام ١٢٠٤ . غير ان الفن القوطي نفسه كان قويا ولم يخضع لتأثير بيزنطة . وقد عمل نحاتو لانجدوك وبروفانس في جنوبي فرنسا على نقل تصاوير لوحات اغريقية الى صور منحوته في الصخر . وعندما تزوجت الاميرة البيزنطية تيوفانو من اوتو الكبير عام ٩٧٢ حملت معها الى المانيا كنوزاً كثيرة وعاش عدد من الرهبان اليونان في أديرة المانيا . وبلغ هذا التأثير الاجنبي قوته في مدرسة ريجنزبرغ Regensburg في القرن الحادي عشر . ووصل ذروته في القرن الثالث عشر حين حمل الصليبيون الى بلادهم روائع بلاد الشرق .

وقد كان البعض ينظرون الى الفن البيزنطي كفن منحط عديم الحياة غير ان الاتجاه الحديث قد مال الى تقدير أهميته . ويعزو مؤرخو الفن تأثير هذا الفن البيزنطي في النفوس وتفوقه على الفنون التي نبع منها كالفن الهلنستي والشرقي والروماني الامبراطوري الى الحماسة الدينية التي صرفت نشاطها في التعبير عن الجمال في صفاء الخطوط والالوان .

اثر الحضارة البيزنطية في بلاد البلقان وروسيا : انتشرت الحضارة البيزنطية في بلاد الصقالبة منذ القرن التاسع بعد ان اعتنقت هذه البلاد الديانة المسيحية وكثرت علاقاتها ببيزنطة . وقد ذهب المبشر كيرلس (سيريل) مع أخيه مثوديوس من القسطنطينية في عام ٨٦٤ في بعثة الى صقالبة مورافيا استجابة لرجاء الامير روستسلاف كما تقول الرواية وذلك في عهد البطريرك فوتيوس . ولم يكن لصقالبة مورافيا (وهي جزء من تشكوسلوفاكيا) ادب خاص او حروف مكتوبة للتعبير الادبي . وكان كيرلس يعرف اللغة الصقلبية وهو الذي اخترع الكتابة

الصقلبية الجديدة التي ترجع في اصولها الى الحروف اليونانية الصغيرة ، كما ترجم بعض اجزاء العهد الجديد في التوراة والصلوات الى لهجة الصقالبة وحملها الى مورافيا . ولا يؤكد المؤرخون اذا كان كيرلس قد اخترع حروف الهجاء المعروفة بالكيرللية القائمة على الحروف اليونانية الكبيرة والتي يستعملها اليوم الروس والصرب والبلغار ، ويظهر ان هذه الكتابة ترجع الى عصر أقرب الى عصرنا. وقد استعملت اللغة الوطنية في الصلوات في أول الامر الا أن الكهنة التابعين لكنيسة رومة منعوا ذلك . ومهما يكن فان الصقالبة من اتباع الكنيسة الشرقية او الغربية يعترفون بفضل هذين المبشرين اللذين اتيا من القسطنطينية .

كان البلغار من أصل فني (فنلاندي) تركي ولكنهم اقتبسوا لغة رعاياهم الصقالبة واسسوا دولة في القرن السابع ، ثم توحدت هذه الدولة في القرن التاسع واعتنق ملكها بوريس Boris (٨٥٢ — ٨٨٨) المسيحية واصبحت الكنيسة البلغارية تابعة لبطريرك القسطنطينية . وكان سيميون الكبير ملك بلغاريا (٨٩٣ — ٩٢٧) « نصف يوناني » واصبح يلم بعلوم عصره بعد ان درس في القسطنطينية كما انه درس فلسفة ارسطو . ومن جهة أخرى كان شجاعا محاربا حتى انه كسر لدولة البيزنطية . وقد تكون بلاطه في العاصمة برسلاف Preslav حسب انموذج بيزنطي . وانحصرت بلغاريا في البلقان لان البشناق حالوا دون توسعها شمالا . وكانت علاقاتها الثقافية برومة الشرقية وثيقة وبنيت فيها القصور والكنائس وملئت بالرخام والصور . ولبس الملك الارجوان والجلابيب المرصعة . وكان عهد بطرس ابن سيميون عهد سلم مع بيزنطة (٩٢٧ — ٩٦٩) وتزوج اميرة بيزنطية . واعترفت القسطنطينية ببطريركية بلغاريا المستقلة في عام ٩٤٥ وظهر ادب بلغاري وتكونت شبه جامعة بلغارية . وكان الادب البلغاري ادب ترجمة وادبا كنسيا قام به رجال الدين ومن مواضيعه رسائل يوحنا الدمشقي اللاهوتية ومواعظ يوحنا فم الذهب وكتاب تاريخ ملالاس . واقتبس الادب البلغاري مواضيع اجنبية وشرقية

كما ترجمت مجموعات القوانين البيزنطية وهكذا تسربت الافكار الرومانية الى القانون البلغاري .

سقطت امبراطورية بلغاريا الشرقية بعد انتصارات البيزنطيين في القرن العاشر وبعد تأسيس بلغاريا الغربية حاربها باسيل الثاني وقضى على استقلالها . واحتل رجال الدين الذين يتكلمون اليونانية المناصب الدينية الكبرى في بلغاريا واضمحل الادب الصقلبي . ولم ينتعش هذا الادب الا في القرن الرابع عشر بعد تأسيس امبراطورية بلغارية جديدة في تيرنوفو Tirnovo وسادت الترجمات من اليونانية مرة اخرى وكثرت الصلات بين بيزنطة وبلغاريا وسادت الحضارة البيزنطية في اكثر من اي بلد صقلبي آخر .

أما في الصرب فاننا نعلم ان الاسرة الحاكمة فيها تأسست في القرن الثاني عشر عن يد ستيفان نمانيا Nemaniya الذي استقل في عام ١١٨٠ عن الدولة البيزنطية بعد ان كان تابعاً لها . وفي عهد اسرته سادت الحضارة البيزنطية والكنيسة الشرقية في مملكة الصرب ، وظهر ستيفان دوشان في ١٣٣١ فأصبح سيد معظم البلقان وتوج في سكوبي (اوسكوب) قيصراً على الصرب ورومانيا الحالية . وازدهرت النهضة الادبية الصربية بعد عهده ثم قضى الاتراك على هذه الدولة . وكان نفوذ الدولة البيزنطية فيها كبيراً ولكن بما انه كان لها اراض تمتد على ساحل الادرياتيك فقد اتصلت بالغرب وكان فيها تجار ومرتزقة غربيون . والملك كان يحكم بموجب حق مقدس وأدخلت الصيغ والألقاب البيزنطية الامبراطورية في البلاط الصربي وتكونت الهيئة الادارية على النمط الروماني الشرقي حتى ان جابي الضرائب كان يسمى فراهتور (أي Praktor) باليونانية. واتبعت قواعد الدبلوماسية البيزنطية كما ان الجيش كان يمنح افراده اراض ليعيشوا منها كما في نظام بيزنطة . واعتمدت الصرب على الامبراطورية البيزنطية في المسائل الدينية . وأثرت بيزنطة في الفن الصربي فالكنائس اتبعت اسلوب كنائس سالونيك وأديرة جبل أتوس ، وخلت من التماثيل ، إنما الايقونات كانت مرسومة على خشب مغطى بالذهب والفضة وذلك

بتأثير بزنطة . وكان الادب الصربي يعتمد على بزنطة وترعرع في دير شيلاندار في جبل اتوس وكانت فيه ابحاث في الزهد والتصوف . ويلاحظ مؤرخ الفن ستزغوفسكي Strzygowski اتصالاً بين فن الصرب وسورية ودير جبل سينا . والصور الصغيرة التي كانت تنقش على الملاط في القرن الخامس عشر نقلت عن اصل سوري . ونشأت الملاحم الصربية التي تدور حول الصراع مع الاتراك بفضل الترجمات من الآداب الاجنبية . وبالرغم من كل ذلك فان الاحتقار كان متبادلاً بين الصرب والبزنطيين .

أما في روسيا فان الدولة الروسية الأولى مدينة بوجودها لبزنطة . وقد كان مولد روسيا حين انتقل الورنك Varangians من الاراضي السكندينافية من نوفجورود الى كييف Kiev في الجنوب . وكان امراء كييف بحاجة الى حماية تجارتهم ، والحياة الاقتصادية في امارتهم اعتمدت على التجارة مع الدولة البزنطية. والسفن الروسية كانت تجوب البحر الاسود في اول القرن العاشر وبضائعها كانت تجه الى القسطنطينية . والمسيحية انتشرت في روسيا عن يد بزنطة فقد تنصرت الاميرة اولغا في عام ٩٥٧ ، ثم أتى الامير فلاديمير Vladimir واحتل خرسون في ٩٨٨ وتنصر وتزوج اميرة بزنطية . واصبحت كييف دولة مسيحية وحليفة للامبراطورية البزنطيـة . والكنيسة الروسية أضحت صورة للكنيسـة البزنطية ونظامها وضع في القسطنطينية فطقوسها وعباداتها ودستورها وقوانينها أخذت من بزنطة . وكان على رأس الكنيسة الروسية اسقف يعينه بطريرك القسطنطينية وكان اغريقياً عادة ويمكن ان يستدعيه البطريرك الى محكمتـه . والمعماريون البزنطيون وضعوا التصاميم لكنائس روسيا ، وفنانو بزنطة زخرفوها . وأقدم كتب القـانون الروسية وهو روسكايا برافدا (الحقيقة الروسية) وضعه رجال الدين لأجل المحاكم الكنسية . وقد وضع على اسلوب موجزات القانون البزنطية وسارت على منواله الدولة الروسية في تشريعها المدني . واشتركت الكنيسة والدولة سوية في روسيا في الحروب ضد المغول . ورجال الدين كانوا الطبقة المتعلمة ولذلك

استخدموا في مسائل الدولة . وأخذت روسيا عن بيزنطة نظام الرهبنة والأديرة واستعملت الأديرة كسجون للأمراء المقهورين كما في بيزنطة . وكان القيصر الروسي يتدخل في شؤون الكنيسة كما كان يفعل الامبراطور البيزنطي ليخضع الأساقفة أو ليفصل في المناقشات المتعلقة بنظام الكنيسة .

عندما سقطت القسطنطينية بيد الاتراك اصبحت كنيسة روسيا مستقلة تنتخب اسقفها الذي صارت له صفة بطريرك منذ أواخر القرن السادس عشر . وقد جرت حفلات تتويج امراء موسكو على منوال تتويج الامبراطور البيزنطي . وألغى بطرس الاكبر البطريركية عام ١٧٢٣ وجعل مكانها المجمع المقدس كسلطة دينية عليا . ويقول مؤرخ الدولة البيزنطية نورمن بينز Baynes انه « لا يمكن فهم تاريخ روسيا فهماً صحيحاً إلا عن طريق تعرف احوال تلك الامبراطورية البيزنطية التي أورثتها ميراثاً عظيماً » . وكان لانتصار العثمانيين على الدولة البيزنطية اصداء بعيدة في روسيا حيث اعتبر البعض انهم اصحاب التراث البيزنطي الثقافي ويجب عليهم الدفاع عن الارثوذكسية ضد العثمانيين .

وهكذا انتشرت الحضارة البيزنطية في معظم بلاد اوربا وأثرت عليها . واسباب انتشارها ان الامبراطورية قد امتد حكمها في اوقات مختلفة الى مختلف البقاع الاوربية الغربية وخصوصاً ايطاليا فتعرف العالم الغربي على حضارتها . كذلك كانت شهرة القسطنطينية في العصور الوسطى عظيمة حتى ان السياح والمسافرين قصدوها وكتبوا عنها ، أضف الى ذلك العلاقات التجارية الواسعة مع بيزنطة والحروب الصليبية التي نقلت معها حضارة هذه البلاد . والدولة البيزنطية هي التي اعطت اوربا الشرقية ديانتها المسيحية بشكلها الارثوذكسي عن يد مبشريها وهي التي أوجدت لها كتابة خاصة . ونظمت هذه الدول ـ روسيا والصرب والبلغار ـ مؤسساتها الدينية والسياسية على النمط البيزنطي وشيدت مبانيها على نفس الاسلوب . وقد استفاد العرب والأرمن كذلك من البيزنطيين من الوجهة الادارية والفكرية والفنية فأخذوا عنهم بعض اساليب الحكم وتقاليده وكذلك فعل الاتراك ورثاء

البيزنطيين فكانت وظائفهم الكبرى وحكومتهم المركزية وتقسيماتهم الادارية شبيهة بما أوجده البيزنطيون مع تغيير الاسماء .

سورية والحضارة البيزنطية : عندما قسم الامبراطور تيودوسيوس الامبراطورية الرومانية بين ولديه في عام ٣٩٥ اصبحت سورية تابعة للدولة الرومانية الشرقية التي سميت فيما بعد بالبيزنطية وبقيت كذلك حتى الفتح الاسلامي في القرن السابع . وكانت تحكم في بادىء الأمر بموجب النظام الذي وضعه الامبراطور ديوقليسيان وهو فصل السلطة المدنية عن العسكرية . ولكن في ايام يوستنيان في القرن السادس وخاصة في القرن السابع اعطيت السلطة كلها للحكام العسكريين نظراً للاهتمام بشؤون الدفاع وللقضاء على الفساد والظلم . وكان من اهم ما شغل الدولة البيزنطية في حكمها لسورية مسألة غارات الفرس لان دولة الفرس الساسانيين كانت قد نشأت في القرن الثالث وكان حلفاؤها ملوك الحيرة . وقد شجعها في اعمالها الهجومية انشغال الامبراطور يوستنيان بفتوحاته في الغرب لاعادة ممتلكات الدولة الرومانية . غير أن القائد البيزنطي بايساريوس حارب الفرس وكسرهم في داوا في ٥٣٠ ولكنه لم يتابع انتصاره وكان عليه ان يهتم بفتح افريقيا . ثم يأتي كسرى انوشروان (٥٣١ — ٥٧٩) على عرش فارس وكان طموحاً نشيطاً فهاجم سورية واحتل انطاكية في ٥٤٠ حتى أجبر يوستنيان أن يعقد الهدنة ويدفع الجزية للفرس. وبقي الخطر الفارسي بعد هذه الهدنة فكان الفرس يهاجمون سورية كلما سنحت الفرصة ويتدخلون في شؤون الامبراطورية. ففي عام ٦١٠ عندما اعتلى هرقل العرش بالقوة واسس سلالة جديدة كان الفرس قد وصلوا الى قرب القسطنطينية . وكانوا يغيرون على سورية كل سنة ويحتلون مدنها حتى انهم أخذوا انطاكية ودمشق واحتلوا القدس في ٦١٥ وحملوا الصليب منها الى عاصمتهم. فقام هرقل يحاربهم بعدان وضع بطريرك القسطنطينية اموال الكنيسة تحت تصرفه ونجح في قهر الفرس خاصة في نينوى ثم على ابواب عاصمتهم المدائن في ٦٢٨. وتوفي

كسرى في العام نفسه وفرض هرقل على الفرس صلحاً حسب مشيئته واعاد الصليب الذي اخذه الفرس . غير ان الدولة البيزنطية كانت طيلة هذه المدة تفرض الضرائب الباهظة على السكان نظراً لكثرة الحروب ونفقاتها الضخمة فمل السوريون منها ومن سوء سياستها الدينية التي اضطهدت الهرتقات كما رأينا حتى انهم لم يأسفوا لزوال حكمها عندما اتى العرب .

بقيت الطبقات الاجتماعية وعناصر السكان في سورية البيزنطية كما كانت في العصر الهلنستي الروماني . فالعنصر الحاكم هو العنصر الهيليني واللاتيني ولا يعني ذلك ان الحكام والطبقة التي تشارك في حقوق الرعوية في المدن تنتمي عرقياً الى اليونان او الرومان وانما كثير من افرادها يتصلون ثقافياً فقط بهؤلاء لان التمازج كان قد حصل بين الهلينيين واللاتين وبين سكان البلاد . وقد حكم العنصر الهليني خاصة بعد الانقسام حين أخذ القسم الشرقي من الامبراطورية يصطبغ بالصبغة اليونانية الشرقية . واما سواد الشعب فكان من سكان البلاد الآراميين ولغتهم كانت لغة البلاد بقطع النظر عن اللغة الرسمية في الدوائر وهي اللاتينية اولاً ثم اليونانية . وكان لهذه اللغة الآرامية شأن كبير حتى ان الانباط والتدمريين والغساسنة العرب الذين سكنوا سورية أيضاً قد كتبوا بها . ولم يبق من السلالات العربية الحاكمة في العصر البيزنطي سوى الغساسنة الذين حالفوا الدولة البيزنطية . وكان السوريون متمسكين بلغتهم وتقاليدهم حتى ان عشرة قرون من الحكم اليوناني الروماني لم تحملهم على تركها . وقد حصل بين القرن الخامس والسابع احياء قومي كان من مظاهره احياء اللغة والآداب الآرامية بشكلها السرياني واحياء الاساليب الوطنية في الفن حتى ان النصرانية في سورية كانت لها اشكال خاصة . وقد ذكرنا ان الهرتقات كانت تعبر عن النزعة الانفصالية وعن الشعور السوري ضد الروح الهلينية .

كانت سورية في العصر البيزنطي غنية مزدهرة كثيرة السكان كما في العصر الهلينستي والروماني . وتدلنا آثار المدن البائدة التي اكتشفت خاصة في شمالي سورية

وفي حوران على ازدهار البلاد و كثرة سكانها . اما ثروتها فكان مصدرها عدا عن الزراعة والصناعة تجارة النقل (الترانزيت) من الصين الى البحر المتوسط . ومدنها التجارية الكثيرة كانت ذات علاقات مع بلاد البحر المتوسط المختلفة من جهة ومع بلاد فارس وآسية الوسطى والهند والصين من جهة أخرى . وكانت تلتقي فيها جميع البضائع حتى ان المؤرخ اميانوس يقول بشأن انطاكية أنها «اصبحت معروفة في العالم كله وان ثروتها في البضائع الوطنية والمستوردة كانت عظيمة جداً»(١). وقد سبق ان ذكرنا اثر السوريين وجالياتهم في بلاد الغرب في هذا العصر . وكانت البضائع الشرقية ترسل بصورة منتظمة من موانىء سورية الى هذه الجاليات ان لم يقم افرادها انفسهم بالصلات التجارية وهذا ما يتضح من المرويات المتعلقة بالقديسة جنفياف حيث ذكر ان سمعان العامودي في شمالي سورية كان يسأل التجار العائدين من بلاد الغال عن هذه القديسة الباريسية ويرسل لها تحياته بواسطتهم وذلك في منتصف القرن الخامس (٢). غير ان هذا الازدهار الاقتصادي قد اثرت فيه نفس العوامل التي اثرت في الدولة البيزنطية بوجه الاجمال واهمها كثرة الحروب وخاصة غارات الفرس وفقدان الامن و كثرة الضرائب واستهتار رجال الادارة للشعب . وعلى ذلك اخذت احوال سورية الاقتصادية بالانحطاط قبل الفتح الاسلامي فكان ذلك من اسباب استياء الشعب من حكامهم .

وقد ازدهرت في سورية الحياة الفكرية ايضاً في هذا العصر والمعاهد كانت كثيرة واشهرها مدرسة انطاكية التي درس فيها كثير من الفلاسفة واللاهوتيين مثل آريوس ونسطور اللذين تقدم ذكرها ، ومدارس ادبسا (الرها) ونصيبين

---

(١) G. Haddad : Aspects of Social life in Antioch (Chicago, 1949) p. 23.

(٢) L. Bréhier : La Civilisation Byzantine (Paris, 1950) p. 197 .

وغزة حيث كانت تدرس البلاغة والمنطق ، ومدرسة الحقوق في بيروت . ويشهد عدد المفكرين ومؤرخي الديانة السوريين في هذا العصر بالاهتمام بالمسائل الروحية . والواقع ان المنازعات اللاهوتية لم تثر اهتماماً في اي مكان بقدر ما فعلت في سورية. غير انه بجانب الكتاب الدينيين كان يوجد عدد من الكتاب والمفكرين في سائر نواحي الأدب وقد جاء ذكرهم في الكلام عن الحضارة البيزنطية بصورة عامة وبينهم ليبانيوس الانطاكي الكاتب البليغ وبروكوبيوس المؤرخ .

ووجد التعبد والزهد مكاناً خصباً في سورية بعد ان دخلتها الرهبنة من مصر. وكثرت فيها الاديرة منذ القرن الرابع كما كثر عدد النساك . وكان بين النساك جماعة عرفوا بالعاموديين لاقامتهم على رؤوس الاعمدة واشهرهم سمعان العامودي الذي اعتبرته الكنيسة قديسا . وكان ارتفاع اول عامود اقام عليه احد عشر ذراعا وتمكن في النهاية وبالتدريج ان يسكن عاموداً ارتفاعه ثلاثون ذراعا . وقد نحت العامود الاخير في صخر المنطقة الجبلية المعروفة اليوم بجبل سمعان في شمالي سورية وتلاميذ سمعان هم الذين نحتوه ونصبوه . وقضى القديس سمعان نحو ٢٧ عاما على هذه الاعمدة المختلفة وكانت جماعات الزائرين تأتي دائما لسماع اقواله وارشاداته . وقد توفي في عام ٤٥٩ ودفن أولا في قمة عاموده الاخير ثم نقلت رفاته الى انطاكية حيث دفنت في كنيسة قسطنطين . غير ان سيل الزائرين الآتين الى ذلك المكان لم ينقطع بوفاته واخيراً شيد في أواخر القرن الخامس دير عظيم حول العامود الذي كان يعيش فوقه سمعان وتعد أبنية هذا الدير وخصوصاً الكنيسة من أجمل آثار سورية ويبعد ٤٥ كيلو متراً الى الشمال الغربي من حلب .

اما من الوجهة الفنية فلقد كانت اسباب الرقي الفني في سورية في هذا العصر كثيرة وأهمها اولا الثروة التي جنتها البلاد من التجارة كما ذكرنا فشادت الطبقة الغنية الابنية الكثيرة ونشأت المدن في المناطق التجارية وعلى الطرق الرئيسية ، وثانياً الديانة وذلك أن النصرانية التي انتشرت بين السكان ادت الى تشييد الكنائس والاديرة والملاجيء وغيرها وساهم في بنائها الاباطرة منذ عهد قسطنطين . وقد

ازدهر فن البناء في سورية بين القرنين الرابع والسادس وكانت أهم الابنية تلك التي شيدها قسطنطين ووالدته هيلانة . فقد بنوا الكنائس في الاماكن المقدسة والتي لها علاقة بحياة المسيح وأشهرها كنيسة القيامة في القدس في مكان صلب المسيح ودفنه ، وكنيسة الصعود على جبل الزيتون قرب القدس ، وكنيسة المهد في بيت لحم فوق المكان الذي ولد فيه المسيح ، وكنيسة البشارة في الناصرة في المكان الذي بشرت فيه العذراء مريم بانها ستلد المسيح . غير أن اعظم مدن الفن في سورية كانت انطاكية وكان يسكنها الاباطرة كثيرا وفيها الابهة والثروة . في هذه المدينة وفي ضاحيتها دفنة بنيت الحمامات والمسارح واماكن اللهو المختلفة كما بنيت المعابد والدور الفخمة وأحيطت بالاسوار منذ العهد الروماني ، والآن تبنى الكنائس ومنها « الكنيسة المذهبة » التي بناها قسطنطين في عام ٣٣١ وتعد من أقدم كنائس سورية ويستمر بناء الدور والقصور المزدانة بالفسيفساء والتي وجدت آثارها في عصرنا الحديث .

وقد اكتشف العالم الاثري فوجيه Vogué في عام ١٨٦٠ والبعثات الاثرية التي أتت بعده ومنها بعثة جامعة برنستون Prineton في مطلع هذا القرن آثار عدد من المدن البائدة في حوران وفي منطقة حلب تعود بتاريخها وبحضارتها الى هذا الدور البيزنطي ويقال ان عددها لا يقل عن المائة وكلها تتبع نفس الاسلوب الفني. وقد غادرها سكانها في القرن السابع بسبب غزوات الفرس وبقيت مبانيها في حالة جيدة ولم تؤثر فيها سوى الحوادث الطبيعية . ولكن بعضها عاد اليها سكانها وهدموا بعض آثارها ليبنوا على انقاضها . ويظهر المجتمع السوري في هذه المباني بثروته وبذخه وشعائره الدينية وعاداته (١) . واننا نجد آثار البيوت والنوادي وخاصة

---

(١) انظر بشأن هذه المدن ومبانيها :
J. Mattern: Villes Mortes de Haute Syrie. Beyrouth, 1944

الكنائس ومن اهمها كنائس ترمانين وقلب اللوزة ومشبك في غربي حلب قرب بلدة حارم ، وروبحة قرب معرة النعمان وجميعها بنيت في القرنين الرابع والخامس وتعد كنيسة قلب اللوزة من اعظم آثار الفن السوري في هذا العصر .

ولقد امتاز الفن السوري في هذا الدور بما ظهر فيه من المهارة والابتكار وذلك ان البنائين جمعوا بين التقاليد الهلينية من جهة والتأثيرات الشرقية من جهة اخرى واهتموا بالاساليب الوطنية كما انهم باحتكاكهم ببلاد العراق وفارس اكتسبوا نماذج شرقية جديدة . وسورية هي من جملة البلاد التي اثرت على تكوين الفن البيزنطي خصوصاً بين القرن الرابع والسادس . والحقيقة ان هذا الدور هو دور تأثيرات متبادلة بين الفن السوري والفن البيزنطي . وقد اتبع البناؤون في تشييد الكنائس اسلوبين يدعى الاول الباسليكا ، والثاني يسمى الشكل المستدير .

فالباسليكا هي بناء مستطيل يتألف من ثلاثة اقسام فالقسم الاوسط اعرض من القسمين الآخرين وسقفه أعلى وفيه تفتح النوافذ ويسمى صحن الكنيسة ، والقسمان الآخران على جانبيه اضيق وبينها وبين القسم الاوسط صفان من الاعمدة التي تجمع مابينها قناطر . وفي نهاية الباسليكا غرف صغيرة تفصلها عن صحن الكنيسة واجهة صغيرة فيها صور القديسين . وهذه الواجهة ليست في الكنائس الكاثوليكية . ومدخل الكنيسة يتجه نحو الغرب . والمصلون يتجهون اذاً نحو الشرق . واكثر الكنائس التي ذكرناها من هذا النوع مثل كنيسة قلب اللوزة وترمانين وروبحة .

والشكل الثاني هو الشكل المستدير وقد يكون مثمن الجوانب وتعلوه قبة ومن حول هذا المكان الاوسط المستدير تتفرع أقسام البناء وقد تجنب السوريون اتباع هذا الاسلوب لانهم لايبنون بالقرميد كما يفعل البيزنطيون وكما فعل الاشوريون والفرس في بناء القبة وانما يبنون بالحجارة . ولكنهم توصلوا مع ذلك الى بناء القبب حسب هذا الاسلوب بالحجارة . ومن الابنية التي اتبعت هذا الاسلوب كنيسة القيامة . وهنالك مبان جمعت بين الباسليكا والشكل المستدير

كما في دير سمعان . وقد قال شارل ديل في هذا البناء الاخير انه الدرة الأثرية الثمينة للفن السوري . وقد بني في اواخر القرن الخامس حول العامود الذي كان يقيم فوقه سمعان ، وهو عبارة عن ساحة مكشوفة مثمنة الجوانب في وسط الدير ويحيط باربعة من جوانب هذا المثمن اربع باسيليكات فترسم بذلك شكل صليب . غير ان الباسليكا المتجهة نحو الشرق هي الكنيسة الرئيسية المخصصة لذكرى سمعان . في هذا البناء تظهر مزايا الفن السوري جميعها وخاصة المبالغة في الزخرفة . واذا ماعرفنا عدد الزائرين الذين كانوا يقصدون ذلك المكان من جميع اجزاء العالم الشرقي وحتى الغربي ادركنا تأثير هذا البناء على تطور انواع الزخرفة والعمران .

اثر الفن السوري على الفن البيزنطي خاصة في ناحية الزخرفة المنحوتة والايقونات . والحقيقة ان سورية كانت تميل منذ العصور الوثنية الى الاكثار من الزخرف ، ودام هذا الميل في العصور المسيحية فكانت تشاهد الزخارف في تيجان الأعمدة وفي الابواب والاقواس والقناطر . واستعملت في النقش عدا عن الازهار المعروفة عند اليونان الاشكال الهندسية وداخلها النجوم او الازهار او الصلبان ، وكذلك نقشت صورة الطاووس والاسد والغزال . وقد رسمت الخطوط الملتوية بدلاً من المستقيمة في كنائس قلب اللوزة ودير سمعان . ولكن بعض هذه الزخارف كانت من اصل فارسي كزخارف قصر المشتى شرقي البحر الميت (جنوب شرقي عمان) المشهور بافريزه الطويل وهو سلسلة مثلثات في وسطها وردات نافرة وفي اسفلها صور الحيوانات المختلفة . وتشاهد نفس الزخارف على اشياء من العاج وكذلك في المخطوطات . واثرت هذه الرسوم الموضوعة في المخطوطات على رسم الايقونات . ومن اشهر الزخارف المستعملة في هذا العصر أيضاً الفسيفساء ومن آثارها البارعة خريطة فلسطين وعليها اسماء المدن مكتوبة باليونانية وكلها مصنوعة بالفسيفساء وهي اليوم في ارض كنيسة مادبا في شرقي الاردن (جنوب غربي عمان) .

وكما اثرت سورية على تطور الفن البيزنطي فان هذا الفن قد أثر عليها أيضاً . ويتضح تأثير الفن البيزنطي في بعض القصور التي بنيت في القرن السادس وبعده ومن اشهرها قصر ابن وردان في شمال شرقي حماة . فقد استخدم القرميد في بنائه وهو يحوي قصراً و كنيسة وثكنة . وقد قيل ان البناء كله قد شيد حسب اسلوب المباني الامبراطورية في القسطنطينية ويرجع الى عصر يوستنيان . ويلاحظ نفس الاسلوب في قصر الأندرين الذي يجاوره وهو من نفس العصر اي من منتصف القرن السادس تقريبا . والفن الاسلامي في أول عهده في سورية (في العصر الأموي) متأثر بالفن البيزنطي . ونشاهد في قصير عمرة لوحات وزخارف تبدو فيها الراقصات والموسيقيون والرسوم حسب الاسلوب البيزنطي . ويقع هذا القصر في شرقي الطرف الشمالي للبحر الميت ويرجع الى اوائل القرن الثامن في عصر الوليد بن عبد الملك .

ويعتقد مؤرخو الفن أن العرب ومنهم الخليفة الوليد كانوا يستعينون بفنانين من القسطنطينية لبناء المساجد وزخرفتها . وقد ذكروا أن فسيفساء الجامع الاموي التي تزخرف الجدران والقناطر والتي تمثل أبنية رشيقة وحدائق مظللة وجداول وشلالات هي من صنع فنانين من القسطنطينية . غير أن الآنسة مارغريت فان برشم Van Berchem قد أظهرت ان هذا الاعتقاد مبني على تفسير خاطىء لكلمة «الروم» التي كانت تدل على البيزنطيين كما تدل على جميع سكان الامبراطورية البيزنطية السابقة ومنهم السوريون . ويذكر البلاذري بوضوح أن الفنانين الذين أرسلوا لمساعدة الوليد كانوا اقباطاً وسوريين . وهنالك فنان من القرن الثامن يدعى توما الدمشقي اشتغل في صنع فسيفساء كنيسة القيامة بالقدس . وأصبح العلماء يميلون الى الاعتقاد بان صانع تلك الفسيفساء المدهشة في الجامع الاموي هو سوري وأن فناني دمشق والقدس كانوا يتبعون تقاليد قديمة متأثرة بالشرق . والزخارف في قبة الصخرة في القدس تشبه الاساليب الفنية في الجامع الاموي

بدمشق وهي من صنع جماعة من السوريين[١].

وتستمر تقاليد الفن المسيحي بعد الفتح الاسلامي في القرن السابع . ويشاهد في بعض المخطوطات المختصة باليعاقبة أثر البيئة في الرسوم الدينية فهنالك مخطوط للانجيل أصله من شمالي العراق من درمتاي قرب الموصل وقد كتب بالسريانية ويحوي رسوما يظهر فيها المسيح والعذراء والرسل بملابسهم العادية محاطين باشخاص يلبسون القفطان والعمائم وحولهم أبنية وأثاث تذكر باللوحات الاسلامية الصغيرة . غير ان الايقونات تبقى بيزنطية تماما وتتبع الطرق السائدة في بيزنطة . وفي القرن ثالث عشر يدخل أسلوب الايقونات الشائع في القسطنطينية الى كنائس أرمينية ولكنه هنا كما بين اليعاقبة يصطدم بتقاليد وطنية .

مراجع الباب الثالث

الحضارة الايرانية :

رضا شفق : تاريخ الادب الفارسي .

زكي محمد حسن : الفنون الايرانية في العصر الاسلامي . القاهرة ١٩٤٠ .

الفردوسي : الشاهنامة . ترجمة عبد الوهاب عزام . القاهرة .

عمر الخيام : الرباعيات . ترجمة أحمد الصافي النجفي أو ترجمة وديع البستاني .

القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات . طبعة وستنفلد Wüstenfeld كوتنكن Gottingen ، ١٨٤٩

(١) انظر : A. Frolow : «Le peintre Thomas de Damas et les mosaïque du St. Sépulcre», Bull. d'études orientales. Damas, T. XI pp. 121 ss.

رحلة ناصري خسرو (السفر نامة) طبع شيفر Schefer .

رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ . طبع وترجمة كاترمير Quatremère بعنوان: Histoire des Mongols de la Perse . باريس ١٨٣٦ .

جلال الدين الرومي : المثنوي . طبعة نيكلسن R. A. Nicholson ٨ مجلدات.

علاء الدين الجويني : تاريخي جهان جوشا . طبعة مرزا محمد بن عبد الوهاب قزويني ١٩١٦ .

Alfaric, P. Les écritures manichéennes. 2 vols. 1918-1919.

Barthold, W. Histoire des Turcs d'Asie centrale. Paris, 1945.

Beroukhim, M. La pensée iranienne à travers l'histoire. Paris, 1938.

Browne, Edward G. A Literary History of Persia. 4vols. 1929.

Christensen, Arthur. L'Iran sous les Sassanides. 1936.

Debevoise, Neilson. A Political History of Parthia. 1938.

Filmer, H. The Pageant of Persia. New York, 1936.

Ghirsman. L'Iran des origines à l'Islam. 1951.

Gray, Basil. Persian Painting. 1930.

Grousset, René. Les Civilisations de l'Orient. T. I. Paris 1929.

Herzfeld, E. Archeological History of Iran. London, 1935.

Huart, Cl. et Delaporte, L. L'Iran antique et la civilisation iranienne.

Jackson, A.V. Researches in Manichaeism. 1932.

Moin. L'influence du masdaïsne dans la littérature persane. 1948

Rehatsek, E. Mir Khwand's Rawzat us-Safa. 1891.

Stein, Aurel. Old Routes of Western Iran. 1940.

Turner, Ralph. The Great Cultural Traditions. Vol. II. New-York, 1941.

Wilber, Donald N. Iran, Past and Present. Princeton, 1950.

٢) الحضارة البيزنطية :

نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد. القاهرة ١٩٥٠.

Abel, R. P. Gaza au Vme siècle d'après le rhéteur Choricius (Revue Biblique) 1931.

Antioch-on-the-Orontes. ed.Elderkin and Stillwell. Princeton, 1934-1941.

Baynes and Moss. Byzantium, An Introduction to East Roman Civilisation.

Bratianu, G. Etudes byzanlines d'histoire économique et sociale. 1938.

Borchgrave C. de. De l'influence des arts orientaux dans nos régions au moyen age. Bruxelles, 1948.

Bréhier, Louis. La civilisation Byzantine. Paris, 1950.
Vie et mort de Byzance.
Les institutions de l'empire byzantin.
Les colonies d'Orientaux en Occident au commencement du moyen age (Byzantinische Zeitschrift) 1903.
Les trésors d'argenterie syrienne et l'école artistique d'Antioche (Gazette des Beaux Arts) 1920.

Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. Bonn 1828-1878.
(مجموعة كتاب التاريخ البيزنطي)

Devreesse (Mgr.R.) Le patriarcat d'Antioche jusqu'à la conquête arabe. 1945.

Diehl, Charles. Histoire de l'empire byzantin. Paris, 1924.
Byzance, grandeur et décadence. Paris, 1930.
Justinien et la civilisation byzantine au VIme siècle. 1901.
Figures byzantines. 2 vol. 1906,1908.

Diehl, Charles. Venise, une république patricienne. 1904.
Manuel d'art byzantin. 2 vols. 1925.

Duval, R. Histoire politique, religieuse et littéraire d'Edesse. (Journal Asiatique) 1891-92.

Ebersolt, J. La miniature byzantine. 1926.

Fortescue. The Orthodox Eastern Church. London, 1907.

Grégoire. H. Digenis Akritas. The Byzantine Epic in History and Poetry. New York, 1942.

Hanotaux, G. Histoire de la nation égyptienne. T. III.

Heyd. Histoire du commerce du Levant. 2vols 1885.

Iorga, N. Les arts mineurs en Roumanie. Bucarest, 1934.
Histoire de la vie byzantine. 3 vols. Bucarest, 1934.

Janin, R. Les églises orientales et les rites orientaux, 1922.

Jerphanion, G. de. Les miniatures du manuscrit syriaque n°.559 de la Bibliothèque Vaticane, 1930 .

Krumbacher, K. Geschichte der byzantinischen Litteratur. Munich, 1897.

Lorey, E. de. Les mosaïques du VIII^{e} siècle dans la mosquée des Omeyades à Damas. Cahiers d'art. 1929.

L'art byzantin chez les slaves, deux recueils à la mémoire de Th. Ouspensky. 4 vols. 1932.

Lassus, J. Sanctuaires chrètiens de Syrie. 1947.

Mattern, J. Villes mortes de Haute Syrie. Beyrouth, 1944.

Pirenne, H. La fin du commerce des Syriens (Mélanges Bidez), Bruxelles.

Publications of the Princeton University Archeological Expeditions to Syria in 1904-5 and 1909.

Rouillard, G. l'administration de l'Egypte byzantine. 1928.

Runciman, St. Byzantine Civilisation. London, 1933.

Sir Galahad. Byzance. Paris, 1930.

Schlumberger, G. Nicéphore Phocas. 1890.
L'épopée byzantine. 3 vols. 1896-1905.
Récits de Byzance et des croisades. 2 séries 1916, 1922.

Starr, J. The Jews in The Byzantine Empire 641-1204. Athens, 1939.

Strzygowski, J. L'ancien art chrétien de Syrie. 1936.
Amra un seine Malereien. Vienna, 1908.

Vasiliev, A. Histoire de l'empire byzantin. 2 vols. 1932.
Byzance et les Arabes (traduction du Russe), 1935.

Vogue, M. de. Syrie Centrale: architecture civile et religieuse du I[er] au VIIme siècle. 1865.

البَابُ الرَّابِعُ

الحضارة العربية

الفصل الرابع عشر

ادوارها ومظاهرها : قبل الاسلام

مميزات الحضارة العربية واهميتها : كان للعرب حضارة في الجزيرة العربية وعلى اطراف الهلال الخصيب قبل ظهور الاسلام . الا ان تلك الحضارة كانت محصورة في مجالات ضيقة في اليمن والحجاز وعلى اطراف الشام والعراق وتنتسب الى دول مختلفة . وبالرغم من تشابه بعض عناصرها فانها لم تتخذ تلك الوحدة وتلك الصفة العالمية التي اتخذتها حضارة العرب بعد الاسلام. وقد تمكن العرب من فتح معظم بلاد العالم المتمدن في فترة وجيزة في القرن السابع الميلادي واخضعوا البلاد العريقة في الحضارة التابعة للامبراطوريتين البيزنطية والساسانية. وادخل العرب من الشعوب الأجنبية في دينهم ولغتهم مايشبه الذي حصل في تاريخ توسع اليونان والرومان وفي تاريخ الانكليز والروس والاسبان في العصور الحديثة . ولم يقتصروا

على بناء امبراطورية فحسب وانما بنوا حضارة أيضاً . فقد ورثوا الحضارة القديمة في وادي النيل وسورية وبلاد الرافدين وفارس ووادي السند كما انهم تمثلوا اهم مميزات الثقافة اليونانية الرومانية التي تدين بالشيء الكثير للحضارات الشرقية التي سبقتها ، واخيراً نقلوا الى الغرب مختلف نواحي الحضارة المادية والفكرية في العصور الوسطى وادى ذلك الى يقظة العالم الغربي وبعثه في عصر النهضة . ولم يكن لاحد الشعوب في العصور الوسطى فضل في تقدم البشرية كما كان للعرب والمتكلمين بالعربية . ولم يوضع عدد من الكتب في الدينيات والفلسفة والتاريخ والطب والجغرافيا والفلك في أية لغة كما وضع في اللغة العربية في العصور الوسطى وخاصة بين القرن التاسع والثاني عشر حتى انه لم يبق موضوع يهم البشر الا وكتب بها . وقد جعل احد العلماء اللغة العربية في الدرجة الثالثة بين اللغات التي حملت مشعل الحضارة ولم يجعل بين هذه اللغات الثلاثة الاولى الانكليزية ولا الافرنسية . والدين الاسلامي الذي نشره العرب لم يكن ديناً فقط وانما كان ديناً ودولة . وكما ظل الاسلام قوة فعالة من مراكش حتى اندونيسيا فان الابجدية العربية ظلت بعد اللاتينية اكثر الابجديات انتشاراً حيث تكتب بها عدا عن العربية الفارسية والافغانية والاوردية وبعض لغات الترك والبربر والملايو . وبالرغم من أن البعض قد رأوا ان وحدة الحضارة العربية ناتجة عن اقتباسها للحضارة القديمة ذات الطابع الموحد وان الوحدة التي برزت منذ القرن الثامن هي ثمرة تطور عمره الف سنة قائم على قوة التراث الهيليني — بالرغم من هذا القول [1] فان العربية والاسلام كانا من اهم اسباب هذه الوحدة .

هذه الحضارة العربية التي شملت في ابان ازدهارها البلاد الواقعة بين حدود الصين شرقاً والمحيط الاطلسي غرباً منذ القرن السابع حتى الخامس عشر قد ساهمت فيها اجناس مختلفة كما كانت الحال في الحضارة الهلنستية والرومانية وغيرها.

---

(١) هانز شيدر : روح الحضارة العربية (ترجمة عبدالرحمن بدوي) بيروت ١٩٤٩ ص ٢٤.

فقد اشترك فيها العرب والبربر والطورانيون والايرانيون والسوريون والاندلسيون وبعضهم من المسلمين وآخرون من النصارى واليهود والصابئة . غير ان الذين ساهموا فيها وان كان بعضهم من غير العرب والبعض الآخر من غير المسلمين فانه يمكن ان نسميهم جميعاً « اسلاميين » باعتبار انهم عاشوا وعملوا في ظل الديانة والدولة الاسلامية ويمكن ان نسميهم عرباً طالما انهم استعملوا العربية في نقل افكارهم في ظل دولة عربية . ومن جهة اخرى فان الشعوب ذات الثقافات المختلفة التي كان لها اثرها في ازدهار الحضارة العربية قد تمازجت وذابت بطريق التزاوج واعتناق الاسلام واصبحت قومية المسلم غير العربي امراً ثانوياً وطالما انه اعتنق الاسلام وتكلم العربية وكتب بها فقد اصبح عربياً . وعلى ذلك فانه كثيراً ما يطلق على هذه الحضارة اسم الحضارة الاسلامية ولكن هذه التسمية لا تعود تشمل حضارة العرب قبل الاسلام . وسوف لا نتناول في مثل هذا الكتاب الذي يستعرض مآثر الحضارات العالمية وتفاعلاتها سوى المعالم البارزة في الحضارة العربية مع ذكر ادوارها ومظاهرها في كل دور ثم مآثرها وتفاعلاتها مع الحضارات الاخرى .

كشف الحضارة العربية : تركت الحضارة العربية في العصور القديمة والوسطى كثيراً من البقايا المادية والآثار الادبية المخطوطة كما ان المصادر الشرقية القديمة والكلاسيكية اشارت الى العرب وحضارتهم . فقد ذكر المؤرخ اليوناني هيرودوتس الساحل الغربي الجنوبي لبلاد العرب واهتم اليونان والرومان بعرب الجنوب لصلتهم بتجارة الهند والصومال وبسبب انتاجهم للبخور والتوابل . واطلع علماء اوربا على حضارة العرب في العصور الوسطى واستفادوا من تراثها . ولكن مراكز الحضارة العربية في الجزيرة وعلى اطراف الهلال الخصيب كانت مجهولة لدى الاوربيين في اول العصر الحديث . ومن جهة اخرى فان هذه المراكز وبقاياها المادية والآف مخطوطاتها لم تنل من ابناء البلاد العربية الاهتمام اللائق بها في عصر خيم فيه الجهل

وانصرفت فيه الحكومات عن العلم حتى بدء النهضة العربية في القرن التاسع عشر. ومنذ القرن الثامن عشر اقبل على بلاد العرب جماعة من الرواد الاوربيين بين ضباط ومبشرين ومغامرين وتجار ومكتشفين ومندوبين سياسيين واخذوا بدراستها وكشف معالم حضارتها القديمة. واول العلماء الاوربيين الذين وصفوا الجزيرة العربية كارستن نيبور Niebuhr الذي اوفده ملك الدانمرك في ١٧٦١ مع بعثة فكتب عن اليمن واعلن في ١٧٧٢ لاول مرة عن وجود كتابات اثرية قديمة. واهم السويسري بركهارت (Burckhardt) بشمالي الجزيرة فاكتشف البتراء في عام ١٨١٢ وزار مكة وجدة. وحذا حذوه في زيارة مكة سنوك هورغروني (Hurgronje) الهولاندي بعد اكثر من نصف قرن (١٨٨٥). وفي عام ١٨٣٧ نشر الضابط البحري الانكليزي ولستد (Wellsted) قسماً من كتابة نقب الحجر في جنوبي الجزيرة وتبعه آرنو (Arnaud) الافرنسي فاكتشف خرائب مأرب ونسخ بعض النقوش في ١٨٤٣. وشرع العالمان الالمانيان دي هال Emil Rodiger de Halle وكيزينيوس (Gesenius) منذ ١٨٣٧ بتفسير كتابة عرب الجنوب. وتتابعت الرحلات الى بلاد العرب فزار جورج والين (Wallin) الفنلاندي السويدي نجد كما ان وليم بالغريف (Palgrave) الانكليزي الذي كان راهبا يسوعيا في رحلة زار جنوبي نجد. وقصد السير رتشارد بورتن (Burton) مترجم الف ليلة وليلة المدن المقدسة في ١٨٥٣ كما ان الليدي بلنت (Blunt) زارت شمالي الجزيرة وفي ١٨٧٩ وصلت نجد. ويعود اكتشاف النقوش الحميرية خاصة الى جوزيف هاليفي (Halévy) الافرنسي في ١٨٦٩ والى ادوارد غليزر (Glaser) النمساوي بين ١٨٨٢ و ١٨٩٤.

واجتاز تشارلز دوتي Doughty شمالي الجزيرة العربية في ١٨٧٥ ووضع كتابه المشهور « رحلة في بلاد العرب الصحراوية » Travels in Arabia Deserta الذي اصبح من الكتب الكلاسيكية في الادب الانكليزي. وفي القرن العشرين وضع

الكولونيل لورنس كتاب « اعمدة الحكمة السبعة » الذي يهم من يريد دراسة الحرب العالمية الاولى وماجرياتها في البلاد العربية ، كما ان التشكوسلوفاكي موسيل Alois Musil زار المناطق الشمالية لجزيرة العرب و كتب عنها . وتمكن المستشرق الانكليزي برترام توماس من عبور الربع الخالي في ١٩٣١ وحذا حذوه الحاج عبدالله فلبي Philby في ١٩٣٢ فعبر الربع الخالي في مدة تسعين يوماً . وفي القرن العشرين يساهم جماعة من ابناء البلاد العربية في دراسة حضارة اليمن بينهم نزيه المؤيد العظم الذي كتب « رحلة الى بلاد العرب السعيدة » في ١٩٣٧ وخليل نامي واحمد فخري ، كما ان امين الريحاني زار مختلف البلاد العربية وكتب عنها بصورة عامة في كتابه « ملوك العرب » .

وكانت دور الكتب التي اسسها الخلفاء والامراء والعلماء في مختلف العواصم والمراكز ملأى بشتى انواع المؤلفات ولكن خزائن الكتب اقفرت وعبثت بها الايدي وتبعثرت فذهب بعضها في عهد العثمانيين الى استانبول وانتقلت في العصور الحديثة الى عواصم اوربا ومكاتبها في باريس ولندن وروما وبرلين وفينا وكوبنهاكن واوبسالا ولننغراد واكسفورد ، وانتقل كثير منها الى مدريد والاسكوريال كما ذهب بعضها الى جامعات العالم الجديد وخاصة الى برنستون . ولا يزال جانب منها في استانبول والقاهره ودمشق وحلب وبغداد والقدس وفي مدن الهند وايران وشمالي افريقيا . وقد قدر الاب لويس شيخو محتويات خزائن الاستانة بثلاثين الف مخطوط ، ودل احصاء اخير لهذه المخطوطات الشرقية بين عربية وغيرها سنة ١٩٥١ انها تقرب من ١٢٠٠٠٠ مخطوط والفهارس القديمة التي وضعت لها بين ١٣٠٠ و ١٣١٢ هـ تقع في ٤٢ جزءاً [١] . وقد قام علماء الافرنج في العصور الحديثة

---

(١) انظر مقال سامي الدهان « الخزائن العامة في استانبول واشهر مخطوطاتها » في مجلة المجمع العلمي العربي . نيسان ١٩٥٣ ص ١٨٧ — ٢١٥ .

يبحثون في العلوم العربية ، وكان من اهم ما فعلوه انهم وضعوا فهارس المخطوطات العربية المحفوظة في نحو ثمانين مدينة في العالم وقام آخرون فوصفوها بعد ان صنفوها ووضعوا هذه الفهارس والمصنفات في مكاتبهم ومتاحفهم (١) . وكان بعض العلماء من اصل عربي اقاموا في بلاد الغرب ومنهم ابراهيم الحاقلاني في القرن السابع عشر ويوسف السمعاني وميخائيل الغزيري في القرن الثامن عشر الذين وضعوا فهارس المخطوطات العربية في مكاتب ايطاليا واسبانيا . وهنالك العالم المجري اوري Uri في القرن الثامن عشر الذي نشر اول فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة البودليان باكسفورد . واهم مجموعات المخطوطات العربية في العالم الجديد هي مجموعة جامعة برنستون Princeton التي وضع فهرس جانب منها (٢) .

وقد اخذ العلماء وبعضهم من ابناء البلاد العربية واعضاء المجامع العلمية واساتذة الجامعات بنشر هذه المخطوطات وضبطها وشرحها وترجمتها احياناً . كما قام بعضهم بوصف الكتب والآثار الادبية التي خلفها العرب ، وبدراسة المصادر . واوسع مؤلف في هذا الموضوع هو كتاب كارل بروكلمن في تاريخ الآداب العربية (٣) . واخذت الدراسات العربية والاسلامية تحتل مكانة هامة في الجامعات الاوربية والاميركية . وكانت الدراسات الشرقية تقتصر على سائر اللغات السامية وآدابها

---

(١) يمكن الاطلاع على لوائح هذه المجموعات مثلاً في كتاب غابريلي Gabriéli عن مصادر التاريخ الاسلامي : Manuale de bibliografia musulmana. Rome, 1916

(٢) انظر : Hitti, Fares, Abdel-Malek : Descriptive Catalogue of the Garrett Collection of Arabic Manuscripts. Princeton, 1938.

(٣) طبع ويمار ١٨٩٨ — ١٩٠٢ وملاحقه طبع ليدن ١٩٣٧ — ١٩٤٢ . وهنالك كتاب موجز يدرس اهم مصادر تاريخ الشرق الاسلامي وضعه جان سوفاجه Sauvaget وعربه صلاح الدين المنجد .

لاتصالها بالعهد القديم بالتوراة . وفي عام ١٨٨٠ قدم احد طلاب جامعة هارفرد في الولايات المتحدة رسالة عن موضوع يتصل بالعرب فلم يجد لمناقشتها غير استاذ وحيد للعربية في جامعة ييل ومع ذلك كان اختصاصه السنسكريتية . وفي عام ١٩٣٥ انشأت جامعة ميشيغن كرسي الفن الاسلامي وبعد سنة منح كرسي العربية في جامعة هارفرد منحة كبيرة . واصبح اصحاب كراسي الدراسات السامية في جامعات برنستون وكولومبيا وبنسلفانيا مستشرقين مختصين بالدراسات العربية الاسلامية . اما في اوربا فان الدراسات العربية كانت اقدم عهداً . وقد ظهر في روسيا وحدها في مدة قرنين عشرات المستعربين من اشهرهم كراتشكوفسكي (١٨٨٣—١٩٥١) الذي وضع قبيل وفاته كتاباً سماه « بين المخطوطات العربية » وكذلك الأمر في المانيا وفرنسا وانكلترا وهولاندا واسبانيا وايطاليا . وبنتيجة اهتمام الجامعات والعلماء بالدراسات العربية والاسلامية تخصصت بعض المكاتب ودور النشر بالمطبوعات المتعلقة بالشرق ومنها دار بريل Brill للنشر في ليدن المؤسسة في ١٦٨٣ ومكتبة غوتنر Geuthner في باريس ، ولوزاك Luzac في لندن ومطابع الجامعات الكبرى والمجامع العلمية في المانيا والولايات المتحدة .

كذلك استرعت الآثار الاسلامية اهتمام الباحثين منذ القرن الثامن عشر . ومنذ نهاية ذلك القرن نجد فهارس النقود الاسلامية ومنها فهارس مجموعات رومة وبادوا وكوتنكن وستوكهولم . ثم في اواخر القرن التاسع عشر تبعتها فهارس مجموعات المتحف البريطاني وبطرسبرج (لينغراد) ودار الكتب الوطنية بباريس ومتحف استانبول ومتحف برلين . ثم بدأت مجموعات الكتابات الاثرية العربية ، ومن العلماء الاولين الذين اعتنوا بها نيبور ورينو Reinaud وفون هامر بورغشتال Von Hammer - Purgstall ، ثم فون كرابسيك Karabacek النمساوي الذي عدا عن كونه عالماً في النقود والكتابات اسس علم اوراق البردي العربية ، وماكس فان برشم Van Berchem السويسري (١٨٦٣ — ١٩٢١) الذي بدأ بجمع الكتابات في مجموعة (Corpus) وساعده في ذلك وتابع عمله زوبرنهايم

وهرتزفلد وخليل ادهم وفييت Wiet وسوفاجيه . وهذان الاخيران وضعا الجدول التاريخي للكتابات العربية (١) وظهر منه ثلاثة عشر مجلد . وهنالك مجموعة فيرا كراتشكوفسكي زوجة المستعرب الروسي ، ودراسات غروهمان Grohmann عن اوراق البردي العربية ، وابحاث الآنسة آبوت (Abbott) عن نشأة الكتابة العربية الاولى . وبدأ دراسة الاشعرة العربية كرابسيك ثم يعقوب ارتين باشا (بين ١٨٨٧ و ١٩١٠) وليو ماير . ثم هنالك دراسة الآثار المادية في كتاب مورفي عام ١٨١٣ عن الآثار العربية في اسبانيا ، و كتاب لينبول Lane Poole عن الفن الاسلامي في مصر ١٨٨٦ ، ومؤلفات سار Sarre (١٨٦٥ — ١٩٤٥) الذي تناول الفن في البلاد الاسلامية من اسبانيا الى الهند . وهنالك مؤلف سلادن وميجون Saladin, Migeon عن الفن الاسلامي (طبع باريس ١٩٠٧) و كتب كريزول Creswell في تاريخ العمارة الاسلامية (طبع اكسفورد ١٩٣٢ ١٩٤٠) وديماند Dimand عن الرسم والفنون الزخرفية (طبع نيويورك ١٩٣٠) و كتب مارسيه Marcais وهرتزفلد وغير ذلك كثير . كما ان هنالك كتب محمد زكي حسن المختلفة عن فنون الاسلام والفنون الايرانية في العصر الاسلامي (طبع القاهرة ١٩٤٠—١٩٤٨) . اما المستعربون الذين كتبوا عن النواحي الفكرية في الحضارة العربية فعددهم كبير .

علاقات العرب الاولى حسب النصوص القديمة : كانت نتيجة تفسير النصوص المسمارية في منتصف القرن التاسع عشر ومقارنة اللغات الاشورية البابلية والآرامية والعبرية والحبشية ، ان العلماء وجدوا تشابهاً بين هذه اللغات في اصل الفعل الثلاثي وفي كيفية تصريف الافعال وفي المفردات والضمائر وفي الكلمات

(١) Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. Le Caire 1931 - 44 .

الدالة على القرابة والاعداد واعضاء الجسم . ثم وجدوا تشابها في المؤسسات والنظم الاجتماعية والعقائد الدينية وقالوا ان التشابه في اللغات بين الشعوب التي تكلمت هذه اللغات ، وفي بعض الصفات مثل التدين والفردية والخيال الخصب والعصبية والحماس يدل على اصل واحد تفرعوا عنه . واصطلح العلماء على تسميتهم بالشعوب السامية نسبة الى سام بن نوح . وظهرت النظريات في اصل هذا الشعب وموطنه الاصلي فقال البعض انه جزيرة العرب واستدلوا على ذلك من الهجرات المعروفة التي خرجت من الجزيرة في عصور التاريخ وآخرها هجرة العرب المسلمين . وقال البعض الآخر ان اصلهم من المنطقة الكائنة بين شمالي الجزيرة وبين بادية الشام وبنوا ذلك على ان اقدم ذكر للعرب واقدم حضارة معروفة لهم لاتتعدى مطلع الالف الاول ق.م بينما هنالك حضارات اقدم بكثير عند سكان بلاد الهليل الخصيب الذين ظن الفريق الاول انهم خرجوا من الجزيرة . وكلمة « سامي » لها مدلول لغوي اكثر منه عرقي ويرى علماء الانسان (الانتروبولوجيا) انه لايمكن التكلم عن شعب سامي من وجهة عرقية لان الخصائص والاصول العرقية مختلفة . اما اللغات فهي من أصل واحد سماه علماء الالمان « السامية القديمة » (Ursemtisch) التي كانت لغة تكلم فقط ولذلك اضمحلت . ويرى البعض مثل هروزني وبارتون Barton ان الساميين والحاميين لهم اصل مشترك وانهم اتوا من مكان واحد ، ويعتبر العالم هروزني Hrozny ان هذا المكان هو منطقة القفقاس وبحر الخزر وان سورية كانت محطة لهم ومنها تفرقوا الى مصر وبلاد الرافدين وغيرها . ومهما يكن فان اقدم الحضارات السامية كان مسرحها الهلال الخصيب .

كان موطن اقدم حضارة عربية في جنوبي الجزيرة . وقد فرق علماء الانساب بين عرب الشمال وعرب الجنوب كما ميزوا بين العرب البائدة التي منها عاد وثمود وطسم وجديس ، وبين العرب الباقية . وقد ذكرت كتابات سرجون الثاني في القرن الثامن ق.م ثمود كما ذكرها الكتاب الكلاسيكيون (Tamudaei) .

وجعل علماء الانساب العرب على نوعين : العاربة وهي يمنية من سلالة قحطان والمستعربة وهي من سلالة عدنان وبقي هذا التمييز حتى بعد ان وحد الاسلام الامة العربية . ولا بد ان الجزيرة العربية المجاورة للحضارات المحيطة بها قد احتكت بها منذ القديم وهنالك مجال للاتصال بمصر مثلا عن طريق سينا وعن طريق البحر الاحمر عند موقع القصير المتصل بطيبة في مصر العليا بواسطة وادي الحمامات . ويزعم البعض ان صورة ذلك « الاسيوي » الذي وجده العالم بيتري Pietrie على قطعة عاج من عهد السلالة المصرية الاولى هو من عرب الجنوب . والكتابات المصرية القديمة تذكر الآمو (او العمو) بمعنى البدو أو الاسيويين خاصة في علاقاتها مع شبه جزيرة سينا حيث كانت تستثمر مناجم الفيروز والنحاس في وادي المغارة . وربما كانت بلاد « البونت » التي كان يوجه المصريون اليها حملاتهم تضم عدا عن الصومال منطقة جنوبي الجزيرة المجاورة وكانوا يأتون منها باللبان الذي لا يزال من أهم منتوجات حضرموت . ويعتقد البعض ان منطقة ماجان المذكورة في نصب نارام سن الاكادي نحو ٢٣٠٠ ق.م وفي اخبار غوديا حاكم لاغاش هي في شرقي جزيرة العرب . على ان اقدم ذكر واضح للعرب كان في الالف الاول ق.م في العصر الاشوري حيث يذكر شلمناصر الثالث الذي قاد حملة ضد ملك دمشق الآرامي وحلفائه وانتصر عليهم في موقعة قرقر عام ٨٥٤ ق.م رجلاً يسميه « جندب العربي » (Gindibu) كما يذكر الفاً من الأبل كانت معه . ومن الطرافة ان يقترن ذكر اول عربي في التاريخ بذكر الابل . ويذكر تغلت فلاسر الثالث في القرن الثامن ق.م انه اخذ الجزية من زبيبي Zabibi ملكة ارض عربي وانه قهر ملكة اخرى لعربي اسمها سمسي (شمس) . ويذكر ان مدينة تيماء (Temai) والسبأيين (السبأي) ارسلوا له الذهب والابل والتوابل كجزية . وربما عاشت هذه القبائل في سينا وفي البادية التي تجاورها . وسرجون الثاني في اواخر القرن الثامن يذكر انه اخضع قبائل ثمود وابادي Ibadid التي تسكن البادية وانه اخذ من سمسي ملك بلاد العرب وايتعمارا

Itamara (Yith'iamara) الزعيم السبأي الجزبة وكان هـذا غالباً من الذين حملوا اللقب الملكي « مكرّب » في نقوش جنوبي الجزيرة . وفي ٦٨٨ ق.م يذكر سنحاريب انه اخضع ادومو Adumu حصن بلاد العرب ونقل الآلهة المحلية الى نينوى والملكة التي كانت بنفس الوقت كاهنة . وادومو هذه هي واحة دومة الجندل في شمالي الجزيرة العربية . والملكة تلخونو Teelkhunu كانت قد اتحدت مع البابليين الثائرين ضد الاشوريين وساعدها حزائيل زعيم قبيلة القيدار (Kidri الاشورية) ومركزها منطقة تدمر . واشوربنبال ٦٦٨-٦٢٦ ق م في حملته التاسعة ضد القبائل العربية يأسر اويتع Uaite ابن حزائيل ووريثه بعد معركة . ويبدو ان كلمة « عرب » كانت تستعمل خلال قرون عديدة قبـل الاسلام للدلالة على البدو . وهنالك اخبار لا أقل من تسع حملات يقودها ملك اشور لمعاقبة البدو الذين كانوا يهاجمون المقاطعات الاشورية في سورية ويتعرضون للقوافل تحرضهم في ذلك بابل ومصر أعداء أشور والأوربي (أو العُربي Urbi) المذكورون في الحملات هم بدو غالباً يسكنون بادية الشام والعراق وشمالي الجزيرة وبلاد سينا ونرى الأخبار الاشورية تذكر انهم يقدمون لملوك نينوى الذهب والحجارة الكريمة والكحل واللبان والابل(١) . وفي اخبار الدولة الكلدانية يرد اسم تيماء كمسكن نابونيدس (٥٥٦—٥٣٩ ق م) آخر ملوك الكلدان حيث تذكر انه قتل امير تيماء واقام في تلك الواحة .

وفي عهد الفرس يذكر هيرودوتس العرب (في كتابه الثالث فقرة ٨٨) ويقول انهم لم يخضعوا للفرس قط . وفي قصة بني اسرائيل واقامتهم في سينا وشمال بلاد العرب اربعين سنة نجد ذكر موسى وزواجه من ابنة كاهن مدين واسمه « يثرون »

---

(١) هذه الاشارات الاشورية يمكن الاطلاع عليها في كتاب الوثائق القديمة المتعلقة ببابل واشور: Luckenbill : Ancient Records of Babylonia and Assyria: 2 vols. Chicago, 1926 .

وكان يعبد يهوه وهو من آلهة مدين او من آلهة شمالي الجزيرة العربية . وفي أيام سليمان وحليفه حيرام ملك صور كانت منطقة اوفير التي منها يأتون بالذهب والحجارة الكريمة في ظفار باليمن . وتذكر التوراة (سفر اخبار الايام الثاني ١١:١٧)ان العربان اتوا الى يهو شافاط في القرن التاسع ق. م بغنم من الكباش سبعة آلاف وسبع مئة ؛ وفي مكان آخر (اخبار الايام الثاني ٧:٢٦) تذكر ان عزّيا ملك يهوذا حارب المعونيين حول معان . وفي بعض اماكن في التوراة يرد ذكر بلاد العرب: « في الوعر في بلاد العرب تبيتين ياقوافل الددانيين » (اشعيا ٣١:٢١) . ولاول مرة يستعمل ارميا ٦٢٦—٥٨٦ ق.م العرب كاسم شعب فيقول«وكل ملوك العرب ... وكل ملوك عيلام وكل ملوك مادي» (ارميا ٢٤:٢٥) . واصبح اسم العرب في القرن الثالث ق.م يدل على سكان الجزيرة العربية : « واهاج الحرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين » (اخبار الايام الثاني ١٦:٢١) ويقصد بالعرب هنا السبأيين لان بلاد كوش هي الحبشة القريبة من جنوبي الجزيرة . وورد ذكر العرب مع ذكر قيدار في سفر حزقيال (٢٧: ٢١) وانهم يتاجرون مع صور بالخرفان والكباش والاعتدة . وفي حزقيال ايضاً (١٩:٢٧) ورد ذكر ددان (ديدان) وهي اليوم العلا في شمالي الحجاز ومن مراكز السبأيين في شمالي الجزيرة. وملكة سبأ التي جلبت الهدايا الى سليمان (سفر الملوك الاول ١٠:١٠) لم تكن غالباً في اليمن ولا في الحبشة وانما في المراكز السبأية في الشمال على طريق القوافل لانه لا توجد نقوش تذكر ملوك اليمن قبل القرن الثامن ق.م اي بعد عصر سليمان بقرنين . ويعتقد البعض ان بيئة سفر ايوب في التوراة كانت في شمالي الجزيرة وان ايوب كان عربياً . ويرون ان نسبة ايوب الى « بني قدم » (سفر ايوب ٣:١) التي ترجمت الى العربية « بني المشرق » تعني البدو الذين كانوا في شرقي فلسطين اي العرب . وفي اخبار اليهود بعد عودتهم من السبي في سفر المكابيين نجد ان كلمة عرب تعني الانباط .

وفي الادب الكلاسيكي نرى ان العرب كانوا معروفين لدى اليونان والرومان

وبلاد العرب تقع على طريقهم الى الشرق الاقصى وسكانها كانوا مشهورين بمعرفتهم للبحار الجنوبية . وقد قسم الرومان بلاد العرب الى ثلاثة اقسام هي :البلاد العربيـة السعيدة (Arabia Felix) وهي مستقلة ، والبـلاد العربيـة الصخرية (Ar . Petraea) وكانت تحت حكم الرومان في القرن الاول م ، والبلادالعربية الصحراوية (Ar. Deserta) التي تضم بادية الشام والعراق . والبـلاد العربية السعيدة لا تعني اليمن فقط وانما كل القسم الباقي الذي لم يعرفه الرومان تمـاماً . وربما دعوها السعيدة بترجمتهم كلة يمن فظنوها من « اليُمن » (بضم الياء بمعنى السعادة) بينما هي اليَمن بمعنى انها الى يمين الحجاز بينما الشام تعني يسار الحجاز .

وفي القرن الخامس ق.م ذكر الروائي اليوناني اسخيلوس العرب بمناسبة ذكر ضابط عربي في جيش زركسيس ملك الفرس . كذلك ذكر المؤرخ هيرودوتس العرب في جيش زركسيس. وكتب العالم النباتي اليوناني ثيوفراستس (Theophrastus) (٣٧٢ — ٢٨٧ ق.م.) عن بـلاد العرب وكذلك كتب الفلكي والجغرافي ايراتوستنيس Eratosthenes(٢٧٦ – ١٩٥ ق.م) الذي عاش في الاسكندرية عن محاصيل الجزيرة العربية وذكر سبأ وحضرموت وقتبان ومعين ونقل عنه الجغرافي سترابون في كتابه السادس عشر . والكتاب الكلاسيكيون من القرن الثالث ق.م حتى عصر بليني Pliny في القرن الاول م يذكرون بلاد العرب كبلاد غنية مترفة ويتكلمون عنها كبلاد التوابل واللبان وان أهلها يحبون الحرية . ويذكر سترابون في مطلع القرن الأول م ان العرب هم الوحيدون الذين لم يرسلوا سفراء الى الاسكندر . كما ان ديودورس الصقلي (في القرن الاول ق . م) ذكر قبله انهم يمجدون حريتهم . وفي القرن الثاني يرد ذكر السراسيني Saraceni الذي عرف به العرب والمسلمون فيما بعد (وقد ورد في الانكليزية (Saracens) وفي الفرنسية (Sarrasins) . ويقوم رحالة مجهول في القرن الاول برحلة حول بلاد العرب للتجارة وربما كان يونانياً سكن

مصر ويذكر الموانىء والاسواق والمحاصيل ويعرف كتابه باسم رحلة البحر الارتري [١] . كذلك ذكر المؤرخ السوري مرسلينوس (Marcellinus) في القرن الرابع ان السراسيني هم العرب الذين يسكنون الخيام(السكنيتي Scenitae) والكلمة مشتقة من Skene اي خيمة باليونانية) . ولكن كلمة عرب عند اليونان والرومان صارت تعني الرحل وسكان الواحات وسكان القسم الجنوبي الغربي عموماً. وحاول الرومان بقيادة ايليوس غالوس في عام ٢٤ ق . م التقدم في الجزيرة العربية والاستيلاء عليها وعلى سبأ وطرق التجارة ولكنهم بعد وصولهم اليمن اضطروا للعودة عن طريق البحر الاحمر بعد هلاك معظم الحملة . وقد تأثر سترابون بثروة بلاد العرب فذكر مدناً مزدانة بالمعابد والقصور . ووضع الجغرافي الفلكي بطليموس في القرن الثاني م خريطة للجزيرة العربية هي الاولى من نوعها .

حضارة اليمن : عرفت اقدم حضارة عربية في جنوب غربي بلاد العرب حيث التربة الخصبة والامطار المناسبة والموقع الستراتيجي الملائم نظراً للقرب من البحر وعلى طريق الهند. وهذه المنطقة تنتج المر والطيوب والتوابل واللبان وفيها تجتمع البضائع مثل مصنوعات الهند وسيوفها وحرير الصين وعبيد الحبشة وعاجها وريش نعامها ولؤلؤ الخليج الفارسي ثم تصدر شمالا . وقد وصف ذلك مؤلف رحلة البحر الاريتري في وصف لمدينة مخا في القرن الاول م . وكان السبأيون ماهرين في معرفة طرق تلك البحار حول الجزيرة العربية وموانئها . وأحياناً كانوا يتجنبون السفر في البحر ولذلك أنشأوا الطرق البرية على الساحل الغربي تمر بمكة والبتراء الى سورية وبلاد الرافدين ومصر . واسست المستعمرات او المحطات على هذه الطريق وهي غالباً التي ذكرتها النصوص الآشورية والعبرانية .

(١) The Periplus of the Erythrean Sea. Tr. by W.H. Schof 1912 .

واخبار عرب الجنوب وحضارتهم نستقيها من هذه النصوص القديمة بما فيها كتابات اليونان والرومان التي ذكرناها ، والمرويات في الآداب العربية ومنها كتابات وهب بن منبه في القرن الثامن، والهمذاني في القرن العاشر (توفي عام ٩٤٥) ونشوان بن سعيد الحميري (م١١١٧) في القرن الحادي عشر وهو صاحب كتاب « شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ».

وقد كان الهمذاني من صنعاء وكتب « صفة جزيرة العرب » كما وضع كتاباً عن آثار اليمن سماه « الاكليل » وفي جزئه الثامن يصف قصور جنوبي بلاد العرب وقلاعها [١] . ومن اهم مصادر معرفتنا عن حضارة اليمن وما جاورها تلك الكتابات القديمة التي اكتشفت على الحجر والمعدن بينما تلفت المواد الاخرى التي كتبت عليها آداب عرب الجنوب ومعاملاتهم التجارية. وترجع أقدم الكتابات الى القرن الثامن ق.م وهي إما على جدران المعابد أو على صفائح البرونز أو على الاعمدة وتحوي نصوصاً دينية أو قانونية أو جنائزية . وهنالك اكثر من ثلاثة آلاف نص اثري منها ما اتى به هاليفي في ١٨٧٠ وادورد غلازر في ١٨٩٤ ومنها ما اتى به آرنو الذي اكتشف خرائب مأرب في ١٨٤٣ واحمد فخري في ١٩٤٧ وغيرهم [٢] . وكان كارستن نيبور أول من أعلن في ١٧٧٢ عن وجود نقوش اثرية في جنوبي الجزيرة . وفسر الكتابة ديهال وكيزينيوس في ١٨٤١ . وتبين ان هذه اللغة السبأية المعينية أو الحميرية مكتوبة بالخط المسند المربع ولها أبجدية من ٢٩ حرفاً كلها ساكنة ، وربما تفرعت من كتابة سينا التي كانت صلة الوصل بين الكتابتين الهيروغليفية والكنعانية كما ان اللغة تشبه الاكادية والحبشية . وقد زالت هـذه اللغة وكتابتها باضمحلال

---

(١) ترجم هذا الجزء الثامن من كتاب الاكليل الى اللغة الانكليزية نبيه فارس تحت عنوان:
The Antiquities of South Arabia . Princeton, 1938 .

(٢) راجع مقال كامل عياد «التنقيب عن آثار اليمن » في مجلة الحوليات الاثرية السورية م١ ج١ ص ٧٦-٩٤ (دمشق ١٩٥١) .

حضارة اليمن وحلت محلها لغة عرب الشمال وساعد على ذلك مواسم الحج الى الكعبة والاسواق العربية مثل سوق عكاظ ، ونشاط مكة التجاري وخاصة ظهور الاسلام وانتشاره فيما بعد .

يعتقد بعض العلماء أن مملكة معين كانت أولى ممالك الجنوب وجعلوا تاريخها بين ١٢٠٠ و ٦٥٠ ق.م وعاصمتها مدينة قرنا Karna أو قرناو (وهي معين الحديثة) في شمالي اليمن وشمال شرقي صنعاء . والعاصمة الدينية كانت يثيل وهي اليوم البراقش شمال غربي مأرب. ويرى البعض الآخر أن المملكة المعينية أتت بعد مملكة سبأ وانها دامت من ٥٠٠ ق.م حتى نحو ٥٠ م ويجعلون تاريخ مملكة سبأ بين ١٠٠٠ و١١٥ ق.م ويعتمدون في ذلك على الاشارات الاشورية القديمة الى سبأ والى ذكر مملكة سبأ المعاصرة لسليمان (١) . ويظهر أن هذا التاريخ المتعلق بمملكة سبأ صحيح على كل حال وان هذه المملكة التي كانت في وسط اليمن بدأت حكمها أثناء حكم الدولة المعينية الواقعة الى شمالها ثم ورثتها في ٦٥٠ ق.م. وقد عثر مولر على ٢٦ إسماً للملوك في معين ويضيف اليها ركمانس Ryckmans أسماء أخرى . وكان للمملكتين مراكز في شمالي الجزيرة العربية منها معان التي استولى عليها اللحيانيون بعد ٥٠٠ ق.م وعاصمتهم ديدان (العلا الآن) ثم حكمها الانباط . وكان لقب الكاهن في فترة سبأ الاولى « مكرب سبأ » والعاصمة كانت صرواح وهي اليوم خربة وتقع غربي مأرب وفيها بقايا قلعة ومعبد وأعمدة والمعبد لإله القمر . والملوك الذين ذكر نص سرجون الثاني الاشوري انهم دفعوا الجزية من ملوك هذه الفترة الاولى لمملكة سبأ. وتدوم الفترة الثانية لمملكة سبأ من ٦٥٠ الى ١١٥ ق.م حيث يظهر لقب

---

(١) راجع من جهة : Hitti : History of the Arabs (5 th ed. London, 1951) pp. 52 ff.

ومن جهة أخرى : Finegan : The Archeology of World Religions. (Princeton 1952) p. 476 and notes 58-60 .

« ملك سبأ » بدلاً من مكرب سبأ . وتصبح مأرب العاصمة شرقي صنعاء بدلا من صرواح. وتقع مأرب على ارتفاع ١٤٠٠ متراً فوق سطح البحر وكانت على طريق تجارة اللبان وكان لها سور يمكن مشاهدة بقايا ثمانية ابواب فيه . ويشير الهمذاني في « الاكليل » الى ثلاث قلاع في مأرب هي سلحين والحجر والقشيب وكان مسكن الملك في القلعة الاولى ، وأعمدة العرش كانت قائمة في هذه القلعة عندما كتب الهمذاني في القرن العاشر . وهنالك خرائب معبد يسمى اليوم حرم بلقيس وهو للاله القمر كما في صرواح ، وأحد النقوش يكرس الاسوار والابراج للاله القمر . وأهم ما اشتهرت به مأرب السد الذي يدل على تقدم المجتمع ونشاطه الاقتصادي ومهارته الهندسية ويقع على بعد ساعة أو اكثر في جنوب غربي المدينة في واد بين جبلي « بلق » وغايته حجز مياه السيول في تلك المنطقة الجبلية لأجل الري . وكانت البساتين على سفح الجبلين تشبه جنتين ذكرهما القرآن . ويبلغ طول السد الرئيسي ٢٠٠٠ قدم وتذكر النقوش اسم الباني وهو يثعمرا ووالده سمهوعلايا من فترة سبأ الاولى غير أن الهمذاني والمسعودي وياقوت يعتبرون الباني لقمان بن عاد وهو شخصية مجهولة . وتشير النقوش الاخيرة في القرن الخامس والسادس الى محاولات إصلاح السد ، وآخر النقوش من عام ٥٤٢ ثم يهمل السد غالباً . وقد ذكره القرآن وذكر تهدمه كعبرة وقصاص للسبأيين: « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم » (سورة ٣٤: ١٤–١٥).وعندما زار الهمذاني هذا السد كانت الاقنية التي تحمل المياه الى الحقول لاتزال موجودة .

وكان لقتبان ملوك وعاصمة خاصة في هذه الفترة وهي « تمنع » جنوبي مأرب وقام باعمال الاستكشاف هناك في عام ١٩٥٠ وندل فيلبس من قبل المؤسسة الاميركية لدراسة الانسان . كذلك كان لحضرموت ملوك وعاصمة اسمها شبوة . ويقدر العلماء أن مملكة قتبان دامت من ٥٠٠ ق.م حتى زمن الميلاد تقريباً . أما الحضارمة فقد ذكرهم الكتاب اليونان والرومان وذكروا عاصمتهم Sabota (شبوة)

شرقي مأرب . وفي حضرموت نقبت السيدة طومبسون في ١٩٣٨ ووجدت في وادي العمد بقايا سدود واقنية للري كما وجدت معبداً للاله القمر « سين » وكتابات اثرية .

تبدأ المملكة الثالثة الرئيسية في جنوبي الجزيرة العربية بعد عام ١١٥ ق . م وهي الحميرية ويظهر في النقوش لقب « سبأ وذو ريدان » ، وريدان هي ظفار. دامت هذه المملكة حتى عام ٣٠٠ م .وتبدو كلمة الحميريين (Homeritae) في رحلة البحر الاريتري في القرن الاول م ثم نراها في كتاب بليني . وقد ورث الحميريون تجارة سبأ ومعين،ولغتهم هي نفس لغة السبأيين تقريباً وتشير النقوش الى وجود سدود وآبار وخزانات . وتصبح ظفار العاصمة في هذه الفترة وتشاهد خرائبها على قمة تل قرب بلدة « يارم » اليوم جنوبي صنعاء . وكان الملك في القرن الاول م « كرب ايلووتر » وهو المذكور في النصوص اليونانية باسم (Charibael).وفي عهد هذه الدولة اتت حملة ايليوس غالوس الرومانية .وقد اتجهت في اوائل هذا الدور جاليات من اليمن وحضرموت الى كوش حيث وضعت نواة المملكة الحبشية وحضارتها. وينزح جماعة من قبائل الجنوب الى الشمال في منتصف القرن الخامس م ويسكنون سورية والعراق كما ينزح البعض في المناسبة نفسها الى الحبشة وهذا الذي تذكر المرويات انه متصل بخراب سد مأرب . فدخول العرب الى شرقي افريقيا قد بدأ اذاً قبل الاسلام وبدأت مملكة اكسوم في الحبشة في القرن الاول م .

ومن اشهر قصور اليمن قصر غمدان في صنعاء الذي ينسب الى ملك اسمه ايلي شرح من القرن الاول م . وقد بنى الحميريون قصوراً عظيمة ليعتصموا فيها ضد غزوات البدو . وترك الهمداني وياقوت وصفاً لهذا القصر الذي كان خرباً في ايامها ويقولون أنه كان يحوي عشرين طابقا فهو اول ناطحات السحاب . وقد بني من المرمر والرخام وقيل أن غرفة الملك كانت في الطابق الاعلى تغطيها حجرة واحدة شفافة وان في كل زاوية كان يوجد أسد يزأر كلما هبت الريح . ويظهر ان

القصر بقي حتى الاسلام . والملوك الحميريون في الفترة الاولى يظهرون كاسياد اقطاعيين يملكون الاراضي ويسكون النقود من الذهب والفضة والنحاس وعلى جانبها الواحد بومة (وهي شعار اثيني) او رأس ثور وعلى جانبها الآخر صورة الملك. وبعض النقود القديمة عليها صورة اثينا منذ القرن الرابع وفي ذلك نرى الاعتماد على النماذج الاثينية . كذلك وجدت اشكال من البرونز من صنع الهلنيين والساسانيين ولذلك فان الفن الوطني في اليمن لم يكن قديماً . ونشاهد في النظام الاجتماعي مزيج من النظام القبلي والطبقي والاقطاعية والملكية .

كانت احوال عرب الجنوب مزدهرة طالما احتكروا تجارة البحر الاحمر . ولكن في هذه الفترة الحميرية الاولى تنتقل السيطرة البحرية الى الرومان. فقد كانت الطرق البرية التي تربط الهند باوربا بواسطة الهلال الخصيب مصدر احتكاك بين الفرثيين في غربي ايران وبلاد الرافدين وبين الرومان في سورية بينما كانت الطريق البحرية الجنوبية بايدي عرب الجنوب حتى القرن الاول م . وكان العرب يجمعون بضائعهم وبضائع شرقي افريقيا والهند ويرسلونها بطريق غربي الجزيرة العربية الى سورية ومصر . وهذه الطريق كانت ملأى بالمستعمرات الحميرية . وقد ذكر سترابون ان الرحلة من معين الى ايلة (العقبة) تستغرق سبعين يوما . والعرب كانوا يأخذون الرسوم على هذه البضائع كما انهم كانوا يبيعونها باسعار مرتفعة ويجنون ثروات من ذلك . وكانت تشاركهم في هذه التجارة البتراء ثم تدمر . وقد حاول البطالمة خلفاء الاسكندر في مصر وجنوبي سورية انتزاع هذه التجارة من عرب الجنوب واعاد بطليموس الثاني (في القرن الثالث ق م) الترعة بين النيل والبحر الاحمر، ثم ورث الرومان طموح البطالمة وكانوا يشكون من ارتفاع ثمن البضائع الآتية بواسطة العرب. وكان الاحباش يمالئون الرومان . وقام في نهاية عصر البطالمة رحل اسمه هيبالوس Hippalus برحلة بعد ان تعلم اسرار الملاحة وعاد الى الاسكندرية بتوابل الهند وسائر بضائعها . وهكذا اخذ الكثيرون يقضون على احتكار العرب

للتجارة ، ثم دخلت سفن الرومان الى المحيط الهندي . ولا بد ان الانحطاط الاقتصادي في جنوبي الجزيرة ادى الى الانهيار السياسي .

وفي الفترة الرابعة من حضارة اليمن اي بعد ٣٠٠ م نرى ان اللقب الملكي يصبح « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات » ثم يضاف اليه « وعربها في الجبال وفي تهامة » . وقد اتى غزو من الحبشة وحكم الاحباش البلاد نحو ٣٤٠ – ٣٧٨ ثم عاد حكم الحميريين حتى ٥٢٥ . وكان لقب حاكم الحبشة في فترة الحكم هذه في منتصف القرن الرابع « ملك اكسوم وحمير وريدان وحبشة وسلح وتهامة » . ونعلم بعض اسماء ملوك حمير في هذه الفترة من النقوش . واللقب الملكي المعروف هو « تبّع » الذي كان معروفاً في الادب العربي . ومن ملوكهم ابو كرب اسعد كامل نحو ٣٨٥–٤٢٠ الذي قيل انه فتح فارس ثم اصبح يهودياً . وفي هذه الفترة الحميرية الاخيرة دخلت المسيحية واليهودية الى اليمن .

كانت ديانة عرب الجنوب تتصل بالنجوم والكواكب . وكان القمر أم الآلهة ويقابل « سين » في بلاد الرافدين وكذلك في حضرموت ، وكان يعرف عند المعينيين باسم وَد (الحب او الأب) وعند السبأيين باسم « إلموقه » Ilmuqah وعند القتبانيين باسم « عم » . ورفيقة القمر هي الشمس وابنها عشتار Athtar ويقابل عشتار البابلية وعشتاروت . وربما كانت اللات عند عرب الشمال اسماً آخر لالاهة الشمس . وقد اتت المسيحية من الشمال من سورية ودخل المبشرون بها منذ عهد بعيد . واقدم بعثة مسيحية اوفدت ارسلها الامبراطور قوسطنسيوس في ٣٥٦ بزعامة رجل آريوسي اسمه تيوفيلوس وتتصل بتنافس الرومان والفرس على مناطق النفوذ في جنوبي الجزيرة . وبنى رئيس هذه البعثة كنيسة في عدن وكنيستين في بلاد حمير . واعتنقت نجران المسيحية حول عام ٥٠٠ م ويقال انه ادخلها رجل يعقوبي سوري اسمه فيميون Phemion . وارسل يعقوب السروجي (م ٥٢١) تحريراً الى نصارى نجران ، وبقي ذكر اسقف على صنعاء واليمن اسمه مار بطرس حتى عام ٨٤٠ . اما اليهود فربما دخلوا اليمن بنتيجة خراب القدس في عام ٧٠ م

عن يد الرومان . على انه من الاسماء يتضح ان اليهود في بلاد العرب لم يكونوا يهوداً بالاصل وانما كانوا آراميين وعرباً اعتنقوا اليهودية . وقد قويت اليهودية في اليمن حتى ان آخر ملك حميري اسمه ذو نواس كان يهودياً . وكان عدد اليهود كبيراً يقدر بالآلاف حتى عام ١٩٤٨ . وقد نسبت مذبحة المسيحيين في نجران عام ٥٢٣ الى هذا الملك اليهودي . واستعان النصارى بيوستينوس الاول ملك الروم البيزنطيين فارسل كتاباً الى النجاشي في الحبشة يكلفه بمساعدتهم . وكانت النتيجة ان النجاشي بعث جيشاً عدده ٧٠٫٠٠٠ جندياً بقيادة ارياط . وكانت مصلحة البيزنطيين تقضي بان يكون العرب تحت نفوذهم وان يستخدموهم ضد الفرس . وقد نجح الاحباش في هذه الحملة في ٥٢٣ وكذلك في ٥٢٥ بقيادة أبرهة وانتهى عهد استقلال الحميريين . وبقي الاحباش حتى ٥٧٥ وبنى ابرهة في صنعاء العاصمة كاتدرائية عظيمة سماها كتّاب العرب القليس (وهي محرفة عن اليونانية ecclesia ومعناها كنيسة وبالافرنسية eglise) . وحصلت منافسة دينية اقتصادية بين اليمن في الجنوب التي اصبحت مركزاً دينياً لوجود الكاتدرائية وبين مكة الوثنية في الشمال حيث الكعبة والحج . وربما بنتيجة هذه المنافسة حصل ماذكره الرواة ان اثنين من العرب دنسوا كاتدرائية صنعاء فقاد ابرهة حملته في عام الفيل المشهور (٥٧١) وانكسرت بعد تفشي الجدري في الجيش كما يظن .

في هذه الفترة الاخيرة يحصل خراب سد مأرب المذكور في الآداب العربية . والاصفهاني الذي أنهى كتابه « تاريخ سني الارض والانبياء » في عام ٩٦١ يجعل هذا الحادث قبل الاسلام باربعمائة سنة . ولكن ياقوت اقرب الى الحقيقة ويجعله في زمن حكم الاحباش . والتهدم الثاني غالباً حصل بين ٥٤٢ و ٥٧٠ وهجرة بني غسان واللخميين تنسب الى احدى حوادث التهدم السابقة . وخراب السد والسيل العرم الذي سببه يصبح حادثاً له اهميته لتفسير انحطاط التجارة والزراعة وزوال ازدهار جنوبي بلاد العرب . على ان هذا الانحطاط كان نتيجة منافسة التجارة الرومانية والحكم الاجنبي وما سبقه من دخول ديانات جديدة . فخراب السد هو مجمل نتائج

فترة الانحطاط الطويلة وما رافقها من احداث ولكن جميع هذه الاحداث لخصت وأدمجت في حادث واحد . وتذكر الروايات انرجلاً من حمير اسمه سيف بن ذي يزن يستنجد بملك الفرس فينجده ويكسر الاحباش . ويصبح الحكم بيد الفرس وبيد سيف الذي سكن قصر غمدان وتصبح سيرة سيف بن ذي يزن من القصص العربية الطريفة . وأخيراً يستولي الفرس على اليمن ثم يدخلها الاسلام في عهد الحاكم او المرزبان الفارسي الخامس واسمه باذان الذي يعتنق الاسلام في ٦٢٨ . وتتجه تاريخ العرب بعد ظهور الاسلام الى الشمال نحو الحجاز والهلال الخصيب .

حضارة الانباط : ظهرت دول وحضارات عربية اخرى في أطراف الجزيرة العربية وفي بلاد الهلال الخصيب قبل الاسلام منها حضارة الانباط وتدمر والغساسنة واللخميين . وتأثرت بحضارة سورية وبلاد الرافدين التي نشأت فيها او على أطرافها كما تأثرت بحضارة دولتي الفرس والروم لسيطرتهما على هذه الدول وبالحضارة الهلينية بوجه الاجمال .

اتى الأنباط من شرقي الاردن في القرن السادس ق.م واحتلوا ارض الادوميين واستولوا على البتراء (اي الصخر وهي معروفة بالعربية باسم « الرقيم » وفي العبرية باسم « سلاع » وتسمى المنطقة اليوم وادي موسى) . وقد كانت البتراء منذ القرن الرابع ق.م المدينة الرئيسية على طرق القوافل بين سبأ والبحر المتوسط . ويحدثنا عن الانباط في اول امرهم ديودورس الصقلي (قرن أول ق.م) ثم يوسيفوس (المتوفى في نهاية القرن الاول م) . فقد كانوا في منطقة نفوذ البطالمة خلفاء الاسكندر في مصر ، واسماء ملوكهم معروفة منذ ١٦٩ ق.م . وفي القرن الاول ق.م كان من اشهر ملوكهم الحارث الثالث (٨٧—٦٢ ق.م) الذي تأثر بالحضارة الهلنستية وادخل صناعاً من اليونان والسوريين الى عاصمته ونحتوا له بناء الخزنة . واتخذت المدينة شكلاً هلنستياً بمسرحها ومعابدها ومبانيها العامة . وبدأ في عصر هذا الملك التقارب مع رومة وكان قد حكم دمشق في أواخر الحكم السلوقي وقبل

دخول الرومان . وفي زمن عبيدة الثالث (Obadas) ٢٨ — ٩ ق.م ذهبت حملة غالوس الى بلاد العرب . وبلغت دولة الانباط ذروتها في زمن الحارث الرابع ٩ ق.م — ٤٠ م واتسعت حتى حكمت دمشق. وكان الذي حاول القبض على بولس الرسول في دمشق من عمال الحارث الرابع . وكانت مدينة الحجر او مدائن صالح في شمالي الحجاز غالباً تحت حكم الانباط . ومن ملوك الانباط ملكوس (ملك) الذي ذكر المؤرخ يوسيفوس انه صديق هيرودس ملك اليهودية ، وملكوس الثاني الذي ارسل خيلاً وجنوداً لمساعدة تيطس ضد ثورة اليهود في عام ٦٧ . وكان آخر ملوكهم رب ايل الثاني Rabbil (٧١—١٠٦) ثم اصبحت بلادهم مقاطعة رومانية في عهد الامبراطور تراجان .

كانت البتراء مدينة حصينة تسيطر على طرق التجارة المؤدية الى بصرى ودمشق وايلة على البحر الاحمر وغزة على البحر المتوسط والى الخليج الفارسي ، وهي المركز الوحيد الذي يحوي مياهاً غزيرة بين الاردن والحجاز . وعندما وسع الانباط سلطتهم اعادوا بناء المدن الادومية والموآبية وجعلوا محطات لحماية القوافل . وعاصمتهم محاطة بتلال وجبال من ثلاث جهات ويوصل اليها بواد ضيق وعر يعرف «بالسيق» . ومهر الانباط باستخراج المياه وحفظ مياه الامطار وخزنها . وعندما انضمت البتراء الى الرومان اصبحت بصرى عاصمة المقاطعة العربية . ثم انتقل طريق تجارة القوافل بين الشرق والغرب الى تدمر . كما ان الطريق بين الشمال والجنوب انتقل شرقاً ايضاً وأصبح بعيداً عن منطقة البتراء . وتنوسيت البتراء بعد العصور الوسطى الى ان اكتشفها بركهارت في ١٨١٢ . وهكذا فان ازدهار حضارة الانباط يرجع كما في تدمر الى وجود المياه والطرق التجارية .

بلغ توسع الانباط التجاري اماكن بعيدة في العالم ووجدت كتابات اثرية نبطية في بتيولي ميناء رومة حيث وجدت كتابة بتاريخ ٥م ، وفي العقير Gerrha على الخليج الفارسي وكذلك بعض الكتابات في رودس ومليتوس . وهنالك وثائق

صينية تشهد باعمال الانباط التجارية . كانت البتراء تتاجر بالمر والتوابل واللبان من جنوبي بلاد العرب، وبمصنوعات دمشق وغزة الحريرية وزجاج صور وصيدا وارجوانها ولؤلؤ الخليج الفارسي . ومنتوجات مملكة الانباط كانت الذهب والفضة وزيت السمسم والقار من سواحل شرقي البحر الميت غالباً . وكانت تستورد الحرير الخام من الصين وبعض محصولات اليونان والرومان في الجرار الاتيكية . وفي تجارتها كانت ايلة محطة هامة وكذلك صلخد وبصرى. والمحطات المهمة كانت تحوي اسلحة وحاميات عسكرية وقد حافظ الانباط على طرق القوافل وفرضوا الضرائب على البضائع المنقولة واحتكروا بعض الاصناف .

كانت اسماء الانباط وأسماء آلهتهم والكلمات العربية في كتاباتهم الآرامية تشهد بأن لغتهم هي لهجة عربية شمالية . ويسميهم سترابون وديودورس ويوسيفوس عرباً . فلغتهم كانت عربية بينما كتابتهم كانت آرامية وديانتهم من النوع السامي وفنونهم وعمارتهم يونانية رومانية . فحضارتهم فيها عناصر كثيرة وقد تبدو هلينية في مظهرها ولكنها عربية سامية في أساسها . ونجد في كتابة بيتيولي الأثرية اسم « علي » لأول مرة في البقايا المكتوبة وكذلك اسم حبيب وسعيد . ونجد في الكتابات كلمات عربية مثل « قبر » و « غير » . والحروف العربية لم تكن موجودة فكتبوا بالآرامية على نقودهم ومبانيهم ورسائلهم نظراً لانتشار اللغة الآرامية وكتابتها في كل غربي آسيا . غير أن الخط النبطي اختلف نوعاً عن الخط الآرامي واتخذ شكله النهائي في منتصف القرن الاول ق.م . وكان تجار البتراء يتكلمون لغتين ان لم يكن أكثر وخاصة اليونانية بالاضافة الى العربية والآرامية . واهمية الحروف النبطية المأخوذة من الآرامية انها تطورت في القرن الثالث م وأصبحت الكتابة التي كتبت بها اللغة العربية الشمالية وخرج منها الخط النسخي المختلف عن الكوفي الذي ينسب الى الكوفة مع انه استعمل قبل تأسيس الكوفة . وأقدم الكتابات العربية الشمالية كتابة النمارة في شرقي حوران ٣٢٨م على قبر امرؤ القيس ملك الحيرة . وهنالك كتابات قديمة باللسان العربي الشمالي إنما بخطوط مأخوذة من أبجدية عرب

الجنوب . وبين هذه الكتابات تلك التي اكتشفت في منطقة الصفا البركانية (في شمال شرقي جبل الدروز) وترجع الى عام ١٠٠ م وما بعد ، وكتابات العلا المعروفة باسم « ديدان » قديماً وكذلك الكتابات اللحيانية في العلا من القرن السابع حتى الثالث ق.م ، والكتابات الثمودية في نفس المنطقة وخاصة في الحجر (مدائن صالح) وتيماء من القرن الخامس ق.م حتى الرابع م . وكتابات الصفا هي ابعد ماوصلت اليه الكتابة العربية الجنوبية . ولا نعلم تماماً علاقات هذه الشعوب الصفوية (نسبة الى الصفا) واللحيانية والثمودية بعضها ببعض . وربما كان اللحيانيون قسماً من ثمود ، وعاصمتهم ديدان او العلا كانت على طريق تجارة عرب الجنوب مع الشمال . وبعد سقوط البتراء استولى اللحيانيون غالباً على حجر التي كانت مدينة ثمودية . ولا بد ان الحضارة المعينية والنبطية اثرت على اللحيانية ونجد في العلا قبوراً مزخرفة بنقوش تدل على حضارة راقية لايعرف عنها الشيء الكثير .

وديانة الانباط كسائر الديانات السامية كانت مبنية على طقوس الخصب وفيها عبادة الاماكن المرتفعة والحجارة القائمة . واهم الآلهة ذو الشرا Dusares وكان يعبد بشكل مسلة او حجر اسود مستطيل (قد يكون معنى كلمة « شرا » الحمى او المكان المقدس) . والمزار الذي وجد في بقايا خربة التنور جنوب شرقي البحر الميت ربما كان يعبد فيه هذا الاله وهو على شكل صندوق مكعب وربما كان من الالف الاول ق.م. ثم هنالك اللات اهم آلهة بلاد العرب وتمثل القمر ، ومناة والعزى وهبل وكلها مذكورة في الكتابات الاثرية . وفي خربة التنور مايفيد عن وجود الالاهة السورية اتارغاتس . وآلهة الانباط عموماً شبيهة بآلهة تدمر وبعلبك ومنبج وفي العصر الهلنستي الروماني اتخذت اسماء هيلينية . وكان هيرودوتس قد جعل اللات مساوية لافروديت اورانيا ، وفي العصر الهلنستي يعتبر ذو الشرا مساوياً لديونيسوس اليوناني (المعادل لباخوس عند الرومان) .

وفي الحياة الاجتماعية يصف لنا سترابون مأدبة يشرب فيها كل جالس عدداً من الكؤوس لايتجاوز الاحد عشر وكل مرة في كأس مختلفة ، ويذكر انهم

يأكلون سوية بشكل حلقات لايزيد عدد كل حلقة عن ثلاثة عشر فرداً وتهتم مغنيتان بكل حلقة . واخلاق الانباط كما يصفها سترابون وديودوروس ترينا حبهم للمال والنظام والديموقراطية . وعدد العبيد كان قليلا وليس بينهم فقراء . والناس كانوا يعيشون بسلم بعضهم مع بعض ولم تكن حاجة للمحاكمات . والملك كان ديموقراطياً ويعطي التقارير عن اعماله لمجلس الشعب . وامتد اثر الانباط الى الشمال حتى ان عمري مؤسس السامرة وملك اسرائيل في القرن التاسع كان غالباً نبطياً كما ان جشمو Gashmu الذي قاوم بناء اسوار اورشليم في القرن الخامس ق م كان غالباً يهودياً نبطياً . ويعتقد البعض ان الحكماء الذين اتوا من المشرق وقدموا الهدايا للمسيح المولود كانوا غالباً عرباً من بلاد الانبـاط وليس مجوساً من فارس وذلك بسبب الهدايا التي اتوا بها ذهباً ولباناً ومراً (١) (انجيل متى ٢ : ١١) . وكلمة « حنيف » المستعملة للدلالة على الذين لهم آراء توحيدية قبل الاسلام اصلهـا آرامي نبطي .

يمتاز الانباط بنوع جديد في العمارة نحتت به القبور والمعابد والقصور في الصخر واهم هذه المباني هيكل الخزنة والدير . وكان للغرف عقود وعرفوا النماذج الزخرفية المحفورة . ويشبه الانباط سائر الشعوب المحيطة بالبادية مثل سكان دورا اوربوس وتدمر في ديانتهم ونحتهم . وقـد اثرت عليهم النماذج اليونانية انما اوجدوا نوعـاً جديداً من الخزف . فبقايا الكؤوس والاباريق والصحون ترينا دقة عظيمة وعناية في الصنع . وزخارف الخزف ايضاً ترينا مهارة عظيمة ودقة في الصنع . وهذه الزخارف الخزفية عموماً نباتية يكثر فيها العنب وورق الكرمة . وقد وجد علماء الآثار مواقع نبطية كثيرة بين العقبة والبحر الميت من مدن وحصون ومعابد عددها نحو خمسمائة . ويرى بعض علماء الآثار ان الانباط كانوا في العمارة والهندسة والخزف من ابرع الامم (٢) .

---

(١) Hitti : History of Syria (London , 1951) p. 386 .

(٢) انظر بشأن الآثار النبطية في شرق الاردن : N. Glueck : The Other Side of the Jordan (New Haven , 1940) .

حضارة تدمر : ظهرت مملكة تدمر بعد انحطاط البتراء واسباب ظهورها اولا وجود ينبوع ماء في البادية ادى الى نشوء واحة وقرية واقامت فيها قبائل عربية ثم من جهة ثانية تحول طريق التجارة الى الشرق وحدوث ظروف دولية جديدة رفعت هذه القرية الى دولة ذات شأن . وقد ظهر اسم تدمر منذ ١٨٠٠ق م ثم في النصوص الاشورية عام ١١٠٠ حيث طارد الفاتح الاشوري البدو الى هذه المدينة . واصل الاسم مجهول وقد يكون مشتقاً من « تدمرتا » السريانية ومعناها التعجب . ونسب الرواة العرب بناءها الى الجن بأمر سليمان نظراً لعظمتها وربما تأثروا بما جاء في التوراة ان سليمان بناها (في اخبار الايام الثاني ٨ : ٤) وهذا خطأ . وقد توسعت الدولة الفرتية في القرن الثاني ق.م حتى الفرات بينما اصبحت سورية فيما بعد تحت حكم الرومان فكانت تدمر ذات موقع هام بين الدولتين وعلى طرق تجارة الشرق والغرب والشمال والجنوب . وبنفس الوقت كانت بعيدة عن الدولتين فاستفادت من موقعها الستراتيجي وحيادها . وكانت تجبي الرسوم على البضائع لقاء حماية القوافل وهذه البضائع تشبه التي كانت تمر بالبتراء من عطور وخمور وحرير وصوف وارجوان وزجاج وزيت وتين . وقد وجدت قطع من الحرير الصيني في قبر تدمري يرجع الى ٨٣ م . ومعظم تجارة البحر المتوسط مع الصين والهند وفارس كان يقوم بها التدمريون . وترينا النقوش احترامهم للتجار حيث مجلس الشعب اقام التماثيل « لرئيس القافلة » و « لرئيس السوق » وهذه النقوش من القرن الثالث م . واهتموا بالصناعة ودلت بعض النقوش على وجود نقابة للصناعة ، كما ان الزراعة لم تكن مهملة . وظهرت نتيجة هذا الازدهار في عمران مدينة تدمر حيث الشوارع المعمدة تؤدي الى معبد بعل . واتخذت تدمر مظهر مدينة اغريقية رومانية بوجود ساحة عامة Agora ومسرح ومبان عامة اقرب ماتكون الى الطراز الهليني . وقد اثارت ثروتها رغبة انطونيو القائد الروماني في عام ٤١ ق.م حين ارسل من يغزوها فهرب السكان بامتعتهم الى الفرات وباء الغزو بالفشل .

لم تحتفظ تدمر بسيادتها فاعترفت بسيادة رومة في مطلع العصور الميلادية وكان فيها ممثل لرومة . وجعلها تراجان قسماً من الولاية العربية . وفي مطلع القرن الثالث تنال حقوق مستعمرة رومانية وتعفى من الرسوم الجمركية. ووجدت بعض رسوم تمثل أفراد أسرة الأباطرة السورية في الساحة العامة (الآغورا) وكانت الطرق تربطها بسائر المدن وبعض مواطنيها كانوا يضيفون اسماء رومانية لاسمائهم . ومن المدن التابعة لها دورا اوربوس (الصالحية على الفرات) وهي حصن امامي يحمي تجارة تدمر . وبين بقايا تدمر ألواح تمثل جنوداً تدمريين . وكان لمدينتي حلبية وزلبية أو زنوبيا على الضفة الغربية والشرقية للفرات(شمال شرقي تدمر وشمال غربي دير الزور) أهمية أيضاً في العصر التدمري . والرصافة كانت تابعة لتدمر وتقع شمالي تدمر وجنوبي الرقة وكانت تدعى سرجيوبوليس بالنسبة لاحد ابنائها الجندي سرجيوس الذي استشهد في عام ٣٠٥ . وأصبحت أحدي أسر تدمر زعيمة المدينة واضافت الى اسمها اسم سبتيميوس وربما أدت خدمات في محاربة الفرتيين . وهنالك كتابة على تمثال سبتيميوس حيران ابن اذينة من عام ٢٥١ يذكر أنه كان عضو مجلس الشيوخ وزعيم تدمر (والنقش يقول « رأس » تدمر) . وحيران هو أول من أعطي لقب « رأس » أو زعيم وهو غالباً والد أذينة الذي أصبح قنصلا بقرار من فاليريان في ٢٥٨ . وبعد ذلك بسنتين كسر الساسانيون الرومان وأسروا الامبراطور فاليريان وهاجموا انطاكية وغيرها . فاندفع اذينة بجيش من السوريين وجماعات من العرب وقهر الفرس وتابعهم حتى عصمتهم. وفي ٢٦٢ يجعله الامبراطور غالينوس زعيم الشرق Dux Orientis وأصبح يشبه نائب الامبراطور في شرقي المتوسط. وفي ٢٦٦ يقتل أذينة بشكل غامض في حمص وربما تآمرت رومة على قتله لشعورها بقوته .

حكمت زنوبيا بعد مقتل زوجها باسم ابنها وحب اللات (وترجمته اثينودورس Athenodorus باليونانية) . وكانت تسمى في النقوش بت زباي Bath Zabbai أي « ابنة الهبة » وفي المرويات العربية عرفت باسم الزباء . وكان لها بلاط مثل بلاط

كسرى وحاشيتها كانت تنحني أمامها بخشوع، ولباسها الارجوان والجوهر وركوبها العربات . وقد تكلمت الآرامية واليونانية وبعض اللاتينية وكان لونجينوس الفيلسوف الحمصي الاصل مستشار بلاطها . وامبراطوريتها ضمت سورية وقسماً من الاناضول وشمالي الجزيرة العربية . وفي عام ٢٧٠ يذهب « زبدة » القائد (وكلمة زبد عند عرب الجنوب تقابل «وهب» الشمالية) بجيش الى مصر ويترك حامية في الاسكندرية وتظهر النقود في الاسكندرية وعليها رأس وهب اللات . وجعلت زنوبيا لقب ابنها ملك الملوك وسمته اوغسطس وسمت نفسها اوغسطا كما يتبين من نقود الاسكندرية وانطاكية وظهر اسمها على تمثال لها في شارع الأعمدة مقروناً بلقب ملكة كما وجد اسم ابنها على تمثال آخر مقروناً بلقب ملك الملوك . وكانت تسمي نفسها سبتيميا زنوبيا وابنها سبتيميوس اذينة وكذلك اضيف لقب سبتيميوس الى اسم القائد العام زبدة والى اسم قائد حامية تدمر «زباي» (وربما أصله زبداي بمعنى زبد تقريباً أي وهب) [١] . ووضعت حاميات تدمرية في الاناضول حتى انقرة . أما قصة اهتمام الامبراطور اورليانس بالامر فهي معروفة رواها خاصة المؤرخ اليوناني زوزيموس Zosimus في القرن الخامس وبعض مؤرخي مجموعة تاريخ الاباطرة [٢] . فقد فتح الامبراطور اورليانس انطاكية وحمص ثم حاصر تدمر وقتل وهب اللات أثناء الحصار بينما قتل لونجينوس في حمص وأخذت زنوبيا اسيرة الى رومة . وبعد عودة الامبراطور قام التدمريون وقتلوا الحاكم الروماني الذي وضعه والحامية التي معه فعاد وهدم المدينة وقتل السكان وأبقى معبد بعل Bel . وذهبت اهمية تدمر ولم يصبها بعض الاهتمام الا في عهد ديوقليسيان ويوستنيان وظلت بشكل قرية وأقام

---

(١) انظر Cantineau: Inventaire des Inscriptions De Palmyre fasc . 1 (1930) p. 27.

(٢) انظر Pollio, Vopiscus in Scriptores Historiae Augustae. Ed. Tr. D. Magie 1921 — 1932 .

سكانها داخل معبد بعل حتى عام ١٩٢٩ حين اجلتهم السلطات عنه وبنت لهم بلدة صغيرة خارج المعبد .

تشتهر تدمر بآثارها الفنية القائمة في البادية والتي تشهد بعظمتها . وقسم من هذه الآثار متهدم الا أنه ظاهر للعيان والقسم الآخر لا يزال مدفوناً تحت التراب . وقد ظهر منها في السنوات الاخيرة عدد من المدافن التي تضم تماثيل كثيرة ذات قيمة وكذلك المسرح . والمعبد الكبير في تدمر المعروف باسم معبد بعل خصص للعبادة رسمياً عام ٣٢ م ويؤدي اليه شارع الاعمدة وطوله نحو ١١٠٠ متر وفيه نحو ٣٧٥ عموداً ارتفاع كل منها نحو ١٨ متراً . وقد بقي نحو ١٥٠ عاموداً من الحجر الكلسي الابيض ومن المرمر، ونيجان الاعمدة كورنثيـة . وفي أعمدة الشارع الرئيسي لوحات بارزة كانت توضع عليها التماثيل وهي عموماً امامية وليست جانبية ونشاهد فيها العينين المفتوحتين والكتابة على الكتف . وقبور تدمر التي يسمونها « بيوت الابدية » مبتكرة تبدو بشكل ابراج تحوي عدة طوابق مزدانة بالالوان وصور المتوفين او بشكل مدافن تحت الارض بزخارف جميلة وتماثيل نصفية في الجدران التي تحوي الرموس كما في قبر يرحاي بمتحف دمشق . ولم يظهر التدمريون بلباسهم الوطني في الرسوم وقد يكون ذلك لان الصور التي وصلتنا هي صور الاغنياء والطبقة العليا التي تلبس لباساً اغريقياً او ايرانياً فرثياً . ويرى سيريغ (Seyrig) أنه لا صحة لما قيل ان نوع الالبسة الاجنبية يدل على الطبقة لا نه في نفس الاسرة الواحدة قد يلبس الواحد لباساً ايرانياً فرثياً بينما يلبس الآخر لباساً يونانيـاً أو رومانياً (١) . اما الآلهة فقد ظهرت باللباس الوطني وهو رداء بسيط له اكمام وحلة تغطي الاطراف السفلى وترتكز على الخصر . واللباس الايراني يحوي ثوباً

---

(١) انظر مقاله « تدمر والشرق » تعريب المؤلف في مجلة الحوليات الاثرية السورية م ١ ج ١ (دمشق ١٩٥١) .

وتحته سراويل ضيقة وزخارف محاكة في اصل اللباس . وقد درس العالم بفيستر (Pfister) المنسوجات في تدمر .

وحضارة تدمر مزيج من عناصر سورية ويونانية وايرانية ودراسة الالواح والزخارف في تدمر ودورا ذات اهمية لان اسلوبها يملأ الفراغ بين فن بلاد الرافدين والفن الكنعاني الفينيقي والفن المسيحي . وبواسطة تدمر يمكن تتبع التأثيرات الشرقية على الرسوم اليونانية الرومانية وعلى البيزنطية فيما بعد . وسكان تدمر بالاصل قبائل عربية امتزجت بالآراميين واتخذت اللغة الآرامية السائدة في كتابتها وكلامها ولم توجد كتابات قبل عام ٩ ق.م . والكتابة التدمرية هي الكتابة الآرامية الدارجة في القرن الاول ق.م. و كانت القرارات الرسمية والكتابات الكثيرة تكتب باليونانية والآرامية وهذا سهل قراءة الآرامية التدمرية . وقانون تدمر المالي الذي كتب باللغتين يرينا انواع البضائع التي كانت تنقلها القوافل كما يعطينا معلومات عن اعاشة المدينة وعن صلاحيات مجلس الشيوخ . وقد وجدت كتابة تدمرية في الجزائر واخرى في انكلترا تركها تدمري تزوج من امرأة انكليزية . والرماة التدمريون استخدمهم الرومان في حاميات بعيدة منها مراكش وانكلترا . والآرامية التي استعملها التدمريون كانت الآرامية الغربية (وليست لهجة اديسا او الرها الشرقية) وهي التي استعملت في سورية عموماً وانتشرت كذلك في مصر . والاغلب ان بعض التدمريين كانوا يستعملون العربية كلغة دارجة في الكلام . ولم تظهر في تدمر شخصية هامة في عالم الفكر سوى لونجينوس الحمصي الاصل وهو الذي علم زنوبيا الادب اليوناني واصبح مستشارها وكان يعرف السريانية ومن تلاميذه المشهورين فورفوريوس Porphyry ولم تبق من كتاباته الا نتف قليلة .

كانت الآلهة التدمرية شبيهة بآلهة سورية وبابل وايران والجزيرة العربية ولا تختلف عن آلهة شمالي سورية وباديتها . والاله المسيطر هو بعل BEL وهو آلهة كونية مثل مردوخ البابلي واصبح فيما بعد مساوياً للاله اليوناني زفس . وعدا عن المعبد الرئيسي في تدمر للاله بعل كان يوجد معبد لبعل شمين (سيد السموات)

كما كان له معبد في دورا ايضاً مثلما كان لبعل   ووجدت مذابح مكرسة لشمش اي الشمس . ومن الآلهة عجلي بول Aglibol (اغليبول) اي عجل اله القمر «بول» الذي كان يبدو احياناً وعلى كتفيه هلال . وهنالك الاله « يرخي بول » الذي كان يعطي تنبؤات احياناً مثل ابولون اليوناني ، وملكبل (ملاك بعل) رسول الآلهة مثل هرمس اليوناني . وكان احد المذابح مكرساً « للاله المجهول الصالح والرحيم » . وذكرت النقوش آلهة اخرى مثل ارصو (ويقابل « رضو » في كتابات الصفا ومعناه الرضى) « وعزيزو » الذي كان يعبد ايضاً في حوران ، واللات التي دخلت في اسم وهب اللات كانت أم آلهة عربية قبل الاسلام (القرآن ٥٣ : ١٩) وعبدت ايضاً في حوران ، وعترعتا (Atargatis) وكان مركز عبادتها الرئيسي منبج (هيرابولس القديمة) . وقد كرس احد الانباط في تدمر مذبحاً في عام ١٧٢ لاله نبطي اسمه شايع القوم او ساعي القوم وربما كان حامياً او مرافقاً للقوافل .

ويقارن العالم سيريغ مدينة تدمر واهميتها التجارية والحضارية بمدن العصور الوسطى وعصر النهضة في اوربا مثل البندقية وانفرس وبروج . وعندما يحث في التأثيرات الحضارية التي تعرضت لها تدمر يقول انها كانت تتجه بعد ان اصبحت مدينة نحو الامبراطورية الفرتية في الشرق اكثر من اتجاهها نحو سورية الغربية وذلك في القرن الاول ق.م قبل ان تخضع للحكم الروماني . والتدمريون كانوا يتوجهون بانظارهم نحو المدن التجارية الكبري في بلاد الرافدين حتى ان المجموعة الكبرى للآلهة الاجنبية في تدمر هي مجموعة بابلية . وفي زخارف الالبسة كانت عناصر الزخرفة مزيجاً يونانياً فارسياً فهنالك الاشكال اليونانية من جهة وهنالك اشكال اللآلىء المستديرة والحجارة الكريمة في السراويل . وقد عرف هذه النماذج ملوك الفرتيين وحتى الهنود . وقد تطورت هذه العناصر المزيجة في المدن اليونانية المؤسسة في جنوبي بلاد الرافدين في عهد السلوقيين ثم تابعت تطورها عندما حكم الفرتيون هـذه المنطقة ، ومن هناك اقتبسها التدمريون في الغرب والهنود الذين حكموا ماثورا في الشرق . واللباس الاغريقي نفسه ربما اخذه التدمريون عن

المدن والمستعمرات الاغريقية المزدهرة في بلاد الرافدين فتدمر كانت مركزاً امامياً للحضارة الفرتية في بلاد بابل . كذلك تحتل تدمر منزلة هامة في تاريخ الفن لانها سابقة للفن البيزنطي . فنحتها يتصف بجمود النظر والتوجه الى الامام (Frontality) في الرسوم . وهذا الاسلوب يقضي على المعنى الدراماتيكي في الرسم ويؤكد الوجود الروحي لكل شخص بمفرده . ولم يكن من خصائص الفن اليوناني الكلاسيكي وانما من المميزات المعروفة في الدولة الفرتية . واتبع هذا الاسلوب في دورا وفي اعمال النحت في الصخر عند الفرتيين وامتد الى الهند . وهذا التوجه الى الامام لاينتشر في الغرب الا في عصر متأخر وبتأثير شرقي ثم يعم بلاد البحر المتوسط في عهد انتشار الفن البيزنطي . ولا بد ان الفن البيزنطي اقتبسه من الشرق بطريق تدمر . والقانون المالي في تدمر يذكر التماثيل البرونزية المستوردة وهذه كانت تصب في المدن الفرتية في جنوبي بلاد الرافدين وتنقل الى تدمر على ظهور الابل ، والتماثيل الحجرية هي نسخ عنها .

وتأثير الغرب لاشك اوجد بعض المرونة في هذه الرسوم وازال الجمود المعتاد كما يشاهد في غرف المدافن التدمرية حيث مشاهد الولائم وفيها الخدم والغلمان يأتون بالاواني وباكاليل الزهور للزائرين . ولكن التأثير بسيط والتنوع في الترتيب قليل . والحكم الروماني الذي دام قرنين ونصف لم يغير طريقة ترتيب الاشكال بشكل صفوف متقابلة متشابهة جامدة وهذه الاشكال تصبح فيما بعد مثلاً اعلى للفنان البيزنطي وصانع الفسيفساء كما كانت عند الفنان التدمري . وهنالك زخارف معمارية متشابهة بين تدمر وماثورا عاصمة ملوك الكوشان في الهند . وفي تدمر نجد تاجاً ظاهره كورنثي ولكن فيه عناصر حلزونية اشورية فارسية مع صف من اللؤلؤ في اسفله كما في زخرفة الملابس وفي نماذج هندية قديمة . وكانت توجد علاقات تجارية بين تدمر وبلاد السكيثيين (ممالك السا كا في شمال غربي الهند) حيث تصل السفن التدمرية من موانيء الخليج الفارسي بطريق مصب السند . وهنالك كتابة اكتشفت في الساحة العامة بتدمر جاء فيها : « ان هذا

التمثال الذي لمار كوس اوليبوس يرحاي ... قد قدمه التجار الذين سافروا من بلاد السكيثيين في زورق حنينو بن حدودان لانه ساعدهم بجميع الوسائل الممكنة .. آذار ١٥٧ » . والواقع ان الهند وتدمر لم تنقل احداهما عن الاخرى وانما انقسمت كل من تدمر وشمال غربي الهند الى وسط ثقافي واحد مركزه المدن اليونانية الفرتية في جنوبي بلاد الرافدين . ولكن مهما يكن من ذلك فان افكار التدمريين في العمارة تحولت نحو انطاكية وبلاد الغرب في العهد الروماني فقلدوا المعابد والشوارع الممدة في سورية الهلنستية . واهم مدينة في بلاد الرافدين اخذت عنها تدمر هي سلوقية على الدجلة التي كانت ذات حضارة مزيجة فمؤسسها مكدوني يوناني (سلوقس) ولكنها ذات حضارة يقبلها الشرق وتوافق ذوقه . وكانت سلوقية تستلفت بدون شك انظار قوافل تدمر عندما تنحدر نحو الخليج الفارسي. وقد كانت التقاليد الرومانية اليونانية ذات قوة كافية في سورية ساعدتها على الصمود بوجه طغيان الاتجاهات والازياء الاسيوية الآتيــة من الشرق ولذلك لم تعمل التأثيرات الشرقية عملها حتى القرن الرابع حين يبدأ اضمحلال التقاليد اليونانية الرومانية وتبدأ الروح الاسيوية تتقدم نحو البحر المتوســـط وتظهر جلية في الفن البيزنطي [1] .

حضارة الغساسنة واللخميين وكندة : ان تاريخ الغساسنة محاط بالغموض وقد قيل انهم من قبائل عرب الجنوب وانهم غادروا الجزيرة العربية بسبب احدى حوادث التهدم في سد مأرب أو على الاقل بسبب انحطاط اقتصادي . وسكنوا حوران في جنوبي دمشق بعد ان تغلبوا على الضجاعمة ثم اصبحوا من التابعين للدولة الرومانية الشرقية وفي القرن الرابع اعتنقوا الديانة المسيحية . وموقع بلادهم له شأن طالما انه على طريق تجاره العرب مع الشام . ومؤسس السلالة جفنة ابن عمرو

---

(١) انظر بشأن هذه التفاعلات مقال « تدمر والشرق » المذكور آنفاً .

مزبقية . ويذكر مؤرخو العرب وكتابهم كالمسعودي وابن قتيبة وحمزة الاصفهاني وابو الفدا عدداً مختلفاً من الملوك يتراوح بين أحد عشر واثنين وثلاثين ملكاً(١).
وملوك القرن الأخير قبل الاسلام معروفون بصورة خاصة منهم الحارث الثاني ابن جبلة الملقب بالاعرج (نحو ٥٢٩ — ٥٦٩) الذي حارب المنذر الثالث (المعروف في التواريخ اليونانية باسم Alamundaros وخاصة في تاريخ بروكوبيوس) . وقد اشترك في الحرب بجانب القائد البيزنطي بليساريوس ضد ملوك الحيرة الذين حالفوا الفرس ونجح في قتل المنذر قرب قنسرين في معركة تعرف باسم يوم حليمة (عام ٥٤٤) نسبة الى ما قيل من ان حليمة ابنة الحارث عطرت مائة من الابطال قبل المعركة وألبستهم دروع الكتان . وقد عين الحارث من قبل الامبراطور يوستنيان سيد القبائل العربية في سورية بلقب فيلارك Phylarch وبطريق Patricius .
وذهب الحارث لزيارة يوستنيان في القسطنطينية في ٥٦٣ فترك اثراً كبيراً بعد زيارته . وفي عهده وبنتيجة مساعيه عين يعقوب البردعي الرهاوي اسقفاً للمونوفيزيين وانتشر هذا المذهب في سورية . ووصلت المملكة الغسانية ذروتها في هذا العهد فامتدت من البتراء حتى الرصافة وعاصمتها الدينية كانت بصرى حيث بنيت كاتدرائية في عام ٥١٣ ولا تزال بقاياها حتى الآن . وكانت بصرى مركزاً للتجارة أيضاً .
أما العاصمة السياسية فكانت مخيماً متنقلاً ثم أصبحت الجابية في الجولان وربما كانت جلق (التي يحتمل ان تكون الكسوة اليوم) من عواصمهم. واتى بعد الحارث ابنه المنذر (٥٦٩ — ٥٨٢) الذي حارب اللخميين وتحمس للمونوفيزيين وزار القسطنطينية في ٥٨٠ وبنفس السنة احرق الحيرة عاصمة اللخميين ثم اعتقل من قبل الحاكم الروماني وأرسل الى صقلية متهماً بالخيانة ، وكذلك كان مصير ابنه الاكبر النعمان الذي نقل بحيلة الى القسطنطينية . وعمت الفوضى المملكة وتجزأت الى أن

---

(١) انظر كتاب المستشرق تيودور نولدكه : امراء غسان من آل جفنة . ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق (بيروت ، ١٩٣٣) .

استولى الفرس على سورية عام ٦١٤ . وربما اعاد هرقل السلالة بعد ان أجلى الفرس في عام ٦٢٨ عن سورية لان الغساسنة كانوا يحاربون بجانب البيزنطيين في عصر الفتوحات الاسلامية ، وكان آخر ملوكهم جبلة بن الايهم .

استعمل الغساسنة اللغة الآرامية بالاضافة الى العربية فكانت لهم امثال مثل سائر القبائل العربية في الهلال الخصيب . وكان بلاطهم مزدهراً ووصفه من الشعراء النابغة الذبياني وحسان بن ثابت الذي أصبح فيما بعد شاعر النبي ، ولبيد الذي حارب في موقعة حليمة . وفي كتاب الاغاني وصف للبلاط منسوب الى حسان يذكر المغنيات من العرب واليونان كما ان صاحب الاغاني يذكر اللؤلؤ الذي كان يزين تاج جبلة بن الايهم . وكانت الاحوال الاقتصادية مزدهرة ولا بد ان الغساسنة برعوا في استخدام مياه الامطار والآبار ويثبت ذلك وجود بقايا ثلاثمائة بلدة وقرية في جنوبي حوران وشرقيه . وقد بلغ الغساسنة درجة من الحضارة لم يبلغها منافسوهم اللخميون في الحيرة . والحضارة التي نشأت على أطراف سورية الشرقية ان كان في عهدهم أو في مطلع العهد الروماني هي مزيج من عناصر سورية وعربية ويونانية . وقد بنيت القصور وأقواس النصر والحمامات والاقنية والمسارح والكنائس من الحجر البازلتي . ومن آثار الغساسنة القسطل في البلقاء ، واذرح ، وقصر المشتى شرقي البحر الميت وصرح الغدير جنوب شرقي بصرى ودير الكهف شرقي صلخد . وكان يوجد غالباً خط دفاعي يفصل حوران عن البادية . واهم الآثار موجودة في بصرى مثل باب المدينة والاعمدة التي كانت في بناية السقاية والاديرة والكاندرائية والمسرح ومع هذه الآثار توجد بعض البقايا النبطية . وقد لعب الغساسنة دور الوسطاء في نقل بعض عناصر الحضارة السورية والافكار الدينية الى عرب الشمال وخاصة الحجاز وهكذا ساهمت الحضارة السورية في تزويد الاسلام والحضارة العربية ببذور القوة المبدعة كما زودت اليهودية والمسيحية قبلاً . ومهدت هذه الدول السورية العربية الطريق للفتوحات العربية تحت راية الاسلام .

انتقلت كذلك في القرن الثالث قبائل عربية تدعى تنوخ من الجزيرة العربية

الى غربي الفرات ، وكانت الاحوال مضطربة حينذاك بسبب سقوط سلالة الفرتيين وتأسيس الدولة الساسانية . وتحول مخيم هذه القبائل الى مدينة ثابتة هي الحيرة (من السريانية حيرتا Herta بمعنى مخيم) على مقربة من موقع الكوفة وجنوبي بابل القديمة . وذكرها مؤرخو اليونان باسم Ertha وكانت تحوي مساكن محصنة من نوع القصور لها سور وابراج في زواياها للدفاع ولم يكن للمدينة قلعة أو سور خارجي . وكان السكان المحليون نصارى يتبعون الكنيسة السريانية وذكرهم كتاب العرب باسم « عباد » ثم اعتنق التنوخيون النصرانية وسكنوا شمالي سورية واتى بعضهم الى جنوبي لبنان فيما بعد واعتنقوا الدرزية ورجعوا بنسبهم الى اللخميين . ومؤسس مملكة الحيرة الحقيقي عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن لخم وذكر أنه ابن اخت جذيمة الابرش . وعمرو هو الذي جعل الحيرة عاصمته . ولدينا اسماء نحو عشرين ملكا من ملوك الحيرة اللخميين بين اقدمهم امرؤ القيس (م ٣٢٨) الذي تشكل الكتابة على قبره اقدم كتابة عربية شمالية اكتشفت حتى الآن . وفي هذه الكتابة اختلاف عن النبطية وتمثل مرحلة الانتقال الى الكتابة العربية الشمالية حيث يبدأ تعليق الحروف بعضها ببعض . ومن خلفاء امرؤ القيس النعمان الاول المعروف بالاعور (نحو ٤٠٠ — ٤١٨) الذي ينسب اليه بناء الخورنق قرب الحيرة كمسكن لبهرام جور ابن يزدجرد الاول الساساني (٣٩٩— ٤٢٠) . وقيل ان الباني سنمار قتل عند اتمامه كي لا يبني مثله ، وهذا العنصر في القصة يتردد في القصص والاساطير القديمة . وقد اضطهد النعمان رعاياه المسيحيين ومنعهم من زيارة سمعان العامودي في شمالي سورية . كذلك ينسب اليه بناء السدير بين الحيرة وسورية. وكان ابنه المنذر الاول (٤١٨ — ٤٦٢) يتمتع بنفوذ حتى انه اجبر كهنة الفرس على تتويج بهرام ملكاً . واشهر ملوك اللخميين في الحيرة المنذر الثالث ابن ماء السماء (٥٠٥ — ٥٥٤) وهذا اللقب الاخير هو لقب امه مارية او ماوية . وقد حارب البيزنطيين واغار على سورية في عهد كسرى انوشروان ولكن الحارث الغساني كان أقوى منه وقتله في المعركة . وكان ابنه عمرو بن هند(٥٥٤-٥٦٩)

يحب الشعراء ، وبعض اصحاب المعلقات عاشوا في بلاطه ومنهم طرفة بن العبد والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم الذي قتله لينتقم لاهانة وجهت الى امه . وكانت هند والدته مسيحية واسست ديراً بقي حتى القرن الثاني للهجرة ويعرف باسم دير هند الكبرى . وهنالك بعض اشارات الى اساقفة الحيرة وعاش احدهم في حوالي عام ٤١٠ . وآخر اللخميين هو النعمان الثالث ابو قابوس(٥٨٠—٦٠٢) ابن المنذر الرابع وعاش في بلاطه النابغة الذبياني قبل ذهابه الى بلاط الغساسنة . وكان النعمان الوحيد بين اللخميين الذي اعتنق النصرانية وقد فضل الملوك البقاء على الوثنية ارضاء للفرس . وقد تنصر في عهد بطريرك النساطرة يشوع بن يهب الذي دفن في دير هند الكبرى .

وحضارة الحيرة لم تبلغ مستوى حضارة الدول الاخرى العربية التي كانت تحت التأثير السوري البزنطي . وكان عرب الحيرة يتكلمون العربية كلغة دارجة ويكتبون بالسريانية كما كتب الآخرون بالآرامية . وكان النصارى في جنوبي وادي الفرات يعلمون القراءة والكتابة والديانة لسائر العرب الوثنيين . ويعتقد البعض ان كنيسة الحيرة السريانية هي التي ادخلت النصرانية الى نجران . ويقول ابن رستة في « الاعلاق النفيسة » ان قريش اخذت الكتابة والزندقة عن الحيرة ومعنى الزندقة تعاليم الفرس الوثنية . ولذلك فان اثر الفرس دخل الجزيرة العربية بواسطة اللخميين .

وأخذ الفرس يحكمون الحيرة بعد وفاة النعمان ويعينون حكاماً يسيطرون على زعماء العرب . غير ان العرب قاموا ضدهم وضد اياس بن قبيصة الذي وضعوه للحكم ٦٠٢ — ٦١١ وانتصروا عليهم في موقعة ذي قار واخيراً اتى العرب المسلمون وفتحوا البلاد . وقد اتصف بلاط الحيرة بالترف كما يتضح من قصائد شعراء البلاط الذين اكثروا من ذكر الخمور والحفلات. وعندما تأسست الكوفة في ٦٣٨ واتسعت هاجر اليها سكان الحيرة ولم يبق من آثار هذه سوى الاطلال الواقعة بين خرائب الكوفة وبين الخورنق . وكانت الحيرة مركزاً للنساطرة بينما كانت تكريت في

الشمال مركز المونوفيزيين حيث سكن بنو اياد . ولم تكن الحيرة مركزاً علمياً ولذلك كان النصارى الذين يريدون الدراسة يقصدون جند يسابور . ويذكر ابن ماسويه الحيرة بازدراء كمركز تجاري فقط بدون اي اهتمام بالعلم .

اما في قلب الجزيرة العربية فانملوك كندة هم الوحيدون الذين عرفوا كملوك وكانوا تابعين لملوك او تبابعة اليمن . واول ذكر لكندة يرد في القرن الرابع ويمثل ظهورها اول محاولة لجمع القبائل في قلب الجزيرة تحت حكم زعيم واحد . ومؤسس سلالتها هو حجر المعروف بآكل المرار وقد عين في عام ٤٨٠ حاكماً على بعض القبائل العربية التي اخضعها ملك اليمن حسان بن تبع في قلب اواسط الجزيرة . ويأتي بعده ابنه عمرو ثم الحارث بن عمرو الذي فتح الحيرة في ٥٢٩ ثم قتله المنذر الثالث اللخمي . وانحلت مملكة كندة وعاد سكانها الى موطنهم الاصلي في حضر موت . ومن سلالة ملوك كندة امرؤ القيس الشاعر الذي ذهب الى القسطنطينية ليستعين بالامبراطور يوستنيان ضد اللخميين . وقد قتل في طريق عودته غدراً . ويرى البعض ان اخبار بعض شعراء الجاهلية ومنهم امرؤ القيس متأثرة بما قامت به بعض القبائل فيما بعد في العصر الاسلامي وان سيرة امرؤ القيس استخدمت لارضاء الشعوب اليمنية الكندية في العراق لانه نبغ منها جماعة مثل الاشعث المشهور في فتوحات سورية والعراق .

حضارة عرب الحجاز في الجاهلية : يشمل عصر الجاهلية بصورة عامة تاريخ العرب حتى زمن الرسول غير أنه بصورة خاصة يعني القرن الذي سبق ظهور الاسلام. ولم يكن هذا العصر عصر جهل او بربرية وانما سمي كذلك غالباً بسبب الفرق بين عقلية العرب قبل الاسلام وبعده وبسبب عدم وجود كتاب منزل يهتدي العرب به. وكان معظم سكان شمالي الجزيرة من الرحل وبينهم غزوات وحروب تعرف بايام العرب . وبخلاف سائر المناطق العربية فانه لم تكن لحضر الحجاز حضارة خاصة

بينما عاش جيرانهم في الشمال في وسط سوري بيزنطي او سوري فارسي . على انه كان لا بد من وجود تأثيرات حضارية تعمل عملها في حضر الحجاز . وليس للمؤرخ مصادر مكتوبة عن هذه الفترة وانما هنالك اشعار وأمثال ومرويات لم تكتب إلا بعد روايتها أو حدوثها بأكثر من مائتي سنة أي في القرنين الثاني والثالث للهجرة. ولم تكن الكتابة موجودة تقريباً حتى زمن الرسول واقدم كتابات عربية شمالية هي كتابة امرؤ القيس في النمارة (٣٢٨) وكتابة زبد في جنوب شرقي حلب (٥١٢) وكتابة حران في اللجا عام ٥٦٨ وأم الجمال في القرن السادس . ولم يذكر عرب الشمال في الشؤون الدولية غير انه بعد ظهور الاسلام اصبح المقصود بالعرب عرب الشمال وكذلك اللغة العربية صار يقصد بها العربية الشمالية .

ويمكن تسمية عصر الجاهلية أيضاً بعصر البطولة لما فيه من حوادث تخلدها المرويات والقصائد . وأيام العرب سببها النزاع بين القبائل على المراعي والمياه أو الاهانة التي يوجهها شخص لآخر ، وتتطور حوادثها بنفس الشكل فتبدأ كنزاع بين الافراد ثم تشمل عدداً اكبر ويشتهر فيها بعض الابطال ويتغنى بها الشعراء من الطرفين وتنتهي عموماً بتوسط فريق ثالث . ومن هذه الحوادث المشهورة يوم بعاث بين الاوس والخزرج في المدينة ، وحرب الفجار التي سميت كذلك لانها حصلت في الاشهر الحرم بين قريش وكنانة من جهة وهوازن من جهة اخرى ، وحرب البسوس في نهاية القرن الخامس بين بكر وتغلب في شمال شرقي الجزيرة ودامت اربعين سنة واشتهر فيها المهلهل من جهة تغلب الذي اصبح بطل قصة « الزير » بينما اشتهر جساس من جهة بكر . وحرب داحس والغبراء حصلت بين عبس وذبيان في أواسط الجزيرة في النصف الثاني من القرن السادس ودامت عشرات السنين واشتهر فيها عنترة بن شداد العبسي (نحو ٥٢٥ — ٦١٥) كشاعر ومحارب . ومن النتائج الاجتماعية لهذه الحروب كثرة السبي وهو المصدر الرئيسي للرق ، كما ان سبي النساء من جهة اخرى والخوف من الفقر والعار ادى الى اعادة وأد البنات التي كان انتشارها محدوداً .

ومن الناحية الفكرية يلاحظ ان اللغة العربية في هـذا العصر تعكس نوع الحياة وتدل على اثر البيئة الاجتماعية ، والمترادفات تكثر فيها اذا كان الاسم من ضروورات الحياة وتقل بعكس ذلك . والادب العربي و كذلك العلوم المعروفة عند العرب هي نتيجة البيئة . والعربي فطر على الشعر لسعة خياله ولوجود مايشحذ ذهنه من غزو وتناحر وفخر . ولدينا من عصر الجاهلية او عصر البطولة امثال وقصص واشعار جمعت في العصور التالية ولم يترك العرب كتابات علمية من هذا العصر . ومن بقايا الادب الامثال وهي نتيجة الاختبار وتدل على الحالة العقلية . وقد نسبت حكم كثيرة الى لقمان الحكيم الذي ربما كان حبشياً ويرى فيه البعض ممثلاً لشخصية الوزير الحكيم المعروف باسم اخيقار في عهد سنحاريب الآشوري في القرن السابع ق . م[1] . ومن حكماء الجاهلية اكثم بن صيفي . ويمكن الاطلاع على كثير من هذه الحكم في امثال العرب للمفضل الضبي (م ٧٨٦) ومجمع الامثال للميداني (م ١١٢٤) التي نشرها المستشرق فرايتاغ (طبع بون ١٨٤٣) .
ولم يوجد العرب فناً خاصاً بهم ولكن طبيعتهم الفنية اوجدت مايعبر عنها في اللغة . والعرب يعجبون كثيراً بالتعبير الادبي وبتلك الموسيقى والنغمة في الكلام . وقد قال الجاحظ ان الحكمة ظهرت في ثلاثة امور : عقل الافرنج وايدي الصينيين ولسان العرب . والرجل الكامل في الجاهلية يتحلى بصفات ثلاث : الفصاحة او ملكة التعبير والرماية والفروسية . وقد ظهر جمال التعبير على اتمه فيما بعد في القرآن . والنثر لم يترك آثاراً طالما انه لم توجد كتابة ومع ذلك فقد بقيت قصص منها ايام العرب و كذلك ذكر انسابهم . وبعض الكتب مثل كتاب الاشتقاق لابن دريد و كتاب الاغاني تعطينا فكرة عن الانساب و كيف كان العرب بارعين في رواية الاحداث مبتدئين بآدم واحياناً باسماعيل .

---

(١) انظر تفاصيل المقارنة بين الشخصيتين وحكمهما في كتاب :
Histoire et sagesse d'Ahikar l'Assyrien par Fr.Nau. Paris1909.
راجع مقالنا : « حكمة الوزير اخيقار واثرها في الادب العالمي » في مجلة الحوليات الاثرية السورية م ٣ دمشق ١٩٥٤ .

واهم مظاهر الادب العربي الشعر . وقد ظهر الشعر العربي ناضجاً منذ البدء. وترجع اقدم القصائد الى قبل الهجرة بنحو قرن ونيف ولكن لاشك بانه تبعها فترة تطور في الفن الشعري والتعبير عن النفس. غير ان تلك النماذج القديمة لا تزال تعتبر نماذج ممتازة ، وقد تبين من الابحاث الحديثة ان هذه القصائد تناولها التنقيح والتعديل . وقد يكون السجع الذي كان يتكلم به الكهان المرحلة الاولى للاشكال الشعرية ثم كان الحداء المرحلة الثانية وهو محاولة الغناء بحسب حركة الجمال . وابسط القوافي الرجز الذي اتى من النثر المسجع. والقصيدة هي اهم اشكال التعبير الشعري وربما ظهرت بمناسبة ايام العرب . وللقصيدة تقاليدها المعروفة واساليبها ومواضيعها ، وفيها قوة في اللغة وحماس في الشعور ، والعنصر الفردي غالب عليها وموضوعها واقعي انما محدود لانه يعكس حياة الصحراء الضيقة ، ووجهة النظر محلية . ولم تكن هنالك ملاحم او مسرحيات . واهم القصائد هي المعلقات السبع التي نالت الجوائز الاولى في سوق عكاظ وعلقت على جدران الكعبة . ولم تجمع المعلقات حتى العصر الاموي وقد جعلها حماد الراوية في مجموعة مستقلة ، وترجمت الى معظم اللغات الاوربية . وهنالك عدد كبير من القصائد ايضاً جمعها المفضل الضبي (المفضليات) وعدد من المنتخبات في كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني (م٩٦٧) وفي ديوان الحماسة لأبي تمام (م٨٤٥) . وكان للشاعر شيطانه بمعنى انه كان يظن انه على اتصال بقوى خفية ، واصبحت له مكانة في المجتمع في الحرب والسلم ، وله تأثير كما للخطيب والمرشد وكتأثير الصحافة والدعاية السياسية في ايامنا . ولذلك كان الامراء يتبارون في استرضائه . كذلك كان مؤرخ القبيلة وعالمها يعرف انسابها وحقوقها ونواحي النقص فيها . فالشعر اذاً يرينا حالة العرب ولذلك قيل عنه انه ديوان العرب وبواسطته يمكن معرفة صفاتهم الاخلاقية التي من اهمها العصبية والشرف والشجاعة التي يمثلها عنترة (نحو ٥٢٥ — ٦١٥) والكرم الممثل بشخص حاتم الطائي (توفي نحو ٦٠٥) والمروءة ويمثلها السموأل .

اما العلوم فلم تكن بمفهوم علوم اليوم ومنها ما كان نتيجة البيئة ومنها ما كان

نتيجة الاتصال بالحضارات الاخرى . وقد كان العرب اصحاب ملاحظة وتعليل وفي بعض الاحيان انتقلوا الى الاختبار والتجربة . وفي طبهم عناصر اختبار شخصي كما ان فيه عناصر يونانية كلدانية فارسية . فالكهان والعرافون كانوا يستعملون الرقى والادعية والعزائم او يستخدمون الادوية العملية التي منها العسل ويلجأون الى الكي والبتر . وفي علم النجوم عرف العرب السيارات والثوابت واخذوا بعض معرفتهم عن الكلدان. ومن علومهم علم الانواء او مظاهر الجو وترقب اوقات المطر وعلاماته والرياح وانواع الغيوم. وكانوا يعللون الظواهر الجوية بطلوع الكواكب او غروبها كما برعوا بقيافة الاثر للاستدلال على الوقائع وبقيافة البشر لمعرفة النسب من تقاطيع الاعضاء وجميع هذه المعلومات ضرورية في مثل بيئتهم ونتيجة الاختبار والتجارب في تلك البيئة .

كان شعور عرب الجاهلية الديني ضعيفاً انما كانوا يحترمون التقاليد ولم يكن لديهم لاهوت او ميثولوجيا او قصص عن تكوين العالم ، ووصلت بعض المعلومات عن دينهم في الكتابات التي ظهرت بعد الاسلام ومنها كتاب الاصنام للكلبي م٨١٩. وديانة البدو كانت من اول اشكال الديانة السامية وابسطها . فطقوس عرب الجنوب واعتقادهم بالكواكب ووجود المعابد والاضاحي ترينا شكلاً حضرياً متطوراً كما ان عبادة الشمس ترينا مجتمعاً زراعياً . بينما ديانة البدوي كانت قائمة على عبادة الارواح (Animism) التي يعتقد بسيطرتها على الارض المنبتة والقاحلة وهذه الاخيرة يخافها او يتقيها (واصل كلمة « التقوى » بمعنى الخوف والحذر) . وبعد ان تكونت لديه فكرة عن الآلهة ظلت الاماكن الطبيعية كالكهوف (لاتصالها بالقوى الكائنة تحت الارض) والحجارة والاشجار مقدسة لديه والبئر كان مقدساً ويعبد، والبعل كان يمثل روح الينابيع والمياه الجوفية . وفيما يختص بالكواكب كانت الاعتقادات ترتكز على القمر الذي يرعى البدوي اغنامه على ضوئه ويمثل مجتمعاً يعيش على الرعي. وقد ظل « ود » اله القمر من اهم آلهة معين . ويذكر ابن هشام نخلة مقدسة في نجران ، وكانت توجد شجرة للعزى في نخلة قرب مكة . واللات في الطائف كان

يمثلها حجر مربع . ولكل آلهة حمى لايجب تجاوزه والاعتداء عليه . واعتقدالبدو بالجن والشياطين التي كانت معادية للانسان وتمثل المجهول او ماتحويه البادية من حيوانات برية ومخاوف .

اما السكان الحضريون في الحجاز الذين بنسبة ١٧ بالمائة فان عبادة الكواكب كانت معروفة لديهم في عصر متقدم جداً . وكان للعزى واللات ومناة مراكز للعبادة . فاللات (المشتقة من « الاهة ») كان حرمها او حماها قرب الطائف حيث كان المكيون وغيرهم يأتون ليقدموا الاضاحي وبقرب الحمى لايمكن سفك الدماء او قتل الحيوانات . والعزى التي تقابل فينوس « الزهرة » كان حرمها في النخلة شرقي مكة . ويقول الكلبي ان صنمها كان على جانب عظيم من الاحترام في قريش . ومقامها عبارة عن ثلاثة اشجار . ومناة « المنية » هي الاهة المصير تمثل مرحلة اقدم من غيرها في الحياة الدينية ومقامها حجر اسود بين مكة ويثرب (في قديد). ويظهر اسمها مع ذو الشرا في كتابات حجر النبطية . واهم آلهة الكعبة « هبل » (من الآرامية بمعنى روح) وقد صوروه بشكل بشري وكان بجانبه سهام للانتقام وتقول الرواية ان عمرو بن لحي اتى به من مؤاب وانه اول من ادخل الاصنام . والكعبة كانت بناءً بسيطاً مربع الشكل بدون سقف وضمنها حجر اسود . وقد جدد بناؤها قبل الاسلام من قبل الوليد بن المغيرة من بقايا سفن يونانية تحطمت على سواحل البحر الاحمر بطريقها الى الحبشة. وتروي المصادر العربية ان ابراهيم الخليل واسماعيل رفعا قواعد البيت الحرام في العصور القديمة . ويمكن ذكر آلهة اخرى منها نسر والعوف « الطير الكبير » وقد تدل هذه على اصول توتمية .

وكان بعض العرب يعبدون الله وقد ورد اسمه في النقوش العربية المعينية في العلا (ددان القديمة) وفي السبأية وكذلك في النقوش اللحيانية في القرن الخامس ق . م . ويرد الاسم بشكل « هالله » في كتابات الصفا قبل الاسلام بخمسة قرون وفي كتابة عربية من ام الجمال من القرن السادس . وقد عبده المكيون وخاصة

قريش واعتقدوا انه الاله الخالق والمعطي . وعلى كل فانه يبدو ان الوثنية بشكلها القديم لم تعد تلبي حاجات الشعب الروحية ووجدت جماعة نقمت على الوثنية وكانت لها عقائد توحيدية وعرف افرادها باسم « حنيف » ومنهم امية بن ابي الصلت وورقة بن نوفل . وقد اتى الاسلام في هذه الاحوال فانقذ العرب من الفوضى الدينية ومن الفوضى السياسية التي اصابت الجزيرة خاصة بعد انهيار الدول المشهورة في اليمن .

كان في الحجاز مجال للنشاط الديني والتجاري بسبب موقعها المتوسط على طريق القوافل . وكانت مكة محطة متوسطة بين مأرب في الجنوب وغزة في الشمال، وقد ذكرها بطليموس باسم Macoraba من السبأية ماكورابا Makuraba بمعنى المزار او المعبد ويدل ذلك على انها كانت مركزاً دينياً منذ مدة بعيدة . والمكيون كانوا تجاراً وقوافلهم كانت ضخمة ويذكر الواقدي ان القافلة التي كانت عائدة من غزة في موقعة بدر كان فيها نحو الف من الابل وقيمة بضاعتها نحو خمسين الف دينار . وبتأثير طريق القوافل ووجود الكعبة وانعقاد سوق عكاظ اصبحت مكة ذات مكانة رئيسية. وقوافلها كانت تجوب اسواق صنعاء وعمان ودمشق وبصرى، ورحلات قريش في الصيف الى الشمال وفي الشتاء الى الجنوب مشهورة. والاسواق التجارية كان اشهرها في الحجاز وخاصة سوق عكاظ شرقي مكة وكان يقام في ايام الحج والملوك يرسلون من يشتري البضائع . وبعض الاسواق كانت محلية وبعضها عامة وبين هذه الاسواق سوق مجنة وذي المجاز قرب مكة، ودومة الجندل وبصرى والحيرة [١] . هذه الحركة التجارية كانت ذات تأثير كبير في نقل الافكار واتصال الحضارات فضلاً عن فائدتها الاقتصادية . وحكومة مكة نموذج ممتاز للحكم في مجتمع حضري وتختلف عن حكومة البدو حيث شيخ القبيلة صاحب الشأن . وقد حكمت قريش في مكة منذ القرن الخامس حين تولى قصي بن كلاب رئاسة دار

---

(١) راجع : سعيد الافغاني ، « اسواق العرب في الجاهلية والاسلام » . دمشق ١٩٣٧ .

الندوة التي انشأها وكان له عقد اللواء والحجابة والسقاية والرفادة وانتقلت هذه الوظائف الى قريش وفروعها حتى ظهور الاسلام . وقد قيل في مكة ان حكومتها كانت شبيهة بالجمهورية (١) .

وكانت يثرب (المدينة) المذكورة في النقوش السبأية وفي بطليموس على طريق التجارة بين اليمن وسورية . ومن سكانها قبائل الاوس والخزرج اليمنية الاصل، وبنو النضير وبنو قريظة اليهود الذين اشتغلوا في الزراعة . ويرى البعض ان اسماءهم والتعابير الآرامية المستعملة في زراعتهم تدل على انهم كانوا من اصل عربي او آرامي ، غير ان القسم الرئيسي منهم من اليهود الذين غادروا فلسطين بعد خضوعها للرومان في القرن الاول م . واما مدينة الطائف المرتفعة فكانت فيها اثمار التين والعنب والزيتون والموز وغير ذلك وكانت ورودها تعطي العطر لسكان مكة كما انها كانت تصنع الخمر .

وقد تأثرت الحجاز بتيارات حضارية مختلفة منها حضارة اليمن والاحباش في الجنوب . فقد حكم الاحباش اليمن نحو خمسين سنة ووجدت جالية حبشية في مكة . وورد ذكر الرحمن والرحيم في كتابات الجنوب وقد تكون اسماء الهية قديمة . ومن الكلمات الحبشية الاصل : البرهان والمنبر والمحراب والفائدة والحواريون . وفي الكتابات العربية الاولى بعد الاسلام نجد صدى للتجارة البحرية بين الحجاز والحبشة . وكانت ايران الزردشتية تنازع الحبشة السيادة في اليمن وكان العرب يتعرفون على فنون الفرس العسكرية بواسطة اليمن أو بواسطة الحيرة . وكلمات زنجبيل وفرند (سيف) وسجيل وبرزخ من اصل فارسي . ولم تكن الحيرة مصدر تأثيرات حضارية فارسية فحسب وانما انتقلت منها تأثيرات آرامية نسطورية ايضاً الى بلاد العرب . وكان النساطرة واسطة نقل التأثيرات الآرامية والفارسية والهلينية

---

(١) راجع : Lammens: La Mecque à la veille de L'hégire. Beyrouth 1924; L'Arabie occidentale avant l'hégire. Beyrouth, 1928.

الى قلب الجزيرة . كذلك كان تـأثير المونوفيزيين في غسان شبيهاً بتأثير نساطرة الحيرة وكان الغساسنة المقيمون في سورية صلة الوصل بين الجزيرة العربية وبين سورية وبيزنطة . ولا يجب المبالغة بهذه التأثيرات الشمالية لان آراء المونوفيزيين والنساطرة الدينية لم تنتقل والنصرانية لم تكن جذورها قوية في بلاد العرب الشمالية . على ان جماعة من عرب الجاهلية وشعرائهم كانوا مطلعين على بعض الاصطلاحات والافكار النصرانية وانتقلت بعض الكلمات الآرامية الى العربية مثل كنيسة وبيعة ونير وفدان و ناطور وقسيس وصدقة وصورة ودمية. كذلك وجدت جاليات يهودية في يثرب وبعض الواحات الشمالية في الحجاز ويذكر كتاب العرب بعض الشعراء اليهود ولكن الشاعر الوحيد الذي يظن انه كان يهودياً هو السموأل (صموئيل) من الابلق قرب تيماء وكان يعاصر امرؤ القيس . والخلاصة ان الحجاز قبل الاسلام كانت معرضة لتأثيرات فكرية ودينية ومادية من مراكز مختلفة : فارسية وبيزنطية وآرامية وحبشية اتت بطريق الحيرة وغسان واليمن .

❀❀❀

الفصل الخامس عشر

الحضارة العربية : ادوارها ومظاهرها في العصر الاسلامي

الاسلام والحضارة العربية : كانت آسية الغربية دائماً وافرة الانتاج فيما يتعلق بالتجديدات الدينية كما قال فون كريمر. فهناك قامت الديانات الاربعة الكبرى ومن تلك الارض نفسها خرجت طوائف دينية لا عداد لها ونظم فلسفية ونظريات دينية . ومن هناك بدأت موجات الديانات الاربعة الكبرى واتخذت مجراها العالمي التاريخي وهي موجات اليهودية والزردشتية والمسيحية والاسلام التي هزت الافكار والمشاعر الانسانية الى الاعماق (١) . وكانت الفترة بين ظهور ديانتين مليئة بحركات دينية جديدة والتشابه الموجود بين معظم هذه الديانات يرجع الى تأثير البيئة المتشابهة في صفاتها الاساسية والى تشابه التراث الفكري واتصال الآراء وتبادلها اثناء قرون طويلة . والاسلام هو احدث هذه الاديان والوثائق المتعلقة باصله موجودة ويمكن تتبع تاريخ ظهوره ونموه خطوة خطوة كما انه يمكن تعيين أثره في الحضارة

---

(١) انظر فون كريمر : الحضارة الاسلامية . تعريب مصطفى طه بدر (القاهرة ١٩٤٧) ص ٥٢ ويضيف فون كريمر ان هذه الديانات كانت تقوم الواحدة بعد الاخرى في فترات معينة ، فديانة موسى ظهرت في القرن الخامس عشر والزردشتية في القرن السابع ق . م والمسيحية في القرن الاول ثم الاسلام في القرن السابع م .

العربية بسهولة ووضوح . وقد كان القرآن منذ اول العصر الاسلامي ليس كتاب الصلاة والعبادة فقط وانما لاجل التعليم ايضاً وكان أساساً في دراسة الفقه والادب ولذلك كان من أوسع الكتب انتشاراً. وفي العصر الحديث وضعت ترجمة تركية رسمية للقرآن وترجمات كثيرة أخرى الى اكثر من اربعين لغة . واول لغة أجنبية ترجم اليها اللاتينية وقد اهتم بهذه الترجمة رئيس دير كلوني Cluny في نحو عام ١١٤١ وكانت اقدم ترجمة الى الانكليزية عام ١٦٤٩ ومن اشهر الترجمات اليوم ترجمة بيكتال Marmaduke Pickthall عام ١٩٣٠ . وأقدم طبعة عربية للقرآن كانت في أواخر القرن الخامس عشر بعد عام ١٤٨٥ .

لقد عمل الاسلام على توسيع ثقافة العرب بحكم ما أتى به من عقائد وتشريع ومعلومات عن الامم القديمة واخبار الانبياء والديانات وتفصيل الاحكام الاقتصادية والقضائية والاجتماعية مما ورد ذكره في القرآن والحديث. وأثر الاسلام على مفاهيم العرب ومثلهم العليا واوجد تنظيمات جديدة وشجع العلم بعد ان كان عدد الذين يعرفون القراءة والكتابة قليلاً جداً وكان هذا التشجيع بالقول عن طريق احاديث الرسول وبالفعل عن طريق نشر العلم واستخدام الاسرى وغيرهم فيه. وظهرت طائفة من العلوم عرفت بالعلوم العربية الاسلامية اقتضاها الاسلام ومنها العلوم الدينية او الشرعية كالقرآن والحديث والفقه، والعلوم اللسانية او علوم اللغة لاجل ضبط قراءة القرآن وتفسيره وفهم الحديث، والعلوم الاجتماعية كالتاريخ وعلم البلدان. وتميزت هذه العلوم عن العلوم النقلية التي لم تكن من مقتضيات الاسلام ونقلت عن الاعاجم ثم نبغ فيها العرب وكان لهم فضل كبير في تقدمها . وأدت الخلافات السياسية والدينية الى ظهور مذاهب دينية وفلسفية جديدة . ونتج عن الفتوحات الاسلامية اتساع رقعة الدولة وبناء امبراطورية واسعة فتعرف العرب على بلاد وشعوب وثقافات مختلفة وحصل تمازج بين الشعوب وثقافاتها وظهرت أحكام تتعلق بالبلاد المفتتحة وسكانها وادارة شؤونها . واتسع أفق العرب الاقتصادي كما اتسع افقهم الفكري وازدهرت التجارة والصناعة وظهرت طبقات اجتماعية جديدة .

وازدهرت الفنون وتأثرت بأساليب البلاد المفتتحة ولكن الاسلام اخضعها لحاجته فبنيت المساجد ولم تلبث ان ظهرت الفنون الفرعية بحكم تطور المدنية وزيادة الثروة وازدياد حاجات الطبقات المترفة . وكانت مصالح الدولة ومظاهر الحضارة تتطور وفقاً لتوسع الدولة نفسها ورقيها وتطور حاجاتها واتساع مرافقها وهكذا كان التطور في ناحية حضارية معينة يؤثر على الناحية الاخرى .

مظاهر الحضارة في عهد الراشدين : توطدت اركان الاسلام في الحجاز ومعظم انحاء الجزيرة العربية قبل وفاة الرسول في عام ٦٣٢ وظهرت الدولة الاسلامية في المدينة واخذت سلطتها تتسع وشؤونها تنتظم. وما انتهى عهد الخلفاء الراشدين (٦٣٢ — ٦٦١) الا وكانت تسيطر على القسم الاكبر من غربي آسية وشمالي افريقيا . كانت المدينة عاصمة هذه الدولة ثم انتقلت الى الكوفة في خلافة علي واصبحت العاصمة دمشق في عصر الامويين (٦٦١— ٧٤٩) . ومن اهم حوادث خلافة الراشدين الفتوحات في سورية والعراق وفارس ومصر على ان الدولة اضطرت الى محاربة قسم من سكان الجزيرة في عهد ابي بكر لانهم قاوموا احكام الدين الجديد ورفضوا دفع الضرائب قبل ان تفتح سائر البلاد . وقد عرفت هذه الحروب الاولى بحروب الردة ويبدو ان نجاح الفتوحات في البلاد المجاورة قد ساعد على خضوع العرب في الجزيرة . وحصلت معظم الفتوحات في عهد ابي بكر (٦٣٢- ٦٣٤) وعمر (٦٣٤—٦٤٤). في سورية بدأ الفتح في ٦٣٣ وفتحت دمشق عام ٦٣٥ وحصلت موقعة اليرموك في ٦٣٦ وفتحت القدس في ٦٣٨ وقيصرية في ٦٤٠ وقسمت البلاد الى اجناد او مقاطعات عليها حكام وهي اجناد دمشق وحمص والاردن وفلسطين وجعلت سلسلة من المراكز الحصينة الداخلية والخارجية قرب الحدود تعرف بالعواصم والثغور. وهكذا انتهى حكم البيزنطيين وحلفائهم الغساسنة . وفي العراق وفارس انتصر المسلمون في القادسية قرب الحيرة في عام ٦٣٧ ودخلوا المدائن ثم انتصروا في

جلولاء في نفس السنة . وانتصروا في نهاوند في ٦٤١ واحتلوا اصطخر (برسبوليس) في ٦٤٩ وهكذا انتهى حكم الفرس الساسانيين وحلفائهم اللخميين وبنيت الكوفة قرب خرائب بابل وقرب الحيرة كما بنيت البصرة في ٦٣٨. وفي مصر حارب العرب الدولة البيزنطية ايضاً واتبعوا نفس الطريق التي اتبعها كمبيز الفارسي والاسكندر المكدوني وانطيوخس السلوقي ونابوليون وجمال باشا . فقد حاربوا في معركة الفرمة (Pelusium) في ٦٤٠ بعد ان ساروا من العريش وانتصروا في عين شمس وحاصروا حصن بابلون وفتحوه في ٦٤١ وجعلوا الفسطاط العاصمة قرب موقع القاهرة اليوم في تلك السنة . وفتحت الاسكندرية نهائياً في ٦٤٦ وكانت مكتبتها المشهورة في ايام البطالمة قد احترقت منذ عام ٤٨ ق.م في عهد يوليوس قيصر بينما المكتبة الصغرى احرقت في ٣٨٩ م بامر الامبراطور تيودوسيوس . وعبد اللطيف البغدادي (المتوفى ١٢٣١) هو اول من اورد قصة حرق العرب للمكتبة في كتاب الافادة والاعتبار ولا يدري احد لماذا اورد هذه التهمة[١]. وفتح العرب برقة في ٦٤٣ ودفعت قرطاجة الجزية كما انهم فتحوا قبرص في ٦٤٩ عن يد معاوية .

كان العامل الديني عاملاً اساسياً في هذه الفتوحات ونجاحها . غير ان بعض العلماء المستشرقين ومنهم بكر Becker و كيتاني Caetani ولامنس Lammens[٢] اعطوا العامل الاقتصادي اهمية كبرى في حركة الفتوحات كما ان البعض الآخر فسروا نجاح الفتوحات في سورية والعراق بضعف الدولتين البيزنطية والساسانية والصلة القومية بين العرب الفاتحين وبين سكان هذين القطرين وكره السكان النصارى لاسيادهم البيزنطيين في سورية ومصر بسبب سياستهم الدينية واضطهادهم المونوفيزيين

---

(١) انظر تاريخ الاسلام السياسي تأليف حسن ابراهيم حسن (القاهرة ١٩٣٥) ج١ ص ٣١٤ – ٣٢١ .

(٢) كارل بكر في الفصل العاشر من تاريخ كمبردج للعصور الوسطى المجلد الثاني (كمبردج ١٩١٣) . لامنس في كتاب مهد الاسلام (رومة ١٩١٤) .

وكثرة الضرائب وقطع المنحة المالية لملوك الغساسنة وعدم استمداد البيزنطيين واهمالهم وغير ذلك . ويمكن القول ان هذه العوامل قد سهلت خضوع هذه البلاد وان المناطق التي كان العنصر البيزنطي فيها كبيراً مثل انطاكية وقيصرية والاسكندرية او التي كان سكانها من الفرس كما في بلاد فارس عموماً كانت مقاومتها اعظم (١) . وقد حارب الفرس لاجل دينهم وقوميتهم ولم يخضعوا الا بعد ان احتلت بلادهم كلها وكان خضوعهم ظاهراً . ومع ان العربية اصبحت اللغة الرسمية لمدة ثلاثة قرون بين الفرس فان الروح الوطنية عادت الى الظهور . اما في بلاد الهلال الخصيب فان الساميين اعتبروا انفسهم اقرب الى العرب منهم الى الاسياد الاجانب . ويرى توينبي ان الاسلام كان رد فعل موفق ضد الاعتداء الهلنستي على العالم السرياني كما سماه وبتأثيره حصل تجدد في الحضارة السامية القديمة . وعلى ذلك فقد استيقظ الشرق الادنى تحت راية الاسلام واثبت وجوده بعد ان دامت السيادة الاجنبية فيه مدة الف سنة في زمن الحكم الهلنستي والروماني . وقد فاقت الفتوحات الاسلامية في اهميتها فتوحات الاسكندر لان اثر هذه كان موقتاً بينما كان للفتوحات الاسلامية اثر دائم ومع ذلك فالحادثان يعتبران من المراحل الهامة في تاريخ الشرق الادنى وحضارته . في عشر سنوات غيرت الفتوحات الاسلامية معالم الشرق الادنى وفي مدة قرن غيرت وجه العالم باسره . وبوجود هذا العالم الجديد ومركزه الشرق يمكن القول ان العصور القديمة انتهت وبدأت العصور الوسطى .

وعندما اصبحت فارس والعراق وسورية ومصر تحت حكم العرب فان حضارة هذه البلاد اصبحت تحت تصرفهم ولذلك اخذوا عنها ما شاءوا . وبعثت الحضارة الهلنستية ونشطت بفعل الاحتكاك بالعروبة وبديانة جديدة واعطت العروبة للهلينية

---

(١) انظر مناقشة هذه الآراء في كتاب : حركة الفتح الاسلامي تأليف شكري فيصل (القاهرة ١٩٥٢) ص ٢٦ — ٣٥ وفي رسالتنا : فتح العرب للشام (بيروت ١٩٣١) ص ١٩ — ٣١ . انظر ايضاً تاريخ العرب لفيليب حتي (الطبعة العربية ج ١ بيروت ١٩٤٩) ص ١٩٤ — ١٩٨ ، ٢٠٦ .

لغتها ووسائل انتشارها وكان فضل العرب كبيراً من الناحيـة اللغوية والدينية وكانت الحضارة العربية تتمة منطقية لحضارة الهلال الخصيب . وقبل التعرف على النواحي الروحية والثقافية في هذه الحضارة فان العرب تعرفوا على نواحي الفن والعمارة التي شاهدوها في المدائن وانطاكية ودمشق والقدس والاسكندرية واختلفوا عن الشعوب الفاتحة في انهم بدلا من تهديم آثار الفن حافظوا عليها واقتبسوها بطرقهم الخاصة .

وكان على الدولة الاسلامية الناشئة ان تنظم شؤون الحـكم والادارة وتحـل بعض المشكلات الاجتماعية وهذا مافعلته في عهد الخلفاء الراشدين وتابعت معالجته في العصر الاموي تبعاً لتطور الدولة ومصالحها . وكان من اول الامور التي اهتمت بها انتخاب خليفة يتولى شؤون المسلمين الدينية والدنيوية بعد وفاة الرسول . ولم يكن هناك نظام معين لانتخاب الخليفة فكانت طريقة انتخابه اقرب ماتكون الى الشورى في عهد الراشدين ثم اصبحت وراثية منذ ابتداء عصر الامويين . ويقول الشهرستاني في كتاب الملل والنحل انه ليس من قضية اسلامية سببت النزاع وسفك الدماء مثل الامامة ويعني الخلافة ذلك لان الخصام حصل بشأن من يتولى الخلافة وهل يجب تخصيصها ببيت من البيوت او بقبيلة من القبائل او يجب تركها لصاحب الجدارة بين المسلمين . وحصلت الفتن بسبب هذا الخلاف على تعيين الخليفة وكانت اولها في عهد عثمان (٦٤٤—٦٥٦) ثم في عهد علي (٦٥٦—٦٦١) وظهرت فرق ومذاهب سياسية ودينية لاجل السبب نفسه ولاسباب اخرى . وانتهت الفتن موقتاً بانتقال الخلافة الى بني أمية الذين احدثوا ولاية العهد . وكان للخلافة شروط وعلامات وشارات كما ان من يتولاها يتقيد بقانون شرعي يقوم على الدين واحكامه . وقد جمع القرآن نهائياً في عهد خلافة عثمان ومكنت روح الاسلام الديموقراطية جميع المسلمين من قراءته . والشروط التي يجب ان تتوفر في الخليفة هي العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل وتضاربت الآراء في شرط خامس وهو النسب القرشي . وعلامات الخلافـة هي البردة والخاتم

والقضيب بينما شارات الخلافة هي الخطبة والسكة والطراز[١] .

وقد اوجدت الدولة الدوائر والمؤسسات اللازمة لادارة الدولة . ونشأ نظام الولاية على المقاطعات منذ زمن الرسول وكان معروفاً قبل الاسلام . وفي عهد الفتوحات في زمن ابي بكر وخاصة في زمن عمر نظمت بعض الولايات فابقيت بعض التقسيمات القديمة وفي بعض الاحيان الغيت واضيفت اليها مراكز واقسام جديدة . وكان الوالي المعين من قبل الخليفة يقوم مقام الخليفة في حكم الولاية ويتمتع بسلطات دينية ومالية وقضائية وحربية . غير ان الولاية والامارة تتنوع فيما بعد تبعاً لمدى صلاحية الوالي وشكل تعيينه . ويعتبر الخليفة عمر مؤسس الادارة الاسلامية وهو الذي اقتبس نظام الدواوين من الفرس واحدث ديوان الجند حيث تسجل اسماؤهم واعطياتهم وديوان الخراج حيث يضبط دخل الدولة وخرجها فيدون مايرد الى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء . وقد استقر ترتيب الناس في الدواوين حسب القرابة من الرسول والسبق في الاسلام والتقدم في الشجاعة . ويبدو ان هذين الديوانين كانا ديواناً واحداً ولم يكونا منفصلين . ونظمت واردات بيت المال وكانت آيات القرآن قد ذكرت بعضها وطرق توزيعها واوجبت الفتوحات تنظيم ادارتها وانفاقها . واهم هذه الواردات هي الغنيمة وتشمل الاسرى والسبي والارضين والاموال ويذهب خمسها لبيت المال ويصرف حسب نص الآية واربعة اخماس للمقاتلة ؛ والفيء وهو المال الذي يصل المسلمين عفوا من غير قتال ويذهب خمسه ايضا لبيت المال ويصرف كما يصرف خمس الغنيمة واما الاربعة أخماس فكانت تقسم سابقاً على افراد الجيش ولكن منذ ان قدّر الخليفة عمر للجند ارزاقهم بعد تدوين الدواوين فانها اصبحت تدخل بيت المال . وهنالك الزكاة وتؤخذ من المسلمين وهي

---

(١) راجع بشأن الخلافة وسائر نواحي الحكم والادارة : كتاب النظم الاسلامية لحسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن (القاهرة ، ١٩٣٩) ؛ وكتاب مختصر تاريخ الحضارة العربية تأليف راتب الحسامي وجورج حداد (دمشق ١٩٥٢) ص٣٥-١١٨ .

على انواع منها زكاة المال او النقد وزكاة الماشية وزكاة عروض التجارة وزكاة الزروع والمعادن . وهنالك الجزية التي تجبى من غير المسلمين والاصل في فرضها يستند الى الآية القرآنية وقد فرضت على الذميين مقابل حماية المسلمين لهم بينما فرضت الجندية والزكاة على المسلمين وحدهم . ومن الواردات العشر ويؤخذ من الارض التي اسلم اهلها وهم عليها او من الارض التي ملكها المسلمون عنوة فكانت غنيمة وزعت بين المحاربين ، وهنالك الخراج ويؤخذ على الأرض التي ملكها المسلمون عنوة ثم تركوها بيد اهلها او صالحوا اهلها عليها، كما ان هنالك المكوس او المشور واللقطة وغيرها. وجميع هذه الواردات لها احكام في كتب الفقه في كيفية جبايتها وانفاقها . ويبدو ان التمييز بين بعض هذه الضرائب مثل الجزية والخراج واحكامها لم يحصل الا فيما بعد في العصر الاموي .

وكان القضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بانفسهم . ويذكر البلاذري ان الخليفة عمر هو أول من فوض القضاء الى غيره في مركز الخلافة وفي الولايات التابعة لها وكان يسميهم حكام الشرع . ولكن بما أنه لم يكن في كل اقليم او ولاية قاض في أول الامر فقد كان الولاة يباشرون القضاء بانفسهم بالنيابة عن الخليفة . اما الجيش فان افراده كانوا أفراد الامة الاسلامية بكاملها ففي أول الامر كان المهاجرون أول جند المسلمين ثم انضم اليهم الانصار وأخذ عدده يزداد بدخول الناس في الاسلام ولذلك لم تكن هنالك جندية الزامية في عهد النبي والخلفاء الراشدين لان المسلمين كلهم كانوا جنداً متطوعاً قائدهم الأعلى الخليفة وينوب عن القواد في المقاطعات . وفرق الجيش كانت تتألف من المشاة ويتسلحون بالدروع والسيوف والحراب والقسي والسهام. والفرسان ويتسلحون بالدروع والسيوف والرماح وكذلك بالقسي والسهام . وكان العرب يقاتلون بطريقة الكر والفر في الجاهلية ثم استبدلوها بطريقة الصفوف أو الزحف حيث يتقدم حاملو الرماح ويليهم حاملو السهام ويقف الفرسان على ميمنة الجيش وميسرته وتبدأ المعارك بالمبارزة بين الافراد . ثم استعمل العرب طريقة

الكراديس التي استعملها الفرس والروم وتتألف من القلب وأمامه كتيبة من الفرسان غالباً تسمى المقدمة وعلى يمين القلب ويساره كتيبتان باسم الميمنة والميسرة ووراء القلب كتيبة تسمى الساقة . وعرف نظام التعبئة هذا بالخميس .

وكان من نتائج الفتوحات ان انتشر العرب في البلاد المفتتحة وحصلت عملية امتزاج بين العناصر في الدولة الاسلامية كما أن طبقات المجتمع تطورت . ولم يكن انتشار العرب عن طريق الفتح فقط وانما عن طريق الهجرة . وكان من نتائج هذه الهجرة الواسعة والفتوحات ان العرب الفاتحين امتزجوا بالامم المغلوبة وكانت العوامل التي عملت على صهر العناصر وتمازجها هي الاختلاط في السكنى ودخول البلاد المفتتحة في الاسلام ونظام الرق والتسري وعملية التوليد . وكانت البواعث على الدخول في الاسلام كثيرة منها الدخول عن ايمان وعقيدة ومنها الهرب من دفع الجزية والفرار من الشعور بالمهانة . وكان لعملية التمازج التي استغرقت مدة طويلة تأثيرات في جميع نواحي الحياة وشمل تأثيرها النظم السياسية والاجتماعية والعادات والاخلاق والعلوم والآداب . فالعادات الفارسية والهلينية والرومانية أثرت على العادات العربية في السكنى واللباس والطعام . وامتزجت حكم الفرس وفلسفة الروم بالحكم العربية ، وأثر نمط الحكم الفارسي والروماني على النمط العربي وسادت في بعض الأحيان النظم المتبعة قبل الفتح في البلاد المفتتحة كلغة الدواوين وادارتها وبقيت كذلك حتى ايام عبد الملك بن مروان فكان الاقباط والسوريون والفرس يديرون شؤون هذه الدواوين في مصر وسورية وبلاد الرافدين وفارس بالقبطية واليونانية والفارسية . ولئن سادت بوجه الاجمال حضارة الامم المغلوبة ونظمها في أول الامر لكونها ارقى من حضارة الشعب الفاتح فان الفاتحين عدلوا النظم بما يتفق وعقليتهم وحاجاتهم . وحصل بهذا الامتزاج لقاح بين العقل العربي والعقل الاجنبي وذلك أن الامم المغلوبة كانت لها حضارة أدبيـة من شعر ونثر وكانت لها علوم وكتب مدونة واعتادت على البحث العلمي فلما استعربت بالاسلام أخذ أبناؤها يتبعون الاساليب العلمية التي الفوها وظهر تأثيرهم في المذاهب المختلفة

في أواخر القرن الاول الهجري وفي ظهور دعوات دينية جديدة وثورات .وساهم المولدون في علوم الدين واللغة والادب فاثروا عليها . ومع ان الحروب الحقيقية قد انهت في زمن الخلفاء الاول بانتهاء عهد الفتوحات فان الحروب ظلت قائمة بين مختلف النزعات في الدين واللغة والنظم والاهداف . غير ان اللغات الاصلية تراجعت ثم انهزمت امام اللغة العربية التي اصبحت لغة السياسة والعلم وكذلك ساد الدين الاسلامي ولم يبق على دينه الاصلي الا القليل وهكذا فان هذه الامم والعناصر المختلفة اصبحت بعد امتزاجها وبالرغم من اختلافاتها تتكلم لغة واحدة واغلبها يدين بدين واحد وكذلك تخضع لنظام واحد في الحكم وتسيطر عليها روح واحدة ولذلك يمكن القول انه تكونت امة واحدة تشترك في علمها وأدبها وثقافتها[1] .

واما من حيث طبقات المجتمع فان الناس ظلوا منقسمين الى احرار وموالي وعبيد كما في الجاهلية غير ان الاسلام احدث تغييراً هاماً في العصبية القبلية وفي نظام الطبقات بوجه الاجمال . فقد اوجد الاسلام جامعة اسلامية اذ قال النبي « المسلمون اخوة » وقال في حجة الوداع « ان اكرمكم عند الله اتقاكم ؛ ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى » . ومع ذلك فقد كان للعرب مزية لانهم قوام الاسلام وكان الخليفة عمر كثير العناية بالجامعة العربية واوصى العرب بحفظ انسابهم . وهكذا نشأ نوعان من العصبية في عهد الراشدين بدلا من عصبية القبيلة وهما اولاً العصبية العربية ومصدرها ان العرب اصبحوا امة متحدة في اللغة والدين والميول والحكومة العامة وثانياً العصبية الدينية الاسلامية . ونشأ عن هاتين العصبيتين ان الناس اصبحوا اما مسلمين او غير مسلمين . واما المسلمون فكانوا اما عرباً او غير عرب . وكانت اولى الطبقات من المسلمين العرب وثانيها من المسلمين غير العرب وتأتي بعدها الجماعات غير المسلمة وقد عرفت بالذميين

---

(١) انظر بشأن التمازج واثره : فجر الاسلام لاحمد امين (القاهرة . ١٩٣٣) .

وتضم اليهود والنصارى وكذلك المجوس والصابئة وقد ضمنت لهم العهود والنصوص التشريعية الحرية الدينيــة بشرط ان يدفعوا الجزية وان لا يدخلوا في الجيش. ومنع الخليفة عمر المسلمين من امتلاك الارض في البلاد المفتتحة واراد ان يختصوا بالجهاد والحكم وبذلك بقيت الاراضي في يد اصحابها في اول الأمر ودفعوا عنها الضرائب وبما ان الشرع الاسلامي لم يطبق على اهل الذمة فقـد خضعوا في احوالهم المدنية لسلطة رؤسائهم الروحيين وللقوانين المعروفة لديهم. وهذا اصل نظام « الملة » الذي اتبع في الامبراطورية العثمانية. ونشأت طبقات عربية اسلامية جديدة في زمن الراشدين مبنية على السبق الى الاسلام او الهجرة او البيعـة او الجهاد. وتحولت عصبية النسب الى وجهة دينية واصبح اشرف الانساب اقربها الى قبيلة النبي وآل بيته فظهرت طبقات الاشراف من قرشيين وهاشميين. وفي زمن الحرب الاهلية توزعت الاحزاب حسب ولائها للأشخاص توزعاً جغرافياً فكانت دمشق بجانب معاوية والانصار بجانب علي في المدينة، والكوفة بجانب الزبير والبصرة بجانب طلحة. وبعد موقعة الجمل في خلافة علي اصبح سكان العراق ومصر والمدينة بجانب علي بينما كانت سورية مع معاوية. ومن جهة اخرى فان الرقيق قد ازداد كثيراً بسبب الاسر في عهد الفتوحات. وتطورت حالة الرقيق في الاسلام واصبح لهذه الطبقة شأن غير شأنها في الجاهلية. وكان الاسرى اذا اسلموا نجوا من الرق واصبحوا من الموالي وبما ان معظم الاسرى كانوا من غير العرب فان الموالي كانوا عموماً من المسلمين غير العرب واطلق الاسم فعلاً على جميع المسلمين من غير العرب واصبح الموالي طبقة خاصة في المجتمع.

وقد اتجهت سياسة الخليفة عمر الى توحيد الجزيرة العربية تحت راية الاسلام ولذلك اضطرت الجماعات غير المسلمة لمغادرة بلاد العرب وكان منها يهود خيبر (التي تقع شمالي المدينة) ونصارى نجران في شمالي اليمن فذهبوا الى سورية والعراق. ومن جهة ثانية اراد ان يكون العرب المسلمون الطبقة الحاكمة في الدولة ولم يسمح لهم ان يمتلكوا الارض او يزرعوها خارج الجزيرة. وعاش الفاتحون في معسكرات

في الجابيـة وحمص وعمواس وطبرية واللد والرملة وفي الفسطاط والاسكندرية وفي مدينتي الكوفة والبصرة وغيرها . وتركت الشعوب المغلوبة لتهتم بصناعاتها وزراعة اراضيها وبدأت مشكلة الموالي بسبب شعور افرادها بعدم المساواة مع العرب المسلمين . غير ان العرب اخذوا يمتلكون الاراضي في البلاد المفتتحـة في عهد عثمان . وكانت حكومة الراشدين حكومة دينية توافق عصراً خاصاً يتصف بالوحدة الاسلامية وبالحماس الديني وبالفروسية العربية وشخصية الخلفاء الراشدين كانت تناسب هذه الظروف الخاصة . ولكن الظروف تغيرت ولم تلبث ان تحولت السيادة الدينية الى سيادة سياسية في عهد معاوية ويرى البعض ان الاحوال كانت مناسبة في سورية لقيام مملكة عربية وان العرب القـدماء في سورية كانوا معتادين على الحكم الملكي واستفاد معاوية من الوضع واسس الحكم الوراثي(١) .

حضارة العصر الاموي : اصبحت الخلافة وراثية في زمن الامويين (٦٦١-٧٤٩) بعد ان كانت انتخابية واصبحت سورية مركز الحكم ودمشق عاصمة الخلافة . ووصلت الدولة اقصى حدودها بعد وفاة الرسول بقرن واحد وذلك ان العرب وصلوا الى سهول فرنسا الغربية في عام ٧٣٢ والتحموا مع الفرنجة في موقعة بين تور وبواتييه ويعرفها العرب باسم بلاط الشهداء(٢) في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك وكانوا قبلاً قد وصلوا حدود الهند كما انهم حاصروا القسطنطينية مرتين دون ان يفتحوها . وقد حصل بنو امية على مناصب كبرى في عهد ابي

---

(١) راجع مقالة المستشرق الهولاندي دي غويي De Goeje عن الخلافة في الموسوعة البريطانية الطبعة الحادية عشرة . كذلك كتاب : الحضارة العربية تأليف Joseph Hell وترجمة خودا بخش (كمبردج ١٩٢٦) ص ٤٠-٥٠ .

(٢) يسميها المؤرخون الفرنسيون Poitiers بينما الانكليز يسمونها Tours وهي بين المدينتين . انظر بشأن هذه الموقعة ورواية مختلف المؤرخين عنها : مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام تأليف عبد الله عنان (القاهرة ١٩٣٤) ص ٤٤ - ٧٠ .

بكر وعمر وعين معاوية حاكما على سورية في عهد الخليفة عمر بعد وفاة اخيه يزيد بن ابي سفيان . وكان مصدر المقاومة ضد الامويين من المهاجرين والانصار الذين لم يرضوا ان يكون اعداء النبي بالامس حكام اليوم ، ومن الشيعة المعتمدين على الفرس ، ومن الخوارج الذين اعتبروا الامويين وخصومهم مغتصبين ، ومن الموالي او المسلمين غير العرب . كذلك يجب ان نذكر ان العصبية القبلية عادت الى الظهور في زمن بني امية وحصل النزاع بين المضرية واليمنية وان بعض افراد بني امية نازعوا الخلفاء انفسهم على الحكم . ومن جهة اخرى يجب ان يذكر المؤرخ عندما يقرأ اخبار الامويين وحضارتهم ان العباسيين شوهوا تاريخهم وحاولوا الحط من شأنهم .

اصبح معاوية خليفة بعد مقتل علي في عام ٦٦١ ودخل الكوفة واخذ البيعة ودام حكمه حتى عام ٦٨٠ . ومع ان معاوية اسس اول سلالة في الاسلام واصبح الحكم في عهده وراثيا الا ان المظهر الانتخابي قد احتفظ به في عملية المبايعة . تابع معاوية سياسة الفتوح وحاول مرتين فتح القسطنطينية وذلك في ٦٦٩ و ٦٧٤ ودامت الحملة الثانية حتى وفاته ثم انسحبت . وكان قد وجد معاوية دار الصناعة في عكا من العهد البيزنطي فاستخدمها لبناء السفن ثم نقلت الى صور وكان معظم بحارتها من السوريين والبيزنطيين . وفي عهده توسع عقبة بن نافع في افريقية حتى اسس القيروان في ٦٧٠ . ووصلت جيوش زياد بن ابيه حاكم البصرة ثم الكوفة الى نهر سيحون وفي عام ٦٧٣ فتح ابنه بخارى فيما وراء النهر . وفي خلافة يزيد حصلت موقعة كربلاء وقتل الحسين (عام ٦٨٠) وزادت نقمة الشيعة على الحكم الاموي وقد اصبح بينهم عدد كبير من الفرس الذين استغلوا هذه النقمة . ونتجت عن مقتل الحسين بعض تطورات في الناحية الدينية تتعلق بالاستشهاد كما نتجت عن النقمة التي تبعتها حركات ضد الامويين وربما كانت اهمها ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز . غير ان الخليفة يزيد ارسل جيوشه المنظمة ففتحت المدينة وحاصرت مكة ولكنها اضطرت الى العودة عندما توفي يزيد في ٦٨٣ . واعلن ابن الزبير

نفسه خليفة واخذت له البيعة في الجزيرة العربية والعراق ومصر . وحكم معاوية الثاني ابن يزيد مدة قصيرة وخلفه مروان بن الحكم وهو من فرع آخر لبني امية ودام حكمه حتى ٦٨٥ وقام في هذه الاثناء المختار في الكوفة وثار على حكومة عبد الله بن الزبير وايده الشيعة ومعظمهم من الفرس ولكن مصعب بن الزبير قضى على ثورته وكانت اول محاولة تحدى فيها الفرس سلطة اسيادهم العرب على انها لم تكن الاخيرة .

وأتى بعد مروان ابنه عبد الملك ٦٨٥ — ٧٠٥ ويعتبر حكمه من اعظم أدوار الحكم شأناً في تاريخ العرب والاسلام ومن اخطرها . فقد اهتم اولاً بقمع ثورات المتمردين واعادة وحدة الدولة وثانياً بتنظيم شؤون الدولة وتعريب دواوينها . وكانت النتيجة انه استولى على العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير في ٦٩١ وارسل الحجاج بن يوسف الى مكة لحاصرها واستولى عليها في السنة التالية وقتل عبد الله بن الزبير . وحكم الحجاج العراق فوطد النظام واجبر السكان على دخول الجندية ومساعدة المهلب بن ابي صفرة في حروبه ضد الخوارج في خوزستان والفوز عليهم في ٦٩٧ . وثار ابن الاشعث على عبد الملك والحجاج ولكنه قهر في دير الجماجم في ٧٠٢ وانتحر فيما بعد . وتمثل ثورته نزاعاً على السيادة بين العراق وسورية ونقمة على سلطة الحجاج الذي اجبر أسياد البلاد على الطاعة واعاد القرويين الذين تدفقوا على المدن الى قراهم لكي لا تقل واردات الضرائب . وبنى الحجاج واسط بين البصرة والكوفة على الدجلة . وتابع العرب توسعهم في شمالي افريقيا حتى قرطاجة وحاربوا البربر وملكتهم المعروفة بالكاهنة وقهروها . ومن أهم ما فعله عبد الملك انه جعل العربية اللغة الرسمية في الدولة وكانت اليونانية لا تزال تستعمل في القسم الغربي من الدولة كما كانت الفارسية في القسم الشرقي . فاضطر الموظفون لمعرفة العربية ولتسيير اعمال الدواوين بها كما ان النقود سكت بالعربية . وكانت الدولة حتى ٦٩٣ تستعمل نقوداً فارسية وبيزنطية تسكها بنفسها أو تستوردها . وكذلك نظم عبد الملك البريد وسهل بذلك الاطلاع على شؤون الامبراطورية . وخلفه ابنه الوليد ٧٠٥-٧١٥

فكان عصره من ازهى العصور الاسلامية واشهرها . فقد بلغت الفتوحات ذروتها حيث فتح موسى بن نصير المغرب الاقصى ثم الاندلس عن يد طارق بن زياد في ٧١١ . وفتحت ارمينية والقفقاس ، ووصل قتيبة بن مسلم حدود الصين بعد اجتياز فرغانة والتركستان ، ووصل محمد بن القاسم الى السند . وفي خلافة سليمان بن عبد الملك حاصر العرب القسطنطينية في ٧١٦ ودام الحصار سنة عن يد مسلمة بن عبد الملك . واشتهر في هذه الحرب عبد الله البطال او سيد غازي الذي اعتبره الاتراك بطلاً تركياً وقبره في اسكي شهر (ويقول البعض انه قتل في حوالي ٧٤٠ في آسية الصغرى) . وكان خصم مسلمة في الحصار الامبراطور ليون الايزوري (٧١٧ — ٧٤٠) واصله من سورية من منطقة مرعش وقيل انه كان يعرف العربية . واتى الخليفة عمر بن عبد العزيز فأمر برفع الحصار . وكان الجراجمة أو المردة في جبال الامانوس يساعدون البيزنطيين ثم نزلوا الى سورية واندمج قسم منهم بالموارنة . وقد امر عمر بن عبد العزيز (توفي ٧٢٠) بعدم جباية اية ضريبة من الذين يدخلون الاسلام سوى الزكاة وكان الحجاج قد اجبرهم على دفع الجزية واعادهم الى قراهم لان الموالي اتوا الى المدن بكثرة وارادوا دخول الجيش . على ان خلفاء عمر بن عبد العزيز عادوا الى جباية الضرائب من الموالي الذين كثر عددهم في المدن وزادت نقمتهم على الدولة . وفي عهد يزيد الثاني بن عبد الملك (م ٧٢٤) اشتد النزاع بين القيسية او المضرية واليمنية وثار البربر . واتى هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣) وبلغت الدولة في عهده اقصى حدودها على ان علائم الضعف بدأت وثار زيد بن علي حفيد الحسين فقتل وكذلك قتل ابنه يحيى في عهد الوليد الثاني ومنذ ذلك العهد لبس ابو مسلم الخراساني السواد . وجعل الخليفة هشام نصر بن سيار حاكماً على خراسان . واشتهر هشام بنشاطه وادارته المالية وحياده بالنسبة للاحزاب المتطاحنة . غير ان تاريخ الخلفاء الاربعة الاخيرين (٧٤٣- ٧٤٩) هو تاريخ انهيار الحكم الاموي . فقد قتل الوليد الثاني بن يزيد في ٧٤٤ بعد ان جعل ولاية العهد لابنيه الاثنين . واتى مكانه الذي تآمر على قتله وهو يزيد الثالث

ابن الوليد الاول واعتمد على اليمنيين ولكنه توفي في نفس السنة ٧٤٤ وخلفه اخوه ابراهيم ثم تنازل بعد شهرين لمروان الثاني الذي حكم حتى ٧٤٩ وكان آخر خلفاء بني امية . واخذ ولاة المناطق البعيدة يتصرفون كامراء مستقلين في الشرق والغرب في هذه الفترة . ونقم الكلبيون (اليمنيون) لاعتماد مروان على القيسية واضطر الخليفة ان يحارب في جبهات متعددة وجعل عاصمته حران . وقد نجح في سحق الثورة في سورية وكانت سورية حصن السلالة فدمه، ثم حارب الخوارج في العراق وانتصر عليهم . غير ان الحركة العباسية كانت قد ابتدأت في خراسان واعلنت الثورة في مرو في ١٥ حزيران ٧٤٧ بقيادة ابي مسلم وتمكن قواده من دخول الكوفة في ايلول ٧٤٩ واعلنت فيها خلافة ابي العباس المعروف بالسفاح في ٢٨ تشرين الثاني ٧٤٩ . وكسر جيش مروان في معركة الزاب الاكبر في اوائل ٧٥٠ واستسلمت دمشق في نيسان وهرب مروان الى مصر حيث قتل في شهر آب ٧٥٠ . وانتقل مركز الحكم الى العراق وبدأت السيادة تنتقل الى عناصر غير عربية واصبح الاعتماد على جيش دائم معظم افراده من غير العرب بينما كان الاعتماد قبلاً على قوات عربية مأخوذة من القبائل. واخذت الحواجز بين العرب والشعوب المغلوبة تزول ولكن في كل ذلك بقيت ديانة العرب ولغتهم وحضارتهم سائدة واتسع انتشارها في مختلف جهات الامبراطورية .

انقلبت الخلافة الى ملك في عهد الامويين وتشعبت شؤون الدولة وتعقدت وكان لا بد من تشعب المناصب وتعددها ايضاً . وقد احدث معاوية وظيفة الحاجب واشار عليه باحداثها زياد بن ابيه . وكان الحاجب ينظم مقابلة المراجعين للخليفة ويرتب الناس في الدخول عليه. وتطور منصب الحاجب واختلف مقامه بحسب الدول فيما بعد . واتخذ الخلفاء ايضاً اناساً يعتمدون عليهم في تسيير الادارة ويستشيرونهم في المشكلات ولكنهم لم يطلقوا عليهم اسم وزير وانما لقب كاتب أو مشير ويظل امر الوزارة غير رسمي حتى زمن العباسيين . وتنوعت اشكال الولاية تبعاً للضرورة فكان هناك ما سمي بالامارة العامة حيث امور الولاية كلها منوطة

بالامير او الوالي الذي يرتبط بالخليفة ، والامارة الخاصة حيث تقتصر سلطة الوالي على بعض امور الولاية . والامارة العامة كانت على نوعين اما امارة الاستكفاء او التفويض ويعقدها الخليفة لمن اراد من رجاله وقد تولاها الحجاج فى العراق او امارة الاستيلاء حيث يضطر الخليفة الى تولية الوالي على اقليم بعد استيلائه عليه بالقوة . وكانت الولاية لا تسند قبل عهد يزيد الثاني الا لمن اشتهر بالخبرة والحنكة في الادارة ولكن الولاة اصبحوا يعينون فيما بعد لتقربهم من الخليفة حتى انهم كانوا يتركون مراكز اعمالهم ويقيمون في العاصمة ويعينون وكلاء عنهم . وأما بشأن الدواوين فقد تعددت في عهد الدولة الاموية وكان اشهرها ديوان الخاتم الذي انشأه معاوية ليمنع التزوير الذي كان يطرأ على بعض رسائل الخليفة ، وديوان الرسائل ويشرف رئيسه على الولايات والرسائل التي ترد منها وتصدر اليها ، وديوان المستغلات او الايرادات المتفرقة غير ديوان الخراج، ثم ديوانا الخراج والجند اللذان احدثهما الخليفة عمر . وقد انتقلت هذه الدواوين في بلاد الشام ومصر والعراق الى العربية وكان لتعريبها اثر كبير من الناحية السياسية والادبية . ذلك ان الدواوين استغنت عن الكتاب الاجانب وتقلص نفوذ اهل الذمة والمسلمين من غير العرب بعد ان انتقلت اكثر مناصبهم الى ايدي المسلمين العرب . واصبحت اللغة العربية لغة التدوين فنقلت اليها المصطلحات الفارسية والرومية وظهرت طبقة جديدة من الكتاب . وبدأ معاوية باتخاذ نظام البريد ولم ينظم الا في عهد عبدالملك بن مروان واصبح ذا شأن في ادارة امور الدولة وصار له ديوان خاص في ايام الدولة العباسية . وكذلك اوجدت الحسبة على ما يظهر في زمن الامويين وهي من متممات القضاء . وكان المحتسب ينظر في امور مختلفة بعضها من اعمال القاضي والبعض الآخر من اعمال البلديات اليوم . والشرطة كانت ايضاً تابعة للقضاء في أول أمرها ولم تتميز عنه الا في عهد الامويين حين اصبحت مهمتها مساعدة القاضي في اثبات الذنب على من ارتكبه وتنفيذ الاحكام بعد صدورها .

وقد تطورت الطبقات في عهد الامويين عما كانت عليه في عهد الراشدين وذلك

لان الامويين تعصبوا للعرب ونتج عن ذلك انقسام الطبقات انقساماً واضحاً الى عرب وموالي. ومن جهة اخرى فان العصبية القبلية التي تحولت في عهد الراشدين الى عصبية عربية اسلامية قد عادت الى الظهور في العهد الاموي من جديد واصبح العرب ينقسمون حسب انسابهم الى قيسيين ويمنيين والى امويين يؤيدون البيت المالك وهاشميين ناقمين على الحكم. وهكذا فان العصر الاموي اصبح من جديد عصر عصبية : فهنالك عصبية بني امية على بني هاشم ، وعصبية قريش على سائر العرب ، وعصبية القيسيين على اليمنيين وخاصة عصبية العرب على العجم. والهيئة الاجتماعية عموماً كانت في حالة انتقال في هذا العصر بين تقسيماتها القديمة وبين الاشكال التي تكيفت فيها عند نضوج التمدن الاسلامي في العصر العباسي. وكان الموالي عموماً دون العرب في المنزلة الاجتماعية وينتسبون الى اجناس مختلفة اهمها الفرس وبعضهم كانوا من اصل رفيع فضلاً عن انهم من امة لها حضارة وتاريخ. وقد شعر العرب بفضلهم على سائر الشعوب المسلمة لانهم حملة الدين القويم ولانهم نقلوا الموالي من الكفر الى الايمان واعتقوهم من الاسر وهزموا دولتي الفرس والروم واصبحوا اصحاب السيادة. والحكم الاموي كان مؤسساً على هذا الشعور بفضل العرب حتى ان العرب كانوا لايشتغلون الا بالحرب والسياسة والادارة وتركوا سائر الصناعات للموالي واهل الذمة. وادت العصبية العربية في العصر الاموي الى التفريق في المعاملة بين العرب والموالي حتى ان الدولة لم تفرض العطاء للموالي المحاربين ولم تسمح لهم بركوب الخيل اثناء القتال. وكان العربي لا يرضى ان يزوج ابنته من مولى ، ولا ينادي المولى بالكنية. واحتقر العرب المولدين ، وسموا ابن العربي من الأمة « الهجين ». غير ان النظر الى الموالي على هذا الشكل كان منتشراً بين الولاة واشراف القبائل والبدو فقط ، بينما كان نظر المساواة سائداً في الأوساط العلمية والدينية ، لأن بعض الموالي كانوا من سادة التابعين المشهورين الذين أخذ العرب والموالي على السواء من علمهم. وقد قابل الموالي وخاصة من الفرس هذه العصبية العربية بعصبية مثلها ، وأخذهم العجب كيف يحكمهم العرب ، وافتخروا

بحضارتهم وبمجدهم التالد . ولكن كان بينهم من دخل الاسلام في أعماق نفوسهم واعترفوا بنعمة الاسلام وآمنوا بأنه سوى بين الناس ، بينما كان الاستياء من العرب ومن البيت الأموي والحكام خاصة شديداً في أوساط عامة الفرس وأشرافهم حتى انهم سعوا لاسقاط الحكم الأموي . ولقد وقف الأمويون في وجه العصبية الفارسية وصدوا نزعاتها بشدة ، ولذلك قام الموالي يساعدون الدعوة العباسية ، وتأملوا أن يكون لهم النفوذ عندما تنجح الدعوة الجديدة . ولم ينته الصراع بين العرب والموالي بفوز الدعوة العباسية بل قامت الحركة الشعوبية تحارب العرب في العصر العباسي بأشكال شتى .

واستمرت عملية التمازج بين العناصر في العصر الأموي بفعل الاختلاط في السكنى والتسري والدخول في الاسلام ، كما استمر انتشار اللغة العربية وتكاثر العنصر العربي . ومع ذلك فان العملية كانت بطيئة في أول الأمر ، حتى أن اكثرية سورية ومصر العليا كانت لا تزال مسيحية في القرن التاسع ، وكان انتشار اللغة العربية في العراق أسرع منه في سورية حيث التأثيرات الهيلينية كانت أشد وحيث الآرامية بقيت لغة معظم السكان حتى القرن التاسع . وقد أصبحت بلاد فارس مسلمة بصورة تامة تقريباً في القرن العاشر أو الحادي عشر ، بينما العربية لم تنتشر إلا بين قسم صغير من السكان الذين اشتغلوا في العلم أو في الأعمال الرسمية . وفي مصر كان انتشار العربية بين معظم السكان في القرن العاشر . وقد ساعد في انتشار العربية في مصر قدوم القبائل العربية بصورة مستمرة وسكناها في الأرياف ، ووصل قسم من هجرة هذه القبائل حتى السودان . وقد استعرب الأقباط في مصر بدون كثير من الاختلاط .

وأحدث العصر الأموي تغييراً في المناقب والطبائع التي عرف بها العرب من عصبية وشجاعة وكرم ووفاء ونجدة . هذه الطبائع لم يكن قد أصابها تغيير كبير في عهد الراشدين إلا ما أتى به الدين من توحيد العرب تحت لوائه وإضعاف العصبية القبلية . غير ان الاحوال اختلفت في زمن الأمويين ، فاتسعت الحزبية ،

وعادت العصبية الى الظهور ، وسعى الأمويون لتوطيد سلطانهم بشتى الوسائل والتغلب على المناوئين والثائرين ، وتكيفت الطبائع بموجب هذه السياسة ، فاستخدم الكرم لجمع الأحزاب واستجلاب الناس ، وأصبح الوفاء عثرةً في طريق أغراضهم، ولذلك لجأوا الى الفتك والغدر حيناً والى الحلم والدهاء احياناً ، وقاوموا استقلال الرأي وحرية القول . ولكن النجدة والأريحية بقيتا متأصلتين في نفوس العرب .

وتطورت أساليب المعيشة في الطعام واللباس والسكنى ، وكانت اهم العوامل في هذا التطور اختلاط العرب بسائر الأمم المتحضرة واكتسابهم الكثير من عاداتها ، وتكاثر الأموال في ايدي الناس وخاصة ثروة طبقات الخاصة . وبعد ان كان طعام العرب قبل الاسلام بسيطاً يقتصر على الألبان والتمر والحبوب واللحوم يأكلونها على ابسط أحوالها ، فان الأمويين مالوا الى التنعم وقلدوا الفرس في الطعام وأكلوا السكباج والفالوذج واللوزينج . ومع ذلك فان البداوة كانت تتغلب عليهم أحياناً . وكان لباس العرب في الجاهلية بسيطاً ، وظل كذلك في ايام الراشدين . وأول من اتخذ زي الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ ان كان اميراً على الشام . واحب المسلمون الوشي ولبسوا الحرير على انواعه ، واخذ العرب يتنعمون بالرياش والمجوهرات ، وتطور اثاث منازلهم بعد ان تحولت معسكراتهم الى مدن عامرة ، وبنوا القصور والمنازل في المدن القديمة . واول من اتخذ السرير في الاسلام معاوية ، واسرف الأمويون في اقتناء العقود من الجوهر والستائر المطرزة ، وجلسوا في القصور ونصبوا فيها الأسرة والكراسي ، وافترشوا الطنافس والوسائد ، ووضعت قواعد خاصة لمجالسة الخلفاء وتنوعت مجالسهم فكان بعضها لشؤون الدولة وبعضها للأدب والشعر ، وبعضها للاطلاع على اخبار الدول واعمال ملوكها وقوادها . وكان من نتيجة وصول الأموال والثروات الى الحجاز ازدياد الترف ونشوء الموسيقى والغناء وابتياع اغنياء المكيين مغنيات من الفرس والروم بأثمان ضخمة . واتت فنون الغناء بمساعدة الآلات الموسيقية من فارس . وكان بلاط دمشق في

العصر الأموي يأتي بالمغنين والمغنيات من مدن الحجاز . وأثر ظهور المغنيات على وضع المرأة . وكان وضعها ممتازاً وروح الفروسية لم تسمح بمعاملتها السيئة وقانون الحرب منع قتل النساء . ويجب ان نذكر مع كل ذلك ان الحياة في صدر الاسلام وحتى نهاية العصر الأموي كانت اكثر سذاجة واقل تكلفاً من العصور التي تلت لأن العصر الأموي مع حياة الترف التي ظهرت فيه كان يسيطر عليه العنصر العربي الذي كان يفضل البساطة وعدم التكلف . فقد كان يقتبس بعض عناصر الترف من الأمم الأخرى ويعدلها بما يوافق ذوقه . والذوق العربي كان لا يزال واضحاً في العهد الأموي والعلاقة بين دمشق والحجاز لا تزال متينة .

وكان من نتائج الفتوحات الاسلامية ان تجارة البحر المتوسط تأثرت بسبب انقسام بلاده الى سواحل شمالية بيد غير المسلمين وسواحل جنوبيـة وشرقية في حوزة المسلمين . وقد نقص تدفق البضائع من الشرق الى الغرب بالرغم من متاجرة بعض مدن جنوبي ايطاليا مع السواحل الجنوبية . ومع انه حصل انحطاط اقتصادي نسبي بسبب هذا العامل فانه لا يجوز القول ان ازدهار بعض البلاد مثل سورية قد قضت عليه الفتوحات . على ان بدء الانحطاط يحصل عندما ينتقل مركز الثقل من شرقي البحر المتوسط الى العراق وفارس في العهد العباسي .

كان العصر الأموي عصر اقتباس وتمثيل ، وكانت الشعوب المغلوبة المتقدمة في العلوم والفنون المفيـدة والصناعات قد استسلمت الى الجمود ولم تعد لها قوة على التقدم بنفسها ، فعمل احتكاكها بالعرب على ايقاظ حياة جديدة فيها ، واتت باختبارات وتقاليد حضارتها ، كما استخدم افرادها في التجارة والصناعة وسائر المعارف والفنون كبنائين ومهندسين ومختصين بالري ومعلمين وكتاب واطباء ومستشارين . ولا نعلم الكثير عن الحركة العلمية في العصر الأموي ، لأن الاضطرابات السياسية فيما بعد قضت على جانب من هذه المعلومات . ولا ندري كيف بدأت دراسة العلوم الطبيعية والدراسات التاريخية ، وانما نعلم بعض اسماء الرواد مثل خالد بن يزيد (توفي ٧٠٤ م) المعروف بحكيم بني مروان ، وهو اول من عمل على ترجمة كتب

يونانية وقبطية في الكيمياء والطب والفلك ، ودرس الكيمياء وكتب عنها . وكان الطب العلمي من اصول يونانية او فارسية . وبعد ان اشتهر الحارث بن كلدة في زمن الراشدين وكان يسمى « حكيم العرب » وقد درس في فارس عرف العصر الأموي ابن أثال طبيب معاوية ، وتياذوق (١) طبيب الحجاج ، وماسرجويه الفارسي الأصل الذي ترجم لمروان بن الحكم رسالة طبية سريانية كتبها كاهن في الاسكندرية اسمه أهرون . ويروي ابن ابي أصيبعة في طبقات الأطباء ان عمر بن عبد العزيز نقل مدارس الطب من الاسكندرية الى انطاكية وحران .

اصبحت المدن الجديدة ومنها البصرة والكوفة خاصة مراكز فكرية هامة في الاسلام وكان نموها سريعاً حتى أن عدد سكان البصرة قدر بنحو ثلاثمائة الف نفس في اواخر القرن السابع . وكانت الحرية السياسية والفكرية فيها متوفرة . وفي البصرة جرت دراسة اللغة العربية بصورة علمية بسبب الاحتكاك بالفارسية واختلاف العامية عن النحوية بتأثير اللغات الأخرى المتداولة ، بينما في المدن القديمة مثل مكة والمدينة كانت تقاليد العربية راسخة . وقد تبين بعد جمع القرآن ان الكتابة لا يمكن ضبط قراءتها بسهولة ولذلك وجب اصلاح الكتابة بادخال الشكل والاعجام كما وجب ايجاد علم النحو . وكان الشعور بهذه الضرورة خاصة في المناطق الفارسية وذلك لأجل دراسة القرآن والدخول في الوظائف واتقان اللغة . والمحاولات الاولى للاصلاح وللدراسة اللغوية جرت في مدن الحدود العراقية . على أن الفرس بالرغم من فضلهم وابحاثهم في هذه المواضيع فانه لم يكن بالامكان عملها بدون مساعدة العرب . وتطلب تفسير القرآن دراسة مبناه النحوي ومفرداته

---

(١) من اليونانية Theodocus وليس ضرورياً أن يكون يوناني الجنسية طالما أن كثيرين من سكان شرق البحر المتوسط كانوا يتسمون بأسماء يونانية أو محرفة عنها بدون أن يكونوا من اليونان .

فظهر علم فقه اللغة والمعاجم . وكان أشهر علماء اللغة في هذا العصر ابو الاسود الدؤلي (م ٦٨٨) من البصرة وتبعه الخليل بن أحمد البصري (م ٧٨٦) وقد ألف معجماً سماه « كتاب العين » وينسبون اليه علم العروض . ووضع تلميذه سيبويه أول كتاب منظم في النحو . وقد عاش الاثنان في أوائل العصر العباسي . وساهم الكوفيون في علوم اللغة وأدت المنافسة بين علماء المدينتين الى ظهور مدرستي الكوفة والبصرة في اللغة والأدب. وقد اثر الاسلام في الشعر وحد من أغراضه لأنه كان القوة المعنوية وراء المثل العليا الوثنية التي اتى الاسلام للقضاء عليها . واتخذ علماء الدين والمسلمون الاولون موقفاً خاصاً من الشعر ولذلك لم تظهر القصائد في وصف الحركة الاسلامية والفتوحات الا ما كان من قصيدة كعب بن زهير . على ان الشعر عاد الى الظهور في شكله وتقاليده القديمة مع بعض التأثر في روحه بالدين الجديد . ولجأ الشعراء الى بلاط الامويين والامراء والقوا قصائدهم ولم يكونوا بأقل من شعراء الجاهلية في اسلوبهم وصناعتهم الشعرية وأشهرهم جرير شاعر الحجاج ، والاخطل المدافع عن بني أمية ، والفرزدق شاعر عبدالملك بن مروان وابنائه . وقد قاموا بمديحهم ودعايتهم للعصر الاموي مقام الصحافة الحزبية اليوم . وبدأ الشعراء يتحررون من الشكل القديم في جو مكة اللطيف الرفيع وأخذت القصيدة تتلاشى في نهاية العصر الاموي كأداة حية للتفكير الشعري حتى قيل عن « ذي الرمة » انه آخر الشعراء . وظهر الشعر الغزلي وأصله من النسيب او المقدمة الغرامية في القصائد القديمة . وأهم ممثل للشعر الجديد عمر بن أبي ربيعة (م ٧٢٠) الذي سماه بعض الكتاب « اوفيد » بلاد العرب والشرق . واشعاره كتبت بلغة بسيطة وفيها رقة وحرية . وتطورت عناصر أخرى من القصيدة فأصبحت أغاني صيد وسمر . وكان من الشعراء أيضاً الوليد الثاني المشهور بخمرياته حسب اسلوب الحيرة ، وجميل من بني عذرة الذي يمثل الشعر البريء المعروف بالعذري وقد وجهه الى بثينة ، وقيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى ويمثل الشعر الغنائي ، ومسكين الدارمي ويمثل الشعر السياسي . وقام حماد الراوية (٧١٣ – ٧٧٢)

فجمع أشعار ما قبل الاسلام ومنها المعلقات وقد ولد في الكوفة من أصل ديلمي. وكان للخطابة أهمية خاصة في هذا العصر ومن أشهر الخطباء الحجاج بن يوسف وزياد بن أبيه كما ان هنالك خطب الامام علي الاخلاقية ومواعظ الحسن البصري. واشتهر في المراسلات السياسية عبد الحميد الكاتب (م ٧٥٠) وهو كاتب آخر خليفة أموي وقد أدخلت الاساليب المزخرفة وقواعد الانشاء في هذا العصر. أما في الكلام الحكمي فقد اشتهر الاحنف بن قيس (توفي بعد ٦٨٧) . ودراسة التاريخ كان من أسبابها الدراسة اللغوية لان هذه تطلبت ابحاثاً عن تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام وانساب القبائل وظهرت بذلك روايات عن تاريخ العرب القديم. كذلك أدى الاهتمام بدراسة الحديث والسير وأخبار المغازي الى كتابة التاريخ. وكان من أقدم القصاصين عبيد بن شريه وهو من أصل يمني والف لمعاوية « كتاب الملوك واخبار الماضين ». واهتم وهب بن منبه (م ٧٢٨) بعلم الاوائل اي التاريخ ومثله كعب الاحبار (توفي ٦٥٢ في حمص) وأصله من يهود اليمن واعتنق الاسلام في أول خلافة الراشدين. وفي ناحية التربية كان العرب يرسلون أبناءهم الى البادية لتعلم اللغة الصحيحة والشعر. وكان الرجل الكامل من يتعلم القراءة والكتابة والرمي والسباحة ومن يتصف بالصبر والمروءة والكرم. وظهر المؤدب بعد عهد عبد الملك بن مروان. واول المعلمين في الاسلام القراء. ومن الذين كانت لهم مدرسة ابتدائية في الكوفة الضحاك بن مزاحم.

وكانت دراسة القرآن والحديث اساساً لظهور علم الفقه وأصبحت المدينة أول مركز لهذه الدراسة وكان من اشهر رجالها أنس بن مالك (توفي نحو ٧٠٩) وعبد الله بن عمر بن الخطاب (م ٦٩٣) . اما مدرسة مكة فقد اشتهرت بوجود عبد الله بن العباس (م نحو ٦٨٨) وكان عالماً في الفقه والتفسير حتى سمي « حبر الامة » . وكان من علماء الفقه المعروفين أيضاً حسن البصري (م ٧٢٨) وابي شهاب الزهري (م ٧٤٢). وكان الحسن البصري من رواة الاحاديث وله مكانة خاصة ليس بين السنيين فقط وانما بين الصوفيين والمعتزلة. ومن علماء الحديث الذين سكنوا الكوفة

في عهد الراشدين عبد الله بن مسعود (م ٦٥٣ تقريباً) ومثله عامر بن شرحبيل الشعبي (م نحو ٧٢٨) وكان يروي الاحاديث من ذاكرته وأشهر تلاميذه أبو حنيفة . وفي العصر الاموي تزداد الابحاث الدينية وتتخذ شكل مناقشات علمية بين المذاهب الجديدة المتنافسة التي كان بعضها من أصل سياسي ديني بسبب النزاع على الخلافة مثل الخوارج والشيعة وبعضها من أصل ديني فلسفي مثل المرجئة والمعتزلة. وكانت المعتزلة التي تعتقد بالقدرية او حرية الارادة اقدم مدرسة فلسفية في الاسلام وقد تسمى افرادها « اهل التوحيد والعدل » ويرجع تأسيس مدرستهم الى واصل بن عطا (م٧٤٨) في البصرة . وكان الخوارج اصحاب أول مذهب ديني سياسي ومن رجالهم المعروفين ابن اباض في النصف الثاني للقرن الاول الهجري ومن مبادئهم المحافظة على الاسس الديموقراطية الاولى في الاسلام وعدم تخصيص الخلافة بقريش. ولا بد ان الفلسفات والمذاهب الاخرى المعاصرة كان لها بعض التأثير على هذه الحركات والتعاليم الجديدة التي استمرت في العصر العباسي[1] .

كان العرب شديدي التأثر بالمظاهر الفنية والجميلة وقد اعجبوا بما رأوه من فنون البلاد التي افتتحوها فتأثروا بأساليبها ولكنهم لم يلبثوا ان اوجدوا فناً مبتكراً يوافق حاجاتهم ويعرف بالفن الاسلامي . ومن أهم ما اشتهر به الفن الاسلامي العمارة او البناء وخاصة العمارة الدينية. فالمسجد هو سجل هام من سجلات تاريخ تطور الحضارة الاسلامية وكان مسجد النبي في المدينة نموذجاً لسائر المساجد . وأخذت تضاف أجزاء متممة الى المسجد منها المنبر والمحراب . وتنوعت تفاصيل أسلوب البناء فنشأت مدارس فنية حسب التقاليد المحلية . وبنيت المساجد الاولى في البصرة والكوفة ثم الفسطاط في عام ٦٤٢ وجامع عقبة (٦٧٠ — ٦٧٥) في

---

(١) راجع بشأن هذه المذاهب والمدارس كتاب الشهرستاني «الملل والنحل» مصر ١٣٤٧ هـ وابن حزم « الفصل في الملل والاهواء والنحل » مصر ١٣٤٧ هـ.

I. Goldziher : Le dogme et la loi de l'Islam. Paris 1920.

القيروان . وفي عهد معاوية احدثت المقصورة ثم اضيفت المأذنة وبنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة في ٦٩١ وكانت مكسوة بالرخام والفسيفساء وكذلك بني المسجد الاقصى على انقاض كنيسة بزنطية كان كسرى قد هدمها وبدأ الوليد بن عبد الملك بناء المسجد الاموي في دمشق ٧٠٥ وبعض المآذن بنيت على انقاض ابراج الكنيسة التي كانت قبلاً . وظهر المحراب في هذا المسجد لاول مرة . وقد ذهبت آثار قصر الخضراء الذي بناه معاوية في دمشق ، كما ذهبت القبة الخضراء التي شادها الحجاج في واسط ، لأن العباسيين لم يتركوا شيئاً من بقايا الأمويين. ويمكن مشاهدة أهم آثار القصور الأموية في البادية المحيطة بسورية والأردن والعراق . فهناك قصر الأخيضر قرب عين التمر وكربلاء على طرف البادية الشرقي وقد يكون من نهاية العصر الأموي . وفي طرف البادية الغربي في البلقاء بنى يزيد بن عبد الملك او رمم قصر الموقر . وكانت بعض القصور حصوناً رومانية على حدود البادية فأصلحت أو بُنيت من جديد بموجب أساليب يونانية سورية او عراقية فارسية وينسب الى الوليد الثاني بناء قصر المشتى . وهنالك خربة المفجر وقصير عمرة الواقع في شرقي الطرف الشمالي للبحر الميت وقد بناه الوليد بن الملك نحو ٧١٥ كما يظن . وهنالك قصر الحير الغربي، وقصر الحير الشرقي من عهد الخليفة هشام ، وقد رمم جانب من قصر الحير الغربي مع زخارفه وأعيد تشييده في متحف دمشق (١) . وفي فلسطين بنى سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة وسكنها وفيها مأذنة الجامع الأبيض . وأقام هشام بن عبد الملك في الرصافة جنوبي الرقة .

وكانت نتيجة كراهية الاسلام لتصوير المخلوقات الحية أن انصرف رجال

---

(١) انظر بشأن هذه القصور : اعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق ، لسليم عادل عبد الحق في مجلة الحوليات الاثرية السورية ج ١ ، ١٩٥١ . زكي محمد حسن : القصور الاموية في بلاد الشام ، مجلة الكتاب م ١ ص ٣٧٤ . دانيال شلومبرجه : قصر الحير الغربي .
D. Baramki : Excavation at Khirbet el-Mifjer. بيروت ، ١٩٤٥ .
Quarterly Dept. of Antiq. Palestine. Vols. VI, VII, VIII.

الفن الى الزخارف النباتية والهندسية . والعرب لم يهتموا بالتصوير عموماً كما يتضح من آثارهم في الجزيرة العربية . غير أن لوحات قصير عمرة تحوي بعض الرسوم ، وفيها اشكال بشرية على الجدران تمثل الخليفة وخصمه رودريك ومشاهد صيد وموسيقى . أما في الموسيقى فقد عرف عرب الجاهلية من الأدوات الموسيقية الدف والقصبة والزمر والمزهر ، وعرف اللخميون في الحيرة العود الفارسي ، وقد دخل الى الحجاز ، ويقال ان الذي أدخله هو النضر بن الحارث بن كلدة ، وآخرون ينسبونه الى ابن سريج (م ٧٢٦) وانه رآه مع الفرس الذين أتى بهم عبد الله بن الزبير لبناء الكعبة . وكذلك أخذ العرب فيما بعد الناي عن الفرس ، واستعملوا البوق والطبل والصنوج . وزار حنين الحيري الحجاز وكان أهم مغن في العراق ، وكانت مدن الحجاز من أهم مراكز الغناء والموسيقى في هذا العصر . وأصبح التوفيق بين الصوت والآلة وبين الايقاع واللحن معروفاً في الحجاز ، وظهر جماعة من المحترفين وعرفوا باسم « المخنثين » ومنهم طويس (م ٧١٠) من المدينة وكان يغني مع الايقاع على الدف ، ومن تلاميذه ابن سريج — وهو مولى من أصل تركي . وكان يزيد الأول بن معاوية موسيقياً ، وأدخل الغناء والآلات الموسيقية الى بلاط دمشق ، واستخدم عبد الملك ابن مسجح من مدرسة الحجاز ، وقد وضع الأغاني الفارسية والبيزنطية بالعربية . واشتهر ابن محرز صناج العرب . بينما دعا الوليد ابن سريج ومعبد ، وأتى يزيد الثاني بحبابة وسلامة ، وقد سبقتهما من القيان جميلة (م ٧٢٠) فكانتا من تلميذاتها . والوليد الثاني كان موسيقياً وأتى بعدد من المغنين ومنهم معبد[١] . وقد ذكر العباسيون في انتقادهم للأمويين ولعهم بالموسيقى ، كما أن رجال الدين هاجموا الموسيقى وأعلنوا معارضتهم لانتشارها .

---

(١) انظر بشأن الغناء وسائر أنواع اللهو في القصور كتاب « دراسة الاغاني » تأليف شفيق جبري ، دمشق ، ١٩٥١ ، ص ٢٢١ — ٢٣٦ .

وخلاصة القول بشأن العصر الأموي وحضارته أن المؤرخين الذين يزعمون أن الروح العربية والصفة العربيـة للدولة ذهبت بذهاب الأمويين ، وينسبون للعباسيين صبغ العالم الاسلامي بالصبغة الايرانية ، انما يخطئون في زعمهم . فسلالة الخلفاء بقيت سلالةً عربية ، وحكام المقاطعات وقواد الجيش ظلوا عرباً لمدة قرن كامل . أما اتخاذ الاسلام صبغة دولية بمعنى أن العرب لم يعودوا العنصر الوحيد في تنظيم الدولة وتطور الحضارة ، فهذا بدأ بصورة نظرية في عهد عمر بن عبدالعزيز الذي جعل الموالي على قدم المساواة مع العرب . والفضل يرجع للأمويين في ربط العناصر التي تألفت منها الحضارة تحت تأثير عربي وفي اعطاء هذه الحضارة المركبة شكلاً عربياً . وعمل التأسيس وزرع البذور التي أينعت في العصر العباسي يرجع الى العصر الأموي . وقد اتصفت الحضارة العربية في هـذا العصر بوجود عالمين جنباً الى جنب ، كما يحصل في جميع مراحل الانتقال فقد كانت العادات والعقلية البدوية وأشعار الفرزدق وجرير والأخطل أموراً حيـة عندما كانت الأفكار الهلنستية والتأثيرات الدينية في البلاد المفتوحة تعمل عملها في حياة العرب الفكرية والاجتماعية ، وعندما كان المحدثون والمؤرخون وعلماء الفقه يتطلعون باهتمام الى المآثر الأدبية التي أنتجتها روح البادية في فترة انقضى عهدها . والنظام الاداري في العصر العباسي نفسه قد وضعت خطوطه الرئيسية في زمن الأمويين على أساس التقاليد البيزنطية والساسانية ، وفضل يحيى بن برمك هو أقل ممـا نسب اليه . والذي عمله العباسيون من توحيد فكري ومعنوي للعالم الاسلامي كان قد بدأ في العصر الأموي . أما تحويل تلك الامبراطورية العربية الى وحدة متجانسة متماسكة فهذا مما لم يفعله الأمويون ولا العباسيون ، لأن القوة اللازمة لذلك كانت مفقودةً عند الطرفين (١) .

---

(١) انظر مقال ديلافيدا Della Vida عن « الامويين » في دائرة المعارف الاسلامية وتاريخ العرب لفيليب حتي (الطبعة الانكليزية الخامسة ١٩٥١) ص ٢٨٦ .

ومن جهة اخرى فان سيادة سورية قد زالت بزوال الحكم الاموي وانتقل مركز الثقل في الاسلام شرقاً وشعر الموالي انهم تحرروا وشكل الخراسانيون حرس الخليفة. اما العباسيون فانهم راحوا ينتقمون من الامويين حتى من الاموات. فبعد ان غدر عبدالله بن علي بثمانين من البيت الاموي في مأدبة دعاهم اليها في ابي فطرس قرب يافا اخذ يعتدي على قبور الخلفاء وبقاياهم اينما وجدها فيما سوى ضريح الخليفة عمر بن عبد العزيز.

__ادوار العصر العباسي ومميزاتها__: شهدت الخلافة العباسية اطول حكم بين الدول الاسلامية وسلالاتها. فقد حكم خلفاؤها وعددهم سبعة وثلاثون خمسة قرون (٧٥٠ — ١٢٥٨ م او ١٣٢ — ٦٥٦ هـ) ولكنهم في كثير من الاحيان كانوا يملكون فقط ولا يحكمون. ووصلت السلطة الاسلامية ذروتها وبلغت الدولة اوجها بعد تأسيس الخلافة بمدة قصيرة ولكنها بعد قليل اخذت تنحدر كما حصل لكثير من الدول الاسلامية الاخرى.

واراد الخليفة الاول ان يجعل للدولة شكلاً دينياً بدلاً من الملك الذي أسسه الامويون ولكن الخلافة العباسية اهتمت ايضاً بالامور الدنيوية وكان اختلافها الاساسي عن خلافة الامويين انها بدلاً من ان تكون عربية تماماً كانت دولية. كذلك لاول مرة في تاريخ الخلافة لم تضم جميع البلاد الاسلامية وذلك ان اسبانيا وافريقية لم تعترف بالخلافة العباسية واسس عبد الرحمن الاموي دولة مستقلة في الاندلس بينما افريقية خضعت بعد عشر سنوات عن يد محمد بن الاشعث الذي احتل القيروان في ٧٦١ ولكنها منذ عام ٨٠٠ تصبح فعلاً مستقلة. وكانت الاضطرابات كثيرة في عهد الخليفة الاول ابي العباس السفاح (٧٥٠ — ٧٥٤) وخاصة في سورية كما ان العلويين الذين ظنوا ان الخلافة ستؤول اليهم نقموا. ولم يثق ابو العباس بالكوفيين ولذلك قصد الحيرة ثم بنى الهاشمية بجوار الانبار. وتقسم الخلافة العباسية الى أربعة ادوار هي ١) دور القوة ويسميه البعض دور النفوذ الفارسي ٧٥٠-٨٤٧

حتى نهاية خلافة الواثق ٢) دور النفوذ التركي ٨٤٧ - ٩٤٦ ويدوم أيضاً قرناً كاملاً من خلافة المتوكل حتى نهاية المستكفي ٣) الدور البويهي ٩٤٦ - ١٠٥٥ من خلافة المطيع حتى أواسط خلافة المقتدي ٤) الدور السلجوقي والمغولي ١٠٥٥ - ١٢٥٨ وينتهي بخلافة المستعصم وسقوط بغداد في يد المغول . ومنذ نهاية الدور الاول وحتى قبلها تقوم دول مختلفة مستقلة عن مركز الخلافة منها عربية ومنها فارسية وتركية وكردية .

كان المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥) المؤسس الحقيقي للدولة . وفي عهده قتل ابو مسلم الخراساني وقضي على حركة الراوندية وهم من متطرفي الفرس الذين أرادوا اعطاء الخليفة صفة الهية ، واخمدت ثورة الشيعة بقيادة ابراهيم وأخيه محمد نفس الذكية فقتل الاثنان وكذلك اخمدت حركة سنباد المجوسي وغايتها الانتقام لابي مسلم في خراسان . وغزا قواد المنصور حتى كشمير كما ان الحروب ضدالبيزنطيين استأنفت ورممت ثغور ملاطية والمصيصة في(كيليكيا) وضمت طبرستان التي كان فيها بقايا اسرة حاكمة مستقلة منذ العهد الساساني . وفي عام ٧٦٢ بدأ بناء بغداد وكانت قرية ساسانية (معنى اسمها المعطاة من الله) واختارها المنصور لانها كانت معسكراً مناسباً كما أن الدجلة والفرات يوصلانها الى خيرات بلاد الرافدين والشرق الاقصى من جهة وسورية من جهة أخرى . واستخدم في بنائها مائة الف عامل لمدة اربع سنوات من العراق وسورية وغيرها وسماها مدينة السلام وجعل لها ثلاثة أسوار . وكان في وسطها القبة الخضراء وهي قصر الخليفة كما بنى قصر الخلد ايضاً على ضفاف دجلة وفي شماليه قصر الرصافة وأخذ حجارتها من خرائب المدائن وبجانبها كانت خرائب بابل . وبلغ من اهميتها في العصور الوسطى ما لم تبلغه مدينة سوى القسطنطينية . واخذت التأثيرات الفارسية تدخل من الشرق بالتدريج فأثرت في الحكومة والافكار والعادات والالقاب والاغاني والنساء . وظهرت الوزارة في عهد المنصور فكان وزيره خالد بن برمك ، ووالده برمك كان كاهناً رئيسياً في دير بوذي في بلخ واصبح خالد رئيس ديوان الخراج وشغل مناصب مختلفة على أن

ابن خلكان يقول ان اول وزير في الاسلام هو ابو سلمة في عهد ابي العباس السفاح .

توفي المنصور قرب مكة في عام ٧٧٥ وخلفه ابنه المهدي ٧٧٥ — ٧٨٥ وحصلت في زمنه ثورة المقنع في ما وراء النهر. وقد حوصر المقنع في قلعة ثم وانهت الثورة بوفاته . واستمرت الحرب ضد البيزنطيين فاخذ هؤلاء مرعش غير ان حسن بن قحطبة غزا ادرولية Dorylaeum وبنى المهدي مدينة الحدث ثم ارسل ابنه هارون ومرشده يحيى بن خالد الذي عهد اليه بتربيته فانتصر هارون واصبح حاكم الولايات الغربية . وفي حملة اخرى عظيمة وصل هارون الى نيكوميديا وخيم على ضفاف البوسفور فاضطرت الامبراطورة ايريني Irene الى دفع الجزية. وبنتيجة هذه الحملة اعطى المهدي ابنه هارون لقب « الرشيد » . وكان عصر المهدي عصر ازدهار اقتصادي ووقع ملوك الشرق الاقصى في الصين والتبت وامراء الهنود معاهدات مع الخليفة . واتى الهادي بعد المهدي فحكم سنة واحدة حتى ٧٨٦ وقد حاول ان يجعل الخلافة لابنه دون اخيه هارون ولكن يحيى بن خالد بن برمك قاوم ذلك ثم قتل الهادي بمؤامرة دبرتها امه خيزران . وحكم بعده هارون الرشيد ٧٨٦ — ٨٠٩ فجعل وزيره يحيى بن خالد البرمكي وأعطى المناصب الكبرى لابنيه الفضل وجعفر وحكم الثلاثة الامبراطورية حتى ٨٠٣. واهتم يحيى بتحصين الحدود وبتقوية المالية . وقام احد العلويين واسمه يحيى بن عبدالله وادعى الخلافة ولكنه اقتنع اخيراً بان يعيش في بلاط الرشيد وهناك اتهم بالتآمر وسجن والبعض يقول انه هرب بتغاضي جعفر فكان ذلك سبب نقمة الرشيد على البرامكة . وكذلك اتى موسى الكاظم الى بغداد وهناك توفي . اما في مصرع البرامكة فيبدو ان السبب الرئيسي هو اساءة استعمال السلطة مما ادى الى تحريض الخليفة ضدهم فضلاً عن قصة العلاقة بين جعفر والعباسة اخت الرشيد . وقد قتل جعفر في ٨٠٣ وسجن اخوه الفضل ووالدهما يحيى وتوفيا في السجن كما سجن سائر البرامكة واصبح الفضل بن الربيع صاحب النفوذ . وكانت قصور البرامكة في شرقي بغداد حيث

القصر الجعفري بالنسبة الى صاحبه جعفر . وكان كرمهم مضرب المثل كما ان كثيراً من الترع والجوامع والاشغال العامة تمت بجهودهم. واشتهر جعفر بالفصاحة والمقدرة الادبية والخط حتى اعتبر البرامكة من مؤسسي طبقة « اهل القلم ». وقد صودرت ثروتهم المقدرة بنحو مائة مليون ليرة سورية عدا عن الضياع والقصور والاثاث . ومن الطبيعي ان هذه النقمة على البرامكة كانت تعبر عن نقمة العرب على تمادي النفوذ الفارسي . وقد حصلت اضطرابات في خراسان فذهب الرشيد الى مرو واثبت الحاكم علي بن عيسى بن ماهان . وكان يسكن الرشيد احياناً في الرقة . وكان المسلمون يغزون ضد البيزنطيين كل سنة في ايامه وفي عام ٧٩٧ قاد الحملة بنفسه حتى طلبت ايريني البيزنطية الصلح . وكانت وفاة الرشيد في طوس في سن الخامسة والاربعين بينما كان ذاهباً الى خراسان لاخماد ثورة رافع بن الليث في سمرقند . وفي ايامه اصبح ابراهيم بن الاغلب مستقلاً فكان ذلك اول حادث انفصال بشرط دفع الجزية الى الخليفة . وعصر الرشيد وابنه المأمون جعل للخلافة العباسية اهمية خاصة وشهرة في تاريخ الاسلام كله .

وكان هارون الرشيد في الشرق وشارلمان في الغرب في مقدمة ملوك العالم في مطلع القرن التاسع . غير ان هارون كان اقوى فضلاً عن انه يمثل حضارة ارقى. وكانت العلاقات ودية بينها وربما رغب شارلمان في التحالف معه ضد البيزنطيين بينما اراد هارون استخدام شارلمان ضد الامويين في قرطبة[١]. والكتاب الغربيون يذكرون تبادل الهدايا والوفود بينهما واحد هؤلاء ربما كان كاتب شارلمان يذكر عودة الوفود بهدايا منها العطور والمنسوجات والساعة المائية. وقصة ارسال مفاتيح كنيسة القيامة إلى شارلمان بموافقة هارون ليست مؤكدة كما يبدو . والغريب في شأن تبادل هذه الهدايا ان المصادر العربية لاتذكر عنها شيئاً .

---

(١) انظر: Buckler: The diplomatic relations of the early Abbasid and Carolingian houses, في مجلة الجمعية الشرقية الاميركية م ٤٧ (١٩٢٧) ص ٣٦٤ .

ورث الامين ٨٠٩ – ٨١٣ الخلافة عن ابيه الرشيد واراد بتـأثير الفضل بن الربيع أن يحرم المأمون من الخلافة بعده وان يخالف بذلك وصية ابيه . وعندما أمر المأمون بالقدوم إلى بغداد من خراسان رفض والغى اسم أخيه من المعاملات الرسمية وكان مستشاره الفضل بن سهل . وفي المعركة التي حصلت في ٨١١ قرب الري بين جيشي الاخوين كان الفوز لجيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين . واتخذ المأمون لقب خليفة وحوصرت بغداد مدة سنتين وقتل الأمين بعد سقوط بغداد. دامت خلافة المأمون عشرين سنة ٨١٣ – ٨٣٣ وكان في اولها مقيماً في مرو . وقد ثار العلويون فقمعت ثورتهم وانتشرت الفوضى في بغداد مـدة من الزمن ولعبت فيها عناصر الشعب دوراً كبيراً . وعين المأمون وريثاً له علي الرضا بن موسى الكاظم فقام ضده ابراهيم بن المهدي وادعى الخلافة ولكن الناس انفضت من حوله . واخيراً دخل المأمون بغداد في ٨١٩ وعين طاهر بن الحسين حاكماً على خراسان وقام اتباعه يؤسسون سلالة شبه مستقلة هناك . وعفا المأمون عن ابراهيم بن المهدي والفضل بن الربيع . وبعد ان خيم الهدوء على الدولة اهتم بالعلم والادب وبلغت حركة الترجمة اوجها في ايامه واسس بيت الحكمة واعتنق آراء المعتزلة وكذلك فعل خلفاؤه حتى عهد المتوكل . وكان المأمون يوجه الحملات ضد البيزنطيين وينجح فيها حتى طلب الامبراطور تيوفيلوس الصلح . وتوفي المأمون اثناء حملاته إلى الاناضول . وفي عهده ازداد تأثير الفرس وبدأ دخول الاتراك الى البلاط .

كان المعتصم ٨٣٣ – ٨٤٢ قد نجح في اقناع اخيه المأمون بتوليته الخلافة من بعده . ودخل المعتصم بغداد في ٨٣٣ واكثر من شراء العبيد الاتراك وجعـل العاصمة سامراء شمالي بغداد في ٨٣٦ وبقيت هناك حتى ٨٩٢ فتوالى عليهـا ثمانية خلفاء وتعتبر من اعظم بقايا العباسيين . واصبح الخلفاء تحت رحمة جنودهم وحرسهم كما اصبحت الخلافة لعبة في أيدي هذا الحرس التركي منذ عهد الواثق . اهتم المعتصم باخماد ثورة بابك الخرمي في اذربيجان وكانت جماعة بابك من المزدكية وازدادت سلطتهم اثناء الحرب الاهلية بين الأمين والمأمون وانتشرت في مادي (الجبال)

وخراسان واتحد افرادها مع البيزنطيين . وعهد المعتصم الى الافشين بحكم مادي ومحاربة بابك الذي أسر بعد حرب دامت ثلاث سنوات وقتل في سامرا . واستفاد تيوفيلوس الامبراطور البيزنطي من الفتنة فهاجم زبطرة على الحدود واخذ الاسرى فانتقم المعتصم وذهب على رأس جيش وفتح عمورية . واتى الواثق ٨٤٢—٨٤٧ بعد المعتصم فكان محباً للعلم واعتنق آراء المعتزلة بشدة . وثارت بعض القبائل بجوار المدينة فاخمد الثورة القائد التركي بغا . واصبح نفوذ جنود الحرس التركي قوياً كما يتضح من اعطاء الواثق حكومة المقاطعات الغربية للقائد اشناس وحكم المقاطعات الشرقية للقائد ايتاخ . وقد سميت هذه الفترة التي انتهت بخلافة الواثق دور النفوذ الفارسي لما كان للفرس من نفوذ في السياسة والادارة . فالفرس نظموا حكومة هذا الدور وادارو وظائفها وكان منهم الوزراء والحكام واصبح الموالي الفرس شأن كبير . وكان بدأ المنصور بتسليم مقاليد الحكم لكثيرين منهم ثم تكاثروا في البلاط والجيش وبعض الوظائف كانت وراثية . غير ان شأن الفرس اخذ يضعف عندما بدأ نفوذ الاتراك ولكن الموالي احتفظوا بشيء من النفوذ .

بدأ دور النفوذ التركي ٨٤٧—٩٤٦ في خلافة المتوكل ٨٤٧—٨٦١ . وبدأ المتوكل باطلاق سراح المسجونين الذين رفضوا القول بخلق القرآن وانتصرت السنة واضطهد المعتزلة كما اضطهد اليهود والنصارى والشيعة . واستمرت الحرب ضد البيزنطيين فهاجم هؤلاء آمد (ديار بكر) وعادوا بعدد من الاسرى ولكن جيوش الخليفة هاجمتهم في ٨٥٩ وكسرتهم كما ان الاسطول العربي فتح انطالية على ساحل الاناضول الجنوبي . وفي عام ٨٥٥ حصلت ثورة في حمص لاسباب دينية ولكن الثورة اخمدت ونقل عدد من الثائرين الى المنفى . وفي هذه الفترة يصبح يعقوب بن الليث الصفار امير سجستان في ٨٦٠ فيوافق الخليفة على ذلك . ورغب المتوكل في التخلص من الحرس التركي فادخل اثني عشر ألفاً في خدمته معظمهم من العرب ودبر مقتل وصيف وغيره من الاتراك ولكن هؤلاء علموا بالامر وبالاتفاق مع المنتصر ابنه الذي اراد ابوه حرمانه من الخلافة قتلوا الخليفة

فكان المتوكل اول خليفة قتله الاتراك . وحكم المنتصر نصف سنة فكان لعبة بيدهم ومات مسموماً على مايظن . واخذ القواد الاتراك يعينون الخلفاء فعينوا المستعين وحكم اربع سنوات ثم حصلت حرب مع المعتز فاضطر المستعين ان يتنازل ثم قتل في ٨٦٦ . وفي عهد المستعين استولى حسن بن زيد من سلالة الامام علي على طبرستان وحكمها بضع سنوات . ودامت خلافة المعتز ثلاث سنوات واراد التخلص من وصيف وبغا لانهما عاكساه في تولي الخلافة ثم عفا عنهما لانه لم يتمكن من مقاومتها . وعجز المعتز عن دفع رواتب الجند فاعتقل وعذب ومات جوعاً في السجن . وكان هذا الخليفة قد اضطر للاعتراف باستقلال يعقوب الصفاري في سجستان واحمد بن طولون في مصر وهكذا تستمر حركة الانفصال والاستقلال في المقاطعات. واعلن الاتراك خلافة المهتدي وكان نشيطاً فرغب في اصلاح البلاط وجلس للمظالم وحاول القضاء على سلطة الاتراك ولكنهم لم يتركوا له الوقت اللازم كما ان الجنود الذين دربهم لذلك لم يكونوا من القوة بدرجة كافية فقتله الاتراك في ٨٧٠ . وخلفه المعتمد ٨٧٠—٨٩٢ وكان احد ابناء المتوكل فحكم مكان ابن عمه بعد ان اخرج من السجن وفي ايامه تمكن يعقوب الصفاري من كسر الطاهريين في ٨٧٣ ولكن دولة الصفاريين آلت بعد ذلك الى السامانيين وكانوا يحكمون ما وراء النهر منذ عهد المأمون والآن اصبحوا مستقلين وازدهرت مملكتهم . كذلك اهتم المعتمد بثورة الزنج العبيد في البصرة التي دامت من ٨٦٩ حتى ٨٨٣ تحت زعامة صاحب الزنج علي بن محمد الذي ادعى انه علوي وانه اتى لانقاذ اتباعه وكان يقتل الاسرى ويكسر الجيوش حتى ان هذه الثورة كانت بما قتل فيها من اشنع مارأته آسية الغربية .

وحكم المعتضد ٨٩٢—٩٠٢ بعد المعتمد وفي عهده اعيدت العاصمة إلى بغداد بعد ان كانت في سامرا منذ ايام المعتصم . وكان المعتضد من اكثر الخلفاء العباسيين مقدرة ونشاطاً فاهتم بالمالية واصلح الادارة وقاد الجيوش وامن النظام . وظهر القرامطة في هذه الفترة كما ظهرت الاسماعيلية والفاطمية . ونجح مؤسس

القرامطـة في البحرين في كسر جيش الخليفة في عام ٩٠٠ . ثم يحكم المكتفي ٩٠٢ — ٩٠٨ وكانت له صفات بارزة كوالده ولكنه قضى حكمه في محاربة القرامطة الى ان كسرهم . غير انهم هاجموا قافلة من الحجاج وقتلوا افرادها . وحارب البزنطيين زيادة على ذلك. وفي عهده انتهى حكم الاسرة الطولونية في مصر . وخلفه اخوه المقتدر ٩٠٨ - ٩٣٢ وكان صغيراً في الثالثة عشرة من العمر ولذلك كانت والدته ونساء القصر اصحاب السلطة وانحدرت الخلافة في زمنـه . وكان ابن عمه ابن المعتز قد ادعى الخلافة وحكم يوماً واحداً باسم المرتضى وقتل في اواخر ٩٠٨ وقد اشتهر كشاعر واديب . واهم حوادث حكم المقتدر تأسيس الخلافة الفاطمية في المغرب في ٩٠٩ ثم في مصر ، كما ان عبد الرحمن الناصر في الاندلس يتخذ لقب خليفة في عام ٩٢٩. واستولى قرامطة البحرين على البصرة في ٩٢٣ ونهبوها وهاجموا قافلة الحجاج العائدة من مكة وقتلوا قسماً من افرادها وهاجموا الكوفة. وكسر جيش الخليفة الموجه ضد القرامطة في ٩٢٧ واصبحت بغداد مهددة ونهبوا مكة في السنة التالية وحملوا الحجر الاسود الى الاحساء ثم اعيد في عام ٩٥٠ . وظهر في ايام المقتدر جماعة من الوزراء منهم ابن مقلة الخطاط وعلي بن عيسى . وحصل رئيس حرس المقتدر واسمه مؤنس المظفر الذي كان عبداً على لقب امير الامراء وهو لقب جديد ثم خلع سيده وانتهى الامر بان الجنود البربر هاجموا المقتدر وقتلوه . وتولى القـاهر الخلافة ٩٣٢-٩٣٤ ولكنه عزل بعد مدة وسُلب منه بصره ومات فقيراً . وفي هذه الفترة تظهر السلالة البويهية في شمالي ايران . ويحكم الراضي بن المقتـدر ٩٣٤-٩٤٠ ولكن سلطته كانت اسمية حتى ان امير الامراء جعل اسمه يذكر في الخطبة مع الخليفة مما لم يكن معروفاً من قبل . واقتصرت الامبراطورية على منطقة بغداد لان خراسان وما وراء النهر كانت بيد السامانيين ، وفارس بيد البويهيين ، و كرمان ومادي بيد حكام مستقلين، وكان الحمدانيون في شمالي العراق والساجيون في ارمينية واذربيجان، والاخشيديون في مصر والفاطميون في افريقيـــا والقرامطة في الجزيرة العربية . واتى المتقي

٩٤٠-٩٤٤ ابن المقتدر الى الحكم وكان امير الامراء في عهده القائد التركي بجكم وتحصل فوضى بعد موته . ويقوم البريدي الذي أسس امارة في البصرة فيحاصر بغداد ويلتجئ الخليفة الى امير الموصل الحمداني الذي زحف على بغـداد وصد البريدي واصبح اميراً للامراء . غير ان الجنود الديلم والاتراك لم يتركوه يتمتع باللقب سوى بضعة اشهر ، واجبره طوزون على العودة الى الموصل واحتل مكانه فهرب المتقي الى الموصل والرقة ولكن طوزون ظفر به وقلع عينيه. وعين طوزون المستكفي بن المكتفي للخلافة فحكم سنتين . وفي عهده زحف البويهيون على بغداد ودخلوها في ٩٤٥ واعترف الخليفة باحمد بن بويه واعطاه لقب معز الدولة وجعله امير الامراء . واراد المستكفي ان يتآمر عليه ولكن معز الدوله سلبه نظره وعزله وهكذا فقد عزل ثلاثة من الخلفاء وسلبوا نظرهم في هذا الدور .

كان الاتراك اسياد الامبراطورية في هذا الدور . والحقيقة ان استخدام الجنود الاتراك بدأ منذ عهد المنصور ولكنهم كانوا اقلية لا أهميـة سياسية لهم ، والشأن كان لجيوش خراسان الفارسية وللعرب . ثم بعـد سقوط الامين بدأت سيادة العرب بالزوال ورأى المعتصم وامه تركية ما كان من وقاحة الفرس وتماديهم بعـد موت الامين ولذلك خشيهم ولم يثق بالعرب لانه اعتبر انهم فقـدوا قوتهم وافسدتهم حياة المدن والترف ولذلك اعتمـد على الاتراك وكانوا شجعاناً اقوياء ومعظمهم من فرغانة واشروسنة ، ولما كثر تعديهم على الناس اسكنهم سامرا وشجع امراء الترك ان يعيشوا في ظله وتحت حمايته ومنهم جف بن يلتكين امير فرغانة . وكان معظم الاتراك من عبدة الاوثان او المجوس ثم دخلوا في الاسلام . وكان يحرص المعتصم على ان لا يختلطوا بسائر السكان ومنعهم من التزاوج مع سائر المسلمين واتى ببنات تركيات من الرقيق . وفي هذه الفترة لم يعد للاعتبارات القبلية او الدينية او القومية اهمية وانما الذي يحصـل على مساعدة الجيش يفوز . والادارة نفسها بدأت تحول من الموالي الفرس الى الاتراك بالرغم من وجود بعض الوزراء الفرس والعرب . ثم استولى الاتراك على القصر واول حوادث الاغتيال

كان قتل المتوكل . واصبح للرقيق شأن في الدولة وكان الامين قد اكثر منهم واستخدمهم في شؤونه . وأغدق الخلفاء النعم على عبيدهم وجعلهم المقتـــدر في الوظائف الكبرى حتى ان مؤنس اصبح في ايامه مستشار الخليفة وامير الامراء . وكان الخلفاء يلجأون الى التضييق على اقاربهم وابنائهم وسجنهم لئلا يتآمروا مع الاتراك على عزلهم وقتلهم و كذلك كان تأثير النساء كبيراً منـــذ عصر القوة . فالخيزران والدة الرشيد والهادي كانت صاحبة سلطة في عهد المهدي ثم عملت على قتل الهادي . ووالدة المقتدر « السيدة » وهي تركية كانت ذات نفوذ كبير حتى ان الوزراء كانوا يخشونها وكذلك أم المستعين الصقلبية ومساعدها التركي اتامش كانت لها سلطة واسعة .

ودور النفوذ البويهي يدوم كالادوار التي سبقته قرناً كاملاً ٩٤٦—١٠٥٥ . وقد عين الخليفة المطيع ٩٤٦—٩٧٤ ابن المقتدر من قبل معز الدولة البويهي ، وكانت السلطة بكاملها للبويهيين ، وللخليفة كاتب وراتب . وقد اضطر المطيع ان يتنازل في النهاية وخلفه ابنه الطائع ٩٧٤—٩٩١ ووصلت السلطة البويهية أوجها في عهد عضد الدولة وامتدت حكومة هذه السلالة من بحر الخزر حتى حـــدود سورية . وعندما توفي عضد الدولة في ٩٨٣ تنازع ابناؤه على الحكم وفي ٩٩٠ اصبح بهاء الدولة وهو اصغرهم اميراً واجبر الطائع ان يتنازل ، وخلفه القادر ٩٩١-١٠٣١ حفيد المقتدر واستمر النزاع بين الامراء البويهيين . وكان قائد تركي تحت سلطة السامانيين قد اسس امارة في غزنة منذ ٩٦١ وقام احـد ورثائه محمود الغزنوي ففتح خراسان وقسماً من الهند ، وكان على وشك القضاء على البويهيين لولا وفاته في عام ١٠٣٠ . وفي خلافة القائم ١٠٣١-١٠٧٥ ابن القادر زالت سلطة البويهيين وبدأ دور السلاجقة . فقد كسر طغرل بك السلجوقي الغزنويين ودخل نيسابور واستدعاه الخليفة لمساعدته فدخل بغداد في ١٠٥٥ وقضى على البويهيين واخـــذ من الخليفة لقب ملك الشرق والغرب في ١٠٥٨ وورثه ابن اخيه الب ارسلان الذي توفي في ١٠٧٢ .

والدور الرابع والاخير للخلافة العباسية في بغداد هو الدور السلجوقي والمغولي ١٠٥٥ - ١٢٥٨ وقد بدأ في عهد القائم ثم خلفه المقتدي ١٠٧٥ - ١٠٩٤ وفي عهده بلغت الدولة السلجوقية ذروتها لجميع المناطق الشرقية وقسم كبير من الاناضول وسورية اعترفت بخليفة بغداد ، غير ان المنافسة على السلطة بدأت بعد وفاة ملكشاه ودخل برقياروق ابن ملكشاه الى بغداد وتوفي المقتدي وربما مات مسموما . وقد خلفه ابنه المستظهر ١٠٩٤ - ١١١٨ وفي عهده زادت سلطة الحشاشين وكذلك اتت الحملة الصليبية الاولى . وتوفي برقياروق السلجوقي في ١١٠٤ فخلفه اخوه محمد . وتولى الخلافة المسترشد ١١١٨-١١٣٥ ابن المستظهر وحاول اعادة سلطة الخلافة ولكنه قتل . واتى بعده الراشد فاقتفى خطى ابيه ولكنه عزل في العام التالي على اثر دخول السلطان مسعود السلجوقي الى بغداد ثم قتل بعد سنتين . واتى المقتفي ١١٣٦-١١٦٠ ابن المستظهر فحكم العراق كلها وكانت سلطة السلاجقة المركزية اخذت تحط . وفي هذه الفترة وسع عماد الدين زنكي امير الموصل سلطته على العراق وشمالي سورية وحارب الصليبيين وورثه ابنه نور الدين في ١١٤٦ وتابع سياسة ابيه . وتولى الخلافة المستنجد ١١٦٠-١١٧٠ فقضى على الدولة المزيادية في الحلة واهم حادث في أواخر حكمه فتح مصر من قبل جيش نور الدين وسقوط الدولة الفاطمية وظهور صلاح الدين .وقد مات المستنجد مقتولا وخلفه ابنه المستضيء ١١٧٠-١١٨٠ الذي حل اسمه في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي غير ان سلطته الفعلية بقيت على حالها من الضعف . وبوفاة نور الدين في ١١٧٤ توطدت سلطة صلاح الدين والاسرة الايوبية . وخلف المستضيء ابنه الناصر ١١٨٠-١٢٢٥ وفي حكمه فتح صلاح الدين القدس . وكان الناصر طموحاً فتنازع مع امير خوارزم على بلاد مادي واستعان ضده بالمغول . وعند وفاته كانت القبائل المغولية بقيادة جنكيز خان تجتاح مقاطعات الخلافة الشرقية . واتى الظاهر بعد الناصر ولكنه توفي بعد ابيه بسنة ثم خلفه المستنصر وبقي حتى ١٢٤٢ ، وفي اوائل حكمه توفي جنكيز خان في ١٢٢٧ ولكن المغول كانوا في تقدم مستمر .

وانى المستعصم ١٢٤٢-١٢٥٨ فكان آخر خليفة في بغداد والخليفة السابع بعد الثلاثين من خلفاء بني العباس . وفي ١٢٥٦ عبر هولاكو المغولي نهر سيحون واخذ يهدم معاقل الاسماعيلية . وفي اول ١٢٥٨ اصبح عند اسوار بغداد فاستسلم المستعصم ونهبت المدينة وذبح اهلها بشكل مريع وقتل الخليفة بعد ان سلم كنوز اسرته التي دام حكمها اكثر من خمسة قرون .

ان سرعة انتشار العرب وفتوحاتهم بين القرنين السابع والثامن لا يقابلها سوى سرعة انحطاط دولتهم الواسعة بين القرنين التاسع والعاشر . في عصر المأمون في اوائل القرن التاسع كانت سلطة الخليفة الواسعة لا يماثلها شيء في العالم . وفي زمن المقتدر في اوائل القرن العاشر اصبحت سلطة الخليفة اسمية حتى في عاصمته وتجزأت الدولة ثم انتهى امرها في عام ١٢٥٨ وانتهت بذلك سيادة العرب الى حين. والاسباب الحقيقية لانحلال الدولة وسقوطها داخلية . والأسباب الخارجية التي منها هجمات التتر ، لم تكن سوى معجلة للسقوط النهائي . وكذلك ظهور السلالات المتعددة في قلب الدولة وأطرافها يمكن اعتباره من أعراض الضعف وليس من أسبابه الحقيقية . فالفتوحات كانت اسمية فقط وغير تامة ، وأساليب الادارة لم تكن مؤدية للاستقرار والوحدة . وهذا ما أدى الى اللامركزية والتجزؤ . والخلاف بين العرب وغير العرب ، وبين العرب المسلمين والموالي ، وبين عرب الشمال وعرب الجنوب قد أضعف الخلافة . ولم يندمج الايرانيون والاتراك والبربر في دولة موحدة ، والضغائن كانت كثيرة والخلافات الدينية بين الفرق المختلفة لعبت دورها وهذه الفرق لم تكن دينية فقط وانما سياسية . فالقرامطة أضعفوا الخلافة ، والفاطميون فصلوا المناطق الغربية عنها ، والاسلام والخلافة لم يمكنها ضمان الوحدة في الدولة . ومن الوجهة الاجتماعية فان العرب فقدوا صفاتهم الأصلية وقوتهم المعنوية كعنصر غالب بنتيجة الامتزاج بالعناصر المغلوبة ، وكثرة الاماء والغلمان ادت الى انحطاط المرأة ، والتسري أكثر التحاسد والمكائد والمؤامرات بين ابناء الخلفاء وبين نسائهم . وحياة الملذات والترف واللهو أضعفت حيوية الأسرة ،

وأتت بشخصيات هزيلة للحكم . والاقتتال على العرش ، وكثرة المنازعات زادت في ضعف هذه الشخصيات . والعوامل الاقتصادية كان لها تأثيرها أيضاً . فطريقة فرض الضرائب وحكم المقاطعات لمصلحة طبقة حاكمة اضعفت الزراعة والصناعة ، وكان الحكام يزدادون ثروة والشعب يزداد فقراً . وكثرة الحروب والمنازعات تركت المزارع بدون من يعمل فيها ، والمجاعات والامراض والاوبئة والسيول كانت تفتك بالناس . واثر هذا الانحطاط الاقتصادي على الحياة الفكرية فضلاً عن الحياة السياسية .

دويلات العصر العباسي وحضارتها : ظهرت دول ودويلات كثيرة في بلاد الخلافة العباسية الشرقية والغربية . وكانت بعضها عربية كالادريسية والاغلبية والحمدانية والمرداسية والفاطمية ، وبعضها فارسية كالطاهرية والصفارية والسامانية والبويهية وبعضها تركية كالطولونية والاخشيدية والغزنوية والسلجوقية والاتابكية ، وبعضها كردية كالايوبية (١) . على ان جميع هذه الدول كانت اسلامية عربية في نواحي حضارتها العامة وحياتها وان اختلفت بعضها عن بعض في بعض التفاصيل بسبب التأثيرات المحلية . وكان من نتائج ظهور هذه الدويلات ان تعددت مراكز الحضارة وظهر النشاط العلمي والادبي والفني في عواصم السلاطين والامراء من اقصى المغرب الى حدود الهند والصين .

كانت اولى الدول التي انفصلت عن الخلافة العباسية الدولة الاموية في قرطبة التي اسسها عبد الرحمن الداخل بعد قيام الدولة العباسية ببضع سنوات (٧٥٦م). وسندرس تطور هذه الدولة وحضارتها على حدة وهي تختلف عن كثير من الدول

---

(١) راجع بشأن هذه الدويلات وتواريخها : Zambaur: Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam (Hanover 1927).

والدويلات بانها لم تعترف بالخليفة العباسي منذ البدء ولم يكن امراؤهـا المستقلون ولاة ثم اعلنوا انفصالهم كما هي الحال في اصل معظم الدويلات وتشبه الدولة الفاطمية بان امراءها اتخذوا لقب خليفة على ان ذلك لم يحصل الا بعد تأسيس الدولة بأقل من قرنين (في ٩٢٩ م) واذا تتبعنا الدول التي ظهرت في المناطق الغربية حسب الترتيب الزمني فاننا نرى ان الدولة الادريسية ظهرت منذ عهد الرشيد ودامت نحو قرنين (٧٨٨ — ٩٧٤) ومؤسسها ادريس بن عبد الله من احفاد الحسن فقد ثار في المدينة ثم هرب الى المغرب وأسس الدولة وعاصمتها فاس وهي اول دولة شيعية وقضى على السلالة الخليفة الاموي في قرطبة الحكم الثاني . وقامت دولة الاغالبة في افريقية أي تونس فدامت ٨٠٠ — ٩٠٩ وعاصمتها القيروان. وقد اسسها ابراهيم بن الاغلب الذي عينه الرشيد حاكما ثم استقل وسيطر على قسم من ساحل البحر المتوسط وكان للاغالبة اسطول هاجموا فيه سواحل ايطاليا وفرنسا و كورسيكا وسردينيا وكانوا عنصراً هاماً في النزاع مع الغرب وارسل احد امرائهم وهو زيادة الله ٨١٧ — ٨٣٨ حملة ضد صقلية البيزنطية وفتحت الجزيرة فيما بعد في عام ٩٠٢ وكذلك فتحت مالطة وسردينيا . وغزا العرب حتى رومة كما انهم غزوا من كريت جزر بحر ايجه وساحل اليونان واثينا حيث وجدت جالية عربية واكتشفت كتابات كوفية . وقد بني جامع القيروان في عهد هذه السلالة في موقع جامع عقبة واستخدمت فيه اعمدة الرخام من قرطاجة وفيه مأذنة مربعة تبعاً للمنموذج السوري وأصبحت القيروان من المدن المقدسة في الاسلام. وفي زمن الاغالبة اصبحت افريقية عربية مسلمة نهائياً وكانت فيها عناصر مسيحية لاتينية قبلاً . وكان آخر الاغالبة زيادة الله الثالث الذي انتهى حكمه بنتيجة قيام الدولة الفاطمية والتوسع الفاطمي .

وفي مصر قامت الدولة الطولونية ٨٦٨ — ٩٠٥ وقد أسسها أحمد بن طولون وأبوه تركي من فرغانة (١) . وأهمية الدولة أنها آذنت بنشوء أول دولة مصرية

---

(١) راجع بشأن هذه الدولة وما تلاها كتاب أبي المحاسن ابن تغري بردي [المتوفى =

مستقلة دامت طيلة العصور الوسطى ، وكان الولاة قلماً يأتون بعدل وال في كل سنتين ويملأون جيوبهم بالأموال أو يرسلونها الى بغداد . وكان الجيش عماد هذه الدولة وهو من الأتراك والعبيد . وتمكن ابن طولون من احتلال سورية عام ٨٧٧ وعمل على انماء ميناء عكا كقاعدة بحرية ، وبقي ارتباط سورية بوادي النيل مدة طويلة بعد هذه السلالة . واهتم الطولونيون بالري ، وأصلح أحمد مقياس النيل في جزيرة الروضة . وأصبحت مصر مركزاً فنياً لأول مرة بعد الفتح الاسلامي . فقد أسست القطائع وهي حي جديد للفسطاط ، وازدانت بالمباني ومنها البيمارستان الذي بناه أحمد . وكذلك بني جامع ابن طولون ، وفيه مأذنة لولبية تبعاً لأسلوب سامرا ، وأفاريز خشبية في الداخل عليها آيات قرآنية . وكان قصر خمارويه ابن أحمد من أفخم المباني الاسلامية بقاعته المذهبة وأفاريزه التي تحوي رسمه ورسوم زوجاته محفورة في الخشب .

وكان في القصر بركة من الزئبق . وزوج خمارويه ابنته قطر الندى الى الخليفة المعتضد واعطاها من الاموال والذهب ما لم يعطه انسان قبله . والدولة الطولونية تمثل أول مظهر للدور السياسي الذي لعبه العنصر التركي في تأسيس الدول في بلاد الخلافة . وقد حذا حذو ابن طولون كثيرون من بعده فأسسوا الدول على حساب دولة واسعة ضعيفة السلطة مستعينين بقوتهم العسكرية . غير ان الدولة الطولونية والاخشيدية بعدها لم يكن لهما اساس قومي في البلاد التي حكمتاها وفي عام ٩٠٥ عادت السيطرة الى الخلافة العباسية .[١] وبعد ثلاثين سنة تأسست الدولة الاخشيدية ٩٣٥—٩٦٩ ومؤسسها محمد بن طغج تركي من فرغانة أيضاً . وقد نظم ادارة الدولة وأخذ لقباً فارسياً من الخليفة الراضي وهو لقب « الاخشيد » ثم أضاف سورية الى مملكته

= ١ : ٦٩] « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ، الذي نشره Juynboll الهولاندي في ليدن ١٨٥٥ في مجلدين ثم نشره وليم بوبر Popper في بركلي كاليفورنيا في ١٩٠٩ في ٣ مجلدات .

(١) انظر : Z. M. Hassan : Les Tulunides. Paris, 1933.

وكذلك مكة والمدينة وارتبط مصير الحجاز بمصر لمدة قرون . وحكم بعد ذلك ابو المسك كافور وهو عبد حبشي في عهد ولدي الاخشيد واخيراً تم الحكم له وحده لمدة سنتين وحارب الحمدانيين من أجل مصر وسورية وخلدته أبيات المتنبي. وقصة هذا العبد الذي أصبح حاكماً لم تكن الوحيدة من نوعها في تاريخ الخلافة . ولم يترك الاخشيديون ابنية وآثاراً مادية وأدبية وانتهى حكمهم بدخول جوهر الصقلي الى مصر في العهد الفاطمي .

والدولة الفاطمية ٩٠٩ — ١١٧١ التي اتت بعد الاخشيدية كانت أهم دولة شيعية في تاريخ العرب والاسلام وقد بدأت في تونس في عام ٩٠٩ وكان من اسباب نجاحها تنظيم الدعاية الاسماعيلية ومساعي ابي عبد الله الشيعي بين بربر افريقية . ثم يأتي سعيد بن الحسين وربما كان من سلالة عبد الله بن ميمون احد مؤسسي الاسماعيلية. وقد غادر السليمية مركز الاسماعيلية في سورية واصبح حاكماً بلقب عبيد الله المهدي ويرجع بنسبه الى فاطمة الزهراء . وسكن الرقادة في ضاحية القيروان وامتد حكمه من مراكش الى مصر وغزا اسطوله الذي ورثه عن الاغالبة جزر البحر المتوسط . وفي عام ٩٢٠ سكن المهدية العاصمة الجديدة . وفي عهد ابنه القائم (٩٣٤ - ٩٤٦) غزا الأسطول الفاطمي جنوبي فرنسا واحتل جنوه . وفي زمن حكم المعز (حفيد القائم) ٩٥٢ - ٩٧٥ توجه الأسطول الى اسبانيا وغزاها ، وكان الحكم حينذاك لعبد الرحمن الناصر في قرطبة . وفي عام ٩٦٩ فتحت مصر وبدأ القائد جوهر الصقلي ببناء القاهرة ، وفيها شيد الجامع الأزهر ، ونجح أيضاً باحتلال دمشق . وبلغت الدولة أوجها في زمن العزيز ٩٧٥ - ٩٩٦ وأصبحت الخلافة الفاطمية في مصر تنافس الخلافة العباسية في بغداد [1] . وبنى العزيز الجوامع والقصور وحفر الترع ، وكان وزيره عيسى

---

(١) راجع : O'Leary : A short history of the Fatimid Caliphate : London, 1923.

بن نسطور ، وزوجته والدة الحاكم كانت من أصل روسي ، وأخذ يستخدم الجيوش المرتزقة بكثرة بين اتراك وزنوج وكانوا يتخاصمون مع الحرس البربري . وأتى الحاكم ٩٩٦ — ١٠٢١ فاتصف حكمه بالفظائع ، كقتل بعض الوزراء وتهديم الكنائس ، ومنها كنيسة القيامة في القدس ، ووضع القيود على اليهود والنصارى ومعاملتهم معاملة شاذة ، ثم نسبت إليه الألوهية ، وقام داعية يدعى الدرزي (م ١٠١٩) ينشر التعاليم الجديدة ، وتسمى الدروز بالنسبة اليه [١] . وقتل الحاكم في جبل المقطم ، وقيل ان أخته ست الملك كانت على رأس المتآمرين ضده . وتولى الحكم خلفاء صغار السن ضعفاء ، بينما كانت السلطة الحقيقية بيد وزراء يتخذون أحياناً لقب ملك . وقد سمح الظاهر باعادة بناء كنيسة القيامة ، بينما سمح قسطنطين الثامن البيزنطي باعادة بناء جامع القسطنطينية . وانتقل الحكم الى المستنصر ١٠٣٥ — ١٠٩٤ فكانت مدة خلافته أطول مدة في تاريخ الاسلام ، واقتصرت السلطة الفاطمية على مصر وحدها . وفي هذه الفترة كان السلاجقة الأتراك آخذين بالتقدم . وفي مصر كانت قبائل بني هلال وسليم — التي أتت بالأصل من نجد وسكنت مصر العليا — تتحرك نحو الغرب . وفي عام ١٠٧١ انتقل الحكم في صقلية الى النورمنديين . وحصلت المجاعة في مصر ، فاستدعي بدر الجمالي الأرمني الأصل ليصبح وزيراً وقائداً في عام ١٠٧٣ ونظم الأمور ، ثم خلفه ابنه الملك الأفضل ، ولكن الانحطاط استمر . وقد قضى أسامة بن منقذ بضع سنوات في البلاط الفاطمي ١١٤٤ — ١١٥٤ فقال انه لا يشبه البلاط الفاطمي أي بلاط آخر من حيث كثرة مؤامراته ومنازعاته [٢] ، وازدادت الأمور سوءاً بهجوم الصليبيين ووصول ملك القدس في ١١٦٧ حتى أبواب القاهرة . وفي هذه الظروف يأتي صلاح الدين ويعزل آخر خليفة فاطمي .

---

(١) Hitti: The Origins of the Druze People and Religion. New York, 1928

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، نشره فيليب حتي ، برنستون ١٩٣٠ .

ترك الفاطميون آثار حضارتهم خاصة في مصر ، وكانت عربية في طابعها مع تأثيرات فارسية ، وكان الأقباط المستعربون من أهم عناصر السكان ، بينما كان العرب المسلمون سنيين في أكثريتهم . وبينما كانت السلالتان السابقتان الطولونية والاخشيدية بدون أساس قومي في البلاد ، فان السلالة الفاطمية كان لها أساس قومي وكانت تشكل دولة عربية مستقلة في مصر . وقد ترك ناصري خسرو الذي زار البلاد في ١٠٤٦ صورة عن الحضارة العربية في أوجها في هذا العصر (١) . وذكر قصر الخليفة وما احتواه من آلاف الأشخاص (٣٠,٠٠٠ شخص) منهم ١٢٠٠٠ من الخدم . والمنازل كانت تتشكل احياناً من خمس طبقات أو ست ، والأسعار كانت محدودة ، والشوارع الرئيسية مسقوفة ، ثم يقول انه لم ير أحوالاً مزدهرة مثل التي رآها في مصر . وكان المستنصر واسع الثروة يعيش في ترف وحوله المغنون وموسيقاهم . ويصف المقريزي (م ١٤٤٢) كنوزه . كما أن القلقشندي (م ١٤١٨) يصف في صبح الأعشى الادارة الفاطمية ، ويذكر الأمراء أو كبار الضباط في الجيش ، وضباط الحرس ومختلف الفرق المسماة إما بأسماء الوزراء او بحسب قومية افرادها . وقد قيل إن الادارة الداخلية كانت من تنظيم الوزير يعقوب بن كلس (م ٩٩١) ، وكان قبلاً في خدمة كافور . وكان ابن كلس يشجع العلم ، وفي عصره عاش الطبيب محمد التميمي والمؤرخ القضاعي الذي توفي في الفسطاط عام ١٠٦٢ . والخليفة العزيز جعل الأزهر جامعة ورجال التاريخ والقانون كانوا من الفقهاء (٢) . ومن مؤسسات الفاطميين المشهورة دار الحكمة التي أسسها الحاكم عام ١٠٠٥ لتعلم مذهب الشيعة ونشره وللاهتمام بنسخ المخطوطات . وكانت الدار تحوي مكتبة وقاعات للدراسة وبين المواد المدرسة الطب والفلك ، وقد بقيت حتى عصر الأيوبيين . وبنى الحاكم مرصداً على المقطم ، وفي بلاطه عاش علي بن يونس

---

(١) رحلة ناصري خسرو . نشرها شيفر باريس ١٨٨١ .

(٢) تاريخ الجامع الازهر لمحمد عبد الله عنان . القاهرة ، ١٩٤٢ .

(م ١٠٠٩) وهو أعظم فلكي مصري ، والحسن بن الهيثم (م ١٠٣٩) وهو أهم عالم طبيعي وباحث في الضوء في الاسلام . وجداول ابن يونس الفلكية تصحح معلومات زمانه . اما ابن الهيثم فقد ولد في البصرة وسعى بتنظيم فيضان النيل وينسب اليه نحو مائة كتاب في المواضيع العلمية ، ومؤلفه الرئيسي « كتاب المناظر » قد فقد أصله ولكنه نقل الى اللاتينية في عام ١٥٧٢ باسم Optica Thesaurus واثر على نشوء علم الضوء في العصور الوسطى ، وتأثر به العلماء مثل روجر بيكون وكبلر وعالج موضوع العدسات الكبيرة . كذلك كتب عمار الموصلي في عهد الحكم « المنتخب في علاج العين » ووصف عملية الماء الزرقاء . وقيل ان مكتبة الخليفة العزيز كانت تحوي ٢٠٠،٠٠٠ كتاب ونحو ٢٤٠٠ قرآن ولكنها تبعثرت في زمن المستنصر ١٠٦٨ إلا ان خلفاءه جمعوا مكاتب جديدة . والعصر الفاطمي كان مشهوراً بازدهار الفنون بسبب الحياة المادية المزدهرة في اول الأمر [١] . والجامع الأزهر المبني عام ٩٧٢ فيه عناصر فارسية وقسم منه بني بالآجر ومأذنته مربعة . ثم هنالك جامع الحاكم المبني بالحجر عام ١٠١٢ ، وجامع الاقمر عام ١١٢٥ وفيه لأول مرة المحراب المقرنص وكذلك يحوي الزخارف الكوفية . كذلك بنى الفاطميون الأضرحة ضمن الجامع . ومن أبواب القاهرة الباقية : باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح وقد شيدها بناؤون من الرها حسب أسلوب بيزنطي . وفي متحف الآثار العربية في القاهرة آثار فاطمية محفورة في الخشب ومناظرها مستوحاة من الفن الساساني كما أن هنالك أواني البرونز . وبعض المنسوجات الفاطمية قد انتقلت الى الغرب وعليها رسوم مأخوذة عن الساسانيين . وأهم مراكز المنسوجات كانت دبيق ودمياط وتنيس . والمنسوجات المعروفة باسم « فوستيان » في عهد تشوسر بانكلترا مأخوذة من الفسطاط . وفي صناعة القاشاني والخزف رسوم حيوانية مستوحاة من الفرس والاواني الصينية يذكرها المقريزي

---

(١) انظر : كنوز الفاطميين ، تأليف زكي محمد حسن (القاهرة ، ١٩٣٧) .

لأول مرة في الشرق العربي . ويذكر ناصري خسرو أن الأواني التي صنعها المصريون في هذا العصر كانت شفافة . وتجليد الكتب كان متقناً ومعروفاً لدى الأقباط .

ومن أهم الدول العربية التي قامت في شمالي العراق وسورية الدولة الحمدانية ٩٢٩ — ١٠٠٣ التي كانت تعاصر الاخشيديين ثم الفاطميين في مصر . وكان امراؤها يحكمون في شمالي العراق ومركزهم الموصل وينتسبون الى حمدان بن حمدون من بني تغلب ثم تقدموا الى سورية الشمالية في ٩٤٤ بقيادة سيف الدولة واخذوا حلب وحمص من نائب الاخشيديين واسس سيف الدولة ٩٤٤ — ٩٦٧ سلالته المشهورة[١]. واتى بعده سعد الدولة ثم سعيد الدولة وكان هذا الاخير بين خطر البيزنطيين من جهة والفاطميين من جهة اخرى فاستسلم للفاطميين .واشتهرت السلالة بحروبها ضد البيزنطيين فبعد ان وطد سيف الدولة حكمه في سورية قام بعد عام ٩٤٧ بحملات سنوية ضد الروم وكان موفقاً في أول الأمر واخذ مرعش وغيرها من المدن . ثم يأتي نقفور فقاس ، وزمسكس (المعروف بابن الشمشقيق عند العرب) ودخل نقفور حلب في ٩٦١ ولكنه لم يأخذ القلعة وانسحب بعد قتل عدد كبير من السكان . ثم احتل قبرص وكيليكية وفي نهاية حكمه احتل انطاكية وظلت بيد الروم حتى عام ١٠٨٤ ودخل قائد نقفور حلب ووقع اتفاقاً مع سعد الدولة . واراد زمسكس ٩٦٩ — ٩٧٦ توطيد الفتوحات السابقة كما

---

(١) كتب عن تاريخ الحمدانيين المستشرق الالماني Freytag في ١٨٥٦ والمستشرق الافرنسي كنار Canard في عصرنا الحاضر وغيرهم واحدث مؤلف في الموضوع كتاب كنار : Histoire de la dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie . Paris, 1953 . وكتب عن الحروب بين البيزنطيين والحمدانيين يحي بن سعيد الانطاكي من مؤرخي القرن الحادي عشر ونشر تاريخه المستشرق الروسي كرتشكوفسكي وفازيلييف مؤرخ الدولة البيزنطية . وفي ١٨٩٠ كتب غوستاف شلومبرجر تاريخ نقفور فقاس ويحوي اخبار هذه الحروب .

كان يريد الاستيلاء على القدس ولذلك توجه الى دمشق ودخلها ولكنه لم يتوغل في فلسطين . واراد باسيل الثاني توطيد حكمه في بعض المناطق السورية التي اخذ الفاطميون يهددونه فيها ولكنه وقع صلحاً مع الحاكم اخيراً ولم يحصل اصطدام بين الفريقين بعد ذلك . ووصلت حدود الدولة البيزنطية الى الفرات وقلب سورية وكانت هذه الفترة من اهم أدوار التاريخ البيزنطي . واشتهر سيف الدولة بتشجيع العلم والادب وكانت حلقة الشعراء والعلماء حوله تشبه حلقات الرشيد والمأمون ومن افرادها الفيلسوف الموسيقي الفارابي ومؤرخ الادب والموسيقى أبو الفرج الاصفهاني الذي قدم له كتاب الاغاني ، والخطيب ابن نباتة م ٩٨٤ وخاصة المتنبي ٩١٥ — ٩٦٥ الذي اشتهر باشعاره الحكمية حتى جرت على السنة الناس وكان منافسه الامير ابو فراس الحمداني . ومن أهم الذين عاشوا على اثر هــــذه النهضة الادبية الفكرية في شمالي سورية ابو العلاء المعري صاحب اللزوميات ورسالة الغفران ويعبر عن شعور التشاؤم والشك في عصر انحطاط اجتماعي وفوضى سياسية .

وفي القرن التالي اي الحادي عشر ميلادي والخامس هجري تظهر دولة عربية اخرى في حلب وهي الدولة المرداسية التي اسسها صالح بن مرداس من قبيلة بني كلاب المضرية ٤١٤ — ٤٧٢ هـ في حلب(١) ، بينما حكم في الموصل بعد الحمدانيين بنو عقيل من قبيلة كعب المضرية ودامت دولتهم ٣٨٦ — ٤٨٩ هـ . كذلك ظهرت دولة عربية اخرى وهي دولة بني مزياد باسم مزياد الشيباني من قبيلة بني اسد وبنت مدينة الحلة في العراق وحكمت ٤٠٣ — ٥٤٥ هـ . وفيما سوى هذه السلالات العربية التي كانت تقوم في غربي بلاد الخلافة وجدت سلالتان عربيتان في شرقيها ولكن في مناطق غير عربية وهما السلالة الدلفية في كردستان في القرن التاسع م ٢١٠ —

---

(١) راجع تاريخ الدولة المرداسية وكذلك تاريخ الحمدانيين في كتاب ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، نشر وتحقيق سامي الدهان . دمشق ١٩٥١ .

٢٨٥ هـ ، أسسها أبو دلف العجلي ، والسلالة العلوية في طبرستان بين القرنين التاسع والعاشر م « ٢٥٠ — ٣١٦ هـ أسسها الحسن بن زيد .

أما السلالات التي ظهرت في القسم الشرقي من بلاد الخلافة العباسية فانمعظمها كان من اصل فارسي او تركي . وأول دولة قامت شرقي بغداد كانت الدولة الطاهرية ٨٢٠ — ٨٧٢ التي اسسها طاهر بن الحسين وينتسب الى مولى فارسي ، ففي عام ٨٢٠ ولاه المأمون حكم جميع المناطق شرقي بغداد وكان مركزه خراسان وبعد سنتين قطع الخطبة باسم الخليفة وكانت عاصمته مرو ثم نيسابور . ثم تأتي الدولة الصفارية ٨٦٧ — ٩٠٨ ومؤسسها يعقوب بن الليث الصفار وحكمت كل فارس حتى الهند وهددت بغداد في زمن المعتمد . ثم تقوم الدولة السامانية ٨٧٤ — ٩٩٩ في فارس وما وراء النهر وتنتسب الى زردشتي اسمه سامان ، ولكن المؤسس هو نصر بن أحمد ثم اخوه اسماعيل الذي انتزع خراسان من الصفاريين في عام ٩٠٠ وامتدت الدولة الى معظم بلاد ايران وما وراء النهر (١) . وكانت بخارى عاصمة الدولة وسمرقند أهم مدينة فيها ، وكلاهما مراكز علمية وفنية . فالرازي أهدى كتابه المعروف « بالمنصوري » في الطب الى احد الأمراء السامانيين منصور بن اسحق ، وابن سينا قام بأبحاثه في مكتبة نوح الثاني ٩٧٦ — ٩٩٧ والآداب الفارسية الحديثة بدأت في عصرهم وكانت العربية حتى ذلك الوقت لغة الثقافة . والفردوسي الشاعر ٩٣٤ — ١٠٢٠ كتب أشعاره في هذه الفترة ، كما أن البلعمي وزير منصور الأول ترجم تاريخ الطبري . وانتقلت السلطة بعد ذلك الى أيدي العبيد الاتراك ، واستولى رؤساء (خانات) الايلاق Ilaq في التركستان على المناطق الواقعة شمالي سيحون وفي ٩٩٢ أخذوا بخارى ، كما ان الغزنويين اخذوا مناطق جنوبي النهر في ٩٩٤ . وكان هذا النزاع بين الايرانيين والطورانيين الاتراك في القرن العاشر (الرابع الهجري) مقدمة لحوادث خطيرة .

وتقوم الدولة الغزنوية ٩٦٢ - ١١٨٦ ومؤسسها البتكين التركي الذي كان

(١) راجع بشأن هذه السلالات الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب عن حضارة ايران الاسلامية .

حاكما في خراسان من قبل السامانيين ثم اخذ غزنة في افغانستان واسس دولة مستقلة في الافغانستان والبنجاب . على ان المؤسس الحقيقي للدولة هو سبكتكين مولى البتكين وصهره واتى بعده ستة عشر ملكا اشهرهم محمود الغزنوي ٩٩٩-١٠٣٠ الذي قام بنحو سبع عشرة حملة الى الهند بين ١٠٠١ و ١٠٢٤ وفتح لاهور وقسما من السند واعتبر مكسراً للاصنام واول من اتخذ لقب « غازي » في الاسلام وانتزع غربي ايران من البويهيين واعترف بخلافة القادر الذي اعطاه لقب يمين الدولة [1] . اما لقب سلطان فانه يستدل من النقود ان اول من اتخذه السلاجقة . وكانت مملكة محمود واسعة جداً وعاصمته مزدانة بروائع الفن وبلاطه ملتقى رجال العلم والادب . وفي بلاطه عاش العتبي المؤرخ العربي م ١٠٣٦ والبيروني ، والفردوسي الذي هجاه عندما اعطاه ٦٠٠٠٠ درهم بعد ان اهداه ملحمته المشهورة « الشاهنامة » المؤلفة من ٦٠٠٠٠ بيت وكان يؤمل ستين الف دينار. والدولة الغزنوية قامت على القوة الحربية ولذلك انحلت حالما ضعفت قوة السلاح غير انها تمثل اول انتصار للعنصر التركي في نزاعه ضد العنصر الفارسي للسيادة في العالم الاسلامي . وبعد وفاة محمود اخذت اقسام ممتلكاته في الهند تستقل و كذلك استولى السلاجقة على الاقسام الشمالية والغربية . والغوريون في افغانستان هم الذين قضوا على آخر الغزنويين في لاهور . وفي اثناء حكم السامانيين قامت دولة فارسية في شمالي ايران تدعى الدوله الزيارية في القرن العاشر (٣١٦ - ٤٣٤ هـ) وقبل ذلك قامت الدولة الساجية في اذربيجان بين القرن الثامن والتاسع (٢٦٦-٣١٨هـ).

هذه السلالات جميعها لم تتعرض لمركز الحكم في بغداد . غير ان البويهيين الفرس وبعدهم السلاجقة الاتراك حكموا في قلب الدولة الاسلامية وتركوا للخليفة السلطة الاسمية . ففي ٩٤٥ دخل احمد بن بويه بغداد في عهد المستكفي الذي جمله

---

[1] راجع ترجمة وتاريخ عصره في : M. Nizam : The life and times of Sultan Mahmud of Gazna(Cambridge, 1931).

امير الامراء واعطاه لقب معز الدولة وبدأت الدولة البويهية ٩٤٥ - ١٠٥٥ .
وكان مؤسس الاسرة ابو شجاع بويه الذي ادعى الانتساب الى الساسانيين . فهو
فارسي انما اعتمد على جماعة من الديلم المحاربين في منطقة الجيلان جنوبي بحر الخزر
واستولى ابناؤه الثلاثة علي عماد الدولة وحسن ركن الدولة واحمد معز الدولة
على مقاطعات مختلفة في ايران وجعلوا شيراز العاصمة ثم توجه احمد الى بغداد
فهرب الحرس التركي . وقد فرض احمد معز الدولة ذكر اسمه في الخطبة مع الخليفة
وعلى النقود . وقوي مركز الشيعة في عهد هذه السلالة . وكان البويهيون يتمتعون
بلقب امير او ملك وخلعوا الخلفاء وعينوهم كما شاؤوا وكانت لهم قصور في بغداد
تعرف باسم « دار المملكة » . وبلغت الدولة ذروتها في عهد عضد الدولة ٩٤٩-٩٨٣
احد ابناء ركن الدولة فوحد ممتلكات البويهيين وتزوج ابنة الخليفة الطائع وجعله
يتزوج ابنته حتى يكون له من يرث الخلافة وقد ابقى بلاطه في شيراز وكان اول
من اتخذ لقب شاهنشاه وبنى الجوامع والمستشفيات . وكان ابن مسكويه المؤرخ
م ١٠٣٠ امين خزينته كما كان طبيباً وفيلسوفاً وتاريخه المشهور يدعى « تجارب
الامم » (١) . ومن اهم مؤسساته المارستان العضدي في بغداد وكان فيه الاطباء
للمعالجة والتدريس . وقد مدحه المتنبي وكتب له ابو علي الفارسي « كتاب
الايضاح » وكان مستشاره ووزيره نصر بن قارون الذي اهتم ببناء بعض الاديرة
والكنائس وترميم بعضها الآخر . واهتم ابنه شرف الدولة بالعلم ايضاً وبنى مرصداً
اما ابنه الآخر بهاء الدولة فكان وزيره سابور بن اردشير الذي بنى جامعة ومعها
مكتبة في بغداد تحوي عشرة آلاف كتاب . واخوان الصفا عاشوا في هذا العهد .
وقد كان النزاع بين ابناء عضد الدولة ومنهم الابن الثالث صمصام الدولة بالاضافة
الى نقمة السنيين عليهم من اسباب سقوطهم . وآخر ملوكهم الملك الرحيم
١٠٤٨ - ١٠٥٥ قضى آخر ايامه في عزلة .

---

(١) نشر معظمه وترجمه Amedroz و Margoliouth في ٧ مجلدات اكسفورد ١٩٢٠

دول السلاجقة والاتابكة والايوبيين وحضارتها : ظهرت في ايران وغربي آسيا دول سلجوقية متعددة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر اهمها الدولة السلجوقية الكبرى في ايران وهي الرئيسية ١٠٤٠ - ١١٥٧ وسلاجقة الاناضول ١٠٧٧ - ١٣٠٢ وسلاجقة سورية ١٠٩٤ - ١١١٧ وسلاجقة العراق العجمي وكردستان ١١١٧ - ١١٩٤ وعندما ظهر السلاجقة كانت الامبراطورية العربية مجزأة فالامويون يحكمون الاندلس والفاطميون في مصر وامراء من العرب في شمالي سورية والعراق ، والبويهيون والغزنويون في المناطق الشرقية . وينتسب السلاجقة الى سلجوق من قبيلة الاوغوز الذي دخل مع قبيلته في عام ٩٥٦ الى بلاد الخلافة من تركستان واحتل منطقة بخارى ثم اعتنقت قبيلته الاسلام. واخذ ابناؤه واحفاده يتقدمون في المناطق الشرقية حتى ان حفيده طغرل بك انتزع مع اخيه مرو ونيسابور من الدولة الغزنوية ثم توغلوا في شمالي ايران وغربيه وقضوا على البويهيين. ويذكر ابن الاثير ان اسم والد طغرل كان ميكائيل وان اسم اخيه داود وقد يكون هنالك تأثير نسطوري على السلاجقة الاولين وفي ١٠٥٥ وصل طغرل مع قواته الى بغداد فاستقبله الخليفة القائم كمنقذ ونودي به ملكاً على الشرق والغرب واعطي لقب سلطان . وغادر قائد البويهيين واسمه البساسيري بغداد ولكنه عاد في ١٠٥٨ بعد ان انحاز الى الفاطميين واحتل بغداد واجبر الخليفة على التنازل للمستنصر الفاطمي وعلى ارسال البردة والعمامة وقسم من نافذة القصر الى القاهرة . غير ان طغرل يعود ويقتل البساسيري في ١٠٦٠ ويعيد السلطة للقائم. وكان عهد طغرل ووريثه الب ارسلان ١٠٦٣ — ١٠٧٢ وعهد ملكشاه ١٠٧٢ — ١٠٩٢ ازهى عصر في تاريخ السلاجقة . وقد شملت فتوحاتهم غربي آسيا كلها واصبحت مملكة اسلامية واحدة . ولم تكن هذه اول مرة تدخل فيها القبائل الرحل وتطغي على بلاد الخلافة وتؤسس دولة جديدة وتصبح اكبر مدافعة عن الاسلام فالعثمانيون في القرن الرابع عشر فعلوا ذلك . ولا يمكن مقارنة السلاجقة

بسائر الامارات التركية كالطولونية وغيرها التي استقلت عن الخلافة لان السلاجقة اسسوا دولة كبيرة منذ البدء وشغلوا قسماً ضخماً من العالم الاسلامي وفي عهد ألب ارسلان انتصروا على البزنطيين في موقعة ملاذكرد (مانزيكرت) عام ١٠٧١ ومنذ ذلك الحين اخذ الاتراك يسكنون هضاب الاناضول وبدأت عملية تتريك هذه المنطقة . واسس احد اقارب الب وهو سليمان بن قطلمش دولة سلاجقة الاناضول التي دامت ١٠٧٧ — ١٣٠٢ ومنذ عام ١٠٨٤ كانت قونية عاصمة هذه الدولة . واستولى الصليبيون على القسم الغربي من الاناضول واخرجوا منه قلجي ارسلان بن سليمان . وفي سورية تشكلت سلالة سلجوقية ١٠٩٤ — ١١١٧ اسسها تتش ابن الب ارسلان وكانت تقاوم تقدم الصليبيين انما اضعفها النزاع بين ولدي تتش وهما رضوان الذي حكم حلب ودقاق الذي حكم دمشق . وكان الب قد انتزع من الفاطميين حلب ومعظم سورية الجنوبية مثل القدس ودمشق عن يد قائده اتسيز ولكن الفاطميين استرجعوها قبيل الحروب الصليبية . وكان مركز دولة السلاجقة الرئيسية في اصفهان في عهد الب ارسلان وفي ١٠٩١ في آخر عهد ملكشاه انتقلت العاصمة الى بغداد . واصبح يذكر اسم السلطان السلجوقي مع الخليفة في خطبة الجمعة . وتزوج الخليفة المقتدي ابنة ملكشاه ولكن هذا لم ينجح في جمع الخلافة والسلطنة في شخص حفيده . وحكم ملكشاه دولة واسعة امتدت من حدود الصين الى البحر المتوسط وكان مشهوراً ببناء الجوامع والاسوار والطرق واستتب الامن في زمانه والتدابير الصحية كانت ممتازة . والوزير العظيم في زمنه وزمن ابيه هو نظام الملك الفارسي الاصل الذي قال عنه ابن خلكان انه القابض الحقيقي على السلطة . وقد وضع التقويم الجلالي من قبل الفلكيين بأمر جلال الدين ملكشاه في ١٠٧٥ وكتب نظام الملك نفسه كتاب السياسة نامة وفيه صفات الحكومة الصالحة وظهرت كتابات ناصري خسرو م١٠٧٤ وعمر الخيام م١١٢٣ في هذا العصر باللغة الفارسية. واشتهر نظام الملك خاصة بتأسيس اول المعاهد المنظمة للتعليم العالي في الاسلام وخاصة المدرسة النظامية في بغداد عام ١٠٦٥ التي درس

فيها الغزالي(١). وقد قتل ملكشاه من قبل احد الاسماعيلية في ١٠٩٢ وبوفاته بدأ الضعف وقامت الحروب بين ابنائه وادت الى التجزئة . وكانت الدولة مبنية على اساس قبلي وادى نظام الاقطاعات الحربية التي اوجدها نظام الملك في ١٠٨٧ الى تأسيس دول شبه مستقلة في مختلف الجهات . وقد انتهت السلالة الرئيسية في ايران في ١١٥٧ ومن اهم فروع السلاجقة سلالة سلاجقة العراق العجمي ١١١٧ — ١١٩٤ وسلالة سلاجقة الاناضول ١٠٧٧ — ١٣٠٢ التي انتهت باستيلاء الاتراك العثمانيين على البلاد .

وقامت بعد سلاجقة العراق العجمى سلالة شاه خوارزم التركية ١١٩٤ — ١٢٢٠ وكانت بدأت قبل مائة عام بتعيين حاكم في خوارزم من قبل ملكشاه . واراد الخليفة الناصر في بغداد (١١٨٠ — ١٢٢٥) ان يعيد الى الخلافة قوتها وازدهر في عهده نظام الفتوة الذي يرجع اصله الى الامام علي ويلبس اصحابه ملابس خاصة في حفلة خاصة . وحرض الخليفة شاه خوارزم على مهاجمة السلاجقة فنجحوا في حربهم ضد طغرل آخر سلطان سلجوقي . ولكن حاكم خوارزم واسمه طقش اراد بعد هذا النجاح البقاء في بغداد وترك السلطة الاسمية فقط للخليفة . واتى بعده ابنه علاء الدين محمد ١٢٠٠ — ١٢٢٠ فاخضع بلاداً كثيرة من غزنة الى بغداد ورغب في انهاء الخلافة العباسية فاستنجد الخليفة الناصر على ما يقال بزعيم المغول جنكيز خان (تاموتشين) ١١٥٥ — ١٢٢٧ وبقدوم جنكيز مع اعوانه هرب شاه خوارزم وتوفي في احدى جزر بحر الخزر. واما جنكيز والمغول الوثنيون الذين معه فقد اجتاحوا البلاد بعد ان وصلوا الى الصين ودخلوا عاصمتها بكين ثم اتجهوا الى البلاد الاسلامية وقيل ان جيشهم بلغ عدده سبعمائة الف نفس فهدموا

---

(١) راجع بشأن نظام الملك والمدرسة النظامية واساتذتها واشهر طلابها رسالة اسعد طلس:

Asad Talas : La Madrasa Nizamiya et son histoire.
(Librairie Geuthner.Paris, 1939).

المكاتب والقصور واهلكوا سكان المدن التي بقيت خربة ومنها خوارزم وبخارى وسمرقند وبلخ ووصف ابن الاثير هذه الفظائع في تاريخه . وخشي خليفة بغداد قدوم هؤلاء التتر ولكن الخطر زال موقتاً وانقسمت الامبراطورية بين ابناء جنكيز الاربعة . واتت موجة المغول الثانية في عهد هولاكو حفيد جنكيز الذي غادر منغوليا في ١٢٥٣ واخضع بقايا مملكة شاه خوارزم واستولى على معاقل الحشاشين ومنها قلعة الموت وكسر شوكتهم وارسل انذاراً الى الخليفة المستعصم بالتسليم فلم يعط جواباً نهائياً . وفي ١٢٥٨ (٦٥٦هـ) حاصر بغداد وخرج الوزير العلقمي لطلب شروط الصلح منه فلم يستقبله والبعض قالوا ان العلقمي هو الذي دعاه نظراً لحقده على الخليفة وعلى السنيين في بغداد . ودخل هولاكو وجنوده الى بغداد فنهبوا واحرقوا وقتلوا ماشاءوا مدة اربعين يوما وهلكت اسرة الخليفة وبقي بعض افرادها ومنهم المستعصم الذي جعله بيبرس خليفة في القاهرة باسم المستنصر . وفي ١٢٦٠ هدد هولاكو شمالي سورية واستولى على حلب وذبح قسماً من اهلها ثم عاد الى ايران لوفاة اخيه ولكن جيشه كسر في عين جالوت قرب الناصرة وكان القائد الذي كسره بيبرس الذي يصبح فيما بعد من سلاطين المماليك . وعلى هذا فقد توقف تقدم المغول وانقذت بقية العالم الاسلامي منهم ولكن سقوط بغداد كان ضربة قاسية للحضارة العربية . واسس هولاكو الدولة الايلخانية في ايران وامتدت مملكته من خراسان وحدود الهند الى حدود سورية ودامت هذه الدولة حتى ١٣٣٥ . وقد توفي هولاكو في مراغة ١٢٦٥ . وكان يعتمد على الفرس ومن اهم الذين خدموا سلالته الجويني م ١٢٨٣ ورشيد الدين م ١٣١٨ . وبعد ان كان الاسلام في حالة حرجة في اوائل القرن الثالث عشر حين كان يحف به خطر المغول في الشرق وخطر الصليبيين في الغرب تبدلت الحال في نهاية ذلك القرن حين خرج آخر الصليبيين من سورية وحين اعتنق الملك السابع من الاسرة الايلخانية الاسلام واسمه محمود غازان واهتم باحياء الحضارة الاسلامية .

كان السلاجقة في ايام قوتهم يولون لحكم المقاطعات جماعة من حاشيتهم يعرفون

بالاتابكة (بمعنى امير أب) وكانت الكلمة تعني الوزير في اول الامر ثم صار لها مفهوم الملك . واخذ هؤلاء يشعرون بالاستقلال وقسموا بينهم الدولة السلجوقية ماعدا الاناضول . ومن دول الاتابكة المعروفة الدولة البورية في دمشق ١١٠٦ — ١١٥٦ والدولة الزنكية في سورية والجزيرة ١١٢٧ — ١٢٦٢ وهي من اهم هذه الدول ، والدولة الارطقية في ديار بكر وماردين ١٢٠٨ — ١٣١٢ ، واتابكة اذربيجان ١١٣٧ — ١٢٣٦ او سلالة بكتجيني في اربيل ، واتابكة ارمينية ، وسلالة سلكري في فارس وسلالة قوطلغي في كرمان ، وسلالة خوارزمشاه في خوارزم التي اتينا على ذكرها . ومعظم هذه الدول انتهى امرها بهجمات المغول .

كان مؤسس الدولة الزنكية عماد الدين الزنكي اتابك الموصل ١١٢٧—١١٤٦ الذي حارب الصليبيين وهو ابن عبد تركي لملكشاه ثم اصبحت امارته تضم حلب وحران والموصل ، وهو الذي انتزع الرها (اديسا) من الصليبيين في ١١٤٤ مما ادى الى الحملة الصليبية الثانية . وابنه محمود نور الدين جعل حلب عاصمته ثم حصل على دمشق في ١١٥٤ من الاتابك طوغتكين الذي كان عبداً لتتش ثم وصياً على ابنه دقاق . واخذ قسما من امارة انطاكية واسر اميرها وامير طرابلس وكان من قواده اسد الدين شيركوه الذي استفاد من ضعف الفاطميين وانتصر في مصر واصبح وزير العاضد آخر خليفة فاطمي في ١١٦٩ . وكان قد سبقه في هذا المنصب شاور الذي طلب المساعدة من ملك القدس الصليبي ضد شيركوه . وعندما توفي شيركوه ورثه ابن اخيه صلاح الدين بن ايوب بنفس السنة فكان مؤسس الدولة الايوبية التي دامت ١١٧١ — ١٢٥٠ .

ولد صلاح الدين في تكريت على الدجلة في ١١٣٨ من اصل كردي ونشأ في سورية لان والده ايوب عين قائد موقع بعلبك من قبل عماد الدين ورافق عمه الى مصر في ١١٦٤ ثم اصبح وزيراً في مصر بعد وفاة عمه . وعندما توفي الخليفة الفاطمي العاضد في ١١٧١ استبدل اسم الخليفة الفاطمي بالخليفة العباسي المستضيء في خطبة الجمعة واصبحت حكومة مصر سنية وتسلم الادارة بكاملها . وتورث

علاقته مع نور الدين. وعند ما توفي هذا في ١١٧٤ اعلن استقلاله في مصر ثم انتزع سورية من اسماعيل ابن نور الدين وكان غلاما. ثم قلده الخليفة العباسي السلطة على الحجاز والمغرب والنوبة وبعد بضع سنوات استولى على الموصل. ولم يسبق ان ظهرت دولة كردية مستقلة قبل هذا العصر فيما سوى الدولة التي اسسها حسنويه بن حسين البرزجاني في غربي ايران في النصف الثاني من القرن العاشر وسلالة ابي علي بن مروان في ديار بكر التي دامت طيلة القرن الحادي عشر. ولم يكن قد ظهر حتى ذلك العصر شخصية كبرى من الاكراد في الحكم والادارة والسياسة وكان صلاح الدين من ابرز شخصيات التاريخ الاسلامي في حكمته وادارته وشجاعته وتنظيمه. وقد تآمر عليه الحشاشون فحصر معقلهم مصياف مركز زعيمهم سنان شيخ الجبل في ١١٧٦ ثم رفع الحصار عندما وعدوا بعدم مهاجمته. وانتصر على الصليبيين انتصاره المشهور في حطين في ١١٨٧ ثم انتزع منهم القدس. وقلد الاكراد مناصب الولاية والحكم في انحاء البلاد. وعند وفاته في ١١٩٣ دفن في قلعة دمشق اولاً ثم نقلت رفاته الى المدرسة العزيزية التي بناها ابنه الملك العزيز عثمان بعد ثلاث سنوات ولا تزال تربته فيها تعلوها قبة مضلعة بجانب الجامع الاموي.

كانت دولة صلاح الدين تمتد من الدجلة الى النيل فتجزأت بين ورثته. ففي اول الامر خلفه ابنه الافضل في دمشق والملك العزيز في القاهرة والملك الظاهر في حلب. اما اخوه الملك العادل فقد ملك في الكرك والشوبك. ولكن العادل استفاد بين ١١٩٦ و ١١٩٩ من نزاع ابناء اخيه فاستولى على مصر ومعظم سورية وكانت علاقاته مع الصليبيين سلمية بوجه الاجمال وسمح للبنادقة بانشاء اسواق في الاسكندرية وفنادق. وبعد وفاته في ١٢١٨ ظهرت عدة فروع للدولة الايوبية متسلسلة منه في مصر والشام والعراق وفروع اخرى حكمت حمص وحماة واليمن. ومن ابنائه المعروفين الملك المعظم عيسى ملك دمشق الذي اكمل بناء المدرسة العادلية الكبرى التي بدأها العادل ونقل اليها رفاة والده من قلعة دمشق (وهي اليوم مقر المجمع العلمي العربي)، والملك الاشرف ملك بلاد الارمن

والجزيرة ثم دمشق ، والملك الكامل ١٢١٨ - ١٢٣٨ وكان ابرز شخصية بين الايوبيين في مصر وسورية وقد حكم مصر وتنازع مع اخوته على حكم سورية. وقضت هجمات التتر على الدويلات في شمالي سورية ماعدا دولة حماة التي استمرت في عهد المماليك وكان من ملوكها المؤرخ ابو الفدا م١٣٣٢ من سلالة الملك العادل. والنزاع بين فروع السلالة الايوبية شجع الصليبيين فاستعادوا بعض المدن ومنها القدس في ١٢٢٩ ولكن احوال الصليبيين كانت فوضى ايضاً بسبب منازعاتهم . ونجح الملك الكامل في اجلاء الصليبيين عن دمياط في ١٢٢١ وكان يهتم بالزراعة والري ووقع عدة معاهدات تجارية مع البلاد الاوربية . والكنيسة القبطية في مصر تذكر له بشكل خاص معاملته الحسنة . وكان من اصدقائه ريكاردوس قلب الاسد وفردريك الثاني ومن الذين زاروه من الغرب القديس فرانسوا مؤسس رهبنة الفرنسيسكان . وفي عهده عاش عمر بن الفارض ١١٨١ — ١٢٣٥ الشاعر المتصوف المشهور .وقد وقع الكامل معاهدة غريبة مع فردريك الثاني في ١٢٢٩ اعطاه بموجبها القدس وممرا حتى عكا . وقد ورثه الملك العادل الثاني وحكم سنتين ثم اتى الملك الصالح نجم الدين ايوب حفيد العادل وابن الصالح اسماعيل ملك دمشق وحكم ١٢٤٠ — ١٢٤٩ . وقد استرد القدس في ١٢٤٤ وفي عهده اتى لويس التاسع (او القديس لويس) ملك فرنسا واخذ دمياط ثم وقع اسيراً . وعندما توفي الصالح ايوب حفظت ارملته الخبر سراً حتى عودة ابنه توران شاه من العراق ولكن المماليك عبيد والده لم يرضوا عنه فقتل بموافقة شجرة الدر في ١٢٥٠ . وحكمت شجرة الدر ومعها غلام من فرع الايوبيين في دمشق واسمه الاشرف موسى فدام حتى ١٢٥٢ الا ان حكمه كان اسمياً بينما الحاكم الحقيقي كان المملوك ايبك مؤسس سلالة المماليك .

ازدهرت احوال سورية في عهد النوريين والايوبيين وخاصة في عصر نور الدين وصلاح الدين . ولا تزال دمشق تحوي آثار الاعمال العمرانية والثقافية

لهاتين السلالتين . فقد جدد نور الدين اسوار دمشق وابوابها وشيد المباني العامة والمدارس ومنها اقدم مدرسة للحديث في دمشق وهي دار الحديث النورية التي كان يحاضر فيها ابن عساكر م ١١٧٦ . كذلك اسس المارستان النوري وهو ثاني مستشفى في دمشق بعد عهد الوليد وكان مدرسة للطب ايضاً . وقد شيد هذا المارستان في ١١٥٤ وزاره الرحالة ابن جبير في ١١٨٤ ووصف الاطباء والادوية المجانية والمرضى . وكان عميده في عهد الملك العادل فيما بعد مهذب الدين بن الدخوار م ١٢٣٠ الذي من تلاميذه ابن النفيس م ١٢٨٩ وابن ابي اصيبعة م ١٢٧٠ صاحب «عيون الانباء في طبقات الاطباء» وكان معاصره ابن القفطي وزيراً للايوبيين في حلب . واسس نور الدين مدارس كثيرة في دمشق وحلب وحمص وحماة وبعلبك وكان فيها طلاب داخليون واتبعت نموذج المدرسة النظامية. وجدد نور الدين قسما من تحصينات قلعة حلب وفي عهده تبدأ الكتابة النسخية تحل محل الكتابة الكوفية في النقوش والزخارف . ودفن نور الدين في المدرسة النورية بدمشق واصبحت العادة ان يدفن باني المدرسة فيها تحت قبة وانتشرت هذه العادة في عهد المماليك .

واهتم صلاح الدين ايضاً بالعمران والمدارس وكان يحارب الشيعة الفاطمية عن طريق التدريس وهو اهم مؤسس للمدارس في الاسلام بعد نظام الملك . وفي ايامه اصبحت دمشق مدينة مدارس وقد وجد فيها ابن جبير عشرين مدرسة فى ١١٨٤ ومستشفيين وعدة خانقاوات الدراويش (جمع خانقاه الفارسية) واسس هذه الخانقاوات في مصر ايضاً . ومباني الايوبيين في القرن الثالث عشر وما تبعها من مباني المماليك تمثل الفن الاسلامي الكلاسيكي في الشرق . والاسلوب الايوبي في العمارة استمر في مصر في عهد المماليك وانتج من المباني مايفتخر به الفن الاسلامي . وهذا الاسلوب يعتمد في جماله واناقته على كثرة الزخرفة .وقدادخل صلاح الدين نموذج المدرسة الى القدس ومصر كما ان الحجاز عرفت اول مؤسسة

من هذا النوع في عصره . ومن اهم مدارس القاهرة المدرسة المعروفة بالصلاحية باسمه و كذلك وجدت عدة مدارس في الاسكندرية . وفي القدس اسس الخانقاه الصلاحية . وانتشر الاسلوب الذي يجمع بين الجامع والمدرسة واثره ظاهر في جامع السلطان حسن في عهد المماليك في القاهرة . واسس صلاح الدين مستشفيين في القاهرة وقد شيدا غالباً على اسلوب البارستان النوري في دمشق وكان ابن طولون و كذلك كافور قد اسسا مثل هذه المستشفيات العامة . ولم تترك هذه المستشفيات اثراً على ان هنالك بقايا العمارة العسكرية في قلعة القاهرة خاصة وربما استخدم صلاح الدين بعض الاسرى النورمنديين واستعمل بعض اساليبهم التي ظهرت في فلسطين . وكان يقيم في هذه القلعة المعروفة بقلعة الجبل في القاهرة . كذلك بنى اسوار القاهرة وبدأ هذه الاعمال في ١١٨٣ . وبدأ اخوه الملك العادل بناء المدرسة العادلية في دمشق واكملها ابنه الملك المعظم لدراسة الفقه واللغة العربية وكان للمعظم مؤلفات منها كتاب في العروض وكتب اخرى (١) . ومن العلماء الذين كانوا في حاشية صلاح الدين الوزيران القاضي الفاضل وعماد الدين الخطيب الاصفهاني . وآخر امناء سره بهاء الدين بن شداد الذي كتب سيرته . وكان في حاشيته ايضاً طبيبه اليهودي ابن ميمون والعالم العراقي عبد اللطيف البغدادي ١١٦١ — ١٢٣١ الذي وضع كتاب « الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة في ارض مصر » وقد نشر هذا الكتاب في توبنجن في المانيا منذ ١٧٨٩ وترجم الى اللاتينية والالمانية والافرنسية . ومن علماء العصر الايوبي شهاب الدين السهروردي الحلبي م ١١٩١ صاحب مذهب الاشراق ومؤسس

---

(١) انظر مقال الشيخ محمد احمد دهمان « المدرسة العادلية الكبرى » في مجلة المجمع العلمي العربي ج ١ م ٢٩ (١٩٥٤) ص ٥٢ ـ ٦٦ . راجع بين مطبوعات المعهد الافرنسي في دمشق :
Monuments ayyoubides de Damas. Paris 1938 - 40.

احدى الطرق الصوفية ، والمؤرخ المحدث ابن عساكر م ١١٧٦ صاحب التاريخ الكبير والاستاذ في دار الحديث النورية بدمشق . وابو شامة ١٢٠٣ — ١٢٦٨ صاحب كتاب « الروضتين في اخبار الدولتين » ومعظمه عن نور الدين وصلاح الدين . وابن الاثير م ١٢٣٤ صاحب الكامل في التاريخ، وياقوت ١١٧٩ — ١٢٢٩ مؤلف معجم البلدان ومعجم الادباء ، وكمال الدين ابن العديم م ١٢٦٢ صاحب زبدة الحلب من تاريخ حلب، والقاضي ابن واصل من اعلام القرن الثالث عشر وصاحب كتاب « مفرج الكروب في اخبار بني ايوب » (١) . وقد كانت كنوز الفاطميين كثيرة وثمينة فوزعها صلاح الدين على اعوانه ولم يترك شيئاً لنفسه حتى انه لما مات لم يترك حسب قول ابي الفدا سوى ٤٧ درهماً وقطعة من ذهب . واصبح صلاح الدين من الشخصيات الرئيسية في تاريخ العرب والاسلام وممن دخل اسمهم في آثار ادباء الافرنج وقصصهم ومنهم السير ولتر سكوت الانكليزي وليسنغ الالماني .

هذه هي الدول التي شهدها العصر العباسي اتينا على اهم معالم حضارتها. وقد كانت بعضها دولا مستقلة هامة ولكن لم يتخذ من رؤسائها لقب خليفة سوى الامويون في قرطبة والفاطميون في مصر . وحادثة تجدد الخلافة في القاهرة في عصر المماليك فيما بعد تشهد بذلك المثل الأعلى للدولة الاسلامية المتحدة التي يحكمها خليفة هو مصدر السلطة بالرغم من ان حركات الانفصال في مختلف الاقاليم وقيام الدول قد قضت على حقيقة هذا المثل الأعلى منذ عدة قرون . وقد كانت فترة حكم السلاجقة في ايران والعراق فترة صراع مع الصليبيين ولكن الخلفاء العباسيين في بغداد والسلاجقة معهم لم يظهروا اهتماماً بهذه الحروب وعندما سقطت القدس في ١٠٩٩ واتى وفد يطلب المساعدة لم تتخذ التدابير لتلبية طلب

(١) حققه ونشره جمال الدين الشيال . القاهرة ، ١٩٥٣ .

الوفد واقترح الخليفة المستظهر على الوفد مراجعة السلطان برقياروق ١٠٩٤ — ١١٠٤ ابن ملكشاه الذي بدأت السلالة السلجوقية تنحط في ايامه . واتت بعد ذلك وفود من حلب وتجاه الموقف العنيف الذي وقفته ارسل المستظهر بعض القوات . وفي عهد المقتفي ١١٣٦ — ١١٦٠ وجه عماد الدين زنكي طلباً بالمساعدة الى بغداد فارسلت قوات ضئيلة . ويأتي بعد ذلك نور الدين وصلاح الدين ويحاربون الصليبيين ويفوزون ويتم عملهم المماليك كما سنرى .

❀ ❀ ❀

الفصل السادس عشر

الحضارة العربية : ادوارها ومظاهرها في العصر الاسلامي ٢

مظاهر الحضارة في العصر العباسي : الادارة والمجتمع : ان اول مايستلفت النظر في ناحية الحكم والادارة في العصر العباسي انه لم يكن هنالك قانون واضح لوراثة الحكم فكان يعين الابن او الاخ او احد الاقارب للخلافة وتنشأ المنازعات بسبب محاولة سائر الابناء أو الاقارب الاستيلاء على العرش . وقد جرى الخلفاء على اتخاذ الالقاب منذ عهد المعتصم فكانوا يلقبون انفسهم بالمعتصم بالله والمتوكل على الله وغير ذلك وكان عدد الخلفاء الذين ورثهم ابناؤهم ستة من اربعة وعشرين في اول قرنين ونصف . واصبح منصب الوزارة منصباً رسمياً وذكر ابن خلكان ان ابا سلمة حفص ابن سلمان الهمذاني كان اول وزير في الخلافة العباسية وذلك في عهد ابي العباس السفاح . واصبحت الوزارة على نوعين : وزارة التفويض ووزارة التنفيذ . وصلاحيات وزير التفويض واسعة تشمل كل مايقوم به الخليفة من الاعمال الادارية والسياسية والحربية غير انه لايحق لهذا الوزير ان يعزل من عينه الخليفة كما لايحق له ان يعين ولي عهد من بعده . ويبدو ان هذه الوزارة احدثت منذ عهد الرشيد وكان من وزراء التفويض جعفر البرمكي في عهده كما كان الفضل بن سهل في زمن المأمون . اما وزير التنفيذ فان عمله مقصور على تنفيذ

اوامر الخليفة ونواهيه ، وبينما كان من الامكان تقليد وزيرين للتنفيذ فانه لم يكن جائزاً تقليد اكثر من وزير واحد للتفويض . وقد انتقل منصب الوزارة الى سائر البلاد الاسلامية التي انشقت عن مركز الخلافة في مصر والاندلس وغيرها. وتقدمت وظيفة الحاجب وتعقدت في زمن العباسيين لاتساع الدولة وتعقد مشاكلها وكان مقام الحاجب رفيعاً اذ كثيراً ما كان يؤخذ رأيه فيما يعرض للخليفة من مشاكل . على ان الحجابة لم تكن اعلى وظائف الدولة فيما سوى الاندلس حيث اختلف عمل صاحبها عن عمل الحاجب في بقية الممالك فكان اشبه بوظيفة رئيس الوزراء . اما الدواوين فقد كثرت وتشعبت بتشعب الاعمال الادارية وتأثرت بالنظم الادارية الفارسية بعد ان اصبح للفرس نفوذ كبير عند العباسيين . وكان من الدواوين الهامة ديوان العزيز وهو مجلس الخليفة ويرأسه الوزير الاكبر ، وديوان الجيش وله مجلسان احدهما مجلس التقرير ويبحث في استحقاقات الجند واعطياتهم وثانيهما مجلس المقابلة ويتولى امر السجلات وتصفح الاسماء وغير ذلك . وديوان بيت المال ويشرف على ما يرد الى بيت المال من واردات وما يصرف من نفقات وقد قدر ابن خلدون خراج السواد أو جنوبي العراق في عهد المأمون بنحو ٢٨ مليون درهم وخراج الامبراطورية العربية كلها بنحو ٣٣٢ مليون درهم عدا الضرائب العينية واوجد المهدي لاجل المحاسبة ديواناً سماه ديوان الزمام . وكان ديوان الرسائل يهتم بكتابة المراسيم والعقود وقرارات التولية والرسائل الرسمية والسياسية ورئيسه كان من اهل البلاغة والثقافة وحسن الاسلوب . وسمي هذا الديوان في مصر بديوان الانشاء . ووجد ديوان آخر في بغداد سمي ديوان الجهبذة للاشراف على مصالح اهل الذمة . وعدا عن هذه الدواوين وجدت دواوين اخرى ذات شأن ولها ادارات خاصة منها ديوان البريد الذي انشىء في عهد الدولة العباسية وان تكن هذه المصلحة احدثت في زمن الامويين وكان على صاحب البريد ان يوافي الخليفة بكافة الاخبار والحوادث التي يتلقاها من اعوانه في جميع انحاء الولايات كما كان يشترط فيه ان يكون عارفاً بالطرق والمسالك والمعلومات البريدية الدقيقة عن

اسماء المحطات وان تكون لديه الخرائط عنه . وكان يوجد بريد جوي عن طريق الحمام الزاجل وقد استعمل لاول مرة في اعطاء خبر القبض على بابك الخرمي في ٨٣٧ في عهد المعتصم . وظهرت الكتب المتعلقة بالطرق والمسالك ومنها كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبه م ٩١٢ وكان صاحب البريد في منطقة الجبال (مادي). واهم الطرق كانت الطريق التي تصل همذان بنيسابور وسمرقند حتى حدود الصين وطرق اخرى من واسط الى البصرة فخوزستان وشيراز ، وطريق بغداد الى الموصل وديار بكر وطريق بغداد الى دمشق بواسطة الانبار والرقة .

ومن الدوائر التي تطورت في العصر العباسي دوائر القضاء واتسع عمل القاضي حتى اصبح في المدينة الواحدة عدة قضاة وعين الرشيد القاضي ابا يوسف قاضياً للقضاة في الدولة . وكانت شروط القاضي متعددة ذكرها الماوردي وتبين اهتمام العرب بهذا المنصب . واتسعت سلطة القاضي وشملت كل مايتعلق بالقضاء الا مابقي بيد المحتسب وقاضي المظالم . وانشئت وظيفة جديدة على مايبدو في العصر العباسي تشبه وظيفة الكاتب بالعدل في هذه الايام وكانت تسمى حينذاك بالعدالة . واصبح لديوان المظالم اهمية في الدولة العباسية والدول التي تفرعت عنها وكانت سلطته اعلى من سلطة القاضي ، وقد بنى المهدي لمحكمة المظالم قبة يجلس فيها وسماها قبة المظالم كما ان دار العدل التي بناها نور الدين الزنكي في دمشق كانت تعقد فيها هذه المحكمة . وكانت الحسبة من متممات القضاء ويذهب البعض انشاءها الى عهد المهدي وكان صاحبها « المحتسب » يراقب الاخلاق العامة كما انه يقوم بوظيفة رئيس شرطة البلدية . وكما انتقلت الحسبة الى سائر الممالك الاسلامية فقد انتقلت الشرطة كذلك في العصر العباسي وهي ايضاً من توابع القضاء وكان صاحب الشرطة من كبار موظفي الدولة ورئاسة الشرطة كانت في بغداد كما في الاندلس تمهد كترشيح للوزارة او الحجابة .

كان الجيش في العصر العباسي يتألف من الفرق النظامية او الدائمة ومن المتطوعة. وقد ازدادت العناصر الغريبة والمرتزقة ازدياداً واسعاً في هذا العصر

بسبب رغبة الخلفاء في ادخال عناصر جديدة في الجيش تكون اكثر ولاء لهم وتحميهم من سطوة العناصر الاخرى المتنازعة وبسبب مبدأ المساواة بين المسلمين من العرب ومن غير العرب وبسبب حب الرتب لدى هؤلاء الاجانب الذين لم يجدوا عملا سوى الجندية . وكانت الجيوش النظامية تحوي فرق المشاة والفرسان والرماة وفرقة الحرس الخاصة التي احدثت في زمن العباسيين وكانت رواتب افرادها اعلى من رواتب سائر الجنود . وكان يوجد فريق من النفاطين الذين يرمون مقذوفات النفط وفريق المباربين والمنجنيقيين الذين يشبهون المدفعية اليوم . وقد اشتهر من المهندسين ابن صابر المنجنيقي في زمن الناصر (١١٨٠ - ١٢٢٥) وبدأ بوضع كتاب عن الفنون الحربية ووجدت المستشفيات المتنقلة كما وجدت الرتب في العصر العباسي وهي الامير على عشرة آلاف والقائد والنقيب والعريف . وكان عدد الجيش كبيراً كما انه امتاز بسرعة الحركة وقد شهد الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع بمقدرة المسلمين الحربية وكان البيزنطيون ينظرون الى العرب كأقوى اعدائهم . وكانت ارزاق الجند تتناقص في زمن العباسيين نظراً لقبول الاعاجم بالرواتب القليلة وكانت من اسباب الشغب في الدولة العباسية عدم دفع الرواتب في اوقاتها . وجرى بعض الخلفاء ومنهم المأمون والمعتصم على اقطاع الجنود وعائلاتهم الاراضي الواقعة على حدود الروم لزراعتها واستثمارها . واما من حيث الاسطول فان كل ولاية بحرية كانت تبني السفن للدفاع عن سواحلها في الشام ومصر وافريقية والاندلس حتى اصبح البحر المتوسط في القرن العاشر الميلادي بحراً عربياً كما قال المستشرق متز . وانتشرت دور الصناعة على السواحل العربية وكانت احراج جبال لبنان تمون مراكز الصناعة بالاخشاب في سورية ومصر . ومن قطع الاسطول المركب او السفينة ، والشونة التي تقوم في اعلاها الابراج للدفاع والهجوم ، والحراقة لحمل المواد المحرقة ، والطريدة لحمل الخيل والبارجة وهي اكبر من الشونة والقراقير التي تحمل الزاد والمتاع . وكانت بين الرتب في الاسطول المقدم والرئيس وامير البحر او امير الماء التي اتت منها كلمة اميرال عند الافرنج .

وكانت الاساطيل قوية خاصة لدى الفاطميين والمماليك وفي الاندلس .

اما من ناحية الحياة الاجتماعية فان المجتمع بقي منقسماً في العصر العباسي الى احرار وعبيد والى مسلمين وغير مسلمين. كذلك كان المسلمون امامن العرب اومن الموالي غيران وضع الموالي تغير عما كان عليه في العصر الاموي بضعف العصبية العربية وبنفوذ العناصر الاعجمية وبظهور الحركة الشعوبية . وتكيفت الطبقات وتشعبت في جميع الاوساط والاقاليم لان التمدن نضج والمجتمع ازداد نشاطه وترقت حياته والدولة ازدادت ثروتها وتشعبت مصالحها . وكان الناس بقطع النظر عن التقسيمات والاختلافات التي ذكرناها بين الطبقات طبقتين في العصر العباسي هما الخاصة والعامة ولكل منها فروع واتباع . فالخاصة وعلى رأسها الخليفة تضم الهاشميين من اهل الخليفة ورجال الدولة والوجهاء والاشراف من غير الهاشميين . وللخاصة اتباع اصلهم من طبقة العامة انما اختصوا بخدمتهم وعاشوا في ظلهم وهم الجند والاعوان والموالي والخدم . وهؤلاء الخدم اكثرهم من الارقاء انما كانوا على انواع فمنهم العبيد السود والمماليك البيض والخصيان والجواري . اما العامة فكان منهم اصحاب الحرف والمهن المختلفة من راقية ومنحطة وهم من اجناس وشعوب مختلفة تقاطروا الى المدن الكبرى مثل بغداد والقاهرة للعمل والارتزاق. ويمكن تقسيمهم الى طبقتين كبيرتين فالاولى هي طبقة المقربين من الخاصة وتحتوي على نخبة من العامة التي تقربت من الخاصة بما يعجبها من علوم وفنون وآداب او من تجارة وصناعة فاستظلت بها وعاشت من اموالها وتشمل اصحاب الفنون الجميلة والعلم والادب والتجار والصناع . والطبقة الثانية من العامة وهي الاكثرية تتألف من الزراعين والفلاحين في القرى ومن عامة سكان المدن . فاما الفلاحون فان كثيرين منهم كانوا من الذميين يقيمون في القرى ويتكلمون لغات البلاد الاصلية كالسريانية في العراق والآرامية في الشام والقبطية في مصر غير ان العنصر العربي اخذ يتغلب على عناصرهم واللغة العربية تتغلب على لغاتهم والاسلام يتغلب على اديانهم . واما عامة سكان المدن فانهم كانوا في مدينة مثل بغداد عدا العرب اخلاطاً من مولدي

الامم المختلفة ولكنهم استعربوا عن طريق اللغة والبيئة . ومنهم من كان يرتزق بالصناعات اليدوية المختلفة ومنهم بالبيع والشراء . وكان بعض افراد العامة يرتزقون بالدعارة واللصوصية وهم طوائف كثيرة تعرف بالعيارين والشطار والصعاليك وسواهم وكثيراً ما كان يستفحل امرهم فتعجز الحكومة عنهم او ربما استنجدتهم في بعض حروبها كافعل الامين عندما حوصر في بغداد وعجز جنده عن الدفاع فاستنجد بالعيارين وكان عددهم خمسين الفاً . والسبب في ظهور هؤلاء الرعاع اضطراب الدولة العباسية في عصور الضعف ، والتنازع على السلطة وكثرة الفتن وغلاء الاسعار. وقد بلغ من العيارين في القرن الخامس الهجري انهم تسلطوا على بغداد وجبوا الاسواق واشتهر من رؤسائهم علي الزئبق بطل القصة المشهورة .

وانتشر الرقيق بكثرة وراجت تجارته وكان من مصادره عدا عن الاسر ان بعض العمال وخاصة في افريقيا وتركستان كانوا يؤدون بعض خراج اعمالهم من الرقيق كما ان بعض اهل الذمة كانوا يقدمون الرقيق بدلا من الجزية . وكان في بغداد شارع يسمى « دار الرقيق» يتردد اليه النخاسون او تجار الرقيق وكان عليهم عامل من عمال الحكومة يشرف على اعمالهم ويراقب تجارتهم ويسمى « قيم الرقيق ». وكان الارقاء انواعاً من حيث اجناسهم فمنهم السود واهم اسواقهم مصر وجزيرة العرب وشمالي افريقيا والثمن العادي للعبد في منتصف القرن الثاني ه حول مائتي درهم، ومنهم الارقاء البيض واهم مراكز تجارتهم سمرقند في بلاد الترك. وكان الارقاء يستخدمون للخدمة في البيوت ويتعلمون صنائع تدبير المنزل كما كان الامراء يتخذونهم كجنود ويعتمدون عليهم في جيوشهم وقد رأينا كيف اكثر منهم الايوبيون حتى نبغ منهم جماعة تقلدوا المناصب العالية وتوصلوا الى تأسيس دولة المماليك . ومن انواع الارقاء الخصيان وكانوا يباعون باثمان غالية فراجت تجارتهم وقد استخدموا في دور الحريم . كما ان الغلمان تكاثر عددهم واول من اوجدهم بكثرة الامين. ومن انواع الارقاء الجواري وكان لهن شأن كبير في تاريخ الحضارة وفي عملية التوليد وتمازج الشعوب ونبغ منهن الخدم والمربيات وامهات

الاولاد والمغنيات والعالمات وامهات الدهاء والسياسة . وترينا قصة الجارية تودد في الف ليلة وليلة التي مهرت في مختلف الآداب والعلوم درجة ثقافة بعض الجواري. وابتاع الرشيد ذات الخال بسبعين الف درهم واهدته زبيدة عشر جوار منهن ام المأمون وام المعتصم. ومع ان الاسترقاق كان مباحاً كما عند سائر الشعوب فان الاسلام نظم شؤون الارقاء وسهل لهم اسباب الحرية وحض على معاملتهم بالحسنى. وكان يمكن تحرير العبد عن طريق المكاتبة وذلك ان يتفق الرقيق مع مولاه على مبلغ من المال في اجل محدود يقدمه اليه فيصبح حراً كما ان الاسلام سن طريقة لتحرير الارقاء تسمى بالتدبير وهي ان يوصي السيد بان يكون حراً بعد موته. كما ان بعض الاتقياء كانوا يبتاعون الرقيق ثم يعتقونه تقربا الى الله . وجعل الشرع عتق الرقاب من الابواب التي تصرف فيها اموال الزكاة .

وقد اشتهر العصر العباسي بظهور حركة الشعوبية بين الموالي وبالصراع بينهم وبين العرب . ذلك ان الاعاجم شعروا في العصر العباسي الاول بقوتهم ونفوذهم فتجرأوا على الكلام ومع ذلك فان العباسيين لم ينسوا عروبتهم فكانوا عندما يشعرون بان الفرس يزاحمونهم على السلطة لايترددون بالتنكيل بهم كما فعل الرشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل بن سهل . وكانت النظريات او النزعات التي ظهرت فيما يتعلق بالعرب والموالي من الوجهة الاجتماعية ثلاثاً وهي اولاً تفضيل العرب على سائر الامم لظهور الاسلام بينهم وجهادهم في سبيل الدين فضلا عما اتصفوا به من صفات الكرم والشجاعة والكرم والوفاء وثانياً تساوي سائر الامم مع العرب وحجة اصحاب هذه النزعة انه لا يوجد امة افضل من امة اخرى طالما ان عامل التفاضل هو الدين والاخلاق ويستندون في ذلك الى الآية « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وقد عرفوا باهل التسوية وثالثاً تفضيل سائر الامم على العرب والحط من شأنهم وقام اصحاب هذه النزعة ـ وهم ممن ظلوا على دينهم القديم او اسلموا اسلاماً سطحياً او ممن غلبت عليهم النزعة الوطنية ـ يدافعون عن جميع الامم ضد العرب ويفخرون

بما انحيته . واطلقت الحركة الشعوبية على النزعتين الثانية والثالثة والشعوبيون في الاصل هم اهل التسوية ولكن لما شعر الموالي بقوتهم صارت تطلق الشعوبية على النزعة الثالثة اي العداء للعرب وبلغت اوجها في القرن الثالث الهجري. وقد هاجم الشعوبيون العرب في مزاياهم التي يعتزون بها وفي آلاتهم الحربية وتنظيم جيوشهم واكثروا من التأليف في مناقب العجم ومثالب العرب ومن كتابهم سهل بن هارون صاحب بيت الحكمة وابو عبيدة اللغوي المشهور. واختلق الشعوبيون قصصاً في الادب تؤيد نظريتهم وافسدوا الادب العربي بوضع القصص المختلفة في شرح الامثال والابيات ونسبوا الشيء الى غير قائله، وصوروا تاريخ الفرس تصويراً رائعاً واشادوا بفضل سلمان الفارسي على المسلمين لانه اشار بحفر الخندق في حروب الرسول ووضعوا الاحاديث على لسان الرسول في فضل الفرس وذكائهم . ورد العرب على الشعوبيين ووضعوا الكتب في ذلك ومنها كتاب «تفضيل العرب» لابن قتيبة وكان الاصمعي يمثل الفكرة العربية ضد معاصره الشعوبي ابي عبيدة . والمؤسف في الحركة الشعوبية ان اصحابها بالغوا في قلب المحاسن مساوىء وقاموا بهذه الحركة في عصر كانت تدون فيه العلوم فاختلقوا وفسروا لدعم نزعتهم .

اما من حيث تطور العادات والآداب الاجتماعية فقد اصاب الطبائع العربية ما اصابها في العصر الاموي انما بصورة اوسع . فقد ضعفت العصبية العربية بتسلط بعض العناصر الاجنبية وباختلاط العرب بسائر الاجناس، وكثر تزاوج الخلفاء بالاجنبيات حتى ان ثلاثة من الخلفاء فقط كانت امهاتهم من العرب وهم ابو العباس السفاح والمهدي والامين بينما في زمن الامويين كان يزيد الثالث وحده من ام غير عربية. فوالدة المنصور كانت امة بربرية والمأمون كانت امه فارسية والواثق امه رومية والمستعين صقلبية والمكتفي والمقتدر تركية والمستضيء ارمنية . ولم يبق من مناقب العرب الفطرية الا آثار ضعيفة فقد بقي الكرم واصبح بعض الناس يرتزقون بسخاء البعض الآخر وخاصة في الاوساط التي تعيش حول البلاط. وبدلا من استقلال الفكر وحرية القول اخذت تظهر في العرب طبائع المجاملة في المعاملة

وهي نتيجة انحباس الافكار وتقلب السلطات الحاكمة وكثرة الاحزاب وخوف الناس على حياتهم مما اضطرهم للمداجاة والتمويه والمجاملة حتى ان الخلفاء انفسهم كانوا يجاملون ويعدون ذلك حلماً . وذهبت النجدة والاريحية بعد تسلط الاعاجم وتحول الاغراض الى كسب المال باية وسيلة . وفيما يتعلق باساليب المعيشة فان مؤرخي العرب لم يصفوا الحياة الاجتماعية عموماً وانما يمكن معرفتها من كتب الادب . وقد ازداد البذخ في اللباس في ايام العباسيين وحمل التجار اصناف الملبوسات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحاك بالذهب والفضة ومرصع بالحجارة الكريمة . ومن اهم المنسوجات الخز والابريسم والديباج والبز وغير ذلك . واقتبس العباسيون بعض النظم الفارسية في اللباس فامر المنصور رجاله ان يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة بحيث يعتمون فوقها بعمامة صغيرة واصبح لكل طبقة اوطائفة من الناس لباس خاص . وكان الناس يتطيبون ويتخضبون . واقتنى الخلفاء الاسرة الذهب والمرصعة بالجوهر او الابنوس المنزل بالعاج واتخذوا المقاعد والكراسي ونصبوا منائر الذهب وعلقوا الستور المطرزة والموشاة وافترشوا البسط والطنافس والحصر المنسوجة بالذهب وكانوا يأتون من كل بلد باحسن مصنوعاتها واثمنها واشتروا الجوهر بالاثمان الغالية وذكر ابن خلدون ان المأمون اعطى بوران في مهرها ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت . وكانت الدولة العباسية تتدرج في سلم الترف وتحري اللذائذ وكل خليفة يعلو درجة عمن قبله والناس يتبعونه . فالخلفاء الاولون كابي العباس والمنصور كانا جادين في تأسيس الدولة وتنظيم الامور الداخلية والخارجية . وقد ترك المنصور دولته غنية وطيدة الاركان ، واتى بعده خلفاء وجدوا المال الكثير والسعة والهدوء فتنعموا واسرفوا وعهد المهدي كان كجسر بين حياة الجد السابقة وحياة الترف والنعيم . وكان من اسباب اللهو والترف عدا عن زيادة الثروة ونفوذ الفرس وميلهم الى اللهو والشراب طبيعة الرشيد الحساسة وميله الى الغناء والفنون بالرغم من شدة عاطفته الدينية حتى

انه كان يمعن في الجد حين يجد ويمعن في اللهو حين يلهو . واتى الامين من بعده فافرط في اللهو والشراب ، وهكذا اصبح العراق لاهياً في هذا العصر وسائر البلاد تقتبس من لهوه . وكان من مظاهر الترف واللهو كثرة التسري وتعدد انواع الشراب وشيوع استعماله وكان النبيذ يصنع من اكثر انواع الفاكهة ولا سيما العنب والتمر والزبيب والتفاح ومن الذرة . وقد فاق العرب الفرس والروم في التأنق والتنعم وتفننوا في معالجة اللحوم حتى انهم كانوا يعلفون الدجاج على قلب اللوز والحليب . واصطنعوا التوابل المنبهة لشهوة الطعام واتسعت مطابخ الخلفاء والخاصة وتعددت انواع الاطعمة حتى صار لكل صنف منها خدم وعليهم رئيس . ومن علائم اللهو الولوع بالغناء والرقص واغداق العطاء على المغنين والشعراء . وتتضح حياة اللهو والشراب في الاغاني والف ليلة وليلة وخمريات ابي نواس م ٨١٠ وابن المعتز م٩٠٨ وفي ديوان بشار بن برد ومسلم بن الوليد . وكان العلماء والشعراء والمغنون والموسيقيون مفضلين كندماء ولهم لباس خاص يسمى ثياب المنادمة . وكثر التهتك في المدن الكبرى وانتشر القمار واصبحت الحمامات مراكز للترف والتسلية وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه ان بغداد في زمن المقتدر كانت تحوي ٢٧٠٠٠ من الحمامات العامة وكان في الحمام ماء ساخن وبارد وارض مزخرفة بالفسيفساء وجدران من الرخام وغرف للراحة . على ان حياة اللهو هذه لم تكن حياة جميع الناس ، فالعالم الاسلامي لم يكن كله يحيى حياة العراق كما ان العراق نفسه لم يحيي كله حياة اللهو لان الناس كلهم لم يكونوا اغنياء . وكما ان بغداد كانت تعجب ارباب الاموال لما فيها من رغد عيش ونعيم فانها كانت تضيق بالفقراء بسبب ارتفاع الاسعار . وكان من نتائج هذه الحياة وما فيها من ترف البعض ولهوهم وبؤس الآخرين وجدهم ان قامت حركة الزهد التي عبر عنها ابو العتاهية واصبح الادب يظهر هاتين النزعتين المختلفتين . كذلك اثرت حياة اللهو والترف في نواحي الادب والفن والعلم وذلك ان وفر عطاء الخلفاء والولاة جعل الفن والادب لا يزدهران الا في ظل الخلفاء وحاشيتهم فاكثر الشعراء كانوا

يقصدون باب الخليفة واهم مانظم فيه الشعر هو المديح . كذلك كانت العلوم الدنيوية كالفلسفة والطب والفلك تزدهر في ظل الخلفاء والاغنياء الذين يجودون بالعطاء ولذلك فان مركزها كان العراق في اول العصر العباسي .

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية مجالس الخلفاء ومواكبهم واحتفالاتهم واستقبالهم للوفود الاجنبية . وكانت بعض هذه المجالس لشؤون الدولة وبعضها للادب والشعر والاستماع لاخبار الدول او للنوادر والاشعار . واهم المواكب كانت موكب خروج الخليفة الى الحج او سفره الى بلد آخر ومواكب الاعياد . وكان الاحتفال باستقبال الوفود فخما لاسيما اذا كان الوافدون من الدول غير الاسلامية كالروم والافرنج والهند فيظهر الخلفاء ابهة الدولة وعزها ومن امثلة هذه الاحتفالات استقبال المقتدر العباسي لرسل ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ في دار الشجرة حيث عبأ الجيوش وصف الدار بالاسلحة وزينت المراكب في دجلة وكان من جملة الزينة في دار الخلافة شجرة الذهب والفضة التي تشمل ثمانية عشر غصناً عليها طيور وعصافير من ذهب وفضة تصفر بحركات مرتبة . اما الالعاب فكان منها انواع التسلية المنزلية مثل الشطرنج والنرد (الشطرنج من السنسكريتية اصلها لعبة هندية) وقد ذكر المسعودي ان الرشيد كان اول من لعب الشطرنج . ومن الالعاب وانواع التسلية في الهواء الطلق الرماية والكرة والصولجان وهي لعبة فارسية ، والمبارزة والجريد وسباق الخيل وخاصة الصيد . ويذكر المسعودي لعبة للكرة يستعمل فيها لوح عريض من الخشب ربما كانت مبدأ لعبة التنس بصورة ابتدائية . وقد غالى العباسيون في تربية جوارح الطير والكلاب والفهود واقاموا عليها اناساً ينظرون في شؤونها كالحجالين والفهادين واصحاب الصقور والكلاب . وعني المنصور والرشيد بجمع الفيلة والاسود واتخذ سائر ملوك المسلمين محلات للوحوش والسباع وغيرها .

أما من حيث وضع المرأة فان مابقي من سذاجة البداوة في طبائع العرب قد ذهب

بانقضاء العصر الاموي واستسلم الناس للترف وضعفت الغيرة وابيح الغزل وشاع على السنة الشعراء . وكانت منزلة المرأة في العصر العباسي الاول لاتختلف عنها في العصر الاموي حتى ان بعض النساء اشتهرن باعمال جارين بها الرجال . واشتهرت الخيزران ام الرشيد وزوجته زبيدة ثم فيما بعد ام المقتدر بنفوذهن ، وتدنت منزلة المرأة في ادوار الانحطاط بذهاب حريتها وانفتها لان شيوع التسري ادى الى تشتيت عواطف الرجال بين نساء عدة وضعفت ثقة المرأة بالرجل لانشغاله عنها وذهبت غيرتها واصبحت منسية في المدن بعد فقدان حريتها وعزة نفسها وبلغ من انحطاطها ان احتقرها الرجل وأساء الظن بها وصار يوحي بالتضييق عليها مع انه المسؤول عن انحطاطها . واصبح الطعن في طباع المرأه شائعاً على السنة الناس حتى الفوا في ذلك القصص والروايات ووضعوا الحكم للتحذير من المرأة . وكانت عادة عزل النساء التي كانت شائعة عند الفرس قد بدأت في اواخر العصر الاموي واصبح عزل المرأة تاماً في القرن العاشر في العصر البويهي وكل هذا ليس من مقتضيات الاسلام الذي امر بان يكون بين الرجل والمرأة مودة ورحمة ورغب من الرجال ان يعاشروهن بالمعروف .

اما الجماعات غير المسلمة فقد عرف قسم منهم بالمشركين وهم الذين اشركوا الهاً آخر وخصوصاً عبدة الاصنام من العرب ولم يسمح لهم الاسلام بالبقاء على شركهم في الجزيرة العربية فكان امامهم الدخول في الاسلام او السيف حتى انه لم يبق منهم احد . وكانت الجماعات غير المسلمة تتألف خاصة من اهل الكتاب وهم اليهود والنصارى واطلق عليهم اسم الذميين والحق بهم الصابئة والمجوس لانهم دخلوا في ذمة المسلمين . وكان الفرق بين الدولة الاسلامية وبين دول اوربا في العصور الوسطى ان هذه كانت تشكل وحدة دينية بجانب الوحدة السياسية بينما الدول الاسلامية او « دار الاسلام » لم تكن وحدة سياسية دينية لوجود اهل الذمة الذين فتح المسلمون بلادهم . وبالاضافة الى ذلك فان المعيشة المشتركة اوجدت بين المسلمين والذميين نوعاً من التسامح لم تعرفه اوربا في العصور الوسطى وقد

امر القرآن بمجادلة اهل الكتاب بالتي هي احسن ولم يرد فيه مايهضم حقوقهم ، وفيه آية واحدة ورد فيها وجوب فرض الجزية عليهم . وكان موقف اليهود عدائياً للاسلام في مناسبات عديدة وورد ذكرهم عدة مرات في القرآن ووقف الاسلام منهم موقفاً شديداً نظراً لايذائهم الرسول . وكانت توجد ثلاث جماعات من الوجهة الشرعية بالنسبة للاسلام وهي أولا المسلمون وثانياً الذين ينزلون بلاد الاسلام ويتمتعون بحماية الدولة حسب قواعد الذمة والامان او حسب العقود والمعاهدات ويدفعون الجزية وهؤلاء هم الذميون ، وثالثاً الذين لايقبلون الا بالقتال ويعرفون بالحربيين وبلادهم تعرف بدار الحرب فيعاملون حسب قواعد خاصة . وكانت اهم الحقوق التي اعطتها الدولة الاسلامية لاهل الذمة الحرية الدينية اي حرية المعتقدات واقامة الشعائر والمراسيم الدينية الا انه كان هنالك خلاف حول حق اظهار هذه المراسيم وحول حق احداث الكنائس . ومن اهم حقوق الذميين على الدولة حمايتها لهم فاذا عجزت عن ذلك سقطت عنهم الجزية . اما تغيير الدين لم تسمح به الدولة الا اذا كان دخولا في الاسلام وضمنت الدولة لكل ديانة كيانها الخاص . وواجبات اهل الذمة هي دفع الجزية التي فرضت عليهم مقابل فرض الزكاة على المسلمين وكذلك لقاء قيام المسلمين بالدفاع عنهم وحمايتهم . ومن اهم ما اوجبه الشرع على الذميين ترك مافيه ضرر المسلمين من مال او نفس . ولم يغلق التشريع الاسلامي دون الذميين اي باب من ابواب العمل بل كانوا يتعاطون الصنائع التي تدر عليهم الارباح وقد ذكر المقدسي في ٩٨٥ ان معظم الجهابذة والصيارفة في الشام كانوا من اليهود واكثر الاطباء والكتبة من النصارى . ولم يكن في الاسلام مايمنع تولية الذميين مناصب الدولة وقد عين بعضهم في الوظائف العليا . وكان معظم الذين يشتغلون في الارض من سكان البلاد الاصليين فلما اعتنقوا الاسلام هاجر كثير منهم الى المدن ، وبالرغم من حصول الاضطهاد في عهد الرشيد وخاصة المتوكل فان روح التسامح كانت موجودة كما يشهد دفاع تيموثاوس بطريرك النساطرة في عام ٧٨١ امام المهدي . ويذكر ابن النديم في القرن العاشر ان التوراة

ترجمت الى العربية منذ عهد هارون الرشيد ولكن اول ترجمة هامة للعهد القديم الى العربية قام بها سعيد الفيومي المصري ٨٨٢—٩٤٢ وبقيت اهم ترجمة استعملها اليهود العرب . وظهر وزراء من النصارى في القرن التاسع كما ان معظم اطباء الخلفاء كانوا من النساطرة . ومعظم الرعايا المسيحيين كانوا من الكنائس السريانية المعروفة باسم يعاقبة ونساطرة . والنساطرة كانوا خاصة في العراق وبطريركهم ولقبه كاثوليكس Catholicos (المحرف الى العربية باسم جاثليق) كان يسكن بغداد وحول البطريركية المسماة دير الروم (والروم هنا بمعنى مسيحيين) نشأ حي مسيحي اسمه دار الروم . وكان يتبع البطـريرك سبع رؤساء اساقفة وكان الخليفة يقلده السلطة كرئيس مسيحيي الدولة . واقباط مصر كانوا من اليعاقبة وكذلك كنيسة النوبة . وتوجه جماعة من المبشرين الى الهند والصين في العصر العباسي ونصب سيان فو الذي بني في ٧٨١ يحمل ذكرى ٦٧ مبشراً نسطوريا . وكنيسة الهند في ملبار كانت تابعة لبطريركية بغداد والحروف المنغولية والمنشورية مشتقة بصورة غير مباشرة من الابجدية السريانية بشكلها النسطوري .

كان اليهود اقل عدداً من النصارى وحالهم حسنة وتولى بعضهم مناصب في الدولة وكانت لهم جالية في بغداد لها عشر مدارس و ٢٣ كنيساً في ١١٦٩ ورئيس الجالية كان يسمى حرفياً امير السبي وله سلطة على جميع يهود الدولة . واما الصابئة فان الصابئين منهم هم المندعيون Mandeans وهم فرقة مسيحية يهودية تمارس المعمودية في الانهار بمناسبات مختلفة وتسكن سهول بابل الجنوبية وترجع الى القرن الاول ولغتهم المندعية هي فرع من الآرامية ومعنى اسمهم المعمدون ويذكر الفهرست بانهم يشملون « المغتسلة » في جنوبي العراق ولا يزال منهم نحو خمسة آلاف قرب البصرة ويختلف عنهم تماماً صابئة حران وهم عبدة نجوم والكتاب يخلطون بين الاثنين . وقد اتخذوا اسم صابئة لكي يعتبروا من الفرق المحمية وظلوا حتى القرن الثالث عشر حتى هدم المغول معبدهم . وخدموا العلم في الاسلام ومنهم ثابت بن قرة وابو اسحق ابن هلال الصابي والبتاني وابن وحشية . ثم هنالك المجوس او الزردشتيون الذين

شملهم وضع الذميين وقد بقيت اماكن النار من الهند حتى العراق بعد الفتوحات وسمي الزردشتيون في الهند « بارسيين » (نسبة الى فارس) واصلاً هاجروا من فارس في القرن الثامن م وبين الذين اسلموا منهم ابن المقفع . اما المانوية فكانت مسموحة ولكن المهدي اضطهد اصحابها في بغداد . وقد انتشر الاسلام في العصر العباسي واثرت شدة الرشيد والمتوكل على حركة اعتناق الاسلام . وبقي في ايران حتى اليوم نحو عشرة آلاف زردشتي . وكان سكان العراق الشمالي حتى القرن العاشر كلهم مسيحيين تقريباً وكذلك مملكة النوبة واكثرية سكان جبل لبنان . اما فوز اللغة العربية فكان أبطأ من فوز الدين . ففي فارس لم تحتل مكان الفارسية بصورة تامة بالرغم من انها كانت لغة العلم والمجتمع الرسمي . وفي سورية والعراق كان الانتقال الى اللغة العربية اسهل ولكن الارامية بقيت في الجبال وعندما زالت تركت آثارها في اللغة الدارجة وفي المفردات واللفظ والمبنى (١) .

الحياة الاقتصادية وحركة الاستكشاف في العصر العباسي :

كانت الزراعة والصناعة من اهم مصادر الثروة في العصر العباسي . اما المصدر الثالث فهو التجارة . وكان العرب المتحضرون يشتغلون بالزراعة قبل الاسلام مع اشتغالهم بالتجارة . ودخلت كثير من البلاد الزراعية تحت حكمهم في عصر الفتوحات من اهمها الشام والعراق ومصر . وكان من تأثير الحروب الكثيرة والفتن وظلم الحكام ان اهملت الزراعة ولكن العصر العباسي خيم فيه السلم في معظم ادواره وسلكت الدولة سياسة معتدلة في ناحية الضرائب فازدهرت الزراعة وبلغ من اهميتها ان اهتمت الاقاليم المختلفة وحكوماتها بالري لسقي الاراضي وزيادة محصولها .

---

(١) انظر بشأن الاحوال الاجتماعية وفيها قضايا الرقيق والنصارى واليهود في العصر العباسي كتاب آدم متز Mez المكتوب اصلاً بالالمانية والمترجم الى العربية بعنوان « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » . الجزء الاول القاهرة ١٩٤٠ .

وكانت المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات من اخصب بقاع الدولة لان الحكومة المركزية اهتمت بادارتها مباشرة فانتشرت فيها شبكة واسعة النطاق من الترع والمصارف وجففت المستنقعات بنظام فني دقيق وحفرت الجداول والنهيرات حتى اصبحت المنطقة عامرة بالمدن والقرى والضياع الجميلة . وكان نهر عيسى يربط الفرات عند الانبار بالدجلة عند بغداد، والدجيل اصلاً كان يربط الدجلة بالفرات ثم ملأته الرمال في القرن العاشر وانشئت ترعة جديدة من دجلة جنوبي القادسية والتقت بدجلة في الجنوب بعد تفرعها الى فروع . وهنالك ترع كثيرة اعيد حفرها وكانت في العصر البابلي وكذلك الامر في مصر . وكانت للري مشاكل عسيرة في مختلف المناطق كالعراق وفارس ومصر واليمن وما وراء النهر . والتشريع الخاص بالري كان متشعباً وقوانينه معقدة على ان الجزء الاكبر من التشريع الاوربي المتعلق بالري مقتبس من التشريع الشرقي . وكانت منتوجات العراق التمر والارز والشعير والقمح والقطن والكتان والسمسم وقد احصوا اصناف النخيل فبلغت ٣٦٠ صنفاً ووجدت انواع الفواكه وقصب السكر .

وكان خراج خراسان عظيماً ومنتوجاتها كثيرة كالعراق ومصر . وفي مدينة مرو كان يوجد ديوان يسمى « ديوان الماء » يهتم بالري والسدود . والري في البلاد البعيدة عن مجاري المياه كان يحصل بواسطة قنوات في جوف الارض تتجمع فيها المياه وتستعمل فيها الآلات المائية كالدولاب والغرافة والناعورة والدالية . واعمال الري كانت راقية في وادي فرغانة فيما وراء النهر اما في وادي النيل فقد كان في جزئه الاسفل سدان في القرن الرابع الهجري الواحد في عين شمس ويسمى سد خليج امير المؤمنين والآخر عند سردوس جنوبي عين شمس . واهم مقاييس ارتفاع ماء النيل كانت في جزيرة الروضة بمصر القديمة . وقد تنوعت الحاصلات في مختلف نواحي الدولة وزرعت المواد الغذائية ومنها القمح لان السكان كانوا يتغذون كلهم بالخبز خلافاً لسكان آسيا الشرقية الذين كان غذاؤهم الارز . وقد زرع الارز في مناطق مختلفة منها خوزستان وطبرستان . والزيتون كان يزرع خاصة في بلاد الشام

وشمالي افريقيا واشتهرت مدينة نابلس بزيتونها وزيتها وكذلك صفاقس في تونس.
واكثر ما كان يزرع من الفواكه الكرمة واكثر ما كان يباع في الاسواق
البطيخ حتى سمي سوق الفاكهة « بدار البطيخ ». وكان بطيخ مرو يرسل الى
خلفاء بغداد في قوالب من الرصاص معبأة بالثلج. واحسن التفاح في ذلك العصر
كان تفاح الشام حتى ضرب به المثل. وقصب السكر كان يزرع حيث يمكن زرعه
نظراً لغلاء السكر واهم مراكز زراعته كابل ومصر وخوزستان والبصرة وصور.
وجميع النباتات والاشجار المعروفة في غربي آسيا كانت معروفة حينذاك عدا
البطاطا والبندورة التي اتت من العالم الجديد. والبرتقال انتشر من الهند والملايو
في غربي آسيا وبلاد البحر المتوسط وانتقلت كلمة « نارنج » الفارسية الى العربية
ثم الاسبانية ثم الى اللغات الاوربية حيث اصبحت « اورانج » orange . وقد
بقيت تربية المواشي من ابل واغنام واحياناً ابقار قوام معيشة الجزيرة العربية
وبعض البلاد المفتتحة واتى العرب بالجاموس من الهند وكانت تغلب تربيته في
العراق حيث تكثر البطائح والمستنقعات. والخيول الاصيلة كانت تجلب الى بغداد
من جزيرة العرب وتجارة الخيول كانت رائجة بينها وبين الهند وذكر الرحالة
ماركوبولو اهمية هذه التجارة.

وقد تطورت صناعة العرب واتسعت بعد اختلاطهم بالامم التي خضعت لحكمهم.
ورغم انهم احتقروا الصناعة في باديء الامر في هذا العصر فبقيت في ايدي الذميين
او الموالي الا انهم مالبثوا ان اتقنوها وتفننوا فيها. وكان ازدهار الصناعة نتيجة
لازدياد الثروة وحياة الترف والاقبال على اللباس والاثاث والمجوهرات كما ان
اصحاب الصناعات المقربين من الخاصة جنوا ثروات طائلة بنتيجة استفادتهم من بذخ
طبقات الخاصة الغنية. ومن أول نواحي النشاط الصناعي استخراج المعادن
الثمينة والمفيدة التي استعملت كمادة اولية لصنع الاشياء الضرورية والكمالية.
وقد استخرج المسلمون الفضة واهم مراكزها في مدينة « بنجهير » بنواحي بلخ،
والذهب واكبر مدينة لمنجمي الذهب كانت « العلاقي » على خمس عشرة مرحلة من

اسوان . والحجارة الكريمة كان اشهرها فيروز نيسابور وياقوت سرنديب ولؤلؤ عمان والبحرين وزبرجد مصر وعقيق اليمن، ولم يكن الالماس الشأن المظيم الذي اصبح له اليوم وكانت صناعة الحلي رائجة والخاصة تقبل عليها وقد اشترى هارون زبرجدة باربعين الف دينار وترك المكتفي جواهر وعطوراً بقيمة عشرين مليون دينار ، واستعملت في احدى مآدب المتوكل صواني وموائد من الذهب مرصعة بالجوهر . اما المعادن فكان منها الحديد ويستخرج خاصة من بلاد فارس ومن منطقة كابل وفرغانة ولبنان . ووصف ابن حوقل الفحم الحجري بانه حجارة تحترق كالفحم وكان يوجد في فرغانة وبخارى . وكان يستخرج النحاس والشب والرخام والكبريت والبورق والملح .

وكانت صناعات النسيج منتشرة في الاقاليم الغنية بموادها الاولية ومن اسباب انتشارها حياة الترف التي ادت الى التأنق باللباس والتنعم بالاثاث والرياش فضلاً عن شيوع عادة الخلع على الوزراء في مختلف المناسبات وكثرة المهاداة بين الحكام وطبقات الخاصة وبين النساء . وكانت صناعة البسط والسجاجيد منتشرة في جميع البلاد ومن انواعها الستائر المعلقة على الجدران ، والبسط والانخاخ التي تفرش على الارض ، والانماط التي تفرش للنظر دون للدوس وانواع من المصليات والبسط والوسائد . واشهر البلاد في هذه الصناعة كانت فارس ومن اشهر مدنها تستار في خوزستان التي كانت تصنع الستائر للكعبة . اما الفرش المسماة بالطنافس فكانت تصنع أولاً في المناطق القريبة من بلاد الروم . وقد اوصت ام المستعين على سجادة ثمنها ١٣٠ مليون درهم فيها رسوم مختلف الطيور مذهبة وعيونها من حجارة كريمة . وصناعة الخيام كانت ضرورية لكثرة الاسفار وبعد المسافات . واشتهرت مصر بنسيج الكتان في الفيوم ومنطقة بحيرة تنيس حيث دمياط وتنيس ودبيق . وصنعت اقمشة العمائم في دبيق واسيوط واشتهرت الموصل بنسيجها القطني والحريري الذي عرف عند الافرنج بالموسلين . وانتشرت صناعة الحرير فصنع الديباج في تستار والخز في السوس واشتهرت خوزستان في فارس بصنع الحرير كما اشتهرت

الاسكندرية والفسطاط ودمشق وعرفت اقمشة هذه بالدمسق . وينتسب الى حي العتاب في بغداد قماش مقلم اسمه العتابي في القرن الثاني عشر وقلده عرب اسبانيا وعرف في اوربا باسم تابي Tabi . وكانت تنتج الكوفية الكوفيات الحرير وغيرها للرأس وبعض مدن فارس كانت تنتج الخلع والطراز وعلها اسم الخليفة او شعاره. وانتشرت الالبسة الحريرية الفارسية باسم تافتا في اوربا وصنعت العبي من الحرير وكذلك من وبر الابل . وازدهرت صناعات كثيرة اخرى عدا عن النسيج ومنها صناعة الاسلحة والدروع في كرمان والسيوف والفولاذ في دمشق التي اكتسبت شهرة عالمية اثناء الحروب الصليبية . وصنع المسلمون الورق بعد ان نقلوا صناعته من الصين ودخل سمرقند في القرن الثامن وصنعوه من الكتان والقطن . وكان في بغداد مصنع للورق ثم اسست المصانع في مصر نحو عام ٩٠٠ وفي اسبانيا نحو ١١٥٠ واقدم مخطوط عربي على الورق كتاب غريب الحديث لابي عبيد القاسم بن سلام م٨٣٧ وتاريخه ٢٥٢ هـ اي ٨٦٦ م وهو في مكتبة جامعة ليدن. واشتهرت صناعة الادوات الخشبية من طباق وقصاع وامشاط ومركزها منطقة طبرستان جنوبي بحر الخزر . وصنعت الاواني الخزفية والزجاجية في مصر واشتهر زجاج صيدا وصور وسائر مدن سورية بنقاوته . واثرت انواع الزجاج الملون والمموه بالمينا على الزجاج الملون في كاندرائيات اوربا ووجدت المصابيح والاواني الزجاجية في الجوامع والقصور، ودمشق كانت مركز صنع القاشاني باسم قاشان في مادي، والفسيفساء واهم الالوان المستعملة في القاشاني الاخضر والازرق . ومن اشهر ماعرفت به البلاد الاسلامية صناعة الروائح العطرية وخاصة في فارس وقد استحضرت الزيوت العطرية من الورد والبنفسج والنرجس والسوسن والزنبق والليمون والنارنج . وصنع ماء الورد في « جور » في جنوبي فارس ومن الصناعات الغذائية مطاحن الدقيق وانواع الثمار المعقدة بالسكر والعسل وانواع الشراب من السكر والفواكه . وصنعت جلود الكتب المزخرفة واشهر مراكزها مراكش التي اشتق منها اسم صناعة الادوات الجلدية عند الافرنج Maroquinerie . وصنعت

آلات القياس في مدينة حران وهي آخر مأوى لعبدة الكواكب ونشأت عن ذلك صناعة ادوات القياس مثل الاسطرلاب والآلات الرياضية الدقيقة والموازين .

واما التجارة فقد اشتهر بها العرب قبل الاسلام ثم انصرفوا عنها في عصر الفتوحات وعادت فنشطت نشاطاً قوياً ولا سيما في العصر العباسي . ومن عوامل هذا النشاط اتساع رقعة الامبراطورية العربية والاختلاط بالروم والفرس وغيرهم وتقليدهم في نواحي الترف وكثرة الاموال وتنوع الانتاج الزراعي والصناعي وارتفاع مستوى المعيشة مما وسع حركة التبادل وكان التجار الاولون من المسيحيين واليهود والزردشتيين ثم اهتم المسلمون والعرب بالتجارة . واصبحت التجارة بعد القرن الثالث الهجري مظهراً من مظاهر ابهة الاسلام وقامت قوافل المسلمين وسفنهم تجوب البلاد والبحار كلها حتى اصبحت تجارتهم الاولى في العالم وصارت الاسكندرية وبغداد تقرران الاسعار في العالم كله وخاصة في البضائع الكمالية . واصبحت بغداد وسيراف والبصرة والقاهرة والاسكندرية مراكز تجارة برية وبحرية عظيمة . وكانت التجارة الشرقية نحو الصين تتجه من البصرة واقدم مصدر عن هذه التجارة مع الهند والصين قصة سليمان التاجر (نحو ٨٥١ م) والذيل الذي وضعه لها في القرن العاشر م مؤلف من سيراف اسمه ابو زيد حسن [١] . وقد ظهر جماعة من التجار جمعوا الاموال الطائلة كآل الجصاص تجار الجواهر في مصر وبغداد الذين انتزع منهم المقتدر ١٦ مليون دينار وظلوا اغنياء . وكان لبعض تجار البصرة وارد سنوي لايقل عن مليون درهم كما كان في سيراف بعض تجار بحريين لاتقل ثرواتهم عن اربعة ملايين دينار . ويذكر الاصطخري رجلا قضى اربعين سنة بدون ان ينزل الى البر . والمراكز التجارية كانت كثيرة في

---

(١) انظر: Voyage du marchand arabe Sulayman en Inde et en Chine. Trad. G.Ferrand. Paris 1922. وكتاب « الرحالة المسلمون في العصور الوسطى » تأليف زكي محمد حسن . القاهرة ١٩٤٥ ص ٢١ .

العصر العباسي ومن اهمها البصرة لانها ثغر العراق ومحط رحال الشرق والغرب من الصين الى الصحراء الكبرى واشتهر اهلها بالاسفار البعيدة حتى قال الهمذاني « وابعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري » ولقبت بخزانة العرب لكثرة مافيها من اصناف مجلوبة . وكانت دمشق من اهم المراكز التجارية والتقى فيها تجار العرب والفرس والبيزنطيين والاندلسيين والصقالبة وتجار من الصين والهند واصبحت من المراكز الرئيسية لسير القوافل الذاهبة الى مكة . وحلب كانت من اهم المحطات بين البحر المتوسط والفرات واواسط آسيا . واشتهرت عمان وعدن وخاصة سيراف على الخليج الفارسي . ولم تعد هنالك حاجة الى الاسواق التجارية القديمة والمواسم بسبب تحضر العرب وكثرة المدن . واصبحت وحدة النقد في القرن الرابع الهجري احدى علامات وحدة التجارة الاسلامية حيث دخل الدينار الذهبي المستعمل في الشام ومصر الى العراق وكانت تستعمل الدراهم من الفضة . وكان للجهابذة شأن كبير في التجارة واحصى السائح ناصر خسرو عدد الصرافين في اصفهان فكان مائتي صراف ، وكان لبعض الصرافين في بغداد مثل هارون بن عمران شبه مصرف وكانوا احياناً يقدمون للدولة مالا ينتظرون تسديده من خراج المقاطعات . واستدعت المعاملات التجارية الضخمة وسائل للدفع خفيفة الحمل فاستعملت السفتجة او الحوالة وكذلك استعمل الصك واصبح كالشيك الرسمي فكان التجار في السوق يعطون الصراف مالاً ويأخذون رقاعاً ليشتروا مايلزمهم ويحولون الثمن على الصراف باعطاء هذه الرقاع ، وكان مركز التجارة الاسواق وكل طائفة من التجار تجلس في قسم خاص . وكانت توجد مخازن كبرى او خانات كدار البطيخ في البصرة حيث ترد جميع انواع الفاكهة . وفي المغرب وجدت فنادق للتجار الغرباء تشبه الاسواق وتوضع البضائع في قسمها الاسفل وينام التجار في اعلاها . وقد حرمت الشريعة الاسلامية التعامل بالربا والمضاربة بمواد الطعام منذ البدء وكانت الظروف الزراعية احياناً تستلزم بعض صفقات المضاربة على الحصاد والدرس وجني الثمر .

ادت مشاريع العرب التجارية الى ارتياد مناطق مجهولة وحملتهم الى اطراف المعمور ففتحوا طرقاً تجارية جديدة . ولم يزدهم اطلاعهم على كتب اليونان والرومان الجغرافية الا رغبة في الاستكشاف فكانت حركة التوسع التجاري مقرونة بالاستكشافات الجغرافية واصبحت الكتب الجغرافية العربية من اهم الآثار الادبية والعلمية التي تركتها العصور الوسطى . ففي شمالي افريقيا اخذ العرب يتوغلون في البلاد الصحراوية بعد ان فتحوا ساحل البحر المتوسط ولم يأت القرن الرابع ﻫ الا وكانوا قد وصلوا الى بحيرة تشاد في افريقيا الاستوائية . وكانت المدن الثلاثة التي تسير منها الطرق الى قلب القارة طرابلس الغرب في الجهة الشرقية من الساحل والقيروان في الوسط ومراكش في الغرب وكانت هذه الاخيرة تتصل بمدينة طومبقتو على النيجر وتستغرق البضائع تسعة شهور للوصول من بحيرة تشاد الى الساحل . وكانوا يحملون من تلك البلاد العبيد والتبر والجلود والعاج وريش النعام ويأخذون اليها الملح والتمر والمرجان والحرير والسكر والتوابل . كذلك توسع العرب على ساحل شرقي افريقيا واسسوا مقاديشو في الصومال ، ومومباسا على ساحل كينيا وبمبا Pemba في زنجبار ، وموزامبيك . وقواعد توسعهم كانت جزر البحرين وعدن والجزر الموجودة قرب مدخل البحر الاحمر . وقيل ان العرب وصلوا روديزيا وانهم اكتشفوا مدغسكر . وفي آسيا توسع العرب في البر والبحر ومن اهم طرقهم الى اواسط آسيا طريق خراسان العظيم الذي يبدأ بمدينة بغداد ومنها يجتاز الجبال الى كرمنشاه فالري ثم يجتاز البوادي الى نيسابور وطوس ومرو ومنها الى بخارى وسمرقند فحدود الصين عند كاشغر . واهم التفرعات على هذا الطريق كانت عند مرو او سمرقند حيث يذهب فرع الى الجنوب الشرقي حتى يصل الهند عن طريق بلخ وكابل . ومنذ منتصف القرن الثامن بدأ العرب يرتادون بلاد الصين واتسعت علاقاتهم بها في عهد نصر بن احمد الساماني الذي كانت علاقاته حسنة مع ملوك الصين . غير ان الطرق الرئيسية الى الشرق الاقصى كانت الطرق البحرية فقد قصد العرب الى ساحل ملبار في الهند

ومنه الى سيلان ثم تابعوا سيرهم عن طريق خليج البنغال الى جزر الملايو فأسسوا جاليات قوية في سنغافورة وبورنيو وجاوه وسومطره وحتى في الصين . وتوسع التجار المسلمون كذلك في اوربا فدخلوا بلاد الروس حتى اصبحت استرخان وكييف وموانىء البحر الاسود معروفة لديهم وكانوا يستبدلون بضائع البلاد الجنوبية التي يأتون بها كالفواكه والتوابل والاقمشة والخمور والعطور ببضائع البلاد الشمالية كالرقيق والفرو والجلود والعسل والشمع والاخشاب والقنب . ووصل بعض التجار الى براغ وكانت اكبر سوق للرقيق في اوربا . وذكر الطرطوسي الذي زار المانيا في القرن العاشر في عهد اوتو الكبير انه شاهد الحرائر الشرقية والتوابل تباع في مدينة ماينس على الرين . ووجدت نقود اسلامية واكثرها سامانية في اعالي نهر الفولغا وفي سواحل البلطيق وخليج فنلندا وجزر الدنمرك وجنوبي النروج وفي الروسيا والسويد .

وقد اعتنت الدولة الطولونية وكذلك الدولة الغزنوية بالطرق وكانت العناية احياناً تقتصر على حراسة الطرق وانشاء اماكن لراحة المسافرين وتأمين الماء لهم . ففي الطرق الصحراوية كانت تبنى الربط للزهاد ينزل فيها المسافرون وكانوا احياناً ينزلون في الاديرة او في الخوانق كما في مصر . وقد استعملوا لعبور الانهار جسوراً من السفن كما في بغداد وواسط واستعملوا القناطر ايضاً مثل قنطرة « ايذج » على نهر قارون في فارس . ولم يكن من يتعرض للمسافرين والافراد او يكتب اسماء القادمين على ابواب المدن في شرقي الدولة الاسلامية بينما في مصر كان يوجد نظام دقيق لجوازات المرور . ومن اهم الطرق عدا الطريق الشرقي الى الصين ذلك الطريق الذي يصل بغداد بالقاهرة مارا بالموصل وسنجار ونصيبين ورأس العين والرقة ومنبج ثم حماة وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرملة والقاهرة والاسكندرية كذلك كان يوجد طريق من بغداد الى دمشق يعبر الفرات عند هيت وحركته عظيمة جداً كما يشهد بذلك ارتفاع خراج المرور عند هيت .

وكانت الملاحة تسلك بحرين رئيسيين : البحر المتوسط والمحيط الهندي . وكان

العرب يقطعون البحر المتوسط في عرضه بمدة ٣٦ يوماً من اقصى الغرب الى سلوقية في الشرق وهي اهم ميناء تجاري في الشام بينما كانت صور الميناء الحربي الاسلامي المواجه لبيزنطة . وكان على الذي يريد امراً في هذا البحر في القرن العاشر ان يكسب صداقة العرب كما فعل تجار نابولي وامالفي في ايطاليا . اما المحيط الهندي فكان مبدأه من عدن التي سماها المقدسي « دهليز الصين » لانها نقطة ارتكاز بين الهند والصين ومصر وبين افريقيا وبلاد العرب . ومن فروع المحيط الهندي البحر الفارسي وهو يقابل بحر العرب والخليج الفارسي اليوم . وكان قرصان البحر يأتون من الهند لقطع الطرق والنهب على سواحل بلاد العرب . واصبحت اللغة الفارسية من اهم اللغات التي يتكلمها التجار الذاهبون الى شرقي آسيا والهند بسبب اهمية سيراف التي تمر بها تجارة فارس ولا تزال اللغة العربية تحوي مصطلحات فارسية بحرية مثل الديدبان (الحارس) والربان قائد السفينة . اما البحر الاحمر فكانت ملاحته صعبة لما فيه من شعاب ورياح معاكسة ومن اهم موانئه عيذاب على الساحل المصري وهي نقطة اتصال بين ملاحة البحر الاحمر والنيل . وبحر الزنج في شرقي افريقيا وصل العرب فيه موزامبيك التي قصدها السيرافيون والعمانيون . وذكر المسعودي انه لم ير بحراً اهول من بحر الزنج وذلك على اثر رحلته من زنجبار الى عمان عام ٩١٦م . وسلك العرب بحار الصين وكانت مدينة كانتون من اهم مراكزهم التجارية في الصين في القرن الثامن وكانت لهم فيها جالية كبيرة . والملاحة النهرية لم توجد بشكل واسع سوى في مصر وما بين النهرين . وكانت البضائع الارمنية تنحدر في نهر دجلة حتى الموصل فبغداد كما ان التجارة كانت تنتقل على الفرات من الشام الى بغداد وتنزل البضائع عند مدينة الانبار ومنها تحمل الى بغداد . وقد شبهت بغداد بالبندقية في ايطاليا والناس كانوا يتنقلون داخلها في السفن وقد احصي فيها عدد السفن التي استعملت لنقل الناس والتجارة في القرن العاشر فبلغ ثلاثين الف سفينة . وكانت السفن تنهب احياناً رغم سيرها في قوافل . وكانت اكبر شبكة من النهيرات التي تجري فيها الزوارق شرقي

البصرة حيث تفترش مياه الانهار وقد احصيت في بعض العصور فبلغ عددها المائة وعشرين الفاً . اما على نهر النيل فكانت الملاحة عظيمة جداً وملتقى تجارة السودان كان في اسوان .

وهكذا تمكن العرب في العصور الوسطى من الوصول الى مناطق قاصية في البر القديم الذي اصبح قسم كبير منه تحت نفوذ الدولة العربية وحضارتها . وكان التجار المسلمون اينما وجدوا يحملون معهم ديانتهم ولغتهم حتى ان الاسلام انتشر في داخل القارة الافريقية وعلى سواحلها الشرقية والغربية وكذلك في الهند وجزر الصوند (اندونسيا) وقسم من الصين . وانتشرت اللغة العربية وذاع استعمالها حتى احتلت في بلاد افريقيا وآسيا المنزلة التي احتلتها اللغة الانكليزية فيما بعد وشبه احد مؤرخي العصر الحاضر العرب بالانكليز اليوم في نشاطهم التجاري وسماهم «انكليز العصور الوسطى» وقال ان التاريخ لم يعرف امبراطورية بلغت اتساع امبراطوريتهم سوى الامبراطورية البريطانية في العصور الحديثة وكلاهما امبراطوريتان تجاريتان.(١)

وكان من عظم شأن هذا التوسع التجاري ان الرحالين الجغرافيين العرب كتبوا عن تجارة المسلمين ووصفوا البلاد التي وصلتها تجارتهم ومنهم ابن خرداذبه وقدامة في القرن التاسع م والمسعودي الاصطخري وابن حوقل والمقدسي وابن فضلان في القرن العاشر والادريسي وابن جبير في القرن الثاني عشر وابن بطوطة في

---

(١) انظر بشأن مظاهر الحياة الاقتصادية : الجزء الثاني من كتاب آدم متز بعنوان « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » والجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ، وكذلك كتب :

J. W. Thompson : An Economic and Social History of the Middle Ages ». New York, 1928 pp. 352-379 ; W. Heyd : Histoire du commerce du Levant au moyen âge. Leipzig et Paris 1885 ; R. Blachère: Extraits des principaux géographes arabes du moyen âge. Paris et Beyrouth, 1932.

القرن الرابع عشر وقد ساح بين طومبقتو في السودان وكانتون في الصين . ومغامرات السندباد البحري في الف ليلة وليلة مبنية في بعض حوادثها على قصص الاسفار البعيدة التي كان يقوم بها التجار المسلمون .

الحياة الفكرية ومآثرها في العصر العباسي : شهد العصر العباسي الاول حركة فكرية واسعة تعد من اعظم حركات اليقظة الفكرية في تاريخ الحضارة. وكان من اسبابها الرئيسية تأثير الثقافات الاخرى المجاورة من فارسيـة وهندية وسورية ويونانية ، وامتازت بحركة واسعة في الترجمة من الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية الى العربية مثلما امتازت النهضة الثقافية في بلاد الشرق العربي الحديث بالترجمة من الانكليزية والفرنسية منذ اواخر القرن التاسع عشر . على ان هـذه الثقافات الاجنبية وخاصة الهلينية التي تمثلهـا العرب في مدة وجيزة كانت مصادرها الاصلية في الحضارات القديمة التي عرفتها مصر وسورية وبلاد الرافدين. ومن جهة اخرى فان العرب نقلوا هذه الثقافات مع مبتكراتهم الخـاصة الى اوربا حيث ساعدت على قيام عصر النهضة في مطلع العصور الحديثة . ومع ذلك يجب ان نذكر بان جانباً كبيراً من العلوم التي اشتغل بها العرب وهي العلوم العربية الاسلامية كانت من مقتضيات دينهم ولغتهم وقاموا فيها بابحاث مستقلة مبتكرة وتشمل العلوم الدينية او الشرعية والعلوم اللسانية اوعلوم اللغة والتاريخ وعلم البلدان. اما العلوم النقلية او الدخيلة التي نقلت عن الاعاجم وتشمل الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء فقد نبغ فيها العرب وكان لهم فضل على تقدمها . ومما لاشك فيه ان التأثيرات الهلينية كانت اقوى التأثيرات طالما ان الثقافة الهلينية كانت منتشرة في بلاد الهلال الخصيب ومصر عندما افتتحها العرب . واهم مراكز تسرب هذه الثقافة الى العرب كانت الرها التي ازدهرت مدرستهـا في القرنين الرابع والخامس وكانت اهم مركز للسريان والنساطرة ولامتزاج الفكر اليوناني بالفكر السوري ، ونصيبين التي كانت ضمن الامبراطورية الفارسية منذ

٣٦٣ واعيد فتح مدرستها بعد ان اغلق الامبراطور البيزنطي مدرسة الرهافي ٤٨٩، وجند يسابور التي أسسها كسرى انوشروان في نحو ٥٥٥ وكانت فيها الثقافة الهندية والفارسية بجانب اليونانية انما لغة التدريس فيها السريانية ومعظم اساتذتها من النساطرة واليعاقبة السوريين، ورأس العين وحران مركز الصابئة وانطاكية والاسكندرية والاديرة التي كانت فيها الدراسات الفلسفية والعلمية ناشطة بجانب الدراسات اللاهوتية . وكانت المخطوطات التي تحوي علوم اليونان ترد الى خلفاء العباسيين من الدولة البيزنطية فيترجم معظمها الى السريانية ثم الى العربية حتى اصبح النساطرة السوريون من اكبر ناقلي الحضارة اليونانية ليس الى البلاد الاسلامية فحسب بل الى العالم اجمع . (١) وبلغت حركة الترجمة مع ما رافقها من انتشار الثقافة اليونانية اشدها في عصر المأمون الذي اراد أن يجد في مؤلفات اليونان الفلسفية ما يبرر اعتناقه لمذهب المعتزلة فأسس بيت الحكمة في ٨٣٠ ببغداد وكان من اعظم المؤسسات الثقافية في الشرق منذ تأسيس المتحف الاسكندري في القرن الثالث ق . م ودامت حركة الترجمة قرناً كاملاً منذ بدء الخلافة العباسية وكان التراجمة احياناً يضمون كلمات اجنبية بكاملها اذا لم يجدوا كلمة عربية تقابلها وهكذا اتت كلمات الفلسفة والجومترية (الهندسة) والموسيقى والاسطرلاب والمغنطيس وغيرها .

ولم يهتم المترجمون بالكتب اليونانية الادبية من شعر ومسرحيات وتاريخ والترجمة الجزئية لالياذة هوميروس التي عملها توافيل (تيوفيلوس) بن توما الرهاوي م ٧٨٥ لم تصلنا . والكتب التي ترجمت في اول الامر هي كتب الطب والرياضيات والفلسفة اليونانية التي كان من اكبر مؤلفيها جالينوس م ٢٠٠ واقليدس نحو ٣٠٠ ق.م وبطليموس (قرن ثاني م) وافلاطون وارسطو وجماعة الافلاطونيين الحديثين .

---

(١) راجع بشأن حركة الترجمة والمترجمين من اليونانية : O'Leary : How Greek Science Passed to The Arabs. London 1951.

وقد بدأت حركة الترجمة في عصر المنصور وكان ابو يحيى بن البطريق (توفي في نهاية القرن الثامن) من اول المترجمين وبين الكتب التي ترجها مؤلفات جالينوس وابقراط الطبية . ومع ان رياضيات اقليدس والمجسطي لبطليموس قد ترجمت في هذا العصر فان ترجمتها اعيدت باتقان اكثر فيما بعد في عهد الرشيد والمأمون . وبين كبار التراجمة يوحنا بن ماسويه الطبيب م ٨٥٧ تلميذ جبريل بن بختيشوع ويقال انه ترجم بعض المخطوطات التي جلبها الرشيد من بلاد الروم .

واعظم المترجمين هو حنين بن اسحق (المعروف باللاتينية باسم Joannitius) ٨٠٩ — ٨٧٣ وكان عالماً نسطورياً من الحيرة ومدير اعمال الترجمة في عهد المأمون وبين الذين عملوا تحت ادارته ابنه اسحق الذي اشتهر بترجمة مؤلفات ارسطو ، ونسيبه حبيش بن الحسن وموسى بن خالد . ومن الكتب التي نسبت ترجمتها الى حنين مؤلفات جالينوس وابقراط وديوسكوريدس (والاخير من منتصف القرن الاول) وجمهورية افلاطون ومقولات ارسطو وطبيعياته وخلقياته . وقد فقدت بعض كتب جالينوس باليونانية ومنها قسم من كتبه في التشريح ولكنها حفظت في الترجمة العربية . وقد تعاون حنين مع ابناء شاكر الذين كانوا يقومون بابحاث خاصة ثم دخل خدمة المأمون وقيل انه كان يعطيه وزن الكتب التي كان يترجمها ذهباً ثم اصبح طبيب المتوكل ، وقال عنه لوكلير Leclerc مؤلف تاريخ الطب العربي انه اعظم شخصيات القرن التاسع ومن انبل الشخصيات في التاريخ . وساهم جماعة الصابئة في حران في حركة الترجمة وخاصة ترجمة الكتب الفلكية والرياضية لكونهم عبدة كواكب[1] . ومن اول علماء مدرسة حران الحجاج بن

---

(١) يمكن الاطلاع على اخبار العلماء المترجمين والكتب التي ترجموها خاصة في كتاب الفهرست للنديم م ٩٩٥ (طبع ليبزك ١٨٧٢) ، وكتاب القفطي م ١٢٤٨ « اخبار العلماء باخبار الحكماء » طبع ليبزك ١٩٠٣ وكتاب ابن ابي اصيبعة م ١٢٧٠ « عيون الانباء في طبقات الاطباء » طبع كونغسبرغ ١٨٨٤ .

مطر معاصر الرشيد والمأمون وهو من اقدم الذين ترجموا مؤلف اقليدس وكتاب المجسطي لبطليموس . واشهر علماء حران ثابت بن قرة (نحو ٨٣٦ - ٩٠١) الذي ترجم مع مساعديه كتب الرياضيات والفلك واعاد النظر في الترجمات السابقة وكان صديقه الخليفة المعتضد وخلفه ابنه سنان واحفاده من بعده . ومن الصابئة المشهورين البتاني م ٩٢٩ (معروف عند مؤلفي اللاتين باسم Albatenius) وكان عالماً فلكياً . ويمكن ذكر قسطا بن لوقا م نحو ٩٢٢ واصله من بعلبك بين مترجمي الكتب الرياضية والفلسفية . ثم ظهر تراجمة من اليعاقبة ومنهم يحيى بن عدي م ٩٧٤ وقد اشتهروا بمراجعة كتب ارسطو وادخال المناقشات الافلاطونية الجديدة والصوفية الى العالم العربي . وهكذا تعرف العرب على امهات كتب اليونان بينما كانت اوربا تجهل العلوم اليونانية وكان ملوكها امثال شارلمان يتعلمون كتابة اسمائهم .

وقد اثرت الثقافة الفارسية خاصة في نواحي الادب ومنها الاساليب النثرية المعروفة باناقتها وصورها الزاهية وتعبيرها ومنها ايضاً تعريب بعض الالفاظ الفارسية وكتابة التاريخ حيث ترجمت كتب تاريخية من الفارسية احدها كتاب خداينامة الذي نقله ابن المقفع بعنوان « تاريخ ملوك الفرس » ، ومنها الحكم وآداب السلوك التي نجد في الادب العربي اشارات كثيرة حولها الى مراجع فارسية وهندية . وكان للفرس اثر في العلوم اخذوا بعضها عن جيرانهم . وقد ترجم الفضل بن نوبخت في زمن الرشيد كتب الفلك من الفارسية الى العربية . كما ان العلوم العربية وخاصة الطب والفلسفة تأثرت بمدرسة جنديسابور التي اسسها كسرى انوشروان وكان يدرس فيها جماعة من العلماء الذين نزحوا من بلاد الروم على اثر اغلاق المدارس الوثنية كما درس فيها جماعة من النساطرة واشهرهم جورجيس بن بختيشوع م ٧٧١ الذي استدعي من رئاسة المستشفى ليطب الخليفة المنصور وبقيت اسرته لمدة سبعة اجيال تحتل وظيفة طبيب بلاط الخليفة . اما ثقافة الهند فقد اثرت خاصة في الرياضيات والفلك وفي الفلسفة والقصص والحكم . ففي عهد المنصور نحو ٧٧١ م اتى هندي الى بغداد ومعه كتاب السدهنتا في الفلك وقد ترجمه الى العربية محمد بن ابراهيم

الفزاري وعرف باسم كتاب السند هند وقد بنى الخوارزمي المشهور (م نحو ٨٥٠) جداوله الفلكية او زيجه على هذا الكتاب كما انه جمع بين الانظمة الفلكية الهندية واليونانية واضاف اليها من عنده . كذلك دخلت الارقام الهندية في نحو هذا الوقت واتخذت اساساً للعدد عند العرب فعرفت بالارقام الهندية بينما عرفت في اوروبا بالارقام العربية . وكان للفلسفة الهندية اثر في التصوف كما ان بعض المفردات الهندية دخلت اللغة العربية عن طريق التجارة مثل الابنوس والخيزران والكافور والزنجبيل . ومن اهم الدلائل على اثر الهنود في القصص والحكم كتاب كليلة ودمنة (او حكايات بيدبا) الذي ترجم من السنسكريتية الى البهلوية ومنها الى العربية عن يد عبدالله بن المقفع الذي كان زردشتياً اعتنق الاسلام وتوفي نحو ٧٥٧ . واهمية الترجمة العربية ان الاصل في الهندية والفهلوية قد فقد غير ان الاصل في شكله الموسع موجود في المجموعة السنسكريتية المعروفة بالبانشتنترا . وفيما سوى هذه الثقافات فان الديانات المعروفة كالمسيحية واليهودية والصابئة الحرانية كانت لها ثقافاتها وكتبها وقد اثرت في الثقافة العربية عن طريق افرادها الذين دخلوا في الاسلام وعن طريق الكتب والتعاليم التي اطلع عليها العرب .

اهتم المسلمون العرب بالعلوم التي اقتضاها الاسلام وخاصة العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه فكانت من أهم نواحي النشاط الفكري في العصر العباسي . وادت ضرورة ضبط قراءة القرآن وتفسيره وفهم الحديث الى العناية بعلوم اللغة وكان معظم الثقات في هذه النواحي من اصل عربي . وقد قال العلماء بوجوب توفر شروط خاصة في علماء التفسير وكان من اهم المفسرين الطبري (في القرن التاسع م) صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن» في ثلاثين مجلداً ، والزمخشري (م ١١٤٣) صاحب «الكشاف» والبيضاوي (م ١٢٨٦) ومؤلفه «انوار التنزيل واسرار التأويل» والنسفي (في القرن الثالث عشر) صاحب «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» وجلال الدين السيوطي (من اواخر عهد المماليك) احد واضعي «تفسير الجلالين» . وبعد القرآن تأتي السنة كأساس للتشريع وتشمل كل ما قاله

النبي اوفعله اوقرره (بمعنى انه حدث امامه واستحسنه). فهي تشمل الحديث الذي اصبح علماً خاصاً نظراً لضرورة ضبط الاحاديث والرحلة في طلب العلم لجمعها ودراستها. وظهرت اساليب الاسناد والجرح والتعديل كما ظهرت طبقات المحدثين وصنفت الاحاديث الى انواع كالصحيح والحسن والضعيف ودونت فكان منها المسندة والمصنفة. وكان القرن الثالث الهجري او التاسع الميلادي العصر الذهبي لجمعها وتدوينها فالمسندة هي التي جمعت فيها الاحاديث حسب اسنادها واشهرها مسند احمد بن حنبل (م ٨٥٥) اما المصنفة فترتب الاحاديث حسب موضوعها واهمها الكتب الستة وهي الصحيحان والسنن الاربعة. فالصحيحان هما صحيح البخاري (م ٨٧٠) حيث انتقى ٧٢٧٥ حديثاً من بين الاحاديث التي جمعها وعددها ستمائة الف بعد تنقله مدة ست عشرة سنة في العراق وسورية والحجاز ومصر وفارس، وصحيح مسلم (م ٨٧٥). والسنن الاربعة هي سنن ابو داود م ٨٨٨ وجامع الترمذي م٨٩٢ وسنن ابن ماجة م ٨٨٦ وسنن النسائي المتوفى في مكة ٩١٥ [١]. ولجأ المسلمون الى نوعين آخرين من اسس التشريع وهما الاجماع والقياس وذلك بعد ان جابهوا مسائل واحوالاً جديدة في البلاد المفتتحة لم تكن قد عرضت لهم في حياتهم الاولى واختلف الفقهاء في درجة اعتمادهم على الحديث والقياس فكان اهل القياس اواهل الرأي وعلى رأسهم ابو حنيفة النعمان بن ثابت (م ٧٦٧ في بغداد) ومركزهم العراق، واهل الحديث وعلى رأسهم مالك بن انس صاحب الموطأ (م ٧٩٥ في المدينة) وموطنهم الحجاز حيث لم تعرض المشاكل التي عرضت للمسلمين في العراق وغيره. وعلى هذا الاساس قامت المذاهب الفقهية الاربعة التي يمكن ترتيبها حسب درجة اعتمادها على القياس كما يلي: الحنفية ثم الشافعية (نسبة الى الشافعي المولود في غزة والمتوفى ٨٢٠ في القاهرة وهو تلميذ مالك) ثم المالكية ثم الحنبلية (نسبة الى احمد بن حنبل م ٨٥٥ في بغداد وهو تلميذ الشافعي). وقد اشتهر احمد بن حنبل

---

(١) راجع: Alfred Guillaume: The Traditions of Islam. Oxford 1924.

بوقوفه في وجه المعتزلة وبالاضطهاد الذي قاساه في عهد المأمون والمعتصم . ومن الفقهاء المعروفين في هذه الفترة الامام الاوزاعي (المتوفى في بيروت ٧٧٤ م) . وعلى ذلك فقد استقرت المذاهب الفقهية الكبرى واذا استثنينا الشيعة فانه يمكن القول ان في القرن الرابع الهجري (العاشر م) وقف سير التشريع الاسلامي المبني على الاجتهاد والرأي لفهم القرآن والحديث . ومن جهة أخرى يجدر القول ان العرب كانوا بعد الرومان الامــة الوحيدة في العصور الوسطى التي اهتمت بعلم القانون او الفقه ووضعت نظاماً تشريعياً مستقلاً ولم يظهر العلماء بوضوح حتى الآن ما اذا كان للقوانين الرومانية البيزنطية اثر في النظم التشريعية الاسلامية .

ومن مظاهر الحياة الفكرية في العصر العباسي تشعب الفرق الدينية والفلسفية وظهور حركات تدعو الى سلطة العقل وتدخل المجادلات الفلسفية في شؤون الدين . وقد تمركزت الابحاث منذ العصور الاسلامية الاولى حول قضية حرية الارادة فظهرت جماعة تنكر القدر وتقول ان الانسان يخلق افعاله خيرها وشرها وعرفوا بالقدرية لانكارهم القدر بينما قال آخرون ان الانسان مجبور على فعل مايفعل لان الله يخلق فيه الافعال فاطلق عليهم اسم الجبرية . واتسعت هذه الحركة بقيام المعتزلة الذين اخذوا برأي القدرية . ولم يشعر اهــل السنة بالخطر في اول الامر لان الابحاث كانت ضمن نطاق علمي ولكن عندما اتى المأمون واعتنق مذهب المعتزلة قام الصراع بين المعتزلة وتعاليمهم حول خلق القرآن وصفات الله وسلطة العقل وبين خصومهم . وانتهى النزاع في خلافة المتوكل بعــد عام ٨٤٧ حيث اضطهد المعتزلة وحرية الفكر وحالف علماء الدين . ولكن طالما ان المعتزلة بقيت خطراً على الدين فقد قام جماعة من العلماء استخدموا اساليبها لمحاربتها وظهر بذلك علم الكلام وزعيم هذه الجماعة ابو الحسن الاشعري م ٩٣٥ وكان قد نشأ في محيط المعتزلة[1] . فالمتكلمون يسلمون بصحة العقائد الدينية ويحاولون دعمها بالادلة

---

(١) انظر كتابه : مقالات الاسلاميين . نشره ريتر في الاستانة ١٩٢٩ .

الفعلية والاساليب الفلسفية ويقابلهم عند الاوربيين ماسمي بالفلسفة المدرسية Scholasticism . وتزول المعتزلة في القرن الرابع الهجري (العاشر م) . ويأتي الامام الغزالي (توفي في ١١١١ في طوس بخراسان) حجة الاسلام فيضع الاشعرية في شكلها النهائي ويوفق بين الفلسفة والسنة وقد قاوم استخدام العقل وحده في اللاهوت واوضح ذلك في كتابه « تهافت الفلاسفة » وادخل الى السنة اقوى عناصر الصوفية وشرح في « المنقذ من الضلال » باختباره الشخصي اساس ايمانه الذي فصله في كتاب « احياء علوم الدين » . وقد ترجمت كتبه الى اللاتينية قبل عام ١١٥٠ واثرت على الحركة المدرسية المسيحية واليهودية . وما كاد خطر المعتزلة يزول الا وظهرت الصوفية وكانت في اول امرها حركة زهد بقصد التقرب من الله ولكنها تطورت واصبحت مذهباً فلسفياً دينياً له اساليبه وتعاليمه[١] ودخلتها عناصر الفلسفة كالافلاطونية الحديثة وعناصر فارسية ومؤثرات هندية ومسيحية وانقلب حب الله الى وجد Ecstasy . وظهرت الطرق الصوفية التي منها القادرية ومؤسسها عبد القادر الجيلاني (م ١١٦٦) والرفاعية (نسبة الى احمد الرفاعي م ١١٧٥) والمولوية ومؤسسها جلال الدين الرومي م ١٢٧٣ ، والشاذلية نسبة الى علي الشاذلي (م ١٢٥٨) وطريقة السيد البدوي (توفي في مصر ١٢٧٦). وعاش الصوفيون في التكايا والزوايا واقاموا حلقات الذكر واستعملوا السبحة المأخوذة من الهند بطريق المسيحيين الشرقيين (ثم انتقلت الى الغرب المسيحي في عصر الحروب الصليبية) وقاموا بتأويل بعض آيات القرآن واخذوا يتحررون من العبادات ويقولون بالحلول Pantheism وبمعرفة الله عن طريق الكشف والاشراق الآلهي Illumination وبوجود الاقطاب والاولياء . وكان من مشاهير الصوفيين

---

(١) راجع : R. A . Nicholson : Studies in Islamic Mysticism. Cambridge, 1921. Louis Massignon : Recueil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam. Paris, 1929 .

بعد رابعة العدوية م ٨٠١(١) الحلاج الفارسي الذي قتل في ٩٢١ وذو النون المصري م ٨٦٠ الذي ادخل عنصر الوجد ، والبسطامي الذي ادخل مذهب الفناء المأخوذ عن النرفانا في الهند ، ومحيي الدين بن العربي م ١٢٤٠ . ومن اهم الفرق الدينية هي الشيعة التي اتخذت شكلها النهائي في العصر العباسي وتفرعت الى فروع لعبت دوراً هاماً في التاريخ الاسلامي (٢) . واقرب فروعها الى السنة الزيدية التي انتشرت في اليمن . واهم فرقها الاثنا عشرية التي قالت بعصمة الامام وبالشفاعة والغيبة والرجعة واجبرت على التقية والكتمان بسبب موقف العباسيين العدائي . ثم هنالك الفرقة السبعية او الاسماعيلية التي مزجت تعاليمها بالتعاليم الفلسفية وانشقت عنها فرق اخرى اهمها القرامطة التي اسسها عبد الله بن ميمون م ٨٧٤ وانتسبت الى حمدان قرمط وسميت ايضاً الباطنية . وكان لها نشاط واسع وانتقلت تعاليمها الى الفاطمية في مصر التي نشأت عنها الدرزية . واطلق على فئة من القرامطة اسم الحشاشين وزعيمها الحسن بن الصباح م ١١٢٤ ومركزها كان فارس والشام . ويعتبر البعض النصيرية فرعاً من الاسماعيلية ونسبت الى محمد بن نصير من اواخر القرن التاسع (٣) . وهنالك غلاة الشيعة ومنهم فرقة علي الهي في فارس وتركستان .

اما العلوم اللسانية من علوم لغة وادب فأن قسماً منها نشأ عن دراسة القرآن . وقد ذكرنا كيف نشأت مدرسة البصرة التي كان من علمائها الخليل بن احمد

---

(١) انظر: Margaret Smith : Rabia the Mystic and her Fellow Saints in Islam . Cambridge , 1928 .

(٢) انظر : النوبختي: فرق الشيعة، نشره ريتر في الاستانة ١٩٣١ ، الشهرستاني : الملل والنحل ، القاهرة ١٣٤٧ هـ .

(٣) انظر: W. Ivanow: A Guide to Ismaili Literature. London 1933; R. Dussaud: Histoire et religion des Nosairis. Paris, 1900. ومقالات مختلفة عن كل من هذه الفرق في الموسوعة الاسلامية .

م ٧٨٦ صاحب القاموس المشهور وتلميذه سيبويه م ٧٩٣ الذي وضع كتاباً اساسياً في مبادىء النحو العربي . وفي الكوفة كان الاهتمام بالاشكال التقليدية اقل واهتم فيها العلماء بوضع المعاجم وجمع الامثال والاشعار . ويمكن ادراك اتجاهات هذه المدرسة في كتابات ابي عبيدة م ٨٢٥ الذي قيل انه وضع نحو مائتي كتاب . ويظهر اسلوب جديد في الشعر في العصر العباسي الاول تستعمل فيه تعابير واشكال لغوية جديدة ويدشن هذا الاسلوب بشار بن برد م ٧٨٤ غير ان علماء اللغة لايقرون بسهولة بافضلية الاسلوب الجديد . ويمتاز ابو نواس م ٨١٠ برشاقة شعره وعاطفته ومقدرته اللغوية ، ومن جهة اخرى يشتهر ابو العتاهية م ٨٢٦ بالزهد . ويمثل ابو تمام م ٨٤٥ التقاليد القديمة ويصبح شاعر البلاط في بغداد ويترك لنا ديوان الحماسة كما يضع البحتري م ٨٩٧ فيما بعد مجموعة اخرى بنفس الموضوع . وفي عصر المأمون وما بعده يظهر الادب بمعناه الفني Belles Lettres ويشتهر فيه الجاحظ م ٨٦٩ صاحب كتاب الحيوان . وتفقد مدرستا البصرة والكوفة اهميتها في اواخر القرن التاسع امام مدرسة بغداد التي يؤسسها ابن قتيبة م ٨٨٥ واصله من مرو وقد وضع كتاب عيون الاخبار وهي مجموعة ادبية في مواضيع مختلفة ، وكتاب المعارف (نشره وستنفلد في كوتنكن ١٨٥٠) وكتاب الشعر والشعراء . وقبل منتصف القرن العاشر يضع الجهشياري (م٩٤٢) الخطوط الاولى للمؤلف المعروف باسم الف ليلة وليلة ويستند فيها الى مؤلف فارسي قديم يدعى هزار افسانة اي الالف قصة وبينها قصص من اصل هندي . وقد اكتشفت نصوص مخطوطة من القرن التاسع تفيدنا بان مجموعة القصص قد بدىء بوضعها حتى قبل القرن العاشر . (ويمكن مراجعة مقال الاستاذة نبيهة آبوت بشأن هذه النصوص التي اقتنتها جامعة شيكاغو وتلقي ضوءاً على تاريخ الف ليلة وليلة وقد نشرته في مجلة الدراسات عن الشرق الادنى ، شيكاغو تموز ١٩٤٩) . واتت اسماء بعض شخصيات القصص ومنها شهرزاد وكذلك تركيب القصص وترتيب حوادثها عموماً من المؤلف الفارسي ومراجع اخرى واضيفت اليها مع مرور الزمن اضافات

من مصادر هندية ويونانية(١) ومصرية وغيرها ودخلتها قصص شعبية شرقية من مختلف الانواع وحوادث ومغامرات ونوادر تتصل ببلاط هارون الرشيد. ولم تتخذ هذه المجموعة شكلها النهائي الا في اواخر عصر المماليك . وكان الافرنسي كالان Galland اول من ترجمها الى الفرنسية (في ١٢ مجلد في باريس ١٧١٧) كما ان اول من ترجمها الى الانكليزية هو لين Lane (في ٣ مجلدات لندن ١٨٤١) وتبعته ترجمات اخرى قام بها جون بين Payne في ١٨٨٤ والسير رتشارد بيرتن Burton في ١٦ مجلد في ١٨٨٨ وانتقلت الى معظم اللغات الحديثة في اوربا وآسيا واصبحت اكثر مؤلفات الادب العربي شيوعاً في الغرب .

بدأت الحركة الادبية تفقد مركزيتها منذ القرن العاشر وظهرت مراكز ادبية متعددة في البلاد العربية والاسلامية من اهمها الدولة الحمدانية في حلب حيث عاش المتنبي (م ٩٦٥) فترة من الزمن وابو فراس م ٩٦٧ وابن نباتة الخطيب م ٩٨٤ وابن جني اللغوي م ١٠٠٢ وهو ابن عبد يوناني ، وابو الفرج الاصفهاني م ٩٦٧ صاحب كتاب الاغاني الذي سماه ابن خلدون « ديوان العرب » وهو مصدر هام لدراسة الحضارة الاسلامية وخاصة من وجهة التاريخ الادبي والاجتماعي (وقد نشرته مطبعة بولاق في ٢٠ مجلداً في ١٢٨٥ ه ووضع له المستشرق غويدي الفهارس في ١٩٠٠ في ليدن) . وعاش في القرن الحادي عشر ابو العلاء المعري م ١٠٥٧ الشاعر الفيلسوف صاحب اللزوميات ورسالة الغفران . وفي عهد الدولة البويهية عاش الصاحب بن عباد وابن العميد م ٩٧١ ومسكويه م ١٠٣٠ صاحب تجارب الامم وابو حيان التوحيدي م ١٠٠٩ امام البلغاء كما قال ياقوت، والماوردي م ١٠٥٨

---

(١) راجع الفصل الذي عقده المستشرق فون غرونبوم Von Grunebaum عن « الاقتباس المبدع او اليونان في الف ليلة وليلة » في كتاب الاسلام في العصور الوسطى Medieval Islam طبع شيكاغو ١٩٤٧ ص ٢٩٤ — ٣١٩ حيث يقارن بين اشكال ومحتويات قصص الادب اليوناني وبين قصص الف ليلة وليلة .

صاحب الاحكام السلطانية ، والجوهري صاحب الصحاح م ١٠٠٨ واصله تركي من فاراب وقد رتب قاموسه حسب الترتيب الابجدي للحروف الاخيرة . وفي شرقي ايران استعملت اللغة العربية في البلاط والمراسلات الرسمية بالرغم من ان السلالات الفارسية كانت تشجع اعادة اللغة الفارسية كلغة ادبية . وقد اهتمت هذه السلالات بالدراسات الدينية حتى ان الصحيحين (صحيح البخاري وصحيح مسلم) وضعا في خراسان . واهم كتاب النثر في هذا العصر اثنان يتصلان بنيسابور وهما بديع الزمان الهمذاني م ١٠٠٨ والثعالبي م ١٠٣٨ . وقد اوجد الهمذاني نوعاً من الانتاج الادبي عرف بالمقامات وهي قصص مروية باسلوب السجع على لسان شخصية خيالية . واما الثعالبي فانه لغوي وادیب كتب يتيمة الدهر (طبع دمشق ١٣٠٢ ه في اربع مجلدات) وهو مجموعة للشعراء المعاصرين . وفي هذا القرن الحادي عشر عاش البيروني م ١٠٤٨ واتصل بالسلطان محمود الغزنوي . اما في زمن السلاجقة وعصر السيادة التركية فقد اخذت الفارسية تتفوق كلغة ادبية في ايران وقد كثرت المصنفات وقلت المؤلفات المبتكرة ومع ذلك نجد في هذا العصر في العراق وفارس الغزالي والحريري م ١١٢٢ صاحب المقامات الذي يقلد الهمذاني في الشكل الادبي والاخراج. وفي هذا العصر عاش الزمخشري والرازي والبيضاوي والطغرائي م ١١٢١ صاحب لامية العجم ، والشهرستاني م ١١٥٣ . وفي سورية ومصر عاش في هذا العصر اسامة بن منقذ م ١١٨٨ صاحب كتاب الاعتبار ، وياقوت م ١٢٢٩ صاحب معجم البلدان ، وابن العربي م ١٢٤٠ الصوفي صاحب الفتوحات المكية ، وابن الفارض م ١٢٣٥ الشاعر الصوفي ، وبهاء الدين زهير الشاعر م ١٢٥٨ ، وابن الاثير م ١٢٣٤ وقد ظل كتابه الكامل في التاريخ مجهولا حتى القرن التاسع عشر بينما كانت تؤخذ المعلومات من تاريخ ابي الفدا م ١٣٣١ . وفي هذا العصر ايضاً عاش ابن خلكان م ١٢٨٢ صاحب وفيات

الاعيان[١] .

وفي العصر العباسي يصبح التاريخ فرعاً مستقلاً عن علم الحديث ، ومعظم الكتب التاريخية القديمة في العربية تأتي من هذا العصر . وقد قدر المستشرق وستنفلد عدد المؤرخين العرب في الالف الاول بعد الهجرة بنحو ٥٩٠ مؤرخاً ولا بد انه نسي او جهل قسماً منهم . وكانت مؤلفات بعضهم ضخمة حتى ان الطبري اراد ان يملي على طلابه مادة تبلغ ٣٠٠٠٠ ورقة فلما قالوا ان العمر كله لايكفي لذلك جعلها عشر هذا العدد اي ٣٠٠٠ ورقة[٢] . وكان من اسباب تدوين التاريخ عدا عن رغبة العرب في الاستماع الى اخبار مجدهم الغابر ومعرفة تاريخهم تأثير شخصية الرسول وضرورة حفظ اخباره وسيرته ، والرغبة في معرفة الانساب ، وتشجيع الخلفاء والامراء ، والنزاع السياسي فضلا عن رغبة البحث العلمي . وانواع كتب التاريخ كانت كثيرة منها السيرة والتراجم وكتب الطبقات وكتب المغازي والفتوح وتواريخ البلدان والتواريخ العامة . ومن اهم صفات الكتابات التاريخية عند العرب : اولا الاستقلال بمعنى ان العرب لم يأخذوا عن غيرهم في هذا الموضوع وليس مايدل على ترجمة اي مؤرخ يوناني الى العربية ولكنهم استعملوا بعض تواريخ فارسية لاجل التاريخ الفارسي وقد ترجم ابن المقفع م ٧٥٧ الخداي نامة من البهلوية بعنوان سير ملوك العجم . كذلك لم تكن تواريخ العرب تتمة لما قبلها وانما كانت نمواً طبيعياً للاسباب التي ذكرناها . ومن جهة ثانية فان المؤلفين كان يندر ان يكونوا مؤرخين رسميين يكتبون ماتمليه عليهم الدول والاشخاص . والمؤرخين من جهة ثالثة اساليب معينة لضمان صحة

---

(١) انظر بشأن خلاصة الانتاج الادبي والفكري في العصر العباسي كتاب المستشرق جيب Gibb وعنوانه Arabic Literature طبع لندن ١٩٢٦ ص ٣٣ — ٩٦ .

(٢) انظر بشأن المؤرخين العرب Lectures on Arabic Historians by: D.S. Margoliouth. Calcutta, 1930.

الحوادث وتدوينها اهمها تدوين الحوادث باليوم والشهر والسنة ، وكذلك طريقة الاسناد والاعتماد على سلسلة من الرواة كما في علم الحديث . وكان طلاب التاريخ وطلاب الحديث متشابهين ثم انفصلوا وصار الاخباري غير المحدث ودونه في المنزلة. وكلمة تاريخ نفسها تعني تسجيل كل شهر وهي صيغة عربية من كلمة « يرخ » اي شهر في معظم اللغات السامية ومنها الآرامية .

وقد اشتهر من المؤرخين الذين كتبوا عن العرب قبل الاسلام هشام الكلبي الكوفي (م ٨١٩) ومن مؤلفاته الباقية عدد قليل منها كتاب الاصنام (نشره احمد زكي باشا في القاهرة ١٩١٤) . واقدم كتب السيرة النبوية كتاب محمد بن اسحق المتوفى في بغداد نحو ٧٦٧ ولكن الكتاب فقد ووصلنا قسم منه في سيرة ابن هشام المتوفى عام ٨٣٤ في القاهرة . ثم تأتي كتب المغازي والفتوح ومنها كتاب الواقدي م٨٢٢ واصله من المدينة . وكتب ابن سعد م٨٤٥ وهو كاتب الواقدي وصاحب كتاب الطبقات الكبير وفيه سيرة الرسول وتراجم الصحابة والتابعين . ومن اهم مؤرخي الفتوحات ابن عبد الحكم المصري م ٨٧٠ صاحب كتاب « فتوح مصر واخبارها » والبلاذري م ٨٩٢ وهو من اصل فارسي وقد كتب « فتوح البلدان » [1] وانساب الاشراف . ثم اخذ المؤرخون يكتبون الكتب التاريخية العامة على اساس التراجم والانساب والاخبار المعروفة ومن هؤلاء المؤرخين ابن قتيبة الدينوري م ٨٨٩ في بغداد صاحب كتاب المعارف . وكان يعاصره ابو حنيفة الدينوري م ٨٩٥ صاحب الاخبار الطوال ، وقد كتب تاريخه من وجهة نظر فارسية ووضع هذان المؤرخان مؤلفات اخرى في الادب واللغة . وهنالك المؤرخ الجغرافي ابن واضح اليعقوبي الذي كتب تاريخه حتى عام ٨٧٢ من وجهة نظر الشيعة . وهنا يمكن ذكر حمزة الاصفهاني م ٩٦١ صاحب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء (الذي ترجمه الى اللاتينية المستشرق غوتوالت Gottwaldt في ١٨٤٨) . وهنالك مؤرخ آخر

(١) ترجم الى الانكليزية فيليب حتي ، نيويورك ١٩١٦ .

من أصل فارسي وهو مسكويه م ١٠٣٠ الذي كتب تجارب الامم (وقد ترجمه المستشرق مرجليوث الى الانكليزية في ١٩٢١) وكان من كبار الموظفين في البلاط البويهي. ومن اشهر مؤرخي العرب محمد بن جرير الطبري م٩٢٣ وأصله من طبرستان وقد كتب تاريخ الرسل والملوك (الذي نشره المستشرق دي غويه في ليدن في ١٥ مجلد اعتباراً من ١٨٧٩) كما كتب أيضاً تفسير القرآن . وقد اعتمد على الاسناد في رواية أخباره ورتب كتابه بشكل حوليات وبدأه بتاريخ الخليقة وانتهى عام ٩١٥م فكان مصدراً لعدد من المؤرخين ومنهم ابن الاثير وابو الفدا. وجرى على طريقة الحوليات عدد من المؤرخين منهم عدا عن مسكويه وابن الاثير وابي الفدا م١٣٣١ المؤرخ الذهبي م ١٣٤٨ الذي كتب دول الاسلام (طبع في حيدر آباد ١٣٣٧هـ). ويأتي بعد الطبري في الشهرة المسعودي م ٩٥٦ وهو من المعتزلة وينتسب الى عبدالله بن مسعود وقد رتب كتابه حسب المواضيع ويتبعه في ذلك ابن خلدون وعدد من المؤرخين . وكانت نتيجة ابحاثه واسفاره انه كتب موسوعة في ثلاثين مجلداً عن تاريخ وجغرافية المسلمين وجيرانهم والذين سبقوهم وعن فلسفتهم ودياناتهم ولم يصل منها سوى مختصر مشهور عنوانه مروج الذهب ومعادن الجوهر (١) . وكذلك وضع كتاباً اسمه « التنبيه والاشراف » ضمنه فلسفته في التاريخ والطبيعة . ويكفي لادراك أهمية المسعودي والطبري ما ذكره صارتون Sarton في تاريخ العلوم بشأنهما وغيرهما من علماء المسلمين قال : ان اهم مهات البشرية حققها جماعة من المسلمين ، فاعظم فيلسوف وهو الفارابي مسلم ، واعظم الرياضيين وهما ابو كامل وابراهيم بن سنان (حفيد ثابت بن قره) كانا أيضاً مسلمين واعظم جغرافي وصاحب موسوعة وهو المسعودي مسلم، واعظم مؤرخ وهو الطبري مسلم ايضاً . » وياتي بعد الطبري والمسعودي ابن الاثير م ١٢٣٤ واصله من جزيرة بن عمرو

---

(١) نشره وترجمه دي مينار de Meynard ودي كورتي de Courteille في ٩ مجلدات، باريس (١٨٦١ — ١٨٧٧).

فيختصر في كتابه « الكامل في التاريخ » كتاب الطبري ويتمه حتى قبيل وفاته ومن اقسامه المبتكرة الفصول المتعلقة بالحروب الصليبية . وكذلك كتب ابن الاثير « اسد الغابة » وفيه تراجم الصحابة . وكان يعاصره سبط بن الجوزي م ١٢٥٧ صاحب « مرآة الزمان في تاريخ الايام » وهو تاريخ عام حتى ١٢٥٦ وترجم قسم منه في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية . وفي هذه الفترة يمكن ذكر ابن خلكان م ١٢٨٢ الذي ذكرناه سابقاً كصاحب اول قاموس للتراجم الوطنية في الاسلام، وكان ياقوت قد اصدر قبله معجم الادباء كما ان ابن عساكر م ١١٧٧ كتب في ثمانين مجلداً تراجم مشاهير الرجال المتصلين بمدينة دمشق .

كانت من العوامل المؤدية الى دراسة الجغرافية عند العرب فريضة الحج وضرورات الادارة ومنها ادارة البريد، والرحلات على اختلافها من رحلات في طلب العلم ورحلات تجارية وبعثات رسمية ورحلات خاصة للاطلاع . واثر على دراسة الجغرافية الاطلاع على كتب اليونان وخاصة كتاب بطليموس المعروف عند العرب « بالمجسطي » وقد ترجم مرات عديدة اما مباشرة الى العربية او عن طريق السريانية . ومن الكتب الاولى التي ايقظت الاهتمام بالبلاد البعيدة وباخبار الهند والصين وافريقيا كتاب سلسلة التواريخ الذي صنف في سيراف في عام ٨٥١ ويحوي قصص أسفار سليمان التاجر السيرافي وكان من جملة المصادر التي تبحث عنها قصص السندباد البحري. ومن اقدم المصادر العربية عن روسيا اخبار بعثة ابن فضلان الذي اوفده الخليفة المقتدر في ٩٢١ الى ملك البلغار في منطقة نهر الفولغا وقد ظهر معظمها في معجم البلدان لياقوت . وقام الخوارزمي م ٨٥٠ بوضع كتاب صورة الارض وضمنه خريطة وضعها بالاشتراك مع علماء آخرين بتشجيع المأمون. وأثر هذا الكتاب على الجغرافيين العرب حتى القرن الرابع عشر . والكتب الجغرافية كانت في اول الامر تهتم بالطرق والمسافات ومنها كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبه م ٩١٢. ووضع اليعقوبي في ٨٩١ « كتاب البلدان » فاهتم بالنواحي الطبوغرافية والاقتصادية كما اهتم قدامة في ٩٢٨ بتنظيم البريد والضرائب في مختلف مقاطعات

الدولة في كتابه المسمى « الخراج ». واتى ابن رسته في ٩٠٣ فصنف كتاب الاعلاق النفيسة. وفي منتصف القرن الرابع الهجري يظهر الاصطخري صاحب « مسالك الممالك » ويضع خرائط ملونة لمختلف البلدان. ويأتي ابن حوقل م ٩٧٧ فينقح كتاب الاصطخري ويصدره باسم « المسالك والممالك ». وبعد مدة وجيزة يكتب المقدسي في ٩٨٥ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (١) وفيه نتائج اسفاره مدة عشرين سنة. وفي هذه الفترة عاش الهمذاني م ٩٤٥ المؤرخ الجغرافي اليمني الذي يشكل كتابه الاكليل وكتابه الآخر « صفة جزيرة العرب » مصدراً هاماً لمعرفتنا عن بلاد العرب قبل الاسلام. وفي اواخر العصر العباسي يكتب ياقوت الحموي م ١٢٢٩ الموسوعة الجغرافية المعروفة « معجم البلدان » (طبعة وستنفلد Wustenfeld في ليبزك بعد عام ١٨٦٦ في ست مجلدات) واصله عبد من اصل يوناني اشتراه تاجر من حماة وقد اكمل كتابة مؤلفه في حلب قبل وفاته بسنة. ومع ان هذه المؤلفات الجغرافية لم تترجم الى اللاتينية ولذلك لم يعرفها الغرب في العصور الوسطى الا ان بعض نواحي الجغرافية الفلكية المتصلة باسباب المد والجزر وحساب الارض قد اطلع عليها الغرب.

اما في العلوم الطبية فقد كان للعرب فضل كبير. وكان بعض التراجمة الذين ذكرناهم ومنهم حنين بن اسحق ويوحنا بن ماسويه من كبار الاطباء. ومن نواحي الطب التي اهتم بها العرب امراض العين التي بحث فيها ابن ماسويه في كتاب « دغل العين » وحنين في كتاب « العشر مقالات في العين » الذي ترجمه مايرهوف الى الانكليزية في عام ١٩٢٨. وكان معظم الاطباء فلاسفة وكانوا يعرفون بالحكماء. ومن العلوم الطبية التي اهتم بها العرب الصيدلة واستعمال العقاقير والادوية. وكان

---

(١) نشر هذا الكتاب ومعظم الكتب الجغرافية الاخرى المستشرق دي غويه de Goeje في ليدن اعتباراً من عام ١٨٨٥ باسم المكتبة الجغرافية العربية Bibliotheca geographorum Arabicorum.

جابر بن حيان الكيمياوي المشهور في القرن الثامن اول من وضع كتاباً في الصيدلة .
وكان على الاطباء والصيادلة ان يجتازوا امتحاناً للحصول على الاجازة واحصي عدد الاطباء المجازين في زمن المقتدر في القرن العاشر فبلغ ٨٦٠ طبيباً في بغداد . وبعض الاطباء كانوا يقومون باعمال الاسعاف في مختلف الاماكن وبعضهم يزورون السجون ومن اهم الذين اهتموا بهذه النواحي للصحة العامة سنان بن ثابت بن قره في القرن العاشر . وكثرت المستشفيات او البيمارستانات وكان بعضها يضم مكتبة وصيدلية ومدرسة للطب . وقد نبغ عدد من الاطباء وهم من اصل فارسي انما كتبوا بالعربية ومنهم علي الطبري الذي وضع « فردوس الحكمة » في عام ٨٥٠ في عهد المتوكل (وقد نشره محمد صديقي في برلين ١٩٢٨) . ومن اكثر الاطباء انتاجاً ابو بكر الرازي م ٩٢٥ (نسبة الى الري ويعرف لدى الافرنج باسم Rhazes ورسمه مع رسم ابن سينا يزين قاعة مدرسة الطب في جامعة باريس) . ومن اهم كتبه في الكيمياء « كتاب الاسرار » الذي ترجمه الى اللاتينية جرار الكريموني (de Cremona) في القرن الثاني عشر وحلت محله فيما بعد كتب جابر بن حيان كمصدر للمعلومات الكيمياوية . غير ان اهم مؤلفاته « كتاب المنصوري » في الطب الذي وضعه في عشرة اجزاء للمنصور الساماني ، وترجم الى اللاتينية في القرن الخامس عشر . ومن رسائله المشهورة رسالة عن « الجدري والحصبة » (نشرها كورنيليوس فان ديك في ١٨٧٢ في بيروت) ترجمت الى اللاتينية في القرن السادس عشر . واشهر كتبه « الحاوي » وهو موسوعة للمعلومات الطبية اليونانية والفارسية والهندية والعربية وترجم الى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر وطبع منذ فجر عصر الطباعة في اواخر القرن الخامس عشر طبعات متعددة . [1] ومن مشاهير الاطباء

---

(١) انظر كتاب Edward G. Browne : Arabian Medicine. Cambridge, 1921 وبشأن اخبار هؤلاء الاطباء عموماً كتاب ابن أبي أصيبعة « عيون الانباء في طبقات الاطباء » .

علي بن العباس المجوسي م ٩٩٤ الذي وضع في عهد عضد الدولة البويهي « الكتاب الملكي او كامل الصناعة الطبية » وفيه امور مبتكرة تتعلق بالاغذية والادوية والتوليد . وقد اشتهر الشيخ الرئيس ابن سينا م ١٠٣٧ في همذان كطبيب وفيلسوف (وعرف عند الافرنج باسم Avicenna) غير ان الرازي كان اشهر منه كطبيب . وقد درس في مكتبة نوح بن منصور الساماني في بخارى ثم عكف على التأليف وله مؤلفات في الهندسة والفلك واللغة واللاهوت والفن عدا عن الطب والفلسفة . واهم كتبه العلمية « كتاب الشفاء » وهو موسوعة فلسفية « والقانون في الطب » وفيه خلاصة المعلومات الطبية عند العرب واليونان وقد طبع في رومة في ١٥٩٣ وترجمه الى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر جيرار الكريموني وحل محل مؤلفات جالينوس والرازي والمجوسي واصبح يستعمل لتدريس الطب في مدارس اوربا نظراً لترتيبه وتبويبه وطبع عدة طبعات في اللاتينية وظل حتى القرن السابع عشر اساساً للعلوم الطبية في الغرب . ومن الامور التي يمتاز بها الكتاب بحثه عن عدد كبير من الادوية وكلامه عن عدوى السل وانتقال الامراض بطريق الماء والتربة . وبين الاطباء الآخرين يمكن ذكر علي بن عيسى الذي عاش في بغداد في القرن الحادي عشر وكان اشهر الكحالين وكتابه المشهور « تذكرة الكحالين » يذكر ١٣٠ مرضاً للعين (وقد ترجم الى الانكليزية في شيكاغو عام ١٩٣٦) . وهنالك كتاب ابن جزلة م ١١٠٠ « تقويم الابدان في تدبير الانسان » وقد ترجم الى اللاتينية في ستراسبورغ في ١٥٣٢ . واول كتاب عن الفروسية يحوي بعض معلومات الطب البيطري ، كتبه مدير اصطبلات المعتضد يعقوب بن اخي حزام في اواخر القرن التاسع .

وفلسفة العرب كانت فلسفة انتقائية قوامها الاقتباس من اليونان خاصة ولكنها تأثرت بافكار الشعوب المغلوبة وسائر المؤثرات الشرقية كما انها تكيفت بحسب اتجاهات الدين الجديد ، ولذلك كانت ايضا فلسفة توفيقية تحاول التوفيق بين الفلسفة والدين وتعتمد على العقل . والفلاسفة او الحكماء بين العرب هم الذين لم تتقيد

مناقشاتهم الفكرية بالدين . ومن اشهر الفلاسفة يعقوب ابن اسحق الكندي الذي عاش في بغداد في القرن التاسع وسمي « فيلسوف العرب » نظراً لكونه من اصل عربي . وتنسب اليه نحو ٢٦٥ رسالة كتب بعضها في الفلك والكيمياء والموسيقى فضلا عن الفلسفة وحاول التوفيق بين آراء افلاطون وارسطو . وترجم قسما من مؤلفاته جيرار الكريموني الى اللاتينية . وعدد الذي بقي منها في اللاتينية يفوق ما احتفظ به في العربية . وكان محمد ابو النصر الفارابي (م ٩٥٠ في دمشق) من الذين حاولوا التوفيق بين عقائد الدين والفلسفة اليونانية ، وفلسفته كانت تحوي عناصر من افلاطون وارسطو ومن الصوفية وبلغ من شهرته انه سمي « المعلم الثاني » واشتهر في بلاد الغرب حيث عرف باسم Alpharabius . وكان اصله من تركستان الا انه عاش في بغداد ثم في حلب في حلقة سيف الدولة ، وبين مؤلفاته ما يعالج مواضيع نفسية وسياسية ومنها « رسالة فصوص الحكم » ورسالة في آراء اهل المدينة الفاضلة [١] « والسياسة المدنية » وقد تأثر في الكتابين الاخيرين بجمهورية افلاطون وبكتاب السياسة لارسطو . كذلك كان الفارابي طبيباً كما اشتهر كموسيقي ويعتبر اعظم كتاب المسلمين في الموسيقى ومن اهم مؤلفاته كتاب الموسيقى الكبير (الذي ترجم الى الافرنسية ونشر في باريس ١٩٣٠) . وكان ابن سينا م ١٠٣٧ فيلسوفاً عدا عن كونه طبيباً ويرى ابن خلكان ان فضل الفارابي عليه كان عظيما . وقد كتب ابن سينا في الموسيقى وكان له فضل جمع الفلسفة اليونانية ووضعها في متناول الطبقات المثقفة . ومنطقه شرح لارسطو والموسوعة التي كتبها وتعرف « بكتاب الشفاء » في ١٨ مجلد تهتم بنواح علمية وفلسفية وقد فقدت في العربية الا انها مختصرة في كتاب النجاة ، ومترجمة الى اللاتينية . وقد نشأت مدرسة فلسفية انتقائية تعرف باخوان الصفا في البصرة في منتصف القرن الرابع الهجري وكانت تميل

---

(١) طبعت في مصر ١٣٢٣ هـ ونشرها المستشرق ديتريصي Dieterici في مجموعة « فلسفة العرب » م ١٦ ليدن ، ١٨٩٥ وكذلك ترجمها الى الالمانية ونشرها عام ١٩٠٠ .

الى الاسماعيلية على مايقال وتقاوم النظام السياسي القائم . وقد تركت مجموعة رسائل متأثرة بفلسفة اليونان عددها اثنتان وخمسون رسالة تشبه موسوعة في العلوم الرياضية وعلم الانسان والفلسفة والمنطق والاخلاق واللاهوت وربما كتبت في اواخر القرن الرابع هـ (نحو عام ١٠٠٠ م) في البصرة [١] . ويرى البعض ان الغزالي تأثر بكتابات اخوان الصفا وان المعري كان يحضر اجتماعاتهم يوم الجمعة عندما كان في بغداد كما ان ابا حيان التوحيدي م ١٠٢٣ من مشاهير المعتزلة كان بين الاخوان. وبين الفلاسفة يمكن ان ندرج اسم المعري م ١٠٥٧ ويسمى فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة فقد كانت فلسفته فلسفة الشك والتشاؤم في عصر كانت تسوده الفوضى السياسية وترينا مؤلفاته الاخيرة كاللزوميات ورسالة الغفران [٢] آراءه الفلسفية واعتماده على العقل . ويرى بعض العلماء ومنهم آسين بلاسيوس الاسباني ان رسالة الغفران اثرت على دانتي في كتاب « المسرحية الالهية » . وقد اجريت مقارنات بين المعري وعمر الخيام الذي توفي بعده فتبين ان الخيام لابد تأثر بابي العلاء .

وقد بحث العرب في مختلف العلوم وخاصة الفلك والرياضيات والكيمياء . وكان لترجمة كتاب السدهنتا (السندهند) في بغداد في عام ٧٧١ وكتاب المجسطي لبطليموس في القرن التاسع اثر في تقدم علم الفلك . وبنى المأمون قرب باب الشماسية في بغداد مرصداً فلكياً حيث رصدت حركات الاجرام السماوية وتأكدوا من المعلومات الواردة في كتاب المجسطي . وكذلك بنى المأمون مرصداً آخر على جبل قاسيون قرب دمشق وجهز الاثنين بالآلات اللازمة . وعمل الفزاري م ٧٧٧ مترجم السدهنتا اول اسطر لاب في البلاد العربية حسب نموذج يوناني (وكلمة اسطرلاب

---

(١) نشرها خير الدين الزركلي في ٤ مجلدات ، القاهرة ١٩٢٨ كما نشرها ديتريسي في مجموعة فلسفة العرب في ليدن وترجم قسماً منها .

(٢) نشر رسالة الغفران كامل الكيلاني في القاهرة ١٩٢٣ وترجم قسماً منها نيكلسون الى الانكليزية في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ١٩٠٠ كما ترجم امين الريحاني (نيويورك ١٩١٨) قسماً من اللزوميات الى الانكليزية .

مأخوذة عن اليونانية) كما ان علي بن عيسى الاسطرلابي كتب رسالة عن هذه الآلة في اوائل القرن التاسع . وقام الفلكيون في عصر المأمون بقياس طول الدرجة لاجل تقدير محيط الكرة الارضية وكانت النتائج قريبة جداً من الواقع. وقد اشترك ابناء موسى بن شاكر في هذه العملية وكذلك العالم الخوارزمي الذي ترجم زيجه او جداوله الفلكية بعد قرنين الى اللاتينية بعد ان راجعه مسلمة المجريطي م ١٠٠٧ في الاندلس وحلت الجداول العربية محل اليونانية والهندية. ويعتبر احمد الفرغاني من كبار علماء الفلك وقد كلفه المتوكل بمراقبة بناء مقياس للنيل في الفسطاط . وكان مؤلفه الرئيسي « المدخل الى علم هيئة الافلاك » وترجمه الى اللاتينية يوحنا الاشبيلي وجيرار الكريموني في ١١٣٥ . وبنيت مراصد مختلفة بعد عصر المأمون منها مرصد ابناء شاكر في القرن التاسع ومرصد شرف الدولة البويهي في القرن العاشر في بغداد . وفي اواخر القرن التاسع عاش البتاني وكان اشهر علماء عصره في الفلك وقام بابحاثه في الرقة وصحح بعض نتائج بطليموس وتوصل الى استنتاجات فيما يتعلق بالكسوف وبطول السنة والفصول . ويعتبر ابو الريحان البيروني م ١٠٤٨ من اقدر علماء الطبيعة في الاسلام واعمقهم وكان مقره غزنة وقد عرف لغات عديدة وهي عدا عن الفارسية والسنسكريتية العبرية والسريانية ووضع في ١٠٣٠ لمسعود بن محمود الغزنوي « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم» . كذلك وضع كتاباً موجزاً في الرياضيات والفلك والنجوم سماه « التفهيم لاوائل صناعة التنجيم » انما كتابه الرئيسي هو « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ويبحث في تقاويم وعصور الامم القديمة كما يهتم في سائر كتبه بخطوط الطول والعرض وبدوران الارض حول محورها . وقد كتب عن الهند[1] وفلسفتها وبحث عن وادي السند من وجهة جيولوجية . ومن كبار الفلكيين عمر الخيام

---

(١) نشر كتاب الآثار الباقية وكتاب تحقيق ما للهند من مقولة ادوارد سخاو Sachau ترجمها في ١٨٧٩و١٨٨٨ وطبع الاول في ليبزك والثاني في لندن .

م ١١٢٣ الذي دعاه جلال الدين ملكشاه السلجوقي الى المرصد الذي اسسه في مرو لاصلاح التقويم الفارسي وادت ابحاثه الى وضع « التاريخ الجلالي » المشهور بصحته . وفي ١٢٥٩ بني هولاكو المغولي مرصداً في مراغة قرب بحيرة اورميا وكان مديره نصير الدين الطوسي م ١٢٧٤ الذي وضع جداول فلكية جديدة عرفت بالزيج الايلخاني . وبنيت مكتبة بجانب المرصد اخذت كتبها من منهوبات المغول في بلاد غربي آسيا . اما في علوم النجوم فقد اشتهر ابو معشر البلخي م ٨٨٦ المعروف في الغرب باسم Albumasar وترجمت اربعة من كتبه الى اللاتينية في القرن الثاني عشر وترجمها يوحنا الاشبيلي واديلارداوف باث Adelard of Bath وقد نقل عنه الغرب قوانين المد والجزر المتعلقة بظهور القمر وغيابه .

وادت ترجمة الفزاري المؤلفات الهندية الى ادخال الارقام والصفر من الهند . ويذكر البعض ان كاتباً في احد الاديرة السريانية في شمالي سورية كان يعرف الارقام منذ ٦٦٢ ونقلها عن الهند . وكلمة الصفر هذه في اللغات الاجنبية حرفت عن اللفظة العربية التي هي ترجمة التعبير السنسكريتي ومعناه « فارغ » وساعدت جداول الخوارزمي في نشر الارقام واستعمالها ولكن بعض الرياضيين ظلوا يعبرون عن الارقام بكلمات او بحروف الابجدية . وفي القرن الحادي عشر استعمل الرياضي احمد النسوي الارقام الهندية في كتابه « المقنع في الحساب الهندي » حيث شرح استخراج الجزر المربع والمكعب وتقسيم الكسور . واعظم علماء الرياضيات في الفترة الاولى محمد بن موسى الخوارزمي ٧٨٠ — ٨٥٠ الذي اثر على الفكر الرياضي اكثر من اي عالم في العصور الوسطى ، فقد وضع اقدم مؤلف في الحساب واقدم كتاب في الجبر وهو « حساب الجبر والمقابلة » واكثر فيه من الامثلة انما فقد في العربية واستعملت ترجمته اللاتينية حتى القرن السادس عشر ككتاب اساسي في الرياضيات في جامعات اوربا . وهكذا دخل علم الجبر الى اوربا وكذلك دخلت الارقام المعروفة بالعربية والمسماة algorism نسبة الى الخوارزمي . والجبر

الذي وضعه الخيام يمتاز على جبر سلفه بتصنيفه المعادلات وبوجود حلول جبرية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية .

اما في العلوم الطبيعية فان العرب اهتموا بالتجارب وجمعوا الحقائق بنتيجة التجربة والملاحظة . ومن اهم العلوم الطبيعية التي برعوا فيها الكيمياء التي اعتبر مؤسسها جابر بن حيان وقد عاش في الكوفة في اواخر القرن الثامن م واحرز تقدما في الكيمياء من الوجهة النظرية والعملية وقد اعتقد بان المعادن المفيدة مثل الحديد والقصدير يمكن تحويلها الى ذهب وحاول ايجاد الطريق الى ذلك كما فعل اسلافه من اليونان والمصريين . والكتب الباقية التي تنسب اليه لايقل عددها عن اثنين وعشرين منها كتاب الرحمة والزئبق الشرقي وكتاب التجميع ومع ذلك فانه يظهر انه اكتشف عدة مركبات كيمياوية لم تذكر في هـذه الكتب التي ظلت تحتل مقاماً رفيعاً حتى بعد نهاية العصور الوسطى . ومن اهم اعمال جابر انه وصف عمليتي التكليس والتحويل وانه ادخل تحسيناً على اساليب التبخير والتصعيد والتبلور والتذويب ويعتقد انه عرف كيفية تحضير حامض الكبريت والتتريك ومزجها بالملح لاعداد ماء الذهب . ومن جهة اخرى فقد عدل نظرية ارسطو في تركيب المعادن وبقيت اقواله معمولا بها حتى مطالع القرن الثامن عشر . وعـدا عن الرازي المشهور بالكيمياء ايضاً فان من جملة الكيمياويين المشهورين الطغرائي الشاعر م ١١٢١ وابو القاسم العراقي في القرن الثالث عشر وكانوا مع سائر العلماء يبحثون عما سمي بحجر الفلاسفة (الكبريت الاحمر) واكسير الحياة . ولم يكن فضل العرب كبيراً في علم الحيوان والذين بحثوا في هـذا الموضوع كانوا ادباء جمعوا الاسماء والصفات التي اعطاها العرب لمختلف الحيوانات بينما برع عرب الاندلس في علم النبات . على ان الخيل نالت حظاً وافياً من الدراسة كما يشهد « كتاب الخيل » الذي وضعه الاصمعي (ونشر في فينا ١٨٩٥) . اما كتاب الحيوان للجاحظ م٨٦٨ فانه لم يكن كتاباً علمياً بالمعنى الصحيح ومع ذلك فانه احتوى عناصر النظريات التي اتت فيما بعد في تأثير البيئة والتطور واثر على الكتاب الآخرين مثل القزويني

م ١٢٨٣ صاحب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، والدميري م ١٤٠٥ صاحب حياة الحيوان وكلاهما بحثا في علم الحيوان كفرع من الادب وعلوم اللغة . وكتب العرب عن الاحجار لولعهم بالحجارة الكريمة وبصفات بعض الاحجار لاجل معرفة الغيب . ومن جملة ما كتبوه في هذا الموضوع « منافع الاحجار » لعطارد بن محمد الحاسب من القرن التاسع « وازهار الافكار في جواهر الاحجار » للتيفاشي (الذي نشر وترجم الى الايطالية في فلورنسة ١٨١٨) . وكذلك البيروني درس بعض الاحجار والمعادن وقرر الثقل النوعي لثمانية عشر منها . وفيما يتعلق بتقدير فضل العرب على العلوم فان مايرهوف (في مقاله في كتاب تراث الاسلام) يتخذ موقفاً وسطاً بين المعجبين بالحضارة اليونانية الذين لايرون كثيراً من الابتكار في حضارة العرب وانما يقرون بفضل محافظتها على علوم اليونان ونقلها الى اوربا وبين كتاب العرب وبعض الافرنج الذين ينسبون الشيء الكثير للعرب بقطع النظر عما اخذوه عن اليونان والشرق القديم فيقول : « لقد عكس الطب الاسلامي والعلوم نور الشمس الهلينية عندما اخذ نهارها يذهب وسطعت كالقمر مضيئة ظلمات العصور الوسطى في اوربا . وبعض النجوم اعطت نورها الخاص ولكن القمر والنجوم ضعف نورها عندما لاح فجر نور جديد وهو عصر النهضة » .

وظهرت في العصر العباسي معاهد التعليم العالي ومن اهمها بيت الحكمة الذي اسسه المأمون في بغداد عام ٨٣٠ وكانت تجري فيه الابحاث وتترجم الكتب ويحوي مكتبة ومرصداً بجانبه . وكما ان المستشفيات التي ظهرت في هذا العصر كانت ايضاً مراكز لتعليم الطب فان المراصد كانت مراكز لتعليم الفلك . وقد ذكرنا سابقاً ان المدرسة النظامية التي اسسها نظام الملك في ١٠٦٥ في عهد السلاجقة كانت اولى المدارس التي اهتمت بحاجات الطلاب واصبحت نموذجاً لسائر معاهد التعليم العالي . وكانت تدرس فيها علوم الدين والادب ويسكن الطلاب فيها وبعضهم يتمتعون بمنح علمية وربما اخذت عنها الجامعات الاوربية الاولى بعض انظمتها . وكان الاستاذ المحاضر يعين بعد موافقة السلطة الحاكمة ويساعده في

تدريسه عدد من المعيدين . ومن اهم ما كتب في التربية الفصل الذي كتبه الغزالي في مطلع كتاب احياء علوم الدين واهميته انه اهتم بالناحية الاخلاقية في التربية والتعليم ولم ينظر الى التعليم لمجرد نقل المعلومات(١) . كذلك كتب الزرنوجي في ١٢٠٣ « تعليم المتعلم طريق التعلم » (طبع ليبزك ١٨٣٨) . وبنى الخليفة المستنصر المدرسة المستنصرية في ١٢٣٤ لتدريس المذاهب الاربعة وقد وصفها ابن بطوطة في ١٣٢٧ وما تضمه من مستشفى ومكتبة . وكذلك تبع تأسيس المدرسة النظامية تأسيس المدارس في الشام والعراق وخراسان في عصور مختلفة وكان يعتبر تأسيسها من اعمال البر ومن طرق التقرب من الشعب . كذلك كانت المساجد الجامعة مراكز للتعليم وكان ينتظم المتعلمون والمستمعون في حلقات الفقهاء والعلماء . ومجالس الادب في بيوت الخاصة كانت ايضاً تشجع المناقشات والمباريات الفكرية . اما التعلم الابتدائي فكان كالسابق مركزه الكتاب في المسجد او بجانبه حيث يعلم الفقيه او المعلم قراءة القرآن والكتابة والقواعد والخط وبعض الحساب . وكانت المساجد تحوي خزائن الكتب وتأتيها مجموعات من الكتب الدينية خاصة . كذلك كان الاغنياء ورجال الدولة يؤسسون المكاتب الخاصة والعامة ومن الامور السهلة ان يستعمل طلاب العلم هذه المكاتب . وكان في البصرة مكتبة في القرن العاشر حسب ما روى المقدسي يمنح مؤسسها رواتب لطلاب العلم الذين يعملون فيها . كذلك اشتهرت خزانة الكتب التي اسسها عضد الدولة البويهي في القرن العاشر . ويقول ياقوت ان مكتبة الري كان فيها اربعمائة حمل جمل من الكتب المخطوطة وان فهارسها مرتبة في عشر مجلدات . ومخازن الكتب كانت مراكز تجارية وثقافية ويذكر اليعقوبي ان عدد بائعي الكتب في بغداد في عصره كان يزيد عن المائة وفي شارع واحد . واصحاب مخازن الكتب

---

(١) نشر « ايها الولد » للغزالي في فينا ١٨٣٨ وترجمه الى الانكليزية جورج شير في ١٩٣٣ والى الافرنسية توفيق الصباغ في ١٩٥٢ (طبع بيروت) . انظر كتاب « فضل العرب على التعليم » الذي ألفه بالانكليزية خليل طوطح في ١٩٢٦ وترجمه الى العربية . القدس ١٩٣٥ .

كانوا احيانا من الادباء، ونا سخي المخطوطات ومنهم النديم الوراق م٩٩٥ صاحب الفهرست الذي كان غالباً صاحب مخزن للكتب. واصبحت الكتب تنسخ على الورق اعتباراً من القرن الثامن والتاسع حين شاع استعماله واسست المعامل لصنعه وكان يسمى الكاغد كما بينا في الفصل السابق بمناسبة بحث حضارة الصين .

الحركة الفنية وما آثرها في العصر العباسي : كان الفن الاسلامي من اوسع الفنون واطولها عمراً فقد ولد في القرن الاول للهجرة وبلغ عنفوان شبابه في القرنين السابع والثامن واخذ يضعف في القرن الثاني عشر للهجرة . فالتقدم الفني لم يصب بالجمود بعد بلوغه درجة معينة من الرقي كما حصل للنشاط العلمي بعد القرن الرابع الهجري . ومميزات الفن الاسلامي العامة هي : الابتعاد عن الترف بسبب تعاليم الاسلام عن وحدة الله وقدرته على خلق الاشياء وفكرة زوال كل شيء سوى وجهه تعالى والتعاليم المتعلقة بيوم الحساب التي اعطت فكرة التواضع . فالمباني الدينية كانت بسيطة في مواد بنائها وزخارفها . على ان الترف لم يمكن منعه منعاً باتاً في مجتمع غني وبعض الحكام تجاوزوا تقاليد المجتمع الدينية. والميزة الاخرى اهمال الفنون التصويرية كالرسم والنحت والاشكال الآدمية والحيوانية لما في ذلك من تقليد لعمل الخالق . والاشكال المرسومة كانت تختفي تحت كثرة الزخارف او تتحول الاشكال الى نبات وزهر وخطوط هندسية كما في الصحن الذي وجد في سامرا من القرن التاسع م وعليه شكل نسر انما النسر محول الى اشكال زهور. كذلك لم ينشأ فن ديني يتمركز في رسومه وايقوناته حول النبي وآله وصحبه بخلاف بعض الديانات الاخرى . والميزة الاخري هي كثرة الزخارف الهندسية والكتابية بنتيجة الاعتبارات السابقة. وكانت الكتابات من نسخية وكوفية تحوي آيات قرآنية واقوالاً حكمية وعبارات التبريك والمديح. ومن جهة اخرى فان الفن الاسلامي لم يتخذ شكلاً واحداً في جميع البلاد وانما ظهرت فيه اختلافات تفصيلية بتأثير العوامل المحلية ولذلك فرق مؤرخو الفن بين المدرسة السورية المصرية، والمدرسة العراقية الفارسية، ومدرسة المغرب والمدرسة

الهندية والمدرسة العثمانية . والذي يهمنا منها في العصر العباسي المدرستان الاولى والثانية.

استعملت في المدرسة السورية المصرية الاقواس النصف دائرية والمدببة المروسة والشبيهة بحدوة الفرس واختلفت اشكال مآذنها فكانت احياناً مربعة (وانتقل هذا الشكل الى مآذن المغرب) واحياناً كانت تحتوي المأذنة الواحدة على اشكال مختلفة فتنتقل من قسم مربع الى آخر مثمن كما في جامع السلطان حسن في القاهرة او من طابق مثمن الى آخر مستدير كما في الجامع الازهر . وظهر نوع من الزخرفة في مساجد القاهرة المتأخرة خاصة وهو تتابع طبقات افقية من احجار قاتمة اللون واخرى زاهية اللون كما في جامع قايتباي . وقباب هذه المدرسة من النوع المرتفع ، ومساجدها حتى القرن العاشر م مستطيلة الشكل وسقوفها عموماً مسطحة فيما سوى جامع الصخرة . وبعد القرن العاشر تظهر السقوف ذات القباب كما تظهر المقرنصات في الزخرفة . وقد تشابهت اساليب البناء في سورية ومصر منذ العهد الاموي حين كانت السيادة الفنية للسوريين وتأثر القطران بتأثيرات محلية متشابهة تتصل بالفن الهيليني الشرقي والبيزنطي . وعندما قامت الدول بعد ضعف العباسيين كانت سورية خاضعة في اكثر الاحيان لنفس السلطة الحاكمة في مصر وهذا ما يوضح تشابه الاساليب الفنية في القطرين . اما المدرسة العراقية الفارسية فان مميزاتها استعمال القوس المعروف بالفارسي وهو مدبب في اعلاه انما قليل الارتفاع وينتهي انحناؤه بخطين مستقيمين . والابواب الكبرى للمساجد في هذه المدرسة الفنية تقع عموماً ضمن اطار مستطيل على كل من جانبيه مأذنة والمآذن عموماً اسطوانية دقيقة في قسمها العلوي وتنتهي بشرفة واحدة في اعلاها ، والقبة عادة بصلية الشكل. واشتهرت هذه المدرسة بالزخرفة باستعمال ترصيعات القاشاني الملون والزخارف النباتية المتنوعة الاشكال وعدم استخدام الاشكال الهندسية الا نادراً . والبلاد الايرانية هي من البلاد الاسلامية القليلة التي لم تتقيد كثيراً بمبدأ تجنب رسم الاشكال الآدمية. وقد رأينا آثار الفن في ايران عند البحث عن ايران الاسلامية اما في العراق فان اهم نماذج هذا الطراز تشاهد في بغداد وسامرا .

وبينما بقيت بعض آثار البناء من العصر الاموي مثل الجامع الاموي وقبة الصخرة وقصور البادية وبينها قصر الحير الشرقي والغربي فان مباني العباسيين في بغداد لم يبق منها اثر يذكر ولم يمكن حتى تحديد مكانها بالضبط بسبب حوادث الحرب الاهلية بين الامين والمأمون من جهة والخراب العام الذي اصابها عند هجوم التتر في ١٢٥٨ . والقصور المشهورة في عصر المنصور والرشيد كانت القبة الخضراء وقصر الخلد في بغداد وقصر الرصافة الذي ابتناه المنصور لابنه المهدي ، وقصور البرامكة في الشماسية في شرقي بغداد. ثم هنالك القصور التي وصفها الخطيب البغدادي والمسعودي وابن الاثير ومنها قصر الثريا الذي شيده المعتضد بعد عودة العاصمة من سامرا الى بغداد (٨٩٢) وبقربه قصر التاج الذي اكمله ابنه المكتفي .واشتهر قصر المقتدر المعروف بدار الشجرة بشجرة الذهب والفضة كما اشتهر قصر معز الدولة البويهي المعروف بالمعزية وقد كلف مليون دينار . وقد بنيت القصور خارج بغداد ومنها قصر الرشيد في الرافقة عند الرقة وقد شيد حسب الطراز العراقي واستعمل فيه الآجر والقوس الفارسي . كذلك استعمل القوس الفارسي في باب بغداد بالرقة كما ان المأذنة في بقايا جامع الرقة هي مأذنة اسطوانية وجميع هذه من أواخر القرن الثامن م . ومن آثار مدينة بغداد القديمة على الضفة اليمنى من دجلة جامع الكاظمين حيث كانت مقبرة القرشيين . والجامع الحالي من بناء القرن التاسع عشر وفيه قبر الامام السابع موسى الكاظم م ٧٩٩ والامام التاسع محمد الجواد م ٨٣٥ وعلى كل من القبرين قبة مطلية بالذهب . وفي هذه المنطقة بقايا اضرحة منها الضريح المعروف بقبر الست زبيدة زوجة هارون الرشيد م ٨٣١ . اما في الجانب الشرقي على الضفة اليسرى لدجلة حيث اقام الخلفاء بعد عودتهم من سامرا فهنالك جامع الامام في الاعظمية وقبر الامام ابي حنيفة ملحق بهذا الجامع وفوقه قبة من القاشاني الملون ومآذن ذات رؤوس مذهبة. وفي سامرا بنى الخلفاء الذين سكنوها وعددهم سبعة مبان مشهورة منها قصر الجوسق الذي ابتناه المعتصم م ٨٤٢ والقصر الهاروني الذي ابتناه الواثق وسماه باسمه . غير ان سامرا بلغت اوجها في

عهد المتوكل م ٨٦١ فقد بنى ووسع نحو اربعة وعشرين قصراً لم يبق منها شيء ومن اهم مبانيه الجامع الكبير الذي استخدمت فيه دعائم الآجر لحمل القناطر بدلا من الاعمدة القديمة وفي حائطه الشمالي شيدت المأذنة الكبرى الحلزونية الشكل المعروفة اليوم بالملوية وقد شبهها البعض بالزقورات البابلية القديمة. وهي ذات درج لوابي خارجي يدور حولها وقاعدتها ضخمة يبلغ طول جانبها ثلاثين متراً . وقد اخذ جامع احمد بن طولون نحو ٨٧٦ م في مصر القديمة من نماذج سامرا وبغداد ومأذنته حلزونية وهو مبني من الآجر الذي يكسوه الجص . وقد درست اكثرية ابنية سامرا منذ القرن العاشر م وبقيت آثار جامع المتوكل . وبقرب هذا الجامع وجد اثران مهمان وهما قبر الامام الحادي عشر حسن العسكري والسرداب الذي غاب فيه خلفه ابو القاسم محمد المهدي في عام ٨٧٨ م وشيد جامع فخم في هذا الموقع ويعرف بجامع العسكري وله قباب مطلية بالذهب وحولها مآذن كثيرة مذهبة .

اما بشأن التصوير والنحت فقد ذكر بعض مؤرخي الفن ان الفن الاسلامي الذي يمكن اعتباره افخم الفنون واروعها كان يمكن ان يكون اتمها لولا تخليه عن ميداني النحت والتصوير ومع ذلك فان كراهية التصوير لم تكن متبعة في جميع البلاد ولا في جميع العصور وقد ازدهرت صناعة التصوير خاصة في البلاد الاسلامية التي كانت لها تقاليد فنية عظيمة في هذا الباب ولم تكن عربية مثل ايران وفي بعض البلاد التي تأثرت بما انتجته ايران . وقد وجدت بعض الرسوم المصنوعة من الفسيفساء منذ العصر الاموي على جدران الجامع الاموي بدمشق وتمثل الاشجار والمياه والمناظر الطبيعية والمساكن. ومن اشهر الصور التي وجدت في العصر العباسي الرسوم على جدران قصر المعتصم في سامرا حيث قلدت رسوم قصير عمرة (من العصر الاموي شرقي عمان) وظهرت فيها مشاهد الصيد والنساء وكان الذين رسموها غالباً من النصارى. وكذلك استخدم المتوكل رسامين بيزنطيين لزخرفة قصره في سامرا [1] . ووضعت الرسوم على مختلف

---

(١) وصف هذه الرسوم العالم الالماني هرتزفلد Herzfeld في كتابه بالالمانية وعنوانه =

الادوات والاشياء من سلاح وشارات واثاث ومصابيح وستور وغيرها وعثر على مجموعة من الخزف البراق وضعت عليها رسوم الانسان والحيوان ، كما شاهد السائح الفارسي ناصر خسرو في مصر في عهد المستنصر الفاطمي رسوم الصيادين والفرسان والخيول على سرير الملك ، وكذلك وجدت الرسوم على الخيام . وكانت المخطوطات اهم الآثار التي وضع فيها المصورون المسلمون صورهم بقصد الزخرفة او التوضيح . ومع ذلك فالمخطوطات المصورة نادرة قبل القرن الثاني عشر وكانت كثيرة في الكتب الفارسية ولكن كتب العرب لم تخل منها وبينها كتب الطب والبيطرة والنبات والادب والبلدان . فهنالك كتاب في البيطرة لاحمد بن حسن بن الاحنف (كتب في بغداد في ١٢٠٩ م وهو في دار الكتب المصرية) وفيه ٣٩ صورة منقوشة ومذهبة وملونة اهمها رسوم الخيل ، وكذلك نسخة مقامات الحريري (في مكتبة باريس الاهلية من ١٢٣٧ م) وفيها رسوم من تصوير الواسطي . ولا توجد آثار لوحات فنية كثيرة ومن اشهرها صورة لاحد كبار رسامي العصر الفاطمي اسمه الكتامي وتصور يوسف في البئر وهو عريان. ولم يوجد في الاسلام تصوير ديني الا ان بعض المصورين الايرانيين اتخذوا حياة الرسول وحوادث اخرى هامة من تاريخ الاسلام كموضوعات لصورهم ولم يكن رجال الدين راضين عنها . وقد تأثر الرسم الديني بالرسامين النساطرة واليعاقبة ولم تلبث ايران ان انجبت رسامين وطنيين . ومن المخطوطات التي وجدت فيها صور دينية كتاب جامع التواريخ للوزير المؤرخ رشيد الدين في آخر القرن الثالث عشر . ومن رسومه رسم الراهب بحيرا أمام النبي يرى فيه امارات النبوة (وهو الآن في مكتبة جامعة ادنبره). ويرى البعض ان صورة البراق ربما اتت من صور الحيوانات المجنحة من اصل يوناني او آشوري . وكان للتصوير الاسلامي اساليب ومدارس مختلفة ذكرنا منها المدرسة الايرانية

= ه رسوم سامرا Die Malereien von Samarra ، برلين ١٩٢٨. أنظر ايضاً:
Arnold : Painting in Islam. Oxford, 1928.

المغولية والتيمورية عند الكلام عن حضارة ايران الاسلامية . ومن هذه المدارس مدرسة بغداد او المدرسة العراقية التي نشأت عن يد جماعة من اتباع الكنيسة الشرقية او من المسلمين الذين تأثروا باساليبهم وازدهرت قبل سقوط بغداد بيد المغول وتمتاز بأنها عربية اكثرمنها ايرانية. فالوجوه عربية واللحى سوداء والملابس مزدانة بالازهار ومن اشهر فناني هذه المدرسة يحيى بن محمود الواسطي المذكور آنفاً.

اما النحت ومايتضمنه من تجسيم المخلوقات الحية فقد كان مكروهاً ايضاً في الاسلام . غير ان نمو المدنية وبناء القصور ادت الى اتخاذ التماثيل المزينة فصنعت من الحجر والجص والذهب والفضة ومعظمها تمثل انواع الحيوان والنبات واذا اتخذت اشكالا آدمية فانما تكون للضحك او اللعب او الزينة . وقد ذكر انه كان في القبة الخضراء في قصر المنصور تمثال فرس ضخم عليه فارس . وكان في قصر البرج للمتوكل بركة عليها شجرة من ذهب وفيها تمثال دلفين وقد اشتهرت بوصف البحتري لها . واما دار الشجرة التي بناها المقتدر فقد ذكرنا انواع الطيور التي عليها وكان على يمين البركة في تلك الدار تماثيل خمسة عشر فارساً على خمس عشرة فرساً ومثلهم على يسارها وصنعوا التماثيل التي تشبه صور السقاة في مجلس الشراب او تشبه صور الندماء والجواري. وصنع العرب اللعب للاطفال وتسمى البنات او تماثيل الصغار وكانت لها سوق خاصة . اما في مصر فان اكثر التماثيل كانت تمثل السباع وكانت شارة الظاهر بيبرس صورة اسد فلما بنى قنطرته على الخليج القاهري اقام عليها اربعة اسود على كل جانب اثنان فسميت قناطر السباع . ووجد في كنوز الفاطميين تمثال طاووس من ذهب . وذكر ان المنصور قلاوون احضرت اليه لما كان في دمشق مائدة ذهب وعليها تمثال دجاجة من ذهب وصيصان في منقاد كل منها لؤلؤة بقدر الحمصة وفي منقاد الدجاجة درة بقدر البندقة. وصنعت تماثيل الحلوى في المواسم كما صنعت تماثيل الزهر .

وقد برع العرب في ناحية فنية خاصة انطلقت فيها عبقريتهم بشكل لم يكن له مثيل في العصور الوسطى وهي ناحية الفنون الفرعية او الصناعية. وقد ورثوا في

ذلك كثيراً من الاساليب الفنية وتقاليد الحرف القديمة في فارس والشام ومصر وغيرها . وتثبت الزخارف الدقيقة الجميلة على التحف الاثرية ان الفنان القدير في الاسلام لم يكن يعمل لمجرد ملأ الفراغ في الاشياء المزخرفة وانما كان يعمل للفن قبل كل شيء . ومن الفنون الصناعية المشهورة الصناعات المعدنية التي انتجت اواني الزهور والطيور الذهبية والمحابر الفضية وقطع الشطرنج وغيرها . وصنعت اشياء كثيرة من النحاس والبرونز منها العقاب البرونزي المشهور الموجود في مقبرة بمدينة بيزا بايطاليا وهو من العصر الفاطمي في القرن الحادي عشر . وجسم هذا العقاب مغطى بموضوعات زخرفية محفورة وبكتابة كوفية . ومما برع فيه الصناع تطعيم البرونز والنحاس بالذهب والفضة وتعرف بعض اساليب هذه العملية بالصناعة الدمشقية . ويتجلى فن التطعيم او التكفيت في ابريق النحاس الموجود في المتحف البريطاني وهو من صنع الموصل في عام ١٢٣٢ وفيه زخارف هندسية ونباتية وحيوانية وآدمية . وانتقل اثر مدرسة الموصل الى مصر عن طريق سورية وظهرت مدرسة اخرى في التطعيم مركزها القاهرة في القرن الرابع عشر . كذلك انتشرت صناعة الخزف والقاشاني وكانت توجد مراكز كبيرة لصنع الخزف منتشرة بين بلاد فارس ومصر . ووجدت قطع من صنع خزافي سامرا على نمط الخزف الصيني غير ان اللون الازرق الذي رسمت به بعض الزخارف كان من منتوجات العراق ويصدره الى الصين ويعرف باللون الازرق المحمدي . وعرف المسلمون طريقة الرسم بالحفر المعروفة باسم غرافيت graffite وكانت شائعة في الصين وفي مصر قبل الاسلام . وزخرفوا الخزف وطلوه بالمينا ذات الالوان المختلفة وكانت هذه الصناعة معروفة عند الفرس الاقدمين . كذلك برعوا في صنع الخزف ذي البريق المعدني . وصنع الفخاريون في سورية والاناضول الخزف الذي تغطى به الجدران على شكل بلاط مربع او قاشاني وعليه مواضيع زخرفية نباتية وقد انتقلت هذه الصناعة من فارس . وكان الزجاج السوري عظيم الاهمية وتحفه كثيرة كالكؤوس والاباريق والقوارير وعليها صور وزخارف مرسومة بالمينا ومحلاة بالذهب ومنها

ذلك الكأس المموه بالمينا (الموجود الآن في المتحف البريطاني) فهو من صنع سورية في القرن الثالث عشر وعليه رسم امير جالس على عرش وعلى جانبه تابعان. وابدع ما أخرجه صناع الزجاج السوريون المصابيح او المشكاوات وهي مزخرفة بكتابات وجامات وفروع نباتية وهنالك مجموعة نفيسة منها في دار الآثار العربية بالقاهرة. وكان فن النسيج راقياً في ايران وسورية ومصر قبل الفتح الاسلامي وقد بقيت مصانع الحرير وأنشئت مصانع جديدة وانتشرت منتوجاتها في بلاد أوربا وبينها العتابي والموسلين والدمسق وأقمشة الفسطاط. وتنوعت منتجات صناعة السجاد في ايران وكان من اهم مواضيع زخرفتها مشاهد الصيد والحدائق والازهار. وبرع المسلمون في صناعة تجليد الكتب وتأثرت بفنهم مصانع التجليد الايطالية في القرن الخامس عشر ومما يدل على ذلك استعمال اللسان الذي يطوى لحفظ أطراف الكتاب الامامية وبرعوا أيضاً في زخرفة جلود الكتب وفي تذهيبها كما اشتهروا بصنع الزخارف البارزة في الخشب والعاج والرخام[١]. وكانت الزخارف الخطية صناعة اسلامية بحتة وقد كتبت أنواع الخطوط العربيـة بشكل شرائط زخرفية في المساجد وسائر المباني وعلى حافات التحف الاثرية وكان يكتب عليها أحياناً اسم صاحب الأثر واسم الخطاط. واهتم الكتاب بتحسين الخط في ايام المأمون وكان من أهم الخطاطين في عصره الريحاني م ٨٣٤ وقد بلغت الخطوط أربعة وعشرين نوعاً كلها مولدة من الكوفي. أما الخط النسخي فكان مستعملاً للكتابات غير الرسمية حتى نبغ ابن مقلة م ٩٤٠ فعني بتحسينه وأدخله في كتابة الدواوين. كذلك ادخلت تحسينات على الخط النسخي من قبل الخطاط ابن البواب م ١٠٢٢ وذاع خط عريض في عهد صلاح الدين يسمى الثلث واشتهرت بعد القرن الثالث

---

(١) انظر بشأن هذه الفنون الفرعية كتاب Gaston Migeon : Les arts musulmans. Paris, 1926 . وكتاب الفنون الايرانية في العصر الاسلامي لزكي محمد حسن. القاهرة ١٩٤٠

عشر سبعة اقلام هي الثلث والرقعة والنسخي والفارسي او التعليق والاجازة او الريحاني والديواني والديواني الجلي واستعملت الكتابات العربية في البلاد الاسلامية ومنها غير العربية خاصة عندما تكون الكتابات ذات صبغة دينية او رسميـة فقامت بين الامم الاسلامية مقام اللغة اللاتينية بين الامم المسيحية . واستخدم الصناع الاوربيون الخط العربي بدون أن يقرأوه ، كما يشهد صليب ايراندي في المتحف البريطاني من القرن التاسع وقد كتب في وسطه بالخط الكوفي عبارة « باسم الله » .

ومن الفنون التي عني بها العرب الموسيقى . وعندما اشتغلوا في نقل العلوم الدخيلة في القرن التاسع م كان من جملة ما نقلوه كتب الموسيقى اليونانية والهندية فتناولوها ودرسوها حتى أصبحت الموسيقى علماً له أصل وحتى ان الخوارزمي اعتبرها في كتابه مفاتيح العلوم من العلوم الرياضية الاربعة (الحساب والهندسة والموسيقى والفلك) . ومن المؤلفات اليونانية التي ترجمها حنين بن اسحق كتابان في الموسيقى لارسطو احدهما كتاب المسائل والآخر كتاب في النفس كما ترجم كتاب الصوت لجالينوس . ونسب العرب الى اقليدس كتابي النغم والقانون وتعرفوا على نظريات نيكوماخوس ابن ارسطو . وبحث العرب بعد عصر الترجمة بامور مختلفة كنظرية الصوت والابعاد Intervals والاجناس والأنواع والجموع والانتقـال والتأليف واضافوا اليها ابحاثاً في الايقاع Rythm . وبحث اخوان الصفا بالموسيقى واعتبروها فرعاً من الرياضيات واعتبروا فيثاغورس مؤسس نظرياتها . وعلى ذلك فان الناحية العلمية الرياضية للموسيقى العربية اخذت عن اليونان بينما الناحية العملية اتبعت نماذج عربية . وفي هذا العصر تقتبس كلمة موسيقى من اليونانية وتستخدم للنواحي النظرية من الموسيقى بينما استعملت كلمة الغناء للدلالة على الغناء والموسيقى سوية وظهرت في العربية اسماء الارغن والقيثار . وقام الكندي فيلسوف العرب في القرن التاسع م و كتب ست رسائل في الموسيقى وفي احداها يستعمل النوطة الموسيقية لاول مرة بين العرب . ووضعت كتب كثيرة من قبل سائر الفلاسفة والعلماء المسلمين ومنهم الرازي الذي وضع كتاباً على الاقل في الموسيقى والشيخ

الرئيس ابن سينا في القرن الحادي عشر الذي وضع في كتاب الشفاء دراسة في الموسيقى وكذلك ابن رشد في القرن الثاني عشر وترجمت كتابات هذين الاخيرين الى اللاتينية واستعملت للدراسة الموسيقية في غربي أوربا . ودافع الغزالي في الجزء الثاني من احياء علوم الدين عن « السماع » وأدى ذلك الى استعمال الموسيقى في طقوس الطرق الصوفية بشكل واسع . واعظم من بحث في الموسيقى في العصور الوسطى الفارابي م ٩٥٠ الذي كتب شروحاً لمؤلفات اقليدس وكان اعظم مؤلفاته « كتاب الموسيقى الكبير » الذي كان له أثر كبير في بلاد الشرق بينما لعب كتابه « احصاء العلوم » دوراً كبيراً في الغرب وكان من أول الكتب المتعلقة بالموسيقى التي ترجمت الى اللاتينية . وعدا عن معالجته للمبادىء الفيزيائية والفيزيولوجية للصوت والموسيقى فانه كان يعرف الموسيقى من الوجهة العملية ووضع النوطة لطبقات Gammes الطنبور الخراساني والرباب. واخترع الفارابي القانون وتركيبه بالشكل الذي هو فيه الآن وكذلك اصطنع آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب عليها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها وقيل إنه استعملها في مجلس غناء لسيف الدولة الحمداني . ومن المؤسف ان معظم المؤلفات العلمية في الموسيقى قد فقدت في أصلها العربي وحفظت ترجمة بعضها في اللاتينية .

وكان من نتائج ترقي الفن الموسيقي وتطور صناعة الغناء واتقانها وميل بعض الخلفاء الى الطرب واللهو ان انتشر الغناء وراجت بضاعته حتى ان بعض الخلفاء واهلهم تعلموا الضرب على الآلة واشتغلوا بصناعة الالحان والتلحين واشهرهم الواثق الذي كان يضرب على العود ويؤلف الالحان والمنتصر والمعتز والمعتمد . وكانت الاميرة علية بنت المهدي احدى شهيرات عصرها في الموسيقى وقد شاد صاحب الاغاني بتأليفها والحانها كما كان أخوها ابراهيم بن المهدي من نوابغ هذا الفن . وكثيراً ما كانت الاميرات وسيدات الطبقة الراقية يشتركن في حفلات موسيقية خاصة تسمى « نوبات الخاتون » وفرقة العزف كانت تتشكل من مائة عازف يديرها رئيس كما يفعل رئيس الجوقة الموسيقية في العصر الحاضر بالتلويح بالعصا وفقاً للايقاع .

وقد اشتهر في عصر المهدي سياط المكي م ٧٨٥ وتلميذه ابراهيم الموصلي الذي اصبح سيد الموسيقى العربية وهو من أصل فارسي واختطف وهو صغير خارج الموصل ، وكان أول من استعمل العصا لاجل الايقاع . وأصبح من ندماء الرشيد وتناول منه راتباً شهرياً يقدر بعشرة آلاف درهم كما كانت تأتيه الهدايا الكثيرة من الخليفة ويقول صاحب العقد الفريد ان ابراهيم كان اعظم الموسيقيين في سعة معلوماته وتنوعها ولكن معاصره ابن جامع كان ارقهم ايقاعاً . وكثر عدد الموسيقيين ومنهم المغنون والمغنيات حتى امتلأت بأخبارهم صفحات كتاب الاغاني والعقد الفريد والفهرست والف ليلة وليلة . وكان من الذين قربهم الرشيد اليه « مخارق » م ٨٤٥ الذي يذكر صاحب الاغاني ان الرشيد انعم عليه بمائة الف دينار . أما في عهد المأمون والمتوكل فان من اشهر الموسيقيين كان اسحق بن ابراهيم الموصلي م ٨٥٠ ويرى مؤرخ الموسيقى العربية فارمر Farmer انه كان اعظم موسيقي في الاسلام (١) . وكان الموسيقيون المشهورون كالذين ذكرناهم لا يتقنون صناعة الغناء والتلحين فحسب وانما كانوا من أهل الشعر والادب وأحياناً من أهل العلم . وكان دونهم مرتبة الضاربون الذين استعملوا العود خاصة وبعضهم كان يستعمل الرباب انما كانوا دون الضاربين على العود . ثم تأتي القيان وكان يعتنى بتدريبهن وتعليمهن حتى بلغ ثمن احداهن اكثر من ثلاثين الف دينار .

عصر المماليك وحضارته : حكمت سلالة المماليك في مصر وسورية بين ١٢٥٠ و١٥١٧ بعد الايوبيين في عصر مضطرب وكان ظهور هذه السلالة من الامور الفريدة التي تستلفت النظر لان اصل أفرادها من الرقيق من اجناس مختلفة ولكنهم شكلوا ارستوقراطية عسكرية في ارض غريبة وكان لهم فضل اجلاء بقايا الصليبيين وصد

---

(١) راجع : H. G. Farmer : A History of Arabian Music. London, 1929.

هجمات المغول ولولا ذلك لكان ربما تغير وجه التاريخ في الشرق الادنى . وبفضلهم تجنبت مصر الكوارث التي اصابت سورية والعراق وتمتعت بدوام حضارتها ومؤسساتها . وكان عز الدين ايبك اول سلاطين المماليك غير ان شجرة الدر التي كانت من جواري المستعصم ثم ارملة الملك الصالح الايوبي كان لها يد في تأسيسها . فقد حكمت نحو ثمانين يوماً في مصر وسورية وضربت النقود باسمها وعندما انتخب امراء الجيوش ايبك قائداً عاماً (اتابك العسكر) تزوجته ثم علمت انه سيتزوج مرة ثانية فعملت على قتله ولم تلبث ان قتلت . والمماليك سلالتان : البحرية ١٢٥٠ — ١٣٩٠ واصلهم من مماليك الملك الصالح ايوب وثكناتهم في جزيرة الروضة وكانوا من الاتراك والمغول . والبرجية او الشراكسة ١٣٨٢ — ١٥١٧ واصلهم من حرس السلطان قلاوون ومعظمهم شراكسة ومركزهم أبراج قلعة القاهرة . وعدد سلاطين البحرية أربعة وعشرون وعدد البرجية ثلاثة وعشرون . ولم يتبع البرجية مبدأ الوراثة فكان العرش لمن يمكنه الاستيلاء عليه وقسم كبير من السلاطين قتلوا وهم صغار السن (١) ومتوسط مدة الحكم كانت ست سنوات . وكانت مهمة المماليك الاولى توطيد الامن وحماية الحدود . وكان ايبك منشغلاً في ساحات القتال وخلفه المظفر قطز ١٢٥٩ — ١٢٦٠ فكان نائب السلطنة بالنيابة عن ابن ايبك ثم اغتصب العرش ، وصد المغول وجيش هولاكو بقيادة كتبغا وانتصر في عين جالوت حيث اشتهر القائد بيبرس وقد قتل كتبغا في المعركة . اما بيبرس فتأمل أن يحصل على حكومة حلب فلما رفض قطز ذلك عمل على قتله واحتل مكانه . وكان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ١٢٦٠ — ١٢٧٧ من اهم سلاطين المماليك ، واصله مولى تركي بيع في دمشق واعيد لعيب في عينه ثم اشتراه الصالح ايوب واصبح ضابطاً في الحرس ثم قائداً اعلى وهو المؤسس الحقيقي لسلطة المماليك . اشتهر بيبرس في

---

(١) انظر مقال زوبرنهايم Sobernheim في الموسوعة الاسلامية وموضوعه المماليك . اما كتاب وليم ميور Muir وعنوانه : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. London 1896. فانه سطحي .

حروبه ضد المغول والصليبيين وكذلك قضى على سلطة الحشاشين واستولى قواده على النوبة . ونظم الجيش وبنى الاسطول وحفر الترع وشيد الحصون واصلح البريد بين دمشق والقاهرة وعمل وقفيات هامة واقام المباني وخاصة الجوامع وقبره في دمشق تحت قبة المدرسة الظاهرية المعروفة اليوم بالمكتبة الظاهرية . وقد نظم بيبرس المحمل المصري وعين اربعة قضاة للمذاهب الاربعة واسمه من اشهر الاسماء في التاريخ الاسلامي لمآثره في الجهاد وقد دخل في الاساطير والقصص . وقصته مع قصة عنترة تعد من اشهر القصص الشعبية . وتحالف بيبرس مع خان المغول الاكبر سيد القبيلة الذهبية في وادي الفولغا لمناوأة السلالة الايلخانية في ايران ، وحصل وفد من قبله على تجديد جامع في القسطنطينية هدمه الصليبيون قبلاً ، ووقع معاهدات تجارية مع ملك صقلية في ١٢٦٤ ومع الفونسو ملك اشبيلية . واشتهر بتجديد الخلافة العباسية في مصر ليجعل لحكمه المقام الاول في اعين المسلمين ولاجل القضاء على مناورات الشيعة في مصر ولذلك دعا ابن الخليفة الظاهر وجعله خليفة باسم المستنصر . ثم قلده الخليفة الحكم على مصر وسورية والحجاز واليمن والفرات ، وكانت سلطة الخلفاء اسمية يكتفي منها بذكر اسمائهم على النقود وفي خطبة الجمعة وكانوا يديرون الاوقاف ويرأسون حفلة تولي السلطان الجديد . واصبح احد الخلفاء سلطاناً لبضعة ايام بعد وفاة الناصر في ١٤١٢ ولكن المؤيد شيخ عزله كما ان بعض السلاطين الآخرين عزلوا الخلفاء لاعتبارهم اياهم غير موالين لهم وحصل ذلك في عهد برقوق م ١٣٩٨ واينال م ١٤٦٠ . واخذ السلطان سليم العثماني معه الى القسطنطينية آخر الخلفاء وهو المتوكل .

وكان من اهم سلاطين المماليك البحرية المنصور سيف الدين قلاوون ١٢٧٩–١٢٩٠ وكان تركيا ايضاً اشتراه الصالح ايوب وقد استلم السلطة بعد حكم بركة ابن بيبرس الاكبر مدة سنتين وبعد عزل الابن الاصغر لبيبرس . وكان قلاوون السلطان الوحيد الذي اتى من سلالته سلاطين حتى الجيل الرابع حتى ان آخر المماليك البحرية وهو الصالح حاجي كان من سلالته . وفي عهده تآمر الايلخانيون في ايران

وخاصة اباقة ابن هولاكو وابنه ارغون وفاوضوا البابا ضد المماليك على ان جيش اباقة كسر في حمص في ١٢٨٠ . وعمل قلاوون على تقوية العلاقات مع مغول القبتشاق ومع البيزنطيين وجنوه وفرنسا وصقلية وقشطلة . واستولى على قلاع الصليبيين وغزا ارمينية لمساعدتها ابناء هولاكو ، وهدم طرابلس بعد انتزاعها من الصليبيين ثم بناها بعيداً عن البحر وجدد قلاع دمشق وحلب وبعلبك . واتى الاشرف خليل بن قلاوون ١٢٩٠ — ١٢٩٣ ففتح عكا وسقطت سائر الموانئ التي كانت بيد الافرنج واجلي الصليبيون عن البلاد فيما سوى جزيرة ارواد التي غادرها فرسان الهيكل في عام ١٣٠٢ في عهد الناصر اخي الاشرف ووريثه . وقد حكم الناصر بن قلاوون ثلاث مرات (١٢٩٣ — ٩٤ و ١٢٩٨ — ١٣٠٢ ثم ١٣٠٩ — ١٣٤٠) وحصلت في زمنه آخر غزوة مغولية هامة بقيادة غازان محمود الايلخاني فكسر الجيش المصري في أواخر ١٢٩٩ شرقي حمص واحتل المغول دمشق في السنة التالية ثم غادروها بعد ان نهبوا مدن شمالي سورية . وبعد ثلاث سنوات عاد المغول ولكنهم صدوا في مرج الصفر جنوبي دمشق ولم يعودوا بعد ذلك . وعاقب الناصر الدروز الذين هاجموا مؤخرة جيشه عند انسحابه من سورية وكذلك عاقب الموارنة والشيعة وفرض القيود على رعاياه المسيحيين واليهود . واشتهر الناصر بحياة الترف والبذخ وظهر ذلك في عرس ابنه . وبنى قصره المشهور بالابلق ودفع نحو ٣٠٠٠٠ دينار ثمن راس من الخيل . وحفر ترعة بين النيل والاسكندرية اشتغل فيها مائة الف عامل كما اوجد قناة من النيل الى قلعة القاهرة في عام ١٣١١ وبنى ثلاثين جامعاً وعدداً من الحمامات والمدارس والسبل ومدرسة الناصرية لا تزال حتى اليوم وقد بنيت في ١٣٠٤ وجامعه في القلعة دخلت فيه زخارف من انقاض كاتدرائية عكا . ومن آثاره ايضاً مصابيح الزجاج المموهة بالمينا والمصاحف المزخرفة والاواني النحاسية الجميلة الصنع . هذه الاعمال تطلبت نفقات كثيرة وضرائب ثقيلة وحصلت ضائقة مالية واقتصادية في زمنه فحاول تخفيفها بتشجيع التجارة مع الشرق واوربا ومسح الاراضي وعاقب الخبازين الجشعين . وحصلت بعد

حكمه مجاعات واوبئة اهمها الموت الاسود او الطاعون الذي انتشر في اوربا في ١٣٤٨ وقد ذكر ابن اياس ان خمسمائة الف من السكان ماتوا في القاهرة وكان متوسط الوفيات اليومية في حلب خمسمائة . وكان عدد السلاطين الذين اتوا بعد الناصر اثنا عشر سلطاناً في مدة نحو اربعين سنة (١٣٤٠ — ١٣٨٢) وكانوا حكاماً بالاسم بينما السلطة الحقيقية كانت بيد قواد الجيش الذين كانوا يقتلون ويعزلون ويولون . وكان اهم الآثار في هذه الفترة جامع السلطان حسن في ١٣٦٢ . وآخر سلاطين البحرية الصالح حاجي (حكم ١٣٨١ — ٨٢ ثم ١٣٨٩ — ٩٠) وانتهى حكمه بتدخل الشركسي برقوق مؤسس سلالة المماليك البرجية .

بدأت سلالة المماليك البرجية بالسلطان برقوق وانتهت بقانصوه الغوري وطومان باي . وكان السلاطين من الشراكسة ماعدا اثنين من اصل يوناني وهما خشقدم ١٤٦١—٦٧ وتيموربغا في ١٣٦٧ وكانت السلطة بيد ارستوقراطية عسكرية . واهم السلاطين تسعة من اصل ثلاثة وعشرين بينما السلاطين الاربعة عشر الباقون حكموا عشر سنوات . وفي سنة واحدة ١٤٢١ تقلب على الحكم ثلاثة سلاطين . ويعتبر حكم هذه السلالة من العصور المظلمة في تاريخ مصر وسورية لما اتصف به من فساد ومكائد واغتيالات . ويقول السيوطي ان برقوق كان السلطان الوحيد الذي كان ابوه مسلماً . والسلطان برسباي م ١٤٣٨ كان يجهل العربية بينما اينال م ١٤٦٠ كان امياً وهو من عبيد برقوق . واشهر سلاطين هذه السلالة قايتباي ١٤٦٨—١٤٩٥ وكان برسباي قد اشتراه بخمسين دينار ومما ينسب اليه انه قطع لسان الكيمياوي امين المرشوشي وقلع عينيه لانه لم يتمكن من تحويل المعدن الى ذهب . وكان الامراء والعبيد ينقسمون الى احزاب متعادية وكل حزب يهمه الاستيلاء على النفوذ والمال . وادت انانية السلاطين الى سوء الحالة الاقتصادية فالسلطان برسباي احتكر الفلفل وباعه باسعار مرتفعة واحتكر صنع السكر . وفي ايامه حصل طاعون قيل انه اودى بحياة ثلاثمائة الف من سكان القاهرة في ثلاثة شهور ويقول ابن تغر بردي انه رأى ان يكفر عن ذنوب الناس بفرض قيود

جديدة على المسيحيين واليهود ، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن . وكان بعض السلاطين يتلاعبون بالنقود ومعادنها ومن وسائل الحصول على المال لاجل الابنية والحروب ونفقات البلاط مصادرة اموال الاغنياء والموظفين الذين استفادوا من وظائفهم على حساب الناس . وحصلت غارات الجراد والمجاعات وتعدى البدو على الفلاحين . ويقول ابن تغر بردي ان عدد سكان مصر وسورية انخفض بمقدار الثلثين[1] . ومن العوامل الخارجية لفقر البلاد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند في ١٤٩٨ وازدياد غارات البرتغاليين وغيرهم على السفن العربية في البحر الاحمر والمحيط الهندي . وقد تحولت تجارة مواد البلاد الحارة الآتية من الهند وبلاد العرب من موانىء مصر وسورية . واضطر اسطول الغوري لمحاربة سفن البرتغال على سواحل الجزيرة العربية وهدد البابا بهدم الاماكن المقدسة اذا لم يستعمل نفوذه على سفن البرتغال ولكن هذا التهديد لم يفد وفي ١٥١٣ ضرب الملاح البرتغالي البوكرك Albuquerque (ابو القرق بالعربية) مدينة عدن .

اما بشأن سياسة المماليك البرجية الخارجية فقد ظهر تيموورلنك في زمن هذه السلالة وحصلت ثورات في سورية قام بها حكامها بتشجيع المغول احياناً ثم ظهر العثمانيون . وفي عهد برسباي فتح المماليك قبرص ١٤٢٤ – ٢٦ لينتزعوا قاعدة القرصنة من الذين يغيرون على السواحل ، وكانت بيد الفرنجة تهدد المماليك ولم ينجح الظاهر بيبرس في حملته عليها في ١٢٧٠ ولكن برسباي نجح واسر الملك وهو من اسرة لوزينيان Lusignan ثم تدخلت البندقية واعيد الملك الى عرشه بعد دفع فدية

---

(١) انظر بشأن الاحوال الاقتصادية وحياة سورية ومدنها في عهد المماليك : J.Sauvaget « Décrets mamelouks de Syrie » dans Bulletin d' Etudes Orientales 1932, 1933. Gaudefroy - Demombynes : La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs arabes. Paris 1923. Nicola A. Ziadeh : Urban Life in Syria under the Early Mamluks. Beirut, 1953.

كبيرة وجزية سنوية (١) . كذلك وقع برسباي معاهدة صلح مع فرسان القديس يوحنا في رودس . اما غزو تيمورلنك لسورية فقد حصل في عام ١٤٠٠ بعد ان استولى على مناطق واسعة بين افغانستان وايران واحتل بغداد (١٣٩٣) وبنى هرماً من جماجم ضحاياه في تكريت واحتل موسكو (١٣٩٥) واجتاح شمالي الهند . وفي سورية اجتاح القسم الشمالي ونهب حلب مدة ثلاثة ايام ويقول ابن تغري بردي انه بنى كوماً من رؤوس نحو ٢٠٠٠٠ من السكان . وقد هدم المساجد التي بنيت في العصر النوري والايوبي وهزم جيش السلطان فرج واحتل دمشق واحرقها بعد نهبها وحمل معه اقدر الصناع والعلماء ورجال الفن الى سمرقند. وكان ابن خلدون مع السلطان فرج وترأس وفد دمشق للمفاوضة بالصلح مع تيمورلنك (٢) . وعاد تيمورلنك الى بغداد ومنها الى الاناضول حيث اسر السلطان العثماني بيازيد الاول بعد موقعة انقرة ١٤٠٢ وتوفي اثناء حملته على الصين في ١٤٠٤ واراد ابنه شاهرخ ١٤٠٤ — ٤٧ ان يكون برسباي تابعاً له وان يسمح له بارسال ستار الى الكعبة ولكن برسباي رفض واهان السفير . ثم يضعف التيموريون بنتيجة منازعات داخلية . في هذه الاثناء كانت السلالة العثمانية قد ظهرت منذ أن بدأ عثمان ١٢٩٩—١٣٢٦ بتأسيس دولة في آسية الصغرى . واصبح العثمانيون خطراً على المماليك في عهد بيازيد الثاني ١٤٨١ — ١٥١٢ معاصر قايتباي وصار الامراء التابعون لهم يتنازعون على حدود آسية الصغرى وسورية . والتجأ « جم » اخو بايزيد الى قايتباي فقبله . وكان السبب الحاسم للنزاع وعد قانصوه الغوري بمساعدة

---

(١) راجع بشأن هذه الحملة : فتح المماليك لقبرص في القرن الخامس عشر للدكتور محمد مصطفى زيادة في مجلة كلية الآداب في الجامعة المصرية ١٩٣٣ . وبشأن علاقات المماليك مع الدول الاجنبية بوجه الاجمال A. S. Atiya : The Crusades in the Later Middle Ages . London, 1938 .

(٢) راجع : Ibn Khaldun and Tamerlane by Walter Fischel Berkely, 1952.

الشاه اسماعيل الصفوي ١٥٠٢ — ١٥٢٤ مؤسس الاسرة الصفوية في ايران . وحصلت المعركة الحاسمة بين العثمانيين والصفويين في عهد سليم الاول في آب ١٥١٤ شرقي بحيرة اورميا فانكسر الصفويون واحتل الاتراك تبريز وما بين النهرين . وفي ربيع ١٥١٦ اتجه قانصوه الغوري ومعه الخليفة المتوكل الى حلب بحجة التوسط بين الصفوي والاتراك ولكن السلطان سليم علم نواياه واهان الوفد الذي ارسله . ولم يتمكن قانصوه من الاعتماد على حكام شمالي سورية وامراء الجيش في مصر . وحصلت الموقعة الحاسمة في مرج دابق شمالي حلب في ٢٤ آب ١٥١٦ وكان خير بك يقود ميسرة قانصوه انما خانه في بدء المعركة . وكان جيش العثمانيين مجهزاً تجهيزاً حديثاً بمدفعية وبنادق ويستعمل البارود . وانتصر العثمانيون واستقبل السلطان سليم كمنقذ ووجد كنوزاً كثيرة في قلعة حلب ثم احتل دمشق واتجه نحو مصر حيث اصبح طومان باي مملوك قانصوه سلطاناً . وحصلت معركة اخرى في كانون الثاني ١٩١٧ انتصر فيها العثمانيون . وهكذا اصبحت القاهرة مركزاً لمقاطعة من مقاطعات العثمانيين بعد فتح مصر ولم تعد عاصمة واصبحت مكة والمدينة تابعتين للعثمانيين وتلى الخطباء الدعاء للسلطان سليم . وعاد السلطان سليم الى القسطنطينية وبصحبته الخليفة المتوكل الذي عاد بعدئذ الى القاهرة وتوفي فيها في ١٥٤٣ ويقال انه تنازل عن الخلافة للسلطان العثماني . ومهما يكن فان السلطان اتخذ امتيازات الخلافة ولكن يظهر ان السلاطين من بعد السلطان سليم كانوا يخاطبون بلقب خليفة من باب المجاملة ولكن لم تظهر وثيقة دبلوماسية تستعمل هذا اللقب رسمياً للخليفة وتعترف بسلطته على المسلمين خارج تركيا حتى معاهدة كوتشوك كينارجة في ١٧٧٤ واصبح السلطان وهو الخليفة في القسطنطينية اقوى سلطة في الاسلام، واتجه مركز الاسلام غرباً نحو ضفاف البوسفور كما ان مركز الحضارة اتجه عموماً نحو الغرب . وادى اكتشاف اميركا والطرق البحرية الجديدة الى تحويل التجارة نحو آفاق جديدة واخذ البحر المتوسط الشرقي يفقد اهميته وبذلك

ينتهي تاريخ الخلافة العربية والسلالات الاسلامية التي ظهرت على انقاض الامبراطورية العربية ويبدأ تاريخ الامبراطورية العثمانية .

لقد بدأ حكم المماليك بابهة الانتصار على الاعداء الخارجيين ولكنه من جهة الحضارة جلب في النهاية الخراب على سورية ومصر بسبب المنازعات بين الاقلية الحاكمة وتخفيض النقود وكثرة الضرائب وفقدان الامن وكثرة المجاعات والطاعون والثورات وانتشار الرجعية والجهل والخرافات ولذلك لا ينتظر ان تكون الحياة الفكرية متقدمة . ويفقد العالم العربي السيادة الفكرية في القرن الثالث عشر ويشير هذا الانحطاط الى زوال العصور الوسطى . وقبل ان نتوسع في وصف الحياة الفكرية في عصر المماليك لا بد من لمحة عن الحكم والادارة . فقد كان الحكم في زمن المماليك استبداديا ويساعد السلطان في حكمه مجلس القواد وبينهم ممثل السلطان او النائب الكفيل والامير الكبير وهو القائد العام (وتتحد وظيفته فيما بعد مع وظيفة الأتابك) وقائد الحرس (رئيس نوبة النواب) وامير السلاح وكان بمثابة وزير للحربية ، وامير المجلس . ثم يظهر فيما بعد الداودار الكبير (وزير الداخلية) ووزراء القصر والاملاك العامة (بلقب استادار) واصبحوا اهم الموظفين ، ثم حاجب الحجاب وهو أعلى قاضي عسكري ، وأمير الآخور وهو المارشال الكبير . هؤلاء جميعهم كانوا من الضباط العسكريين او اصحاب السيوف وبرتبة مقدم الألوف ، ومن هذه الطبقة كان السلطان يختار حكام المقاطعات (دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد) وحكام قلعة دمشق وحلب وكانوا يعينون من قبل السلطان . والطبقة الثانية من العسكريين كانت تسمى الطبلخانة وهم الامراء الذين لهم عدد اقل من المماليك ويمكن ان ترافقهم جوقة موسيقية . والنظام الاداري في المقاطعات كان صورة مصغرة للحكومة المركزية . والحكام في سورية كانوا مستقلين بعضهم عن بعض وكان بعضهم مثل تنكز يسيطر على حكام آخرين . وربما تأثر المماليك بالمغول فجعلوا الوظائف العليا كلها بيد الطبقة العسكرية ثم اوجدوا وظيفة كاتم السر وصاحب ديوان الانشاء وهذه يشغلها مدنيون بينهم بعض الذميين او الداخلين مجدداً في الاسلام . وكان يشتري المماليك لحساب الدولة تاجر المماليك

ويتدربون في مدرسة المماليك بالقاهرة ثم يوزعون على مختلف الوظائف الصغيرة ويدخلون خدمة الامراء . اما الجيش فكان مؤلفاً من حرس السلطان الخاص ومن المتطوعة ومن حرس الامراء . ثم صار يدخل جند الاحتياط « اولاد الناس » الذين يدعون الى الخدمة في زمن الحرب ولكن يتقاضون الرواتب في زمن السلم . وكان يتناول الامراء اموالاً لتجهيز جيوشهم . وبين الوظائف المدنية وظائف اصحاب القلم ومنهم الموظفون الدينيون (العينية في الوظائف الشرعية والتعليم) والموظفون الاداريون (الديوانية) . وواردات السلطان كانت تأتيه من الضرائب على العقار وضريبة الرأس والزكاة وواردات الاقطاعات التي منها يعطي الاموال للموظفين والجيش ، وواردات الجمارك ومصانع الدولة والواردات غير الاعتيادية من الاسواق والبضائع وعمليات البيع والشراء (حيث تبتاع الدولة البضائع بسعر محدد وتجبر الناس على شرائها باسعار معينة) والاحتكارات ومصادرة اموال الاغنياء .

اما من الوجهة الفكرية فان العرب ظلوا بالرغم من اضطراب الاحوال العامة مشهورين بالرياضيات والفلك والطب وخاصة طب العيون . ففي الفلك والرياضيات اشتهر العلماء الذين مركزهم مراغة حيث المرصد الايلخاني وقد ذكرنا منهم نصير الدين الطوسي م ١٢٧٤ . وكان رئيس اساقفة اليعاقبة ابو الفرج بن العبري ١٢٢٦ — ١٢٨٦ (المعروف عند الافرنج باسم Bar Hebraeus) يحاضر عن اقليدس وعن بطليموس وهو من اواخر الكتاب الذين كتبوا بالسريانية واشتهر ايضاً كمؤرخ (وكتابه تاريخ مختصر الدول نشره الاب صالحاني في بيروت ١٨٩٠) . واشتهرت مصر وسورية في الطب وبنى السلطان قلاوون مستشفى في القاهرة وقربه مدرسة وجامع وتشاهد آثار هذا المارستان المنصوري حتى اليوم ويقال انه اخذ الفكرة عن المارستان النوري في دمشق . وكانت في المارستان دوائر مختلفة لمختلف الامراض ومخابر ومستوصف مجهز بالادوية وعنابر وكان يداوى فيه المرضى من الجنسين كما كان يجري فيه تدريس الطب . وكان عميد المستشفى ابو الحسن علي بن النفيس الذي توفي في دمشق في ١٢٨٩ وذكر في كتابه « شرح تشريح القانون »

فكرة دوران الدم قبل البرتغالي سرفيتوس المنسوب اليه هذا الاكتشاف بثلاثة قرون . وفي عهد الناصر بن قلاوون اهــداه رئيس اسطبله ابو بكر بن المنذر البيطار م ١٣٤٠ رسالة في الطب البيطري اسماه كامل الصناعتين البيطرة والزرطقة » (وترجمه بيرون Perron في ثلاثة اجزاء الى الافرنسية في باريس ١٨٥٢–١٨٦٠) . وكلمة بيطار مأخوذة عن اليونانية hippiatros وقد رأى البعض ان معرفة العرب النظامية واساليبهم في البيطرة اتت من مصادر بيزنطية على انه كان للعرب خبرة قديمة بامراض الخيل والابل . وادى ولع السلطان برقوق وقلاوون من قبله بالخيل الى وضع كتب كثيرة عن الخيل منها كتاب فضل الخيل لعبد المؤمن الدمياطي م ١٣٠٦ . وقد وجد في القاهرة منذ العصر الايوبي بعض الاطباء منهم الصيدلي الكوهين العطار الذي وضع رسالة في الصيدلة سماها « منهاج الدكان ودستور الاعيان » . وكثرت في هذه الفترة الكتب الجنسية وفيها النكات والقصص واهم من كتب في هذا الموضوع التيفاشي حوالي ١٢٦٠ . وفي هذا العصر نجد عناصر ماسماه الرازي الطب الروحاني ومن الرواد في هذا الباب طبيب عند صلاح الدين اسمه هبة الله بن جميع وعنوان مؤلفه « الارشاد لمصالح الانفاس والاجساد » . وكان طب العيون يمارس بشكل علمي في سورية ومصر اكثر من اي مكان في العالم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر واهم كتاب عربي في الموضوع كتبه ابو الفضائل ابن الناقد م ١١٨٨ باسم « مجربات » ولكن في سورية كتبت بعد ذلك اعظم الكتب وهي « الكافي في الكحل » كتبه خليفة بن ابي المحاسن الحلبي نحو ١٢٥٦ وكتاب « نور العيون وجامع الفنون » كتبه صلاح الدين بن يوسف الحموي نحو ١٢٩٦ . وقد اقدم خليفة على ازالة الماء الزرقاء لرجل له عين واحدة . واهم المراكز العلمية السورية كانت في داخل البلاد لان الحروب الصليبيــة خربت الساحل كما خربه سـلاطين المماليك . واشهر مؤرخ للطب في العالم عاش في دمشق وهو ابو العباس احمد بن ابي اصيبعة ١٢٠٣ — ٧٠ وكان طبيباً وابن كحال ودرس الطب في سورية ومصر وكتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » يحوي

٤٠٠ ترجمة لرجال الطب العرب واليونان وكثير منهم فلاسفة ورياضيون وفلكيون ولذلك يمكن اعتباره تاريخاً للعلم عند العرب . ويكاد يشبهه كتاب « أخبار العلماء باخبار الحكماء » لعلي بن يوسف القفطي الذي ولد في مصر العليا في ١١٧٢ وعاش في حلب كوزير للحكام الايوبيين حتى وفاته في ١٢٤٨ .

كان عصر المماليك غنياً في كتابة التاريخ والتراجم . واهم كتاب التراجم عاش في دمشق وهو احمد بن محمد بن خلكان · فقد ولد في اربيل في ١٢١١ ودرس في حلب ودمشق واصبح قاضي قضاة سورية في ١٢٦١ وتوفي في ١٢٨٢ بعد ان اتم كتابه « وفيات الاعيان وانباء اهل الزمان » وفيه مجموعة ٨٦٥ ترجمة لمشاهير المسلمين وهو اول قاموس للتراجم الوطنية بالعربية ويعتبره بعض المستشرقين احسن كتاب وضع في التراجم العامة نظراً لمعلوماته وتحقيقاته عن الاسماء والتسلسل والاخبار . ومن اهم مؤرخي العصر ابو الفدا وابن تغري بردي والسيوطي والمقريزي . اما ابن خلدون م ١٤٠٦ فقد عاش في هذا العصر وكانت له صلة بالاندلس والمغرب ثم اصبح قاضياً في عهد السلطان برقوق وذهب مع وفد الى دمشق ليفاوض تيمورلنك في عهد السلطان فرج وسيأتي الكلام عنه في بحث الاندلس . يرجع ابو الفدا م ١٣٣٢ في نسبه الى احد اخوة صلاح الدين وكان يحكم حماة في عهد الناصر بن قلاوون . وقد اختصر في كتابه « مختصر تاريخ البشر » كتاب ابن الاثير واكمله حتى عصره (طبع في القسطنطينية ١٢٨٦ هـ وطبع كتابه تقويم البلدان في باريس ١٨٤٠) . اما ابو المحاسن ابن تغري بردي ١٤١١ — ٦٩ فان اباه كان موظفاً في بلاط المماليك وكان هو ايضاً متصلا بحكام الدولة. وكتابه « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » [١] هو تاريخ مصر من الفتح الاسلامي حتى عام ١٤٥٣ . وكان جلال الدين السيوطي ١٤٤٥ — ١٥٠٥ مثل ابن حزم والطبري من اخصب المؤلفين في الاسلام وقد كتب في مختلف المواضيع والعلوم مثل علوم

---

(١) انظر بشأن ناشري تاريخه ماجاء سابقاً في هامش ص ٣٦٩ .

القرآن والحديث والفقه والتاريخ وعلوم اللغة ووصلتنا اسماء ٥٦٠ من مؤلفاته ومن اهمها « الاتقان في علوم القرآن » وحسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة . غير ان ابرع مؤرخي عصر المماليك تقي الدين احمد المقريزي م ١٤٤٢ واصله من بعلبك وكان قاضياً فيها وفي دمشق ومن اشهر كتبه « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » ويتعلق بتاريخ مصر وآثارها ، وكتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » (١) . ومن مؤرخي هذا العصر ابن الفرات م ١٤٠٥ (٢) وابن اياس م ١٥٢٤ (٣) ومحمد بن طولون م ١٥٤٦ وكان قاضياً ومؤرخاً توفي في دمشق وكتب « اعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الكبرى » (ترجمه الى الفرنسية هنري لاوست Laoust . طبع دمشق ١٩٥٢) . وهنالك سيرتان او قصتان اتخذتا شكلهما النهائي الحالي في عصر المماليك وهما قصة عنترة وقصة الملك الظاهر بيبرس . كذلك اتخذت قصص الف ليلة وليلة شكلها النهائي في هذا العصر والفارس المذكور في هذه القصص يمثل الفارس في عصر المماليك كما ان بعض العادات والتقاليد الشعبية تمثل البيئة التي وجدها القصاص حوله في هذا العصر . وكان المماليك في عصر الحروب الصليبية يمثلون الفروسية والبطولة التي نسجت حولها القصص والاساطير وذلك لولعهم بالرياضة والرمي وركوب الخيل والصيد . وهنالك عالمان مصريان اشتهرا بكتابة مايشبه الموسوعات احدهما احمد النويري م ١٣٣٢ . صاحب « نهاية الارب في فنون الادب » (طبع في القاهرة منذ ١٩٢٣ في تسع

---

(١) بدأ بنشره محمد مصطفى زيادة في القاهرة منذ ١٩٣٤ وترجم قسما منه Quatremère بعنوان :

Histoire des Sultans Mamelouks. 2 vols. Paris 1837 - 45.

(٢) نشر قسما من تاريخه قسطنطين زريق ونجلا عز الدين بيروت ١٩٣٦ .

(٣) نشر جانب من تاريخه في ٣ مجلدات في القاهرة ١٣١٢ ﻫ والقسم الرابع نشر في ليبزك واستانبول في ١٩٣٦ ويتضمن تاريخ ١٤٦٨ — ١٥٢٢ .

مجلدات) وثانيهما احمد القلقشندي م ١٤١٨ مؤلف « صبح الاعشى في صناعة الانشاء (طبع القاهرة في ١٤ مجلد ١٩١٣ – ٢٢) وهو مملوء بالمعلومات الجغرافية والتاريخية عن مصر وسورية وباصول الكتابة في الدواوين . ومن الكتب في الملاحة النظرية والعملية كتاب « الفوائد في اصول البحر والقواعد » (نشره فران Ferrand في باريس ١٩٢١) ومؤلفه احمد بن ماجد الذي قيل انه كان دليل فاسكو دي غاما في عام ١٤٩٧ من افريقيا الى الهند .

واشتهر في علوم الدين تقي الدين احمد بن تيمية م ١٣٢٨ الذي ولد في حران وعاش في دمشق وبقي نحو ٦٤ كتاباً من الكتب الخمسمائة المنسوبة اليه . وكان لايرجع الا الى القرآن والحديث ويهاجم الامور التي دخلت الدين من نذور وزيارات واعتماد على الاولياء وهو من اتباع مذهب ابن حنبل وقد كان له تأثير هام في الحركة الوهابية [١]. ومن علماء الحديث ابن حجر العسقلاني م ١٤٤٩ صاحب كتاب « الاصابة في تمييز الصحابة »(طبع في ٨ مجلدات. القاهرة ١٣٢٣هـ). ومن مشاهير الشعراء في عصر المماليك محمد البوصيري م ١٢٩٦ الذي نظم البردة على اثر مشاهدة النبي والقاء البردة عليه وشفائه من مرض الم به وقد كتب على هذه القصيدة نحو تسعين تفسيراً وتعليقاً في العربية والفارسية والتركية وترجمت الى هذه اللغات وبعض اللغات الغربية .

وفي اواخر القرن الثالث عشر تظهر كتابات تتعلق بخيال الظل ومنها كتاب محمد بن دانيال الخزاعي الموصلي م ١٣١٠ وعنوانه طيف الخيال في معرفة خيال الظل . وكان المؤلف طبيباً في عهد بيبرس وكتابه هو الاثر الوحيد الباقي للشعر الروائي . وقد اتت روايات الخيال غالباً من الهند او ايران واصلها من الشرق

---

(١) ترجم كتابه في « السياسة الشرعية » هنري لاوست الى الفرنسية . دمشق ١٩٤٨
انظر ايضاً كتاب لاوست: H.Laoust : Essai sur les doctrines sociales et politiques d'Ibn Taimiya. Le Caire, 1939.

الاقصى وكان القصاصون العرب قد ادخلوا نماذج وطنية في قصصهم وارادوا احداث اثر فكاهي . وفي القرن الثاني عشر اوجدوا روايات الخيال ودخلت هذه الروايات من غربي آسيا ومصر الى القسطنطينية حيث سميت الشخصية الاساسية قره كوز (الاسود العينين) ومنها الى شرقي اوربا وبعض مواد هذه الروايات الهزلية التركية تربنا اثر النقل من الف ليلة وليلة .

ومن اهم مآثر عصر المماليك الانتاج الفني والمعماري الذي ليس له مثيل منذ عهد الفراعنة والبطالمة . ففي جوامع ومدارس واضرحة قلاوون والناصر والحسن ثم برقوق وقايتباي والغوري وصل الفن الاسلامي الى ذروته ولم يظهر منذ ذلك الحين مايفوق هذه الابنية . ومدرسة البناء في عصر المماليك ترجع باصولها الى نماذج نورية وايوبية وتأثيرات سورية عراقية عندما غادر رجال الفن والصناع الموصل وبغداد ودمشق هرباً من وجه المغول وصار يمكن استعمال الحجارة من شمالي سورية بعد جلاء الصليبيين بدلاً من بناء المآذن بالآجر . وبنيت القباب المشهورة بجمالها واناقتها وزخرفها . وكان جامع قايتباي يضم جامعاً وضريحاً ومدرسة وله حجارة ملونة على شكل صفوف متتالية من الحجارة البيضاء والحمراء[1] . كذلك اشتهر هذا العصر باستعمال المقرنصات المتدلية بجانب الميزات الفنية الاخرى وهي الزخارف الكوفية والاشكال الهندسية . وبقيت سائر مظاهر الفن من ابواب برونزية مزخرفة للمساجد وشمعدانات وصناديق لحفظ المصاحف من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة وفسيفساء في المحاريب وصناعة خشبية دقيقة في المنابر . ومعظم ابواب المساجد مغطاة بمعدن من صنع دمشق ، ومصابيح الجوامع وكذلك النوافذ مصنوعة من زجاج ملون جميل مع زخارف نباتية وكتابات عربية . وداخل الجوامع كان مزخرفاً بآجر له بريق معدني ومزخرف . وهنالك نماذج من القاشاني

---

(١) انظر بشأن جوامع القاهرة: L.Hautecœur et G.wiet :Les mosquées du Caire. 2 vols.Paris, 1932 .

المستعمل في البناء في مآذن جامع الناصر بالقلعة من عام ١٣١٨ . ثم انتشر التنزيل بالفضة وغيرها في عهد البرجية وكان الاقباط أكفاء منذ العصور التي سبقت الاسلام في حفر العاج والفسيفساء والتمويه بالمينا . ومن الفنون الفرعية زخرفة المخطوطات وخاصة المصاحف وكانوا يهتمون بترتيب الالوان وتنظيم العناصر الزخرفية بمهارة . (ومن اعظم مجموعات المصاحف المزخرفة من عصر المماليك مجموعة دار الكتب الكبرى بالقاهرة) . وتشهد بحياة الترف في هذا العصر الاواني المختلفة من مباخر وصواني وصحون وكؤوس . وكانت الاميرات ونساء الخاصة تلبسن الاقراط والخلاخل والعقود والاساور والتمائم . وكان يظهر في المآدب الراقصون والمهرجون وتمثيل خيال الظل . ونظم السلطان برقوق محطات لحمل الجليد من سورية الى مصر على الابل . وانفق السلطان جقمق ١٤٣٨ — ١٤٥٣ ثلاثة ملايين دينار في ثلاث سنوات على الهدايا والرقيق . واخذت الفنون تنحط باستيلاء العثمانيين على سورية ومصر ونقل السلطان سليم العثماني عدداً من البنائين والصناع الى القسطنطينية . ولا تزال صناعات دمشق النحاسية المنزلة بالفضة اليوم تتبع نماذج من عصر المماليك .



الفصل السابع عشر

الحضارة العربية : تأثيرها وانتشارها

الحروب الصليبية وتأثير الحضارة العربية وانتقالها الى الغرب : بعد ان بحثنا في الفصول السابقة عن ادوار الحضارة العربية ومظاهرها ومآثرها المختلفة حتى نهاية عصر المماليك سنأتي الآن على دراسة تأثيراتها وانتقالها الى بلاد الغرب وخاصة اثناء الحروب الصليبية واثناء حكم العرب في اسبانيا وصقلية . وسنبدأ بالكلام عن الحروب الصليبية التي تعد قسماً من تاريخ الشرق والغرب في العصور الوسطى كما انها حلقة في سلسلة الاتصالات والاحتكاكات بين الشرق والغرب وتظهر لنا موقف اوربا المسيحية من آسيا الاسلامية التي كانت في حالة توسع منذ القرن السابع . وكان من الاسباب الممهدة لهذه الحروب بعض اسباب دينية منها هدم الخليفة الحاكم الفاطمي لكنيسة القيامة في ١٠٠٩ والصعوبات التي وضعها السلاجقة في طريق الحجاج بعد استيلائهم على آسية الصغرى . وقد كانت البلاد العربية وسورية نفسها مجزأة قبيل هذه الحروب فالسلاجقة كانوا في المناطق الشمالية والفاطميون في مصر وجنوبي سورية وبعض امراء العرب يحكمون في مختلف المناطق . والسلاجقة انفسهم لم يكونوا متحدين في سورية . وفي كل مدينة سورية هامة كان يوجد حاكم عربي او سلجوقي . فطرابلس بعد عام ١٠٨٩ كانت بيد بني عمار الشيعيين ومدينة

شيزر بعد عام ١٠٨١ كانت بيد بني منقذ . وحلب كانت منذ ١٠٧٠ بيد السلاجقة في عهد الب ارسلان . وقائده اتسز انتزع فلسطين من الفاطميين ثم اخذ دمشق ١٠٧٥ ولكن القدس ومدن الساحل حتى جبيل تعود في ١٠٩٨ الى الفاطميين . وأسس تتش ابن ألب أرسلان سلالة سلجوقية في سورية (١٠٩٤ — ١١١٧) وحصلت بعد وفاته منافسة بين دقاق الذي حكم دمشق (١٠٩٥— ١١٠٤) ورضوان الذي حكم حلب (١٠٩٥— ١١٠٤) ويأتي بعد رضوان الب ارسلان الاخرس ثم سلطان شاه .

ويعتبر السبب المباشر للحروب الصليبية النداء الذي وجهه الامبراطور البيزنطي الكسي كومنين في عام ١٠٩٤ الى البابا اوربان الثاني بعد ان أخذ السلاجقة ممتلكاته في الاناضول وهددوا القسطنطينية . والحقيقة ان امبراطور بيزنطة لم يكن يهمه انتزاع القدس من ايدي المسلمين ، وانما كان يريد وضع حد للخطر السلجوقي على دولته . وربما رأى البابا في ذلك فرصة مناسبة لضم الكنيسة اليونانية الشرقية الى كنيسة رومة وفي ٢٦ تشرين الثاني ١٠٩٥ وجه نداءه في مدينة كليرمون في فرنسا وحرض المسيحيين على انتزاع كنيسة القبر المقدس في القدس من أيدي المسلمين . ومن أهم الخطباء في التحريض على الحروب الصليبية بطرس الناسك الذي قاد الجماهير بدون قيادة منظمة الى الارض المقدسة ففشلت حملته . ولم تكن الاسباب الدينية الاسباب الوحيدة لهذه الحروب ، فقد أراد بعض الزعماء والنبلاء في اوروبا تأسيس امارات لانفسهم في الشرق ، وكان لتجار المدن الايطالية خاصة مصالح تجارية هامة في هذه الحروب . ورأت الجماهير في فرنسا وايطاليا مفترجاً في هذه الحروب بسبب الاحوال الاقتصادية والاجتماعية السيئة في بلادها ورأى المغامرون فرصة للكسب ، والمجرمون وجدوا وسيلة للتكفير عن ذنوبهم . ومع أن المثل العليا الدينية كانت قوية وكذلك الحماس الديني وروح الزهد والايمان بدخول السماء اذا مات المحارب في سبيل انقاذ الارض المقدسة ، إلا ان الدوافع لم تكن دينية خالصة عند الجميع فهنالك الانانية وحب الربح وهنالك روح الفروسية والحرب والمغامرة وهنالك حب

الاطلاع الذي اثارته قصص العائدين من الشرق كان هنالك المغامرون السياسيون واحلامهم . ولذلك نظر بعض المؤرخين الى الحروب الصليبية ليس كحروب دينية فحسب ، وانما كحملات تجارية استعمارية وكحركات توسع اقطاعي وبعد ان كانوا يقولون في الحملة الاولى انها من صنع الله فان الناس في الغرب اخذوا يشكون في أهدافها ، خاصة بعد أن وجهت حملات ضد دول مسيحية وتغلبت فيها المطامع على أي اعتبار آخر . ورأى بعض الالمان انها عملية نزوح واستعمار . بينما رأى المؤرخ ستيفنسون انها حملات عسكرية لتأسيس سلطة لاتينية في سورية.(١)

كان معظم المحاربين في اول الامر من شمالي فرنسا وجنوبها ومن منطقة اللورين وجنوبي ايطاليا . وقد تجمعت الجيوش وانطلقت في أواخر ١٠٩٦ وكان الزعماء من مدينة طولوز في فرنسا ومن اللورين وجنوبي ايطاليا . وقد قسمت الحروب الصليبية الى حملات عددها ثمانية وهي : الحملة الاولى (١٠٩٧–١٠٩٩) والحملة الثانية (١١٤٧ – ٤٩) على اثر سقوط الرها بايدي المسلمين ومن اركانها لويس السابع ملك فرنسا ولم تكن ناجحة ، والحملة الثالثة (١١٨٩ – ٩٢) على أثر سقوط القدس بيد صلاح الدين واستولت على عكا ومن اركانها ريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترا ، والحملة الرابعة (١٢٠٤) التي اتجهت نحو القسطنطينية وبنفس السنة حصلت حملة الاولاد التي مات معظم افرادها قبل وصولها الارض المقدسة ، والحملة الخامسة (١٢١٧ – ٢١) بقيادة ملك المجر واتجهت الى دمياط ، والحملة السادسة (١٢٢٧–٢٩) بقيادة فريدريك الثاني واتجهت الى عكا ووقعت معاهدة تعطي القدس وبيت لحم للصليبيين . والحملة السابعة ١٢٤٨ اتجهت بقيادة ملك فرنسا

---

(١) انظر بشأن هذه الاسباب : تاريخ العرب لفيليب حتي (الطبعة الانكليزية الخامسة ١٩٥١) ص ٦٣٦ . وكذلك :

E. M. Hulme: The Middle Ages (New York, 1929)pp. 456ff.

B. Stevenson: The Crusaders in the East. Cambridge,1907.

لويس التاسع المعروف بالقديس لويس الى مصر بعد عودة القدس الى المسلمين في ١٢٤٤ ولم تكن ناجحة ، والحملة الثامنة التي ذهبت الى تونس في ١٢٧٠ بقيادة القديس لويس وتوفي اثناءها . كما ان الامير ادوارد اتجه باسطوله الى عكا وأقام سنة ثم عاد بدون نتيجة وحكم انكلترا باسم ادوارد الاول. وبالرغم من هذه التقسيمات الى حملات فان حركة النزوح كانت تقريباً متواصلة والحد الفاصل بين الحروب لا يمكن وضعه بالضبط . وربما أمكن تقسيم الحروب الصليبية الى ثلاثة أدوار أولها دور الفتح ويدوم حتى ١١٤٤ حين سقطت الرها بيد عماد الدين زنكي اتابك الموصل ويشمل الحملة الاولى، وثانيها دور نجاح المسلمين بين ظهور زنكي وفتوحات صلاح الدين واسترجاع القدس ويشمل الحملتين الثانية والثالثة ، وثالثها دور الحروب الاهلية والمتفرقة في القرن الثالث عشر وقد قام بها الايوبيون والمماليك وانتهت باخراج الصليبيين في عام ١٢٩١ . وقد اتجهت بعض الحملات الى غير الارض المقدسة (١) .

حارب الصليبيون قلجي ارسلان سلطان قونية (م ١١٠٧) في الحملة الاولى وحاصروا نيقية وافتتحوها في حزيران ١٠٩٧ ثم انتصروا في موقعة اسكي شهر وهكذا استرجع البيزنطيون نصف آسيا الصغرى واثر ذلك على غزو الاتراك

---

(١) نشرت في فرنسا مجموعة تحوي ما كتبه مؤرخو الحروب الصليبية في ١٦ مجلد وذلك منذ عام ١٨٤١ واسم المجموعة : Recueil des historiens des Croisades . ومن اقسام هذه المجموعة خمس مجلدات عن المؤرخين الشرقيين منها منتخبات من تواريخ ابي الفدا وابن الاثير وابن شداد وسبط بن الجوزي وابن العديم وابي شامة . وهنالك اقسام للمؤرخين الغربيين واليونان والارمن . ومن المؤرخين الذين دخلوا في هذه المجموعة ميخائيل السوري م ١١٩٩ ، ونشر تاريخه وترجمه من السريانية شابو الافرنسي Chabot بعد عام ١٨٩٩ ، واهم المؤلفات الحديثة عن الحروب تاريخ Grousset الافرنسي في ٣ مجلدات (باريس ١٩٣٤) وتاريخ Runciman الانكليزي الذي نشر الجزء الثاني منه في كمبردج ١٩٥٢ . وهنالك تاريخ موجز لباركر Barker عنوانه : The Crusades London 1925 .

للقسطنطينية واخره . وسقطت الرها (اديسا) في ١٠٩٨ وتأسست فيها اول امارة صليبية بمساعدة الارمن وكان اميرها بلدوين Baldwin ثم اتجه الصليبيون الى كيليكية واحتلوا طرسوس . وحوصرت انطاكية من ٢١ تشرين الاول ١٠٩٧ حتى ٣ حزيران ١٠٩٨ واخذها بوهيموند Bohemond (من جنوب ايطاليا) بخيانة قائد ارمني في احد الابراج . وقد حاول رضوان السلجوقي في حلب مساعدة انطاكية وتم بعد فتحها حاول كربوقا امير الموصل استرجاعها ففشل واسست ثاني امارة صليبية في انطاكية واميرها بوهيموند . واتجه ريمون Raymond نحو الجنوب واخذ المعرة في اوائل ١٠٩٩ ثم احتل حصن الاكراد (المعروف عند الافرنج باسم Crac واصلها Crat وربما كانت تحريف « اكراد ») وحاصر عرقه في لبنان الشمالي واحتل طرطوس وساعده موارنة لبنان بالرجال وعرفوه بالطرق . وبعد ذلك اتصل ببقية الجيش وسار نحو القدس . وكان عدد الصليبيين نحو اربعين الف حين وصلوا امام اسوار القدس في حزيران ١٠٩٩ بينما الحامية الفاطمية كان عددها نحو الف محارب ودام الحصار نحو شهر وفي ١٥ تموز دخلوا المدينة وقتلوا عددا كبيرا من سكانها . وانتصروا على المصريين قرب عسقلان ولكن هذه المدينة بقيت بيد المصريين ومنها اخذوا يضايقون الصليبيين واصبح احد زعماء الحملة غودفري Godfrey ملكاً على القدس . وقامت السفن الايطالية التي تنقل الحجاج بالمساهمة في فتح مدن الساحل للمواصلات . ودفعت يافا وقيصرية وارسوف الجزية بينما فتح البنادقة حيفا ونجح القائد تنكرد Tancred النورمندي بفتح بيسان ثم اصبح اميراً على انطاكية حين أسر عمه بوهيموند بينما كان يتوسع في جهات مرعش. وعند وفاة غودفري اصبح اخوه بلدوين ملكاً على القدس مكانه ودام حكمه ١١٠٠—١١١٨ وامتدت مملكته من العقبة حتى بيروت. وفي عهده فتحت بيروت وصيدا (عام ١١١٠)وفتح اسطول جنوة مدينتي ارسوف وقيصرية ١١٠١ اما صور فانها لم تفتح حتى ١١٢٤ وعسقلان حتى ١١٥٣ . وحوصرت طرابلس من قبل ريمون في ١١٠١ وكانت تقتصر على منطقة الميناء .

وبنى ريمون دي سان جيل de St.Gilles قلعة باسمه (وحرفت الى العربية حيث عرفت بقلعة صنجيل) على تل مجاور لطرابلس عرف بتل الحج وفي اثناء الحصار اخذ جيل بمساعدة الجنويين ولم تفتح طرابلس حتى ١١٠٩ اي بعد وفاة ريمون باربع سنوات وتأسست فيها امارة صليبية ثالثة وجميع هذه الامارات كانت تتبع مملكة القدس ولم تجاوز هذه المملكة نهر الاردن الا انها حكمت قسما شرقي البحر الميت وفي ١١١٥ بنى بلدوين ملك القدس قلعة الشوبك (وتسمى الجبل الملكي باللاتينية Mous Regalis) على طريق دمشق الى الحجاز ومصر . وهكذا لم يتم للصليبيين سوى فتح القسم الشمالي من سورية ومنطقة ساحلية في الجنوب وكان بجوارها مناطق عربية اسلامية واسعة ومدن الداخل الهامة مثل دمشق وبعلبك وحمص وحماه وحلب لم تفتح كما ان السكان اللاتين كانوا قلائل وموزعين.

بعد فترة الفتح هذه يظهر عماد الدين زنكي اتابك الموصل ١١٢٧ — ٤٦ ومؤسس سلالة آل زنكي . وقد اشتهر في استرجاع الرها في ١١٤٤ بعد حصار نحو شهر. وكانت الرها الحصن الخارجي للامارات الصليبية وتسيطر على طريق العراق الى البحر المتوسط ، وبسقوطها زال الحاجز بين سوريا والعراق . وبدأت الحملة الصليبية الثانية على أثر سقوطها وكان يرأسها كونراد الثالث الالماني ولويس السابع الافرنسي ويصحبها فرسان من فرنسا والمانيا . وحاصرت الحملة دمشق اربعة ايام دون جدوى وكان ابن القلانسي [1] من كبار موظفي دمشق وشهد الحصار . واتى نور الدين زنكي (١١٤٦ — ٧٤) وبعد ان انتزع دمشق من طغتكين

---

(١) كتب ابن القلانسي ١٠٧٣ — ١١٦٠ تاريخ دمشق عن هذه الفترة وما سبقها (٣٦٣ — ٥٥٥ هـ) وقد نشره اميردوز Amerdoz في ليدن ١٩٠٨ واستخرج منه المستشرق جب Gibb القسم المتعلق بالحروب الصليبية بعنوان : The Damascus Chronicle of the Crusades. London, 1932. واستخرج منه روجيه تورنو Le Tourneau ما يتعلق بتاريخ دمشق بين ١٠٧٥ و ١١٥٤ وترجمه الى الافرنسية (طبع المعهد الافرنسي بدمشق ١٩٥٢).

اتجه نحو الصليبيين وانهى فتح منطقة الرها واسر اميرها جوسلين الثاني Jocelyn كما اسر امير انطاكية بوهيموند الثالث في ١١٦٤ وحليفه ريمون الثالث امير طرابلس على انهم دفعوا الفدية فيما بعد واطلق سراحهم. غير ان بلدوين الثالث ملك القدس استولى على عسقلان في هذه الفترة (١١٥٤) . ثم ظهر صلاح الدين كما ذكرنا سابقاً واصبح مستقلاً في مصر وعند وفاة نور الدين انتزع سورية من ابنه ثم استولى على الموصل واصبح معظم امراء العراق تابعيه . وهكذا اصبح الصليبيون محاطين بقوة موحدة في مصر والعراق وسورية وقد حاول الحشاشون قتل صلاح الدين فحاصر معقلهم مصياف مركز شيخ الجبل رشيد الدين سنان في ١١٧٦ ثم رفع الحصار عندما وعدوه بعدم التعرض له وكان من ضحايا الصليبيين الذين قتلهم الحشاشون ريمون الثاني امير طرابلس في ١١٥٢ وملك القدس في ١١٩٢ . وقد حاصر صلاح الدين طبريا في ١١٨٧ واخذها ثم حصلت موقعة حطين بجوارها في اوائل تموز حيث قتل أو أسر معظم جيش الصليبيين وعدده نحو عشرين الف مقاتل . وكان بين الاسرى ملك القدس غي دي لوزينيان De Lusignan فاحسن معاملته وكذلك رينو دي شاتيون (De Chatillon) سيد قلعة الكرك الذي كان مغامراً لا يتقيد بقانون ولا عهد. وحوصرت بعد ذلك القدس مدة اسبوع وسلمت في ٢ تشرين الاول ١١٨٧ وسقطت معظم المدن والاماكن الاخرى الحصينة بعدان فقدت حامياتها في حطين. فقد سقطت قلعة صهيون وصفد واللاذقية والكرك وجبلة وشقيف ارنون في جنوبي لبنان . واتت على أثر ذلك الحملة الصليبية الثالثة وفيها فردريك بربروس الالماني وريكاردوس (رتشارد) قلب الاسد ملك انكلترا وفيليب اوغسطس ملك فرنسا وغرق فردريك في آسية الصغرى ونجح ريكاردوس بفتح قبرص واجتمع الصليبيون على محاصرة عكا ودام الحصار سنتين اب ١١٨٩ حتى تموز ١١٩١ وكان يساعد الافرنج اسطولهم ومعدات الحصار ولذلك سلمت المدينة بالرغم من قدوم صلاح الدين لانقاذها . وذبح الافرنج حاميتها لعدم دفع الجزية بينما اطلق صلاح الدين

سراح الكثيرين الذين لم يمكنهم دفع الجزية عند فتحه للقدس. وحصلت مفاوضات بين الطرفين المتحاربين ورغب ريتشارد بزواج اخته من الملك العادل على ان تمطى القدس كهدية ويزول النزاع ولكن المشروع لم يتم واخيراً وقع الصلح في ١١٩٢ على اساس حكم الافرنج للساحل والمسلمين الداخل وان يأتي الحجاج الى المدن المقدسة بدون صعوبات .

كانت العلاقات سلمية بين الفريقين في ايام الملك العادل بعد وفاة صلاح الدين فقد سمح للبنادقة بتأسيس اسواق وخانات في الاسكندرية وسمح لاهل بيزا بتعيين قناصل لهم . وحصل النزاع بين فروع السلالة الايوبية في مختلف المدن بعد وفاة العادل واسترجع الافرنج بعض المراكز مثل بيروت وطبرية وصفد وعسقلان وحتى القدس عادت اليهم في ١٢٢٩ . والصليبيون انفسهم كانوا في نزاع فيما بينهم ولم تكن الامدادات تأتيهم بسهولة من الغرب ، فكان النزاع قائماً بين البنادقة والجنويين ، والمنافسات كانت قائمة بين فرسان الهيكل (الداوية) وفرسان القديس يوحنا (الاسبيطاريين) حتى انهم كانوا يستعينون بالمسلمين بعضهم ضد بعض . وحارب الملك الكامل ١٢١٨—٣٨ (ابن العادل) الصليبيين الذين استولوا على دمياط قبل وفاة والده في الحملة الخامسة وبعد سنتي نزاع تمكن من اجلائهم في ١٢٢١ . وكان تجار ايطاليا قد وجدوا ان سلطة المسلمين تحولت الى مصر فقرروا فتحها لكي تنتقل سفنهم الى البحر الاحمر وتستفيد من تجارة المحيط الهندي . ثم تأتي الحملة السادسة في ١٢٢٧ بقيادة فردريك الثاني ويوقع الملك الكامل معه معاهدة غريبة يعطيه فيها القدس ورواقاً حتى عكا في ١٢٢٩ . على ان القدس تعود الى المسلمين في ١٢٤٤ في عهد الملك الصالح نجم الدين ايوب . واتت الحملة السابعة بقيادة سان لويس واستولت على دمياط في ١٢٤٩ ولكن عندما توجهت الى القاهرة قضي عليها بعد سنة واسر الملك الافرنسي ثم اطلق سراحه بعد دفع الفدية وذهب الى سورية حيث حصن مدن صيدا وعكا وقيصرية وحيفا . واتجهت آخر حملة وهي الثامنة الى تونس بقيادة سان لويس ايضاً ولكنها كانت فاشلة . وقام الظاهر بيبرس

م ١٢٧٧ بتسديد الضربات للصليبيين بعد ان حال دون تقدم المغول في عين جالوت (١٢٦٠) . وكان لهذه العملية نتائج هامة لانها انقذت التراث الحضاري في مصر ومهدت لتوحيد سورية ومصر في ظل المماليك . واستاء بيبرس من تعاون المدن التي حكمها الصليبيون مع دولة هولاكو الايلخانية وتم له انتزاع الكرك من الصليبيين في ١٢٦٣ وهدم كنيسة الناصرة ثم بعد سنتين يأخذ قيصرية وتبعها ارسوف وصفد . وكان الاسبيطاريون وفرسان الهيكل يدافعون عن هذه القلاع والمواقع وفي ١٢٦٨ استولى على يافا وعلى قلعة الشقيف (المعروفة باسم قلعة Beaufort او شقيف ارنون في لبنان الجنوبي) وعلى انطاكية حيث ذبح حاميتها واسر قسماً من سكانها واحرق المدينة وحاصر قلعة الحصن التي كانت بيد الاسبيطاريين بين ٢٤ آذار و ٨ نيسان ١٢٧١ فسقطت في يده وتعتبر اعظم اثر عسكري فني من العصور الوسطى . ووقع فرسان الهيكل في طرطوس والاسبيطاريون في المرقب شروط الصلح . وكذلك سلمت قلاع الحشاشين في مصياف والقدموس وغيرهما لصلاح الدين . واتى بعد ذلك السلطان قلاوون م ١٢٩٠ فاستسلمت قلعة المرقب في ١٢٨٥ بعد حصار دام ٣٨ يوماً ووقعت معاهدة مع اميرة صور في السنة نفسها . واستسلمت طرابلس في ١٢٨٩ وهدمت المدينة وقلعتها تقريبا وكان ابو الفدا ممن شهدوا هذا التسليم . ونقش قلاوون اخبار انتصاراته على القلاع التي فتحها . وفي عهد الاشرف خليل م ١٢٩٣ حوصرت عكا وهي آخر معاقل الصليبيين وسقطت بعد ان دام الحصار شهراً في ١٢٩١ وذبح فرسان الهيكل الذين دافعوا عنها . وهدمت حصون عكا واحرقت المدينة وسلمت سائر المدن بدون قتال على اثر سقوط عكا مثل عتليت وصور وصيدا وبيروت وانتهت الحروب الصليبية .

كانت الحروب الصليبية فاشلة من الوجهتين السياسية والعسكرية . واما من الوجهة الدينية فان استيلاء اللاتين على الاراضي المقدسة كان قصير الامد وبعد القرن الثالث عشر يصبح تراجع المسيحية في بلاد آسيا وقسم من اوربا من الامور البارزة . في القرن الثالث عشر كانت اوربا كلها مسيحية وكذلك قسم من

الاناضول واتسعت حركة التبشير ونشطت الارساليات بنتيجة الحروب الصليبية حتى ان القديس فرنسوا نفسه زار مصر في الحملة الخامسة في ١٢٢٠ . وفتح مجال للتبشير في امبراطورية المغول واتسعت الارساليات في نهاية القرن الثالث عشر من نهر الدنيبر حتى بكين . ولكن الامور تغيرت في نهاية القرن الرابع عشر والخامس عشر حيث تضعف النصرانية في اواسط آسيا في عهد تيمورلنك وتوسع العثمانيون في بلاد البلقان . على ان البابوية من جهة اخرى ازداد شأنها بنتيجة هذه الحروب لان البابوات بشروا بها ودفعوا قسماً من نفقاتها وارسلوا بعض ممثليهم ليقودوها وباعوا الغفرانات للذين اشتركوا فيها . واصبح البابوات قادرين على عزل اباطرة الغرب من الحكم ووجهوا النصرانية نحو سياسة خارجية خاصة بهم بدون مشاورة الاباطرة . وفي القرن الثالث عشر اخذوا يوجهون الحملات الصليبية ضد الاباطرة انفسهم . ولكن بينما رفعت هذه الحروب شأن البابوية فانها كانت من جهة اخرى عاملاً في افسادها لانها جعلت الحروب الصليبية سلاحاً بيدها وصارت تدعو الى حروب صليبية حيث لا حروب صليبية . والحملة ضد اسرة هوهنشتاوفن الالمانية وان كانت بظاهرها نصراً للبابوية فانها ادت بالنتيجة الى تدنيها في نظر اوربا[١].
وقد تأثرت بعض الدول الاوربية بهذه الحروب وبما ان معظم الحملات كانت افرنسية فقد ساعد ذلك على رفع شأن فرنسا ولغتها التي تكلمها البعض في بلاد المشرق وصار الافرنسيون يتكلمون عن صلاتهم وتقاليدهم في هذه البلاد[٢] .
وكادت الامبراطورية البيزنطية تضمحل بتأثير الحروب الصليبية وعندما بعثت

---

(١) انظر مقال ارنست باركر Barker عن الحروب الصليبية في الطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية .

(٢) بعد دخول الجنرال غورابه الى دمشق على اثر موقعة ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠ كتب في مذكراته : « اوليست العدالة العليا هي التي سمحت لحفيد اسير الحروب الصليبية ان يدخل المدينة المقدسة ظافراً منصوراً » لان احد اجداده على مايقول اسر في دمشق في الحملة الصليبية الثانية وتعلم صناعة الورق ونقلها الى الغرب . انظر ساطع الحصري : يوم ميسلون ص ٣٥٢.

من جديد في ١٢٦١ بعد زوال حكم اللاتين لم تدم اكثر من قرنين وكانت في حالة ضعف شديد حتى ان بعض المواقع في بلاد اليونان والارخبيل احتلها اللاتين الى ان اجلاهم عنها العثمانيون . ومن جهة اخرى فقد اثرت الحروب الصليبية على اضعاف النظام الاقطاعي في أوربا وانحلاله بعد ان اصبحت الاملاك متاعاً يشرى ويباع وظهرت المدن ونمت باتساع حركة التجارة ، واصبحت الطبقة الثالثة ذات شأن واحتاج الملوك الى مساعدتها واموالها . وتطور الفن العسكري واستعمل الملوك اساليب جديدة في مهاجمة الحصون كما انهم بدأوا بجباية الضرائب التي سمحت لهم بجمع الجيوش الدائمة التي قضت على الامراء الاقطاعيين . وكانوا قد بدأوا بوضع ضرائب خاصة لاجل الحروب الصليبية منذ عهد لوس السابع في ١١٤٧ ثم وضعوا ضريبة صلاح الدين كما ان البابوية نفسها جبت الضرائب لاجل الحروب الصليبية منذ عهد اينوسنت الثالث في ١٢١٥ .

اثرت الحروب الصليبية على الغرب اكثر من تأثيرها في بلاد الشرق . وقد تركت في الشرق خراباً وخاصة في الحصون والمدن الساحلية التي كان فيها الصليبيون والتي هدمها المماليك . وتركت الحروب كذلك اثرها في التعصب وسوء النية بين المسلمين والمسيحيين من ابناء البلاد . غير أن تأثيراتها في الغرب كانت عظيمة الشأن وخاصة في النواحي الثقافية والاقتصادية والفنية بالنظر لاحتكاك الغرب بمدنية البلاد العربية . ومجال الاحتكاك بين الاوربيين والعرب وغيرهم من سكان الشرق ، كان واسعاً ومتنوعاً ان كان في ايام الحرب او في فترات السلم ، وفي مدة قرنين كانت ايام السلم اكثر من ايام الحرب وكانت الجاليات الاجنبية الوافدة من بلاد الغرب مؤلفة من المحاربين والتجار والكهان . وكان افرادها عندما يصلون الى البلاد السورية يظنون انهم ارقى من السكان الوطنيين ثم لايلبثون ان يغيروا رأيهم والاثر الذي تركوه لدى المسلمين يعبر عنه اسامة بن منقذ حيث يقول «انهم حيوانات لهم فضائل الشجاعة والحرب وليس اكثر من ذلك» . وقد انتقدا اساليبهم

في القضاء والطب وغير ذلك ورآها ابتدائية .(١) ومن اسباب الاتصال والاحتكاك بين الفريقين ان الفلاحين الذين اشتغلوا في الارض في الدول اللاتينية كانوا سوريين بينما كان الغربيون قلائل ويهتمون باصلاح الحصون أو بنائها والدفاع عن اراضيهم . وفي المدن كان العمال وارباب الصنائع من السكان الوطنيين وعلاقات الجوار بين الصليبيين والمناطق التي ظلت بيد المسلمين كانت عموماً حسنة. وعندما كان يتنازع الصليبيون فيما بينهم كانوا يطلبون المساعدة من المسلمين او يساعدون المسلمين في منازعاتهم الداخلية . وكان الاوربيون يحتكون بالعرب عن طريق التجارة وكان الامان يعطى للتجار في المناطق المختلفة وكان افراد الفريقين يتلاقون احياناً اثناء الصيد لانهم كانوا يعقدون هدنة للصيد . وفي الناحية الدينية كان التسامح معروفاً بين الفريقين حتى ان الصليبيين كانوا يقدسون بعض المزارات التي يعتبرها المسلمون أو اليهود مقدسة وبالواقع فانهم تعلموا من الشرق التسامح الديني عندما رأوا اصحاب مذاهب مختلفة تعيش بسلام جنباً الى جنب بينما كان اختلاف المذاهب سبباً للاضطهاد في اوربا . (٢) وكان عدد الصليبيين قليلاً بالنسبة لمجموع سكان البلاد واخذوا يقتبسون اموراً كثيرة في العادات واللباس والافكار . فقد لبس بعضهم اللباس الشرقي واكلوا الاطعمة العربية الشهية وفضلوا البيوت الشرقية بباحاتها الواسعة ومياهها الجارية . وانتقلت من الشرق الى اوربا فكرة تأسيس الحمامات العامة التي كانت معروفة عند الرومان . وحصل التزاوج بين الفريقين حتى ان الامراء تزاوجوا مع سكان البلاد واصبح بعضهم نصف شرقي وكانوا يستخدمون الاطباء العرب الذين ورثوا

---

(١) انظر كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ : ترجمه الى الانكليزية فيليب حتي (نيويورك ١٩٢٩) ص ١٦١ — ١٧٠ وكان قد ترجم هذا الكتاب قبل ذلك الى الافرنسية عن يد درنبورغ والى الالمانية عن يد شومان .

(٢) انظر مقال مونرو D.C.Munro عن الحروب الصليبية في المجلد الرابع من موسوعة العلوم الاجتماعية بالانكليزية .

علوم الاقدمين ويفضلونهم على اطباء الغرب . ولا ندري عدد الصليبيين الذين اندمجوا في سكان البلاد ويعتقد ان بعض العائلات الحالية متسلسلة منهم وان اسرة صوايا مثلا يشتق اسمها من « سافوا » وان اسرة الدويهي تنسب الى مدينة دويه Douai في فرنسا (١).

والمهم في الحروب الصليبية ان بلاد الغرب اتصلت بديانة جديدة وحضارة جديدة وتعلمت الشيء الكثير بعد ما شاهدته من مظاهر حضارية واساليب في التفكير والمعيشة فتوسعت آفاقها وانتشرت فيها روح جديدة تقارن الامور وتحيط بوجهات نظر متعددة . وكان من نتائج اتصالها بديانات مختلفة انها عملت على دراسة هذه الديانات ولذلك اهتم بطرس رئيس دير كلوني بترجمة القرآن الى اللاتينية . ويرى البعض ان سورية كانت اقل اهمية من اسبانيا وصقلية في نقل التراث العربي الى الغرب في هذه الفترة وذلك اولا لان الثقافة العربية في عصر الصليبيين كانت آخذة بالانحطاط كما ان الشخصيات البارزة في الفلسفة والطب والموسيقى كانت قد زالت . وثانيا لان الصليبيين وان كانت حضارتهم ادنى الا انهم في قلاعهم وحصونهم كانوا يحتكون بالزراع والصناع اكثر من احتكاكهم بقادة الفكر فضلا عن العداء القومي والديني الذي كان يمنع انتقال التأثيرات الثقافية . ولكن بالرغم من هذا القول فان كثيرا من نواحي الثقافة العربية انتقلت الى الغرب في هذه الفترة . فقد قام آدلارد اوف باث Adelard of Bath بترجمة الكتب العربية في الفلك والهندسة وزار انطاكية وطرسوس في اوائل القرن الثاني عشر . وبعد ذلك بقرن زار ليو نارد فيبو ناتشي Fibonacci مصر وسورية وهو اول عالم جبر اوربي واهدى رسالة في الاعداد المربعة الى فريدريك الثاني . وترجم اسطفان الانطاكي واصله من مدينة بيزا كتاب المجوسي في الطب عام ١١٢٧ في انطاكية . ويمكن القول ان فكرة انشاء المستشفيات المنظمة في اوربا تطورت بتأثير الشرق لان المصحات

---

(١) انظر تاريخ العرب لفيليب حتي الطبعة الخامسة الانكليزية ص ٦٧٠

والمستشفيات تنتشر في اوربا في القرن الثاني عشر . ويبدأ اهتمام أوربا بدراسة اللغات الشرقية وخاصة العربية منذعصر الحروب الصليبية وبسبب البعثات الدينية الى الشرق. وقدعمل المبشر المشهور ريمون لال Lull (واصلهمن كتالونيا باسبانيا) على تأسيس كلية في ميرامار Miremar لدراسة العربية في ١٢٧٦ وعمل مجمع فينا على انشاء كراسي للغات الشرقيةفي أوربا في ١٣١١ منها العربية والتترية في جامعات باريس وسلامنكا ولوفان Louvain .

وكان تأثير الحضارة العربية واضحاً في الناحية الادبية وانتقل تراثها الى الغرب عن طريق الحروب الصليبيـة .فالصليبيون لا شك سمعوا قصص الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة وحملوها معهم ، وقد احتوت بعض قصص تشوسر Chaucer الانكلزي في القرن الرابع عشر عناصر من الف ليلة وليلة كما ان الايطالي بوكاشيو اقتبس من مصادر شفهية القصص الشرقية الموجودة في مجموعة الدكاميرون Decameron . وفتحت الحروب الصليبية آفاقاً عظيمـة للشعر المتعلق بالحروب نفسها مثل انشودة انطاكية التي تمجد بطرس الناسك وغودفري في الحملة الاولى(١). ومن جهة اخرى فان الحروب اتت بتفاصيل جديدة يمكن ادخالها في قصص قديمة مثل قصص الملك آرثر وشارلمان . واقتبس الشاعر الايطالي تاسو Tasso من اخبار الحروب الصليبية فكتب في القرن السادس عشر قطعته المشهورة « اورشليم المحررة » Gerusalemme Liberata كما ان الشعراء الافرنسيين المعروفين بالتروفير Trouvères وضعوا عناصر شرقية في اناشيدهم وكانوا الجسور التي بها وصلت القصص الشرقية الى بوكاشيو والقصاصين الايطاليين . ودخلت القصص بعض عناصر من تقاليد الحروب الصليبية منها موضوع المرأة التي تقطع الامل من

(١) انظر رسالة الدكتور انور حاتم: Les poèmes épiques des croisades. Paris, 1932 .

عودة زوجها وتكاد تتزوج ثم يعود زوجها واحياناً معه امرأة شرقية[١] . واطلع الاوربيون على كتابة التاريخ وكان من اهم المصادر اللاتينية عن الحروب التاريخ الذي وضعه وليم الصوري (اسقف مدينة صور) وتصل حوادثه حتى عام ١١٨٤ كما ان تاريخ ابي الفرج بن العبري المكتوب بالسريانية احتوى اخبار الحروب وقد ترجمه المستشرق الانكليزي بوكوك Pocke الى اللاتينية في ١٦٦٣ [٢] .

وكانت النواحي الاقتصادية من أهم ما أثرت به الحضارة العربية على الغرب . وقد تعرفت اوربا على نباتات واثمار وصناعات والوان جديدة من الشرق بنتيجة الحروب الصليبية . وكان بين النباتات والاثمار والمنتوجات الزراعية التي دخلت اوربا الخروب والسمسم والارز والليمون والبطيخ والمشمش . وكان المشمش يدعى خوخ دمشق . وتعرف الافرنج على الروائح العطرية والبهارات الآتية من الهند وجزيرة العرب وكانت تزخر بها اسواق سورية وتتاجر بها المدن الايطالية . وكانت تأتي الى سورية الصموغ العربية والبخور والزيوت العطرية من مختلف المناطق كما تأتيها البهارات التي شاع استعمالها في اوربا مثل الفلفل والقرنفل . وقد قيل ان الجنويين اخذوا حصتهم من الغنيمة عند سقوط قيصرية ست عشرة الف اقة من الفلفل . واخذ الغرب يستعمل الزنجبيل (والكلمة من أصل سنسكريتي) . وبعد ان كانوا يستعملون العسل بدلاً من السكر تعرفوا على السكر الذي كانت منه مزارع في صور وقد ذكرها وليم الصوري في تاريخه (بين ١٠٩٥ و ١١٨٤) واعجب الغربيون بماء الورد والزهر والبنفسج وبجميع انواع السكاكر . ونقل الصليبيون معهم النواعير المتقنة الصنع فظهرت في منطقة نورماندي في ١١٨٠ وقد

( ) انظر هذه التأثيرات في الفصل الذي كتبه باركر عن الحروب الصليبية في تراث الاسلام بالانكليزية « اكسفورد ١٩٤٩ » ص ٤٠ — ٧٧ .

(٢) ونشر مختصره الاب صالحاني باسم « تاريخ مختصر الدول » . بيروت ١٨٩٠ ، كما نشره وترجمه بدج Budge في مجلدين (اكسفورد ١٩٣٢) .

عرفت في سورية منذ العهد الروماني وتحسنت على يد جماعة من المهندسين السوريين مثل قيصر بن مسافر م ١٢٥١ الذي كان في خدمة حاكم حماة . واشتهرت حماة بالنواعير منذ ايام ياقوت م ١٩٢٩ وابي الفداء م ١٣٣١ . واما من حيث الصناعات والاثاث واللباس فقد ادخل السجاد الى اوربا من آسية الغربية والوسطى وكذلك المنسوجات مثل الموسلين والدمسق والاطلس والمخمل والحرير والساتين (ويقال ان الساتين مشتق من كلمة زيتوني وهي تحريف اسم مدينة تسيان تانغ في الصين التي اخذ منها هذا القماش) . ودخلت اوربا الصياغة الدمشقية والمصرية وادوات الزينة كما دخلتها المرايا الزجاجية بعد ان كانت تستعمل المرايا الفولاذية واستعمل الزجاج الملون في الكنائس . وقلد الاوربيون المصنوعات الشرقية في الزجاج والخزف والذهب والفضة والمينا وتعرف الغرب على البارود الآتي من الصين وانتشر استعمال الفرو ووبر الابل وكذلك انتقلت السبحة الى مسيحيي اوربا من الهند بطريق سورية . وتعرفت بلاد الغرب على الوان جديدة كالآزور Azur (من اللازورد العربية) والايلك (من الفارسية) والقرمزي (من السنسكريتية) . وظهرت مراكز في الغرب لصنع المنسوجات والسجاد كما في آراس Arras في فرنسا ودخلت غربي اوربا كلمات عربية كثيرة تتعلق باسماء هذه المنتوجات الزراعية والصناعية والالوان .

وكان التبادل التجاري الذي تعرف فيه الغرب على منتوجات الشرق الزراعية والصناعية من اهم نواحي النشاط في عصر الحروب الصليبية حتى أن التجارة البحرية والدولية لم تنشط بمثل هذا الشكل منذ العصر الروماني . وكان يرافق هذه التجارة حركة نقل الحجاج ورجال الحملات الصليبية وقد اخذت التجارة الغربية تبحث عن طرق جديدة وسهلة لثروات الشرق . وكان للمدن الايطالية ومرسيليا المكانة الاولى في هذه التجارة . واستفاد التجار من الاقبال العظيم على الكماليات وساعدهم الاقتصاد النقدي الذي كان من نتائج تهافت الصليبيين والحجاج للحصول على

النقود . وساعد حركة الملاحة التقدم في بناء السفن لاجل نقل الحجاج والصليبيين والبضائع، وكذلك ظهور الابرة الممغنطة « البوصلة » التي عرفها الصينيون واستعملها العرب بصورة عملية واقتبسها عنهم الايطاليون(١) . وساعدها كذلك انتشار القانون التجاري البحري ويمكن اعتباره بنفس الوقت من نتائجها . واسفرت هذه الحركة التجارية عن نتائج كثيرة منها تأسيس مراكز تجارية في الشرق مثل عكا وفما كوستا في قبرص ومنها اتساع حركة نشوء المدن في اوربا على الطرق التجارية الكبرى التي كانت تمر عليها البضائع مثل طريق البندقية الى وادي الرين ومدينة بروج في بلجيكا عبر ممر برينر في الالب . ومن النتائج الهامة لهذا النشاط التجاري ولحركة التبشير والارساليات زيادة المعلومات الجغرافية واكتشاف داخل آسيا . فالمبشرون مثل بيانو كاربيني Carpini او التجار مثل الاخوان بولو Polo كانوا يجيئون من عكا الى بكين براً او من البصرة الى كانتون بحراً ولذلك كانت حركة استكشاف آسيا في عام ١٣٠٠ قوية كحركة اكتشاف اميركا بعد مائتي سنة . وازدادت المعلومات عن الشرق الادنى وكثرت الكتب من نوع « الدليل » التي وضعت لتوجيه الحجاج الى اماكن الزيارة ، وتبادل المسافرون والتجار القصص عن البلاد البعيدة وكان هذا عصرها الذهبي . ودعت الحاجة من وجهة مالية الى كمية أكبر وحركة اوسع للنقد . وظهر نظام الاوراق المالية كما ظهرت المصارف في جنوه وبيزا ولها فروع في الشرق . وكان للرهبنات الحربية مثل فرسان الهيكل وغيرهم عدا عن الاملاك والاساطيل مصارف يستعملون فيها الشيكات (من كلمة صك العربية) ويأخذون الاموال كودائع ويعقدون قروضاً لقاء فائدة . وربما كان اقدم نقد ضربه اللاتين من صنع البنادقة في فلسطين وعليه كتابة عربية . وظهرت

---

(١) راجع ما كتبناه في هذا الكتاب اثناء البحث في حضارة الصين عن « البوصلة والبارود والورق والطباعة وعلاقة الصين والعرب بها » ص ١٥٢ — ١٥٦ .

المكاتب القنصلية واول القناصل كانوا جنوبيين في عكا في عام ١١٨٠ وتبعهم آخرون في مصر . وقد وصف ابن جبير في رحلته احوال سورية التجارية والمدن المشهوره التي كانت بيد الصليبيين مثل عكا وصور والعلاقات بين السكان والافرنج .

وانتقلت الى الغرب اساليب جديدة في بناء الحصون ومهاجمتها وكانت تأثيرات الفنون الحربية الاسلامية على الاوربيين كثيرة فقد استخدم الصليبيون القوس ولبسوا الدروع الثقيلة للفرسان والخيل واقتبسوا في سورية الطنبور والنقارة للموسيقى العسكرية وكانوا يستعملون الأبواق وتعلموا لعبة الجريد واخذوا جانباً كبيراً من مؤسسة الفروسية في سورية . ونقلوا عن فرسان المسلمين بعض الشارات والرموز ومنها النسر ذو الرأسين وازهار الزنبق وكان المماليك يضعون رسوم الحيوانات على تروسهم كما كانوا يضعون شارات على راياتهم ومختلف اسلحتهم والهلال والنجمة والشمس والاسد من بقايا هذه الشارات . ولم يذكر مؤرخو الحروب الصليبية البارود الذي اخترع في الصين وادخل الى اوربا من قبل المغول في القرن الثالث عشر . واول وصف للبارود في أوربا ورد في ذيل كتاب لرجل اسمه مرقوس جريكوس (اليوناني) في ذلك القرن كما ان حسن الرماح ذكر ملح البارود قبيل ذلك الوقت . ومما تعلمه الفرنجة من البلاد العربية تدريب الحمام الزاجل لنقل الاخبار الحربية واقتباس طريقة الاحتفال بالنصر باشعال النار وكانوا قد تعلموا من البيزنطيين طريقة اعطاء الاشارات من حصن الى حصن فكانت الاخبار تنتقل بواسطة هذه الاشارات بين قلاع الحصن وصافيتا وعكار وطرطوس كما كانت تنتقل بين قلاع شقيف ارنون (جنوب شرقي صيدا) وشقيف طورون (شرقي صور) والسبيبة قرب بانياس . وكان الصليبيون قد اخذوا عن البيزنطيين بعض معلومات في بناء الحصون منها الاعتماد على المكان المرتفع وعلى الخندق المحيط بالقلعة ثم نقلوا عن العرب بناء المداخل المتعرجة في القلاع واستخدام منحدر القلعة لتأسيس الاسوار واستعمال الاعمدة القديمة لتقوية الحصون . وفي

الفترة الاولى لبناء القلاع اي قبل موقعة حطين كان البرج في القلعة الصليبية مربعاً مستطيلاً من النوع النورمندي كما في قلعة صافيتا ولكن بعد عام ١١٨٧ اخذوا يبنون ابراجاً مستديرة واسواراً مزدوجة بعضها ضمن بعض . وقد عرفت هذه الطريقة في بغداد في مدينة المنصور كما عرفها الرومان والسكسون واستخدمت في قلعة الحصن وقلعة المرقب . وتحسنت اساليب الحصار كاستعمال الالغام والمنجنيق والكبش وانواع المتفجرات . ومن جهة اخرى فقد نقل الصليبيون بعض اساليب العمارة الحربية والمدنية من ايطاليا وفرنسا وتركوا في ابنيتهم اثر الاسلوب الافرنجي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وابنية الصليبيين في البلاد السورية خاصة كثيرة واهمها القلاع التي بني بعضها في اطراف المدن مثل طرابلس وطرطوس ولكن اهمها بني في الممرات الستراتيجية التي تربط الساحل بالداخل مثل قلعة الحصن وقلعة صهيون وقلعتي الشقيف (شقيف ارنون وشقيف طورون) . وفي طرطوس بنوا كاتدرائية لاتزال آثارها قائمة حتى اليوم كما بنوا في بيروت كنيسة القديس يوحنا في عام ١١١٠ (الجامع العمري اليوم) . وقسم من اسواق القدس ومن كنيسة القيامة من اعمالهم كما ان القلاع الكبرى كانت تحوي كنائس بجانب المنشآت العسكرية والمستودعات وغرف الاسلحة واماكن الحفلات[١] . واشهر القلاع الصليبية على الاطلاق قلعة الحصن على مرتفع في جنوبي جبال العلويين يسيطر على الطريق بين طرابلس ووادي العاصي وقد قال عنها لورنس انها ربما كانت اجمل قلاع العالم واكثرها محافظة على بنيانها[٢] . احتل الصليبيون هذه القلعة في ١١١٠ وكانت حصناً للاكراد واعطاها امير طرابلس لفرسان القديس يوحنا

---

(١) انظر بشأن القلاع الصليبية كتاباً موجزاً : Crusader Castles by Robin Fedden. London 1950 .

وهنالك كتب مفصلة كتبها العلماء الافرنسيون : Paul Deschamps, E.Rey Camille Enlart .

(٢) انظر مؤلفه في مجلدين : T.E.Lawrence; Crusader Castles. 1936

منذ ١١٤٣ وظلت بيدهم الى ان سقطت بيد الظاهر بيبرس في ١٢٧١ . وتقابل الساحل السوري قرب بلدة بانياس قلعة المرقب التي تحوي خطين من الحصون كما في قلعة الحصن وكانت بيد فرسان القديس يوحنا أيضاً منذ ١١٨٦ . وتقع قلعة صهيون شرقي اللاذقية (قرب الحفة) وقد نحت ماحولها من الصخر وارتفعت اسوارها ثلاثين متراً وتركت في احد جوانبها مسلة ليرتكز عليها الجسر بين القلعة والارض المجاورة وقد اخذها صلاح الدين بعد موقعة حطين . وفي داخل هذه القلاع وكثير غيرها كانت تلاحظ عملية اقتباس العادات الشرقية . فالفرسان اعجبتهم الموسيقى الشرقية وخاصة العود (الذي اقتبست منه كلمة lute) وكانوا يشربون الخمور السورية في كؤوس الفضة المنزلة بالمينا والمزدانة بالحجارة الكريمة ولبس الفرسان اثواب الحرير الطويلة ذات الاكمام العريضة المزركشة بالذهب كما لبس بعضهم الكوفية وكان في القلاع اطباء وادباء من العرب واتقن بعض الامراء اللغة العربية مثل رينو حاكم صيدا (المعروفة باسم لاسايت La sayette) وكانت نساء البورجوازية تستعمل الحجاب . وقد قال احد رجال الملك بلدوين الثاني « نحن الذين كنا غربيين اصبحنا الآن شرقيين » . وحصل التزاوج بين الفرنجة وسكان البلاد وكان المولدون يعرفون باسم Pullani أو Poulains .

ادوار حكم العرب في الاندلس ومميزاتها : كتبت اسبانيا الاسلامية صفحة مجيدة في تاريخ حضارة العصور الوسطى وكانت طريقاً رئيسياً لانتقال حضارة العرب الى العالم الاوربي . والشعوب العربية لم تقتصر على حمل مشعل الحضارة في تلك الفترة الطويلة وانما احتفظت بعلوم الاقدمين ومعارفهم واضافت اليها ونشرتها في العالم . وكان لاسبانيا فضل كبير في بناء صرح الحضارة ونشرها . وقبل ان نذكر مآثر هذه الحضارة العربية في الاندلس وانتشارها سنأتي على ذكر الادوار الرئيسية لحكم العرب فيها ومميزاتها البارزة .

اتصفت فتوح العرب في الاندلس(١) بسرعة التنفيذ وبلغت بها الفتوحات ذروتها في الغرب . وكان موسى بن نصير حاكم شمالي افريقيا منذ عام ٧٠٠ وفي ٧١٠ ارسل احد رجاله واسمه طريف الى اسبانيا للاستطلاع فنزل في مكان يعرف اليوم بشبه جزيرة طريفة في جنوبي البلاد ثم ارسل في السنة التالية مولاه البربري طارق بن زياد ومعه قوة معظمها من البربر . وتقول الاسطورة ان الكونت جوليان من نبلاء الاسبان في سبتة اعطاه المراكب انقمته على ملك الاسبان الذي اعتدى على ابنته فلورندا . وحصلت الموقعة في وادي بكة في تموز ٧١١ بين طارق وجيش رودريك (لذريق عند العرب) الذي كان قد اغتصب العرش من سلفه ابن ويتيزا Witiza (غطيشة عند العرب) . وانكسر الاسبانيون القوط في المعركة وأخذت المدن تسقط وبينها قرطبة التي أخذهـا مغيث الرومي بعد حصار شهرين وقيل ان احد الرعاة اشار الى خرق في السور . وانكسر الاسبان في موقعة اكيجا Ecija ثم سقطت طليطلة العاصمة وقيل ان خيانة اليهود ساعدت في ذلك ، ونزل موسى بن نصير مع عشرة آلاف من العرب معظمهم من السوريين في اسبانيا في ٧١٢ وسقطت اشبيلية بعد حصار وكذلك مريدة والتقى بطارق قرب طليطلة ، وهنا يقول المؤرخ ابن عذاري المراكشي وابن عبد الحكم أنه ضرب طارقاً وقيده بالسلاسل لانه رفض التوقف في أول الفتح . ووصل العرب المناطق الشمالية ليون وقشطالة (Castille) ثم استدعى الوليد بن عبد الملك موسى فترك ابنه عبد العزيز وعاد ومعه اربعمائة امير قوطي وعدد ضخم من العبيد والاسري والكنوز وبعد ان اجتاز شمالي افريقيا بأبهة دخل دمشق في شباط ٧١٥ وكان الاستقبال في باحة الجامع الاموي من أفخم مشاهد أبهة الاسلام . وقدم الى الوليد « المائدة » العجيبة التي قيل ان الجن في خدمة سليمان صنعوها ثم انتقلت الى رومة فأخذها القوط

---

(١) تشتق كلمة الاندلس او Andalusia من الفندال البرابرة الذين سكنوا البلاد وكانت تسمى Vandalucia فحذف الحرف الاول ، وقد اعتاد العرب على استعمال كلمة الاندلس للدلالة على اسبانيا بينما الاندلس اليوم هي القسم الجنوبي من البلاد فقط .

وزخرفوها بالحجارة الكريمة وانتزعها طارق من كاتدرائية طليطلة . وقد أهين موسى من قبل سليمان بن عبد الملك وجرد من أمواله وذكر المقري وابن خلكان أنه اصبح متسولاً في الحجاز . ويفسر البعض سهولة فتح الاندلس بالنفور بين الحكام القوط الذين دخلوا اسبانيا في القرن الخامس وبين سكان اسبانيا الاصليين الذين اعتنقوا المسيحية الكاثوليكية بينما كان القوط من الآريوسيين ، وباستبداد الحكم القوطي وكثرة العبيد بين السكان الاصليين الذين ساعدوا الفاتح العربي . وكان اليهود مضطهدين في زمن القوط وصدرت الأوامر في ٦١٢ بوجوب اعتناقهم المسيحية وكذلك كان النفور مستحكماً بين النبلاء والملوك القوط حتى ان ابن غطيشة الذي اغتصب رودريك عرشه كان يظن ان العرب كانوا يحاربون لمصلحته ضد رودريك .

يقول البعض ان موسى بن نصير أراد عبور اراضي الفرنجة والعودة الى دمشق بطريق القسطنطينية . وكان أول من عبر البرنيه الى فرنسا حاكم الاندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي في ٧١٧ . واستفاد من نزاع ضباط بلاط الميروفنجيين وحكام اكيتانيا فبدأ الغزوات وتابعها السمح بن مالك الخولاني وفي ٧٢٠ أخذ ناربون (اربونة) في جنوبي فرنسا واصبحت قلعة ومستودعاً للأسلحة ولكنه فشل في فتح طولوز وقتل . وخلفه على اسبانيا عبد الرحمن الغافقي فعبر البرنيه في ٧٣٢ وكسر اود Eudes دوق اكيتانيا على ضفاف الغارون واستولى على بوردو وتجاوز بواتييه الى تور وكانت شبه عاصمة دينية في الغال (فرنسا) . وهنا قابله شارل مارتل سيد قصر الميروفنجيين وحاكم فرنسا الحقيقي . وتقابل الجيشان مدة اسبوع في تشرين الاول وهجم عبد الرحمن على جيوش الفرنجة ولم يتمكن من اختراق صفوفها وقتل وفي اليوم التالي انسحب العرب وكان النزاع قائماً في الجيش بينهم وبين البربر وعرفت المعركة عندهم ببلاط الشهداء[1] . واعتبر الغربيون

---

(١) انظر بشأن هذه المعركة هامش رقم ٢ ص ٣٣٩ من هذا الكتاب . وبشأن توسع

هذه المعركة نقطة تحول في نجاح المسلمين وسموها موقعة حاسمة غير أن المسلمين واصلوا غاراتهم وفي ٧٣٤ أخذوا افينيون وأغاروا على ليون وبقيت ناربون بيدهم حتى ٧٥٩ .

شهد حكم العرب في اسبانيا اربعة ادوار رئيسية وهي : اولاً دور الحكم الأموي حين كانت الاندلس ولاية تابعة لحكومة دمشق بين ٧١١ و ٧٥٠ ، ثانياً دور الأمارة المستقلة تحت الحكم الأموي في قرطبة ٧٥٥ — ٩٢٩ ، ثالثاً دور الخلافة الأموية في قرطبة ٩٢٩ — ١٠٣١ ، رابعاً دور دول الطوائف حتى انتهاء الحكم العربي في ١٤٩٢ . وكان الدور الاول وخاصة بعد ٧٣٢ يتصف بالنزاع في صفوف الجيش بين المضرية واليمنية وكانت اليمنية موالية للعلوية الشيعية وتفضل مجيء العباسيين الى الحكم بينما كانت المضرية موالية لبني امية . وكان البربر عنصر شغب في البلاد ويشكون ان نصيبهم كان المناطق القاحلة . وبين عامي ٧٣٤ — ٧٤٢ حصلت ثورة بربرية واسعة من مراكش الى القيروان وارسل هشام جيشاً من السوريين لاخماد الثورة في ٧٤١ ودخلت بقايا هذا الجيش اسبانيا بقيادة بلج بن بشر القشيري فاستولى على الحكم في قرطبة وتوزعت قوات السوريين حسب المدن التي أتت منها ففرقة حمص مثلاً احتلت اشبيلية . وتوالى على حكم الاندلس ٢٣ حاكماً في الفترة الواقعة بين ٧٣٢ و ٧٥٥ ، وكان الامير يعين من دمشق ولكنه نظرياً كان تحت سلطة الحاكم العام للمغرب واسبانيا . وكان مركز اول حاكم للاندلس وهو عبد العزيز بن موسى في اشبيلية وقد تزوج ارملة رودريك (واسمها اجيلونا Egilona) واصبح اسمها ام عاصم ويقال انها اقنعت زوجها بلبس التاج . وقتل عبد العزيز في ٧١٦ وأرسل رأسه الى دمشق في عهد الخليفة سليمان

العرب في اوربا الغربية والبحر المتوسط انظر : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط للامير شكيب ارسلان . القاهرة ١٩٣٣ .

ونقل السمح بن مالك العاصمة الى قرطبة وأعاد بناء الجسر على الوادي الكبير ومسح الاراضي وأوجد نظاماً للضرائب وتنازع المضرية واليمنية على الحكم وصار هذا الحكم بالتناوب من كل حزب لمدة سنة . واختار المضريون يوسف بن عبد الرحمن الفهري في ٧٤٦ ولكنه رأى أن يبقى في الحكم فبقي لمدة عشر سنوات وبينما كان في شمال البلاد أتى عبد الرحمن الاموي المعروف بالداخل .

نجح عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام الذي سماه المنصور صقر قريش في اجتياز نهر الفرات هرباً من العباسيين في ٧٥٠ وانضم اليه خادمه بدر في فلسطين وقطع شمالي افريقيا حتى وصل سبتة وساعده أخواله البربر . ثم أوفد بدراً الى اسبانيا ليفاوض الفرق السورية من دمشق وقنسرين واستمال السوريون جماعة اليمنية الذين كرهوا يوسف الفهري مما سهل لعبد الرحمن دخول الأندلس . وأخذت المدن تخضع له ومنها اشبيلية وسيدونا حيث كانت فرق حمص وفلسطين ثم زحف على قرطبة وحصلت المعركة في ١٤ ايار ٧٥٦ على ضفاف نهر الوادي الكبير فهرب يوسف ودخل عبد الرحمن المدينة وأخيراً قتل يوسف قرب طليطلة، وسقطت هذه الاخيرة في ٧٦٤ . وقمع عبد الرحمن ثورات البربر واليمنية التي غذاها العباسيون واضطر لقتل خادمه بدر . وفي ٧٦١ عين الخليفة المنصور حاكماً على اسبانيا اسمه العلاء بن مغيث ولكنه قتل بعد سنتين وأرسل رأسه الى المنصور . وفي عام ٧٧٧ اتحد بعض زعماء العرب تحت رئاسة حاكم برشلونة وطلبوا مساعدة شارلمان ضد عبد الرحمن . ولما كان شارلمان حليف الخليفة العباسي فقد أجاب الدعوة وتقدم حتى سرقسطة (سراغوسا) ولكنه انسحب بنتيجة مقاومة المدينة وظهور المشاكل داخل مملكته . وهاجم الباسك Basques الذين يسكنون وديان البرنيه جيشه المنسحب ومن جملة الذين قتلوا رولان Roland الذي خلدت الانشودة المعروفة باسمه اعماله وشجاعته وتعد من اهم ملاحم العصور الوسطى . وقد ذكرت هذه الاخبار في تاريخ حياة شارلمان الذي كتبه اكينار Eginhard (ونشره وترجمه الاستاذ هالفن Halphen) . وكان لعبد الرحمن جيش من مرتزقة البربر

يقدر عدده باربعين الف جندي وفي ٧٧٣ قطع الخطبة للعباسيين واتخذ لقب امير بدون أن يصبح خليفة . ودام دور الامارة هذا الى ان اصبح عبد الرحمن الثالث (الناصر) خليفة في ٩٢٩ . وعمل عبد الرحمن على تجميل المدن وبنى قناة للمياه الى قرطبة وبدأ ببناء سور المدينة وانشأ منية الرصافة (أو جنة الرصافة) بجوار قرطبة وكان في حديقته شجرة نخيل وادخل زراعة الدراق والرمان . وقبل وفاته في عام ٧٨٨ بدأ ببناء الجامع في قرطبة واكمله خلفاؤه وأصبح قبلة الاسلام في الغرب ثم حوله فرديناند الثالث الى كنيسة في ١٢٣٦ ويعرف حتى اليوم باسم mezquita اي الجامع . ورغب عبد الرحمن في تقارب العرب والبربر والاسبان العرب والقوط واندماجهم في قومية واحدة كما بدأ يهتم بالحياة الفكرية . وقد بقيت سلالته حتى انتهاء الخلافة الاموية في قرطبة في ١٠٣١ وبلغت ذروتها في عهد عبد الرحمن الناصر ٩١٢ — ٦١ الذي اتخذ لقب خليفة . وأخذت قرطبة تنافس بغداد. ومن المشاكل الهامة التي واجهها الحكام مشكلة تهدئة البلاد ومشاكل علاقات المسلمين والمسيحيين والمسلمين الجدد من أصل اسباني . وكانت تؤخذ الجزية من النصارى واليهود كما في سائر المناطق ويختلف مقدارها حسب حالة المكلفين المالية ويعفى منها النساء والاولاد والرهبان والمرضى . والخراج كان يؤخذ من الذميين حتى اذا اعتنقوا الاسلام بنسبة عشرين بالمائة . وقد استولت الدولة على الاراضي المأخوذة عنوة واراضي الامراء الهاربين والكنائس ووزع قسم منها على المقاتلين . وقد بقي العبيد في الاراضي انما كانوا يعطون نسبة مرتفعة من المحصول الى اسيادهم والعبد كان يحرر عند اعتناقه الاسلام . وقد سمح للنصارى ان يهتموا بشؤونهم الدينية وان يحتفظوا بشرائعهم وقضائهم . وقد ذكر المستشرق دوزي Dozy ان الفتح العربي أفاد اسبانيا لانه كسر شوكة الطبقات الممتازة من الاشراف والكهنة وحسن حالة العبيد واعطى الملاكين النصارى حق التصرف باملاكهم. وقد دخل كثيرون من النصارى في الاسلام واحتفظوا بتقاليدهم في المناطق الجبلية والقروية وشكلوا طبقة المولدين ولكنهم فيما بعد يصبحون مستائين ويقومون بثورات وتتألف

منهم اكثرية سكان المدن بعد قرن من الفتح وكان أصل معظمهم من الفلاحين والعبيد المحررين وكانوا يعتبرون دون العرب المسلمين .

حكم بعد عبد الرحمن الداخل ابنه هشام الاول ٧٨٨ — ٩٦ وكان تقياً محباً للعلم . ثم يأتي الحكم الاول ٧٩٦ — ٨٢٢ وكان يميل الى الزهو والخمر والصيد وانتقده الناس لان حرسه كان من المرتزقة والزنوج والاجانب المعروفين بالخرس الذين لايعرفون العربية . وكان يسكن حي « الربض » في جنوبي قرطبة جماعة من المولدين او المسلمين الجدد ويؤثر عليهم الفقهاء . وفي عام ٨٠٥ هوجم الحكم بالحجارة اثناء مروره في الشوارع فقبض على اثنين وسبعين من زعماء المقاومة وصلبوا . وقامت الثورات في الربض وبلغت ذروتها في ٨١٤ بزعامة فقيه بربري اسمه يحيى بن يحيى ولكن الثورة اخمدت بشدة وهدم الحي واجبر سكانه على مغادرة اسبانيا فسكن قسم كبير منهم في فاس التي بناها ادريس الثاني وسمي حيهم عدوة الاندلسيين ، وذهب قسم منهم الى الاسكندرية واقاموا هنالك حتى ٨٢٧ ثم اضطروا لمغادرتها الى كريت . وقد ساعد بعض مسلمي الاسبان العرب ضد مواطنيهم ومنهم عمروس بن يوسف الذي عينه الحكم حاكماً على طليطلة في ٨٠٧ وكان المسيحيون والمولدون هناك في حالة اضطراب وتمرد فدعا عمروس اعيان طليطلة بمناسبة زيارة الامير عبد الرحمن بن الحكم وقتلهم في باحة القلعة ورماهم في الخندق وهدأت الحالة في طليطلة . كذلك كانت مريدة في حالة ثورة دائمة .

ثم يأتي عبد الرحمن الثاني او الاوسط ٨٢٢ — ٥٢ وكانت زوجته السلطانة طروب ذات نفوذ كبير وكذلك مولاه نصر واصله من الاسبان . واثر عليه الفقيه يحيى بن يحيى م٨٤٩ وهو تلميذ مالك بن انس وادخل المالكية الى الاندلس . وعاش في بلاط عبد الرحمن زرياب الموسيقي الفارسي الاصل (واسمه ابو الحسن بن نافع وقيل ان اسمه زرياب كان اسم طائر اسود لان لونه كان اسمر قاتم) وكان قبلا في بلاط هارون الرشيد وابنائه حيث حسده معلمه اسحق الموصلي فهرب الى افريقيا ومنها الى قرطبة حيث استقبله عبد الرحمن . وكان زرياب شاعراً وعالماً

بالفلك وحفظ عشرة آلاف اغنية مع الحانها وكان المع شخصية في البلاط وادخل شرب الماء بقدح الزجاج بدلا من المعدن كما أدخل زي الشعر القصير . وفي هذه الفترة استعرب عدد من الاسبان من جهة اللغة والادب واخذ النصارى يقلدون عادات العرب ويميلون الى علومهم وفنونهم وفلسفتهم وسموا بالمستعربين Mozarabes وكانت المسيحية حديثة العهد في اسبانيا التي كانت آخر البلاد الاوربية التي دخلتها هذه الديانة . وقد اسف احد الكتاب المسيحيين واسمه الفارو Alvaro ان النصارى يتركون مؤلفات الآباء اللاتين ويعجبون بفصاحة العرب . ومنذ عام ٧٢٤ عمل اسقف اشبيلية ترجمة للتوراة لاجل النصارى المستعربين . وحصلت حركة ضد حركة الاستعراب من قبل المتحمسين المسيحية ومنهم الكاهن يولوجيوس Eulogius وقتل كاهن اسمه برفكتوس Perfectus لتهجمه على الاسلام في ٨٥٠ واعتبرته كنيسته قديساً ، وقتل عدد آخر من الرهبان والكهنة لهذا التهجم وكانوا يرغبون في ان يعتبروا شهداء واتبعت نفس الطريق فتاة اسمها فلورا Flora في ٨٥١ واخيراً قتل يولوجيوس نفسه وكان اسقف قرطبة في عهد محمد الاول ٨٥٢ — ٨٦ . واتى بعد محمد ولداه المنذر ٨٨٦ — ٨٨ وعبد الله ٨٨٨ — ٩١٢ وحصلت اضطرابات سببها المولدون والمستعربون وبعضها يتعلق بوراثة العرش حيث قتل المنذر مسموماً من قبل عبد الله وانفصلت بعض المقاطعات تحت سيادة المسلمين المولدين الذين اعتبروا ابطالا وطنيين . وفي الجنوب اعتبرت الرية Regio مستقلة على ان تدفع الجزية . واستقلت اراغون في الشمال تحت حكم بني قاسي وهي اسرة قوطية اعتنقت الاسلام وكان حلفاؤها ملوك ليون . وفي طليطلة ثار بنو ذو النون وفي اشبيلية كان بنو حجاج من أصل قوطي روماني أسياد الموقف . وكان المؤرخ ابن القوطية من أصل قوطي من سلالة غطيشة . وفي غاليسيا (جليقية) قام عبد الرحمن الجليقي واسس امارة وتحالف مع الفونسو الثالث ملك ليون . وقام في مرسية أمير آخر من المولدين . على ان اكبر المتمردين كان عمر بن حفصون من أصل قوطي ومقره في ٨٨٠ كان في قلعة بوبشتار

(Bobastro) وقد ثار بمساعدة الجبليين في البيرة (Elvira) ضد الحكم العربي واصبح بطل القومية الاسبانية في كل الجنوب واخذ يفاوض الاغالبة والعباسيين لكي يجعلوه حاكما على اسبانيا ولكنه فشل واستمرت الثورة وسمى نفسه صموئيل .

حكم عبد الرحمن الثالث بعد جده عبد الله ودام حكمه ٩١٢ — ٦١ وكانت الدولة تقتصر على منطقة قرطبة وضواحيها . وأخذ بدهائه وشجاعته يسترجع المقاطعات الواحدة بعد الأخرى ، فسقطت البيرة ومنطقة الرية التي فيها ارشيدونا كما سقطت اشبيلية ، وتوفي ابن حفصون في ٩١٧ بعد مقاومة دامت ٣٧ سنة .ولم تخضع طليطلة حتى ٩٣٢ ، وهكذا توطد حكمه . وكان الفاطميون يتآمرون عليه وفاوضوا ابن حفصون ، ولذلك انتقل عبد الرحمن الى مراكش وأخذ سبتة ، واستولى على معظم ساحل المغرب . وكان أسطوله قويا ومركزه المرية Almeria . وكان الأسطول العربي في اسبانيا قبلاً قد رد هجمات النورمان الشماليين الذين عرفهم العرب باسم المجوس . والآن أخذ الأسطول يهاجم موانئ افريقيا ليثأر من هجمات الفاطميين البحرية على اسبانيا . ثم حارب عبدالرحمن في الشمال ضد الأمراء المسيحيين حيث البشكنس (بلاد الباسك) ونافار وآراغون وليون وقشتالة . وفي عام ٩١٤ هاجم ملك ليون واسمه اوردونيو Ordono (اردون بالعربية) وبعد بضع سنوات قام عبد الرحمن بهدم قلعة سان اسقبان (شنت اشتبان) مركز اردون . ويذكر ابن عبد ربه شاعر البلاط أنه استولى على سبعين معقلاً في حملته وقهر جيش اردون وسانشو Sancho (شنجة بالعربية) ملك نافار في وقعة وادي القصب (Val de Junqueras) ثم بعد أربع سنوات دخل بمبلونة Pampeluna عاصمة نافار وهدمها ، وبعد ذلك توفي أردون وهدأت الحروب الشمالية . ثم اهتم عبد الرحمن بالادارة ، وفي مطلع عام ٩٢٩ اتخذ لقب خليفة باسم الناصر لدين الله .

وهكذا يبدأ الدور الثالث في تاريخ عرب الأندلس وهو دور الخلافة

الأموية ، وتابع الخليفة حروبه ضد الشمال لأن الأمراء أرادوا استرجاع المناطق الجنوبية ، وفي عام ٩٢٩ كسر لأول مرة في معركة الخندق على يد راميرو Ramiro الثاني ملك ليون والملكة طوطا الوصية على عرش نافار وأرملة سانشو الكبير وذلك جنوبي سلامنكا . ثم فيما بعد نرى هذه الوصية نفسها تأتي الى بلاط الخليفة في قرطبة لتداوي حفيدها سانشو السمين وتطلب مساعدة عسكرية لتضعه على عرش ليون . وقد عالج حسداي بن شبروط طبيب البلاط الأمير سانشو وساعده عبد الرحمن ليعود الى عرشه في ٩٦٠ . وكان بلاط الناصر من أزهى بلاطات أوربا ، وفي عاصمته كان السفراء من ايطاليا وفرنسا وألمانيا وبيزنطة [١] .

أتى الحكم الثاني المستنصر ٩٦١ – ٧٦ بعد عبد الرحمن الناصر . وكان الحكم عالماً ومشجعاً للعلم ، وأصبحت جامعة قرطبة المؤسسة من قبل الناصر ذات شأن في أيامه ، وكان يأتي طلابها من القارات الثلاث ، ومن أساتذتها ابن القوطية المؤرخ وأبو علي القالي صاحب الأمالي ، وبعض أساتذتها أتوا من الشرق . ومكتبة قرطبة بلغت أهمية عظمى ، وجمعت كتبها من مكاتب بغداد والقاهرة والاسكندرية حتى بلغ عددها ٤٠٠,٠٠٠ كتاب ولها فهرس في ٤٤ مجلداً وقد أسس الحكم نحو ٢٧ مدرسة ويقول دوزي وغيره من العلماء ان العلم انتشر في زمن هذا الخليفة حتى أصبح كل شخص يقرأ ويكتب . ويروي ابن عذاري وابن خلدون والمقري خبر اردنيو الشرير الذي أتى الى البلاط يطلب المساعدة لاعادته الى عرش

---

(١) انظر بشأن تاريخ العرب في الأندلس : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس . طبع مدريد ١٨٦٨ (ترجمه Ribera الى الاسبانية . مدريد ١٩٢٦) . ابن عذاري المراكشي : كتاب البيان المغرب (وفيه تاريخ شمالي افريقيا واسبانيا) نشره حسب طبعة دوزي لعام ١٨٤٨ المستشرقان كولن Colin و Lévi - Provençal في جزئين ١٩٤٨ – ١٩٥١ .

انظر أيضاً تاريخ المستشرق دوزي: R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne. éd. Lévi- Provençal. Leyden 1932.

وأحدث تاريخ وأوسعه عن الأندلس : Lévi - Provençal : Histoire de l'Espagne musulmane. 3 vols. Paris 1950 - 53.

ليون وكان يرافقه اثنان من اعيان النصارى وهما وليد بن خيزران القاضي المسيحي وعبد الله بن قاسم رئيس اساقفة طليطلة وكيف دخل اردونيو الى مقام الخليفة في قصر الزهراء وقبل يده وعاد وهو يمشي الى الوراء . وبعد الحكم الثاني يأتي ابنه هشام ٩٧٦ - ١٠٠٩ وكان صغير السن وامه من الباسك واسمها صبح كانت صاحبة السلطة وظهر في أيامها محمد بن أبي عامر المعروف بالمنصور وينتسب الى يمني في جيش طارق . وقد أخذ يصعد سلم المراتب حتى أصبح حاجباً ووزيراً وتخلص من حرس الصقالبة وأتى بحرس من المراكشيين وصار الخليفة شبه سجين في قصره . وبنى المنصور قصراً سماه المدينة الزاهرة واستمال الفقهاء بحرق كتب الفلسفة في مكتبة الحكم وذكر اسمه في الخطبة وعلى النقود وبعد عام ٩٩٢ حل خاتمه محل خاتم الخليفة . وعمل المنصور على تقوية الجيش وتوسع في ساحل افريقيا وشمالي اسبانيا حيث كان ملوك المسيحيين في نزاع داخلي واتخذ لقب المنصور بالله منذ عام ٩٨١ ومن أعماله الحربية فتح زامورا في ٩٨١ ونهب برشلونة وفي ٩٨٨ هدم مدينة ليون واخذت هذه المملكة تدفع الجزية . وفي منطقة جليقية في الشمال الغربي هدم المنصور كنيسة سنتياغودي كومبوستيل (المعروفة عند العرب باسم شانت يعقوب) التي اعتبرها النصارى مركزاً دينياً هاماً لأن فيها قبر يعقوب وهو احد الرسل الذي ادخل النصرانية الى اسبانيا. على أن المنصور لم يمس القبر وكان يقصده الحجاج من كل بلاد أوروبا . وعاد بعد حملته باسرى كثيرين من النصارى. وتوفي المنصور في ١٠٠٢ أثناء عودته من احدى حملاته الخمسين وكانت ضد قشتالة وقبره في مدينة سليم Medinaceli .

بلغت الخلافة الاموية في قرطبة ذروتها في عهد عبد الرحمن الناصر والحاجب المنصور وبدأت الاضطرابات بعد موت الاخير وكان يلعب الحرس دوره فيها كما في بغداد . وحافظ عبد الملك المظفر ابن المنصور على الوحدة ست سنوات وفي ١٠٠٨ سممه أخوه عبد الرحمن (وكان يعرف بلقب شنجول Sanchuel لان أمه كانت ابنة سانشو ملك نافار) ولكن الشعب ثار عليه وقتله . وتوالى الخلفاء من سلالة

عبد الرحمن الناصر لمدة ٢١ سنة وكان يضعهم على العرش إما البربر او الصقالبة أو سكان قرطبة ، والسلطة كانت عموماً بيد الجيش . وقد تنازل الخليفة هشام الثاني بعد عزلة دامت ثلاثين سنة لابن عمه محمد الثاني المهدي في ١٠٠٩ وحكم هذا بضعة شهور هدم أثناءها المدينة الزاهرة وكان يصنع الخمر في قصره حتى سمي « النباذ » . وأتى بعده خمسة خلفاء ولكن بعضهم كانوا يعودون الى الحكم بعد سقوطهم . وهشام الثاني نفسه الذي تنازل في ١٠٠٩ عاد الى الحكم ثم توارى بشكل غامض . والخلفاء الآخرون كانوا سليمان وعبد الرحمن الرابع وعبد الرحمن الخامس ومحمد الثالث وهشام الثالث ١٠٢٧ — ١٠٣١ وهو آخر خليفة أموي . وكان وزير عبد الرحمن الخامس المستظهر في ١٠٢٣ ابن حزم وقد أخرج هذا الخليفة من حمامه وذبح بحضور خلفه محمد الثالث المستكفي الذي قتل مسموماً بعد سنتين في ١٠٢٥ ومن بناته الشاعرة ولادة . وقبل زوال الخلافة الاموية اغتصبها افترة صغيرة الحموديون ومؤسس السلالة علي بن حمود الذي حكم طنجة ثم أعلن نفسه خليفة في قرطبة ومن سلالته جماعة حكموا ملقة Malaga بين ١٠٢٥ و ١٠٥٧ . وكذلك حكم آخرون من هذه الاسرة في قرطبة وهم القاسم اخو علي ويحيي بن علي وذلك بصورة متقطعة من ١٠٢٧ حتى أتى هشام الثالث وأعاد الخلافة الى الامويين . غير ان سكان قرطبة تعبوا من التغيرات والغوا الخلافة وألفوا مجلساً للحكم تحت رئاسة ابي الحزم بن جوهر وانتهت خلافة هشام الثالث آخر الامويين بشكل محزن حيث وضع مع اسرته في قبو مظلم .

بدأ الدور الرابع لتاريخ العرب في الاندلس بعد سقوط الخلافة الاموية في ١٠٣١ وقامت دول كثيرة تسمى دول ملوك الطوائف وعددها لا يقل عن العشرين في القرن الحادي عشر وأخذت تنازع بعضها بعضاً وتخضع تارة المرابطين البربر وطوراً لدول الشمال الاسبانية حتى انتهى أمرها في ١٤٩٢ . ففي قرطبة حكم بنو جوهر حتى ١٠٦٨ حين خضعوا لبني عباد في اشبيلية وانتقلت الزعامة الى هذه المدينة بينما كانت في غرناطة الدولة الزيرية التي قضى عليها المرابطون في

١٠٩٠ وكان مؤسسها البربري ابن زيري ١٠١٢ — ١٠١٩ وكان فيها الوزير اليهودي اسماعيل بن نغزالة م١٠٥٥ (واسمه الاصلي صموئيل بن نكديلة Nagdela) ، وفي ملقة قامت الدولة الحمودية (بنو حمود) حتى ١٠٥٧ وكان الجغرافي الادريسي حفيد الملك الثاني قبل الاخير لهذه السلالة . وخضعت ملقة بعد ذلك للدولة الزيرية ثم المرابطين . وفي طليطلة حكم بنو ذو النون ١٠٣٢ — ٨٥ وهم أسرة بربرية قديمة . وفي سرقسطة كان الحكم لبني هود ١٠٣٩ — ١١٤١ ثم استولى عليها الاسبان . وكان بنو عباد اهم هذه السلالات ١٠٢٣ — ١٠٩١ وينتسبون الى ملوك الحيرة وسلفهم اتى كضابط في فرقة حمص ، وبدأ السلالة قاض في اشبيلية (التي كانت تدعى أيضاً حمص) وابنه عباد الذي اتخذ لقب المعتضد وكان شاعراً يعطف على الادباء . وابنه المعتمد كان أشهر ملوك الطوائف واقدرهم وحكم ١٠٦٨ — ١٠٩١ وهو الذي قضى على بني جوهر في قرطبة وضمها الى مملكته ولكنه كان يدفع الجزية لملك جليقية الفونسو السادس في اقصى الشمال الغربي . وكان بلاطه زاهراً يلتقي فيه الشعراء وأهل الفضل ووزيره ابن عمار وزوجته جارية اسمها اعتماد الرميكية وهي التي قيل انها رأت بدويات يحملن القرب في شوارع قرطبة ويخضن في الطين فرغبت في تقليدهن فجعل لها المعتمد من باحة القصر بركة من ماء الورد والعطور وجعلها تخوض فيها . وفي هذه الاثناء توحدت ليون وقشطلة تحت حكم الفونسو السادس الذي ضم جليقية ونافار ايضاً وأخذت الغزوات تتابع نحو الجنوب . وكان السيد المحارب (Cid campeador) المشهور باسم والسيد ، قد وطد حكمه في بلنسية ومعه اتباعه من قشطلة واخذ يضايق العباديين . ولذلك استدعى المعتمد يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين الذين كانوا اسياد افريقيا من السنغال حتى الجزائر . وزحف يوسف الى جنوبي اسبانيا والتقى بجيش الفونسو السادس في موقعة الزلاقة شمال غربي قرطبة في ١٠٨٦ وكسره وترك الاسبان عدداً كبيراً من القتلى شكل منه المنتصرون برجاً من الرؤوس . وبعد ان رجع يوسف الى افريقيا عاد كفاتح ودخل غرناطة في ١٠٩٠ ثم اخذ اشبيلية وسائر

المدن وخضعت له اسبانيا الاسلامية ما عدا طليطلة وسرقسطة وأرسل المعتمد الى مراكش مقيداً بالسلاسل حيث عاش معدماً وتوفي في ١٠٩٥ وهكذا بدأ حكم البربر في اسبانيا .

حكم المرابطون اسبانيا ١٠٩٠ – ١١٤٧ وكانوا اصحاب طريقة عسكرية دينية أسسها رجل ورع في رباط بالسنغال ، وكان أول أفرادها من قبيلة لمتونة من فروع صنهاجة . وكانوا يتلثمون كالطوارق Touareg في جنوبي الجزائر اليوم ولذلك سمي المرابطون بالملثمين . وأجبروا القبائل على اعتناق الاسلام ، وخضعت لهم افريقيا الشمالية الغربية ثم اسبانيا . وحكم يوسف (١٠٦١ – ١١٠٦) وبنى مدينة مراكش و كانت عاصمته في اسبانيا مدينة اشبيليـة . وسمى ملوك المرابطين أنفسهم « أمير المسلمين » ونقشوا ذلك على نقودهم وعلى الجهة الثانية من النقود ذكروا الخليفة العباسي . وقلد هذه النقود كما نقشها بالعربية الفونسو الثامن ملك ليون وقشطلة فكتب « أمير القتولاقين » (أي الكاثوليك) وذكر البابا باسم « إمام البيعة المسيحية » . وكان المرابطون يضطهدون سائر الديانات وفي عهد علي بن يوسف ١١٠٦ – ٤٣ أحرقت بعض كتب الغزالي لأن بعض العبارات لم تعجب الفقهاء . وفرضت الأموال على اليهود الأغنياء في بعض المدن وكانت أحوالهم مزدهرة في عهد الأمويين في قرطبة . وتأسست مدرسة تلمودية تشهد بازدهار الثقافة اليهودية في الأندلس ، وكان اليهود يتكلمون العربية . أما المستعربون الاسبان (المسيحيون الذين يتكلمون العربية) فكانوا يسكنون في أحياء خاصة ولهم قضاتهم ، وعموماً كان لهم اسمان اسم عربي واسم اسباني . وقد ظلوا يستعملون اللغة العربية كلغة القانون والتجارة بالاضافة الى لهجتهم الاسبانية مدة قرنين بعد فتح طليطلة من قبل الفونسو السادس في ١٠٨٥ . وكان أحد ملوك أراغون واسمه بطرس الأول م ١١٠٤ يكتب فقط بالعربية . ومنذ عام ٩٤٦ ترجم اسحق فلاسكز القرطبي الأناجيل من اللاتينية الى العربية . غير أن يوسف بن تاشفين اضطهد المستعربين وفي عام ١٠٩٩ أمر بهدم كنيسة لهم في غرناطة .

ثم نفي هؤلاء الغرناطيون الى مراكش ، وقتل بعضهم في ١١٢٦ لأنهم اتصلوا بأحد الملوك المسيحيين في الشمال . ولم يكن من فاصل عرقي واضح بين المستعربين والمسلمين في المدن ، لأن العرب كانوا أقلية ، وكذلك كانت النساء في الجيش الفاتح ، ولذلك بعد انقضاء أجيال قليلة كان التزاوج قد أحدث تمازجاً عرقياً ، وساعد التسري والأسر عملية التمازج ، ولذلك كان قسم كبير من مسلمي اسبانيا من دم اسباني .

وفي هذه الفترة الأولى من حكم المرابطين اشتهر السيد (واسمه رودريك دياز دي بيفار de Bivar) . وقد كان في خدمة الفونسو السادس في قشطالة ثم نفاه الملك في ١٠٨١ فقام بمغامرات وحروب ، وخدم بني هود في سرقسطة وسماه جنوده المسلمون السيد المحارب ، وذكره مؤرخو العرب باسم « الكنبطور » (تحريف Campeador أي المحارب) واحتل بلنسية واحتفظ بها حتى وفاته في ١٠٩٩ ، وكان يمثل الفروسية والبطولة في تاريخ اسبانيا ، وملحمة السيد من أقدم الملاحم الاسبانية في القرن الثاني عشر ، وقد ساعدت في توطيد اللغة الاسبانية. وأكملت دولة المرابطين دورتها المعهودة من حيث النشوء وبلوغ الذروة والانحلال بسرعة . فبعد جيل المحاربين الأشداء أتى الخمول والفساد والانحلال والسقوط . وقد انتقل البربر المعتادون على التقشف الى حياة الترف وفقدوا صفات الرجولة ، ولم يكونوا مستعدين لتمثل تلك الحضارة التي بلغت درجة فكرية هامة ، وأخيراً سقطوا بقيام دولة الموحدين .

حكمت دولة الموحدين ١١٤٧ — ١٢٦٩ وكانت في أول عهدها حركة دينية سياسية ، وأسسها بربري متقشف اسمه محمد بن تومرت نحو ١٠٧٨ - ١١٣٠ من قبيلة مصمودة واتخذ لقب المهدي وبشر بالتوحيد بين قبائل الأطلس ، وسمي أتباعه بالموحدين (بالافرنجية Almohades) [1] . وخلفه قائده عبد المؤمن بن

---

(١) راجع بشأن هذه الدولة ودول المغرب : المعجب في تلخيص اخبار المغرب تأليف =

علي من قبيلة الزناتة . وأصبح مؤسس السلالة التي حكمت أكبر دولة في افريقيا ، وقهر جيش المرابطين في تلمسان ١١٤٦ ، ثم استولى على سائر المدن ومنها مراكش في السنة التالية ، وقضى على المرابطين . وقتل اسحق بن علي آخر أفراد السلالة . وفي ١١٤٥ كان عبد المؤمن قد أرسل جيشاً الى اسبانيا فنجح في الاستيلاء عليها وبقيت جزر الباليار التي استولى عليها الأموبون منذ ٩٠٣ بضع سنوات بيد المرابطين . وتابع عبد المؤمن — الذي اتخذ لقب أمير المؤمنين — فتوحاته حتى الجزائر وتونس وطرابلس ، وهكذا امتدت مملكته في ١١٦٠ من حدود مصر حتى اسبانيا وتوفي في ١١٦٣ . ومن أفراد سلالته المشهورين حفيده أبو يوسف يعقوب المنصور ١١٨٤ — ٩٩ الذي أرسل صلاح الدين الى بلاطه وفداً وهدايا ووجهه الى « أمير المسلمين » لأنه كان يعترف بخلافة العباسيين في بغداد . ويقال ان المنصور أرسل له سفناً لمساعدته ضد الصليبيين ، ونقل الموحدون عاصمتهم الى اشبيلية في ١١٧٠ وبنيت فيها المأذنة المعروفة باسم « الجيرالدا » بجانب الجامع الذي بدأ بناؤه في ١١٧٢ وتم في ١١٩٥ (وهو الآن كاتدرائية) . وبنى المنصور في مراكش مدينة رباط الفتح وفي مدينة مراكش بنى المستشفى الذي وصفه معاصره المؤرخ عبد الواحد المراكشي . غير أن الموحدين كسروا في موقعة مع الاسبان في لاس نافاس دي تولوزا Las Navas de Tolosa شرقي قرطبة في ١٢١٢ ، وقد سماها العرب معركة العقاب ، وغادروا اسبانيا . وكان الملوك الاسبان بزعامة الفونسو الثامن ملك قشطلة ومعه قوات من نافار واراغون والبرتغال . وكان قائد الموحدين الخليفة محمد الناصر ١١٩٩ — ١٢١٤ ابن المنصور ، فذهب الى مراكش حيث توفي وتوزع ملوك الاسبان المناطق بينهم وبقي بعض أمراء من العرب أهمهم النصريون

= عبد الواحد المراكشي . نشره دوزي في ليدن ١٨٨١ وترجمه Fagnan في ١٨٩٣ في الجزائر بعنوان : Histoire des Almohades .

كذلك راجع الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تونس ١٢٨٩ هـ .
ابن ابي دينار : المؤنس في اخبار افريقيا وتونس . تونس ١٢٨٦ هـ .

في غرناطة . وظل خلفاء الناصر في مراكش وعددهم تسعة حتى فتح عاصمتهم مراكش من قبل بني مرين في ١٢٦٩ وهم من فروع الزناتة .

انتسب النصريون في غرناطة ١٢٣٢ — ١٤٩٢ الى قبيلة الخزرج ومؤسس دولتهم محمد بن يوسف بن نصر ١٢٣٣ — ٧٣ المعروف بابن الاحمر . وقد عاش ابن خلدون في بلاط غرناطة في زمن هذه السلالة . وتحالف ابن الاحمر مع ملوك الاسبان واقتطع لنفسه مملكة في غرناطة ومنطقتها واقب بالغالب ودفع الجزية لقشطلة . وكانوا يشبهون غرناطة بدمشق وسكنها سوريون كثيرون، وسهلها الفيغا (Vega) يشبه غوطة دمشق وسكانها كانوا نحو نصف مليون . وكان لسان الدين بن الخطيب (م ١٣٧٤) وزيراً ومؤرخاً للسلالة(١) . وعلى احدى تلال المدينة بنى الغالب قلعة وقصراً باسم الحمراء ثم وسعها وزخرفها خلفاؤه واكتسبت شهرة عالمية . وكان النصريون يميلون الى العلم والادب واتاهم العلماء خاصة من شمالي افريقيا . وتجارة غرناطة وخاصة تجارة الحرير كانت مزدهرة وثروتها عظيمة وكانت آخر ملجأ للمسلمين الهاربين من هجمات ملوك الاسبان الذين اخذوا يسترجعون البلاد منذ سقوط الحكومة الاموية (وتعرف هذه الحركة عند الاسبان باسم Reconquista) . ويجعل بعض المؤرخين بدء حركة الاسترجاع هذه في عام ٧١٨ عندما اوقف زعيم مقاطعة آستوريا واسمه بيلايو Pelayo تقدم المسلمين وربما كان تغير وجه التاريخ لو ان المسلمين قضوا على جميع بقايا سلطة الاسبان في الشمال. وقد انشغل الاسبان في اول الامر بمنازعاتهم الداخلية في الشمال ثم اتحدت ليون وقشطلة في ١٢٣٠ وفي منتصف القرن الثالث عشر كان الاسبان قد اتموا فتح البلاد تقريباً باستثناء غرناطة . وقد سقطت بيدهم طليطلة منذ ١٠٨٥ وقرطبة في ١٢٣٦ واشبيلية في ١٢٤٨ واهتموا الآن بتوحيد اسبانيا ونشر المسيحية فيها . وكانت جذور الاسلام قوية خاصة في المناطق التي ازدهرت فيها الحضارة السامية القرطجية . وسمي المسلمون الذين خضعوا للاسبان بطريق

(١) انظر كتابه : الاحاطة في اخبار غرناطة . القاهرة ١٣١٩ هـ .

الفتح او المعاهدة بالمدجنين Mudejar واعطاهم القانون حق الاحتفاظ بدينهم ونظمهم ولكنهم أخذوا يفقدون لغتهم العربية ويندمجون بباقي السكان . وكانت حركة توحيد اسبانيا المسيحية بطيئة ولكن لم يبق في القرن الخامس عشر سوى مملكتي قشطلة واراغون . وفي ١٤٦٩ تزوج فردينان حاكم آراغون وايزابيلا ملكة قشطلة فتوحدت الدولتان. وكان آخر ملوك النصريين يتنازعون فيما بينهم مما زادهم ضعفاً . وعدد الملوك النصريين كان ٢١ ملكا وبعضهم حكم مرتين . واشهر احد ملوكهم وهو علي ابو الحسن (حكم ١٤٦١ — ٨٢ ثم ١٤٨٣ — ٨٥) فاوقف دفع الجزية وهاجم اراضي قشطلة ولذلك هاجمه فردينان في ١٤٨٢ واخذ الحمة التي تؤدي الى غرناطة من الجنوب الغربي . وفي هذه الاثناء ثار محمد ابو عبد الله (Boabdil عند الاسبان) ضد ابيه لان امه شجعته تخلصاً من منافستها الاسبانية ومن اولادها واستولى على الحمراء في ١٤٨٢ وعلى غرناطة ولكنه في السنة التالية هاجم مدينة تابعة لقشطلة فكُسر وأُسر وعاد ابوه حتى ١٤٨٥ حين تنازل لأخيه محمد الثاني عشر المعروف بالزغل . غير ان الاسبان عادوا فاستخدموا ابا عبد الله فاستولى على قسم من غرناطة في ١٤٨٦ . وفي هذه الفترة تحصل قصة القضاء على بني سراج وزراء غرناطة عند ابي عبد الله وتدخل في اساطير غرناطة. وزحف جيش قشطلة باتجاه الجنوب وفتح مالقة ولم ينجح محمد الزغل في صد هجوم الاسبان فاستسلم وانسحب الى تلمسان حيث عاش بائساً وبقيت غرناطة بيد ابي عبد الله فطلب منه الاسبان تسليم المدينة في ١٤٩٠ ولكنه رفض وهاجمه فردينان وحاصر المدينة وقطع عنها المؤن وساءت الحالة فيها حتى قررت الحامية الاستسلام ولم تأت مساعدة من الاتراك ولا من افريقيا فدخل الاسبان في ٢ كانون الثاني ١٤٩٢ . وغادر ابو عبد الله غرناطة واشترط أن يعيش في منطقة البشرات Alpujarras في الجنوب وان يكون موالياً للاسبان مع بقاء المسلمين على قوانينهم ودينهم . ولكنه انسحب بعد مدة الى فاس ومات فيها في ١٥٣٣ وبعد مائة سنة عندما كان المقري يكتب تاريخه في ١٦٢٨ كان احفاد أبي عبد الله لايزالون يعتبرون من المساكين وتوزع

عليهم الصدقة . ويقال ان كولمبوس كان في غرناطة حين دخول الاسبان اليها وانه كان يطلب من الملكة ايزابيلا منحه المساعدة للقيام برحلته المشهورة . ولم يراع الاسبان شروط التسليم وبدأت حملة لاجبار المسلمين على اعتناق النصرانية وكان ينفذ هذه الحركة الكردينال خيمنس Ximenez وعمد في اول الامر الى سحب الكتب العربية وحرقها واحرقت مخطوطات عربية كثيرة . ثم اخذت محاكم التفتيش تضطهد المسلمين وقد سمي الذين بقوا منهم في البلاد بالموريسكو moriscos[1] وكانوا يتكلمون لهجة اسبانية انما يكتبون بالعربية وسميت هذه الكتابات بالاعجمية (aljamiado في الاسبانية) . وكثيرون من الموريسكو كانوا من أصل اسباني ولذلك أخذ الاسبان يقنعونهم بوجوب العودة الى ديانة اسلافهم . واعتنق بعضهم المسيحية بالظاهر ولكنهم مارسوا الاسلام سراً . وصدرت القوانين بوجوب اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد ولكنها لم تطبق بشدة . وفي ١٥٥٦ اصدر فيليب الثاني قانوناً يجبر المسلمين على ترك لغتهم وعاداتهم وعباداتهم فحصلت ثورة في غرناطة انما اخمدت ثم في عهد فيليب الثالث في ١٦٠٩ صدر آخر قانون باخراج المسلمين من اسبانيا فغادروها وكانوا نحو نصف مليون ونزلوا في سواحل افريقيا . وقدر عدد المسلمين الذين ابعدوا او قتلوا منذ سقوط غرناطة حتى اوائل القرن السابع عشر بثلاثة ملايين ويقول ستانلي لينبول Lane-Poole في ذلك (في تاريخه عن العرب في اسبانيا طبع نيويورك ١٩١١) « لقد ابعد الموريسكو من اسبانيا ولمعت اسبانيا المسيحية لمدة كالقمر بضوء مستعار ثم اتى الكسوف وظلت اسبانيا تتسكع في هذه الظلمة منذ ذلك العهد » .

---

(١) كان اسم مورو Moro او Moor يطلق على جميع المسلمين في اسبانيا وشمال غربي افريقيا وبالاصل اطلق الرومان على غربي افريقيا اسم موريتانيا وسكانها mauri وربما كان الاسم من اصل فينيقي بمعنى « غربي » ولذلك اطلق الاسم بالاصل على البربر في تلك المنطقة . ولما اكتشف الاسبان الفيلبين وجدوا جماعة من المسلمين فيها فسموهم moros .

مآثر حضارة العرب في الاندلس : لا بد قبل ذكر مآثر حضارة العرب في الاندلس وفضلها في النواحي الفكرية والفنية من ذكر لمحة عن نظام الحكم والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية . كان نظام الحكم والادارة شبيهاً بنظم بلاد الخلافة في الشرق وقد نظمت الادارة في الاندلس على شكل الادارة العباسية وكذلك كان تنظيم البلاط منذ عهد عبد الرحمن الثاني . والخلافة كانت وراثية وضباط الجيش كان لهم تأثير مهم في بعض الاحوال . واعلى وظائف الدولة كانت الحجابة والحاجب أعلى من الوزراء . وهنالك الكتاب في الدواوين والولاة في المقاطعات ولهم سلطة مدنية وعسكرية . وكان يوجد قاض للقضاة في قرطبة في عهد الحكومة الاموية عدا عن القضاة في مختلف المدن . ووظيفة المحتسب كانت لها نفس الصلاحيات كما في الشرق واحياناً كان يتولاها القاضي بنفسه . ووجدت الشرطة وكان القائم عليها يسمى رئيس الشرطة وفيما بعد ضابط الشرطة وذكر ابن خلدون انها كانت تقسم الى قسمين الشرطة الصغرى والشرطة الكبرى التي كان يحكم صاحبها على الخاصة والزعماء واهل المراتب الكبرى . كذلك كان صاحب المظالم في قرطبة يجلس لسماع الشكاوى ضد الموظفين . وكانت النقود تضرب من معادن ثلاثة فكان الدينار من الذهب والدرهم من الفضة والفلس من النحاس. والدول المسيحية في الشمال كانت تستعمل النقود العربية. ومن المؤسسات الهامة في الاندلس ادارة البريد كما في الشرق .

كانت اسبانيا من الوجهة الاقتصادية من اغنى بلاد اوربا واكثفها سكاناً في ايام الخلافة الأموية . وقد كثرت ثروة الدولة واتسعت فعاش الخلفاء معيشة ترف وابهة وكانت الزراعة من اهم موارد تلك الثروة واغنى مناطقها سهل الاندلس الذي يسقيه نهر الوادي الكبير، والقسم الشرقي حول مدينة بلنسية . كانت معظم الاراضي في اول عهد الحكم الاسلامي ملكاً لعائلات الاشراف من القوط والعرب والبربر على اساس الملكية الواسعة وكان الامير الحاكم اكبر الملاكين .

غير ان الفلاحين الذين استخدموا في الاراضي وسموا مناصفين او شركاء كانوا يأخذون خمس المحصول لانفسهم واحياناً نصفه ، وكانت احوالهم واحوال العمال الزراعيين وصغار الملاكين احسن مما كانت عليه في زمن القوط قبل الفتح . وبعد ان ترفع العرب الفاتحون في اول الامر عن الاشتغال بالاعمال الزراعية فانهم اهتموا بها فيما بعد ولم يلبثوا ان اضافوا الى معلومات الاسبان الزراعية اختبارات الشعوب الاسيوية والافريقية . وكان اهم مايزرع في بلاد الاندلس الحبوب وخاصة القمح ومن اشهر انواعه واجودها قمح منطقة طليطلة . غير ان الجغرافيين يمثلون لنا اسبانيا الاسلامية كبستان يزرع الاشجار المثمرة والفواكه اكثر من زرع الحبوب ، فقد زرع الزيتون بكثرة وفي مناطق مختلفة وكذلك اتسعت زراعة الكرمة ، وتوزعت سائر الفواكه من تفاح وتين وغيرهما في اجزاء الساحل من اشبونة حتى جزر البليار . واهم ما ادخله المسلمون الى الاندلس زراعة الارز والرمان والدراق والمشمش والبرتقال المر ، وقصب السكر ومركز انتاجه الرئيسي في منطقة اشبيلية ، والقطن والزعفران . وقد زرع الكتان في منطقة البيرة والقطن في منطقة اشبيلية . ونظمت الحدائق الغناء ومن اجملها الحديقة المعروفة بجنة العريف Generalife في غرناطة . ومن مواد الثروة الزراعية الاخشاب واهمها السنديان والصنوبر . وسمحت المراعي الغنية على سفوح الجبال وشواطىء الانهار بتربية المواشي . واحتاجت زراعة الاشجار المثمرة بنوع خاص الى وضع نظام للري وكانت بعض اساليب الري معروفة عند القوط الا ان العرب زادوا في تحسينها وترقيتها وادخلوا اساليب زراعية من غربي آسيا واستعملت خاصة في المناطق الشرقية الجافة على ساحل البحر المتوسط ولا تزال في اللغة الاسبانية كلمات كثيرة تتعلق بالزراعة والري من اصل عربي ومنها السد Asud والناعورة Noria ، والقادوس Argadus ، والساقية Acequia والبحيرة Albuera والبركة Alberca والجب Algibe والغابة Algaba والغيضة Algaida . وقد كانت توجد مصلحة خاصة تسمى وكالة الساقية تهتم بتفتيش شؤون الري .

واحتفظت كثير من المحاصيل الزراعية باسمائها المعروفة عند العرب مثل الرز Arroz ، السكر Azucar ، الزيت Aceite ، الرمان Romania ، القطن Algodon ، الزعفران Azafran . وانتقلت هذه الكلمات الى بعض اللغات الاوربية الأخرى كما انتقلت كلمة شراب Jarabe (وبالانكليزية Sherbet) .

وقد لعبت الصناعة دوراً هاماً في حياة الاندلس الاقتصادية وكانت تعمل لطبقات الخاصة بالدرجة الاولى فهي اذاً صناعة ترف وابهة . واهم مافيها صناعات الديبج والاثاث والرياش كما في بلاد الخلافة الشرقية وكما في بيزنطة عاصمة الامبراطورية البيزنطية التي عاصرتها . وقد توفرت فيها المواد النسيجية الاولية ومواد الصباغة . وادخل العرب تربية دودة الحرير واشتهرت قرطبة وملقة والمرية بنسج الصوف والحرير . وكانت تحضر في اسبانيا انواع الفراء وبعضها كان يصدر الى البلاد الاخرى. وذكر ياقوت ان مدينة سرقسطة كانت مركز هذه الصناعة . ومن اهم ما اشتهرت به اسبانيا صناعة الجلود التي انتقلت الى مراكش ثم الى انكلترا وفرنسا وقد اتخذت هذه الصناعة اسم قرطبة Cordovan (Cordonnerie بالافرنسية) واسم مراكش Morocco (Maroquinerie بالافرنسية) . ومن الصناعات المشهورة الخزف والزجاج وقد ذكر الجغرافيون الخزف المذهب من صنع ملقة وقطع الزجاج المكعبة الملونة التي كانت تدخل في الفسيفساء على الجدران ، وقطع الخزف البراقة المستعملة في رصف الارض . واكتشف حكيم الاندلس عباس بن فرناس (في النصف الثاني من القرن التاسع م) طريقة صنع الكريستال . وكانت الاندلس تنافس ارقى البلدان ومن جملتها بيزنطة في صنع الذهب والفضة والحجارة الكريمة ، وكانت طليطلة كدمشق مشهورة بسيوفها وانتقل تنزيل الفولاذ وغيره من المعادن بالفضة والذهب من دمشق الى الاندلس ولا تزال تصنع طليطلة الحلي المزخرفة بخيوط الذهب وتنقش عليها بعض عبارات عربية مشهورة منها « ولا غالب الا الله » . واشتهرت ثروة اسبانيا المعدنية منذ اقدم العصور واستثمرها الرومان وكان نشاط العرب في

استخراجها عظيماً بعد أن اهملت بصورة عامة في عهد القوط . وقد استخرجوا الذهب والفضة من مناجم الغرب Algarve وجيان والذهب من رمال نهر التاجة والفضة من مناطق مرسية وقرطبة والحديد من المنطقة الكائنة بين قرطبة واشبلية شمالي نهر الوادي الكبير والزئبق من منطقة المعدن (Almaden) ومعناها المنجم وكان يستثمرها قبلهم الرومان . كذلك استخرج العرب القصدير والرصاص والنحاس والملح والكحل من مناطق مختلفة .

اما التجارة فكانت اكبر مراكزها مدينة قرطبة عاصمة الخلافة في الاندلس ومنها تتشعب الطرق الى سائر المدن والموانيء الاسبانية . وقد اختصت بعض الموانيء بالتجارة مع بلاد الشرق وأهم هذه الموانيء المرية التي وصلت الى درجة عظيمة من الازدهار بعد القرن التاسع م فضلاً عن انها كانت مركز الاسطول واهم مكان لبناء السفن في اسبانيا . وفي جنوب اسبانيا الغربي كانت اشبيلية مركز التجارة الرئيسي واصبحت في عهد ملوك الطوائف كالعباديين ثم المرابطين والموحدين تتمتع بما كان لقرطبة من أهمية تجارية وصناعية . وكانت تصدر القطن والزيتون والزيت وتستورد الأقمشة والعبيد والمغنيات. كذلك كانت ملقة تصدر السكر والتين . والصادرات كانت تصل الى الهند واواسط آسيا بطريق الاسكندرية والقسطنطينية . وعدا عن ذلك فان بلاد الاندلس كانت تتاجر مع المناطق الاسبانية في الشمال ومع جنوبي فرنسا . وكان للدولة حق المراقبة على التجارة والغرض الرئيسي لذلك جباية الضرائب والرسوم وكان للدولة موظف في كل مدينة مهمة يشرف على امور الصناعة والتجارة والاسواق ولا علاقة له بالامور المالية وكان يسمى المحتسب واحياناً يدعى صاحب السوق . وكان الصناع والتجار يشكلون كما في سائر مناطق الدولة الاسلامية نقابات على رأسها امين او عريف تعينه السلطة ويكون مسؤولاً امامها عن مخالفة قواعد التجارة او الصناعة ضمن كل نقابة . وكان افراد كل نقابة يشغلون سوقاً من الاسواق بحيث تكون حوانيتهم مجاورة بعضها لبعض . وبعض اصناف التجارة الكمالية كانت مراكزها اسواق

خاصة تدعى قيصرية Alcaiceria لها مدخل خاص وفيها ساحة كبيرة حولها اروقة حيث توجد الحوانيت . وقد تكون هذه الاسواق الخاصة ذات طبقتين او اكثر وتحتوي على غرف اعدت بشكل فنادق او خانات للتجار الغرباء . ولا تزال بعض هذه «القيصريات» موجودة كما في قرطبة وكذلك في بعض مدن الشرق . وقد بقيت كثير من الاصطلاحات العربية التي لها علاقة بالتجارة في لغة الاسبان وفي سائر اللغات الاوربية حتى اليوم ومنها الصك check والمخزن magasin (وفي الاسبانية Almacen) والتعريف Tariff ، والخزانة Alacena ، والكراء او الاجرة Alquiler ، والعور averia ، والديوان بمعنى الجمرك aduana (douane بالافرنسية) والفندق fonda ، والطاحونة بمعنى مكان صنع الخبز وبيعه tahuna ؛ والحاجة بمعنى الحلي alhaja ، والنقال بمعنى الحمال anacalo هذا فضلاً عن بعض اسماء الاصناف التجارية والمحاصيل التي ذكرناها آنفاً . وهنالك الاصطلاحات البحرية التي من أصل عربي مثل الاميرال (أمير البحر) ودار الصناعة arsenal والغراب corbeta او corvette بالافرنسية وهي نوع من السفن البحرية، والجلبة او الزورق chalupa (chaloupe, shallop) .

وظهرت آثار ثروة الاندلس وازدهارها الاقتصادي في مدينة قرطبة التي كان يزيد سكانها عن نصف مليون وكان فيها سبعمائة مسجد (وحسب قول ابن عذاري ثلاثة آلاف) وثلاثمائة حمام ، وبلغت واردات الخليفة ستة ملايين وربع من الدنانير كان ينفق ثلثها على الجيش وثلثاً آخر على الاشغال العامة . وكان القصر في شمال غربي قرطبة ويحوي أربعمائة غرفة وجناحاً ، ومن جملة سكانه العبيد والحرس . وقد بدأ عبد الرحمن الناصر بناءه في عام ٩٣٦ وسماه الزهراء باسم إحدى جواريه ، وفيه أعمدة من القسطنطينية وأحواض بتماثيل من ذهب ورخام من قرطاجة ، واشتغل فيه عشرة آلاف عامل لمدة عشرين سنة ، وزخرفه خلفاء عبد الرحمن ، ويمكن مشاهدة بقاياه . وكان للخليفة حرس من الصقالبة عددهم ٣٧٥٠ حسب قول ابن عذاري ، وجيشه الدائم كان عدده نحو

مائة ألف . وصار اسم الصقالبة يطلق على جميع العبيد الأجانب من فرنسا ولومبارديا وصقلية، وكان قبلا يطلق على الأسرى والعبيد فقط الذين يأتي بهم الجرمان من بلاد الصقالبة ويبيعونهم للعرب . وكانوا يؤخذون صغاراً ويستعربون ويستعين بهم الخليفة للقضاء على المؤامرات وعلى نفوذ الارستوقراطية العربيـة . وكان لقرطبة إحدى وعشرون ضاحية ، وأصبحت تضاهي القسطنطينيـة وبغداد كمركز ثقافي، وكان فيها سبعون مكتبة وعدد كبير من مخازن الكتب ، وشوارعها كانت مرصوفة ومضاءة بالأنوار ، بينما كانت شوارع باريس حتى بعدعدة قرون ملأى بالطين . وكان حكام الدول الاسبانية في الشمال عندما يحتاجون الى طبيب أو معمار أو مغن يطلبونه من قرطبة التي بلغ من شهرتها أن لقبتها شاعرة المانية في أحد أديرة سكسونيا « زينة الدنيا » (١) .

وأما من الوجهة الاجتماعية فقد حصل التمازج بين العرب والبربر الفاتحين من جهة وبين العناصر المغلوبة في اسبانيا من جهة أخرى بتأثير نفس العوامل التي رأيناها في سائر بلاد الخلافة . فقد حصل الاسترقاق والتزاوج وما تبعها من عملية التوليد، ودخل كثير من الاسبان في الاسلام ، وسكن الفريقان جنباً الى جنب فحصلت عملية الامتزاج . وقد اقتبس العرب شيئاً من الحضارة القوطية والاسبانية عن طريق المولدين والمستعربين خصوصاً في نواحي الادارة والفنون واضافت نساء الاسبان اللواتي دخلن بيوت العرب والبربر بعض التأثيرات في الحياة العربية ولكنها كانت على كل حال اضعف من تأثيرات العنصر العربي على العناصر الاسبانية . كان أثر العرب قويا في ناحية الحياة اليومية العملية وفي نواحي التنظيم القانوني

---

(١) انظر : E. Lévi - Provençal : La civilisation arabe en Espagne. Paris. 2 me édition 1948 p.114.

راجع المؤلف نفسه بشأن حياة اسبانيا الاقتصادية وطبقاتها الاجتماعية وسكانها ووصف قرطبة:
L'Espagne musulmane au X me siècle. Paris 1922 .

والديني وهذا مايفسر لنا سبب احترام الدول المسيحية المؤسسات الموجودة في المناطق التي كان يسكنها المسلمون . ومن جهة اللغة والادب فان اللغة العربية انتشرت في اسبانيا واصبحت معروفة ومستعملة حتى في المناطق الشمالية مثل ايون وقشطالة ونافار . وقد اخذت لغات « الرومانس » التي كانت حينذاك في طور التكوين عدداً من المصطلحات العربية . ودخلت الكلمات العربية عموماً ومعها اداة التعريف مثل Alhaja (الحاجة بمعنى الحلية) ثم اضيفت اليها اداة التعريف الاسبانية فاصبحت La alhaja . على انه لايجب الظن ان كل كلمة تبـدأ باداة التعريف Al هي من أصل عربي فهناك alambre (الشريط) و Almendra (اللوز) مثلاً من اصل لاتيني . والكلمات المأخوذة من العربية تتعلق عموماً بشؤون الحياة اليومية . وقد اتينا على ذكر ما له صلة بالزراعة والتجارة . وهنالك كلمات اخرى، منها السطيحة Azotea ، والقبة بمعنى الغرفة او جانب منها Alcoba ، والخمرة بمعنى السجاد Alfombra ، والمخدة Almohada ، والبطة بمعنى لباس خاص Bata ، والبنّاء Albanil ، والقاضي بمعنى حاكم البلدة Alcalde ، وفلان Fulano وشاء الله (بمعنى ان شاء الله) Ojala . ثم هنالك كلمات برتغالية من اصل عربي مثل Alcatifa (القطيفة) ، و alfaiate (الخياط) ، وهنا يلاحظ ان حرف F يحل محل حرف الخاء او الحاء ، و Alfaça (الخس) ، و Safara (صحراء) و Alfandego (الفندق بمعنى الجمرك) [1] . وقد كتب رجل اسمه Pedro de

---

(١) راجع بشأن هذه الكلمات الفصل الذي كتبه J. B. Trend عن اسبانيا والبرتغال في كتاب تراث الاسلام . الطبعة الانكليزية ص ١ — ٣٩ . راجع ايضاً :

R. Dozy et W. H. Engelmann : Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe. 2 me éd. Leyden 1869.

K. Lokotsch: Etymologisches Worterbuch des europaischen Worter orientalischen Ursprungs. Heidelberg 1927.

وعنوان الكتاب الالماني الاخير هو: قاموس اشتقاقي للكلمات الاوربية من اصل شرقي . طبع هيدلبرغ ١٩٢٧ .

Alcala في عام ١٥٠٥ كتابين عن اللغة العربية الدارجة في غرناطة. ومن جملة المفردات التي ذكرها كلمة axems (الشمس وكان حرف x لا يزال يلفظ كحرف الشين كما في البرتغالية اليوم) وكلمة açoltan (السلطان). والاسماء الجغرافية في اسبانيا تحوي اثراً بيناً للكلمات العربية من جبل ورأس وجنة ونهر ووادي وغابة وقلعة وغير ذلك. فكلمة جبل دخلت مثلا في مكان اسمه Gibralfaro وفي Gibraltar (جبل طارق)، وكلمة المنارة دخلت في اسم سلسلة Sierra de Almenara، وكلمة الطرف بمعنى الرأس دخلت في اسم Trafalgar. والجزيرة نراها في اسم مدينة Algeçiras، والمدور نراه في اسم Almodovar del Campo. والوادي نراه في اسماء الانهار مثل الوادي الكبير Guadalquivir او اسماء الجبال مثل Guadarrama (وادي الرملة). ومن الكلمات العربية التي دخلت في اسماء جغرافية في اسبانيا: البحيرة Albuera والحمة Alhama والمعدن Almaden، والمدينة كما في اسم Medina del Campo، والضيعة Aldea، والقرية Alcaria والسوق Azoque ومنه اتى اسم حي في طليطلة Zocodover (اي سوق الدواب)، والقلعة كما في اسم Alcala de Henares وفي Calatayud (قلعة ايوب)، والقصر Alcazar، والقصير Alcocer، والقنطرة Alcantara، والرابطة Rabida، والطليعة Atalaya، والرصيف Arrecife.

لم يكن للاندلس شأن في علوم اللغة والادب كشأن العراق ومع ذلك فقد ظهر فيها جماعة من كبار العلماء والادباء من اشهرهم ابو علي القالي م ٩٦٧ الذي تعلم في بغداد وكان استاذاً في جامعة قرطبة وكتب « الامالي » (طبعت في بولاق ١٣٢٤ هـ)؛ وتلميذه محمد الزبيدي م ٩٨٩ وقد ولد في اشبيلية واصله من حمص واشرف على تربية الخليفة هشام بن الحكم ثم عينه هشام قاضياً في اشبيلية ووضع جدولاً باسماء علماء اللغة حتى زمنه. واشتهر ابو زكريا يحيى بن داود بتأسيس علم النحو العبري وعاش في قرطبة في القرن الحادي عشر واخذ عناصر اساسية من النحو العربي. وفي الادب ظهر ابن عبد ربه م ٩٤٠ وكان شاعر الخليفة عبد الرحمن

الناصر واهم آثاره العقد الفريد (طبع في القاهرة ١٣٠٢ ﻫ في ثلاث مجلدات) الذي يأتي بعد الاغاني بين المؤلفات المتعلقة بتاريخ العرب الادبي . على ان اهم علماء اسبانيا الاسلامية ومفكريها كان ابن حزم م ١٠٦٤ وهو من اخصب كتاب العربية وقد عاش في أواخر عهد الخلافة كوزير ثم اعتزل الوظائف وينسب اليه نحو ٤٠٠ كتاب في علوم الدين والتاريخ والشعر ومن كتبه « طوق الحمامة » وهو مجموعة اشعار في الحب الافلاطوني (ترجمه ونشره A.R.Nykl في باريس ١٩٣١). واشهر مؤلفاته الباقية « الفصل في الملل والاهواء والنحل » (طبع في القاهرة ١٣٤٧ ﻫ) ويعتبر ابن حزم من اول الكتاب في الديانة المقارنة . وازدهرت العلوم الادبية في عصر ملوك الطوائف وظهرت مراكز مثل اشبيلية وغرناطة وطليطله ونافست قرطبة . ونقل المستعربون الاسبان عناصر الحضارة العربية من قرطبة الى سائر المناطق واخذت تظهر نواحي الشبه بين قصص غربي اوربا وبين الحكايات العربية وبعضها من اصل فارسي هندي . وترجمت كليلة ودمنة للملك قشطلة وليون الفونسو الحكيم م ١٢٨٢ ثم الى اللاتينية، وكان من مصادر القصص لافونتين احدى ترجمات كليلة ودمنة الى الافرنسية. وبعض قصص الاسبان الموضوعة سجعاً تشبه المقامات وتدور حول بطل مغامر وتؤخذ منها عظات اخلاقية . وقد كتب الدون جوان مانويل (١٢٧٢ - ١٣٤٩) من اقارب الملك الفونسو الحكيم كتاباً يطلب فيه بطل القصة نصائح من مستشاره فيجيبه بقصص تشرح حكمه ونصائحه وهي من اصل شرقي وتحوي احياناً عبارات بالعربية انما مكتوبة بالحرف اللاتيني . وهنالك كاتب مجهول لاقدم كتاب اسباني في الفروسية في مطلع القرن الرابع عشر وقيل انه اخذ من اصل كلداني (بمعنى عربي) واسم الفارس Ciffar بمعنى سفر وزوجته Grima اي كريمة . وهنالك كاتب مجهول من نفس العصر وضع قصة يوسف شعراً Poema de Yuçuf وكلماته بالاسبانية انما الكتابة بالعربية وهو نموذج من الادب المعروف بالاعجمي (Aljamiado) وكان يستعمل الاسبان المتكلمون بالعربية هذه الكتابة ثم استعملها الموريسكو للتعبير عن الكلمات

الاسبانية بكتابة عربية(١). كذلك اثرت الآداب العربية بشكلها على تحرير الادب الغربي من التقاليد الضيقة وظهرت في الادب الاسباني بما فيه من صور وخيال اشكال عربية كما يتضح في حكاية دون كيخوت التي وضعها سرفانتس وكان مؤلفها اسيراً في الجزائر. وظهر ميل شديد الى الشعر في الاندلس وكان بعض الحكام والامراء شعراء ومن اشهرهم المعتمد بن عباد. وكان في بلاط الملوك شعراء يصطحبونهم اينما ذهبوا. ومن الشعراء ابن عبد ربه وابن حزم وابن الخطيب وابن زيدون م ١٠٧١ الذي يعتبر اعظم شعراء الاندلس وكان مستشاراً عند بني جوهر ثم فقد مكانته ربما لحبه الشديد لولادة ابنة المستكفي، ثم عينه المعتضد بن عباد وزيراً وقائداً وعرف بلقب ذي الوزارتين (السيف والقلم) وبتأثيره ارسل المعتمد جيشاً الى قرطبة وانتزعها من بني جوهر في ١٠٦٨. وكان ابن زيدون كاتباً بارعاً وهاجم في احد كتبه ابن عبدوس وزير بني جوهر ونظم قصائده الجميلة لولادة التي توفيت في ١٠٨٧. وكانت نساء اسبانيا تظهرن ميلاً للشعر والادب ويقول المقري ان الفصاحة فيهن غريزة ثانية. وهنالك الشاعر ابن خفاجة م ١١١٩ الذي عاش قرب بلنسية. وكان شاعر اشبيلية ابن هاني م ٩٧٣ الذي مدح الخليفة المعز الفاطمي. وظهرت اوزان جديدة في الشعر وتحمس الشعراء بجمال الطبيعة وتحرروا من القيود التقليدية وظهر شعور رومانطي سبق فروسية العصور الوسطى. وفي مطلع القرن الحادي عشر كان الزجل والموشح قد ظهرا في الاندلس. وكان الموشح يغنى والموسيقى والغناء يسيران مع الشعر. وبلغ الزجل منزلة شكل ادبي وكان قبلاً من اختصاص المرتجلين (المعروفين اليوم بالقوالين) والذي عمل على رفعه الى هذه المنزلة ابو بكر بن قزمان م ١١٦٠ من قرطبة وكان يتنقل ويمدح العظماء. وقد اخترع الموشح في الاندلس ومنها انتقل الى الشرق

---

(١) انظر:

A.R. Nykl : A Compendium of Aljamiado Literature. Paris,1928.

واهم ناظمي الموشحات ابو العباس التوطيلي (نسبة الى Tudela) م ١١٢٦ وكان كفيف البصر ومدح علي بن يوسف بن تاشفين ، وابراهيم بن سهل الاشبيلي م ١٢٦٠ . ومحمد بن يوسف ابو حيان الغرناطي م ١٣٤٤ الذي كان وضع ايضاً كتب النحو لاجل اللغات الفارسية والتركية والقبطية والحبشية . وقد اعجب نصارى الاسبان بهذه الاشكال الشعرية وتطورت الى الاشعار الاسبانيـة الشعبية واستعملت في الاغاني الدينية . ويقول القزويني في الآثار الباقية ان الحراثين في جنوبي البرتغال كانوا يرتجلون الاشعار من نوع الزجل والموشح، وفي فرنسا أخذ شعراء بروفانس ينظمون القصائد العاطفية في أواخر القرن الحادي عشر وفيها صور خيالية وقلد التروبادور Troubadours شعراء الزجل في الجنوب . واغنية رولان هي أقدم أثر للادب الاوربي قبل ١٠٨٠ وتشير الى ظهور حضارة غربي أوربا وظهورهـا مدين للعلاقات الحربية باسبانيا الاسلامية .

وكان التعليم منتشراً في الاندلس ، حتى أن الكثيرين كانوا يعرفون القراءة والكتابة . والتعليم الابتدائي كان مبنياً على قراءة القرآن وعلى الشعر والنحـو وكان للاناث كما للذكور ، والتعليم العالي كان يتناول علوم الدين والفلسفة والنحو والشعر والتاريخ والجغرافية . ومن المدن الجامعية قرطبة واشبيلية وغرناطة وملقة وفي قرطبة كانوا يعلمون الطب والرياضيات والفلك . واسس جامعة غرناطة يوسف ابو الحجاج م ١٣٥٤ من النصريين وفي عهده عاش لسان الدين ابن الخطيب . وكانت تقام حفلات خطابية وشعرية في الجامعات التي كان من جملة طلابها جماعة من الاجانب يفدون من مناطق الشمال . كذلك ازدحمت المكاتب في الاندلس وبدأ بتأسيس مكتبة قرطبة محمد الاول م ٨٨٦ واصبحت اعظم المكاتب في عهد الحكم الثاني كما انه كان لكثيرين مكاتب خاصة . وكانت قرطبة اعظم سوق للكتب . وادخل العرب الى الاندلس صناعة الورق من الشرق بطريق مراكش في القرن الثاني عشر وكانت شاطبة Jativa مركز صنعه . وقد ذكرنا (انظر ص ١٥٤) ان كلمة ريم ream الانكليزية و rame الافرنسية اتت من resma الاسبانية من

اصل عربي (رزمة) . كذلك صنع الورق في ايطاليا وربما ادخله العرب من صقلية . ثم انتشرت صناعة الورق في فرنسا وسائر بلاد اوربا . وبعد زوال حكم العرب بقيت بعض الكتب فجمعها فيليب الثاني ملك اسبانيا (م ١٥٩٨) من المكاتب العربية وشكلت نواة مكتبة الاسكوريال قرب مدريد واضيف اليها نحو اربعة آلاف مجلد من مكتبة الشريف زيدان سلطان مراكش الذي هرب بمكتبته من بلاده ووقعت بيد القرصان الاسبان في القرن السابع عشر ودخلت الاسكوريال (١) .

لم يتعلم العرب الشيء الكثير من سكان اسبانيا لان البلاد لم تكن تشبه المناطق الشرقية في غربي آسيا من حيث المستوى العلمي . وكان علم التاريخ من الفروع الهامة التي نشأت في اسبانيا الاسلامية ومن اقدم المؤرخين ابو بكر بن عمر المعروف بابن القوطية م ٩٧٧ صاحب تاريخ فتح الاندلس (ترجمه جوليان ريبيرا Ribera الى الاسبانية . مدريد ١٩٢٦) وكان ايضاً من علماء النحو وله رسالة عنوانها « كتاب الافعال » (نشره جويدي Guidi في ليدن ١٨٩٤) . وهنالك مؤرخ آخر معروف باسم ابن حيان من قرطبة م ١٠٧٦ وله نحو خمسين مؤلف منها « المقتبس في تاريخ رجال الاندلس » (نشر في باريس ١٩٣٧) . واهم كتاب عن الموحدين وضعه في ١٢٢٤ عبد الواحد المراكشي « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » (نشره دوزي في ليدن ١٨٨١ وترجمه فانيان Fagnan في الجزائر ١٨٩٣) ومن كتاب التراجم عبد الله بن محمد بن الفرضي الذي ولد في قرطبة ومات فيها ١٠١٣ وسافر الى بلاد الشرق وعين قاضياً بعد ذلك في بلنسية ومن كتبه الباقية « تاريخ علماء الاندلس » (طبع في مدريد ١٨٩٠) . واتم تراجم علماء الاندلس ابن بشكوال م ١١٨٣ صاحب « الصلة في تاريخ ائمة الاندلس » (طبعه كوديرا

---

(١) وضع فهرس هذه المكتبة درنبورغ في مجلدين بعنوان المخطوطات العربية في الاسكوريال . باريس ١٨٨٤-١٩٠٣ .

Codera في مدريد ١٨٨٢) وكان من سكان قرطبة . ثم يأتي ابو عبد الله محمد بن الابار م ١٢٦٠ من بلنسية فيكتب « التكملة لكتاب الصلة » (وقد نشرت اجزاؤه من قبل علماء مختلفين في مدريد والجزائر) . كذلك كتب ابن الابار « الحلة السيراء » وهي من كتب التراجم . وهنالك مجموعة اخرى من التراجم وضعها الضبي م ١٢٠٣ من مرسية وعنوانها « بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس » (نشرها ريبيرا وكوديرا في مدريد ١٨٨٥) . وكتب ابو القاسم الطليطولي م ١٠٧٠ « طبقات الامم » في تاريخ العلوم (نشره الاب لويس شيخو في بيروت ١٩١٢) وكان قاضيا في طليطلة في عهد بني ذو النون كما كان عالماً ومؤرخا ورجع الى مؤلفه القفطي وابن أبي اصيبعة . وأهم مؤرخي العرب وادبائهم في الاندلس والمغرب لسان الدين ابن الخطيب وابن خلدون . وكان ابن الخطيب م ١٣٧٤ من اصل سوري وكان يشغل وظيفة ذي الوزارتين في عهد الدولة النصرية ثم غادر غرناطة بسبب المؤامرات وقتل في فاس وكان آخر سياسي وشاعر ومؤلف مهم في اسبانيا الاسلامية وقد كتب المقري صاحب كتاب نفح الطيب قسما من تاريخه عن ابن الخطيب واصل المقري من تلمسان انما وضع كتابه في دمشق في ١٦٣٠ ومن مؤلفات ابن الخطيب الكثيرة التي بقيت « الاحاطة في اخبار غرناطة » (طبع في القاهرة في جزئين مختصرين ١٣١٩ ﻫ) . اما الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ١٣٣٢ —١٤٠٦ فقد ولد في تونس من اسرة ترجع بنسبها الى كندة انما سكنت اسبانيا من القرن التاسع حتى الثالث عشر . وتولى ابن خلدون الوظائف في فاس ثم في غرناطة حيث حسده ابن الخطيب وعاد الى المغرب واعتزل في قلعة ابن سلامة قرب تلمسان حيث بدأ كتابة تاريخه . وفي عام ١٣٨٢ اتجه الى مكة ولكنه توقف في مصر وحاضر في الجامع الازهر ثم اصبح قاضياً في عهد برقوق وذهب لمقابلة تيمورلنك في دمشق في عهد الناصر فرج خلف برقوق في ١٤٠١ وعنوان تاريخه العام « كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر » (طبع في القاهرة ١٢٨٤ ﻫ في ٧ مجلدات) . ولهذا التاريخ مقدمة في مجلد

خاص اشتهر بها ابن خلدون لانه عرض فيها لاول مرة نظريات تتعلق بظهور الامم وسقوطها والمؤثرات التي تؤثر عليها وبتطور التاريخ ومهمته ولذلك يعتبر مؤسس علم الاجتماع واهم فيلسوف للتاريخ في الاسلام (١).

وقد انجبت الاندلس جماعة من اشهر الجغرافيين في الاسلام وفي العصور الوسطى عموماً واهمهم البكري في القرن الحادي عشر والادريسي في القرن الثاني عشر. وعاش هذا الاخير معظم ايامه في صقلية ولكنه من اصل اسباني عربي. اما البكري فقد عاش في قرطبة وتوفي فيها عام ١٠٩٤ وكتابة المشهور « المسالك والممالك » وقد بقي قسم منه. ولم تكن المؤلفات مبتكرة بعد الادريسي. وظهر جماعة من الرحالة من اهمهم ابن جبير الذي ولد في بلنسية وقام برحلة من غرناطة الى مكة وزار بلاد الشرق بين ١١٨٣ و١١٨٥ في عصر الحروب الصليبية ثم قام برحلات اخرى الى الشرق آخرها في ١٢١٧ وتوفي في الاسكندرية.(٢) والكتاب الذى وضعه يتعلق بالرحلة الاولى واهميته كبيرة من حيث الاخبار والمعلومات التي يحتويها. وهنالك الرحالة ابو حامد المازني م ١١٧٠ من غرناطة وقد زار روسيا وشاهد النشاط التجاري في وادي الفولغا وكتب « تحفة الالباب » (نشرته المجلة الاسيوية في باريس ١٩٢٥). واشهر الرحالة محمد بن عبدالله بن بطوطة المراكشي (م ١٣٧٧ في مراكش). فقد قام باربع رحلات الى مكة وزار العالم الاسلامي باسره ووصل الصين شرقاً وقلب افريقيا جنوباً والقسطنطينية شمالا. وعنوان كتابه « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار »(نشر وترجم في باريس ١٨٧٩ — ٩٣). ومن المدافعين عن نظرية كروية الارض ابو عبيدة

---

(١) نشر المقدمة المستشرق Quatremère في باريس ١٨٥٨ وترجمها de Slane في باريس ١٨٦٨ كما ترجم القسم الاخير من التاريخ ويتعلق بتاريخ البربر وسلالات شمالي افريقيا.

(٢) نشر رحلته المستشرق دي غويه في ليدن ١٩٠٧ وترجمها الى الانكليزية Broadhurst بعنوان : The Travels of Ibn Jubayr. London, 1952.

مسلم البلنسي في القرن العاشر . وقد حافظ العرب على هذه النظرية حتى عصر الاكتشافات . واحتفظ العرب بالفكرة الهندية عن قمة الارض « الارين » اي ان العالم له مركز على ابعاد متساوية من الجهات الاربع وانتقلت الفكرة الى مؤلف لاتيني عام ١٤١٠ .

وكان فضل العرب على الغرب عظيما في الفلك والرياضيات . ونالت الدراسات الفلكية في اسبانيا اهتماماً خاصاً بعد منتصف القرن العاشر. واعتقد معظم الفلكيين بتأثير النجوم على الاحداث البشرية بين الولادة والوفاة . واستوجبت دراسة هذا التأثير اي علم التنجيم تعيين الاماكن مع طولها وعرضها ولذلك ادى التنجيم الى دراسة الفلك وبواسطة اسبانيا انتقلت المعلومات الى الغرب لان المؤلفات الفلكية الاسلامية ترجمت الى اللاتينية وجداول الفونسو العاشر (في القرن الثالث عشر) كانت نتيجة تطور الفلك العربي . وقد بنى الفلكيون العرب في اسبانيا على اساس المعلومات الآتية من الشرق وانتقدوا تصوير بطليموس للحركات السماوية . ومن اهم الفلكيين ابو القاسم مسلمة المجريطي (ولد في مدريد وعاش في قرطبة وتوفي عام ١٠٠٧) وهو من اول العلماء المعروفين في الاندلس . وقد نشر وصحح زيج (اي الجداول الفلكية) الخوارزمي وحول اساسها من عصر يزدجرد الى العصر الهجري وترجم ادلارد اوف باث جداول الخوارزمي الى اللاتينية في ١١٢٦ ثم بعد بضع سنوات ترجم بلاتو اوف تيفولي Plato of Tivoli زيج البتاني الموضوع نحو عام ٩٠٠ الى اللاتينية ايضاً . وفي عهد الفونسو العاشر ترجم هذا الزيج رأساً من العربية الى الاسبانية . وكان المجريطي يعرف بالحاسب لعلمه في الرياضيات وهو الذي ادخل كتابات اخوان الصفا الى اسبانيا او ربما تلميذه ابو الحكم عمرو الكرماني م ١٠٦٦ . وهنالك جداول طليطلة التي وضعت على اساس دراسات وملاحظات قام بها فلكيون مسلمون ويهود منهم ابو اسحق الزرقالي (Arzachel في اللاتينية) . وفي هذه الجداول معلومات جغرافية مأخوذة من بطليموس والخوارزمي وقد ترجمها في القرن الثاني عشر جرار الكريموني . كذلك نرى في

القرن الثاني عشر مؤلفات ريمون المرسيلي وقد اخذت من جـداول الزرقالي الذي قدر طول البحر المتوسط بنحو ٤٢ درجة بينما جعلها بطليموس ٦٢ درجة . وكان الزرقالي اعظم راصد للنجوم في عصره ووضع اسطرلابا متقناً سماه الصفيحة ويستشهد العالم كوبرنيك فيما بعد بالزرقالي والبتاني . وهنالك جابر بن افلح صاحب « كتاب الهيئة » الذي ترجمه جيرار الكريموني وقد انتقد بطليموس وضمن كتابه فصلا هاماً عن المثلثات المسطحة والمثلثات الكروية. وكان البتاني من قبله قد اكتشف الافكار الاولى المتعلقة بالنسب المثلثة كما نستعملها اليوم . فعلم المثلثات كعلم الجبر والهندسة التحليلية اسسه العرب الى حد بعيد . ومن اهم الفلكيين المتأخرين في اسبانيا نور الدين البطروجي Aipetragius باللاتينية م ١٢٠٤) تلميذ ابن الطفيل وقد ترجم مؤلفه « كتاب الهيئة » الى اللاتينية ميشيل سكوت Scot في ١٢١٧ وكذلك ترجم الكتاب الى العبرية في ١٢٥٩ وفيـــه وصف الاجرام السماوية وعناصر من النظام الذي وضعه ارسطو ويمثل هذا المؤلف ذروة الحركة المعاكسة لبطليموس بين المسلمين . وفي نهاية القرن الثاني عشر ترجمت مؤلفات كثيرة لارسطو من العربية الى اللاتينية في الفلك وغيره . ومن آثار العرب اسماء النجوم من اصل عربي في اللغات الاوربية مثل العقرب والجدي والطاير والذنب والفرقد. كذلك ترك العرب تعابير فنية مثل السموت azimuth والنظير nadir والسمت zenith . وهنالك اثر عربي في المفردات الرياضية مثل الجبر وفي التعابير العربية التي ترجمت الى اللاتينية مثل الجذر الاصم الذي اصبح surd (ومعناه اصم من اللاتينية) وكلمة الجيب في المثلثات وهي مأخوذة من السنسكريتية وترجمت الى اللاتينية Sinus . وكان الرياضي الانكليزي روبرت اوف تشستر Chester في منتصف القرن الثاني عشر اول من استعمل sinus معادلا لكلمة جيب العربية. وهنالك كلمة « صفر » التي ادخلها العرب مع الارقام الى اوربا فسهلوا الحساب العملي وكان الخوارزمي في القرن التاسع اول من اهتم باستعمال الارقام بدلا من

الحروف وقد ترجم مؤلفه عن الطريقة الهندية ادلارد اوف باث في القرن الثاني عشر وبقي هذا المؤلف في اللاتينية بينما فقد اصله العربي . ووضع المسلمون في اسبانيا في القرن التاسع « حروف الغبار » وتختلف في شكلها عن الهندية والبعض ينسبونها الى الهند والبعض يقولون انها من اصل روماني حيث عرفت قبل مجيء العرب الى اسبانيا . وكان البابا سلفستر الثاني في القرن العاشر اول من وصف حروف الغبار وكان قد عاش في اسبانيا وظهر بحثه بعد وضع اول بحث عربي في الموضوع بمائة سنة . والارقام الاوربية اليوم تشبه حروف الغبار اكثر من شبهها بالحروف الهندية . وكان انتشار الارقام العربية بطيئاً في اوربا وظلوا يستعملون الارقام الرومانية . وفي ايطاليا استعملت الارقام العربية لاول مرة في مؤلف كتبه ليوناردو فيبوناسي في ١٢٠٢ وقد اخذها عن معلمين مسلمين ومنذ ذلك الوقت حصل تقدم في علم الحساب .

وفي التاريخ الطبيعي وخاصة علم النبات اضاف العرب في اسبانيا معلومات كثيرة من وجهة نظرية وعملية . فقد صنفوا النبات على أساس ما ينمو بواسطة البذور وبواسطة الغرس ومن تلقاء نفسه . وقام الطبيب القرطبي ابو جعفر الغافقي م ١١٦٥ فجمع نباتات اسبانيا وافريقيا وأعطى أسماءها بالعربية واللاتينية والبربرية ووصفها . وعنوان كتابه الرئيسي «الادوية المفردة» الذي اقتبس منه ابن البيطار من بعده . وقد اختصر هذا الكتاب ابن العبري (ونشره تحت عنوان «منتخب كتاب جامع المفردات » المستشرق ما يرهوف وجرجي صبحي في القاهرة وترجماه الى الانكليزية) . وفي نهاية القرن الثاني عشر يظهر في اشبيلية ابو زكريا العوام الذي كتب أهم رسالة في العصور الوسطى عن الزراعة في كتاب « الفلاحة » حيث يصف ٥٨٥ نوعاً من النبات وزراعة نحو خمسين نوعاً من الاشجار المثمرة ، وقد أخذ معلوماته من اختبار المزارعين في اسبانيا ومن مصادر يونانية وعربية وفيه معلومات عن الاسمدة والتطعيم وبعض أمراض النبات وعلاجها . وأول من لفت

النظر الى هذا المخطوط في الاسكوريال العالم السوري ميخائيل الغزيري [١] . في مجموعته « المكتبة العربية الاسبانية في الاسكوريال » (طبع مدريد ١٧٦٠) . وقد نشر كتاب الفلاحة في مدريد ١٨٠٢ وترجم في باريس في ١٨٦٤ . وأشهر علماء النبات والصيدلة في اسبانيا والعالم الاسلامي كله عبد الله بن احمد بن البيطار الذي ولد في ملقة وتنقل في اسبانيا وشمالي افريقيا وعمل عند الملك الكامل الايوبي في مصر وارتحل الى سورية وكان من تلاميذه ابن أبي اصيبعة وفي ١٢٤٨ توفي في دمشق . وكتبه المعروفة هي « المغني في الادوية المفردة » والجامع في الادوية المفردة (نشر هذا الاخير في القاهرة ١٢٩١ ﻫ وترجم الى الالمانية ١٨٤٠ والى الفرنسية بعد ١٨٧٧) . وفي كتاب « الجامع » ذكر أدوية من عالم الحيوان والنبات والمعدن وهو اهم كتاب من نوعه في العصور الوسطى ويذكر فيه نحو ١٥٠ مؤلفاً منهم عشرون من اليونان .

وفي ناحية الطب اشتهر بعض الاطباء كفلاسفة مثل ابن رشد وابن ميمون . وكان لسان الدين بن الخطيب طبيباً عدا عن كونه مؤرخاً وكاتباً وقد وضع رسالة عنوانها « مقنعة السائل عن المرض الهائل » وتتعلق بالطاعون الذي كان يكتسح اوربا باسم « الموت الاسود » واظهر فيها مبدأ العدوى . وأهم جراح عربي ابو القاسم الزهراوي م ١٠١٣ طبيب بلاط الحكم الثاني وقد ولد في الزهراء قرب قرطبة ويعرفه اللاتين باسم Abulcasis وكتابه المشهور « التصريف لمن عجز عن التأليف » وفيه يختصر المعلومات الجراحية في عصره ويذكر كي الجروح وضرورة التشريح وغير ذلك . وقد ترجم القسم الجراحي الى اللاتينية جيرار الكريموني وطبعت منه طبعات مختلفة في بال ١٥٤١ وفي اكسفورد ١٧٧٨ وغيرهما . واستعمل ككتاب اساسي في الجراحة في سالرنو بايطاليا ومونبلييه في فرنسا وسائر مدارس الطب

---

(١) انظر الرسالة التي كتبها ميشيل البريدي بالافرنسية عن هذا العالم الذي ولد في طرابلس ١٧١٠ وعمل في مكتبة الاسكوريال قرب مدريد .

ويحوي نماذج عن الآلات الجراحية . ومن زملاء الزهراوي الطبيب اليهودي حسداي بن شبروط الذي ترجم كتاب الادوية لديوسكوريدس الى العربية بمساعدة راهب بيزنطي وارسل مخطوط الكتاب من قبل الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع كهدية الى عبد الرحمن الناصر . واشهر في العلوم الطبية ابو مروان بن زهر (Avenzoar) م ١١٦٢ في اشبيلية . وكان طبيباً ووزيراً في بلاط عبد المؤمن مؤسس سلالة الموحدين وترك ثلاث مؤلفات طبية اشهرها « التيسير في المداواة والتدبير » (ترجم الى العبرية في البندقية ومنها الى اللاتينية في ١٢٨٠ بمساعدة احد يهود البندقية) وقد ذكر ابن رشد في كتاب « الكليات » ان ابن زهر هو اعظم طبيب منذ عهد جالينوس . وانجبت أسرة ابن زهر ستة اجيال من الاطباء فقد اتى بعد ابي مروان ابنه ابو بكر محمد م ١١٩٨ وكان بارعاً في الادب والطب وكان طبيب ابي يوسف يعقوب المنصور من سلالة الموحدين في مراكش وسممه وزير منافس له . ومن الاطباء عبيد الله الباهلي من المرية الذي ذهب الى الشرق ودخل في خدمة محمود بن ملكشاه السلجوقي في ١١٢٧ واوجد له مستشفى متنقلاً وتوفي في دمشق عام ١١٥٤ .

كانت الفلسفة من اهم ميادين الحياة الفكرية في اسبانيا الاسلامية . وفي اسبانيا شكل المفكرون آخر حلقة في نقل الفلسفة اليونانية كما عرفوها وعرفتها بلاد الشرق الى الغرب بعد ان اضافوا اليها ناحية التوفيق بين الايمان والعقل وبين الدين والعلم . وبما ان الفلاسفة اعتقدوا ان فلسفة افلاطون وارسطو هي الحقيقة وان القرآن هو الحقيقة ايضاً فلذلك وجب التوفيق بينهما . ومن اهم مآتي المفكرين المسلمين في الشرق وفي الاندلس انهم وفقوا بين الفلسفة اليونانية وبين ديانة التوحيد ونقلوها الى اوربة وكان وصول هذه الافكار الجديدة الى اوربا ايذاناً بزوال العصور المظلمة . ومن اول فلاسفة الاندلس سليمان بن جابيرول (Avencebrol) م ١٠٥٨ في بلنسية وكان اول فيلسوف منهم علم الافلاطونية في الغرب وكان يشبه سلفه ابن مسرة م ٩٣١ الذي

ادخل الى الغرب نظاماً باطنياً للكتابة حيث تتخذ الكلمات معنى داخليا غامضاً لا يفهمه الا العارفون بالاسرار . وكانت فلسفة افلاطون قد اتخذت طابعاً شرقياًمنذ ايام فيلون الاسكندري في العصر الهلنستي والآن اتخذت بشكلها اليوناني الاسلامي طابعاً غربيا ونقلت الى اوربا. وكتاب ابن جابيرول المهم « ينبوع الحياة » وقد ترجم الى اللاتينية في ١١٥٠ ولعب دوراً في الحركة المدرسية. وله كتاب عنوانه « اصلاح الاخلاق » (نشره وترجمة ستيفن وايز Wise في نيويورك ١٩٠١) . وازدهر القرن الثاني عشر بعدد من الفلاسفة منهم ابو بكر محمد بن باجه Avempace الذي توفي في فاس ١١٣٨ وكان فيلسوفاً وعالماً وطبيباً ومفسراً لافلاطون وعاش في غرناطة وسرقسطة وانتقد آراء بطليموس في الفلك وكتب في الادوية والطب واثر على ابن البيطار وابن رشد . واهم كتبه الباقية « تدبير المتوحد » وقد بقي في موجز بالعبرية ويقول فيه ان غرض الفلسفة هو كمال النفس البشرية التدريجي الذي يحصل بالاتحاد مع الكائن الالهي . ثم يأتي ابو بكر محمد بن الطفيل م ١١٨٥ في مراكش وكان وزيرا وطبيباً لدى ابي يعقوب يوسف من سلالة الموحدين وخلفه في الوظيفة صديقه ابن رشد ، واشهر مؤلفاته « حي ابن يقظان » وهي قصة فلسفية من امتع القصص واكثرها ابتكاراً في ادب العصور الوسطى وترجمها الى اللاتينيـة ادوارد بوكوك Pococke في ١٦٧١ ونشرت في اكسفورد مع ترجمتها ، وترجمت الى الفرنسية في بيروت ١٩٣٦ وطبعت بأصلها العربي في القاهرة والقسطنطينية ١٢٩٩ هـ ثم ترجمت الى لغـات اوربية مختلفة كالهولندية والروسيه والاسبانية . ورأى فيها البعض اساساً لقصة « روبنصن كروزو » الانكليزية والفكرة الاساسية فيها هي ان القدرة البشرية يمكن أن تبلغ معرفة العالم الاسمى بدون مساعدة خارجية وان تكتشف بالتدريج اعتمادها على الكائن الاعلى . واعظم فيلسوف اسلامي من حيث تأثيره على الغرب ابو الوليد محمد بن رشد Averroes (توفي ١١٩٨ في مراكش) وكان فلكيا وطبيباً وشارحاً لارسطو . وقد ولد في قرطبة واصبح قاضي اشبيلية في ١١٦٩ ثم

في ١١٨٢ خلف ابن الطفيل في مراكش كطبيب ابي يعقوب يوسف ولكنه نفي في عهد ابنه ابي يوسف المنصور واتهم بالهرتقة في ١١٩٤ ثم اعيد وقبره في مراكش. واهم مؤلفات ابن رشد الطبية موسوعة اسمها الكليات في الطب (colliget باللاتينية) ويذكر فيها مبدأ عدم الاصابة مرتين بالجدري ، ووظيفة مرآة العين . غير ان اشهر مؤلفاته في الفلسفة والتعليق والشرح ومنها تهافت التهافت (نشره Bouyges في بيروت ١٩٣٠) وهو جواب على كتاب الغزالي تهافت الفلاسفة الذي يهاجم فيه النزعة العقلية . وشهرة ابن رشد في العالم الغربي قائمة على شروحه لارسطو وهي عبارة عن رسائل تستخدم احياناً عناوين مؤلفات ارسطو وتصف محتوياتها. وكان يعتمد ابن رشد على ترجمات عربية لارسطو وضعت في بغداد عن طريق السريانية وكتبه المهمة في هذه الناحية هي جامع مختصر ، وتلخيص ، وتفسير او شرح ، ومن كتبه المنشورة « تلخيص كتاب المقولات » (طبع بيروت ١٩٣٢) . وبقيت معظم الكتب الاخرى في ترجمات عبرية اولاتينية ماخوذة عن العبرية . وكما كان ارسطو يعتبر « المعلم » بالنسبة الغرب فان ابن رشد كان يعتبر « الشارح » . وتأثر علماء اوربا وطلابها في القرون الوسطى بارسطو كما اظهره ابن رشد وحتى القرن السادس عشر كانت الرشدية اهم مدارس الفلسفة بالرغم من رد الفعل بين مسلمي اسبانيا وعلماء اليهود ثم كهنة النصارى . كان ابن رشد من المؤمنين بسيادة العقل ويخضع كل شيء عدا عقائد الدين لحكم العقل ولكنه لم يكن مفكراً حراً ولا ملحداً واعتقاده بالخليقة تطوري فلم تكن مسألة ايام ، وانما استغرقت الدهر كله . وابن رشد اراد العودة الى مذاهب ارسطاطالية علمية نقية . وبعد ان جردت كتاباته من المواد التي اعترض عليها رجال الدين اصبحت تدرس في جامعة باريس وغيرها من المعاهد العليا . والحركة الفكرية التي بدأها ابن رشد ظلت حية في الفكر الاوربي حتى عصر العلم الحديث . وكان معاصره ابو عمران موسى بن ميمون (Maimonides) من قرطبة (توفي في القاهرة ١٢٠٤) وكان اليهود يقولون « من موسى الى موسى ليس مثل موسى» . ولد ابن ميمون في قرطبة

ولكن عائلته انتقلت الى القاهرة بسبب اضطهاد الموحدين ، وهناك اصبح طبيب صلاح الدين وابنه العزيز وبعد ١١٧٧ اصبح اعلى موظف ديني في طائفته ومع انه توفي في القاهرة الا انه دفن في طبرية . وكان فلكياً وطبيباً ولاهوتياً وفيلسوفاً وله آراء تقدمية في الصحة العامة وطبه يعتمد على جالينوس وعلى الاطباء العرب السابقين مثل الرازي وابن سينا وابن زهر . وكتابه الطبي « الفصول في الطب » وكتب في الفلسفة « دلالة الحائرين » (نشر بالحروف العبرية وترجم الى الفرنسية باريس ١٨٥٦) . وقد حاول التوفيق بين الدين والعقل وكان من المدافعين عن التفكير العلمي تجاه التعاليم التقليدية عن التوراة ولذلك كان علماء اللاهوت المحافظون يسمون كتابه « ضلالة الحائرين » . ولم يكن عالماً باليونانية فاعتمد على الترجمات العربية كما فعل ابن رشد . وقد كتب بالعربية انما بحروف عبرية وترجمت كتبه الى اللغة العبرية واللاتينية وكان تأثيرها كبيراً على اليهود والنصارى وكذلك اثرت على جماعة من الدومنكان مثل البرت الكبير ودونس سكوتس Scotus وعلى فلاسفة العصور الحديثة مثل سبينوزا وكانت.

كان اهم مفكر صوفي ابو بكر محيي الدين بن العربي الذي ولد في مرسية عام ١١٦٥ وعاش في اشبيلية حتى ١٢٠١ ثم ذهب الى الشرق وتوفي في دمشق ١٢٤٠ حيث قبره في الجامع المعروف باسمه . وكان يمثل المدرسة الاشراقية الافلاطونية الجديدة التي تؤمن بالحلول. وقد ادخل التفكير الفلسفي في الحركة الصوفية وكان يمثل هذه المدرسة في الشرق السهروردي م ١١٩١ صاحب « حكمة الاشراق » الذي اتى بتعاليم تتعلق بالنور فيها اثر مانوي زردشتي . وتقول مدرسة الاشراق ان الله وعالم الارواح يجب ان تفسر كنور وان معرفة الاشياء هي اشراق من العلي بواسطة الارواح . وكان اتباع ابن العربي يسمونه الشيخ الاكبر وينسب اليه ٢٨٩ مؤلف ويقول بروكلمان ان ١٥٠ منها باقية واهمها « الفتوحات المكية » (طبع بولاق ١٢٩٣ ﻫ في اربع مجلدات) « وفصوص الحكم » (بولاق ١٢٥٢ ﻫ). وفي احد فصول الفتوحات المكية وعنوانه « كيمياء السعادة » رمز الى صعود

الانسان الى السماء . وفي كتابه « الاسراء الى مقام الاسرا » يوضح فكرة صعود النبي الى السماء السابعة ويسبق دانتي الايطالي في وصفه . كان ابن العربي باطنياً في عقائده وكان في فلسفته من المؤمنين بوحدة الوجود اي بالحلول والوحدة ورأيه ان الاشياء وجدت كأعيان ثابتة اي كافكار عند الله وتصدر عنه واليه تعود والعالم هو المظهر الخارجي لله وهو مظهره الداخلي ولا يوجد فرق بين الجوهر وصفته اي بين الله والعالم وهكذا نرى الصوفية تنتقل الى الحلول حيث الامور الالهية تظهر في البشرية . والصوفي الحقيقي حسب قول ابن العربي كما يتضح من كتابه « ترجمان الاشواق » (الذي نشره وترجمه نيكلسون في ١٩١١) له دليل واحد وهو النور الداخلي ويجد الله في جميع الديانات . ونجد تأثير المدرسة الاشراقية في الحلقات الصوفية التركية والفارسية وفي الكتاب المدرسيين في الغرب مثل دنس سكوتس Duns Scotus وروجر بيكون وريموند لال Lull . وقد انجبت مدرسة مرسية ايضاً ابو محمد عبد الحق بن سبعين م ١٢٦٩ وآراؤه تشبه آراء ابن العربي وقد اشتهر بين المتصوفين حتى سمي قطب الدين واشتهر خاصة بالاجوبة التي كتبها جواباً على الاسئلة العلمية التي وجهها اليه فردريك الثاني ملك المانيا وصقلية وتتعلق بخلود الروح وغاية اللاهوت وتسمى «الاجوبة عن الاسئلة الصقلية». وكان ابن سبعين يسكن سبتة واجوبته كانت على اساس الاسلام السني وله ايضاً كتاب « اسرار الحكمة المشرقية » (والكتابان لم ينشرا بعد) .

اما من الوجهة الفنية فقد اختصت مدرسة البناء في الاندلس والمغرب ببعض مميزات اهمها وجود الشرفة المسننة من الخشب فوق الابواب الكبرى كما في قصر اشبيلية وترتكز على دعامتين مسننتين ايضاً او مصنوعتين من المقرنصات ، واستعمال القوس الشبيه بحدوة الفرس وكان معروفاً في شمالي سورية والمدائن وغيرها قبل الاسلام . وقد استعملت كثيراً القوس المقرنص ومنه نماذج جميلة في قاعات الحمراء في غرناطة وفي مدفن السعديين في مراكش كما استخدمت القوس المروس الذي يصبح فيما بعد من مميزات الفن القوطي باوربا وكان قد ظهر قبلا في قصير عمرة

وفي الجامع الاموي بدمشق . والقوس المستدير بشكل حدوة الفرس (عـدا عن القوس المروس) استعمل ايضاً في جامع دمشق ولكن المسلمين في قرطبة اعطوه جميع امكانياته الزخرفية . وكانت المآذن عموماً مربعة الشكل وغالباً مكسوة بالقاشاني الملون او مزخرفة بالحفر وفي اعلاها قضيب له ثلاث كرات او رمانات معدنية ومن أشهرهـا مأذنة اشبيلية (الجيرالدا) من عام ١١٩٥ ومأذنة جامع الكتبية في مراكش (عام ١١٨٤) . وتميزت مدرسة الاندلس والمغرب باستعمال الجص المحفور في زخارفها والفسيفساء من القاشاني كما في قاعات الحمراء وفي قصر اشبيلية وفي فسقية النجارين بمدينة فاس . والاعمدة عموماً رشيقة دقيقة تشاهد ابدع نماذجها في ابهاء قصر الحمراء وقاعاته. وقد احتفظت الاندلس بالطراز السوري المصري في البناء حتى القرن الحادي عشر (الخامس الهجري) وكانت قرطبة المركز الفني الهام في اسبانيا طالما كانت فيها عاصمة الدولة الاموية في الاندلس حتى عام ١٠٣١ وقد زادت مساحة هذه المدينة في ابان ازدهارها في القرن العاشر حتى قدرت بمائة واربعة واربعين ميلا مربعاً وقدر البعض عدد سكانها بمليوني نسمة . وذهبت معظم آثار قرطبة غير ان الاثر الرئيسي فيها من هذا الدور بقي وهو الجامع الذي وضع اساسه عبد الرحمن الداخل في ٧٨٦ في موقع كنيسة كانت بالاصل معبداً رومانياً. واضاف هشام المأذنة المربعة في عام ٧٩٣ ثم اضيفت اجزاء اخرى وتدرج بالاتساع حتى عام ١٠٠٠ حتى صار طوله ٣٣٠ ذراعاً وعرضه ٢٨٥ ذراعاً في عهد المنصور وكان سقفه قائماً على ١٢٩٣ عموداً تعلوها أقواس مزدوجة . وكان لجامع قرطبة تسعة ابواب مصفحة بالنحاس الاصفر الا باب المقصورة فانه من الذهب وكذلك جدار المحراب وما يليه فقد اجري فيه الذهب على الفسيفساء . ولم يكن في المساجد الاسلامية مأذنة تعادل مأذنة هذا الجامع . فقد بلغ طولها الى موقف المؤذن ٥٤ ذراعاً وعرضها في كل تربيع ١٨ ذراعا . ولعب جامع قرطبة دوراً هاماً في الحياة العامة فالانتصارات والفتوح كانت تعلن من على منبره وفي اروقته كانت تسلم الرايات للقواد حين ارسال الحملات الحربية .

وكان عدد ثريات الجامع ٢٨٠ ثريا في احداها الف ضوء وفي اصغرها اثنا عشر حسب قول العمري في «مسالك الابصار في ممالك الامصار» (طبع احمد زكي القاهرة ١٩٢٧) . وقد استخدم الصناع البيزنطيون في زخرفة الجامع وانفق عليه عبد الرحمن الاول ثمانين الف قطعة من الذهب من غنائم القوط . وكان قلب مدينة قرطبة الحي القريب من الوادي الكبير وفيه الجامع والقصر الكبير . وقد أقام العرب على هذا النهر جسراً فخما كان مبنياً قبل عهد الفتوح ثم تهدم فاعاد العرب بناءه . وكان للمدينة سبعة أبواب . واتسعت الاحياء خارج الاسوار فنشأ حول المدينة ٢١ ربضاً أو ضاحية في كل منها مساجد واسواق وحمامات . أما القصر الكبير فقد شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل وأتمه من جاء بعده وبنوا القصور في داخله فبلغت المباني الكائنة ضمنه ٤٣٠ داراً بينها قصور فخمة لكل منها اسم خاص . ومن قصور الامويين المشهورة مدينة الزهراء التي بدأ بانشائها الخليفة الناصر على أربعة أميال من قرطبة واتمها ابنه الحكم وأتى باعمدتها من رومة والقسطنطينية وقرطاجة ويقال انه اتى بسبيل مزين باشخاص بشرية من القسطنطينية . ولم يبق الا القليل من آثار هذه المدينة . ومثلها المدينة الزاهرة التي ابتناها الحاجب المنصور في طرف مدينة قرطبة وجعلها معقلا يحميه من أعدائه واقطع ماحولها لرجال الدولة حتى اتصلت ارباضها بارباض قرطبة كما اتصلت بها مدينة الزهراء من الجهة الاخرى . وقد ذهبت آثار المدينة الزاهرة في ثورة البربر في عام ١٠١٠ حين احرقت بعد نهبها .

ظهرت المباني الاولى التي تحمل مميزات مدرسة المغرب في القرن الثاني عشر في جامع طلمسان في عهد الموحدين . وشيدت في ذلك العهد المباني المشهورة وهي المأذنة والقصر في اشبيلية وجامع الكتبية في مراكش وابواب فاس ومراكش . وبلغ الفن الاندلسي المغربي وزخارفه ذروته في بناء قصر الحمراء في غرناطة في عهد الدولة النصرية وفي المدارس المشهورة في فاس مثل مدرسة العطارين . وتأثر الاسبان باسلوب الفن الاسلامي في الاندلس والمغرب وظهر طراز المدجنين

Mudejar وهو عبارة عن اقتباس الاساليب والزخارف الاسلامية واستخدامها في المباني الاسبانية بنتيجة تأثير رجال الفن المسلمين في الدولة الاسبانيه بعد زوال حكم العرب . ومن مآثر هذا الاسلوب قصر اشبيلية (Alcazar) الذي بنى أقدم قسم فيه معمار من طليطلة لاحد الحكام الموحدين في عام ١٢٠٠ ثم جدد القصر في عهد الملك بطرس في ١٣٥٣ حسب الاسلوب الاسلامي من قبل صناع من المدجنين وظل يستعمل كمسكن حتى فترة حديثة ويحتوي ساحات وابهاء رائعة أهمها بهو السفراء وبهو الفتيات. وتعتبر مأذنة اشبيلية (أو برج الجيرالدا) المربعة الشكل من أجمل مآذن الاندلس والمغرب وتشبه مأذنة الكتبية في مراكش التي بنيت في نفس العهد تقريباً على يد أحد الموحدين . أما غرناطة « دمشق الاندلس » فكانت تتدرج بعض أقسامها على سفوح التلال ومن أهمها تلة الحمراء وتلة البائسين وكان يحيط بها في عهد الدولة النصرية سور متين فيه اثنا عشر بابا ويعلوه ١٠٣٠ برجا وكان عدد سكانها نحو نصف مليون . وقد خلدت غرناطة اسمها بقصر الحمراء او المدينة الحمراء التي شيدت على احدى التلال وحيكت حول بنائها واحداثها الحكايات الكثيرة والاساطير [١] . وكانت مساحة القصر تستوعب اربعين الف شخص وتكثر فيه الساحات والابهاء وحولها القاعات بقببها وسقوفها ونقوشها ومقرنصاتها . ومن ساحاته ساحة الريحان او البركة وفي آخرها قاعة السفراء وأهم الساحات ساحة الاسود وفيها ١٢٨ عموداً فخما وحول بركتها اثناعشر أسداً تخرج الماء من أفواهها وحولها قاعة العدل وفي سقفها مشاهد الفروسية والصيد وصورة عشرة حكام على مقعد بيضوي الشكل . ومن القاعات أيضاً قاعة بني سراج وقاعة الاختين .

---

(١) من اشهر الكتاب الذين رووا اخبار الحمراء واساطيرها الكاتب الامريكي وشنطن ارفنج Irving الذي اقام في قصر الحمراء في ١٨٢٦ ووضع كتاب The Alhambra في ١٨٣٢ ويعتبر من الكتب الكلاسيكية في الادب الانكليزي .

وبرعت الاندلس في كثير من الفنون الفرعية أو الصناعيـة التي ظهرت في الشرق . فقد كانت مشهورة بمنسوجاتها (باستثناء السجاد) وقيل ان مدينة المرية كانت تحوي ٤٨٠٠ نولا . وكانت غرناطة تصدر البضائع المعروفة باسم grenadines بالنسبة اليها (كانسب الموسلين الى الموصل وقماش baldacco الحريري الى بغداد) واستعملت هذه المنسوجات الحريرية وزخارفها النباتية والهندسية في الالبسة الكنسية والارستوقراطية ولوضع تحف القديسين . وعندما ازداد استيراد هذه الالبسة الى أوربا بدأ الاوربيون يؤسسون أنوالا في فرنسا وايطاليا واستخدم لاجلها صناع مسلمون في بادىء الامر . وهنالك أمثلة كثيرة بين القرن الرابع عشر والسادس عشر عن اشغـال فنية أوربية ذات أثر اسلامي كاستخدام الكتابات العربية بدون معنى لاجل الزخرفة . وبقي الصناع مدة طويلة بعد تراجع الاسلام ولذلك نرى عناصر اسلامية ومسيحية في أشكال الفن المعروف بالمدجن وعناصر اسلامية في الفن الصقلي وعمارة العصر النورمندي . وبرع المدجنون في الصناعات الخشبية والخزف والمنسوجات . وفي الزخارف النافرة ظهرت البراعة في حفر العاج في قرطبة حيث صنعت صناديق وغيرها مزخرفة بمشاهد الصيد وغير ذلك واستعمل بعضها للعطور او المجوهرات ومعظمها لاجل الهدايا ومنها صندوق اسطواني من العاج صنع للحكم الثاني كهدية لزوجته وصنع الاندلسيون المعادن المنزلة بالفضة والذهب وجعلوا فيها كتابات زخرفية وأشغال الحفر . ومن هذه المصنوعات تحفة من عهد هشام الثاني ٩٧٦ — ١٠٠٩ في مذبح كاندرائية جيرونا بشكل صندوق خشبي مغلف بفضة بارزة بالطرق وعليها كتابة عربية تقول أنها صنعت من قبل بدر وطريف لرجل من حاشية الحكم الثاني ليعطيها كهدية للامير هشام . واشتهرت اشبيليـة وطليطلة بصنع النصال والسيوف والاسطرلابات . وكان الاسطرلاب من صنع اليونان الاقدمين واتقنه المسلمون وأدخلوه الى أوربا وقد استعمل لتعيين أوقات الصلاة ووضع مكة الجغرافي والملاحة ولعلم النجوم . واهتم عرب الاندلس بصنع الخزف المطلي بمادة براقة

وكانت بلنسية مركز هذه الصناعة . وقلد هذا الخزف حتى في هولاندا في القرن الخامس عشر ودخلت صناعته الى ايطاليا وظهرت أوان اسبانية فيما بعد عليها كتابات شبه عربية واشعرة مسيحية . ولا يزال الاسبان والبرتغاليون مولعين بالقرميد الملون ويسمى عندهم azulejos (الزليجي بالعربية) . وخزف المدجنين البراق لايفوقه سوى الصيني . كذلك برع الاندلسيون بصنع الفسيفساء والخزف الازرق . أما في الزجاج فلم يتمكنوا من التفوق على الصناعة السورية .

أما فن الموسيقى في الاندلس فقد وضع أساسه زرياب في قرطبة في عهد عبد الرحمن الثاني ويقال أنه استعمل قوادم النسر بدلا من العيدان الخشب ونسب اليه اضافة وتر خامس للعود . ومدرسة قرطبة الموسيقية التي أسسها تتبعها مدارس اخرى في غرناطة وطليطلة وغيرها . وبعد زرياب يأتي أبو القاسم عباس بن فرناس م ٨٨٨ الذي ادخل الموسيقى الشرقية وعممها وكان مشهوراً بصنع الزجاج من الحجر . وقد صنع في منزله مايشبه البلانتاريوم حيث يمكن مشاهدة النجوم والغيوم والبرق . وكان أول رجل في الاسلام حاول أن يطير بصورة علمية فلبس بدلة من الريش والاجنحة وطار ولكنه جرح عند نزوله لان بدلته لم يكن فيها ذنب . وكانت النظريات الموسيقية التي اتى بها زرياب وابن فرناس فارسية عربية ثم تحل محلها الفيثاغورية واليونانية بعد ترجمة مؤلفات اليونان . وقد اعجب المسلمون في الغرب بالفن الموسيقي وفي القرن الحادي عشر تفوق موسيقى الاندلس موسيقى بغداد وتصبح اشبيلية في زمن العبادين مركز الطرب والموسيقى واللهو وكان المعتمد نفسه شاعراً وضارباً على العود . وأصبحت اشبيلية تصنع الآلات الموسيقية وتصدرها . وكتب ابن باجه الفيلسوف م ١١٣٨ رسالة في الموسيقى انما فقدت . وكذلك فعل الفيلسوف ابن سبعين في عهد الموحدين . وشهد ابن رشد انه عندما يموت موسيقي في قرطبة كانت آلاته تباع في اشبيلية .

انتشار الحضارة العربية عن طريق الاندلس وتأثيرها : كانت الاندلس من أهم الميادين التي انتقلت منها حضاره العرب الى بلاد اوربا حيث اثرت على حضارة الغرب في مختلف النواحي . وقد رأينا ما كان للحروب الصليبية من اثر في هذه الناحية كما اتينا في كلامنا عن مآثر حضارة العرب في الاندلس على ذكر تأثيرات حضارتهم في بلاد الغرب .

كانت العلوم في بلاد الشرق الاسلامي (مصر وسورية والعراق وايران وما وراء النهر) اعلى سوية منها في الاندلس حتى القرن الحادي عشر ولذلك رأينا كثيرين من رجال الاندلس يرتحلون الى الشرق في طلب العلم . ولكن في القرن الثاني عشر ترتفع سوية العلم في الاندلس ويكثر رجاله ويذهب بعضهم لخدمة ملوك المشرق كما ان البعض الآخر كان يذهب الى بلاد اوربا . وكان يأتي بعض رجال العلم من سائر بلاد اوربا الى اسبانيا ليطلعوا على مآثر العرب ومآتيهم . ولعبت اسبانيا وخاصة طليطلة الدور الاهم في نقل العلوم الطبية العربية الى اوربا لان فيها عاش اثنان من اكبر النقلة وهما جيرار الكريموني وميشيل سكوتس . وأول من بدأ باطلاع الغرب على علوم العرب بطريق الترجمات اللاتينية كان قسطنطين الافريقي م ١٠٨٧ واصله من قرطاجة واتصل بمدرسة ساليرنو وهي اقدم مدرسة طبية باوربا . وقد ترجم القسم النظري من الكتاب الملكي المجوسي الى اللاتينية وترجم القسم الجراحي يوحنا السراسيني م ١١٠٣ وهو طبيب من ساليرنو . اما جيرار الكريموني م ١١٨٧ فقد ترجم « كتاب المنصوري » للرازي ، والقانون لابن سينا ، والتصريف للزهراوي . ومن الذين عرفوا اوربا بالطب العربي فرج بن بن سليم اليهودي من صقلية وقد ترجم « الحاوي » للرازي في ١٢٧٩ وتقويم الابدان لابن جزلة . وبواسطة هذه الترجمات اندمجت المعلومات الطبية المعروفة في ذلك العصر . ودخلت لغات الغرب مفردات عربية بعضها مصطلحات كيماوية من مؤلفات جابر بن حيان وغيره بطريق اللاتينية مثل Alcohol (الكحول)

وAlkali اي القلي و Antimony الأثمد، و Alembic الانبيق ، و Realgar اي رهج الغار . وبعض هذه المفردات مستحضرات لها صلة بالطب مثل Syrup اي شراب وهي محلول السكر في الماء ويدخلها احياناً علاج طبي ، Soda ومعناها في اللاتينية وجع الرأس من الصداع ، و Julep وهي شراب طبي له رائحة من جلاب او Gulab الفارسية ومعناها ماء الورد ، و Rob اي الرُّب الذي يدخل فيه خلاصة الفاكهة مع العسل .

وكانت حركة الترجمة ناشطة لنقل التراث العربي الى اوربا . ومدينة طليطلة بالرغم من فتح الاسبان المسيحيين لها في ١٠٨٥ كانت مركزاً هاماً للعلوم الاسلامية ولنقل هذا التراث . وظهرت فيها مدرسة للترجمة بفضل رئيس الاساقفة ريمون الاول م ١١٥١ وكان العلماء يقصدونها من مختلف بلاد اوربا. ونشط التراجمة بين ١١٣٥ و ١٢٨٤ ومنهم الانكليزيان روبرت اوف تشستر وميشيل سكوت وفي عام ١١٤٥ عمل روبرت اوف تشستر اول ترجمة لجبر الخوارزمي وقبل ذلك بسنتين (١١٤٣) اكمل اول ترجمة لاتينية للقرآن بمساعدة هرمان الدلماسي وذلك بناء على طلب بطرس المحترم رئيس دير كلوني في فرنسا. وكان هذا الدير من مراكز نشر العلوم العربية في القرن الثاني عشر وفيه رهبان اسبان . وفي طليطلة انشئت اول مدرسة للدراسات الشرقية في اوربا وهدفها الرئيسي اعداد المبشرين . وكان ادلارد اوف باث في هذه الفترة اعظم علماء الانكليز قبل روجر بيكون . وبعد ان اقام في سورية وصقلية ترجم الى اللاتينية جداول المجريطي الفلكية وكانت مبنية على جداول الخوارزمي ، وترجم كذلك رسائل رياضية وفلكية واصبح اول العلماء المستعربين الانكليز . اما ميشيل سكوت (ميخائيل الاسكوتلاندي) م ١٢٣٦ فانه احد مؤسسي الرشدية اللاتينية وقد درس واشتغل في اسبانيا ثم اصبح فلكي بلاط فردريك الثاني بصقلية وترجم في طليطلة كتاب الهيئة للبطروجي كما ترجم كتباً عربية اخرى في صقلية منها مختصر ابن سينا لعلم الحيوان لارسطو . واخصب مترجمي طليطلة جيرار الكريموني م ١١٨٧ الذي ترجم الى اللاتينية مختصر الفرغاني

لكتاب المجسطي وشرح الفارابي لارسطو وكتباً اخرى لاقليدس وجالينوس وابقراط كانت قد ترجمت الى العربية . ويقدر ماترجمه باكثر من سبعين كتاباً . وساهم اليهود في حركة الترجمة وكانوا ينقلون الى العبرية الكتب العربية التي الفها جماعة من فلاسفة اليهود ثم اخذوا في اواخر القرن الثاني عشر ينقلون الكتب التي الفها المسلمون ايضاً الى العبرية . ومن اشهر النقلة ابراهيم بن عزرا الطليطلي م١١٦٧ الذي نقل كتباً الفها اليهود بالعربية كما ترجم شرح البيروني لجداول الخوارزمي . واشتهر آل تبون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بالترجمة الى العبرية ومنهم يهوذا بن شاول بن تبون م ١١٩٠ الذي نقل كتاب اصلاح الاخلاق لابن جبيرول. ومن النقلة يعقوب اناطولي م ١٢٥٦ الذي نقل شرح ابن رشد ، وكالونيموس بن كالونيموس الذي نقل كتباً للفارابي منها احصاء العلوم[١]. وكان يعاصر ابن عزرا مترجم مشهور اسمه يوحنا الاشبيلي وقد ترجم كتباً في الحساب والفلك والطب والفلسفة لمؤلفين مثل الفرغاني وابي معشر والكندي وابن جبيرول والغزالي . وفي نهاية القرن الثالث عشر كانت العلوم والفلسفة العربية قد انتقلت الى اوربا . ووصلت هذه العلوم من طليطلة الى بروفانس في جنوبي فرنسا ثم بطريق الالب وصلت اللورين واوربا الوسطى والمانيا وانكلترا . واول كتاب طبع في انكلترا في ١٤٧٧ كان مبنياً على اصل عربي وهو « مختار الحكم ومحاسن الكلم » لابي الوفاء مبشر فاتك من امراء سورية في القرن الحادي عشر . ومن المدن التي كانت مراكز علمية تستقي من علوم العرب مرسيليا وطولوز وناربون ومونبلييه التي اصبحت اهم مراكز الدراسة الطبية والفلكية في فرنسا . وفي منطقة اللورين ووادي الرين كانت بون وليبج من أهم مراكز العلوم العربية ومن هناك وصلت انكلترا عن يد جماعة درسوا في اللورين . وكانت تأتي الوفود من قبل ملوك الجرمان في الشمال

---

(١) انظر بشأن حركة ترجمة الكتب من العربية الى سائر اللغات كتاب عمر فروخ : اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاوربية . بيروت ١٩٥٢ ص ٢٢-٣٢ والمراجع المذكورة في نهايته.

الى حكام اسبانيا ، ومن الموفدين الذين ارسلهم اوتو الكبير رجل اسمه Jean de Gorz اقام في قرطبة ثلاث سنوات ودرس العربية وعاد ومعه مخطوطات علمية .

وفيما سوى هذه النواحي العلمية والفلسفية فان اوربا اخذت أيضاً عن الفن الاسلامي كثيراً من عناصر البناء وزخارفه . فقد استعمل القوس المدبب الذي امتازت به الابنية الاسلامية في الفن القوطي واصبح من مميزات ابنية العصور الوسطى الاخيرة . كذلك استعملت الاقواس الفارسية في الغرب وعرفت في انكلترا بالاقواس التيودورية (لاستعمالها في عهد اسرة تيودر في القرن السادس عشر) وظهرت في بهو كنيسة المسيح باكسفورد مثلاً . واستعملت العقود ذات الفصوص المتعددة في فرنسا في كنيسة لاسوتيرين La souterraine حول عام ١٢٠٠ وفي كنائس اوربية اخرى . وأثرت المآذن الرشيقة في تصميم ابراج النواقيس وقد نقل عنها المهندس الانكليزي السير كريستوفر وان Wren مصممه من الابراج وهو الذي شيد كاتدرائية سان بول في لندن بعد ان تهدمت في ١٦٦٦ ووفق في تشييد قبة الكنيسة وابراجها جنباً الى جنب كما وفق المعماريون المسلمون في تشييد القباب والمآذن على نفس المنوال. واخذت اوربا عن العرب الزخارف الصغيرة البارزة الموجودة في الفن القوطي وربما ايضاً الزخارف النباتية والحجرية التي تملأ بها الشبابيك في الابنية القوطية وير كب فيها الزجاج . واستعمل الغرب الشرفات الزخرفية والمخرمة وهي من مبتكرات الفن الاسلامي . ودخلت زخرفة المباني القوطية المتأخرة كتابات محفورة وتوغلت الكتابات الكوفية في فرنسا بسبب احتلال العرب القسم الجنوبي منها وتظهر في الابواب الخشبية في احدى كنائس كاتدرائية لوبوي LePuy . واستخدمت الزخارف الكتابية في انكلترا وهي متأثرة بالزخارف العربية كما يشاهد في قبر رتشارد الثاني بوستمنستر . واستعملت أوربا الزخارف بالفروع النباتية البارزة قليلاً (الارابسك) كما استخدمت الزخارف الهندسية . ورأينا كيف كان المستعربون الاسبان يبنون ويصنعون حسب التقاليد الفنية العربية . وعندما اضطهد هؤلاء من قبل سلالتي المرابطين والموحدين انتقلوا

الى شمالي اسبانيا حيث نشروا الاساليب العربية في البناء والصناعة بين الدول الاسبانية المسيحية . وبعد ان سقطت مدن الاندلس في يد الاسبان كان العرب يعملون لملوك الاسبان وامرائهم حسب التقاليد التي عرفوها وظهر الطراز الاسباني في البناء المعروف باسلوب المدجنين وظهرت اهم آثار هذا الاسلوب في قصر اشبيلية. واشتغل المدجنون بزخرفة الكنائس والقصور ودور الطبقات الخاصة في انحاء اسبانيا كما انهم نبغوا في الفنون الفرعية . وانتقلت فنونهم الى شمالي البلاد ومنها الى سائر بلدان اوربا . ومن النماذج العصرية اليوم لفن الاندلس الاسلامي جامع مدينة باريس . كذلك اثرت الفنون الفرعية الاسلامية في الفنون والصنائع الاوربية وانتشرت الزخارف والاساليب الفنية انتشاراً واسعاً حتى ان الحروف العربية دخلت كعنصر زخرفي في كثير من التحف وقد نقشها الصناع الاوربيون بدون ان يفهموا معناها. وبينما كانت صناعة تطعيم المعادن تضمحل في أواخر القرن الخامس عشر فانها كانت تزدهر في اوربا . ونشأت في البندقية مدرسة وفقت في صناعة المعادن بين الموضوعات الزخرفية الاسلامية وبين الذوق الايطالي في عصر النهضة ويشهد بذلك الطبق النحاسي المطعم بالفضة من منتصف القرن الخامس عشر من صنع البندقية (وهو الآن في متحف فكتوريا والبرت) . وفي صناعة الخزف تأثر الصناع الايطاليون بطريقة الرسم بالحفر المعروفة باسم غرافيت كما أنهم تأثروا بطريقة صنع الخزف ذي البريق المعدني وخاصة ما كان يستعمل منه لحفظ الادوية . وكانت توجد تلك الاواني الصغيرة في صيدلياتهم في القرن الخامس عشر ويسمونها الباريلو Albarello وقد يكون هذا الاسم مشتقاً من لفظة « البرنية » . وربما أخذوا اسلوب صنع هذه الاواني عن مدينة بلنسية التي كانت أهم مركز لصنع الخزف في اسبانيا . وبرع صناع الزجاج في البندقية في القرن الخامس عشر فصنعوا الزجاج المموه بالمينا ومنهم انتقلت هذه الصناعة الى سائر بلاد اوربا . وكان تأثير العرب واسعاً في صناعات النسيج العربية وخاصة في صناعة الحرير والسجاد . وقد ذكرنا اسماء مختلف الاقمشة التي انتشرت في بلاد الغرب واصلها العربي وكان

الاقبال على طلب المنسوجات الحريرية واسعاً في اوربا حتى اصبح المتمولون يقيمون المصانع وينافسون بضائع اسبانيا والشرق . واثرت منسوجات الصين في المنسوجات الاوربية عن طريق العرب . واستمد الصناع الايطاليون خبرتهم الفنية في بادىء الامر وموضوعاتهم الزخرفية من جزيرة صقلية حيث أسس العرب داراً شهيرة للنسيج ظلت مزدهرة في عهد النورمنديين . واستخدمت الحرائر الشرقية في صنع الملابس الكنسية في العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة . كذلك كان اقبال اوربا على الاقمشة القطنية عظيماً وخاصة على الاقمشة المزخرفة بزخارف مطبوعة بالالوان الزاهية حتى ظهر النوع المعروف في باريس باسم برسيين Persiennes . وعرفت اوربا السجاد الشرقي منذ القرن الرابع عشر وكان يتخذ في بادىء الامر كتحف ثمينة بدون ان ينتفع منه . وفي القرن السادس عشر اصبح سلعة عادية في الاسواق . ودخلت هذه التحف في زخارف لوحات المصورين المشهورين في عصر النهضة .

أما في الموسيقى والغناء والادب المتعلق بالموسيقى فان الاغاني العربية انتشرت في شبه جزيرة ايبريا عندما كان السكان المسيحيون يألفون النماذج الغنائية الاسلامية . وكان يعيش بعض الموسيقيين المسلمين في بلاط ملوك قشطلة وارغون . وبعد سقوط غرناطة بقي عدد من رجال الفن الموسيقي والرقص . وقد ذكر المؤرخ ريبرا ان موسيقى اسبانيا الشعبية وكل جنوب غربي اوربا بعد القرن الثالث عشر يمكن ارجاعها مع الحكايات التاريخية والغنائية الى اصل اندلسي وبالتالي الى مصادر فارسية بيزنطية بطريق العرب . والموسيقى النظرية والعملية انتقلت الى اوربا بعد اسبانيا كما انتقلت الفلسفة والرياضيات والطب من اليونان والرومان الى بيزنطة وفارس وبغداد ثم الى اسبانيا واوربا . وترينا بعض المنمنمات الاسبانية الاولى موسيقيين من العرب يلعبون الشطرنج (ajedres في الاسبانية) . واول وصف للشطرنج ورد في مؤلف بالاسبانية لالفونسو العاشر ملك قشطلة وليون وهو اعظم من اهتم بادخال العلوم الاسلامية الى اسبانيا المسيحية . (وكلمة ورق اللعب Naipe في

الاسبانية مأخوذة من نائب او حاكم وجد رسمه على مجموعة من القرن الخامس عشر) . واهتم الفونسو العاشر نفسه بمجموعة من الشعر موسيقاها من اصل اندلسي . وعدا عن هذه المجموعة وجداول الفونسو الفلكية فقد اهتم هذا الملك بعمل مجموعة من القوانين فيها تأثيرات اسلامية واصبحت اساس القانون الاسباني. وكان الشعراء المغنون المعروفون باسم تروبادور يشبهون المغنين العرب في العاطفة والموسيقى وبعض المواضيع التي اعطوها لاغانيهم هي ترجمة مواضيع عربية . وقد ورد في رسالة الخوارزمي الرياضية شيء عن الموسيقى ترجمه ادلارد اوف باث الى اللاتينية وهي من أول الرسائل التي ادخلت الموسيقى العربية الى العالم اللاتيني . وفي عهد ادلارد في القرن الثاني عشر كان للعرب عدة رسائل في الموسيقى مترجمة عن اليونانية ومؤلفات مبتكرة للفارابي وابن سينا واصبحت معظم هذه المؤلفات معروفة في اوربا بترجماتها اللاتينية قبل نهاية هذا القرن . وفي هذا العصر ظهر مبدأ النسبة الزمنية الصحيحة بين النوطات واول من شرح هذه الموسيقى حسب القياس او الاغاني المقاسة فرانكو دي كولوني حوالي ١١٩٠ . ولكن هذه الموسيقى المقاسة او الايقاع كانت قسماً من الموسيقى العربية قبل عصر فرانكو باربعة قرون ووضعها الكندي بالتفصيل . والموسيقي الايقاعية (حسب القياس) كانت من اعظم ما اعطاه العرب للفن الموسيقي . وادخل العرب الى أوربا آلتين لهما أثر كبير في تقدم فن الموسيقى وهما العود Lute والرباب (Rabel بالاسبانية) وهي من اسلاف الكمان ومن الآلات التي أتت اسماؤها من العربية البوق القديم Anafil (النفير وربما دخلت هذه الآلة من سورية أثناء الحروب الصليبية وكذلك الصنوج) ، والبندر Pandero او Tambourine ، والصنوج Sonajas . كذلك أدخل المسلمون القيثارة Guitar والبوق Alboque بالاسبانية ، والطبل Atambal ، و القانون .

انتشار الحضارة العربية عن طريق صقلية وتأثيرها : بعد ان ذكرنا انتشار الحضارة العربية في اوربا وتأثيرها بنتيجة الحروب الصليبية وبنتيجة حكم العرب في الاندلس نأتي الى بحث حكم العرب في صقلية وانتشار الحضارة العربية فيها وانتقالها بواسطة هذا الجسر المهم الى ايطاليا وسائر بلاد القارة الاوربية .

فتحت صقلية عن يد الاغالبة الذين أسسوا دولة في القيروان في القرن التاسع. ولكن محاولات فتحها حصلت قبل ذلك من قبل المغامرين والجنود . ففي عام ٦٥٢ عندما قهر الاسطول البيزنطي في الاسكندرية هاجم احد قواد معاوية جزيرة صقلية البيزنطية وحصل العرب على سبي وغنائم. وأعيدت المحاولة فيما بعد في القرن الثامن حين هاجم العرب والبربر من شمالي افريقيا واسبانيا الجزر القريبة من ايطاليا اي سردينيا وصقلية . وكانت القرصنة والمغامرات من الاعمال المعروفة عند المسيحيين والمسلمين ولكن بدون خطة معينة . وفي عهد الاغالبة استنجد احد المتمردين من سرقوسة ضد الحاكم البيزنطي فكانت فرصة سانحة لزيادة الله الاول ٨١٧—٣٨ فارسل سبعين مركباً وعشرة آلاف محارب وسبعمائة من الخيل بقيادة القاضي الوزير اسد ابن الفرات ونزل الجيش في مزارة Mazara كما ذكر الادريسي في كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » (١) . واتجه الجيش نحو سرقوسة ولكن الطاعون فتك بابن الفرات . واتت النجدات فاخذ الجيش باليرمو في ٨٣١ (بلرم في العربية وكان اصلها مستعمرة فينيقية) . وفي ٨٣٤ سقطت مسينا ثم في ٨٧٨ سقطت سرقوسة بعد حصار دام تسعة شهور وهدمت في زمن ابراهيم الثاني ٨٧٤—٩٠٢ . واتى ابراهيم بنفسه الى صقلية وهدم تاورمينا في

---

(١) نشره اماري Amari وشاپارلي Schiaparelli في رومة ١٨٧٨ .
انظر ايضاً بشأن المؤلفات العربية المتعلقة بصقلية كتاب : M. Amari : Biblioteca Arabo - Sicula . Leipzig , 1855 - 57.

٩٠٢ واستولى على مقاطعة جبل النار (اي جبل انسا) ومات ابراهيم في صقلية ودفن فيها . وبقي حكم العرب في الجزيرة ١٨٩ سنة . وتقدم ابراهيم قبل وفاته لغزو ايطاليا وحاربت جيوشه في قلورية (كلابريا) . ومنذ ان استولى العرب على باليرمو في ٨٣١ تدخلوا في منازعات امراء اللومبارديين في جنوبي ايطاليا . وفي عام ٨٣٧ استنجدت نابولي بالعرب فانجدوها وبعد اربع سنوات اخذوا باري و كذلك ظهروا في البندقية. وفي ٨٤٦ هددوا رومة بعد ان نزلوا في اوستيا ونهبوا كنيسة القديس بطرس والفاتيكان ولكن اسوار رومة صدتهم. وبعد ثلاث سنوات اتت حملة اخرى الى اوستيا ولكنها فشلت . وكان نفوذ العرب قوياً حتى ان البابا حنا الثامن ٨٧٢–٨٢ دفع الجزية لهم لمدة سنتين . وفي ٨٦٩ اخذ العرب مالطة . وفي القرن العاشر اتجهوا نحو اوربا الوسطى بطريق ممرات الالب، وفي جبال الالب بعض معاقل واسوار من عمل المسلمين . واسترجع المسيحيون باري في ٨٧١، وفي ٨٨٠ استرجع باسيل الاول البيزنطي تارنت وخرجت بقايا العرب من كلابريا وكانت بعض الابراج التي بناها المسلمون على الساحل ترقب قدوم العرب من صقلية او افريقية .

كان حاكم صقلية يستمد سلطته من الاغالبة طالما كانت دولتهم قائمة ولكن دولتهم زالت في عام ٩٠٩ فخضعت الجزيرة للفاطميين لمدة اربع سنوات ثم استقل المسلمون في صقلية تحت حكم احمد بن قرهب ٩١٢ — ٩١٦ الذي خطب باسم المقتدر العباسي . على ان صقلية عادت في ٩١٧ الى الفاطميين واصبحت قاعدة الاسطول الفاطمي الذي غزا حتى جنوة في ٩٣٤ . وفي الجزيرة حدث احتكاك بين العناصر الاسلامية من اسبانيا وافريقية و كذلك حصل نزاع بين القيسية واليمنية . وفي عام ٩٤٨ عين المنصور الفاطمي الحسن بن علي بن ابي الحسين الكلبي م ٩٥٦ حاكما على صقلية وازدهرت الحضارة العربية في عهد سلالته ، وبلغت صقلية العربية اوجها في زمن ابي الفتوح يوسف بن عبد الله ٩٨٩ — ٩٩٩ من سلالة الحسن . وعاش الامراء الكلبيون في بذخ وترف ووصف ابن حوقل في القرن العاشر (٩٤٣ — ٧٧) مدينة باليرمو وكان وصفه الوصف الوحيد الذي صدر عن شاهد

عيان. وقد ذكر ان المدينة كانت تضم ٣٠٠ جامع وان عدد المصلين في احد الجوامع بلغ ٧٠٠٠ كما بلغ عدد المعلمين في المدارس الرسمية ثلاثمائة . واخيراً سقط الكلبيون بسبب الحروب الاهلية وتدخل البيزنطيون واصبحت الطريق ممهدة لتدخل النورمنديين الذين كانت لهم دولة في البر الايطالي وفتح الكونت روجر ابن تنكرد النورمندي مدينة مسينا في ١٠٦٠ واخذ باليرمو في ١٠٧١ وسرقوسة في ١٠٨٥ وتم فتح الجزيرة في ١٠٩١ وكانت مالطة قد فتحت في السنة السابقة .

ازدهرت الحضارة الاسلامية المسيحية في عهد النورمنديين وكانت التأثيرات الحضارية تأتي من الشرق خلال الحكم العربي فامتزجت بحضارة رومة واليونان واتخذت شكلها الخاص في زمن حكم النورمنديين وبعد ان ترك العرب الفتوح انصرفوا الى النواحي الحضارية الهامة في العصر النورمندي . وكان روجر الاول م ١١٠١ يهتم بالعلوم العربية وحوله فلاسفة واطباء ومنجمون من الشرق واتصف بتساهله الديني . ومن الشعراء الذين ولدوا في صقلية عبد الجبار بن حمديس (نحو ١٠٥٥—١١٣٢) وقد ولد في سرقوسة ثم انسحب الى بلاط المعتمد في اشبيلية عند الفتح النورمندي (١) . واحتفظ روجر بموظفين مسلمين وكان بلاطه اشبه ببلاط شرقي ولمدة قرن او اكثر كانت مملكة صقلية المسيحية تضم كبار الموظفين من المسلمين . كذلك بقيت تجارة البلاد بيد المسلمين ، والارض كان يزرعها العرب وقد نجحوا في زراعتها وادخل العرب السكر والكتان والزيتون وبعض الثمار وادخل النورمنديون دودة الحرير بعد عام ١١٤٧ وانتجوا ورق البردي . واول وثيقة اوربية كتبت على الورق وضعتها زوجة روجر الاول باليونانية والعربية غالباً في ١١٠٩ وربما استورد العرب في صقلية هذا الورق . وعندما زار ابن جبير جزيرة صقلية في ١١٨٤ اعجب بخصبها ومواردها . وفي ايام روجر الثاني ضرب النقود وعليها تاريخ بالحروف العربية في ١١٣٨ وكتابة عربية .

---

(١) نشر ديوانه Schiaparelli في رومة ١٨٩٧ .

وكان روجر الثاني ١١٣٠ — ٥٤ من كبار المولعين بالحضارة العربية وكذلك كان فردريك الثاني . وكان يلبس روجر لباس المسلمين وعلى ثوبه وجدت كتابة زخرفية عربية . وفي عهد حفيده وليم الثاني ١١٦٦ — ٨٩ كانت نساء باليرمو المسيحيات تلبسن لباساً اسلامياً بشهادة ابن جبير . وقد شاد النورمنديون بعد زوال حكم العرب مبانٍ على الطراز الاسلامي في القرن الثاني عشر ومن اشهرها كنيسة القصر الملكي في باليرمو المعروفة باسم كابيلا بلاتينا Cappella Palatina في ١١٣٢ في عهد روجر الثاني (والقصر النورمندي الملكي هو الآن قصر حكومة مقاطعة صقلية ومركز مجلسها النيابي) . وفي داخل هذه الكنيسة فسيفساء مذهبة متعددة الالوان كما ان سقفها فيه جامات وشارات تحوي كتابات كوفية وتحفها الخشبية كذلك غنية بالزخارف المحفورة . ولا بد ان الصناع العرب استخدموا في بناء هذه الكنيسة وفي بعض الابنية الاخرى كما في قصر العزيزة La Ziza في ١١٥٤ وفيه اعمدة رخامية وحنايا تعلوها مقرنصات . وبعض التحف العاجية في متحف الفاتيكان اليوم وغيره من المتاحف ترينا الصناعة الصقلية العربية . وفي احدى كنائس باليرمو اليوم واسمها San Giovanni L'ermito بقايا جامع قديم وكتابات عربية وقبابها وبرجها حسب النمط الاسلامي . وبعض عائلات صقلية اليوم لا تزال تحمل اسماء عربية مثل خليفة وسلامي ، وكذلك بعض الاماكن ومنها Alcamo و Alhama . واسطول روجر النورمندي الذي جعل صقلية اهم دولة بحرية في البحر المتوسط بناه وقاده جماعة من امراء البحر بينهم رجل يدعى جرجي الانطاكي وكان يشتغل في المهدية لاحد الامراء المسلمين . واعلى وظيفة في بلاط النورمنديين كانت وظيفة امير الامراء (ammiratus ammiratorum) [١] .

واهم الشخصيات التي عاشت في بلاط روجر الثاني ابو عبد الله محمد الادريسي م ١١٦٦ وهو اشهر جغرافيي العصور الوسطى . وقد ولد في سبتة في ١١٠٠ من

---

(١) تاريخ العرب لفيليب حتي ـ الطبعة الانكليزية الخامسة ص ٦٠٩ .

والدين من الاسبان العرب وعاش في باليرمو . ومؤلفه المشهور المعروف بكتاب روجار هو نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ويجمع خلاصة معلومات من سبقه كبطليموس والمسعودي غير انه مبني على ملاحظات اولية مبتكرة ارسلها جماعة ممن اوفدوا خاصة لتدوين المعلومات وارسالها اليه . ويبرهن الادريسي عن معرفة ودقة وقد صنع الملك النورمندي كرة جوية وخريطة كروية للارض من الفضة. وقد طبع كتابه مع خرائطه وعددها ٧١ خريطة في رومة عام ١٥٩٢ وترجم الى اللاتينية في ١٦١٩ من قبل عالمين من الموارنة في الغرب هما جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني . وطبع النص ايضا في ليدن ومدريد وبون . وكان لروجر الثاني حفيد اسمه فردريك الثاني ١٢١٥ — ٥٠ حكم المانيا وصقلية وكان امبراطور الدولة الرومانية المقدسة بعد ١٢٢٠ كما انه اصبح ملك القدس بزواجه من ايزابيل دي بريين وريثة هذا اللقب، فكان اهم سلطة مدنية في العالم المسيحي وقام بحملة صليبية بعد زواجه وتأثر بالحضارة الاسلامية . وكان شبه شرقي في عاداته الرسمية والخاصة وجمع في بلاطه فلاسفة من بغداد وسورية وعدداً من رجال الفن. وكانت له علاقات سياسية وتجارية خاصة مع الملك الكامل الايوبي في مصر. وبين الحيوانات التي احتوتها مجموعته زرافة اتت من الشرق وكانت الاولى من نوعها في اوربا في العصور الوسطى وارسل له الاشرف الايوبي في دمشق في عام ١٢٣٢ معرضاً فلكياً (بلانيتا ريوم) فيه صور الشمس والقمر تشير الى الساعات في دورانها . وارسل فردريك لقاء هذه الهدايا بعض الحيوانات بينها طاووس ابيض . واهتم فردريك بحل مسائل في الرياضيات والفلسفة وقام بحلها عالم مصري . واتى فردريك من سورية بمربين للعقبان وجعلهم يربون هذه الطيور . وكان ترجمانه ومنجمه تذوري (تيودور) وهو مسيحي يعقوبي من انطاكية ترجم له رسالة في تربية العقبان وكانت هذه الرسالة مع رسالة اخرى مترجمة عن الفارسية اساس مؤلف فردريك في هذا الموضوع وهو اول الكتب الحديثة في التاريخ الطبيعي. واستخلص تيودور

ايضاً رسالة في الصحة من كتاب سر الاسرار لارسطو المزعوم . وكان منجم البلاط قبله ميشيل سكوت الذي كان يمثل علوم اسبانيا الاسلامية في صقلية وايطاليا . وقد وضع لاجل فردريك خلاصة في اللاتينية لمؤلفات ارسطو في النبات والحيوان نقلها من العربية وبينها كتاب الحيوانات مع تعليقات ابن سينا واهداه الى الامبراطور فردريك . فبلاط فردريك اتصف بوجود روح البحث الحديث والتجارب ويشير الى بدء عصر النهضة في ايطاليا. وازدهر الشعر والادب والموسيقى في ايطاليا بتأثيرات من الحضارة العربية ومن بروفانس في جنوبي فرنسا . وكان الاهتمام بالشعر باللغة الدارجة من تأثير وتقليد الشعراء العرب والمغنين . واوزان الشعر القديم في ايطاليا كما تظهرها الاغاني Ballata تشبه الشعر الجماعي في الاندلس. ومن اهم نواحي فضل فردريك الثاني تأسيس جامعة نابولي في ١٢٢٤ وهي اول جامعة في اوربا تؤسس بموجب وثيقة معروفة. ووضعت في الجامعة مخطوطات عربية واستعملت فيها مؤلفات ارسطو وابن رشد المترجمة وارسلت نسخ من الترجمات الى جامعتي باريس وبولونيا . وفي القرن الرابع عشر وما بعده اهتموا بالدراسات العربية في عدة جامعات منها اكسفورد وباريس .

وكانت صقلية مناسبة لنقل المعلومات القديمة ومعارف العصور الوسطى العربية الى الغرب . فبين سكانها كان يوجد عنصر يوناني يستعمل اليونانية وعنصر اسلامي يتكلم العربية وعلماء يعرفون اللاتينية. وقد استعملت هذه اللغات في السجلات الرسمية والمراسم وبين سكان بالبرمو. وفي صقلية ترجم كتاب المجسطي في ١١٦٠ لاول مرة من اليونانية الى اللاتينية بمساعدة اوجين البالرمي وهو يوناني من صقلية يعرف العربية واللاتينية وذلك في عهد روجر الثاني ووليم الاول . وترجم اوجين كتاب الضوء Optica من العربية الى اللاتينية وهو كتاب منسوب الى بطليموس انما ضاع اصله اليوناني ، وساعد في ترجمة كليلة ودمنة من العربية الى اليونانية . وساهم يهود صقلية في حركة الترجمة كما فعلوا في اسبانيا . فمؤلف الرازي في الطب ترجمه الى اللاتينية

الطبيب اليهودي الصقلي فرج بن سليم في ١٢٧٩ برعاية شارل الاول من اسرة آنجو وانتقلت مخطوطات كثيرة من هذه الترجمة الى الاجيال التالية . غير ان معظم الترجمات كانت في الرياضيات والفلك . وبعض الكتب العربية واليونانية ترجمت ثانية وباتقان اكثر في طليطلة . وساعد الملوك النورمنديون باستيلائهم على جنوبي ايطاليا ايضاً في نقل عناصر الثقافة الاسلامية الى ايطاليا واوربا الوسطى . ومنذ القرن العاشر ظهرت آثار العلوم العربية شمالي الالب . واذا كانت كتابات دانتي عن العالم الآخر لم تؤخذ من كتاب عربي معين فانها على كل حال كانت من اصل شرقي . وهذا الضرب من الشرق واضح في عالم الفن كما في العلم والادب . فاسلوب ابراج الكنائس مأخوذ من اسلوب المآذن في شمالي افريقيا وخاصة مصر . وقد ازدهر الصناع والفنانون المسلمون بعد زوال الحكم الاسلامي من صقلية وجنوبي ايطاليا كما يتضح من فسيفساء الكنيسة البلاتينية في باليرمو وكتاباتها . وكان معمل الحياكة الذي اسسه الحكام المسلمون في القصر الملكي في باليرمو يعطي ملوك اوربا البسة رسمية عليها كتابات عربية . واول عمال النسيج الايطاليين حصلوا على معلوماتهم ونماذجهم من صقلية . وفي القرن الثالث عشر كان نسج الحرير قد اصبح الصناعة الرئيسية في مدن ايطالية كثيرة وصارت تصدر المنسوجات التي تقلد نسيج صقلية الى بلاد اوربا . وفي البندقية وفراري وبيزا كانت جاليات الصناع الشرقيين تعلم سكان البلاد كما في باليرمو . وكان طلب الالبسة الشرقية عظيما حتى ان الناس في اوربا لم يكونوا ليشعروا بان لباسهم لائق الا اذا استعملوا تلك الالبسة . واخذت الكتب المجلدة في المصانع الايطالية تتخذ شكلا شرقياً في القرن الخامس عشر عندما كانت البندقية تقلد الاساليب الاسلامية في الفن وتوزعها . وبعض خصائص التجليد العربي ومنها اللسان الامامي في الكتب اخذت تظهر في الكتب المسيحية . وتعلم الايطاليون وسائل زخرفة جلود الكتب من صناع شرقيين في المدن الايطالية . وكانت البندقية مركز صناعة تنزيل النحاس بالفضة والذهب . وعلى ذلك فالصقلية

كانت ذات مكانة هامة في نقل الحضارة الاسلامية وتأثيراتها .

اخذت اوربا عن حضارة العرب والاسلام الشيء الكثير بفضل هذه الاتصالات عن طريق سورية والحروب الصليبية والاندلس وصقلية واطلعت بواسطة العرب على خلاصة علوم المدنيات القديمة من هندية وفارسية ويونانية ونقلها الى اللاتينية. وكان انتقال آثار المدنية العربية الى الغرب مع ما رافقها من آثار المدنيات الاخرى من العوامل التي ادت الى النهضة الاوربية في مطلع العصور الحديثة .

مراجع الباب الرابع (١)

١) مؤلفات حديثة عامة عن الحضارة العربية :

احمد امين	فجر الاسلام	القاهرة	١٩٣٣
« «	ضحى الاسلام	«	١٩٣٥
« «	ظهر الاسلام	«	١٩٤٥
حسن ابراهيم حسن	تاريخ الاسلام السياسي	«	١٩٣٥
جرجي زيدان	تاريخ التمدن الاسلامي	«	١٩٠٦
الخضري	محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية	«	١٣٥٤هـ
جماعة من المؤلفين	نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية	«	١٩٣٨
محمد كرد علي	الاسلام والحضارة العربية	«	١٩٣٦
جورج حداد وراتب الحسامي	مختصر تاريخ الحضارة العربية	دمشق	١٩٥٢

(١) سوف لا نضع في جدول المراجع جميع المؤلفات التي ورد ذكرها في الفصول السابقة وهوامشها كما أنه يتعذر وضع جميع آثار العرب الادبية والفكرية التي أوردناها في المتن وسنقتصر على أهم ما كتب عن الحضارة العربية مع بعض المراجع الاولية .

Brockelmann,C. Geschichte der arabischen Litteratur.Weimar 1898-1902. Supplement, Leiden 1937-42.

Arnold, T. W. and Guillaume, A. (Ed.) The Legacy of Islam.

ترجمته لجنة الجامعيين لنشر العلم بعنوان : تراث الاسلام . القاهرة ١٩٣٦ .

Encyclopedia of Islam. Leiden 1913-34.

Gibb and Kramers (Ed.) Shorter Encyclopedia of Islam.1953.

Gibb, H. A. R. Mohammedanism. 1950.

Gabrieli, F. Storia et civilta musulmana. Rome 1947.

» » Manuale de bibliografia musulmana. Rome 1916.

Faris, N. (Ed.) The Arab Heritage. Princeton, 1944.

Hell, J. The Arab Civilization. Transl. by Khuda Bukhsh. Cambridge, 1926.

Hitti, Ph. History of The Arabs. 5 th ed. London, 1951.

ترجمه ادورد جرجي وجبرائيل جبور بعنوان تاريخ العرب (المطول)بيروت ١٩٤٨ — ١٩٥١ .

Mez. A. The Renaissance of Islam. London 1937.

ترجمه عبد الهادي ابو ريدة بعنوان الحضارة الاسلامية في القرن الرابع . القاهرة ١٩٤٠ .

Massé, H. L'Islam. Paris, 1930.

Nicholson,R.A. Literary History of the Arabs. Cambridge 1930.

Rosenthal, F. The Technique and Approach of Muslim Scholarship. 1947.

Sauvaget, J. Introduction à l'histoire de l'orient musulman, éléments de bibliographie. Paris, 1946.

Sarton, G. Introduction to the History of Science. Baltimore, 1927.

Syed Amir Ali. History of the Saracens.

ترجمه رياض رأفت بعنوان مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي . القاهرة ١٩٣٨ .

Von Grunebaum, G. Medieval Islam. Chicago, 1946.

Von Kremer. Kultur-Geschichte des Orients unter den Chalifen.

ترجمه خدابخش الى الانكليزية ومصطفى طه بدر الى العربية بعنوان الحضارة الاسلامية . القاهرة ١٩٤٧ .

٢) مراجع اولية ومؤلفات حديثة عن حضارة العرب قبل الاسلام :

نشوان بن سعيد الحميري . كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم . تحقيق زترستين . ليدن ١٩٥١ .

الهمداني . الاكليل . ترجم الجزء الثامن منه نبيه فارس بعنوان :

The Antiquities of South Arabia. Princeton, 1938.

الهمداني . صفة جزيرة العرب .

هشام الكلبي . كتاب الاصنام . نشره أحمد زكي باشا . القاهرة ١٩١٤ .

حمزة الاصفهاني . تاريخ سني ملوك الارض والانبياء . ترجمه الى اللاتينية Gottwaldt ، ١٨٤٨ .

نولدكه ، تيودور . امراء غسان من آل جفنة . ترجمه عن الالمانية بندلي جوزي وقسطنطين زريق . بيروت ١٩٣٣ .

جواد علي . تاريخ العرب قبل الاسلام . بغداد ١٩٥٢ .

سعيد الافغاني . أسواق العرب في الجاهلية والاسلام . دمشق ١٩٣٧ .

Cantineau. Inventaire des inscriptions de Palmyre. 1930.

Starcky. J. Palmyre. Paris. 1953.

Février, J. Histoire politique et économique de Palmyre. Paris 1931.

Lammens, H. La Mecque à la veille de l'hégire. Beyrouth 1924.

» » L'Arabie occidentale avant l'hégire.

Ryckmans, J. L'Institution monarchique en Arabie méridionale avant l'Islam. 1951.

Kammerer, A. Petra et la Nabatène. Paris, 1929.

٣) مراجع اولية وعربية عن الحياة الادارية والاجتماعية والاقتصادية:

ابو يوسف — كتاب الخراج — مصر ١٣٠٢هـ

الماوردي — الاحكام السلطانية — « ١٢٩٨هـ

ابن طباطبا — الفخري في الآداب السلطانية — القاهرة ١٣١٩هـ

الجهشياري — كتاب الوزراء والكتاب — « ١٩٣٨

الطبري — تاريخ الرسل والملوك. نشره دي غويه — ليدن ١٨٧٩–١٩٠١
ترجم قسماً منه H. Zotenberg
(Chroniques) — باريس ١٨٦٧

اليعقوبي — تاريخ اليعقوبي نشره Houtsma — ليدن ١٨٨٣

ابن قتيبة — عيون الاخبار (نشره بروكلمن برلين ١٩٠٠) — القاهرة ١٣٤٣هـ

البلاذري — فتوح البلدان — مصر ١٣١٩هـ
ترجمه الى الانكليزية فيليب حتي — نيويورك ١٩١٦

المسعودي — مروج الذهب ومعادن الجوهر — القاهرة ١٣٠٣هـ
ترجمه الى الفرنسية دي مينار
ودي كورتي — باريس ١٨٦١–٧٧

مسكويه — تجارب الامم — مصر ١٩١٤
نشر معظمه وترجمه مرجليوث
واميدروز — اكسفورد ١٩٢٠

ابن الاثير — الكامل في التاريخ — مصر ١٢٧٤هـ

ابو الفدا — المختصر في تاريخ البشر — القسطنطينية ١٢٨٦هـ

ابن خلكان	وفيات الاعيان	مصر	١٣١٠هـ
ابن عساكر	تاريخ مدينة دمشق		
	بدأ بنشره صلاح الدين المنجد	دمشق	١٩٥١
السيوطي	حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة	مصر	١٣٢٧هـ
القلقشندي	صبح الاعشى في صناعة الانشا	مصر	١٩١٣–٢٢
ابن خلدون	المقدمة	مصر	١٩٣٠
	نشرها Quatremère في باريس ١٨٥٨ وترجمها de Slane	باريس	١٨٦٨
ابن خلدون	كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر	القاهرة	١٢٨٤هـ
المقريزي	المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار	بولاق	١٣٧٠هـ
	كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك بدأ بنشره محمد مصطفى زيادة	القاهرة	١٩٣٤
ابو المحاسن بن تغري بردي	النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (نشره Popper)	بركلي	١٩٠٩
	بدأت بنشره دار الكتب الكبرى	مصر	١٩٢٩
اسامة بن منقذ	كتاب الاعتبار نشره فيليب حتي وترجمه الى الانكليزية	برنستون	١٩٣٠
ناصري خسرو	الرحلة . نشرها شيفر	باريس	١٨٨١
ابن العديم	زبدة الحلب من تاريخ حلب . نشره سامي الدهان	دمشق	١٩٥١
ابو شامة	كتاب الروضتين في اخبار الدولتين		

القاضي بن واصل مفرج الكروب في اخبار بني أيوب .
نشره جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٥٣
ياقوت معجم البلدان. نشره وستنفلد ايبزك ١٨٦٦
محمد بن طولون اعلام الورى عمن ولي نائباً من الاتراك
بدمشق الكبرى. ترجمه هنري لاوست دمشق ١٩٥٢
جعفر بن علي الدمشقي كتاب الاشارة الى محاسن التجارة القاهرة ١٣١٨هـ
احمد بن ماجد الفوائد في أصول البحر والقواعد .
نشره Ferrand باريس ١٩٢١
ابن القلانسي تاريخ دمشق . نشره اميدروز ليدن ١٩٠٨
ترجم قسماً منه Le Tourneau الى دمشق ١٩٥٢
الفرنسية وترجم قسماً منه H.A.R. Gibb
الى الانكليزية لندن ١٩٣٢
ابو الفرج بن العبري تاريخ مختصر الدول بيروت ١٨٩٠
ابن القوطية تاريخ افتتاح الاندلس مدريد ١٨٦٨
(ترجمه ريبيرا ١٩٢٦)
ابن عذاري المراكشي البيان المغرب في اخبار الاندلس
والمغرب . نشره دوزي ليدن ١٨٤٨
نشره ثانية كولان وليفي بروفنسال ليدن ١٩٤٨
عبد الواحد المراكشي المعجب في تلخيص اخبار المغرب
نشره دوزي ليدن ١٨٨١
وترجمه الى الفرنسية Fagnan ١٨٩٣
الزركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تونس ١٢٨٩هـ
ابن ابي دينار المؤنس في أخبار افريقيا وتونس تونس ١٢٨٦هـ
لسان الدين بن الخطيب الاحاطة في أخبار غرناطة القاهرة ١٣١٩هـ

المقري	نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب	مصر	١٣٠٢هـ
المقدسي	احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم	ليدن	١٩٠٦
الاصطخري	مسالك الممالك	ليدن	١٨٧٠
ابن خرداذبه	المسالك والممالك	ليدن	١٨٨٩
ابن حوقل	المسالك والممالك والمفاوز والمهالك	ليدن	١٨٧٣
الادريسي	نزهة المشتاق في اختراق الآفاق		
	نشره Amari و Schiaparelli	رومة	١٨٧٨
ابن جبير	الرحلة (ترجمها الى الانكليزية		
	Broadhurst لندن ١٩٥٢)	ليدن	١٩٠٧
	نشر هذه الكتب الجغرافية دي غويه		
	بعد ١٨٨٥ في ليدن في مجموعة سماها:		
	Bibliotheca geographorum		
	Arabicorum		
ابن بطوطة	تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب		
	الاسفار	مصر	١٣٢٢هـ
	نشرت ايضاً في باريس		١٨٧٩–٩٣
البيروني	الآثار الباقية عن القرون الخالية		
	نشره وترجمه سخاو	ليبزك	١٨٧٩
البيروني	تحقيق ما للهند من مقولة		
	نشره وترجمه سخاو	لندن	١٨٨٨
حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن	النظم الاسلامية	القاهرة	١٩٣٩
البرقوقي	حضارة العرب في الاندلس	مصر	١٩٢٣
علي ابراهيم حسن	تاريخ المماليك البحرية	مصر	١٩٤٤
شفيق جبري	دراسة الاغاني	دمشق	١٩٥١

شكيب ارسلان تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا القاهرة ١٩٣٣

زكي محمد حسن الرحالة المسلمون في العصور الوسطى القاهرة ١٩٤٥

نقولا زيادة رواد الشرق العربي القاهرة ١٩٤٣

شكري فيصل المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري القاهرة ١٩٥٢

» حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول الهجري القاهرة ١٩٥٢

صالح احمد العلي التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري بغداد ١٩٥٣

محمد كرد علي خطط الشام دمشق ١٩٢٨

Atiya, A. S. The Crusades in the latter Middle Ages. London, 1938.

Ahmad, Mahmud. Economics of Islam. Lahore, 1952.

Arnold, T. W. The Caliphate. Oxford, 1924.

Amari, M. Bibliotheca Arabo-Sicula. Leipzig 1855-57.

» » Storia dei Musulmani di Sicilia. 1933.

Barker. The Crusades. London, 1925.

Blachère, R. Extraits des principaux géographes arabes du moyen âge. Paris, 1932.

Dozy, R. Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes. 1845.

Dozy, R. Histoire des Musulmans d'Espagne. ed. Lévi-Provençal Leyden, 1932.

Fischel, W. Ibn Khaldun and Tamerlane. Berkely, 1952.

Canard, M. Histoire de la dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie. Paris, 1953.

Fahmy, A.M. Muslim sea power in the Eastern Mediterranean from the 7th to the 10th cent. 1950.

Grousset, R. Histoire des croisades. Paris, 1934.

Gaudefroy-Demombynes. La Syrie à l'époque des Mamelouks. Paris, 1923.

Hamidullah, M. Muslim conduct of state. Lahore, 1953.

Hussain, Mirza M. Islam and Socialism. Lahore, 1947.

Hitti, Ph. History of Syria. London, 1951.

Hourani, G. F. Arab seafaring in the Indian ocean in ancient and early medieval times. Princeton, 1951.

Hasan, Zaki M. Les Tulunides. Paris, 1933.

Houtsma. Recueil de textes relatifs à l'histoire des Seldjoukides Leyden, 1886-1902.

Le Strange. Baghdad during the Abbasid caliphate. Oxford, 1924.

Levy, R. An Introduction to the sociology of Islam. London, 1931.

Lévi-Provençal. Histoire de l'Espagne musulmane. 3 vols. Paris, 1950-53.

» » La civilisation arabe en Espagne. Paris, 1948.

» » L'Espagne musulmane au X me siècle. Paris, 1931.

Muir, W. The Mameluke or slave dynasty of Egypt. London, 1896.

Nizam, M. The Life and Times of Sultan Mahmud of Ghazna. Cambridge, 1931.

O'Leary, D. A Short History of the Fatimid Caliphate. London, 1923.

Recueil des historiens des croisades. 16 vols. Paris, 1841.

Runciman. The Crusades. 1952.

Sinhouri, Abdurrazzak. Le Califat. Paris, 1926.

Stevenson. The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Sauvaget, J. Alep. Paris, 1941.

Tritton A. S. The Caliphs and their Non-Muslim Subjects. London, 1930.

Voyage du marchand arabe Sulayman en Inde et en Chine. Trad. G. Ferrand. Paris, 1922.

Ziadeh, Nicola. Urban Life in Syria under the Early Mamluks. Beirut, 1953.

٤) مراجع اولية وحديثة عن الحياة الفكرية:

الشهرستاني — الملل والنحل — مصر ١٣٤٧هـ

ابن حزم — الفصل في الملل والاهواء والنحل — مصر ١٣٤٧هـ

تقي الدين احمد بن تيمية — السياسة الشرعية ترجمة هنري لاوست — دمشق ١٩٤٨

ابن حجر العسقلاني — الاصابة في تمييز الصحابة — القاهرة ١٣٢٣هـ

النوبختي — فرق الشيعة. نشره ريتر — الاستانة ١٩٣١

الطبري — جامع البيان في تفسير القرآن. ٣٠ مجلد

البيضاوي — انوار التنزيل واسرار التأويل

الغزالي — احياء علوم الدين

المعري — رسالة الغفران نشرها كامل الكيلاني — القاهرة ١٩٢٣

رسائل اخوان الصفا — نشرها خير الدين الزركلي — القاهرة ١٩٢٨

ابن رشد تهافت التهافت نشره Bouyges بيروت ١٩٣٠

ابن رشد تلخيص كتاب المقولات نشره Bouyges بيروت ١٩٣٢

ابن ميمون دلالة الحائرين باريس ١٨٥٦

محيي الدين بن العربي الفتوحات المكية مصر ١٢٩٣هـ

المجريطي الرسالة الجامعة تحقيق جميل صليبا دمشق ١٩٤٨

الفارابي رسالة في آراء اهل المدينة الفاضلة مصر ١٣٢٣هـ
نشرها ديتريسي في مجموعة «فلسفة العرب» ليدن ١٨٩٥

الفارابي كتاب الموسيقى الكبير نشره وترجمه
ديتريسي باريس ١٩٣٠

موفق الدين بن قدامة كتاب العمدة في احكام الفقه
ترجمه لاوست بيروت ١٩٥٠

ابن النديم كتاب الفهرست مصر ١٣٤٨هـ وليبزك ١٨٧٢

ابو الفرج الاصفهاني الاغاني مصر ١٩٠٦

القفطي اخبار العلماء باخبار الحكماء مصر ١٣٢٦هـ وليبزك ١٩٠٣

ابن ابي اصيبعة عيون الانباء في طبقات الاطباء مصر ١٨٨٢
وكونغسبرغ ١٨٨٤

ابو بكر بن المنذر البيطار كامل الصناعتين البيطرة والزرطقة باريس ١٨٥٢

عبدالله بن احمد بن البيطار الجامع في الادوية المفردة القاهرة ١٢٩١هـ
ترجم الى الالمانية ١٨٤٠ والفرنسية ١٨٧٧

عبدالله بن محمد بن الفرضي تاريخ علماء الاندلس مدريد ١٨٨٢

ابن بشكوال الصلة في تاريخ ائمة الاندلس مدريد ١٨٨٢

الاصمعي كتاب الخيل فينا ١٨٩٥

التيفاشي ازهار الافكار في جواهر الاحجار فلورنسة ١٨١٨

علي الطبري فردوس الحكمة، نشره محمد صديقي برلين ١٩٢٨

الرازي — رسالة عن الجدري والحصبة . نشرها كرنيليوس فان ديك — بيروت ١٨٧٢

علي بن عيسى — تذكرة الكحالين — شيكاغو ١٩٣٦

جماعة من المستشرقين — التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية (معرب) — مصر ١٩٤٠

جميل صليبا — من افلاطون الى ابن سينا . طبعة رابعة — دمشق ١٩٥١

خليل طوطح — فضل العرب على التعليم — القدس ١٩٣٥

نشره اصلاً بالانكليزية — نيويورك ١٩٢٦

اسماعيل مظهر — تاريخ الفكر العربي — مصر ١٩٢٨

قدري طوقان — تراث العرب العلمي في الرياضيات — مصر ١٩٤٠

» » — تراث العرب العلمي — مصر ١٩٤١

عمر فروخ — عبقرية العرب في العلم والفلسفة — بيروت ١٩٥٢

» » — أثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الأوربية — بيروت ١٩٥٢

» » — دراسات قصيرة عن ابن خلدون ، الفارابي ، ابن سينا ، اخوان الصفا ، ابن باجه ، ابن طفيل ، التصوف في الاسلام ، الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب — بيروت

ساطع الحصري — دراسات عن ابن خلدون — بيروت ١٩٤٣

محمد عبدالله عنان — تاريخ الجامع الأزهر — القاهرة ١٩٤٢

Asin, Miguel. Islam and the Divine Comedy. Tr. Sunderland.
» » Abenmasarra y su escuela.origenes de la filosofia hispano-musulmana. Madrid, 1914.
Arberry, A. J. Sufism. 1950.
Carra de Vaux. Les penseurs de l'Islam. Paris, 1923.
Daudpota, U. M. The influence of Arabic poetry on the development of Persian poetry. Bombay, 1934.
Abbott, Nabia. A ninth century fragment on the Thousand Nights (Reprint from Journal of Near Eastern studies). Chicago, July 1949.
Browne, Edward G. Arabian Medicine. Cambridge, 1921.
Dussaud, R. Histoire et religion des Nosairis. Paris, 1900.
Donaldson, D. M. Studies in Muslim Ethics. 1953.
Dozy et Engelmann. Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'Arabe. Leyden, 1869.
Derenbourg. Les manuscrits arabes de l'Escurial. Paris, 1884-1903.
Gabrieli. La poesia arabe et la poesia occidentale.
De Boer. T.J. The history of philosophy in Islam.London1903.
عربه محمد عبد الهادي ابو ريدة بعنوان تاريخ الفلسفة في الاسلام. القاهرة ١٩٣٨.
Gaudefroy-Demombynes. Les institutions musulmanes. Paris, 1921.
Guillaume, Alfred. The Traditions of Islam. Oxford, 1924.
Gibb, H. A. R. Arabic Literature. London, 1926.
Goldziher, I. Le dogme et la loi de l'Islam. Paris, 1920.
Hatem, Anouar. Les poèmes épiques des croisades.Paris.1932.
Hitti, Ph. The Origins of the Druze People and Religion.New-York, 1928.
Ivanow. A Guide to Ismaili Literature. London, 1933.

Kinany, A.Kh. The Development of Gazal in Arabic Literature. Damascus, 1951.

Khairallah, A. A. Outline of Arabic contributions to medicine and the allied sciences. 1946.

Hammond, R.The philosophy of al-Farabi and its influence on medieval thought. 1947.

Laoust, H. Essai sur les doctrines sociales et politiques d'Ibn-Taimiya. Le Caire, 1939.

Lokotsch, K. Etymologisches Worterbuch des europaischen Worter Orientalischen Ursprungs. Heidelberg, 1927.

Lewis, B. The Origins of Ismailism.

Lammens, H. L'Islam, croyances et institutions. Beyrouth, 1929.

Leclerc, L. Histoire de la médecine arabe. Paris, 1876.

Macdonald, D. B. The religious attitude and life in Islam. Chicago, 1909.

Maccarthy, R. I. The Theology of Al-Ashari.

Margoliouth, D. S. Lectures on Arab Historians. Calcutta, 1930.

Massignon, L. La passion d'al-Hallaj. Paris, 1914.

Nykl, A. R. A compendium of aljamiado literature. Paris, 1928.

» » Hispano-Arabic poetry and its relation with the old provincial troubadours. Baltimore, 1946.

O'Leary, D. How Greek science passed to the Arabs. London, 1951.

Quadri, G. La philosophie arabe dans l'Europe médiévale des origines à Averroès. Paris, 1947.

Renan, E. Averroès et l'averroïsme Paris, 1861.

Rosenthal. A history of Muslim historiography. 1952.

Nicholson, R. A. Studies in Islamic mysticism. Cambridge, 1921.

Smith, Margaret. Rabia the mystic and her fellow saints in Islam. Cambridge, 1928.

Suter. Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke. Leipzig, 1900.

Syed Amir Ali. The Spirit of Islam.

Talas, A. La madrasa Nizamiya et son histoire. Paris, 1939.

Ulken, H. Z. La pensée de l'Islam. 1953.

Von Grunebaum, G.Greek form elements in the ArabianNights (Journal of the American Oriental Society). 1942.

Watt, W. M. The faith and practice of al Ghazzali. 1953.

Wustenfeld, F.Geschichtschreiber der Araber und ihreWerke. Gottingen, 1882.

Wustenfeld, F. Die Ubersetzungen Arabischer Werke seit dem XI Jahrh. Gottingen, 1877.

٥) مراجع حديثة عن الحياة الفنية :

احمد تيمور باشا — التصوير عند العرب — القاهرة ١٩٤٣

طنطاوي جوهري — الموسيقى العربية — » ١٩١٤

زكي محمد حسن — الفن الاسلامي في مصر — » ١٩٣٥

» » » — الفنون الايرانية في العصر الاسلامي — » ١٩٤٠

» » » — كنوز الفاطميين — » ١٩٣٧

» » » — التصوير في الاسلام — » ١٩٣٦

» » » — فنون الاسلام — » ١٩٤٨

دانيال شلومبرجه — قصر الحير الغربي (معرب عن الفرنسية) . بيروت .

Creswell, K. A. C. Early Muslim Architecture. Oxford 1932-40.
» » The Muslim architecture of Egypt. 1952.
Dimand, M. S. A handbook of Mohammedan decorative arts. New-York 1930.
Arnold, T. W. Painting in Islam. Oxford, 1928.
Farmer, H. A history of Arabian music. London, 1929.
» » Studies in Oriental musical instruments. London, 1931.
Hautecœur, L et Wiet, G. Les Mosquées du Caire. Paris,1932.
Deschamps,P.Les châteaux des Croisés en Terre Sainte.2 vols. Paris 1935 et 1940.
Enlart, C. Les monuments des croisés dans le Royaume de Jérusalem. 2 vols. Paris 1925-7.
Fedden, R. Crusader castles.
Ecochard et Sauvaget. Les monuments ayyoubides de Damas. Paris 1938-40.
Kieswetter. Die Musik der Araber. Leipzig. 1842.
Mayer, L. Saracenic Heraldry. 1933.
Herzfeld, E. Die Malereien von Samarra. Berlin, 1928.
Migeon, G. Les arts musulmans. Paris, 1926.
Lawrence, T. E. Crusader castles. 1936.
Ribera,J.Historia de la musica arabe medieval y su influencia en la espanola. Madrid 1927.
Saladin et Migeon. Manuel d'art musulman. Paris, 1907.

محتويات الكتاب

الباب الثاني

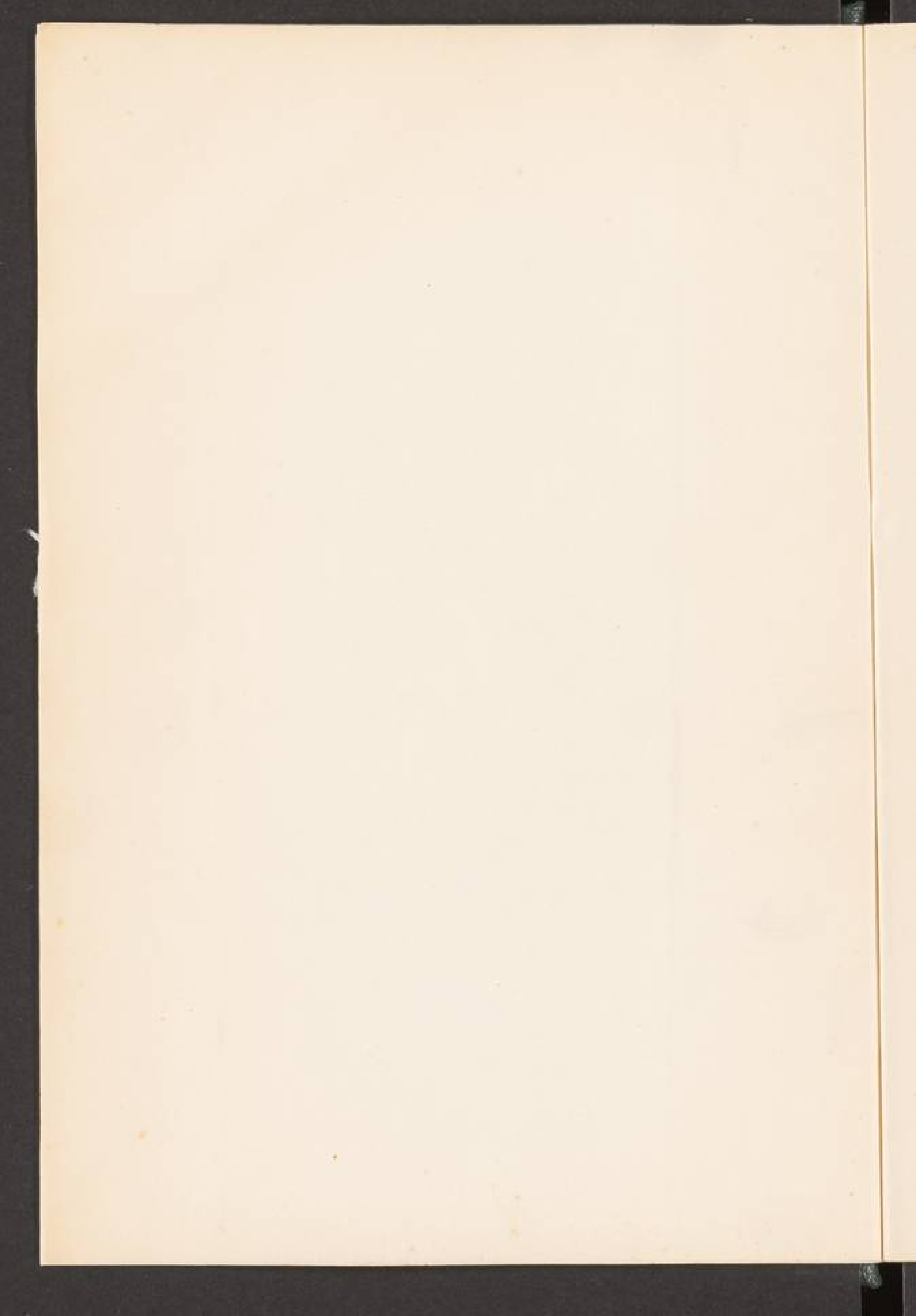
حضارة الهند والشرق الأقصى

الباب الثالث

الحضارتان الايرانية والبيزنطية

الباب الرابع

الحضارة العربية



— ٥٨٠ —



